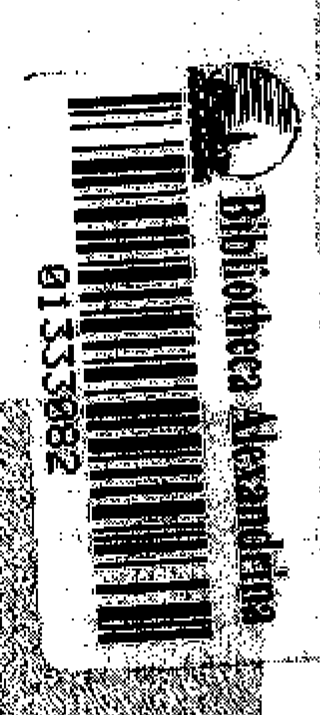
الكتب التاريخية

تاريخ المغرب العربي

٢

تاريخ دول الأغالبة والرستميين وبني مدرار والأدارسة
حتى قيام الفاطميين

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد



الناشر المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه

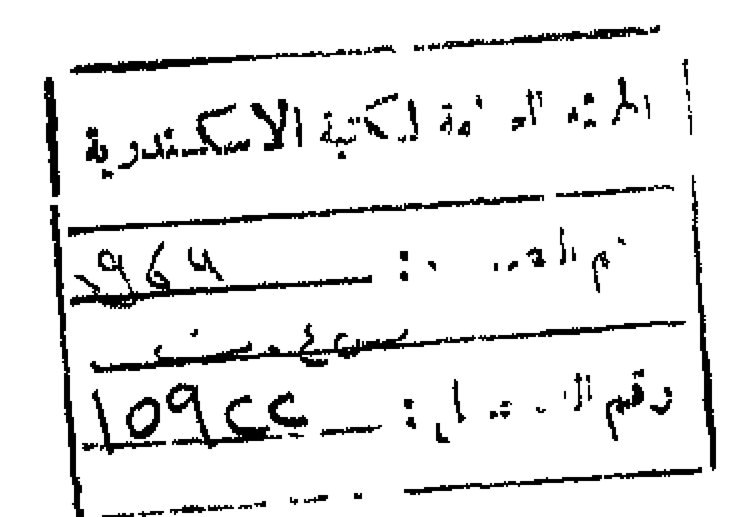
تاريخ المغرب العربي

الجزء الثاني

تاريخ دول الأغالبة والرستميين وبني مدرار والأدارسة
حتى قيام الفاطميين

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الإسكندرية سابقاً
أستاذ بكلية الآداب بجامعة الكويت





الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزى

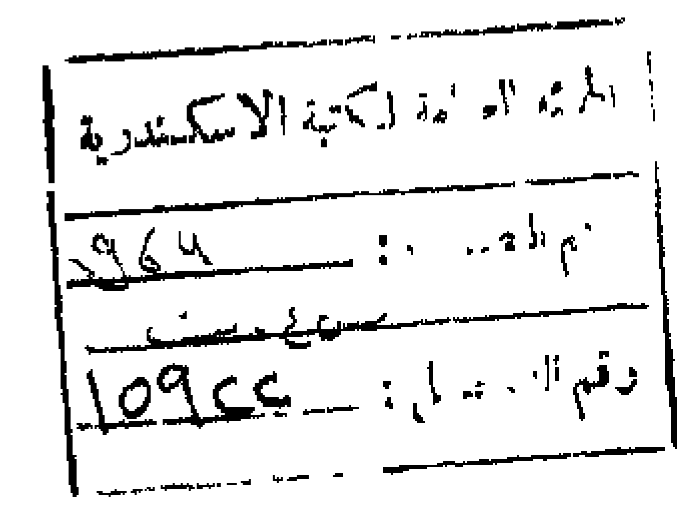
تاريخ المغرب العربي

الجزء الثاني

تاريخ دول الأغالبة والرستميين وبني مدرار والأدارسة حتى قيام الفاطميين

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الإسكندرية سابقا
أستاذ بكلية الآداب جامعة الكويت





الناشر منشأة المعارف
جلال حزي

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب

«قرآن كريم / سورة يوسف»
آية ١١١

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب

«قرآن كريم ، سورة يوسف»
آية ١١١

المقدمة

هذا هو الجزء الثاني من كتابنا : « تاريخ المغرب العربي » من الفتح الى قيام الدولة الفاطمية ، وهو يتناول الفترة الخاصة بدول الأغالبة ، والرستميين ، والمدراريين ، والأدارسة حتى قيام الدولة الفاطمية ، واعلان خلافة المهدي عبيد الله ٠

وهنا أود أن أضيف هامشا الى موضوع المصادر ٠ ففي الفترة التي كنا نقدم فيها الكتاب الى المطبعة ، وفقت الدكتورة نبيلة حسن ، مدرسة التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، الى كشف هام في مصادر تاريخ الأندلس ٠ فلقد تعرفت على الجزء من كتاب « المقتبس » لابن حيان مما يعالج تاريخ الأندلس من سنة ١٨٠ هـ الى سنة ٢٣٢ هـ ، وذلك بين المخطوطات المصورة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ٠

ولقد اطلعتنا على المخطوط الثمين وتزودنا منه ببعض النصوص الخاصة بالعلاقة بين دول المغرب (العدوة) ، في تلك الفترة ، وبين الأندلس ٠ وكنا قد اكتفينا بالاشارة الى بعضها مما يوجد بالفرنسية في كتاب الأستاذ ليفي بروفنسال في « تاريخ اسبانيا الاسلامية » ٠

ومع تهنئتي للدكتور نبيلة حسن بكشفها الهام ، أرجو أن تتم متعة الفائدة ، بتيسير لها اخراج المخطوطة الثمينة محققة مدروسة في وقت قريب٠

وبهذه المناسبة أحب أن أكرر ما سبق أن سجلته من الشكر في المقدمة (ج ١ ص ١٠ ـ ١١) لكل من عاونني في اخراج هذا الكتاب ، من : الدكتورة نبيلة حسن ، والدكتور محمدعبدالعال أحمد ، الى الأستاذين محمد عبد العزيز ويوسف شكري ، وكذلك الناشر السكندري الأستاذ جلال حزى ٠

والأمل أن يوفقنا الله في اخراج الجزء الثالث من الكتاب ، في : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب : من الأئمة وخلفائهم في المغرب ، الى الهجرة الهلالية ـ انه نعم المولى ونعم النصير ٠

سعد زغلول عبد الحميد

الكويت في ١٩٧٩/٣/٨

المقدمة

هذا هو الجزء الثاني من كتابنا « تاريخ المغرب العربي » من الفتح الى قيام الدولة الفاطمية ، وهو يتناول الفترة الخاصة بدول الأغالبة ، والرستميين ، والمدراريين ، والأدارسة حتى قيام الدولة الفاطمية ، واعلان خلافة المهدي عبيد الله ٠

وهنا أود أن أضيف هامشا الى موضوع المصادر ٠ ففي الفترة التي كنا نقدم فيها الكتاب الى المطبعة ، وفقت الدكتورة نبيلة حسن ، مدرسة التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، الى كشف هام في مصادر تاريخ الأندلس ٠ فلقد تعرفت على الجزء من كتاب « المقتبس » لابن حيان مما يعالج تاريخ الأندلس من سنة ١٨٠ هـ الى سنة ٢٣٢ هـ ، وذلك بين المخطوطات المصورة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ٠

ولقد اطلعتنا على المخطوط الثمين وتزودنا منه ببعض النصوص الخاصة بالعلاقة بين دول المغرب (العدوة) ، في تلك الفترة ، وبين الأندلس ٠ وكنا قد اكتفينا بالاشارة الى بعضها مما يوجد بالفرنسية في كتاب الأستاذ ليفي بروفنسال في « تاريخ اسبانيا الاسلامية » ٠

ومع تهنئتي للدكتور نبيلة حسن بكشفها الهام ، أرجو أن تتم منه الفائدة ، فيتيسر لها اخراج المخطوطة الثمينة محققة مدروسة في وقت قريب٠

وبهذه المناسبة أحب أن أكرر ما سبق أن سجلته من الشكر في المقدمة (ج ١ ص ١٠ ـ ١١) لكل من عاونني في اخراج هذا الكتاب ، من : الدكتورة نبيلة حسن ، والدكتور محمدعبدالعال أحمد ، الى الأستاذين محمد عبد العزيز ويوسف شكري ، وكذلك الناشر السكندري الأستاذ جلال حزي ٠

والأمل أن يوفقنا الله في اخراج الجزء الثالث من الكتاب ، في : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب : من الأئمة وخلفائهم في المغرب ، الى الهجرة الهلالية ـ انه نعم المولى ونعم النصير ٠

سعد زغلول عبد الحميد

الكويت في ١٩٧٩/٣/٨

محتويات الجزء الثانى

الفصل الأول

قيام الأغالبة فى القيروان ، ص ٢٥

محتويات الجزء الثانى

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الدولة الرستمية ، ص ٢٨٧

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الخريطة السياسيه الحضاريه لبلاد المغرب
فى اواخر القرن الـ ٣ هـ/٩ م ص ٤٨٠

الفصل السابع

قيام الدولة الفاطمية

واعادة الوحدة الى بلاد المغرب تحت رايات آل البيت من الحسينيين ، ص ٥٢٩

الأشكال والخرائط

تاريخ المغرب العربي
من الفتح إلى قيام الدولة الفاطمية

الجزء الثاني

١ ـ دولة الأغالبة فى افريقية : من ابراهيم الأول الى زيادة الله الثـــالث (١٨٤ هـ/٨٠٠ م ـ ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م)

٢ ـ صقلية الأغلبية : من الفتح الى نهـــاية الأغالبة (٢١٢ هـ/٨٢٧ م ـ ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م)

٣ ـ امامة الرستميين فى تاهرت وجبل نفوسة (١٦١/٧٧٧ م ـ ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م)

٤ ـ امامة بنى واسول المدراريين الصفرية فى سجلماسـة (١٤٠ هـ/٧٥٧ م ـ ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م)

٥ ـ مملكة الأدارسة فى فاس والمغرب الأوسط (١٧٢ هـ/٧٨٩ م ـ ٣٠٥هـ/ ٩١٧ م)

٦ ـ خريطة المغرب السياسية الحضارية اواخر القرن الـ ٣ هـ/٩ م

٧ ـ قيام الدولة الفاطمية وتوحيد المغرب تحت راية المهدى : « خليفة الله ، امير المؤمنين » (٢٨٠ هـ/٧٩٧ م ـ ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م)

انقسام المغرب الى أربع دول

بقيام دولة الأغالبة انقسم المغرب بين ثلاث دول كبرى : أقدمها دولة الرستميين الخوارج في المغرب الأوسط ، وأوسطها دولة العلويين الأدارسة في المغرب الأقصى ، وأحدثهما دولة الاغالبة السنية في افريقية والمغرب الادنى بصرف النظر عن دولة سجلماسة الصحراوية وهي الرابعة . وكان ذلك بداية عهد جديد بالنسبة للمغرب العربي . فعلى عكس ما كان يظن من أن قيام ثلاث دول تعتنق مذاهب سياسية دينية متعادية قد يزيد في اضطراب المغرب ، عرفت البلاد نوعا من الاستقرار بفضل ذلك الوضع الجديد ، ترتب عليه زيادة انتشار الاسلام في البلاد ، وأدى الى ما يمكن أن يسمى بعصر النهضة .

فرغم ما في التفتت من عوامل الضعف ، ورغم ما في التقسيم من أسباب الخلاف والفرقة فان الوضع الجديد عمل على أن يكون لكل من الأقاليم الثلاثة شخصيته الذاتية وطابعه المميز ، وأوجد نوعا من اللامركزية في القيام بالعمل الحضاري الذي كان هدف العروبة والاسلام . فلقد أسهم كل من الأقاليم بنصيبه في هذا العمل ، وقام به جنبا الى جنب مع الآخرين — من غير قصد — خير قيام . ولقد ساعد على ذلك — رغم ما بين هذه القوى الثلاث من المنافسة — أنها لم تعدم أوجها من الشبه فيما بينها : من ذلك أنها مشرقية الأصل ، ولهذا الامر أهمية كبرى . فرغم استقلالها السياسي عن الخلافة ، فانها ظلت مرتبطة بالمشرق عن طريق تيار من الهجرة المستمرة ، التي كان يحمل من المشرق الى المغرب نخبا ممتازة من أقارب الأسر الحاكمة ومن بني جلدتها ، ومن أعوانها ومعتنقي أفكارها السياسية والمذهبية . هذه الهجرة كانت تؤكد الاتصال بين المغرب المتطرف وبين مركز الخلافة وبلاد العرب ، تماما كما كان الحال بين المشرق العباسي وبلاد الأندلس الأموية — رغم ما بين الأسرتين من العداء المرير .

الفصل الأول

قيام الأغالبة فى القيروان

من إبراهيم الأول إلى زيادة الله الثالث

(١٨٤هـ/٨٠٠م - ٢٩٦هـ/٩٠٨م)

ابراهيم بن الأغلب .

مؤسس الدولة الاغلبية هو ابراهيم بن الإغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي . ووالده الأغلب الذي كان من جند مصر أصله من أهـل مرو الروذ ، بمعنى أنه كان من الجند العربي الخراساني الذي وفد مع القوات العباسية الى مصر . وأصبح من جندها(١) . ودخل الاغلب افريقية في قوات محمد بن الاشعث سنة ١٤٤ هـ/٧٦١ م ، وعهد اليه المنصور بولاية افريقية في أواخر سنة ١٤٨ هـ/أواخر ٧٦٥ م وأوائل ٧٦٦ م ، ومات بضربة سهم في سنة ١٥٠ هـ/٧٦٧ م ، ولهذا عرف بـ « الشهيد »(٢) . وكان ابراهيم حين مات والده ابن عشر سنين(٣) . ولا نعرف ما اذا كان في القيروان في ذلك الوقت أم في مصر ، اذ يذكر الكتاب أنه قضى صـبـاه في الدرس والتحصيل بالفسطاط ، وأنه كان يحضر مجالس فقيه مصر الأشهر الليث بن سعد . وقد أعجب الليث بجد ابراهيم واجتهاده ، وبما تميز به من الصفات حتى قال يوما عنه . ليكونن لهذا الفتى شـأن »(٤) . وعندما بلغ مبلغ الشباب دخل في جند مصر ، وكان عليه أن يسير الى المغرب مثل والده ،

---

(١) البلاذري ، ط. ليدن ، ص ٢٣٢ .

(٢) نفس المصدر . انظر فيما سبق ج ١ ص ٢٤٧ وما بعدها (وعن لقب الشهيد ، ص ٢٢ ص ٢٥٠) .

(٣) توفي ابن الأغلب سنة ١٩٦ وعمره ٥٦ سنة ، كما سنرى ، وهذا يعني انه ولد حوالي سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧ م .

(٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٢ (يقول النص ان ابراهيم سمع من الليث واهداه زوجة نعم جلاجل) ، وقارن الرقيق ، ص ٢١٢ — ٢١٣ (حيث النص : « ليكونن لهذا فتيا وشأن » الى جانب تفصيلات عن اختلافه الى الليث لطلب العلم ، واهدائه جلاجل عند خروجه الى المغرب) .

مشد رحاله الى افريقية تاركا أهله بمصر(*) .

أما عن تاريخ وصول ابراهيم بن الأغلب الى المغرب ، وبداية خدمته العسكرية هناك ، فهي من الأمور الغامضة . واذا كان الرقيق يورد رواية تقول انه سار مباشرة من مصر وبصحبته زوجته الى اقليم الزاب أثناء ولاية الفضل بن روح ، أي فيما بين سنتي ١٧٧ هـ — ١٧٩ هـ ، وانه نقى من الفضل وسوء مجاورته شيئا عظيما ، فانه مما يشكك في صحة هذه الرواية ما يورده الرقيق نفسه بعدها ، من : انه خلف أهله بمصر عند مسيره الى المغرب(٦) . هذا ، الى جانب أننا لا نجد ذكرا لابراهيم بن الاغلب في أحداث بلاد الزاب التي شارك فيها الفضل بن روح ، وهو الأمر المستغرب بالنسبة لضابط من أعيان جند مصر ، له عراقة ابراهيم — لو أنه كان وقتئذ في الزاب .

ومن الأمور المستغربة أيضـــا أن يكون ابن الأغلب ، وهو يستقبل الأربعين من عمره ، في ولاية هرثمة بن أعين حوالى سـنة ١٧٩ هـ ، قائدا لجماعة صغيرة من الجند تقوم بأعمال الشغب . فهذا ما يفهم من رواية أحمد ابن ناقد ، مولى بني الأغلب التي ينقلها البلاذري ، والتي تقول ان ابراهيم كان من وجوه جند مصر وأنه أغار وبصحبته ١٢ (اثنا عشر) رجلا على بيت المال بالقيروان ، فأخذوا مقدار أرزاقهم لم يزيدوا عليهـــا شيئا ، ثم انهم هربوا الى الزاب . وتمكن ابراهيم من السيطرة على من كان هناك من الجند ، كما اكتسب ود أهل الناحية ، وبذلك تغلب على الزاب ، وآلت اليه الرياسة هناك . وبفضل مناوراته الذكية ، من : ملاطفة هرثمة ، واهدائه الهدايا ، واعتذاره عما بدر منه بحسن نية ، وتمسكه بالطاعة ، نجح في الحصول منه — رسميا — على ولاية الزاب(٧) .

(*) انظر ابن عذارى الذي يذكر بيتين من الشعر لابراهيم في زوجته وقد تركها بمصر :

ما سرت ميـــلا ولا جـــاوزت مرحـــلة   الا وذكـــرك يثني دائمـــا عنقـــي
ولا ذكـــرتك الا بت مرتقبـــا   أرعى النجـــوم كأن المـــوت معتنقي

وقارن الرقيق (ص ٢١٢) الذي يذكر البيتين ، رواية محمد بن الوكيل ، مع اختلاف في الشطرة الثانية من البيت الأول حيث « يلوي » بدلا من « يثني » ، وفي الشطرة الأولى من البيت الثاني : « كنت » بدلا من « بت » وفي الشطرة الثانية : « الليث » بدلا من « الموت » .
البيان المغرب ج ١ ص ٩٤ .

(٦) الرقيق ، ص ٢١٢ .

(٧) البلاذري ، ص ٢٣٣ .

والحقيقة انه رغم ما يمكن أن يشوب هاتين الروايتين اللتين انفرد بهما كل من البلاذري والرقيق من الشوائب ، فانه يمكن أن تكمل احداهما الاخرى ، من : حيث دخول ابراهيم بن الأغلب الى المغرب في عهد الفضل بن روح ، ووصوله الى ولاية الزاب بفضل شجاعته وحسن تدبيره — ان لم تقل وصوليته — على عهد هرثمة الذي كان يحسن الظن فيه .

وهكذا لا نجد ابراهيم بن الأغلب في النصوص الاخرى الا قائدا من كبار القواد ، له ولاية الزاب الهامة من قبل الخليفة هارون الرشيد نفسه ، وذلك على عهد ابن مقاتل العكي(٨) . ولا بأس أن يكون ذلك قد حدث اثر تدخله في مصلحة ابن مقاتل ، كما رأينا(٩) .

والذي يفهم من النصوص ان ولاية ابراهيم لم تتم بسهولة ، وانما تحققت بعد صراع مرير بين الوالي السابق محمد بن مقاتل العكي ، الذي كان يستند الى حسن علاقته بجعفر بن يحيى البرمكي ، وبين ابراهيم الذي عمل على اكتساب تأييد رجال الخلافة في افريقية . فهناك رواية تقول انه عندما أعاد ابن الأغلب الى الولاية محمد بن مقاتل ، كتب صاحب البريد بافريقية وهو يحيى بن زياد الى هارون الرشيد بحسن بلاء ابن الأغلب في سبيل الخلافة — وقرأ الرشيد تقرير صاحب البريد على أخصائه ، كما استشار هرثمة بن أعين والي افريقية السابق ، فأكد له اخلاص ابراهيم للخلافة وعرفه بحب الناس له ، فكان ذلك سببا في أن عين الرشيد ابن الأغلب واليا للبلاد(١٠) ، وذلك في ٢٠ من المحرم سنة ١٨٤ هـ/٢٠ فبراير سنة ٨٠٠م(١١) . وهناك رواية أخرى لابن الاثير تقول ان ابن الأغلب كان قد كتب الى الخليفة — بناء على رغبة أهل البلاد — يطلب منه ولاية افريقية ، وانه عرض على الرشيد الاستغناء عن المعونة السنوية التي كانت تقدمها مصر الى افريقية ومقدارها ١٠٠ (مائة) ألف دينار ، وانه تعهد على العكس

(٨) الرقيق ، ص ٢١٣ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٢ ، الحلة السيراء ج ١ ص ٩٣ .
(٩) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٩٣ وما بعدها .
(١٠) ابن الاثير ، احداث سنة ١٨١ ج ٦ ص ٦٣ ، النويري ، ١٠٤ ب (الترجمة ، ابن خلدون ، ج ١ص ٣٩٨) ، وقارن أصل الرواية في الرقيق ، ص ٢٢٠ ، ٢٢٥ : حيث اسم صاحب البريد ' ابن زياد مرة ، وابن الفضل . وعن ولاية ابراهيم ، قال الرشيد ، « ارجو ان اكون قد رميتها (افريقية) بحجرها » .
(١١) انظر العيون والحدائق ، ج ٣ ص ٣٠٢ .

من ذلك بدفع ٤٠ (أربعين) الف دينار سنويا الى بيت مال الخلافة(١٢) •
ويمكن التوفيق بين الروايتين اذا اعتبرنا ان اتصال ابن الأغلب بالرشيد كان
عن طريق عمال الخلافة مثل صاحب البريد •

والظاهر ان ابن مقاتل عرف الاتصالات التي كان يقوم بها ابن الأغلب
من خلف ظهره ، وانه حاول القيام بعمل مضـــاد يضمن له الاستمرار في
الولاية برغم ما كان يظهره له ابن الأغلب من الرعاية والعطف • فعندما وصل
تقليد الرشيد لابن الأغلب أسرع هـــذا الى ابن مقاتل يطلب منه الا يتعجل
بالخروج من القيروان ، ويسمح له بالبقاء طالما شاء الى أن يتم جهاز الرحيل •
ولكن ابن مقاتل خرج بعد أيام الى طرابلس ، وهناك لقي مبعوثا آتيا من بغداد
هو حماد السعودي ، يحمل رسالتين الى القيروان ، فاغتنم الفرصـــة وزيف
رسالة ثالثة تقضي بخلع ابراهيم بن الأغلب وتقليده هو الولاية من جديد •
وأتبع ابن مقاتل ذلك برسالة أخرى من لدنه يعلن فيها قرب وصـــوله الى
القيروان ، ويأمر ابن الأغلب بالرجوع الى الزاب ، ويدعــو أحد أعوانه وهو
سهل بن حاجب الى القيام بأمر الولاية نيـــابة عنه والى حين حضوره(١٣) •
وأغلب الظن أن ابن مقاتل كان يأمل خلال فترة انتظاره في طرابلس أن يتمكن
جعفر البرمكي من تسوية الأمر مع الخليفة ، وهي الأمنية التي لم تتحقق •

فعندما علم الناس بذلك اضطربوا ، وطلبوا الى ابن الأغلب ان يحتفظ
بالولاية ، وأن يكتب الى الخليفة يعلمه بافتراء ابن مقاتل واختلاقه • ورغم أن
ابن الأغلب وافقهم على صحة تزييف ابن مقاتل اعتمـــادا على علاقته القوية
بجعفر بن يحيى البرمكي ، فانه جمــــع رجاله وعـــاد بهم الى ولايته الأولى
بالزاب(١٤) ، وذلك في ١٩ ربيع الآخر/١٨١ ماية ، وترك سهل بن جعفر واليا
بالنيابة ورجلا آخر يعرف بأبي عزيز كصاحب للشرطة(١٥) •

---

(١٢) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٢ — ٦٣ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٦) •

(١٣) انظر العيون والحدائق ، ج ٣ ص ٣٠٢ ، النويري ، ص ١٠٤ ب (الترجمة ، ابن خلدون ، ج ١ ص ٣٦٨ — ٣٦٩) ، وقارن الرقيق ، ص ٢٢٠ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ٦٤ •

(١٤) انظر العيون والحدائق ، ج ٣ ص ٣٠٢ ، النويري ، ص ١٠٤ ب (الترجمة ، ابن خلدون ، ج ١ ص ٣٦٩) وقارن الرقيق ص ٢٢٠ •

(١٥) انظر العيون والحدائق ، ج ٣ ص ٣٠٢ (حيث النص على أن ابراهيم سار الى مدينة تهودة) •

ولما وصلت أنباء العكي الى الرشيد غضب ، وكتب اليه يؤنبه على سوء صنيعه ويطلب اليه العودة سريعا « غير محمود الفعال » ، فعاد ابن مقاتل الى المشرق • وفي نفس الوقت كتب الرشيد رسالة ثانية بتولية ابراهيم ابن الأغلب ، سار بها الرسول الى الزاب ، فعاد ابراهيم من جديد الى القيروان في ١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ/٩ يوليه سنة ٨٠٠ م ، وتسلم حكم من سهل بن حاجب الذى بقي في النيابة أكثر من شهرين(١٦) •

ومع انه من الجائز الشك في صحة الرواية الخاصة بمؤامرة العكي ، لطابعها القصصي أولا ، ولأنها ثانيا لم ترد الا في الرقيق الذى ينقله النويرى مما يحتمل ان الرواية تكرر هنا خطأ عودة ابن مقاتل الى القيروان بعد طرده على يدى التميمي(١٧) ، فاننا نعتقد أن المقصود بها هو اظهار محبة ابراهيم ابن الأغلب في قلوب الناس ، وان اختياره لحكم البلاد كان استجابة لرغبة شعب افريقية ، كما يفهم من رواية ابن الأثير(١٨) ، وهذا أمر لم يكن معروفا الا فيما ندر • وهو يعني ان ابراهيم بن الأغلب نجح في اكتساب محبة أهل افريقية كما نجح في كسب رضاء الخلافة عندما عرض الاستغناء عن المعونة الآتية من مصر ، بل ودفع مبلغ سنوى من المال الى الخليفة • وهذا الأمر الاخير يعني أن ابن الأغلب بين للخلافة أن بلاد افريقية يمكن أن تنتعش وتتقدم اقتصاديا ــ مثل ولايات الخلافة الغنية ــ اذا ما تهيأت لها الادارة الرشيدة •

العباسية (القصر القديم) عاصمة جديدة لافريقية :

بدأ ابراهيم بن الاغلب ولايته بعمل يعتبر في حقيقته سمة من سمات الدول الجديدة ، أو شعارا من شعارات كبار الحكام : ذلك هو بناء مدينة ملكية أو عاصمة جديدة • بدأ هذا العمل في نفس السنة التى ولى فيها أى في سنة ١٨٤ هـ/٨٠٠ م حسب رواية البكرى وابن الأثير(١٩) ، أو في السنة التى تليها (١٨٥ هـ/٨٠١ م) كما يقول ابن عذارى(٢٠) • ونعتقد أن

---

(١٦) النويرى ، ص ١٠٥ ، وقارن الرقيق ، ص ٢٢٠ ، والعيون والحدائق ، ج ٣ ص ٣٠٢ •

(١٧) انظر فيما سبق ، ص ٣٦٢ ــ ٣٤٩ •

(١٨) انظر فيما سبق ، ص ٣٠ وهـ ١٢ •

(١٩) البكرى ، ص ٢٨ ، ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٣ ، ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ٤٧ •

(٢٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٢ •

الروايتين صحيحتين وان البناء بدأ في السنة الأولى وتم في السنة الثانية . ولا شك في أن ابن الأغلب تمعن في دروس الماضي ، وانه أخذ العبرة من اضطرابات القيروان ، التي كانت تموج بأهلها وعسكرها ، فرأى أن يبتعد عنها قليلا . ووقع اختياره على قطعة من الارض على ثلاثة أميال في الجنوب الشرقي من القيروان ، وكانت لجماعة من بني طالوت فاشتراها منهم(٢١) . وبعد أن تم البناء أطلق ابن الأغلب على مدينته الجديدة اسم العباسية(٢٢) . تيمنا باسم الأسرة الخلافية ، ولتكون قرينة للهاشمية أول عاصمة عباسية قبل بغداد(٢٣) ، هذا ولو انها عرفت أيضا باسم القصر القديم(٢٤) ولا تعرف ان كانت هذه التسمية الأخيرة قد ظهرت منذ بناء المدينة ، أم أنها ظهرت في وقت متأخر عن ذلك . وفي الحالة الأولى تكون العباسية قد بنيت في موضع قلعة قديمة كانت في أرض بني طالوت وفي الحالة الثانية تكون التسمية قد أطلقت على العباسية بعد ان قامت قصور جديدة بجوارها كما سيحدث بعد بناء قصور رقادة على أيام ابراهيم الثاني بن أحمد (بن محمد ابن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب) وهو عاشر الأغالبة سنة ٢٦٣ هـ ٧٦ - ٨٧٧ م(٢٥) .

ويرجع بعض للبكري الذي يمدنا بتفصيلات لا بأس بها عن طبيعة بناء العباسية . ويمكن القول انها احتوت - عموما - على قصر الأمير وما يلحق به من الدواوين ودار سك النقود ومساكن حاشيته والمسجد الجامع . أما عن صومعة هذا الجامع (أي مئذنته ، فيصفها الجغرافي الأندلسي بانه « لم يبن أحكم منها ، ولا أحسن منظرا » فلقد كانت الصومعة مستديرة الشكل - كما هو الحال بالنسبة لمآذن العراق - مبنية بالآجر والعمد في سبع طبقات(٢٦) . وتأتي بعد ذلك معسكرات الحرس . ويحيط بكل هذا الأسوار

---

(٢١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٢ ، وقارن الرقيق ص ٢٢٢ والبكري ، ص ٣٨ (على ٢ أميال قبل القيروان) .

(٢٢) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ ج ٦ ص ٦٣ .

(٢٣) عن هاشمية العراق انظر البلاذري ، طبعة ليدن ١٨٦٦ ، ٢٨٧

(٢٤) الرقيق ، ص ٢٢٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٣ ، وقارن ابن أبي دينار (ص ٤٧) الذي يسميها بالقصر فقط .

(٢٥) انظر فيما بعد (بناء رقادة - عهد ابراهيم بن أحمد ، ص ١١٦ .

(٢٦) انظر البكري ، ص ٢٨ ، وقارن الرقيق ، ص ٢٢٢ (حيث هناك اشارات الى القصر والمتنزه حوله ، والمسجد الذي بناه فيه) ، وقارن النويري ، ص ١٠٥ الترجمة ، في ملحق ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠٠ .

القرية المحصصة لحمايتها . ثم ان ابراهيم بن الأغلب أحاط الأسوار بخندق فيما بعد ، عندما ثار به قائده عمران بن مجالد (بعد سنة ١٩٣ هـ/ ٨٠٨ م)(٢٧) . وينص البكرى على انه كان لتلك الأسوار خمسة أبواب ، اثنان منها في الجانب القبلي ، وهما : باب الرخمة ، وباب الحديد ، واثنان في الجانب الشرقي ، وهما : باب غلبون وباب الريح ، وباب واحد من الجانب الغربي ، هو باب السعادة ، مقابل المقبرة الكبيرة خارج الأسوار . وفي وسط المدينة كانت توجد رحبة كبيرة واسعة عرفت باسم « الميدان » ، ربما كانت تستخدم لعرض الفرسان(٢٨) .

وهكذا اتسعت العباسية وأخذت تنافس القيروان بحماماتها الكثيرة ، وفنادقها ، وأسواقها الجمة ، ومواجل الماء العظيمة التي كانت تمير القيروان ، أوقات القحط ، عندما تفرغ صياريجها العديدة من الماء(٢٩) .

وموضع القصر القديم معروف حاليا ، وان كان في شكل تل صغير أو كدية : طوله حوالي ٥٠ مترا وعرضه حوالي ٣٠ مترا . ولقد أظهرت الحفائر الحديثة على طول الواجهة الشمالية الغربية وجود قاعات متجاورة ، وسراديب وحفر دائرية تحت الأرض . وقاعدة البناء والجدران من اللبن ، أما الآجر فكان يستخدم في انشاء القباب وأسقف الدور العلوى من البناء . وهذا الجزء المكتشف يدل ببساطته على أنه كان مخصصا للمخازن ومساكن الخدم . أما المباني الفاخرة فقد نهبت من أجل اقامة مبان جديدة(٣٠) .

وفي الوقت الذى بدأ فيه ابراهيم بن الأغلب البناء كان يعمل في الخفاء على تحقيق هدفه من انشاء العباسية ، وهو العمل على التحرر من تسلط العسكر المشاغب والتمكن من مدافعتهم اذا تطلب الأمر ، وذلك بالاعتصام بقلعته الجديدة . ولكي يحقق هدفه هذا في هدوء اعتنى بالجند وأخذ يداريهم حتى يضمن طاعتهم ، وكان يتحمل في سبيل ذلك سوء أخلاقهم وشراسة طباعهم ، بينما أخذ في شراء السودان بحجة استخدامهم في الصناعة تخفيفا على الناس من أعبائها ومشقاتها . ثم انه بدأ الخطوة الثانية في سبيل

---

(٢٧) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٢ . وعن ابن مجالد انظر فيما بعد ص ٣٦ وما بعدها .

(٢٨) انظر البكرى ، ص ٢٨ .

(٢٩) البكرى ، ص ٢٨ .

(٣٠) ج. مارسيه كتاب الفن الاسلامى (بالفرنسية) ، ج ١ ص ٤٦ — ٤٧ .

استخدام السودان في عسكره فاشترى آخرين ، وخصصهم لحمل سلاح الجند ، وأوهم هؤلاء ان في ذلك اكراما لهم(٣١) ، وهو في الحقيقة كان يدرب السودان على استخدام السلاح ، كما كان يجرد الجند منه • فعندما تم بناء العباسية أخذ ينقل اليها السلاح والعدد(٣٢) ، ثم انه انتقل اليها في جنح الليل بأهله وحرمه وعبيده(٣٣) • ولقد أسكن عبيده هؤلاء — وهم الذين أصبحوا حرسه الخاص الذي يضع فيه ثقته — حوله ، كما أسكن معه أيضا أهل الثقة من جنده(٣٤) • وبذلك أصبحت العباسية مقرا لابراهيم ، ومعسكرا لقواته ، مثلها في ذلك مثل كل المدن العربية الحديثة التي بنيت من قبل : كالكوفة والبصرة ثم واسط بالعراق ، والفسطاط ثم العسكر في مصر ، وفي المغرب مثل : القيروان وتاهرت وسجلماسة وفاس(٣٥) •

اقرار ابراهيم بن الأغلب للأمور في افريقية :

ثورة خريش الكندي في تونس :

حدث ما كان يخشاه ابراهيم بن الأغلب من عسكر افريقية ، وكانت العباسية عند حسن ظنه بها ، فقامت بدورها في المحافظة على كيان المملكة الناشئة خير قيام • ففي سنة ١٨٦ هـ/٨٠٢ تعرض ابن الأغلب لثورة خطيرة في تونس قادها والي المدينة العربي وزعيم « الأبناء » ' حريش بن عبد الرحمن ابن خريش الكندي ، صهر الحسن بن حرب الكندي(٣٦) • ولا يذكر الكتاب

---

(٣١) أنظر الرقيق ، ص ٢٢٢ ، وقارن النويري ، ص ١٠٥ والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ملحق ٢ ص ٤٠ •

(٣٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٣ •

(٣٣) أنظر الرقيق ، ص ٢٢٢ ، وقارن النويري ، ص ١٠٥ أ والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ملحق ٢ ص ٤٠٠ •

(٣٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٣ ، النويري ، ص ١٠٥ أ والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ملحق ٢ ص ٤٠٠ ، وقارن الرقيق ، ص ٢٢٢ •

(٣٥) عن تاهرت وسجلماسة وفاس أنظر الفصول الخاصة بها فيما بعد ••

(٣٦) أنظر الحلة السيراء لابن الأبار ، ترجمة رقم ٣٢ ، ج ١ ص ١٠١ ، وص ٢ : حيث يشير حسين مؤنس الى أن الاسم في شكل خريش واضح تمام الوضوح على عكس ما هو موجود في النويري وابن خلدون في شكل « حمديس » • كما أشار الى القرائن التي ترجح فعلا اسم خريش مثل اكتفاء ابن عذاري بذكر لقب الرجل وهو الكندي ، ثم أبيات الشعر (ص ١٤٠) التي يرد فيها الاسم في شكل خريش ، مما يؤكد صحته اذ لا يستقيم مع اسم حمديس • والظاهر أن المسئول عن تحريف اسم خريش الى حمديس هو الرقيق الذي نقل عنه النويري =

شيئا عن سبب هذه الثورة اذ يكتفون بأن الكندى نزع السواد ـ شعار العباسيين ـ مما يعنى أنها ثورة مناهضة للخلافة أو لجندها فى افريقية ، ولا بأس أن تكون اشارته الى على بن أبى طالب(٣٧) تعنى أن للثورة لونا شيعيا ، ونجح فى اجتذاب كثير من الاتباع من العرب والبربر(٣٨) . وسير ابراهيم بن الأغلب قائده عمران بن مجالد لقتال الثائر ، وتم اللقاء عند سبخة تونس ، وانتهى بكارثة بالنسبة للثوار ، فرغم انهزامهم أخذتهم سيوف الجند الأغلبى : فبقى منهم عشرة آلاف رجل مصرعين بدمائهم فى أرض المعركة ، منهم الكندى نفسه(٣٩) ودخل عمران تونس وانتقم من أنصار خريش فقتلهم ، وأقر الأمور فى المدينة(٤٠) .

=وابن خلدون (انظر الرقيق ، ص ٢٢٤) . ومما يسترعى الانتباه أن الرقيق يصف خريشا الكندى بأنه من « أبناء العرب » ، ومؤرخ القيروان يستخدم كلمة « الأبناء » كثيرا عند كلامه عن عساكر تلك الفترة وحروبها . ومع أن ابن الأبار يكاد يشرح معنى « الأبناء » عندما يقول ان الكندى لم يكن من الجند بل من أبناء العرب الذين كانوا بافريقية قبل المسودة (العباسيين)، فان الذى نفهمه من روايات الرقيق أن كلمة « الأبناء » كانت تعنى وقتئذ : « أبناء الجند الذين ولدوا فى افريقية سواء كانوا من العرب البلديين ، أى عرب الفتوح الأولى ، كما يقول ابن الأبار ، أو من الوافدين بعد ذلك ، من أهل الشام أو الخراسانية . وانظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٦١ وهـ ١٧٦ (عن ثورة تمام بن تميم بأنه من الأبناء) .

وعن تاريخ ثورة الكندى ، أنظر الرقيق ، ص ٢٢٥ ، (حيث سنة ١٨٦ هـ) ، ابن الأثير، أحداث سنة ١٨١ هـ ، ج ٦ ص ٦٣ ، النويرى ، ص ١٠٥ ب والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠١ ، وقارن ابن عذارى (ج ١ ص ٩٢) الذى يضعها ضمن أحداث سنة ١٨٥ هـ ، ولو انه يتبع ذلك بقوله : انه كانت لابن الأغلب مع الكندى وقائع والتقت محاربة المأمون للأمين بعد موت الرشيد أى بعد سنة ١٩٣ هـ . ونعتقد ان ابن عذارى يخلط هنا بين ثورة الكندى هذه وثورة عمران بن مجالد فيما بعد (أنظر الصفحة التالية) .

(٣٧) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٠٢ .

(٣٨) ابن الأثير : أحداث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٢ ، النويرى ، ص ١٠٥ ب والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ملحق ٢ ، ص ٤٠٠ ، وانظر الرقيق ، ص ٢٢٤ .

(٣٩) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ (يسمى قائد ابراهيم هنا « عمران بن مخلد » ، وهو فى الرقيق ، ص ٢٢٤ وما قبلها ، من حيث ينقل بن الأثير « عمران بن مجالد ») . أما عن هول القتال ، وعدد القتلى ثم افناء الثوار فى تونس حسبما وصفه ابن الأغلب للرشيد) فانظر الرقيق ص ٢٢٥ ، النويرى ص ١٠٥ ب والترجمة (فى ابن خلدون) ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٦ .

(٤٠) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٣ ، النويرى ، ص ١٠٥ ب والترجمة (فى ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠١ ، وفى حقائق أصحاب خريش تصح رواية الرقيق (ص ٢٢٥) فى انهم كانوا يصيحون : بغداد بغداد ، فلا والله لا أتخذ لكم طاعة بعد اليوم أبدا . . . مما يرجح ان يكون للثورة طابع مذهبى شيعى مضاد للعباسيين ، ومن مشاركة حمزة بن السبال ،

ثورة الجند في طرابلس :

ولقد سببت مدينة طرابلس – القريبة من مواطن الاباضية في جبل نفوسة وأرض هوارة وزناتة – كثيرا من المتاعب لابن الاغلب . فقد كان الطرابلسيون يشكون من الولاة وكان ابراهيم يستجيب لهم فيعزل من لا يرضون عنه . وفي سنة ١٨٩ هـ/٨٠٥ م ثار أهل طرابلس بواليهم سفيان ابن المضاء (الذي ولي المدينة للمرة الرابعة) والجأوه الى المسجد الجامع ثم انهم سمحوا له بالخروج بالأمان ، ولما لم يمض على ولايته شهر واحد . والظاهر أن جند طرابلس وليس أهلها هم الذين قاموا بتلك الثورة اذ أن الجند هم الذين جعلوا أمر المدينة الى ابراهيم بن سفيان التميمي بدلا من ابن المضاء . ويقول ابن الاثير ، الذي ينفرد بذكر تلك الاحداث : ان الخلاف وقع بعد ذلك بين «الأبناء» بطرابلس وبين قوم من بني أبي كنانة وبني يوسف حتى فسدت طرابلس . والظاهر أن المقصود بالأبناء : هم أبناء الجند الذين ولدوا في افريقية ، ولم ينخرطوا في سلك العسكرية ، سواء كانوا من العرب البلديين أو من الوافدين على البلاد بعد ذلك ، من : أهل الشام أو من أهل خراسان ، كما سبقت الاشارة(٤١) . فعندما بلغت ابراهيم أنباء تلك الفتنة استدعى الأبناء وخصومهم الى القيروان في ذي الحجة من نفس السنة/نوفمبر ٨٠٥ م ، وهناك سألوه العفو فأجابهم وعادوا الى بلدهم(٤٢) .

ثورة عمران بن مجالد – « الوزير » :

أما أخطر الثورات التي تعرض لها ابن الأغلب فهي التي قام بها قائده ووزيره عمران بن مجالد الربيعي – قاهر خريش الكندي – بالاشتراك مع عامر بن المعمر بن سنان التيمي صاحب الشرطة ووالي قسطيلية السابق ، وعمرو بن معاوية القيسي ، أحد فرسان قيس وسادتها في الاسلام ، وذلك سنة ١٩٤ هـ/٨١٠ م على ما يظن(٤٣) . والظاهر أن عمران شعر بقوته بعد

= المعروف بالعروق ، قائد ابراهيم وصديقه وواليه على طبنة ، في حرب خريش وما قاله فيها من الشعر . انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٠٧ – ١٠٨ .

(٤١) انظر ص ٣٤ وص ٣٦ .

(٤٢) ابن الأثير ، سنة ١٨٩ ، ج ص ٧٧ .

(٤٣) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٩٤ ، ج ٦ ص ٩٥٠ (حيث يذكر مع عمران : خريش ابن التونسي ، والغالب الظن ان المقصود بذلك ثورة خريش الكندي السابقة) . وانظر الحلة السيراء ، ترجمة ٣٥ ، ج ١ ص ١٠٤ ، وترجمة ٣٦ ص ١٠٦ (عن عامر) وترجمة ٣٩ ص ١١٠ (عن عمرو) .

الخدمات الكبيرة التي أداها لابن الأغلب ، وأنه كان يطمح في أن يكون له مركز ممتاز بالنسبة للأمير . والنويري الذي ينقل عن الرقيق ، يعلل فتور العلاقة بين ابن الأغلب وابن مجالد بأسباب شخصية ، وذلك منذ بناء القصر القديم : فقد خرج ابراهيم يوما الى مصلى روح ومعه عمران الذى أخذ يجاذبه أطراف الحديث وابراهيم لا يستمع اليه اذ كان منصرفا كلية الى التفكير في سكنى قلعته الجديدة (القصر القديم)(٤٤) وربما كان الأقرب الى الصحة أن عمران أحس بما يشكله المقر الجديد لابراهيم من التباعد او الانفصال بين الجيش وبين الأمير ، الذى لن يصبح واقعا تحت رحمة قواده . هذا ، كما يمكن التفكير في أن ابن الأغلب أخذ يهمل شئون الجند وخاصة ما يتعلق منها بدفع الرواتب ، وذلك بعد أن استغنى عن الاموال التى كانت تأتيه من الخلافة ، كما سنرى بعد قليل .

وهكذا بدأ عمران يتغير وأخذ يتآمر على بن الأغلب، وانتهى الأمر بأن أعلن الثورة ، واجتذب كثيرا من الأنصار منهم أهل القيروان التى نجح فى الاستيلاء عليها في ١٠ من رجب ١٩٤ هـ/١٩ ابريل سنة ٨١٠ م ، وبلغ الأمر الى درجة أنه غلب على معظم بلاد افريقية(٤٥) . وحاول عمران اكسابه ثورته نوعا من الشرعية باجتذاب فقيه « افريقية المشهور أسد بن الفرات الى جانبه ، وحاول أن يكرهه على ذلك ، ولكن ابن الفرات هدده باعلان رأيه فى الفتنة علانية ، وهو : « ان القاتل والمقتول في النار » ، فتركه(٤٦) .

ولم يكن لابراهيم بن الأغلب من ملاذ الا فى العباسية ، فخندق حولها واعتصم بأسوارها(٤٧) . واستمرت الثورة طوال عام راحت البلاد خلاله نهبا للاضطراب والفوضى . فكانت خيل ابراهيم تغير حتى حوائط القيروان وتقتل من يصادفهـــا في الطريق ، وكانت خيـــل عمران تغير عـــلى بلاد ابراهيم(٤٨) .

---

(٤٤) النويرى ، ص ١٠٦ أ ، والترجمة (ابن خلدون) ج ، ص ٤٠١ .

(٤٥) ابن الأثير ، الحوادث سنة ١٨١ ، ج ٦٣ وسنة ١٩٤ ، ج ٦ ص ٩٥ ، النويرى ، ص ١٠٦ أو الترجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠٢ .

(٤٦) ابن الأثير ، سنة ١٩٤ ، ج ٦ ص ٩٥ ، وانظر ترتيب المدارك ، للقاضى عياض ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٤٧٨ ، تراجم اغلبية ، ص ٦٨ ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ١٠٥ .

(٤٧) ابن الأثير ، الحوادث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٣ .

(٤٨) النويرى ، ص ١٠٦ أو الترجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠٢ .

واخيرا فى العرج ممثلا فى الأموال التى أرسلها الرشيد الى ابن الأغلب لدفع مرتبات الجند(٤٩) . ولا شك لى أن ابن الاغلب كان فى أشد الحاجة الى النقود ، اذ انه بمجرد ان علم بمسيرتها اليه أسرع وجعل ابنه عبد الله يسلمها فى طرابلس(٥٠) ، خشية أن تقع بين أيدى خصومه في بلاد القيروان . وكان لنبأ وصول المال أثر السحر فى قلوب الجند الثائر الذين فكروا فى تسليم عمران . وعندما سار ابراهيم بالخيل والرجال والعبيد نحو أسوار القيروان ، ونادى مناديه يدعو كل من اسمه فى ديوان أمير المؤمنين الى الحضور لتسلم عطائه ، لم يأمن عمران البقاء مع رجاله ، فترك القيروان ليلا وسار الى بلاد الزاب ، وبصحبته عمرو بن معاوية وعامر بن المعمر(٥١) . وأسرع ابراهيم الى القيروان فدخلها ، وانتقم من المدينة فخلع ابوابها وثلم اسوارها(٥٢) حتى لا تعود الى الثورة .

وهكذا أكدت العباسية حسن ظن ابن الأغلب بها ، فقد حققت له الظفر على خصومه وثبتت أقدام اسرته فى البلاد . وبناء على ذلك ، وبعد أن شعر بالاطمئنان ، أخذ في زيادة عمرانها . فاقطع آله ومواليه الاقطاعات فى داخل أسوارها ، وبذلك اصبحت الضاحية الملكية عاصمة للبلاد بدلا من القيروان ففيها استقبل ابراهيم رسل الخليفة هارون الرشيد ، كما استقبل رسل شرلمان الذين أتوا يبحثون عن رفات القديس سبريان ، وفيها عقد سنة ١٨٩ هـ/٨٠٥ م الهدنة مع بطريق صقلية قسطنطين لمدة عشر سنوات وتم الاتفاق على فداء الاسرى(٥٣) .

أما عن عمران فانه ظل فى الزاب الى وفاة ابراهيم سنة ١٩٦ هـ/ ٨١٢ م وولاية ابنه عبد الله الذى اعطاه الأمان ، واسكنه معه فى القصر

---

(٤٩) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٣ ، النويرى ، ص ١٠٦ أو الترجمة (ابن خلدون) ج ١٠٦ ص ٤٠٢ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٦ .

(٥٠) النويرى ، ص ١٠٦ أ والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠٢ .

(٥١) النويرى ، ص ١٠٦ ب والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠٢ (حيث عامر بن المعتمر بدلا من عامر بن المعمر وهى قراءة الحلة السيراء (ج ١ ص ١٠٥) ، وقارن ابن الاثير ، أحداث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٣ .

(٥٢) ابن الأثير ، أحداث سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٣ ، النويرى ، ص ١٠٦ ب والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠٢ .

(٥٣) حسن حسنى عبد الوهاب ، الورقات ، قسم ١ ص ٣٥٧ .

القديم ، ولكنه تخلص منه بعد قليل عندما علم بتآمره ، كما يقال(٥٤) : وهكذا حكم ابراهيم بن الأغلب افريقية مدة ١٢ (اثنتي عشرة) سنة ، فقمع أهل الشر بها ، وضبط أهلها(٥٥) ، فلم تعرف افريقية — كما يقول الرقيق — واليا أعدل ، ولا أحسن سياسة ، ولا أرفق بالرعية ولا أضبط للأمور منه(٥٦) .

ولقد ثبت ابن الأغلب أقدامه في افريقية وبدأ يتطلع الى المغرب الأقصى حيث ادريس بن ادريس العلوى ، ونجح فى استمالة واحد من أكبر أعوانه هو بهلول بن عبد الواحد زعيم مطغرة حتى اضطر ادريس الى استعطافه وسؤاله الكف عنه(٥٧) . وتأكد مركز ابن الأغلب في البلاد حتى أنه بعد وفاة الرشيد سنة ١٩٣ هـ/٨٠٩ م ترك الأمين افريقيــة له ، فاقره فى ولايتها .

وتوفى ابراهيم بن الأغلب فى أواخر شوال سنة ١٩٦ هـ/أوائل يوليه ٨١٢ م ، وله من العمر ٥٦ (ست وخمسون) سنة ، بعد ولاية استمرت أكثر من ١٢ سنة ، بدأت بعهد الرشيد اليه بافريقية سنة ١٨٤ هـ/٨٠٠ م ، واستمرت بعد ذلك باقرار الخليفة المأمون له فى سنة ١٩٣ هـ/٨٠٩ م .

---

(٥٤) وفى ذلك يقال : ان الفقيه يحيى بن سلام صاحب التفسير غضب لذلك لأنه كان وسيطا فى أخذ الأمان لعمران . فلما قتله عبد الله ، قال : « لا أسكن بلدا اخفر فيه العهد على يدى » ، ثم انه خرج الى مصر حيث مات . أنظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٠٥ .

(٥٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٢ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٠٥ .

(٥٦) النويرى ، ص ١٠٦ والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٤٠٣ ، وانظر الرقيق ، ص ٢١٢ .

(٥٧) ابن الأثير ، سنة ١٨١ ، ج ٦ ص ٦٣ (النويرى ، ص ١٠٥ ب) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ ، ج ٦ ص ١١٩ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١١١ وص ١٠٩ حيث ترجمة ابراهيم ابن محمد الشيعى الذى انفذه ابن الأغلب رسولا الى الخليفة الرشيد ، وبعث صحبته برسل بهلول بن عبد الواحد المطغرى . ، وقارن الرقيق ، ص ٢٢٥ : حيث الاشارة الى انه بعد أن استقامت الأمور لابراهيم بن الأغلب وبلغه استفحال ملك ادريس بن ادريس ، دعا كبار مستشاريه وهم : صاحب البريد يحيى بن زياد ، والقاضي عبد الله بن عمر بن غانم ، وابن غرابه الكلبى ، وشاورهم في أمر ادريس ، فاشاروا عليه بأن يدعه طالما وادعه وأن يرضى لنفسه وله بالسلامة ، اما ما يقال من انه شارك في التخلص من ادريس الأول بن عبد الله ومن مولاه راشد بعده ، فاغلب الظن انه موضوع للرفع من شان عميد الأسرة الأغلبية بالنسبة لخلافة بغداد — انظر فى ذلك ما يأتى فى دولة الادارسة . وانظر ابن الخطيب ، اعمال الأعلام ، قسم ٣ ، ص ١٢ (حيث النص على ان ادريس بن عبد الله كتب اليه يستكفيه عن ناحيته ، ويذكره بقرابته من الرسول (ص) ، فاجابه عن كتابه ووادعه ، ولم تجر بينهما حرب الا ما ذكر من سعيه في التعريف به عند ذكر الادارسة ...) .

ولاية أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب (١٩٦ - ٢٠١ هـ/ ٨١٢ - ٨١٧ م) :

باقرار المأمون ولاية ابراهيم بن الاغلب بعد وفاة الرشيد بطوس (٣ جمادى الآخرة ١٩٣ هـ/١٤ ابريل ٨٠٩ م) ثبتت الأسرة الأغلبية أقدامها في افريقية • ومنذ ذلك الحين صارت افريقية ملكية وراثية في الاغالبة من بني ابراهيم بن الأغلب ، الذى خلفه ابنه عبد الله الذى عرف بـ « الجميل »(٥٨) •

وكان أبو العباس عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب فى طرابلس التى ولاه أبوه اياها للمرة الثانية اثر اضطراب أحوالها نتيجة لاضطراب الجند الأغلبي من جهة ، وتهديد الخوارج من بربر هوارة من أتباع عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم لناحيتها من جهة أخرى • وكان ابراهيم بن الأغلب اضطر الى اعادة ابنه عبد الله الى طرابلس مرة ثانية ، بعد أن كان عهد بولايتها الى سفيان بن المضاء الذى ظهر عجزه في مقاومة البربر ، فهزمهم عبد الله واستقر في المدينة ، وجدد تحصيناتها فبنى سورها(٥٩) • وهكذا أثبت عبد الله جدارته كرجل دولة ، وكانت وصية ابراهيم عند وفاته أن تكون الامارة بعده له • وبينما كان عبد الله فى طرابلس قام أخوه زيادة الله بأخذ البيعة من رؤساء الجند ، وأرسل يخطره بالامر(٦٠) • فاضطر الى عقد الصلح مع أباضية عبد الوهاب بن رستم ، اعترف لهم فيه بالسيادة على ظواهر المدينة(٦١) • ورجع أبو العباس الى القيروان فى صفر من السنة التالية ١٩٧ هـ/أكتوبر ٨١٢ م ، وتسلم السلطة ، واخطر الخلافة في بغداد بالأمر ، فأتته الموافقة على ولايته على افريقية ، فى السنة التى بعدها ١٩٨ هـ/٨١٣ م ، من الخليفة المأمون الذى كان قد تخلص من أخيه الأمين(٦٢) •

---

(٥٨) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٣ •

(٥٩) ابن الأثير ، سنة ١٩٦ ، ج ٦ ص ٢٧٠ •

(٦٠) ابن الأثير ، سنة ١٩٦ ، ج ٦ ص ٢٧٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٥ •

(٦١) هذا ما يفهم من روايات ابن خلدون : (ج ٤ ص ١٩٧ - حيث القراءة : فصالحهم على أن يكون البلد والبحر لعبد الله (أعمالهما لعبد الوهاب) ، (ج ٦ ص ١٢١ - حيث القراءة : وصالح عبد الوهاب على أن تكون الضاحية (الاقاليم الساحلية) لهم (اى للاغالبة ، وانصرف الى مقومة (تقوسة) ولحق عبد الله بالقيروان) • وانظر الشماخى ، ص ١٦١ • وانظر فيما بعد ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ (حيث رواية ابن الصغير التى تنص على أن الامام عبدالوهاب حاصر طرابلس) •

(٦٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٥ •

سوء تفاهم بين أفراد الأسرة ، ومحاولة اصلاح مالي :

استمرت ولاية أبي العباس عبد الله لمدة خمس سنوات وشهرين ، لا يذكر له الكتاب أثناءها الا عملين : أحدهما خاص بمسألة اساءته الى أخيه زيادة الله ، الذي كان قد أخذ له البيعة عند وفاة والدهما ابراهيم ، وأدار شئون المملكة الى حين عودته من طرابلس ، بعد حوالي اربعة أشهر • ونظن أن هذه المسألة متعلقة بالحساسيات بين أفراد الأسرة الأغلبية(٦٣) • وثانيهما خاص باصلاح نظام الضرائب ، وكان يهدف منه الى تثبيت مال الخراج السنوي بأن جعله ضريبة مالية ثابتة ، حتى لا يخضع دخل الخزانة الى أهواء سنوات الخصب وسنوات الجدب ، مما يضمن له صرف رواتب العسكر ، الذين كانوا يسببون للدولة الكثير من المتاعب ، بطريقة منتظمة • فقد كانت الضريبة المعتادة هي العشر من الحب الذي تنتجه الأرض ، فحصل عبد الله الضريبة ثمانية دنانير على كل زوج تحرث من البقر(٦٤) •

معارضة الفقهاء للاصلاح المالي :

واعتبر التقليديون من المالكية هذا الاصلاح المالي خروجا على السنة ، ووجها من وجوه الظلم الشنيعة التي تعرف عندهم ، في مجال الضرائب ، بالمغارم ، مما كان سببا في سخط الناس ، واعلانهم التضرر من تلك الضريبة المبتدعة ، ومطالبتهم بالغائها والعودة الى نظام العشر المعتاد •

---

(٦٣) وفي ذلك تقول الروايات ان عبد الله حمل في امارته على أخيه زيادة الله حملا شديدا ، وكان يتنقصه ، ويأمر ندماءه باطلاق ألسنتهم بسبه ، وزيادة الله مع ذلك يظهر له التعظيم والتبجيل والصنع الجميل ، ولا يظهر له تغيرا — انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٥ ، نهاية الأرب ، المخطوط ، ص ١٠٧ أ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٨ • وهذا ما يذكرنا بما كان يفعله الهادي بأخيه الرشيد ، عندما كان وليا لعهده ، وكان الهادي يطمع في أن يكون ابنه موسى الغلام الصغير وليا لعهده بدلا من الرشيد — انظر ابن الأثير ، سنة ١٧٠ هـ •

(٦٤) إختلف الكتاب في تقدير ضريبة العشر المالية التي ثبتها أبو العباس بن ابراهيم ، فقدرها ابن عذارى بـ ٨ (ثمانية) دنانير للقفيز من الأرض ، أصاب أم لم يصب : أي اذا سملت الأرض أم لم تمحل (ج ١ ص ٩٥) • أما ابن الأثير فيقدرها بثمانية عشر دينارا على الفدان في كل سنة (سنة ٢٠١ هـ • ج ٦ ص ٣٢٩) • ولما كان القفيز مكيالا يكاد يعادل الأردب أو يزيد قليلا — بالنسبة للحب — فلا نعرف كيف كان يقدر بالنسبة لمساحة الأرض اذا كانت رواية ابن عذارى سليمة • ولما كان الفدان من مقاييس مساحة الأرض الزراعية في مصر ولما كان مبلغ الـ ١٨ دينارا المفروضة عليه ، حسب رواية ابن الأثير ، تعتبر ضريبة باهظة فقد أخذنا برواية نهاية الأرب — وهي الرقيق أصلا — التي جعلت مقياس تلك الضريبة ليس مساحة الأرض نفسها ، بل المساحة التي يمكن لزوج من البقر حراثتها . (النويري ، المخطوط ص ١٠٧ أ) • وهذا أمر معقول بالنسبة للأرض المروية بماء المطر •

وكان للفقهاء والعباد من مشايخ البلاد دورهم في الاحتجاج على هذا الاجراء المالي الجديد ، وذلك أن الرواية تقول ان جماعة من الصالحين من جزيرة شريك أتوا الى القيروان . وعلى رأسهم صالح افريقية وقتئذ ، حفص ابن حميد ، حيث سمح لهم بمقابلة الأمير الأغلبي الذي كان مقيما في القصر القديم ، فوعظوه في أمر الدين ومصالح المسلمين(٦٥) ، كما شكوا اليه ثقل تلك الضريبة(٦٦) • وتقول الرواية ان الأمير المعجب بجماله استخف بجماعة الصالحين واستهان بهم ، فلم يستمع الى نصحهم • وبذلك عاد حفص بن حميد واخوانه نحو القيروان ، في غرة ذي الحجة من سنة ٢٠١ هـ/٩ يونية ٨١٧ م ، غير راضين عن لقاء أبي العباس • وفي وادي القصارين ، على طريق العاصمة ، قال لهم حفص : « قد يئسنا من المخلوق ، فلا نيأس من الخالق ! فاسألوا المولى وتضرعوا اليه في زوال ظلمه عن المسلمين ! فان صح في الدعاء ، فقد أذن في الاجابة »(٦٧) •

وتوضأت الجماعة وساروا الى مصلى روح حيث دعوا الله بعد الصلاة : أن يكف عن المسلمين جور أبي العباس ، وأن يريحهم من أيامه • • ولم يكن من الغريب أن تستجاب دعوة العباد الصالحين ، فاصيب الأمير الجميل الذي كان معتبرا من أجمل أهل زمانه ، بقرحة تحت أذنه لم يستطع أن يقاوم ضرها الا لخمسة أيام فقط ، كما غيرت لون بشرته البيضاء حتى انه عندما مات ، متأثرا بها في اليوم السادس ، وكشفت عنه ثيابه للغسل ، كان كأنه عبد أسود • واعتبر الناس أن ذلك كان عقابا من الله للأمير الظالم ، وان السواد الذي حل بجسمه الجميل كان نتيجة طبيعية لسوء فعاله(٦٨) •

---

(٦٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٥ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٧ •

(٦٦) انظر النويري ، نهاية الارب ، حيث يقول ان حفص بن حميد كلم الأمير أبا العباس، فكان فيما قال له : أيها الأمير اتق الله في شبابك وارحم جمالك ، واشفق على بدنك من النار • ترمي كل زوج تحرث ثمانية دنانير ؟ فازل ذلك عن رعيتك ، وخذ فيهم بكتاب الله وسنة نبيه صلعم ! فان الدنيا زائلة عنك ، كما زالت عن غيرك (المخطوط ، ص ١٠٧ أ) • وقارن مخطوط دار الكتب ، ص ٢٩ حيث الجملة الأخيرة زائدة فيه • ويضيف ابن الأثير ان من بين ما وجهته جماعة الصالحين الى الأمير الأغلبي ، قول الله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . واذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » (سنة ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٢٩) وانظر سورة الرعد : ١١ •

(٦٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٦ ، النويري ، المخطوط ، ص ١٠٧ ب ، ابن الأثير ، ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٢٩ •

(٦٨) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٦ ، النويري ، المخطوط ، ص ١٠٧ ب ، وقارن ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٢٩ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٧ •

زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب (٢٠١ — ٢٢٣ هـ/٨١٧ — ٨٣٧ م) :

سياسة قوية : قوامها العنف والقسوة :

توفي أبو العباس عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب في ٦ من ذي الحجة سنة ٢٠١ هـ/٢٤ يونية ٨١٧ م ، بعد ولاية لم تزد عن خمس سنوات الا بشهرين ، وبويع أخوه زيادة الله — الذي كان أول من سمي « زيادة الله » في الاسلام ، كما كان ابراهيم بن المهدي أول من سمي « هبة الله »(٦٩) — بالامارة بعد ١٦ يوما ، وذلك في يوم ٢٢ من ذي الحجة/١٠ يوليه . ولما كان زيادة الله قد لقي معاملة سيئة من أخيه المتوفي ، مما اعتبرناه صدى لنوع من النزاع الصامت بين أفـــراد الأسرة الأغلبية ، كان من الطبيعي أن يلقى المقربون من الأمير عبد الله ما يسمى في المصطلح السياسي « المعاملة بالمثل » . ظهر ذلك في خوف أخي زيادة الله ، وهو الأغلب بن ابراهيم وكان شقيقا لعبد الله من نفس الأم ، من انتقام زيادة الله وخروجه مستأذنا للحج سنة ٢٠٢ هـ/٨١٨ م ، وفي صحبته ابنا أخيه الأمير الراحل ، وهما : أبو فهر محمد ، وأبو الأغلب ابراهيم اللذان كانا صغيرين ، وهو يزمع عدم العودة الى افريقية ، اذ استقر مع ولدي أخيه في مصر بعـــد أداء الفريضة(٧٠) . والظاهر أن زيادة الله استعظم ذلك فكتب الى أخيه يستعطفه ويستميله ، فعاد مع ابني عبد الله الى القيروان ، حيث صـــار الأغلب مكرما من زيادة الله ، مقربا منه ، كما يقول النويري(٧١) .

---

(٦٩) النويري ، المخطوط ، ص ١٠٧ ب ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٣ و ص ١٦٦ (حيث الاشارة الى أن أمه هي « جلاجل » ، جارية الليث بن سعد — التي سبقت الاشارة اليها في هـ ٤ ص ٢٧) .

(٧٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٧ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٧ — حيث يقول أن الأغلب خرج مع أبناء أخيه الثلاثة ، وهم : أبو العباس محمد ، وأبو محمد بهر (فهر) ، وابراهيم أبو الأغلب .

(٧١) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١١٢ أ — حيث تقول الرواية ان زيادة الله : « أكرمه وأحسن اليه ، وجعل أمور دولته بيده » ، مما يمكن أن يفهم منه أن الأغلب كان يشغل منصب الوزير لدى أخيه زيادة الله ، وهذا ما تنص عليه رواية ابن خلدون (ط بيروت ، ج ٤ ص ٤) التي تبرر استدعاء زيادة الله له بما واجهه من الحروب . وهذا ما لا تقره رواية ابن عذارى التي اتخذنا بها ، والتي تؤيدها رواية أخرى لابن خلدون (ج ٤ ص ١٩٧) ينص فيها على أن الوزير هو ابن عم زيادة الله وقائده « غلبون » . فابن عذارى (ج ١ ، ص ٩٧) يذكر قصة خروج الأغلب وولدي أخيه عبد الله ثم عودتهم الى افريقية ، ولكنه يضيف الى ذلك أن وزير زيادة الله كان ابن عمه غلبون . وغلبون الوزير هذا هو الأغلب بن عبد الله بن الأغلب ابن سالم الذي عرف هو وبنوه ببني عبد الله ، وكان من قواد زيادة الله في حرب الطنبذي ، —

ونحن لا نعرف كيف يقرر ابن الأثير : أن زيادة الله « بقى أميرا رضى البال وادعا ، والدنيا عنده آمنة »(٧٢) ، الا اذا كان يقصد بذلك طول مدة حكمه ، وأن الأغالبة حققوا فى عهده عملا عظيما بفتح صقلية على يدى قاضى افريقية الشهير أسد بن الفرات • ولما كان أسد قد ولى القضاء سنة ٢٠٣ هـ/ ٨١٩ م ، الى جانب القاضى أبى محرز (محمد بن عبد الله بن قيس الكنانى) حتى أصبح لافريقية قاضيان لأول مرة وهو الأمر الذى لم يعهد من قبل(٧٣) ، فان وصوله الى قيادة الجند يعنى ازدهار العلم ، والمكانة السامية التى كانت للعلماء فى ذلك العصر — وفى ذلك يقال ان زيادة الله نفسه كان أفصح أهل بيته لسانا وأكثرهم أدبا(٧٤) •

والحقيقة أن الحوليات التاريخية الافريقية تسجل عددا من الاضطرابات الداخلية ، من جانب الجند ومن جانب العامة ، وتنص على أنه لم يبق بين يدى زيادة الله فى بعض الأحيان الا العاصمة القيروان ، وبعض الاقاليم القليلة • وفى ذلك يقال أن أسباب الاضطراب كانت ترجع الى سياسة الأمير العنيفة : اذ استبد بالناس واستخف بالجند ، وخاف على نفسه منهم فحصن القصر القديم واحتمى به •

ثورة ابن الصقلية ، وعصيان عمرو القيسى :

ففى سنة ٢٠٧ هـ/٨٢٢ م ، أى بعد ست سنوات من ملكه ، كان سوء سيرته فى الجند سببا فى ثورة قام بها قائد من قوادهم ، اسمه : زياد بن سهل ، ويعرف بابن الصقلية ، الذى خرج فى موضع يعرف بفحص أبى صالح غير بعيد من باجة التى ضرب عليها الحصار • ولكن ثورة ابن الصقلية انتهت بسهولة على يدى قائد زيادة الله ، سالم بن سوادة الذى فك حصار باجة ، وقتل كثيرا من أصحاب القائد الثائر ، وغنم أموالهم(٧٥) • ومع أن الكتاب

= كما يأتى (ص ٤٦ ، وانظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨١) • ولا بأس فى ان يكون الامر قد اختلط على الرقيق ، الذى ينقله النويرى (وابن خلدون) ، عندما قال ان الأغلب صارت اليه أمور دولة أخيه زيادة الله • فظن أنه غلبون وهو اسم شهرة الوزير — حسب الطريقة المغربية الأندلسية — فى تحوير اسم الأغلب الى غلبون •

(٧٢) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٢٣٩ •

(٧٣) نفس المصدر •

(٧٤) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٣ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ١٦ •

(٧٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٧ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٢٩ ، ابن خلدون ، ط بيروت ، ج ٤ ص ١٩٧ •

يتسرون سوء سيرة زيادة الله في الجند واستخفافه بهم بسبب عدم انتظامهم ، ووثوبهم على الأمراء قبله ، فان رواية ابن عذارى تنص على أن عنفه مع الجند ، واغلاظه لهم ، وسفكه لدمائهم – خاصة عندما كان يسكر – كانت السبب في قيام العامة بالثورة ، في نفس السنة (٢٠٧ هـ/٨٢٣ م)(٧٦) .

ومع أنه لم تكن لثورة العامة هذه أصداء ملموسة ، فان ابن عذارى ربط بينها وبين ثورة الزعيم القيسى عمرو بن معاوية ، صاحب عمران بن مجالد في ثورة سنة ١٩٤ هـ/٨١٠ م . كان عمرو واليا لزيادة الله على منطقة القصرين ، فأعلن العصيان في سنة ٢٠٨ هـ/٨٢٣ م ، وغلب على الناحية ، وغمس ولديه : حبابا وسحيمان في الفتنة ، رغم نصح أكبرهما له ، وهو حباب ، وتخويفه اياه من عواقب الفتنة . فلقد قال حباب لوالده : « انك دخلت في أمر عظيم ، وعرضت نفسك للهلاك ، ولست من رجال هذا الأمر ، ولا ينفعك عدد ولا عدة ... » ، فكانت نتيجة تلك النصيحة الغالية أن تعرض حباب للتنكيل من والده ، الذى ضربه مائتى سوط ، كما تقول الرواية ، وتمادى عمرو القيسى في الخلاف(٧٧) .

ولم تطل ثورة القصرين اذ سرعان ما قبل القيسى وولداه الاستسلام على الأمان عندما سار اليهم بالقوات الأغلبية موسى بن هارون ، مولى ابراهيم ابن الأغلب(٧٨) ، وجاء بهم الى زيادة الله الذى أمر بحبسهم في بيت وزيره وابن عمه الأغلب بن عبد الله المشهور بغلبون الى أن يرى فيهم رأيه . وسرعان ما راح الثلاثة ضحية القيل والقال من جانب المقربين من الأمير ، ممن كانوا يفسرون أحداث السياسة بناء على التحزبات العرقية والعصبيات القبلية . فقد راجت شائعات تقول ان الأمير لم يقتص من عمرو بن معاوية لأنه قيسى ، ولأن العصبية القيسية قوية في مصر حتى أن زيادة الله خشى أن يثبتوا بعمه (الوالى) بمصر اذا نزل مكروه بقائده المخالف ، مما آثار زيادة الله فتخلص من السجناء ، الذين نزلوا على الأمان ، بطريقة شنيعة(٧٩) .

---

(٧٦) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٦ ، وقارن النويرى ، المخطوط ، ص ١٠٧ ب .

(٧٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٧ – ٩٨ ، النويرى ، ص ١٠٨ آ ، وانظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١١٠ (حيث اسم ابن عمرو الثانى : « سكتان » وليس سجتان) .

(٧٨) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٠٨ آ .

(٧٩) انظر ابن عذارى (ج ١ ص ٩٨) الذى يشير الى أن أبا عباد المضحك هو الذى أخبر زيادة الله بذلك ، فما كان من الأمير الا أن طلب من وزيره وابن عمه غلبون أن ينقل المحبوسين الثلاثة الى سجن القصر حيث تم قتل عمرو بن معاوية بيديه ثم تلى بقتل ابنيه –

ردود الفعل لسياسة العنف :

ثورة الطنبذى :

ولما كان العنف لا يولد الا العنف ، كما هو معروف ، لم يكن من الغريب أن تؤدى تلك القسوة التى لا تعرف الانسانية أو الرحمة الى ثورة كبرى كادت تودى بالدولة الأغلبية الفتية • وكان قائد تلك الثورة واحدا من كبار رؤساء الجند الأغلبى ، هو منصور بن نصر الطنبذى ، الذى شق عصا الطاعة على زيادة الله فى السنة التالية ، سنة ٢٠٩ هـ/٨٢٤ م •

وكان منصور الطنبذى من ولد دريد بن الصمة ، ولقب « الطنبذى » الذى حمله نسبة الى قصر كان له فى منطقة المحمدية قرب مدينة تونس(٨٠) • كان منصور واليا على مدينة طرابلس عندما وصلته أنباء الفاجعة التى حلت بعمرو بن معاوية القيسى وابنيه حباب وسجمان ، فتأثر لأبناء عصبيته ، ودعا بنى تميم فى طرابلس الى الوقوف الى جـانبه للأخذ بثـأر بنى عمومتهم القيسية(٨١) • وعندئذ كتب صاحب الخبر ، أى صاحب البريد ، الى زيادة الله بما يزعمه منصور الطنبذى من اثارة بنى تميم ضد الأمير الأغلبى الذى عزل منصورا فى التو واللحظة ، وأمره بالقدوم عليه فى القيروان حيث وشمه

= حباب رغم طلبه أن تكون معارضته لوالده شفيعا له لدى الأمير الذى شك فى أن يصبح حباب مخلصا له • أما الابن الأصغر ، وهو سجمان ، فانه فضل الموت على الحياة عندما شاهد رأس والده وأخيه فوق الترس الذى قدم اليـه ، ليراهما • وتضيف الرواية الى تلك المشـاهد المأساوية مشهدا لا يقل قسوة وضراوة ، اذ تقول ، ان زيادة الله جلس يشرب والرؤوس الثلاثة أمامه على الترس • وعن الأغلب بن عبد الله بن الأغلب وبنيه من بنى عبد الله الذين شاركوا فى حـروب الطنبذى انظر ص ٤٣ و هـ (٧١) • أما عن أحـوال مصر فى تلك الفترة فكانت مضطربة أيما اضطراب • فالصراع على أشده بين الأندلسيين المتغلبين على ثغر الاسكندرية وبين عبد العزيز الجروى المتغلب على ثغر تنيس ثم أبنائه من بعد مقتله سنة ٢٠٥ هـ • وكان السرى بن الحكم الذى تغلب على الفسطاط يقف موقف المتفرج من هذا الصراع حتى وفاته سنة ٢٠٥ هـ ، حيث خلفه ابنه أبو النصر • أما الخلافة التى خلصت للمأمون منذ ١٩٨ هـ ، فقد وقفت موقف المترقب المنتظر من المتصارعين بصرف النظر عن موقفهم منهـا الى أن أرسلت عبد الله بن طاهر الى مصر سنة ٢١٠ هـ • انظر للمؤلف ، تاريخ الاسكندرية من الفتح ••• ، فى كتاب تاريخ الاسكندرية ، ط الاسكندرية ، ١٩٦٥ ، ص ٢٧٢ — ٢٧٦ •

(٨٠) الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٢ ، النويرى ، المخطوط ، ص ١٠٨ أ ، ابن الأثير ، من ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٣٠ •

(٨١) انظر النويرى ، المخطوط ، ص ١٠٨ أ (حيث قال منصور : « يابنى تميم لو ان لى بكم قوة ، أو آوى الى ركن شديد ») ، وقارن الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٨٣٢ •

تحت رقابته . ولما كان منصور الطنبذي على علاقة طيبة بالوزير غلبون (الأغلب بن عبد الله بن الأغلب)(٨٢) ، فان هذا الأخير أصلح ما بين منصور وبين زيادة الله الذي صفح بعد قليل عن الطنبذي ، وسمح له بالعودة الى موطنه في منطقة تونس حيث نزل بقصره المعروف هنـاك بـ « طنبذة » في اقليم المحمدية .

وفي المحمدية لم يركن منصور الى الهدوء بل أخذ يراسل قواد الجند ، و « يذكر لهم ما يلقون من زيادة الله ، وما فعل بعمرو بن معاوية وابنيه ، ويخوفهم أن يفعل بهم وبأولادهـم ما فعله بعمرو »(٨٣) . وعنـدما تيقن زيادة الله مما يضمره الطنبذي استعرض جنـده ، وانتخب منهم خمسمائة فارس سيرهم جريدة بقيادة قائده محمد بن حمزة نحو تونس لمفاجأة منصور ، والقبض عليه ، ثم العودة به موثقا الى القيروان(٨٤) .

يوم دار الصناعة : الغدر بجند القيروان في تونس :

وعندما وصل محمد بن حمزة الى تونس لم يكن منصـور الطنبذي هناك ، بل كان في قصره طنبذة بالمحمدية . وهنا دخل ابن حمزة الى دار الصناعة في تونس ، ورأى أن يستخدم المداراة في اقناع منصور بالعودة معه الى القيروان ، فأرسل اليه قاضي تونس ، وهو شجرة بن عيسى ، على رأس وفد من ٤٠ (أربعين) رجلا من مشايخ أهل تونس يتنـاشدونه الطـاعة ، ويعرفونه بما في ذلك من الحظ في دينه ودنياه ، ويدعونه الى الرجوع معهم الى تونس حيث محمد بن حمزة(٨٥) .

ورأى منصور الطنبذي بدوره أن يحتال على قائد زيادة الله ، فأعرب للقاضي شجرة بن عيسى ومن معه من المشايخ أنه لم يخلع يده من الطاعة ،

---

(٨٢) ابن الأثير ، سنة ٢٠٢ ، ج ٦ ص ٣٣٦ .

(٨٣) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٠٨ ب

(٨٤) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٠٨ ب ، وقارن الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ (حيث النص على ٣٠٠ فارس فقط) . ومحمد بن حمزة هذا هو ابن حمزة بن السبال المعروف بالجرون ، الذي كان من كبار قواد ابراهيم بن الأغلب (انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ٣٨٦ ، وعن والده الجرون ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ . وفيما سبق ، ص ٣٥ وحيث مقتله في ج ١ ص ٣٩٤ (حيث شارك الجرون في حرب تمام بن تميم) .

(٨٥) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٠٨ ب ، وانظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٩ ، ابن الأثير سنة ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٣٠ .

ولا أحدث حدثا ، ووعدهم بأن يسير معهم الى محمد بن حمزة فى تونس ، ومن هناك الى الامير فى القيروان ، ولكن على أن يقيموا معه تلك الليلة حتى يقوم بحق الضيافة ازاء عسكر ابن حمزة .

وفعلا أسرع الطنبذى فأرسل هدية الى عسكر القيروان فى تونس ، مكونة من عدد من البقر والغنم واحمال من النبيذ ، كما لم ينس أن يرسل اليهم العلف لدوابهم ، وأرسل مع الهدية كتابا الى محمد بن حمزة يخبره أنه قادم فى الغداة مع القاضى شجرة . وأطمأن محمد بن حمزة الى مقالة منصور واقام هو ورجاله لأنفسهم وليمة عظيمة ، أكلوا فيها حتى الشبع من لحوم البقر والغنم ، وشربوا من الخمر حتى الثمالة . وهكذا ، بينما كان عسكر القيروان فى مدينة تونس منكبين على الطعام والشراب فى ذلك المساء ، كان الطنبذى يقبض على القاضى ومن معه ، ويحبسهم فى قصره ، ويستخدم دوابهم فى حمل المزيد من رجاله وأشياعه ، ويزحف خفية بهم الى تونس . وعندما اقترب الطنبذى من دار الصناعة فى هدوء الليـــل ، أمر بطبوله فضربت ، وعندئذ كبر أصحابه تكبيره رجل واحد وهم ينقضون على ابن حمزة ومن معه .

وانقلبت دار صناعة السفن فى تلك الليلة الموافقة لـ ٢٥ من صفر سنة ٢٠٩ هـ/٢٦ يونية ٨٢٤ م ، من حانة عظيمة الى ميدان قتال : بين الجند من أصحاب ابن حمزة ومن انضم اليهم بالحجارة من عامة تونس ، وبين أصحاب منصور الطنبذى . وانتهت المعركة بمقتل معظم السكارى من رجال جنـــد القيروان ، فلم ينج منهم الا من ألقى بنفسه فى البحر ، وسبح بعيدا عن دار الصناعة(٨٦) .

والظاهر أن الطنبذى أراد أن يعطى ثورته شكل عمل انتقامى أو أخذا بالثار لمقتل عمرو بن معاوية والى القصرين وابنيه حباب وسجمان ، اذ انه قتل والى تونس : اسماعيل بن سفيان بن سالم ، وهو من بيت الأغالبة ، كما قتل ابنه محمدا . هذا ، ولو أن الرواية تقول انه فعـــل ذلك تحت ضغط أصحابه الذين طلبوا اليه أن يؤمن لهم ألا يستميله السلطان بدنياه وماله ، وأن عليه أن يخضب يديه بدم أصحاب زيادة الله اذا أراد أن يثقوا فيه .

---

(٨٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٦ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٠٨ ب ، ١٠٩ أ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ ، ج ٦ ص ٢٣٠ ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٢ .

ويبقوا الى جانبه(٨٧) ·

وعندما وصل الخبر الى زيادة الله ، وجه عسكرا كبيرا من أشداء رجاله بقيادة ابن عمه الوزير غلبون (الأغلب بن عبد الله بن الأغلب) ، وشيعهم بنفسه بعد أن طلب منهم ألا يتراخوا فى قتال العصاة ، بل انه هدد من ينهزم منهم بالقتل(٨٨) · والظاهر أن تهديد زيادة الله لرجاله أتى بنتيجة عكسية . اذ تقول الرواية التى ينقلها النويرى عن الرقيق : « فكان ذلك مما ساءت به نفوس القوم حتى هموا بالوثوب على غلبون » ولم يمنعهم من ذلك الا نصيحة بعض كبار قوادهم ، وهو جعفر بن معبد ، الذى قال لهم : « لا تحملكم اساءة زيادة الله فيكم أن تغدروا بمن أحسن اليكم ، وفك رقابكم » · وتفسر الرواية ذلك بأن غلبون كان يعتنى بأمر القواد عند زيادة الله(٨٩) ·

ثورة منصور الطنبذى تستشرى :

وهكذا خرج غلبون فى العاشر من ربيع الأول من ٢٠٩ هـ/٨ يولية ٨٢٤ م(٩٠) ، على رأس جيش كثيف يحوى صناديد العسكر ووجوه الرجال، ولكنهم لم يكونوا خالصى النية ، بل كانوا يضمرون الغدر ، كما تقول رواية النويرى : «عندما وصلوا الى سبخة تونس كاتبوا رجال منصور ، ووعدوهم بالانهزام أمامهم وقت اللقاء(٩١) · هذا ، ولو أن رواية ابن عذارى تنص على أن عسكر القيروان فعل ما فى طاقته ، وأنهم اقتتلوا ورجال منصور الطنبذى مليا ، وأن الهزيمة التى لحقت ، فى ٢٠ ربيع الاول/١٨ يولية ، برجال زيادة الله كانت نتيجة حملة عظيمة نظمها الطنبذى ، ولم يستطع غلبون ورجاله الصمود أمامها(٩٢) ·

---

(٨٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٩ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ ، ج ٦ ص ٣٣١ ، وقارن النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٠٩ أ ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٧ ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٣ ·

(٨٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٩ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ ، ج ٦ ص ٣٣١ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٠٩ أ ، وقارن الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨١ (عن بنى عبد الله بن الأغلب ومشاركتهم فى حرب الطنبذى) ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٨ ·

(٨٩) نهاية الأرب ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٠٩ أ ·

(٩٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٩ ·

(٩١) النويرى ، نهاية الأرب ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٠٩ أ ·

(٩٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٠ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٣١ (الذى يحدد الهزيمة بالعاشر من ربيع الأول ، وهو تاريخ المسيرة عند ابن عذارى الذى يحدد الهزيمة بعشر بقين من ربيع الأول ، وهو ما أخذنا به) ·

وخشية أن ينفذ زيادة الله ما كان قد توعدهم به من القتـــل ، انفض قواد غلبون من حوله بعد أن وعدوه بالعودة إلى القيروان اذا أخذ لهم الأمان من زيادة الله — انشاء الله . وبينما عاد غلبون الى القيروان ، وهو يعتذر لزيادة الله عن الهزيمة ، ويحلف أن رجـــاله نصحوا واجتهدوا ، وان الهزيمة اكانت قضاء من عند الله لا يرد(٩٣) ، كان بعض القواد قد انصرفوا الى أطـــراف البلاد ، يتغلبون عليها ، حتى « اضطربت افريقية ، فصارت نارا تتقد » ، كما يقول نص النويرى(٩٤) . كما إنضم آخرون إلى عسكر منصور الطنبذى، « وأعطوه أزمة أمورهم ، وولوه على أنفسهم »(٩٥) .

« ملوك الطوائف » بافريقية :

وازاء اختلال الأمور وتفاقم حركات التمرد ، وأمام نصائح ابن عمه ووزيره غلبون ، رأى زيادة الله ان يحاول استعادة ثقة قواده الثوار ، فكتب اليهم ما كانوا قد طلبوه من الأمان ، فبعثه اليهم فى الصكوك . ولكنهم لم يثقوا بأمانه ، وظلوا على ما كانوا عليه من شق عصا الطاعة(٩٦) . وهكذا خرجت كثير من المدن عن حكم زيادة الله ، واستبد بها القواد الذين دخلوا فى طاعة الطنبذى ، مثـــل : باجة ، والجـــزيرة ، وصطفورة ، وبنزرت ، والأربس ، وغيرها(٩٧) ، مما يمكن ان يشبه بحكم ملوك الطوائف .

وبذلك قويت جموع الطنبذى بمن توافد عليه من كل جهة ومكان ، حتى أنه فكر فى غزو القيروان بجيش جعل قيادته الى بعض قواده ، وهو عامر بن نافع الذى نجح فى الحاق الهزيمة بالجيش الـــذى سيره زيادة الله اليهم ، وعقد لواءه لابن عمه محمد بن عبـــد الله بن الأغلب ، أخى الوزير غلبون . والظاهر أن هزيمة الجيش الأغلبى أمام قوات عامر بن نافع كانت شنيعة ، اذ انجلت المعركة عن سقوط عدد كبير من كبـــار قواد الأغالبة ، مثل : محمد بن غلبون ، وعبد الله بن الأغلب ، ومحمد بن حمزة الزاوى ،

---

(٩٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٠ .

(٩٤) نهاية الأرب ، المخطوط ، ج ٢٣ ، ص ١٠٩ ب ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٠

(٩٥) انظر ابن عـــذارى ، ج ١ ص ١٠٠ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٠٩ ب (وهما ينقلان من مصدر واحد ربما كان الرقيق) ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٠٢ هـ ، ج ١ ص ٢٣١ .

(٩٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٠ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٣ ، ص ١٠٩ ب .

(٩٧) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٢٣١ ، وقارن ابن خلدون ج ٤ ـ

وغيرهم ، كما قتلت الرجالة عن آخرهم ، حسب مبالغة رواية النويري(٩٨) ·
والظاهر أن هذا النصر الكبير شجع منصورا الطنبذي ، وقوى قلبه على محاولة أخذ القيروان ، وانهاء حكم زيادة الله · ولا بأس أن يكون عساكر الأغالبة الذين انضموا الى الطنبذي كانوا يحثون هذا الأخير على الذهاب الى القيروان حيث كانت عيالاتهم وذراريهم · ذلك رغم ما تقوله رواية الرقيق — على ما نظن — من أن هذا الأمر حدث بعد انهزام عسكر الطنبذي أمام قوات زيادة الله نحو تونس ، كما يأتي(٩٩) · وهذا لا يمنع أن يكون ذلك قد حدث في المرتين جميعا ·

والمهم ان الطنبذي حشد رجاله في تونس ، وخرج منها نحو القيروان حيث وصل في ٥ من جمادى الأولى سنة ٢٠٩ هـ/٢ سبتمبر ٨٢٤ · وتقول الرواية : ان القاضيين أبا محرز وأسد بن الفرات خرجا الى منصور حيث جرى بينهم حديث كان القاضيان يهدفان من ورائه الى اقناع منصور بحقن الدماء ، والعودة الى الطاعة ، بينما كان الطنبذي يسعىَ الى ضم قاضيي القيروان الى جانبه ، ولكن المحادثات لم تنته الى اتفاق ما(١٠٠) · وانتهى الأمر بأن عسكر منصور قرب القيروان حيث حفر خندقا حول معسكره(١٠١) ، بينما زحف زيادة الله على رأس قواته من القصر القديم (العباسية) حيث اتخذ موضعا له بين القيروان والقصر ، وحفر هو الآخر خندقا حول معسكره(١٠٢) ·

---

(٩٨) نهاية الارب ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٠٩ ب ، وقارن ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٨ · حيث يؤخذ على الرواية الاضطراب الزمني من حيث عدم تسلسل الأحداث تسلسلا منطقيا · وعن عامر بن نافع الذي ينتسب الى قبيلة مذحج ، والذي خدم أقاربه العباسيين الأوائل ، وكان منهم عامر بن اسماعيل بن عامر بن نافع قاتل مروان بن محمد ، وابنه يحيى بن عامر الذي خدم المأمون ووقف ضده عندما رفض مبايعة على الرضا بولاية العهد حتى دفع حياته ثمنـــا لذلك ــ انظر الحلة السيراء ج ٢ ص ٣٨٣ و هـ ٢ لحسين مؤنس ·

(٩٩) انظر فيما بعد ص ٥٦ ·

(١٠٠) انظر ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠٠ ، وقارن مدارك القاضي عياض ، ص ٤٧٩ ، وتراجم اغلبية (تحقيق محمد الطالبي ، تونس ١٩٦٨) ، ص ٦٩ (حيث تقول الرواية ان الطنبذي عندما قال للقاضيين : أخرجا معنا ، أما تعلمان ان هذا ظلم المسلمين : قال أبو محرز وقد خاف منه · نعم ، واليهود والنصارى · أما أسد فقال له : قد كنتم أعوانا له وأنتم وهو على مثل هذه الحال) ، وانظر المالكي ، ج ١ ص ١٧٦ ·

(١٠١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠٠ ·

(١٠٢) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٠٩ ب (حيث يقول ان زيادة الله نزل بين السماط والقصر) ، وقارن ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٨ (حيث النص على حصار زيادة الله في العباسية) ·

وبذلك تحولت الحرب بين منصور وزيادة الله الى حرب خنادق بدلا من حرب الميادين المكشوفة . واستمرت الحرب سجالا بين الجانبين : يوم لهذا ويوم لذاك . وخلال تلك المناوشات انقسم أهل القيروان الى جانب الطنبذى ضد أميرهم ، فكانت مكافأتهم على ذلك أن عمر منصور سور القيروان — الذى كان خربه ابراهيم بن الأغلب — حتى تستطيع الصمود فى المقاومة . واستمر الحال على هذا المنوال طوال أربعين يوما(١٠٣) ، ثم يبق بين يدى زيادة الله فيها ، من افريقية كلها الا : الساحل ، ومدينة قابس ، ونفزاوة ، وطرابلس التى تمسكت بطاعته(١٠٤) . وهكذا ملك منصور معظم بلاد زيادة الله وبلغ به الأمر الى حد أن ضرب السكة باسمه(١٠٥) ، رمز الامارة والسيادة .

صنف من الرجال تزيده الشدائد صلابة :

زيادة الله يطاول الطنبذى على ابواب القيروان :

والظاهر أن زيادة الله كان من ذلك النوع من الرجال الذين لا تزيدهم الشدائد الا صلابة واصرارا . فبينما كان الجند من المتمردين ، وممن انضموا الى صفوف منصور الطنبذى يكتبون الى زيادة الله : « أن ارحل حيث شئت عن افريقية ، ولك الأمان فى نفسك ومالك ، وما ضمه قصرك »(١٠٦) ، كان هو لا ييأس بل يعد العدة لمواصلة الكفاح .

مابين الانتصار فى القيروان والهزيمة فى سبيبة :

فلقد جمع حشدا عظيما من أصحابه ، عبأهم تعبئة جيدة فى هيئة القتال ، من : قلب وميمنة وميسرة ، ومن فرسان ورجالة ، وزحف بهم نحو

---

(١٠٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٠ . ابن الأثير ، سنة ٢٠١ ، ج ٦ ص ٣٢١ .

(١٠٤) انظر ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ أ (حيث لم يبق بين يدى زيادة الله الا الساحل وقابس) ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٨ .

(١٠٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ . وانظر حسن حسنى عبد الوهاب ، الورقات ، ج ١ ص ٤٣٠ (حيث الاشارة الى وصول درهم فضة من نقود الطنبذى ، يوصف بأنه مثل الأغلبى تماما ، غير انه بدل بكلمة « غلب » رمز الأغالبة كلمة « عدل » ، وفيه اسم « منصور ابن نصر » . وتاريخه ٢٢٠ هـ/٨٢٥ م) .

(١٠٦) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ (حيث ذكر عقب هزيمة منصور الآتية) ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٨ .

منصور ، وهم خلق كثير • وارتاع الطنبذى عنـــدما رأى قوات زيادة الله واستهول جمعهم ، اذ كان يظن أن الضعف والوهن هو صـــفة زيادة الله المميزة • ورغم ذلك فقد تقدم الطنبذى الى لقـــاء العسكر الأغلبى ، وانتهى القتال الشديد بانهزام منصور الى قصره بتونس ، بينما لاذ رجاله بالفرار فى كل وجه ، بعد أن بقى الكثير منهم مجندلين فى أرض المعركة ، وذلك فى منتصف جمادى الاخرى سنة ٢٠٩ هـ/١٢ أكتوبر ٨٢٤ م(١٠٧) •

وقرر زيادة الله الانتقام من أهل القيروان الذين انضموا الى عـــدوه ـ والذين كانوا قد فعلوا مثل ذلك على عهد والده ابراهيم ، عندما خـــرج عليه عمران بن مجالد ـ بل وشجعه قواده على ذلك لولا تدخل أهل الورع والدين • فاكتفى من ذلك بهدم ســـور القيروان ، الذى ساعد الطنبذى فى ترميمه ، حتى سواه بالأرض بعد أن نزع أبوابه(١٠٨) ، الا أنه لم يعرض لعيال الجند من المتمردين أو ذراريهم ، ممن كانوا قد تركوهم فى القيروان •

وكانت هزيمة قوات الطنبذى أمام القيروان حاسمة من حيث أنهـــا قررت فشل مخطط منصور فى الاستيلاء على افريقية ، بعد أن دب الانشقاق بين صفوف أتباعه ، مثل : عبد السلام بن المفرج ، وعامر بن نافع الذى كان قد عاد الى بلدته سبيبة • ولقد أراد زيادة الله أن يستغل الفرصة ، فيبدأ بالقضاء على أقوى أعوان منصور من المنشقين ، وهو عامر بن نافع ، فأعد جيشا كبيرا سير على رأسه ابن عمه محمد بن عبد الله بن الأغلب ، يعاونه بعض أفراد الأسرة الأغلبية ، وعدد من كبار القواد • وتم اللقاء قرب سبيبة بين الجند الأغلبى وبين رجال عامر بن نافع فى ٢٠ محرم سنة ٢١٠ هـ/٤ مايه ٨٢٥ م ، وانتهى بهزيمة نكراء لجيش زيادة الله ، اذ قتل قائده : محمد ابن عبد الله بن الأغلب ، بينما تمادت هزيمة الرجال حتى القيروان(١٠٩) •

---

(١٠٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٠ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ •

(١٠٨) انظر ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٣٢ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٠ : الذى يقول أن زيادة الله عفا عن أهل القيروان ، والنويرى بالمخطوط ، ج ٢٢ ص ١٠٩ ب • حيث تقول الرواية أن زيادة الله قال لأصحابه : « انى عاهدت الله ان ظفرت ان اعفو وأصفح • فعفا عنهم » •

(١٠٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٢ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٠٢ هـ ج ٦ ص ٣٣٢ (حيث يقول ان محمد بن عبد الله بن الأغلب لم يقتل بل عاد منهزما بمن معه الى القيروان) •

وكان من الطبيعي أن تثير الكسرة المؤلمة الهم والغم في نفس زيادة الله(١١٠) ، وأن تشجع منصورا الطنبذي على العودة مرة ثانية من تونس الى القيروان ، أمام الحاح الجند الذين كانوا يرغبون في نقل عيالاتهم من القيروان .

وتقول الرواية أن زيادة الله أخذ في جمع الرجال ، ولم يبخل في سبيل ذلك في بذل المال ، بينما كان الطنبذي يزحف نحو القيروان حيث ضرب الحصار على زيادة الله في قصره بالعباسية لمدة ١٦ (ستة عشر) يوما ، ولكن دون قتال . وفي هذه الأثناء استعاد الجند من الثوار نساءهم وأولادهم من القيروان ثم ان الطنبذي عاد بعساكره الى تونس(١١١) .

علاقة غريبة بالخلافة وسط دوامة الاضطراب :

ووسط دوامة الاضطراب هذه تجد الخلافة التي بدأت أمورها تستقر في المشرق بعد ثبات موقف المأمون في بغداد ، واستقرار الأمور في الشام ثم في مصر التي كان قد سار اليها عبد الله بن طاهر بن الحسين ، تبعث الى زيادة الله رسلها طالبة منه تأكيد طاعته ليس للخلافة فقط ، بل ولعبد الله بن طاهر الذي آلت اليه ادارة القسم الغربي من بلاد الخلافة ، وذلك بالدعاء على منابره للطاهري .

ولا ندرى ان كان رجال ديوان بغداد أرادوا انتهاز فرصة المصاعب التي كانت تحيط بزيادة الله لكي يحصلوا منه على تأكيد الطاعة للخلافة وتجديد البيعة للمأمون ، أم أن الخلافة كانت تقصد بذلك تقديم تأييدها المعنوي للأمير الأغلبي في صراعه مع الثوار من قواد عسكره — فالمعروف أن زيادة وقف الى جانب المأمون أثناء ادعاء ابراهيم بن المهدي الخلافة عقب مقتل الأمين ، وهو الأمر الذي حمده له المأمون « فكاتبه وشكر له فعله »(١١٢) .

ولا بأس أن يكون زيادة الله قد فهم مقصد الخلافة على هذين الوجهين

---

(١١٠) انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٦ : حيث الاشارة الى ما أثارته هزيمة صبيبة من الخوف في نفس زيادة الله ب الشاعر — حتى أنه أنشد ، بعد أن دخلت عليه أمه جلاجل تصبره وتسهل عليه الأمر ، أبياتا منها :

أمنت صبيبة كل قرم باسل ... وبنى العبيد جعلتها أبطالا

فاذا ذكرت مصابنا بصبيبة ... فابكي جلاجل واندبي أهوالا

(١١١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ ، ابن الأثير سنة ٢٠١ ج ٦ ص ٣٢٢ .

(١١٢) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٦ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ١٦ .

جميعا • فهو اذ يعرب عن طــاعته للخــلافة ، يحرص فى نفس الوقت على استقلاله ، ويرفض ، بعنف ، الدعاء لابن طاهر ، واصفا اياه بـ « عبد خزاعة » كما يعبر ــ عن طريق هديته من الدنانير الادريسية ــ عن وقوفه بالمرصاد لأعداء الخلافة العباسية من العلويين فى المغرب • ولكنه بعد سورة الغضب يعمل على استرضاء الخلافة فى خطاب ثان اتبعه خطابه الأول(١١٣) •

حدث ذلك حوالى سنة ٢١٠ هـ/٨٢٥ م ، وقتما كان ابن طاهر فى مصر ، أى قريب الوقت الذى كان زيادة الله يعانى من حصر خصومه له قرب القيروان والعباسية ، وحينما كان الامــير الأغلبى لا يجــد له خلاصا من همومه الا باغراقها فى الخمر •

انتقال الصراع الى الجنوب التونسى ، حيث عامر بن نافع :

وخلال ذلك الحصار تحرج موقف زيادة الله مرة اخرى ، وخاصة عندما عاود قواد الجند من المتمردين الحاحهم عليه فى الخروج من افريقيــة بالأمان على نفسه وماله ، حتى أنه بدأ يشاور اقاربه وأخصاءه فى الأمر • وكان ممن استشارهم قائده سفيان بن سوادة الذى أفهمه أن الامر لم يكن بالدرجة التى يتصورها من السوء ، وطلب اليه أن يمكنه من النظر فى ديوان الجيش • وعندما قدم له زيادة الله سجل العسكر انتقى سفيان بن ســوادة مائتى فارس ، ممن يثق بهم ، فأغدق عليهم بالمال ليعدوا أنفسهم خير اعداد ، وخرج بهم الى اقليم نفزاوة(١١٤) • وكان هدف ابن سوادة الا يحارب فقط بفرسانه الذين اختارهم من صناديد الأبطال ، بل أن يكونوا نواة لجيش يستنفره من البربر والعرب لمواجهة عامر بن نافع الذى كان يزمع قصد ذلك الاقليم • ووصل ابن سوادة على رأس فرسانه الى نفزاوة التى كان على ولايتها القائد عبد الصمد بن جناح الباهلى(١١٥) ، ودعا أهل الاقليم من البربر فأجابوه ، واجتمع اليه خلق كثير من زناتة وغيرهم من القبائل •

ونجح سفيان بن سوادة فى فتح الاقليم بلدا بلدا حتى وصل الى حدود

---

(١١٣) الحلة السيراء ج ١ ص ١٦٦ ، وانظر فيما بعد ، ص ٦٤ •

(١١٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ أ ، ابن الاثير ، سنة ٢٠١ هـ ج ٦ ص ٢٣٣ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ (حيث يجعل عدد من انتقاهم سوادة مائة فارس فقط) ، انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨٣ •

(١١٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ أ •

قسطيلية حيث كان عامر بن نافع قد وصل فعلا(١١٦) .

وفي قسطيلية حشد عامر بن نافع العبيد من السودان ، حتى جمع منهم ألف أسود من العاملين في فلاحة الأرض ، وذلك أن سلاحهم الذي حملوه كان يتكون من الفؤوس والمساحي ، وضمهم الى رجاله . ومن قسطيلية اتجه عامر نحو نفزاوة حيث اتخذ مدينة تقيوس مركزا لقيادته(١١٧) . وعندئذ خرج سفيان بن سوادة بقواته الى لقاء عامر ، وانتهى القتال الدامي بهزيمة الجند المتمردين أصحاب عامر ، وقتل أعداد كبيرة منهم . وانسحب عامر الى قسطيلية حيث اندفع في جباية أموالها دون رأفة بأهلها ، طوال ثلاثة أيام بلياليها قبل أن يخرج بأحمال المال بعد أن ترك بها من يضبطها من رجاله(١١٨) .

ورغم ما يقوله بن عذارى من أن عامر بن نافع خرج من قسطيلية يريد القيروان ، فالواضح من النصوص أنه خرج منها متماديا في الهزيمة نحو تونس حيث بقية الجند المتمرد مع منصور الطنبذي . وذلك أنه ما أن خرج من قسطيلية حتى استصرخ أهلها ابن سوادة الذي سار اليهم برجاله ، فملك الاقليم وولى عليه أعوانه لضبطه واقرار الأمن والنظام فيه(١١٩) . ثم انه بمجرد استقراره في اقليم تونس ، مهد الفتنة ، قام الصراع بينه وبين منصور الطنبذي .

ظروف مواتية لزيادة الله :

الصراع بين منصور الطنبذي ، وعامر بن نافع في تونس :

كان من الطبيعي أن يقوم الصراع بين الطنبذي ، ومن قائده ابن نافع الذي كان يعتبر نفسه ندا لرئيسه ، ولا يقبل أن يعامله منصور معاملة التابع . وكانت تلك المحاسدة تظهر ، عادة ، وهما في مجالس الشراب

---

(١١٦) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ أ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ج ٦ ص ٣٣٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ . وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٨ حيث النص على أن قتال نافع في نفزاوة ثم استيلاء سفيان على قسطيلية كان في سنة ٢٠٩ هـ ، أي عقب هزيمة منصور الطنبذي مباشرة .

(١١٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ .

(١١٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، ج ٦ ص ٣٣٢ .

(١١٩) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ٢ ج ٦ ص ٣٣٢ .

حيث تأججهما نشوة السكر(١٢٠) • وأثر توعد منصور لعامر ذات مرة رأى هذا الأخير أن يبدأ هو بالتخلص من منصور ، فاستمال الجند الى جانبه ، وأسرع من تونس ، لمفاجأة منصور وهو فى قصره بالمحمدية ، وضرب عليه الحصار الذى طال حتى فنى ما كان فى الحصن من الماء • وجرى السفراء بين الخاصمين وانتهى الامر الى أن عرض منصور أن يسمح له بالخروج على الأمان فى بعض السفن الى المشرق ، وأجابه عامر الى ذلك(١٢١) •

عامر يغدر بمنصور :

ولكن الطنبذى عندما تأمل فى الامر مع أصحابه استمع الى نصيحة من أشار عليه بألا يخضع لضيم عامر بن نافع ، وأنه يمكنه الالتجاء الى مدينة الاربس حيث له كثير من الأعوان • ونفذ منصور تلك النصيحة فخرج من قصر طنبذة مستخفيا أثناء الليل الى الاربس ، وتحصن بها • وعندما عرف عامر فى صباح اليوم التالى بتلك الخديعة سار فى اثر منصور الى الأربس ، وضرب عليه الحصار • ومع طول الحصر ضج أهل المدينة ، وكلموا منصورا فى الخروج من مدينتهم ، فطلب منهم أن يمهلوه بعض الوقت حتى ينظر فى أمر خلاصه(١٢٢) •

وأرسل منصور الى بعض كبار قواد ابن نافع • وهو عبد السلام ابن المفرج اليشكرى ، فطلب الاجتماع به • وعندما حضر عبد السلام كلمه الطنبذى من أعلى السور ، فعدد له أياديه البيضاء على الجند ، وطلب منه الوساطة لكى يحصل من عامر على الأمان وعاهده على أن يسير الى المشرق • ونجح عبد السلام بن المفرج فى الحصول على الأمان لمنصور على أن يخرج فى صحبة بعض فرسان عامر الى تونس حيث يأخذ أهله وحاشيته ، ويسير بهم الى المشرق(١٢٣) ، فى بعض السفن(١٢٤) •

والحقيقة أن عامر بن نافع عندما أسعف الطنبذى بالأمان كان يدبر

---

(١٢٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ ، وانظر الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٤ •

(١٢١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠١ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ أ ، ابن الاثير ، سنة ٢١١ هـ ج ٦ ص ٤٠٤ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٨ •

(١٢٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٢ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ ب ، ابن الاثير ، سنة ٢١١ هـ ، ج ٦ ص ٤٠٥ •

(١٢٣) ابن الأثير ، سنة ٢١١ هـ ، ج ٦ ص ٤٠٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٢ ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٥ •

(١٢٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ ب •

الغدر به ، حتى لا تتكرر منه خديعته السابقة في المحمدية . وذلك أن عامرا أمر صاحب خيله الذي صحب منصورا في السفينة من تونس بأن يعرج به على جزيرة جربة ، وهناك كان عليه أن يأمر بحبسه لدى الوالي ، وهو ابنه حمديس بن عامر(١٢٥) . وتم لعامر ما أراد ، فحبس منصور الطنبذي وأخوه حمدون(١٢٦) في جربة .

وعندما علم القائد عبد السلام بن المفرج الذي توسط في الأمان ، وهو بباجة ، بغدر عامر ، ثارت ثائرته ، هو وأصحابه ، وقبضوا على هاشم أخي عامر ، وكان واليا على باجة ، وهددوا نافعا بقتل أخيه هاشم ان لم يطلق سراح المنصور . ورفض عامر التهديد ، بل وهدد بدوره عبد السلام وأصحابه من الجند بسوء العاقبة ان نفذوا تهديدهم . وانتهى الأمر بأن أفرج عبد السلام عن هاشم بن نافع بينما أرسل عامر الى ابنه حمديس في جربة يطلب منه أن يضرب عنق كل من منصور وأخيه حمدون(١٢٧) .

نهاية منصور الطنبذي

الحكم عليه بالاعدام :

وأحضر حمديس بن عامر الطنبذي وأخاه حمدون ، في ساحة الاعدام حيث قرىء عليهما ، كما يحدث في المحاكمات الحديثة ، كتاب عامر بتنفيذ العقوبة العظمى فيهما ، وهي الموت بالسيف دون مراجعة ، أي استئناف .

وكانت نهاية تعسة بالنسبة لبطل الأمس الذي كان ينازع أمير افريقية ملكه ويضرب عليه الحصار ، ويطلب اليه أن يخرج من البلاد ، اذ أنه عندما سمع منصور بالحكم العظيم ، طلب — بشجاعة تليق بمثله — دواة وقرطاسا ليكتب وصيته ، ولكن خانته شجاعته اذ لم يستطع الكتابة ، واكتفى بأن قال شفويا ، على كل حال : « فاز المقتول بخير الدنيا والآخرة »(١٢٨) .
وهذا ما يذكرنا برد أسد بن الفرات على تهديد عمران بن مجالد ، ابان ثورتا

---

(١٢٥) انظر النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ ب (حيث قرنه بدلا من جربه) ابن الأثير سنة ٢١١ هـ ، ج ٦ ص ٤٠٥ (حيث يقول ان وال جربة كان لنا لعامر وليس ابنا له) ، ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠٢ .

(١٢٦) ابن الأثير ، سنة ٢١١ هـ ، ج ٦ ص ٤٠٥ .

(١٢٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠٢ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ ب .

(١٢٨) ابن الأثير ، سنة ٢١١ هـ ج ٦ ص ٤٠٥ ، وقارن الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨١ (حيث النص الأخير : « فاز المقتول ... » ، وليس « فاز القتول ... ») .

على ابراهيم بن الأغلب ، اياه ان لم يخرج معه ، بانه ان لم يكف عمران عنه ، ليبتدين في حق تلك الثورة ، ان : « القاتل والمقتول في النار »(١٢٩) .

نتائج مقتل الطنبذي في صفوف الجند المتمرد :

د- المنافسون جدد لعامر بن نافع :

وهكذا انتهى منصور الطنبذي الى القتل بيدي أكبر أعوانه عامر بن نافع ، الذي ظن أن الأمور استقامت له في تونس ، بعد أن تخلص من قائده ومنافسه الكبير ، وان ظهر له منافس جديد هو الآخر ، في شخص قائده الموتور : عبد السلام بن المفرج الذي استقل باقليم باجة .

ويفهم من النصوص التي أوردها كل من النويري وبن الابار أنه كان من السهل على زيادة الله التنبؤ بفشل حزب عامر اثر ذلك . فعندما علم بنهاية منصور ، كتب الى عامر بن نافع يدعوه الى الطاعة ، « ويحذره عاقبة منصور الطنبذي قتيله » ، ويبذل له الامان ومن معه ، ويعده « بأنه معيده الى ما كان عليه مع أبيه ابراهيم بن الأغلب وأخيه عبد الله بن ابراهيم » . ورد عليه نافع برسالة بليغة ، وهو يعدد له مساوىء أفعاله ، ويقول في آخر كتابه : « ما بيني وبينك هوادة حتى تضع الحرب أوزارها ، ويحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين »(١٣٠) .

وفعلا لم يمر مقتل منصور الطنبذي وأخيه حمدون دون ردود فعل عنيفة بين الجند الأغلبي المتمرد ، وخاصة بين المضرية منهم ، الذين وجدوا على عامر فنافروه وحاربوه ، وانضموا الى جانب عبد السلام بن المفرج الذي رفع راية الأخذ بالثار للمقتول المظلوم . وانتهت المنافرة بخروج بن المفرج من باجة حيث كان قد استقر ، نحو تونس لحرب عامر ، وانتهى القتال بظفر عبد السلام وانهزام عامر الى جربة حيث كان ابنه حمديس(١٣١) .

---

(١٢٩) انظر فيما سبق ، ص ٣٧ و هـ ٤٦ .

(١٣٠) النويري ، المخطوط ، ج ٢١ ص ١١٠ ب ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٤ — ٣٨٥ (حيث نص الرسالة في اولها وآخرها) .

(١٣١) انظر النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ ب (حيث قرأنه بدلا من تجربة) . وقارن ابن الاثير ، سنة ٢١١ هـ ، ج ٦ ص ٤٠٥ (الذي لا يذكر تلك الحرب ويكتفي بالاشارة الى لقاء عامر بتونس) . ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٣ (الذي لا يشير الى تلك الأحداث) .

تحسن الموقف بالنسبة لزيادة الله :

قرار فتح صقلية ، ووفاة عامر بن نافع :

وبذلك تفرق شمل الجند الأغلبي المتمرد مما حسن موقف زيادة الله ، حتى أنه اتخذ قراره الخطير بفتح صقلية فى سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ، أى أثناء تلك الثورة العارمة . وفى السنة التالية (٢١٣ هـ/٨٢٨ م) اعتل عامر علته التى مات فيها(١٣٢) . وقبل أن يموت عامر بن نافع على فراشه ، حسب رواية بن عذارى (١٣٣) ، استدعى أولاده ، كما تنص رواية النويرى ، وقال لهم : « يابنى ما رأيت فى الخلاف خيرا ، فاذا أنا مت ودفنتمونى ، فلا تعرجوا على شىء حتى تلحقوا بزيادة الله فهو من أهل بيت عفو ، وأرجو أن يسر بكم ويقبلكم أحسن قبول »(١٣٤) .

ولقد نفذ أبناء عامر وصية والدهم بعد وفاته ، فأتوا زيادة الله طائعين مستأمنين ، كما جعل الجند يتسللون اليه ويستأمنون ، وهو يؤمنهم ويحسن اليهم(١٣٥) .

نهاية الفتنة :

وهكذا حق لزيادة الله أن يقول عندما بلغه نبأ وفاة عامر بن نافع : « الآن وضعت الحرب أوزارها » . واذا كان النويرى قد أخذ هذا التصريح بنصه الحرفى فجعل القضاء على عبد السلام بن المفرج لا يتطلب وقتا طويلا ولا مجهودا كبيرا من العسكر الأغلبى الذى ضيق عليه الحصار فى باجة ، حتى انتهى الأمر بموته عطشا(١٣٦) ، فمن الواضح أن الأمر لم يكن كذلك . فابن الأبار يعلق على تصريح زيادة الله عن نهاية الحرب بنهاية عامر ، بقوله : « فكان كذلك : لم يزل أمر الجند مدبرا حتى انقضت الحرب وطفئت الثائرة »

---

(١٣٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٢ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢١١ هـ ج ٦ ص ٤٠٥ (الذى يحدد موت عامر بن نافع بسنة ٢١٤ هـ/٨٢٩ م — وهو ما يأخذ به ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٨) .

(١٣٣) البيان ، ج ١ ص ١٠٣ .

(١٣٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٠ ب ، ١١١ أ ، وانظر الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٥ .

(١٣٥) النويرى ، المخطوط ، ص ١١١ أ .

(١٣٦) النويرى ، المخطوط ، ص ١١١ أ .

وصمت له افريقية(١٣٧) ، مما يعني ان القضاء على ذيول الفتنة تطلب بعض الوقت ، وانه لا بأس أن يكون التخلص من عبد السلام قد حدث في سنة ٢١٨ هـ/٨٣٢ - ٨٣٣ م ، كما تنص بعض الروايات ٠

والحقيقة انه توجد اشارات في ابن الأثير ، وابن خلدون تشير الى مقتل عبد السلام بن المفرج في سنة ٢١٨ هـ/٨٣٢ - ٨٣٣ م ، اثر اشتراكه في ثورة جزيرة شريك التي قام بها فضل بن أبي العنبر ، كما يأتي ٠ وهذا يعني ، كما ينص ابن خلدون ، ان عبد السلام بن المفرج استقر في باجة لمدة خمس سنوات تالية على وفاة عامر بن نافع(١٣٨) ، وهو الأمر المقبول ، سواء كان ذلك بتقليد من الأمير زيادة الله أم بالتغلب على الاقليم(١٣٩) ٠

والمهم أنه بوفاة عامر انتهت تلك الفتنة التي طالت الى أكثر من ١٣ (ثلاثة عشر) عاما ، واستقامت الأمور لزيادة الله ، ابتداء من سنة ٢١٣ - ٢١٤ هـ/٨٢٨ - ٨٢٩ م ٠ ولا بأس في أن يكون زيادة الله قد بدأ حركة التهدئة منذ سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ، عندما وجه أنظاره نحو غزو صقلية ، حيث كان يمكنه أن يوجه نشاط جنده المتمرد الى الجهاد بدلا من اثارة الفتنة في البلاد(١٤٠) ٠

اضطرابات خفيفة بين الجند ، وخاصة في تونس :

وهذا لم يمنع بطبيعة الحال من قيام بعض الفتن في البلاد ، مما استطاع زيادة الله أن يقضي عليه بسهولة ٠ ففي حوليات ابن عذاري ، مثلا : ذكر لفتنة وقعت سنة ٢١٦ هـ/٨٣١ م بافريقية بين رئيسين من رؤساء الجند ، هما : مطيع السلمي ، واسماعيل بن الصمصامة ، انتهت بهزيمة مطيع وقتله ، وقرار أصحابه(١٤١) ٠ وفي سنة ٢١٨ هـ/٨٣٣ م عادت منطقة تونس الى

---

(١٣٧) الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٨٥ ٠

(١٣٨) ابن الأثير ، سنة ٢١٨ هـ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٨ ٠

(١٣٩) وهنا يجب أن نشير الى اننا لا نشكك في تلك الرواية الا ما ينص عليه ابن خلدون - بعدها - من ان غزو صقلية كان في سنة ٢١٩ هـ/٣٣ - ٨٣٤ م التالية ، بدلا من سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ، وكان هناك نوعا من العلاقة بين الحادثتين ، مما يسمح بالنظر في رواية النويري التي بدأنا بها ، والتي تكاد تربط بين وفاة كل من عامر بن نافع وعبد السلام حوالي سنة ٢١٣ هـ - ٢١٤ هـ ٠

(١٤٠) انظر الفصول الخاصة بفتح صقلية ، ص ٢١٠ وما بعدها ٠

(١٤١) البيان ج ١ - ص ١٠٤ ٠

الاضطراب من جديد ، عندما ثار بجزيرة شريك قائد من قواد الجند اسمه فضل بن أبي العنبر ، ونجح في هزيمة العسكر الذي وجههم اليه زيادة الله ، فتغلب على المنطقة ، وأعلن الاستقلال بها(١٤٢) • ولقد استجاب عبد السلام ابن المفرج لطلب المعونة من قبل الفضل ، فخرج من باجة الى جزيرة شريك • ولكن الرجلين لم يستطيعا مواجهة القوات الاغلبية ، وانتهى الأمر بمقتل عبد السلام بن المفرج ، كما سبق ، بينما انهزم الفضل الى تونس وامتنع بها • وسير زيادة الله جيشا كثيفا الى تونس بقيادة ابن عمه ، والى صقلية ، أبى فهر محمد بن عبد الله بن الأغلب ، ففر الفضل من تونس ، كما نجح في الافلات كثير من عسكره • واقتحم العسكر الأميري المدينة ، وقتلوا كثيرا من أهلها ، وهرب آخرون(١٤٣) • والظاهر أن الفقهاء كان لهم دورهم في تلك الثورة ، عن طريق قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، اذ يذكر ابن عذاري - بهذه المناسبة - قتل عباس بن الوليد الفقيه الصالح(١٤٤) •

العفو عن المتمردين :

وفي السنة التالية (٢١٩ هـ/٨٣٤ م) أعلن زيادة الله العفو عن كل من شارك في تلك الثورة ، وأفلت من تونس • فاستجاب له أهل المنطقة ، وركن الاقليم الى الهدوء والسكينة(١٤٥) •

وكان من بين من امتأمن عبد الرحمن وعلي ابنا أبي سلمة، وأبو العزاف، وكانوا شعراء فصحاء ، فمدحه عبد الرحمن بقصيدة ارتاح لها الامير • وعندما قام شاعر الأمير : يعقوب بن يحيى ، يحرضه على بني سلمة وأبي العزاف ، بأبيات يقول فيها :

تسمع أيها الملك المعان ... قوافي في معانيها البيان
يتم أمان من خضب العوالي ... وليس لشاعر أبدا أمان
لأن قوافي الأشعار تبقى ... على الأيام ما بقي الزمان
وقد يرجى لجرح السيف برء ... ولا برء لما جرح اللسان

---

(١٤٢) ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ص ١٠٥ ، ابن الأثير ، سنة ٢١٨ هـ (حيث يحدد مكان الموقعة بمدينة اليهود بالجزيرة ، ويذكر مقتل عبد السلام) ، ابن خلدون ، ط بيروت . ج ٤ ص ٤٢٤ (حيث الاسم (فضل بن أبي العنبر)) •

(١٤٣) نفس المصادر •

(١٤٤) نفس المصادر - حيث يذكر ابن الأثير ان الفقيه عباس بن الوليد لم يكن مشاركا في الثورة الا بعد ان اقتحم العسكر الاغلبي داره •

(١٤٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠٥ ، وانظر ابن خلدون ، ط بيروت ، ج ٤ ص ٤٢٤ •

لم يلتفت اليه زيادة الله وأمضى لهم أمانهم .

ولما سأل أبا العزاف : لماذا لم يستأمن قبل هذا الوقت ؟ قال الرجل : « أيها الأمير ! كنت مع قوم حمقى ، يولون كل يوم واليا ويعزلون آخر ، فرجوت أن تكون لى معهم دولة » . فضحك زيادة الله ، وقال . « قد عفوت عنك »(١٤٦) .

تقويم زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب :

شخصية مزدوجة : رقة تغلفها الغلظة :

رغم ما يقوله الكتاب من أن زيادة الله كان قاسيا مستبدا بالجند سفاكا لدمائهم ، وخاصة عندما يسكر ، وهم يريدون بتلك الاضافة الثانية سيئة أخرى يضمونها الى الأولى ، فالظاهر أن قسوته لم تكن الا ستارا يخفى وراءه شخصية رقيقة . وهذا ما عبرت عنه الرواية التى ينقلها ابن عذارى ، عندما قيل ان منصورا الطنبذى استهول ما رآه عندما خرج زيادة الله اليه فى الجيش الكثيف ، اذ لم يعرف فيه الا الضعف والوهن(١٤٧) .

وتظهر رقة زيادة الله من تلك الحكايات الطريفة التى تروى أفعالا له ، تدل على عفوه وصفحه وحلمه . فهو يتأثر كثيرا لما فعلته والدته السيدة « جلاجل » ، عندما طبخت الفول بيصارا وأرسلته الى أخت عامر بن نافع بعد هزيمته حتى تبر بقسمها وهى تريد أن تسخر منها : لأن أخت عامر كانت قد أقسمت لتجعلن « جلاجل » تطبخ لها الفول بيصارا بمعنى أنهـا كانت تتوقع انتصار أخيها ، واذلال أم زيادة الله — وهو الأمر الذى كان يستعظمه العرب . وما كان من زيادة الله الا أن قال لوالدته : « قد ساءنى ما فعلت يا أم . ان الاستطالة مع القدرة لؤم ودناءة ، وقد كان أولى بك أن تفعلى غير هذا » . وتنبهت أم زيادة الله الى المعانى النبيلة التى كان يقصدها زيادة الله بذلك الدرس ، فقالت له : « نعم سأفعل ما يرضيك ويحسن الأحدوثة عنا ، وبعثت اليها (أى الى أخت نافع) بكسوة وصلة وألطاف . ورفقت بها حتى قبلت ذلك ، وطابت نفسها »(١٤٨) .

---

(١٤٦) ابن عذارى ج ١ ص ١٠٥ .

(١٤٧) أنظر فيما سبق ، ص ٥٣ .

(١٤٨) النويرى ، نهاية الأرب ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١ ب — ١١٢ أ . وعن السيدة جلاجل ، أنظر فيما سبق هـ ٤ ص ٢٧ .

وهو عندما يعفو عن ثوار تونس الشعراء من آل أبي سلمة وشريكهم في الفتنة أبي العزاف ، يقبل اعتذار الأخير اللطيف ، رغم ما فيه من المرارة . ثم هو لا يستمع الى ضغينة شاعره الذى كان يحسدهم لأنهم منافسون له في الشعر ، من غير شك(١٤٩) .

زيادة الله شاعرا :

وهذا ما يؤكد رقة الأمير الذى كان شاعرا ، وكان يحمي الشعر والشعراء بمعنى أنه كان حاميا للغة العربية التى كان أحد العارفين بها . وفي ذلك تقول رواية النويرى المأخوذة عن الرقيق : «انه « كان من أفصح أهل بيته لسانا وأكثرهم بيانا ، وكان يعرب كلامه ولا يلحن من غير تشادق ولا تقعير »(١٥٠) . والى جانب ذلك كان زيادة الله يقول الشعر الحسن الجيد ، ولو أن النويرى لم ينتخب من أشعاره الا أبيات كان قد ذيل بها خطابا وجهه الى الخليفة المأمون ، ردا على طلب للخليفة استاء له أمير القيروان ، وكان ذلك وهو في حالة سكر ، وهي :

أنا النار في أحجارها مستكنة فان كنت ممن يقدح الزند فاقدح
أنا الليث يحمي غيله بزئيره فان كنت كلبا حان موتك فانبح
أنا البحر في أمواجه وعبابه فان كنت ممن يسبح البحر فاسبح(١٥١)

وعندما تنبه الأمير الرقيق الحاشية من سكره ، استهول ما فعله فبعث في طلب الرسول ، ولكن دون جدوى . وحينئذ كتب كتابا لطيفا ثانيا يليق بمقام الخليفة المأمون . وكان رد خليفة بغداد ، الذى كان أديبا محبا للفلسفة، على الخطاب الثاني ، وأجاب فيه كل ما طلبه الأمير القيرواني المغرم بالخمر والشعر(١٥٢) .

---

(١٤٩) انظر فيما سبق ، ص ٦٢ .

(١٥٠) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١١١ ب وقارن الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٣

(١٥١) نفس النهاية والحلة . ومما يستحق التنبيه أن ابن الأبار ينص على أن زيادة الله كتب هذا الشعر وهو غضبان من طلب الخلافة اليه أن يدعو في الخطبة لعبد الله بن طاهر بن الحسين (انظر فيما سبق ، ص ٥٤) . ولقد أخذنا قراءة الحلة للبيت الثاني من الشعر . وهو يوجد في نهاية الأرب على الوجه التالي :

أنا الليث يحمي عليه غيله بزئيره فان كنت كلبا خان يومك فانبح

(١٥٢) انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١١ ب ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٣ ، ١٦٥ . حيث يذكر ابن الأبار له شعرا في الحرب والحزن عن حريمه في وقعة سبيبة =

ما بين فسقه وورعه :

وهكذا اذا ظهر زيادة الله بمظهر المتمزق بين القسوة والرقة ، فقد كان ايضا ذا شخصية منقسمة على نفسها ، ما بين الفسق ـ اذا اعتبرنا أن غرامه بالشعر نوع من الفسق ، وهو ما يمكن أن يكون والا يكون حسب واقع العصر ـ والتدين . وفي مشاعره الدينية تقول الرواية انه كان يقول لخاصته : انى لأرجو رحمة الله ، وما أراني الا أفوز بها اذا قدمت عليه يوم القيامة ، وقد عملت أربعة أشياء :

بنيت المسجد الجامع بالقيروان ، وانفقت عليه ٨٦ (ستة وثمانين) ألف دينار ، وبنيت قنطرة باب أبي الربيع ، وقصر المرابطين بسوسة ، ووليت القضاء أحمد بن أبي محرز(١٥٣) .

وهكذا تظهر أعمال الورع والتقوى ، في نظر اهل ذلك العصر ، في اربعة أشياء ، هي :

١ ـ بناء المساجد ، وهي بيوت الله التي لا يعمرها الا من آمن بالله واليوم الآخر .

٢ ـ بناء القناطر لجلب الماء من الجبل البعيد ، وهذا من الأشياء ذات المنفعة العامة للناس ، مثلها في ذلك مثل شق القنوات والأنهار للسقيا والزرع ، وبناء الجسور والقناطر لعبورها . وكل ذلك من الامور التي يحض عليها الدين ، الذى يهدف الى صلاح الناس في دنياهم أيضا قبل أخراهم .

٣ ـ بناء الحصون والربط من أجل اقامة المجاهدين من العباد ، فالجهاد وثيق الصلة بالدين ، حتى أنه اعتبر سادس قواعد الاسلام . والجهاد والدين

= (انظر فيما سبق ، ص ٥٣ و هـ ٥) ، وحيث يذكر له نموذجين آخرين من الشعر أحدهما في النسيب ، ومنه :

بالله لا تقطعن بالهجر انفاسي	فانت تلك التي ابقيت لي راسي
صدود طرفك عن طرفي اذا التقيا	مجرعي كأس ارغام واتعاس

والآخر في وصف تفاحة ، ومنه :

ولابسة ثوب اصفرار بلا سقم	تنم بأنفاس الحبيب كنسيم
تجمع تشويق لديها وعاشق	فلو نظر يرنو اليها بتقسيم

(١٥٣) انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ أ . وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٦ والمالكى ج ١ ص ٣٠٨ ، والبكرى ، ص ٢٥ .

سارا فى افريقية ، منذ أيام الأغالبة ، متلازمين بفضل العلماء العباد من أهل البلاد ، الذين اعتبروا الجهاد عبادة · والمثل لهم أسد بن الفرات قاضى افريقية على أيام زيادة الله ، وقائد حملة صقلية ·

٤ — اسناد القضاء الى ذوى الفضل من الفقهاء والعلماء ، فالقضاء كان الخطة الثانية بعد الامارة ، والقاضى هو الحكم الذى يمثل العدل · والعدل أساس الملك ، كما قال الحكماء منذ أقدم العصور ·

ابو محرز قاضيا :

اذا كان زيادة الله قد اعتبر أن تولية القضاء لأحمد بن أبى محرز — الذى عرف بشدة تقاه — من أعمال البر العظيمة التى يأمل أن يجزيه الله عنها خيرا ، فانه يحق له ان يعتبر أن تولية والد أحمد ، وهو محمد بن عبد الله بن قيس الكنانى ، الذى عرف بكنيته أبى محرز ، منصب القضاء فى القيروان من أعمال البر أيضا · ولقد ولى أبو محرز القضاء فى سنة ١٩٠ هـ/٨٠٦ م ، على ما يرجح ، وذلك عقب وفاة القاضى ابن غانم (عبد الله بن عمر الرعينى) الذى كان قد ولى القضاء برضاء الخليفة الرشيد منذ ولاية روح بن حاتم (فى رجب سنة ١٧١ هـ/يناير ٧٨٨ م) وطوال عشرين سنة حتى أيام ابراهيم بن الأغلب[١٥٤] ·

وأبو محرز معروف بين فقهاء القيروان بأنه كان من الكوفيين ، أى ممن يأخذون بمذهب أهل العراق من أصحاب أبى حنيفة الذين يعتمدون القياس والرأى فى استنباط الأحكام ، على عكس جمهرة فقهاء القيروان على أيامه ، ممن كانوا مالكية من أهل الحديث ، الذين يأخذون بسنن أهل المدينة التى نشرها فى المغرب تلاميذ امام دار الهجرة ، الذين شدوا الرحال الى مصر والحجاز ، وتلقوا العلم على مالك بن أنس نفسه ·

---

(١٥٤) تنص الرواية على ان ابن غانم توفى فى ربيع الآخر سنة ١٩٠ هـ/فبراير — مارس ٨٠٦ م على أيام ابراهيم بن الأغلب الذى جزع لوفاته وبكى عليه ، هو وحاله ابو عقال · ولقد رجحنا ان تكون ولاية ابى محرز فى نفس السنة ، وذلك انه هناك رواية اخرى تضيف الى ذلك احتمال أن تكون وفاة ابن غانم سنة ١٩٦ هـ/٨١٢ م ، وهى سنة وفاة ابراهيم بن الأغلب نفسه · انظر الرقيق ، ص ٢٢٨ ، المدارك للقاضى عياض ، ص ٣٢٥ من تراجم أغلبية (من المدارك) ، ص ٢٠ (فى وفاة ابن غانم) ؛ ص ٧٨ (عن ولاية أبى محرز بعد ابن غانم) · وانظر فيما سبق ، ج ١٠ ، ص ٢٧٤ و هـ ١٠٧ ·

ومن هؤلاء كان ائمة ذلك العصر ، مثل : علي بن زياد التونسي ، الذي يعتبر أول من أدخل موطأ مالك افريقية(١٥٥) ، وعابد القيروان البهلول ابن راشد ، الذي قال فيه مالك : « هذا عابد بلده »(١٥٦) ، وعبد الله بن فروخ الفارسي ، الذي كان يكاتب مالكا(١٥٧) ، وأسد بن الفرات الذي سمع الموطأ عن مالك وغيره(١٥٨) ، والذي أدخل كتب الأسدية الى مصر وافريقية ، وفيها أجوبة مالك — عن طريق ابن القاسم المصري — على آلاف المسائل التي أجاب عنها تلاميذ أبي حنيفة(١٥٩) فكأنها كانت في الفقه المقارن ، كما نقول الآن .

ما بين أبي محرز وأسد بن الفرات :

والى جانب ترجمة أبي محرز ، الذي اعتز زيادة الله بتولية ابنه أحمد القضاء ، بين تراجم المالكية في افريقية ، فان أخباره توجد متناثرة في تراجم فقهاء ذلك العصر وأمرائه ، وخاصة في ترجمة أسد بن الفرات الذي ولاه زيادة الله القضاء الى جانب أبي محرز في سنة ٢٠٣ هـ/٨١٨ م ، فكانت أول سابقة في تولية القضاء لرجلين معا(١٦٠) .

والحقيقة أنه اذا كان أسد أكثر علما وفقها من أبي محرز ، فقد كان أبو محرز أشد من أسد رأيا وصوابا(١٦١) ، كما كان أبو محرز أكثر احسانا للعربية ، مقلا في كلامه(١٦٢) . وهكذا كان أبو محرز ، قبل أن يلي القضاء ، يستفتى في القيروان ، هو وأسد بن الفرات ، وزكرياء بن محمد بن الحكم اللخمي ، ومن في طبقتهم من الفقهاء والعلماء(١٦٣) .

والمعروف عن أبي محرز أنه كان رفيقا لينا في أحكامه ، يميل الى الأناة

---

(١٥٥) المدارك ، ص ٢٢٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٢١ .

(١٥٦) المدارك ، ص ٢٣١ ، تراجم اغلبية ، ص ٢٨ . وانظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٦١ وص ١٧٤ .

(١٥٧) المدارك ، ص ٢٤٠ ، تراجم اغلبية ، ص ٤١ — وانظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٧٤ وص ١٠٦ .

(١٥٨) المدارك ، ص ٤٦٥ ، تراجم أغلبية ، ص ٥٣ ، وقارن المالكي ، ج ١ ص ١٧٤ .

(١٥٩) المدارك ، ص ٤٦٩ ، وما بعدها ، تراجم اغلبية ، ص ٥٧ — ٥٩ .

(١٦٠) المدارك ، ص ٤٧٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٦٥ (تؤرجح الرواية ولاية أسد ما بين سنة ٢٠٣ هـ وسنة ٢٠٤ هـ) ، وقارن المالكي ، ج ١ ص ١٨٥ .

(١٦١) المدارك ، ص ٤٧٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٦٥ ، وقارن المالكي ، ج ١ ص ١٨٩ .

(١٦٢) المدارك ، ص ٤٧٩ ، تراجم اغلبية ، ص ٦٩ .

(١٦٣) المدارك ، ص ٤٩٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٨٤ .

والتروي في فتاواه ، ويأخذ طريق التساهل والعفو • ولقد ظهر تساهله في ميله الى التسامح مع الجند المتمردين على زيادة الله في ثورة الطنبذي الخطيرة • وذلك أنه بينما كان فقيه ، مثل : عبد الله بن أبي حسان اليحصبي يريد الوقوف بصلابة ضد الثوار بعد هزيمتهم ، لانهم كانوا قد أغاروا على منازله وانتهبوها ، واضطروه الى الاستخفاء ، فيقول لزيادة الله ، الـذي نصحه العلماء بالعفو ورغبوه فيه : ان العفو مفسدة ، ولن يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، كان أبو محرز يقول : العفو أقرب للتقوى(١٦٤) • وهو لذلك يتصدى لابن أبي حسان اليحصبي ، ويقول له : أمن أجـل شويهاتك أو رميكاتك تستحل دماء المسلمين(١٦٥) •

ومثل هذا كان رأي أبي محرز فيمن يرمى بتهمة الزندقة ـ التي صارت جريمة سياسية في كثير من الأحيان ـ مهما كان حال صاحبها : أن يستتاب • وهو يوبخ الفقيه أبا زكريا بن الحكم عندما يقول : ان رأي أهل العلم أنه يقتل اذا كان مظهرا للاسلام ، وان كان هو نفسه لا يأخذ بهذا الرأي ، ويرميه بالحمق لأن كلامه هذا يجرىء الأمير ـ وهو زيادة الله الذي كان حاضرا مجلس الفتوى ـ على سفك الدماء(١٦٦) • وهو هنا يمثل فقهاء افريقية ، في ذلك العصر ، ممن كانوا لا يهابون السلاطين ، ولا يخشون في الله لومة لائم • فهو يقف الى جانب أسد بن الفرات ضد الرجل ، الذي أراد أن يتملق زيادة الله ، فقال له : أنه رأى في المنام كأن جبريل وقف بين يديه ومعه نور ـ رغـم سعادة الأمير بتلك الرؤيا الكاذبة(١٦٧) • وكان أبو محرز يميل الى التأني أيضا قبل نقض الهدنة مع الروم عندما أتوا يطلبونها قبل حملة صقلية ، ولو أن زيادة الله أخذ برأي ابن الفرات في شرعية خرق الهدنة(١٦٨) •

---

(١٦٤) المدارك ، ص ٤٨٣ ، تراجم اغلبية ، ص ٧٤ (حيث تقول الرواية أن اليحصبي كان سيء الرأي في الجند حتى انه نظم في ذلك شعرا يقول فيه :

اباح طغام الجند جهـلا حريمنـا	وشقوا عصا الاسلام من كل جانب
وعاثوا وثاروا في البـلاد سفاهة	وظنـوا بأن الله غـير معـاقب
وما عجب بغي الأعاجـم خسـة	زرارا وقحطـان الكـرام المناسب
ولكن من قوم اليمـن ا اعتزازهم	مبغضا فهم فيا لاحـدى العجائب

وقارن المالكي ، ج ١ ، ص ٢٠٣ (حيث أبيات الشعر مختلفة بشكل بين) • وعن اليحصبي مؤرخا ، انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٤ •

(١٦٥) المدارك ، ص ٤٨٣ ، تراجم اغلبية ، ص ٧٤ ـ ٧٥ •

(١٦٦) المدارك ، ص ٤٧٥ ، تراجم اغلبية ، ص ٦٤ ، وقارن المالكي ، ج ١ ، ص ١٩١ •

(١٦٧) المدارك ، ص ٤٧٨ ـ ٤٧٩ ، تراجم اغلبية ، ص ٦٨ •

(١٦٨) المدارك ، ص ٤٧٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٦٦ ، وانظر فيما بعد عن فتح صقلية ص ٢١٢ •

واذا كان أبو محرز ممن يقول بعدم تحريم النبيذ ، فانه كان يقول بذلك عن قناعة ، حسب رأى أهل العراق ، ولم يكن يقوله تملقا للأمير الذى كان مغرما بالشراب ، والذى كان يعقد المناظرات فى أمر شراب النبيذ بين أبى محرز ، الذى كان يحله ، وبين أسد ، الذى كان يراه حراما(١٦٩) ٠

أسد بن الفرات :

وهكذا فاذا حق لزيادة الله أن يتخذ توليته القضاء لأحمد بن أبى محرز شفيعا له يوم الحساب ، فقد كان من حقه أيضا — الذى نقرره له — أن يعتز بتوليته القضاء قبل ذلك لوالد أحمد ثم تولية أسد بن الفرات أيضا الى جانب أبى محرز(١٧٠) فأسد بن الفرات الذى تفقه على مالك بن أنس ، وتعلم فى العراق على تلاميذ أبى حنيفة ، كان يواجه زيادة الله بتحريم الخمر ، كما كان يقف ضد مقالة المعتزلة بخلق القرآن(١٧١) ٠ وكان كثير منهم ، مثل أبى محرز ، من أصحاب المذهب الحنفى الذى أصبح على أيام الخليفة المأمون المذهب الرسمى للخلافة ، فى : بغداد وفى البلاد التابعة لها كمصر وافريقية — وفوق هذا وذاك كان أسد بن الفرات أحد الشجعان على علمه وفقهه(١٧٢) ٠ فأسد بن الفرات ربط فى شخصه بين العلم والتدين والجهاد ، وهى الأمور التى شغف بها زيادة الله ٠

ولقد كانت وفاة أسد بن الفرات — التى استعظمها أبو محرز ، حتى قال : « اليوم مات العلم »(١٧٣) — فى صقلية سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨ م(١٧٤) ، وتبعه أبو محرز فى السنة التالية (٢١٤ هـ/٨٢٩ م)(١٧٥) ٠

---

(١٦٩) المدارك ، ص ٤٧٥ ، ص ٤٨٤ ، تراجم أغلبية ، ص ٦٥ ، ٧٥ ، وقارن قطب السرور للرقيق ، ص ٤٨٦ — ٤٨٩ (حيث تضم الرواية أسد بن الفرات الى جانب أبى محرز فى تحليل النبيذ ، وهو الأمر الذى لم يذكر أبدا عن أسد) ٠

(١٧٠) أنظر المالكى ، ج ١ ص ١٨٥ (حيث النص على أن الوزير على بن أحمد هو الذى سعى فى ولاية أسد ، وكان يود عزل أبى محرز) — وانظر الصفحة ٦٧ ، وهـ ١٦٠ ٠

(١٧١) المدارك ، ص ٤٧٣ — ٤٧٤ ، تراجم أغلبية ، ص ٦٢ — ٦٣ ، وقارن المالكى ، ج ١ ص ١٨١ ، ١٨٢ ٠

(١٧٢) المدارك ، ص ٤٧٦ ، تراجم أغلبية ، ص ٦٦ ، المالكى ، ج ١ ص ١٨٥ — وهذا ما نشير اليه عند الكلام عن فتح صقلية

(١٧٣) المدارك ، ص ٤٧٥ (رواية عمران بن أبى محرز) ، تراجم أغلبية ، ص ٦٤ ٠

(١٧٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ ٠

(١٧٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ ٠

أحمد بن أبي محرز :

ولا ندري من الذي ولي القضاء ، بعد أبي محرز ، وذلك أن الحوليات لا تذكر لنا تولية أحمد بن أبي محرز لقضاء افريقية ، التي اعتز بها زيادة الله الا في سنة ٢٢٠ هـ/٨٣٤ م ، ثم تفاجئنا بوفاته في السنة التالية (٢٢١ هـ/ ٨٣٥ م) كقاض لصقلية ، بعد ولاية لم تدم الا حوالى تسعة أشهر فقط ، جمع فيها بين قضاء افريقية وقضاء صقلية على ما يظن(١٧٦) .

والمهم أن أحمد بن أبي محرز الذي عرف بأنه لا يخشى في الله لومة لائم ، كان من التقوى والورع بحيث أنه كان عازفا عن تقليد القضاء الذي لم يقبل ولايته الا مكرها(١٧٧) . ولهذا قالت بعض الروايات انه لم يحكم بحكم حتى مات(١٧٨) ، رغم ما تنص عليه روايات أخرى من أنه تحرى غاية العدل في اجراءاته القضائية : فلم يقبل وكالة أقارب الأمير أو حشمه أو من يلوذ به . هذا ، الى جانب اشارات أخرى الى انصافه والى وقوفه بصلابة أمام الوزير علي بن حميد عندما أراد مساندة بعض المتخاصمين ، واجبساره الوزير على البراءة من محسوبه ، وذلك في حضرة زيادة الله ، وأمام الملأ من الناس ، مما كان له رجة عظيمة بالقيروان(١٧٩) .

والذي يستاثر بعناية الكتاب في وفاة ابن أبي محرز ، الذي كان كثير البكاء غزير الدمعة ، انه أوصى أخاه عمران بن أبي محرز أن يكتم موته حتى يكفنه ، ويصلي عليه خوفا أن يكفنه زيادة الله ويصلي عليه . ونفذ عمران الوصية ، ولم يدر فتيان زيادة الله بالامر الا بعد أن حمل نعش القـــاضي الورع ــ الذي أراد أن يهرب ميتا من زيادة الله بعد أن عجز عن الهروب منه حيا ــ خارج داره . وهنا اكتفى خلف الفتى ببذر الكثير من المسك الذي كان أحضره على جثمان القاضي ، ورجع الى القصر بما كان معه من الاكفان . وهكذا

. (١٧٦) انظر بن عذارى ، ج ١ ص ١٠٦ ، المالكي ، ج ١ ص ٣٠٥ . هذا ولو أن رواية أبي العرب (ط . تونس ، ص ١٦٧) تقول انه ولي بعد وفاة والده أبي محرز ، مما يعني أن خطة القضاء ظلت شاغرة لحوالى ست سنوات بعد وفاة أبي محرز ، وهو الأمر المستبعد ، رغم ما تقوله رواية المالكي (ج ١ ص ٣٠٦) من أن الناس كانوا ممتنعين عن ولاية القضاء عندما أجبر زيادة الله أحمد بن أبي محرز على قبولها .

(١٧٧) المالكي ، ج ١ ص ٣٠٥ .

(١٧٨) ابو العرب ، ط . تونس ، ص ١٦٧ ، المالكي ، ج ١ ص ٣٠٥ .

(١٧٩) المالكي ، ج ١ ص ٣٠٦ ــ ٣٠٨ .

يتمكن زيادة الله من اللحاق بالجنازة الا عند المصلى خارج المدينة ، حيث فصلى عليه وحضر دفنه . وتقول الرواية انه بعد أن عزى الأمير عمران القاضي أحمد ، قال : يا أهل القيروان لو أراد الله لكم خيرا ، لما خرج ابي محرز من بين أظهركم(١٨٠) .

وهكذا حق لزيادة الله أن يعتز بقاضيه أحمد بن أبي محرز ، وتؤكد حق رأيه شهادة سحنون فيما بعد ، فقد كان اذا تكلم فيمن تقدمه من قضاة ، فذكر له أحمد بن أبي محرز ، لم يتكلم فيه الا بخير لفضله(١٨١) .

أعمال زيادة الله العمرانية :

رباط سوسة :

والحقيقة انه على عكس ما قد يتوهمه الناظر السريع في حياة زيادة الله من أنها كانت حياة رجل متمزق بين العنف والبحث عن اللذة ، حتى أن قاضيه كان يخاف أن يكفنه بأثواب من عنده أو أن يصلى على جنازته ، نجد أن المتأمل في حياته يكتشف خلف ستار هذا المظهر الخداع رجلا قد وهب نفسه لأعمال الخير ، وعلى رأسها الجهاد . ففي سنة ٢٠٦ هـ/٨٢١ م بدأ ببناء واحد من أكبر حصون المرابطين من العباد المجاهدين في سوسة ، وهو رباط سوسة المشهور ، الذي أصبح بعد سنوات قليلة قاعدة لأكبر عملية غزو بحرية قام بها العرب فيما وراء البحار ، وهي فتح صقلية وايطاليا ، كما صار صنوا لرباط المنستير الذي أصبح أكبر رباطات السواحل المغربية : حتى اعتبر عتبة من عتبات الجنة ، وحتى أصبحت الاقامة فيه لمدة يوم وليلة أعظم أجرا من الحج أو الانقطاع الى الصلاة والصوم . وبذلك مزج علماء افريقية الأغلبية بين العلم والتدين والجهاد ، بطريقة لم تعرف في غير افريقية من بلاد الاسلام .

ورباط سوسة(١٨٢) ، كما وصلنا ، أشبه بحصن مربع الشكل ، طول ضلعه حوالى ٤٠ مترا ، تدعم جدرانه الأربعة ثمانية ابراج : ٤ (أربعة) منها

---

(١٨٠) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠٦ ، وقارن المالكي ، ج ١ ص ٣٠٩ (حيث النص على أن عمران هو ابن القاضي أحمد وليس أخاه) .

(١٨١) أبو العرب ، ط . تونس ، ص ١٦٧ .

(١٨٢) انظر البكري ، ص ٣٥ (حيث يصفه بأنه « معرس عظيم كالمدينة » سور بليد متقن يعرف بمحرس الرباط . وهو مأوى للأخيار والمتصالحين ، داخله محصن كان يسمى « القصبة » . وهو بجوفي المدينة متصل بدار الصناعة بسفح الجبل الذي هي في سنده) .

في زوايا البناء ، و ٤ (أربعة) في وسط كل من حوائطه الأربعة • والأبراج مستديرة الشكل عدا اثنين منها فلهما شكل مربع • وأحدهما يقع في الركن الجنوبي الشرقي حيث توجد في أعلاه منارة مربعة الشكل ، يظن أنها أقيمت من أجل ارسال الاشارات الضوئية التي كان يتبادلها جسد المحارس ، والثاني في وسط الجدار الجنوبي حيث الباب الوحيد للرباط • وكانت تعلو برج هذا الباب قبة ذات شرفات (جوسق) ، وربما كانت تستخدم كمئذنة للجامع الذي يقع في الدور العلوي من هذا الجانب من الرباط •

أما الفناء المربع في داخل الحصن ، فهو أشبه بصحن الجامع الكبير ، وتحيط بجوانبه وراء الأروقة غرف العباد وصوامعهم • الموزعة في الدور الأرضي على جوانب الحيطان الأربعة ، بينما هي موزعة في الدور العلوي في ثلاثة اتجاهات فقط • اذ الحقيقة أن المسجد ، الذي يتكون من أحد عشر رواقا رأسيا على حائط القبلة ، وبلاطتين عرضيتين ، يشغل الجزء العلوي المواجه للحائط الجنوبي للرباط ، وهو حائط القبلة(١٨٣) •

قنطرة باب أبي الربيع :

والى جانب مجهودات زيادة الله في بناء رباط سوسة للعباد المجاهدين ، بني قنطرة باب أبي الربيع في القيروان ، التي كانت ساقية عظيمة تحمل الماء من الجبل القريب عبر الوادي ، على ارتفاع شاهق بفضل حناياها أو أقواسها الكبيرة ، مما كان له أثره في العمارة الاسلامية في افريقية وسائر بلاد المغرب والأندلس • وذلك أنه كانت توجد في افريقية نماذج لهذا النوع من السواقي المحمولة على القناطر منذ أيام الرومان ، كما كان الحال كذلك في الأندلس ، مثل . قناطر ماردة التي بقيت لنا أجزاء منها(١٨٤) •

---

(١٨٣) انظر ج• مارسيه ، مختصر الفن الاسلامي ، ج ١ ص ٤٧ - ٤٩ ، شكل ٢٠ ص ٤٨ (تخطيط بجسم رباط سوسة) • السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج٢ ، ص ٢٤٩ وما بعدها •

(١٨٤) عن قناطر باب تونس المزدوجة قرب القيروان أنظر ج • مارسيه ، مختصر الفن الاسلامي (بالفرنسية) ، ج ١ ص ٥٣ ، وعن قناطر ماردة أنظر ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٣١ حيث الاشارة الى إحتمال تأثيرها على الأقواس المزدوجة في جامع قرطبة • وعن معارضة هذا الرأى انظر احمد فكرى ، المدخل لمساجد القاهرة ومدارسها ، ص ١٣ - ١٤ ، حيث يقرر المؤلف إن الأقواس جامع قرطبة المزدوجة عمل عربي مبتكر لا علاقة له بقناطر ماردة وانظر شكل ١ ، ص ١٥ •

وهكذا كان زيادة الله مهتما باعمار البلاد ، مجتهدا في تحقيق أسباب الحياة الطيبة لشعبه ، رغم ما واجهه من المصاعب ، وما عاناه من التجارب التي تمثلت فيما رآه من أبنائه من الفتن • وحسن رعاية زيادة الله لمصالح شعبه تعتبر من مبادىء الاسلام الأساسية التي تنص على مسئولية كل راع عن رعيته ، وذلك أن الرعية هي أصل رخاء الدولة ، اذ : « المال رزق تجمعه الرعية — كما قال فلاسفة السياسة — والرعية عبيد يتعبدهم العدل(١٨٥) •

مسجد القيروان الجامع :

ويأتي بناء المسجد الجامع في القيروان — الذي اختطه عقبة لاول مرة سنة ٥٠ هـ/٦٧٠ م ، ثم جدده حسان سنة ٨٤ هـ/٧٠٣ م ، ووسعه بشر ابن صفوان سنة ١٠٥ هـ/٧٢٥ م ، وبنى منارته ثم جدده بعده يزيد بن حاتم سنة ١٥٧ هـ/٧٧٤ م ليتوج أعمال زيادة الله ، وليصبح أثرا باقيا الى اليوم من آثار الأغالبة(١٨٦) •

ففي شهر جمادى الآخرة من سنة ٢٢١ هـ/مايه — يونيه ٨٣٦ م(١٨٧) ، قام زيادة الله فأمر بهدم بناء المسجد العتيق — حاشا المحراب ، محراب عقبة — بعد أن لم يعد مناسبا ، من حيث السعة أو من حيث الفخامة ، بمدينة القيروان التي أصبحت أعظم عواصم المغرب • كما لم يعد مناسبا بالمملكة الأغلبية التي وطدت أقدامها في افريقية وأصبح بلاطها منافسا لبلاط الخلافة في بغداد • وأعاد زيادة الله البناء بالصخر والآجر والرخام ، تاركا محراب عقبة القديم بعد أن كساه كله بالرخام المخرم المنقوش بالكتابة وبغيرها من الزخرف ، من أسفله الى أعلاه(١٨٨) •

ولم يبخل زيادة الله في النفقة عليه ، مما بلغ ٨٦ (ستة وثمانين)

---

(١٨٥) كتاب السياسة في تدبير الرياسة ، في الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الاسلام ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٥٤ ، فصل العدل ، ص ١٢٧ •

(١٨٦) ومن الأخبار الطريفة الخاصة بتلك التجديدات التي طرأت على الجامع منذ بناء عقبة ، ما كانت تثيره بين العصبيتين العربيتين الكبيرتين القيسية والقحطانية • هذا ما يفهم من ترجمة الفقيه عبد الله بن أبي حسان اليحصبي (اليمني) الذي كان مقربا من زيادة الله • فبعدما قام زيادة الله باصلاحاته في جامع القيروان مازحه قائلا : « عاد المسجد مضريا » • ويشرح صاحب المدارك ذلك بأن عقبة قرشي وزيادة الله تميمي فهما مضريان • هذا ، كما قال له زيادة الله مرة أخرى : « صيرنا آثاركم من الجامع » (المدارك ، ص ٤٨٨) •

(١٨٧) النويري ، على ترجمة ابن خلدون ، ج ١ ، ص ٤١٢ •

(١٨٨) الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ١٦٢ ، وقارن وصف البكري (المغرب ، تحقيق اقليم بنص كامل وشرحنا عن بناء الجامع) ، ص ٢٣ •

ابن دينار - ويقلب الظن أنه هو الذي جلب له الأساطين الجميلة المجزعة بالبياض والسواد الشديدين(١٨٩) من المعابد القديمة والكنائس من أنحاء افريقية ، ومنها الساريتان الحمراوان اللتان توجدان قبالة المحراب ، واللتان وصفتا بانه لا مثيل لهما في العالم(١٩٠) ، وان سبب جلبهما الى حسان ابن النعمان(١٩١) .

ومسجد القيروان الجامع الحالي الذي اتفق على أنه بقي لنا كما تركه زيادة الله — بصرف النظر عن بعض التوسعات في بيت الصلاة ، مما يمكن أن يكون قد اتخذت في فترات تالية لعهد زيادة الله — يشتمل مساحة مستطيل طوله حوالي ١٢٥ مترا ، وعرضه ٨٠ مترا ، ويحوى كلا من بيت الصلاة المغطى ، والصحن المكشوف . وبيت الصلاة يحوى ١٧ (سبعة عشر) رواقا طولية تمتد من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، والرواق الأوسط منها أكثر اتساعا وأعلى ارتفاعا ، وتقوم على طرفيه الشمالي والجنوبي قبتان . والخط المستقيم بين القبتين يمثل اتجاه القبلة بالنسبة لاهل القيروان . وبلاطة المحراب العريضة تحمل على طرفيها قبتين هي الأخرى . أما الصحن فهو متسع جدا ، وتحيط به من جهاته الاربعة أروقة مزدوجة ، باستثناء الجهة الشمالية حيث تقطع المنارة تلك الأورقة .

أما المنارة فهي عبارة عن ثلاثة أبراج مربعة الشكل ، الواحد منها فوق الآخر . والثالث منها ، وهو العلوى ، تغطيه قبة مضلعة بديعة . ويلاحظ أن أضلاع البرج الأول ، الذي يظن أنه بني في خلافة هشام بن عبد الملك ، ليست رأسية ، بل هي تنحرف نحو الداخل في اتجاه القمة . وعرض هذا البرج الرئيسي ، ٥ر١٠ مترا ، وارتفاعه ١٩ مترا . أما ارتفاع المنارة بأدوارها الثلاثة فيبلغ حوالي ٢٥ مترا(١٩٢) .

والمنارة بكتلتها الضخمة ، وقامتها العريضة ، وهي قائمة في طرف الصحن المدثر بغلالة الأورقة تضفي على المكان زينة ذات جلال أخاذ . وبيت

---

(١٨٩) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٢ ، وقارن البكري ، ص ٢٤ .

(١٩٠) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٣ — ١٦٤ .

(١٩١) البكري ، ص ٢٤ ، وقارن الاستبصار ، ص ١١٤ (حيث يصفهما بالخضراوان ، وان كان البكري يذكر العمود الأخضر الذي اشتراه يزيد بن حاتم بمال جزيل — ص ٢٣) .

(١٩٢) انظر جورج مارسيه ، مختصر الفن الاسلامي (بالفرنسية) ، ج ١ ص ٢٦ — ٢٧ (حيث المقارنات مع معلومات البكري ، ص ٢٣) ، وقارن أحمد فكري ، المدخل لمساجد القاهرة ومدارسها ، ٢٠٣ — ٢٠٤ ، السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٤٢٢ وما بعدها .

الصلاة ، كما يقول جورج مارسيه ، بغابة أعمدته التي لا تعد ولا تحصى ، وبأورقته التي يأتيها الضوء هاذئا من خلال الأبواب ، تحــدث في النفس شعورا قويا ساحرا(١٩٣) .

وهكذا حق لزيادة الله الأول بن ابراهيم بن الأغلب أن يموت راضيا ، راجيا ثواب ربه ، في يوم الثلاثاء ١٤ رجب سنة ٢٢٣ هـ/١١ يونية ٨٣٨ م ، وله من العمر (واحد وخمسون) سنة ، بعد ولاية حافلة بجلائل الأعمال والخطوب ، استمرت لأكثر من ٢١ سنة(١٩٤) . وخلفه في ملك افريقية أخوه الأغلب أبو عقال .

أبو عقال الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب المعروف بخزر : (٢٢٣ ـ ٢٢٦ هـ/ ٨٣٨ ـ ٨٤١ م) :

الأمن على عهد الأغلب :

آل ملك افريقية بعد وفاة زيادة الله الأول الى أخيه الأغلب ، الذي كان في الخمسين من عمره ، والذي كانت قد آلت اليه أمور دولة زيادة الله منذ عودته من مصر ، كما تقول رواية النويري ، وان لم تشر بعد ذلك الى أي نشاط له(١٩٥) .

ولم يستمر حكم الأغلب أبي عقال الا أقل من ثلاث سنوات تمتعت البلاد خلالها بفترة من الامن والاستقرار ، كما يقول الكتاب ، اذا استثنينا تلك الحملة التي وجهها في سنة ٢٢٤ هـ/٨٣٨ م بقيادة قائده عيسى بن ريمان الأزدي ، ضد قبائل لواتة وزواغة ومكناسة من الخوارج في اقليم الجريد . ولقد انتهت الحملة بقتل تلك القبائل قتلا ذريعا ، حتى قيل ان عيسى افناهم عن آخرهم ، فيما بين مدينتي قفصة وقسطيلية (توزر)(١٩٦) ، قبل أن

---

(١٩٣) أنظر جورج مارسيه ، مختصر الفن الاسلامي (بالفرنسية) ، ج ١ ص ٢٧ .

(١٩٤) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ ، ترجمة ابن خلدون ، ج ٩ ص ٤٩٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٠ ، وقارن الحلة السيراء ، ج ٢ ص ١٦٤ .

(١٩٥) انظر فيما سبق ، ص ٤٣ وص ٧١ ـ حيث الاشارة الى انه جعل أمور دولته الى الأغلب . لهذا غنى عن الاشارة الى تشابه الاسماء مما يمكن ان يفسر بأنه الأغلب كان قد رضى من أخيه المحيط بالسكوت عنه . ولهذا كان الأمر قد التبس على بعض الكتاب فخلطوا بين الأغلب ابن ابراهيم بن الأغلب وبين ابن عمه الوزير الأغلب بن عبد الله بن سالم المشهور بغلبون .

(١٩٦) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠٤ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٨ (الذي ينص على انهم خوارج) .

يعود بمغانمهم وأسلابهم ، كما يقول ابن الأثير(١٩٧) .

والحقيقة أن رواية كل من ابن الأثير ، وابن عذارى ، وابن خلدون ، والنويرى ، عن عهد أبى عقال ، تكاد تكون نفس الرواية على شيء من الاختصار أو الاسهاب ، فى بعض الفقرات ، ممـــا يوحى بأنهـــا منقولة عن الرقيق القيروانى ، وان كان ابن عذارى يذكر فى أحداث حملة سنة ٢٢٤ هـ/٨٣٨م. ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان (الذى وصلتنا قطعة منه فى تاريخ الموحدين) .

خـــــزر :

عرف أبو عقال الاغلب بلقب خزر ، مع أنه من المعروف أن تحريف اسم الأغلب على الطريقة المغربية الأندلسية هو « غلبون » ، كما هو الحال بالنسبة لوزير زيادة الله وابن عمه الاغلب بن عبد الله بن الأغلب . ونحن لا نعرف الظروف التى أعطى فيها الأغلب لقب حزر الذى يعطيه الكتـــاب اياه(١٩٨) ، وهو من الأسماء المغربية المشهورة عند الزناتيين ، والتى تحرف عندهم فى شكل « خزرون » ، مما يحتمل معه أن يكون الاسم قد أعطى له محاباة للزناتية . ولا بأس أن يكون أعطى له للتفرقة بينه وبين ابن عمه الوزير غلبون .

العودة الى ضريبة العشر :

وخلال فترة حكمه القصيرة استتب الأمن بين الناس واستقرت أمور الجند بفضل الاجراءات التى اتخذها الاغلب ، والتى يشير اليها الكتاب سريعا عندما يقولون انه غير أحداثا كثيرة كانت قبله(١٩٩) . وابن الأثير يفسر تلك الأحداث التى غيرها بأنها كانت من المظالم(٢٠٠) ، مما يعنى أنها كانت تتعلق بالضرائب الثابتة التى قررها الأمير عبد الله بدلا من العشر الذى كان يمثل

---

(١٩٧) ابن الأثير سنة ٢٢٢ هـ ، ج ٦ ص ٤٩٣ ـ والنص هنا لا يذكر الا أنه سير سرية فى سنة ٢٢٤ هـ .

(١٩٨) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٧ ، النويرى - المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ أ ، الترجمة ج ١ ص ٤١٤ ، وقارن ابن الأثير سنة ٢٢٣ هـ ، ج ٦ ص ٤٩٣ حيث الكنية أبو عفان بدلا من أبى عقال وهى من تحريف النساخ ـ أما اسم خزر فلا يذكره) .

(١٩٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٧ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ أ ـ ١١٢ ب . الترجمة ج ١ ص ٤١٤ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٨ .

(٢٠٠) ابن الأثير سنة ٢٢٣ هـ ، ج ٦ ص ٤٩٣ .

بالضريبة القانونية المعروفة بخراج الأرض ، والتي كانت تدفع عينا ، حسبما تحمله الأرض من الغلات(٢٠١) .

ضبط الجند والعمال :

أما عن الجند فتقول الرواية انه احسن اليهم بمعنى أنه أجزل لهم العطاء ودفعه اليهم في مواعيده المقررة ، فكان ذلك سببا في قطع شغبهم ، كما تشير الرواية أيضا الى أن انقطاع الحروب في ايامه كانت من أسباب أمنهم .

أما عن عماله ونوابه في الاقاليم فقد كف أيديهم عن التطاول على أموال الناس ، وعما كانوا يرتكبونه من المظالم عن طريق زيادة رواتبهم ، ودفعها لهم في أوقاتها المقررة أيضا(٢٠٢) .

منع النبيذ :

والى جانب ذلك قام أبو عقال الأغلبي باجراء كان فيه ارضاء لمشايخ القيروان وعلمائها وعبادها ، كما كان له أثره الطيب في قلوب الناس ، وذلك أنه منع عمل النبيذ والخمر في القيروان(٢٠٣) ، بل وعاقب أيضا على بيعه وشربه(٢٠٤) ، بعد أن كان بعض فقهاء الحنفية يبيحونه، وبعد أن كان زيادة الله يعقد المناظرات في تحليل النبيذ وتحريمه(٢٠٥) .

وهكذا انتهت ولاية الأغلب الذي توفي في يوم الخميس ٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٢٦ هـ/فبراير ٨٤١ م راضيا ، مرضيا عنه من الكتاب الذين شبهوه بجده وسميه الأغلب ، ليس من حيث الاسم فقط ، بل ومن حيث الخلق والخلق كذلك(٢٠٦) ، وخلفه ابنه أبو العباس محمد .

---

(٢٠١) انظر فيما سبق ، ص ٤١ - ٤٢ .

(٢٠٢) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٧ ، ابن الأثير ، سنة ٢٢٣ ، ج ٦ ص ٤٩٣ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ ب ، الترجمة ج ١ ص ٤١٤ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٨ .

(٢٠٣) ابن الأثير ، سنة ٢٢٣ هـ ، ج ٦ ص ٤٩٣ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٣ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٤١٤ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٨ .

(٢٠٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٧ .

(٢٠٥) انظر فيما سبق ، ص ٦٩ .

(٢٠٦) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ ب ، الترجمة ، ج ١ ص ٤١٥ .

أبو العباس محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٢٢٦ هـ — ٢٤٢ هـ/ ٨٤١ — ٨٥٦ م) :

معالم العهـــد :

خلف الاغلب فى امارة افريقية ابنه أبو العباس محمـــد الذى بقى فى الملك مدة زادت على ١٥ (خمس عشرة) سنة ، كانت اهم أحداثها الداخلية مشاركة أخيه أحمد له في الأمور ، ثم قيامه بانقلاب عليه استمر أكثر من سنة ، استعاد بعدها محمد سلطانه — وهي الأمور التى تدخل فى النزاع بين أفراد الأسرة المالكة من أجل الحكم .

أما عن أحوال البلاد فكانت هادئة مطمئنة ، لم يعكر صفوها الا بعض الاضطرابات التى قام بها قواد الجند فى المنـــاطق الثائرة دائمـــا ، وهي : الزاب ، وتونس — وكان ذلك كرد فعل طبيعي لأزمة الحكم التى ثارت بين الأخوين . وعلى المستوى الدينى والادارى كان عهد أبى العباس محمد بن الأغلب ، هو عصر عظماء العلماء العباد ، مثل : أبى محمد عبد الله بن أبى حسان اليحصبى (توفي سنة ٢٢٧ هـ/٨٤٢ م) والبهلول بن عمر بن صالح (توفي سنة ٢٣١ هـ/٨٤٦ م) ، والامام سحنون بن ســعيد (الذى ولى القضاء سنة ٢٣٣ هـ/٨٤٧ م ، وتوفي سنة ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م) . أما عن السياسة الخارجية على عهد محمد بن الأغلب ، فقد تمثلت فى استمرار الفتوح فى صقلية ، وهو الأمر الذى خصصنا له فصولا تالية .

وأهم مصادرنا الأساسية هنا هو ابن عذارى الذى يهتم أكثر ما يهتم بالفتوح فى صقلية . أما ابن الأثير فروايته مبتورة بشكل غير عادى ، اذ لا يذكر الا خبر بناء مدينة أو حصن فى المغرب الأوسط قرب تاهرت ، قبل ذكر تاريخ وفاة الأمير بشكل تفصيلى ، وذكر أيام حكمه بالسنوات والأشهر والأيام ، مما يرجح أنه لخص مصدره ، وهو الرقيق ، تلخيصا مقتضبا ، الا اذا كانت النسخة التى وصلتنا من ابن الأثير ناقصة . وهذا يظهر من مقارنة رواية ابن الأثير برواية النويرى ، الذى ينقل هنـــا من الرقيق مباشرة . ورواية النويرى مليئة بالتفصيلات العجيبة فيما يتعلق بالصراع بين الأميرين الأخوين ، وهو الأمر الذى لا نجد له أثرا فى ابن الأثير . وهـــذا ما جعلنا نشكك فى أن تكون النسخة التى بين أيدينا من كتاب الـكامل قد وصلتنا كاملة . وهذا لا يمنع من أن يكون صاحب الكامل قد انتخب من الروايات ما رآه مناسبا ، وهو أهل لذلك .

هناك محدود المواهب ، حسن الطالع :

وأول ما يوصف به أبو العباس محمـــد بن الأغلب ، الذى كان فى الواحدة والعشرين من عمره عندما تولى الملك ، هو قلة العلم ، فهو ضعيف فى العربية ، ولا يعرف التفرقة بين المذاهب الكبرى ، كالحنفية والمالكية ، بل هو لا يعرف موضوعها أصلا(٢٠٧) ، ولكنه كان مع ذلك مظفرا فى حروبه على من ناوأه(٢٠٨) .

وفى السنوات الأولى من امارته نعمت البلاد بالهدوء والسكينة ، اذ انه أشرك أخاه أبا جعفر أحمد بن الأغلب فى الحكم ، فقلده كثيرا من الأعمال التى صار يدبرها له كاتبه نصر بن حمزة الجروى ، وعهد محمد الأمير بالوزارة وتسيير دفة أمور المملكة الى الأخوين : أبى عبد الله محمد بن على بن حميد ، وأبى حميد أحمد بن على بن حميد ، والظاهر أنه بينما كان الأمير محمـــد منكبا على الشراب والاشتغال باللهو والملاذ ، استبد ابنا على بن حميد بالأمور دونه من أثار حقد أخيه أحمد ، ومن الواضح أنه كان لحسد أفراد بطانة أحمد لبنى حميد ، مثل : نصر بن حمزة الكاتب ، أثره فى توجيهه نحو الاستبداد بالسلطة دون أخيه الأمير(٢٠٩) .

انقلاب يدبره أخوه أحمد :

وهكذا اتفق أبو جعفر أحمد بن الأغلب مع عـــدد من أعوانه وأهل بطانته على مفاجأة قصر الأمير محمد فى مدينة القصر القديم ، وذلك وقت الظهيرة من أحد أيام الصيف فى سنة ٢٣١ هـ/٨٤٤ م ، عندما يكون باب

---

(٢٠٧) انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ ب – الذى يرميه بانه كان من أجهل الناس . أما رواية ابن عذارى ، (المأخوذة من عريب وغيره) ، ج ١ ص ١٠٧ – ١٠٨ ، فهى تنص على أنه كان يكتب كلمة الشيء بالضاد « ضيء » وليس بالظاء – وهو الأمر المقبول الذى يحدث عند بعض المتعلمين فى أيامنا هذه . ولكن الرواية تخرج من حد النقد الى حد التشنيع ، عندما تقول ان الأمير الشاب اعتذر من ذلك بان فى كتابتها قولان : حسبما يقول كل من أبى حنيفة ومالك بن أنس ، مما أثار عجب الحاضرين . وقارن الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٩ : حيث تنص الرواية على أنه كان كوسجا ، وجهه وجه خصى وليس فيه الا شعرات يسيرة ، عقيما لا يولد له ، موصوفا بحلم وجود ، وقارن ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ، ص ١٠ .

(٢٠٨) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ ب ، الترجمة ج ١ ص ٤١٥ .

(٢٠٩) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ ب ، الترجمة ج ١ ص ٤١٥ .

القصر خاليا من الحرس والبوابين • ونجح المتآمرون من رجال أحمد في اقتحام أبواب القصر ، وبعد أن أغلقوها خلفهم هجموا على الوزير أبي عبد الله محمد بن علي بن حميد ، وقتلوه بأمر أحمد • وفي هذه الأثناء نجح الأمير محمد في اللجوء الى قصر (قبة) عمه زيادة الله ، حيث لحق به أبو حميد أحمد بن علي بن حميد ، بينما هب رجاله الى مقاومة المصريين • ولكن القتال لم يلبث أن توقف عندما أعلن رجال أحمد أنهم لم يخلعوا طاعة الأمير محمد ، وأنهم قاموا بعملهم هذا من أجل تحريره فقط من استبداد بني حميد الذين استأثروا ، دون الأمير ودون جنده ، بالأموال(٢١٠) •

وهنا أسقط في يد الأمير محمد ، فاضطر الى النزول الى مجلس العامة حيث أذن لأخيه أحمد ورجاله بالدخول عليه ، فدخلوا وهم في سلاحهم • ودارت بين الأخوين معاتبة مناسبة ، انتهت باعتذار أحمد ، واعلانه أن غرضه كان افشال مكيدة ابني علي بن حميد ، اللذين كانا يسعيان في الاستيلاء على السلطة • ولم يجد محمد بدا من مداراة أخيه ، والاغضاء عن فعلته ، وانتهى المجلس باعلان المصالحة بين الأخوين ، وتعهدهما بألا يغدر الواحد منهما بالآخر • وكان من شروط الصلح أن يسلم محمد الى أخيه أحمد ، أبا حميد بن علي شريطة ألا يقتله أو يصيبه منه مكروه ، وهو الشرط الذي لم يوف به أحمد ، اذ عذب أبا حميد وصادر أمواله ، ثم دبر قتله وهو في طريق نفيه الى مصر ، على يدي بعض المقربين اليه ، وهو أبو نصر الفتى ، أحمد موالي ابراهيم بن الأغلب(٢١١) •

استبداد أحمد بالسلطة :

وبذلك انتهى الأمر باعتكاف الأمير محمد بمنزله منصرفا الى اللهو والشراب ، بينما استبد أخوه أحمد بالأمور ، فعظم قدره واشتد سلطانه ،

---

(٢١٠) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٢ ب ـ ١١٣ أ ، الترجمة ، ج ٩ ص ٤١٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٨ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ٢١ •

(٢١١) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٣ أ ـ ١١٣ ب ـ حيث تقول الرواية ان أخا الأمير أحمد أسر الى أبي نصر الفتى أن يسير بأبي حميد على طريق طرابلس نحو مصر ، وأن يقتله عندما يصل الى قلشانة • وهذا ما فعله الفتى اذ خنق أسيره حتى مات ، وحمله على نعش الى قلشانة ، وأحضر من شهد أنه لا أثر فيه ولا جرح ، وقال : انه سقط عن الدابة فمات • وقارن الترجمة ، ج ١ ص ٤١٦ •

واستحوذ على كل دواوين الدولة ، فعزل حجاب محمد واتخذ لنفسه حجابا جددا ، كما اتخذ حرسا من العبيد والموالي بلغ عدد أفراده ٥٠٠ (خمسمائة) رجل يقفون ببابه . ثم انه رفـــع كاتبه نصر بن حمزة الجروى الى رتبــة الوزير ، وهكذا صار الأمر كله له ، ولم يبق لمحمـــد من الامارة الا مجرد الاسم(٢١٢) .

محمد يستعيد سلطانه :

ولكنه لم يقدر لاحمد بن الاغلب أن يستمتع طويلا باســـتبداده بحكم افريقية ، ففي السنة التالية (٢٣٢ هـ/٨٤٥ م) دارت عليه الدائرة ، وعادت الأمور الى ولى الأمر الشرعى . فكما كان التحاسد بين رجال حاشية كل من الأخوين سببا فيما قام بينهما من الخلاف ، كان التحاسد أيضا بين رجال حاشية أحمد هو السبب المباشر للانقلاب المضاد الذى أعاد الأمور الى نصابها المشروع . فقد كان استيزار أحمد لكاتبه نصر بن حمزة الجروى ، سببا فى اثارة الحقد فى قلب واحد من أقرب المقربين اليـــه ، وهو داود بن حمزة الوادرى ، الذى كان يرى أنه أولى بالتقديم من الجروى ، على أســـاس أنه كان المدبر الحقيقى للانقلاب .

وعن هذا الطريق فسدت نية الوادرى ، وأخذ يعمل ضد أحمد ويراسل أخاه الأمير محمد . وكان غدر أحمد بمثابة هزة نفسية عميقة زلزلت كيان الأمير محمد الى الأعمـــاق ، فترك اللهو والهزل ، وأخـــذ فى تدبير الحيلة لاسترجاع سلطانه المفقود . ومهد محمد للأمر بأن أخذ يبعث الى أعيـــان قرابته من الأسرة الأغلبية وقواد جنده وعبيده ، يسالهم معونته ضد أخيه ، ويعدهم الوعود الجميلة ، ويمنيهم أحسن الأمانى . وكان ممن نجح محمد فى استمالته الى جانبه ، قريبه القائد أحمد بن سفيان بن سوادة التميمى الذى كان أخوه خفاجة فى حبس أحمد ، والذى أحسن التدبير فى نصرته . ودار الهمس حول أحمد : ان أخاه الامير يدبر الاطاحة به ، ولكنه كان واثقا من أنه أتقن تدبير الأمور بحيث لم يبق مجال لأخيه للكيد له . وكان محمد الأمير فى الوقت الذى يحيك فيه مكيدته يتظاهر امام رسل أخيه بالانهماك

---

(٢١٢) النويرى . المخطوط . ج ٢٢ ص ١١٢ ب والترجمة ج ١ ص ٤١٧ ، وقارن ابن عذارى ج ١ ص ١٠٩ — حيث يقول النص . وقبض احمد على ما شاء ، واستصفى من اراد ، ونفى من أحب ، وأعطى الرجال . واستوزر نصر بن حمزة . وانظر ابن الخطيب . اعمال الأعلام . قسم ٣ ص ٢١

في الشراب(٢١٣) .

وفي اليوم الذي قرر محمد توجيه ضربته الى استبداد أخيه به ، أرسل الى أحمد بن سفيان بن سوادة اشارة البدء . فجعل ابن سوادة يرسل اتباعه من العبيد والموالي الى مدينة القصر القديم ، عليهم الأكسية ويحملون جرار الماء ، كأنهم يقومون بالخدمة ، الى أن اجتمع منهم قبل الزوال في دار ابن سوادة ثلاثمائة رجل ، أعطاهم السلاح . هذا ، كما كانت جماعة أخرى من أنصار محمد قد واعدوه بالنزول في قصر الماء عند الغروب ، وأن تكون إشارة البدء بتنفيذ الهجوم هي : أن يسمعوا الطبل ويروا الشمع مشتعلا في أعلى قبة قصر محمد .

والظاهر أن أحمدا كان قد اطمأن تماما الى غفلة أخيه ، والى احكام تدبيره للأمور ، حتى أنه بدأ هو الآخر يتصرف الى اللهو والشراب ، بل انه كان قد دخل الحمام في اليوم الذي اختير للقيام بالانقلاب المضاد . ولما كان دخول الحمام في ذلك الوقت يتطلب الكثير من الوقت ، كما كان يتطلب الراحة بعد الخروج منه ، فان ذلك يعني أن أصحاب محمد كانوا على دراية بما يفعله أحمد في ذلك الوقت ، وأنهم أحسنوا اختيار ساعة التنفيذ . وتقول الرواية ان عيون أحمد أي جواسيسه عرفوه بما يدبر له ، بل واخبروه أن المتآمرين سيجتمعون عند قصر الماء . ولكن يظهر أن جواسيسه لم يعرفوا ساعة الصفر ، كما نقول الآن ، اذ أنه أرسل خيلا الى قصر الماء وقت الظهيرة ، فلم يجدوا أحدا ، مما دعاه الى تكذيب تلك الأخبار وعدم الاكتراث لها .

أما عن ساعة الصفر التي اختارها محمد ، فكانت ساعة الغروب . فما أن قربت صلاة المغرب حتى وجه خادما له الى حرس أخيه الموجودين ببابه يدعوهم الى مأدبة يبرهم بها الأمير . وعندما اجتمعوا قدم لهم الطعام والشراب ، فلما عمل فيهم الشراب احتال على أخذ سيوفهم بحجة انه يجليها لهم . ومع أذان المغرب ، وهو وقت اغلاق أبواب القصر ، أتاهم رجاله وعلى رأسهم عامر بن عون القرشي ، فقتلوهم عن آخرهم . ثم أمر محمد بالطبول

---

(٢١٣) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٣ ب ، الترجمة ج ١ ص ٤١٧ ؛ الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨٢ ، وانظر ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم ٣ ص ٤٢ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٠ (حيث الرواية مقتضبة كما ما شيء عن استرجاع أبي العباس محمد لسلطانه شغلا في سنة ٢٤٣ (؟) هـ) .

ضربت ، وبالشموع في أعلى القبة فأوقدت ، وأقبل أصحابه من جهة قصر الماء ومن كل ناحية ، وخرج أحمد بن سفيان بن سوادة بمن كان في داره من العبيد والموالي ، فجعل يتتبع رجال أحمد أينما وجدهم ، واستمرت عملية المطاردة الرائعة طوال الليل -

ومع بزوغ فجر اليوم التالي بعث أحمد بن سفيان الى القيروان يستنصر بأهلها ، فأقبلوا في جموع عظيمة ، وهم ينادون بطاعة محمد • وهنا انهزم أصحاب أحمد هزيمة نهائية ، وهرب هو الى داره • وفكر أحمد في الاستعانة بقريبه خفاجة بن سفيان بن سوادة التميمي ، الذى كان في حبسه منذ سبعة أشهر ، ففكه من السجن ، وطلب منه الغوث دون أن يترك له الوقت لمعاتبته • وبشهامة فرسان ذلك العصر طلب خفاجة فرسا وسلاحا ، وخرج لتوه ينظر فيما يمكن أن يقدمه لناكر الجميل الذى استغاث به • ولكن أهل القيروان أقنعوه بألا جدوى من ذلك ، فعاد الى أحمد بن الأغلب وطلب منه الاستسلام لأخيه على الأمان قبل أن يهلك • ونجح خفاجة في كسب الأمان له من محمد فعلا •

وابتهاجا بالنصر أغدق الأمير محمد على أهل القيروان الذين رجحوا كفته ، بالخلع حتى أتى على كل ما كان في خزائنه وخزائن حرمه ، ووصلهم بالأموال حتى نفد كل ما كان لديه • أما عن أخيه أحمد فانه نفاه الى مصر ، ومن هناك سار الى العراق حيث مات(٢١٤) •

من نتائج الصراع بين الأخوين :

اضطراب بلاد الزاب :

وهكذا انقضى الاضطراب الذى ترتب على النزاع بين أفراد الأسرة الأغلبية من أجل العرش ، واستقرت الأمور للأمير محمد بن الأغلب من جديد ، ولم تبق الا بعض ذيول هذا الاضطراب في الأقاليم • ففي اقليم الزاب انتهز سالم بن غلبون ، الذى كان واليا على الاقليم من قبل محمد ، فرصة الصراع بين الأخوين وشق عصا الطاعة • وبعد أن استتبت الأمور لمحمد ظل سالم على عصيانه ، مما جعل الأمير محمد يعزله عن ولايته في تلك السنة (٢٣٢ هـ/٨٤٥ م) •

(٢١٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٤ ب ، ١١٥ أ ، الترجمة ، ج ١ ص ٤١٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٩ ، وانظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨٢ ، وقارن ابن الخطيب - أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ٢٢ •

. والظاهر أن والي الزاب المعزول استهان بأمر محمد حتى أنه خرج في السنة التالية (٢٣٢ هـ/٨٤٦ م) يريد دخول القيروان ، ولكنه عدل أثناء الطريق فسار إلى مدينة الاربس ، الا أن أهلها منعوه من دخولها ، مما جعله يتوجه الى باجة التي نجح في دخولها والسيطرة عليها . وهنا سير اليـــه الأمير محمد جيشا كثيفا بقيادة خفاجة بن سفيان الذي ضرب عليه الحصار في باجة ، وشدد عليه الحرب حتى ألجأه الى الفرار ليلا . ولم يترك خفاجة غريمه يلوذ بالفرار اذ تبعه في صباح اليوم التـــالي ولحقه وقتله ، وسير برأسه الى الأمير في القصر القديم . ولم يكتف محمد بقتل سالم بن غلبون ، بل انه انتقم من ابنه زهر الذي كان محبوسا عنده في القصر فأمر بضرب عنقه(٢١٥) .

اضطراب تونس : ثورة القويع :

هذا ، كما عرفت منطقة تونس مرة أخرى الاضطراب بفضل جندها الذي لا يركن الى الهدوء ، وذلك خلال السنوات الثلاثة التالية . ففي سنة ٢٣٤ هـ/٨٤٨ م ثار عمرو بن سـليم التجيبي ، المشــهور بـ « القويع » بتونس ، ولم ينجح خفاجة بن سفيان بن سوادة ، الذي حاصره بقية السنة ، في كسر شوكته(٢١٦) . وفي السنة التـــالية ٢٣٥ هـ/٨٤٩ م سير الأمير محمد بن الأغلب قائده محمد بن موسى المعروف بعريان الى تونس لقتـــال عمرو بن سليم القويع . وبالقرب من تونس خرج القويع للقـــاء عريان ، وصدمه صدمة جعلت الكثيرين من موالي الأمير الأغلبي يلجـــأون الى القويع الذي اشتد بهم ، وحمل على محمد بن موسى ، « عريان » ، فهزمه هزيمـــة منكرة وأسر بعض كبار قواده . وانتهى القتال بمقتل ابن موسى بعـــد أن انكسرت رجله ، وعودة فلول الجيش مهزومين الى القيروان .

وهكذا اشتدت شوكة القويع ، ولم يتمكن من هزيمته في العام التالي (٢٣٦ هـ/٨٥٠ م) الا خفاجة بن سفيان الذي خرج اليه في جيش كثيف قاتله قتالا شديدا ، قتل أصحاب القويع فيه مقتلة عظيمة . وأدرك بعض

---

(٢١٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢١٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٠ . والقويع طائر صغير له عرف كالقنبرة يبرق الهدهد . وانظر ابن الأثير أحداث سنة ٢٣٤ ، ج ٧ ص ٤٢ — حيث القراءة القريع — أما في ترتيب المدارك للقاضي عياض فنجد القراءة بـ القويبع ، وكذلك في رياض المالكي (ص ٢٨٠) أي على صورة التصغير .

جند القيروان القويع وهو ينهزم فقبضوا عليه وضربوا عنقه ، وحمل رأسه الى الأمير محمد الذي كافأ قاتل القويع مكافأة سنية ، وخلع عليه .

ولم تستسلم مدينة تونس الى خفاجة الا بعد أن دخلها بالسيف يوم السبت ١٠ من ربيع الأول/ ٢١ أكتوبر ، فاستباحها وسبى نساءها ، وعاد الى القيروان حيث كساه محمد بن الأغلب(٢١٧) ، فكأنه كان عائدا من بعض غزواته في أرض العدو .

استكمال العمل في رباط سوسة ، وبناء « العباسية » قرب تاهرت :

أما عن أهم الاعمال العمرانية التي تنسب الى الامير محمد بن الاغلب ، فبناؤه للقصر الذي كان بسوسة في سنة ٢٣٠ هـ/٨٤٤ م ، كما تقول رواية النويري(٢١٨) . والظاهر أن الامر كان يتعلق باستكمال العمل الذي كان قد بدأه زيادة الله في الرباط أو بناء الأسوار .

والى جانب الحرب في صقلية ، نظن أن العلاقات بين الأغالبة وبين الرستميين كانت قد توترت الى حد الأعمال الحربية أو التهديد باستخدام القوة . ذلك ما يفهم من الرواية التي تقول ان الأمير محمد قام بانشاء مدينة جديدة قرب تاهرت سماها « العباسية »(٢١٩) ، وهو الاسم الذي أعطاه جده ابراهيم بن الاغلب لمدينة القصر القديم . ومن الواضح أن بناء مدينة أغلبية في قلب المملكة الرستمية يعني اتخاذها قاعدة عسكرية أمامية يمكن منها تهديد الدولة الاباضية ، وهذا ما لم يغب عن الرستميين الذين دبروا تخريب العباسية الجديدة ، فدمروها بالنيران(٢٢٠) . وكانت مناسبة استغلها الرستميون للتقرب من الأمويين في الأندلس ، حتى أن الأمير عبد الرحمن الأوسط بن هشام بعث الى الامام أفلح بن عبد الوهاب بمائة ألف درهم ، كأنها مشاركة منه في « المجهود الحربي » ، كما يقال الآن ، ضد خصمهم المشترك ، ممثل بغداد في افريقية .

---

(٢١٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٠ ، وانظر ابن الأثير سنة ٢٣٤ ، ج ٧ ص ٤٤ .

(٢١٨) النويري ، ج ٢٢ ص ١١٥ أ .

(٢١٩) ابن الأثير ، أحداث سنة ٢٣٤ هـ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٠ (حيث يجعل بناء المدينة في سنة ٢٢٧ هـ/٨٤١ م) .

(٢٢٠) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠١ . وهو الأمر الذي لا نجد له ذكرا في التاريخ تاهرت على عهد الامام أفلح (١٦٨ — ٢٤٧ هـ) . انظر فيما بعد ، ص ٢٣٧ وما بعدها .

ازدهار المالكية على أيام محمد بن الأغلب :

والى جانب عناية الامير محمد برباطات العباد — رغم ما ينسب اليه من الجهل او قلة العلم — فقد كان من حسن حظه أنه عاصر خلال حكمه عددا من كبار أئمة المالكية من أهل افريقية ، مثل : عبد الله بن أبي حسان اليحصبي (توفي ٢٢٧ هـ/٨٤١ م) الذي كان يحضر مناظرات أبي محرز وأسد بن الفرات ، أيام زيادة الله(٢٢١) ، كما شهد حكمه السنوات الأخيرة للبهلول بن عمر بن صالح الفقيه (توفي سنة ٢٣٠ هـ/٨٤٤ م) الذي سمع من مالك وطبقته(٢٢٢) .

وبعد ذلك يكفيه فخرا أنه ، بعد أن تخلص من استبداد أخيه أحمد ، عهد في سنة ٢٣٣ هـ/٨٤٧ م بقضاء القيروان الى امام المالكية ، في افريقية والمغرب وفقيههم ، وهو : سحنون بن سعيد التنوخي ، بعد أن عزل القاضي الحنفي عبد الله بن أبي الجواد ، صهر أسد بن الفرات (زوج ابنته) الذي كان سحنون يكرهه بسبب قوله بخلق القرآن ، ويسميه بفرعون هذه الأمة وجبارها ، وظالمها(٢٢٣) .

الامام سحنون (١٦٠ هـ/٧٧٧ م — ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م) :

شبابه وتكوينه العلمي :

وسحنون أصله من عرب الشام ، قدم أبوه سعيد الى افريقية في جند حمص(٢٢٤) . ولقد أخذ سحنون العلم في شبابه في تونس على كبار فقهائها من تلامذة الامام مالك ، مثل : أبي خارجة عنبسة الغافقي (توفي في ربيع ٢ سنة ٢١٠ هـ/يوليه — اغسطس ٨٢٥ م)(٢٢٥) والبهلول بن راشد التميمي ، عابد افريقية وزاهدها الذي قيل ان شهرته وصلت الى سمرقند (توفي

---

(٢٢١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٨ ، المدارك ، ص ٤٨٤ ، قطب السرور للرقيق ص ٤٨٦ .

(٢٢٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٨ .

(٢٢٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٩ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٨ ، وقارن ابن خلدون ، ج ص ٢٠٠ (حيث يجعل ولاية سحنون سنة ٢٣٤ هـ) .

(٢٢٤) المدارك ، ص ٥٨٥ — ٥٨٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٨٦ — ٨٧ ، واسمه الحقيقي عبد السلام وإنما سحنون لقبه ، وهو اسم طائر حديد البصر سمي به لحدته في المسائل .

(٢٢٥) المدارك ، ص ٨٦ وما بعدها ، تراجم اغلبية ، ص ٧٨ ، ٨٢ .

سنة ١٨٣ هـ/٧٩٩ م)(٢٢٦) ، وعلي بن زياد التونسي العبسي ، أول من أدخل موطأ مالك في افريقيـــة وجامع سفيان (توفي ١٨٣ هـ/٧٩٩ م)(٢٢٧) ، وغيرهم .

واذا كان الشك يحوم حول لقاء سحنون لمالك بن أنس ، اذ قيل انه سار الى مصر والحجاز في سنة ١٨٨ هـ/٨٠٣ م أي بعد وفاة مالك (١٧٩ هـ/ ٧٩٥ م) ، ثم تدارك الكتاب ذلك فيما بعد فقالوا بل في سنة ١٧٨ هـ/ ٧٩٤ م أي في آخر أيام مالك(٢٢٨) ، فالمهم انه أخذ من أصحاب مالك في مصر من العلماء . ومن أشهر من أخذ عنهم في مصر ابن القاسم ، وابن وهب ، وأشهب ، وطليب بن كامل ، وعبد الله بن عبد الحكم وغيرهم . وبعد ذلك سار الى الحجاز حيث أخذ عن المدنيين من تلامذة امام دار الهجرة ، قبل أن يعود الى افريقية في سنة ١٩١ هـ/٨٠٦ م(٢٢٩) .

ولقد برع سحنون في فقه مالك بن أنس حتى قيل انه كان افقه من أصحاب مالك كلهم ، وأن ابن القاسم ، وهو امام المالكية في مصر ، طلب اليه أن يقيم عنـــده بطلب العلم(٢٣٠) ، وان العلم كان في صدر سحنون كسورة من القرآن محفوظة عن ظهر قلب(٢٣١) . والى سحنون يرجع الفضل في نشر المذهب المالكي في افريقية — بفضل كتابه المعروف بالمدونة ، الذي صحح به كتب أسد بن الفرات المعروفة بالأسدية(٢٣٢) ، فحققها وشرحها

---

(٢٢٦) المدارك ، ص ٣٣٠ وما بعدها ، تراجم أغلبية ، ص ٢٧ ، ٢٩ ، ٤٠ ب وانظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٩١ وص ١٧٤ .

(٢٢٧) المدارك ، ص ٣٢٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٢١ ، ٢٥ .

(٢٢٨) انظر المدارك ، ص ٥٨٥ (حيث يضعه القاضي عياض رغم ذلك في طبقة من انتهى اليه فقه مالك ولم يروا أن يسمعوا منه . وقارن تراجم اغلبية ، ص ٨٧ .

(٢٢٩) المدارك ، ص ٥٨٧ ، تراجم اغلبية ، ص ٨٨ . وتاريخ عودته الى افريقية سنة ١٩١ هـ/٨٠٦ م حيث كان يسمع منه أهل اجدابية ، وهو في الطريق الى البلاد التونسية . وهي نفس السنة التي توفي فيها ابن القاسم ، تدل على أن سحنون لم تكفيا له فرصة للسماع مالك بن أنس الذي توفي في سنة ١٧٩ هـ/٧٩٥ م — خاصة وأن مترجمي سحنون يقولون انه سافر الى المشرق وعمره ٢٥ سنة ، وعاد وعمره ٣٠ سنة ، بمعنى ان رحلته استغرقت حوالي ٥ سنوات فقط . وهذا يحمل بدء رحلته المشرقية في سنة ١٨٨ هـ/٨٠٣ م أقرب الى الصحة من سنة ١٧٨ هـ/٧٩٤ م المقترحة حتى تكون قبيل وفاة مالك — وهذا ما يقول به أبو العرب فعلا (ط . تونس ص ١٨٥) ثم المالكي (ج ١ ص ٢٥٠) .

(٢٣٠) المدارك ، ص ٥٨٩ — ٥٩٠ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٠ .

(٢٣١) المالكي ج ١ ص ٢٥٣ ، المدارك ، ص ٥٩٠ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٣ .

(٢٣٢) المدارك ، ص ٤٦٩ ، تراجم اغلبية ، ص ٥٩ .

وبوبها ونظمها . وفي ذلك يقال ان أسد بن الفرات نفسه نصح بالاخذ عن سحنون ، بعد أن خرج هو الى غزو صقلية(٢٣٣) . كل ذلك رغم أن المذهب كان قد غمر البلاد قبله بفضـــل الرواد المالكية الأوائل . وفي ذلك يقول مترجمو سحنون : انه لما قدم بذلك المذهب صار زمانه كأنه مبتدأ قد أمحى ما قبله ، وأن أصحابه كانوا سرج أهل القيروان(٢٣٤) .

سحنون ناسكا : على مذهب أهل المدينة :

والى جانب العلم والفقه عرف سحنون بالورع الصادق ، والزهادة في الدنيا ، والصرامة في الحق ، لا يخاف في الله لومة لائم(٢٣٥) ، ولذلك قيل فيه انه راهب هذه الامة ، وأنه كان أهيب في القلوب من الملوك(٢٣٦) . ولم يعمل سحنون على نشر مذهب مالك فقط ، بل انه أخذ بمذهب أهل المدينة في كل شيء حتى في العيش ، فكان مقتصدا فيه : على قدر ذات اليد(٢٣٧) . وكان قصده الأول من ذلك هو الا يحتاج الى السلاطين أو رجال الدولة(٢٣٨) . على أساس شكه في أن أموال السلطان تأتي من أبواب حلال .

وهذا ما دعا الفقهاء الى تسمية كثير من الضرائب التي كانت تفرضها الدولة بالمظالم وبالمغارم ، لانها كانت تجمع على غير وجهها الشرعي ، كمـــا رأينا في الاصلاح الذي قام به الامير عبيـــد الله بن ابراهيم في مال العشر عندما حدده بـ ٨ (ثمانية) دنانير على كل زوج تحرث من البقر ، ســـواء أنتجت الأرض أم لم تنتج ، وهو الأمر الذي كانت العودة عنه كأنها عودة الى العدالة والخير(٢٣٩) .

---

(٢٣٣) المدارك ، ص ٤٧٢ ، ٥٩٢ (يقول انه خرج الى العراق) ، تراجم أغلبية ص ٩٥ .

(٢٣٤) المدارك ، ص ٥٩١ ، ٦١٣ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٣ ، ٩٤ ، ١٢٠ .

(٢٣٥) أبو العرب (ط . تونس) ، ص ١٨٤ ، المالكي ، ج ١ ص ٢٤٩ ، المدارك ، ص ٥٩٢ ، تراجم أغلبية ، ص ٩٤ .

(٢٣٦) المدارك ، ص ٥٩٢ ، تراجم أغلبية ، ص ٩٤ .

(٢٣٧) المالكي ، ج ١ ص ٢٦٣ ، المدارك ، ص ٥٩٣ ، تراجم أغلبية ، ص ٩٦ .

(٢٣٨) المدارك ، ص ٥٩٤ ـ ٥٩٥ ، وانظر تراجم أغلبية ، ص ٩٨ : حيث كان يشتري كل يوم ربع رطل لحما لم تركه اقتداء بالصالحين ، ص ١٣٦ ـ حيث لا يشرب من المواجل (مصانع الماء أي خزاناتها) التي يبنيها السلطان تورعا ، وان أجاز ذلك للناس على أساس أنها حجارة جمعها السلطان ، وأجرى الله فيها الماء . وقارن المدارك ص ٦١٨ ـ ٦١٦ .

(٢٣٩) انظر فيما سبق ، ص ٤١ ـ ٤٢ ، ٧٧ ، ٧٨

وفي هذا الباب كان سحنون يرى أن ترك الحرام أفضل من جميع عبادة الله(٢٤٠) . ولهذا كان سحنون يحض على العمل وكسب المرء رزقه بعرق جبينه ، وكان يقول أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه(٢٤١) . وكان سحنون قدوة في ذلك ، يضرب لطلابه وأهل عصره المثل في شرف العمل . فكان يخرج لفلاحة أرضه وقت مرض خادمه ، وعلى كتفه المحراث ، وبين يديه زوج البقر . وعندما يقوم أحد طلابه مقامه حتى لا يحرم أصحابه من طلب العلم يبقيه الى مائدته ، وان كانت الوجبة مكونة من خبز شعير وزيت قديم ، قبل أن يسمعه العلم الذي فاته : وحده(٢٤٢) .

وهكذا كان سحنون قدوة في الجد والنشاط في العمل الجثماني ، كما كان مثالا في الزهد والتقشف . ولم يكن زهده عن فقر ، بل عن تضحية وايثار للغير . فقد كان من طبقة الزهاد الذين وطدوا قاعدة : ان الجود هو أصل الوجود . وفي ذلك يقال انه كان يتصدق بالثلاثين دينار دفعة واحدة ، وهو المبلغ الذي توجب فيه الصدقة(٢٤٣) . وكان يصرف بطاقات الصدقة للمحتاجين ، كما تصرف صكوك المصارف في أيامنا هذه ، بكل ثمن الزيتون الذي باعه ، وهو ٣٠٠ (ثلاثمائة) دينار(٢٤٤) . أما عن غلة أرض سحنون من الزيتون ، التي بلغت ٥٠٠ (خمسمائة) دينار في السنة ، فكان يبددها جميعا في أعمال البر والصدقة ، فما كانت تنقضي السنة الا والديون عليه(٢٤٥) . وهكذا لم يكن من الغريب على سحنون ، صاحب هذه الأمثولات ان يرفض توليته القضاء طوال عام بأكمله(٢٤٦) . ولم يكن من الغريب على الأمير محمد بن الأغلب أن يتمسك بذلك العالم الزاهد ، الذي يرفض مال

---

(٢٤٠) انظر تراجم اغلبية ، ص ١٢٨ ـ حيث نقرأ تتمة النص : ولترك دانق مما حرم الله افضل من ٧٠ (سبعين) الف حجة ... وافضل من سبعين الف فرس في سبيل الله .. ومن سبعين الف بدنة يهديها الى بيت الله العتيق ، وافضل من عتق سبعين الف رقبة مؤمنة من ولد اسماعيل . وقارن المالكي ، ج ١ ص ٢٥٩ .

(٢٤١) المدارك ، ص ٥٩٩ . تراجم اغلبية ، ص ١٠٣ .

(٢٤٢) المالكي ، ج ١ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ، المدارك ، ص ٥٩٤ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٧ .

(٢٤٣) المالكي ، ج ١ ص ٢٦١ . المدارك ، ص ٦١٩ . تراجم اغلبية ، ص ١٢٧ .

(٢٤٤) المدارك ، ص ٦٢١ . تراجم اغلبية ، ص ١٢٧ ، ١٣٠ .

(٢٤٥) المدارك ، ص ٦١٩ تراجم اغلبية ، ص ١٢٨ .

(٢٤٦) المالكي ، ج ١ ص ٢٧٣ .

الأمراء ، ويأكل خبز الشعير بالملح والزيت ثم يتصدق بأمواله .

وفي زهد سحنون تقول الروايات أيضا انه كان يركب بلجام حديد دون فضة(٢٤٧) ، ويلبس الفرو والخشن من الثياب(٢٤٨) ، والبرنس الأسود في المطر والبرد(٢٤٩) . وكان طلبة العلم في مجلسه يقعدون أمام باب داره على الأرض الا من يحضر الحصير منهم(٢٥٠) . وكان سحنون يمر في الاسواق يسلم على الناس(٢٥١) ، ويرى أن مداراة الناس هي رأس الايمان(٢٥٢) .

هكذا حق للأمير أن يتشبث به لولاية القضاء ، وان يبلغ تشبثه الى حد ارغامه على ذلك ، تحت التهديد والوعد والوعيد(٢٥٣) .

ولاية سحنون القضاء :

وهذا لا يعني أن امام افريقية وراهب المغرب ، الذي قال لابنته عندما قبل تولية القضاء : « اليوم ذبح أبوك بغير سكين »(٢٥٤) ، قد قبل الوظيفة المرموقة ، وهو مغلوب على أمره . وذلك أنه لم يقبل القضاء الا بعد أن أعطاه الأمير كل ما طلب ، وأطلق يده في كل ما رغب فيه ، وخاصة فيما يتعلق بنفاذ أحكامه على أهل الأمير وقرابته وأعوانه ، بل ان الأمير نفسه طلب اليه أن يجري الحق على شخصه أيضا(٢٥٥) .

تنظيماته القضائية :

درجات القضاء :

والحقيقة أن ولاية سحنون للقضاء لم تعتبر رفعا للواء الحق ، وايذانا بسيادة القانون والعدل في افريقية فقط ، بل انها كانت أيضا بداية لتنظيمات

---

(٢٤٧) المدارك ، ص ٥٩٤ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٦ ، المالكي ، ج ١ ص ٢٦٤ .

(٢٤٨) المالكي ، ج ١ ص ٢٦٤ ، تراجم اغلبية ص ٨٩ ، ١٢٦ .

(٢٤٩) المالكي ، ج ١ ص ٢٦٤ ، المدارك ، ص ٥٩٤ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٦ .

(٢٥٠) المدارك ، ص ٥٩٤ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٧ .

(٢٥١) المدارك ، ص ٥٩٥ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٨ .

(٢٥٢) تراجم اغلبية ، ص ١٢٠ .

(٢٥٣) المالكي ، ج ١ ص ٢٧٣ ، المدارك ، ص ٥٩٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٩ .

(٢٥٤) المالكي ، ج ١ ص ٢٧٣ ، المدارك ، ص ٥٩٧ ، تراجم اغلبية ، ص ١٠٠ .

(٢٥٥) المالكي ، ج ١ ص ٢٧٣ ، المدارك ، ص ٥٩٦ ، تراجم اغلبية ، ص ١٠٠ .

قضائية لم تعرفها البلاد قبل قضاء سحنون • فالى سحنون يرجع الفضل في تقسيم سلطات القضاء الى ثلاثة فروع ، هي :

١ ـ القضاء العادي : وهو ما يرجع الى القاضي أصلا ، ومنه يتفرع :

٢ ـ القضاء العالي : الخاص برجال الدولة وقرابة الامير ، وهو المسمى بـ « المظالم » •

٣ ـ القضاء العاجل (أو المستعجل) : وهو الخاص بالفصل في القضايا السريعة ، مثل المخالفات أو الجرائم التي ترتكب في الأسواق ، والتي كانت تتطلب الحكم السريع في موضع الحادثة نفسها ، مما قد لا يتمكن منه القاضي الذي كان يجلس في المسجد الجامع أو في داره ، وهو الذي سمي بالحسبة ـ وكان الحكم فيه من اختصاص أحد اعوان القاضي ، وهو المحتسب •

اعوان القاضي :

فقبل أن يجلس سحنون للقضاء أمضى أياما يبحث فيها عن الأعوان المناسبين الذين يمكن أن يساعدوه في القضاء • وبدأ باتخاذ الفقيه الحنفي سليمان بن عمران ، الذي كان هو نفسه قد رشحه للقضاء(٢٥٦) ، كاتبا يكتب له في قضائه(٢٥٧) • وذلك قبل أن يعينه معاونا له في اقليم بجاية وباجة والأربس(٢٥٨) •

والى جانب الكاتب الذي كان يدون سجل الاحكام ، ويحتفظ بقوائم الشهود العدول ، اتخذ سحنون له الأمناء الذين يعاونونه في التعرف على أحوال المتقاضين والشهود ، والذين كان يعهد اليهم بحفظ الودائع ـ التي كانت قبله ، تحفظ في بيوت القضاة ـ كما اتخذ الامناء في البوادي أيضا ، فكان يكتب اليهم بما يريد • وكان القضاة قبله يكاتبون الصالحين من أهل البادية فيما يريدونه من الأمور(٢٥٩) •

---

(٢٥٦) انظر المدارك ، ص ٥٩٥ ـ ٥٩٦ ، تراجم الغلبية ، ص ٩٩.

(٢٥٧) انظر المدارك ، ص ٥٩٨ ، تراجم الغلبية ، ص ١٠٢ •

(٢٥٨) المدارك ، ص ٥٩٨ ، تراجم الغلبية ، ص ١٠٢ ، وقارن المالكي ، ج ١ ص ٢٧٥ • عن ولاية ابن عمران الملقب بالروثه للقضاء بعد سحنون ، انظر فيما بعد ، ص ١٠١ ، وعن نزاعه مع محمد بن سحنون ، انظر فيما بعد ، ص ١٠٨ وما بعدها •

(٢٥٩) انظر المدارك ، ص ٥٩٦ ، ٦٠٠ ، تراجم الغلبية ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ، وقارن المالكي ج ١ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ •

ولما كان سحنون قد اشترط على محمد بن الاغلب الا يأخـذ لنفسه راتبا ولا مكافأة من مال الدولة على قضائه ، وذلك انسجاما مع المبدأ الذى كان يراه في عدم شرعية مال السلطان ، فانه اشترط أن تكون رواتب مساعديه ، من : الكتاب والاعوان والقضاة سواء كانوا في القيروان او في الأقاليم ، من مال الجزية المفروضة على أهل الذمة(٢٦٠) مما يعنى أنه كان يرى أن ضريبة أهل الكتاب هى الضريبة الشرعية الوحيدة التى لم يدخلها الغش فى ذلك الحين .

القضاء والأمر بالمعروف :

وكان من الطبيعي بالنسبة لرجل سيرته تلك أن يقيم من نفسه آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر . وهو لم يكن يفعل ذلك فى مجلس القضاء فقط : عندما كان يؤدب الخصم اذا طعن على الشاهد(٢٦١) ، أو عنـــدما كان يؤدب الناس على الايمان التي لا تجوز ، كما في أيمان الطـــلاق والعتـــاق وما شابهها(٢٦٢) ، بل كان ينهى عن المنكر فى الجنـــائز(٢٦٣) ، من : شـــق الجيوب ، ولطم الخدود ، وحثو التراب على الرؤوس ، وما شابه ذلك .

الحسبة فى الأسواق ، والقضاء على الكلاب الضالة :

هذا ، وفي مجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كان سحنون أول من نظر فى انتظام سير الأمور فى الأسواق من القضـــاة ، وكان النظر فى الأسواق قبله ، من اختصاص الأمراء . فكان يسير فى الأسواق يسلم على الناس ، وينظر فيما يصلح من المعايش ، وما يغش من السلع . وكان يؤدب فى السوق على الغش ، وينفي من الأسواق من يستحق ذلك من التجار . وهو لك ، أول من أمر بتغيير المنكر فى الأسواق من القضاة ، وأول من نظر نهم فى الحسبة(٢٦٤) . وعن هذا الطريق وسع سحنون اختصاص قاضى القيروان ، وأدخل فى نطاقه الحسبة .

---

(٢٦٠) المالكي ، ج ١ ص ٢٧٥ ، المدارك ، ص ٥٩٩ ، تراجم اغلبية ، ص ١٠٢ .

(٢٦١) المدارك ، ص ٥٩٩ ، تراجم أغلبية ، ص ١٠٣ .

(٢٦٢) المالكي ، ص ٥٧٦ ، تراجم اغلبية ، ص ١٠٤

(٢٦٣) المالكي ، ص ٥٧٦ ، تراجم أغلبية ، ص ١٠٣ .

(٢٦٤) أنظر المالكي ، ج ١ ص ٢٧٦ ، المدارك ، ص ٦٠٠ ، تراجم اغلبية ، ص ١٠٤ .

سلطانه في الأندلس :

وفي هذا الاطار امتد سلطان سحنون حتى الأندلس اذ تقول الرواية : انه كان يكتب الى محمد بن زياد ، قاضي قرطبة ، يأمره بالسد والمعاقبة لمن فالس ، وتكرار الأدب والضرب عليه حتى يؤدي أو يموت(٢٦٥) •

توسيع نطاق الحسبة :

ووسع سحنون نطاق الحسبة خارج الاسواق حتى شمل مدينة القيروان بأكملها • فلقد تتبع الفساق والفجار من الرجال والنساء • وفي ذلك يروى انه أدب المــــرأة ممن كن يحرضن على الفسق ، ثم انه نقلهــــا بين قــــوم صالحين(٢٦٦) • وفوق ذلك فانه ، حرصا منه على سلامة أهل المدينة وأمنهم ، قرر التخلص من الكلاب الضالة • التي كانت تؤذي الناس من غير شك ، وكتب الى أعوانه يأمرهم بقتلها ، كما بث وراءها الأعــــوان بالحراب يفتكون بهــــا(٢٦٧) •

ومما اعتبره سحنون أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر تفريق حلقــــات العلم والمناظرة التي كان يعقدها ، في المسجد الجامع بالقيروان ، علمـــاء : الصفرية ، والاباضية ، والمعتزلة ، ممن كان يعتبرهم من أهل الزيغ والبدع • وكان أول من فعل ذلك من قضاة القيروان • وأكثر من هذا ، فانه منع أصحاب هذه المذاهب من أن يكونوا ائمة في المســـاجد ، أو معلمين للصبيان ، أو مؤدبين في المكاتب • وكان ينزل العقاب الصارم بمن يخالف أمره منهم ، ويشنع بهم ويطوف بهم في المدينة • كما أنه دفع بالكثيرين منهم الى التوبة عما كانوا يعتقدون فيه ، وكان يجعلهم يعلنون ذلك من أعلى منبر الجامع(٢٦٨) •

الاشراف على الجامع :

وفي نطاق الاشراف على جامع القيروان أخذ سحنون لنفسه حق تعيين امام الصلاة ، وكان ذلك من حق الأمراء ولم يكن من اختصاص القاضي(٢٦٩) •

---

(٢٦٥) المدارك ص ٦٠٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٩٩ •

(٢٦٦) انظر المالكي ، ج ١ ص ٢٧٧ ، المدارك ، ص ٦٠١ ، تراجم اغلبية ، ص ١٠٥ •

(٢٦٧) انظر المالكي ، ج ١ ص ٢٧٩ ، المدارك ، ص ٦٠٧ ، تراجم اغلبية ، ص ١٠٥ •

(٢٦٨) انظر المالكي ، ج ١ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ، المدارك ، ص ٦٠٠ ، تراجم اغلبية ، ص ١٠٥

(٢٦٩) المالكي ، ج ١ ص ٢٧٧ ، المدارك ، ص ٦٠٠ ، تراجم اغلبية ، ص ١٠٥ •

مجلس القضاء والاجراءات القضائية :

وهكذا أصبح سحنون مسيطرا على أسيوق القيروان ، وعلى مسجد المدينة الجامع ، حيث اتخذ له بيتا بناه فيه للحكم بين المتقاضين ، بعد أن وجد أنه ليس من المناسب الجلوس وسط حشود الناس في الجامع ، وهم يلغطون ويكثرون من الكلام(٢٧٠) . وهذا يعني أن سحنون اجتهد في تنظيم القضاء فكأنه اتخذ له بناء خاصا ، أشبه بمحكمة ، ملحقا بالمسجد الجامع .

ويدخل في باب تنظيم التقاضي مما كان يفعله من اعطـاء الرقاع أو الطوابع لذوي الدعاوي(٢٧١) ، الموجودين خارج بيت القضـاء هذا ، حتى يدخل كل منهم في دوره عند النداء عليه ، اذ كان لا يسمح بدخـول بيت القضاء الا للخصمين ، ومن معهمـا من الشهود . وكان يستثنى من شرط الدخول في دوره : المضطر أو الملهوف(٢٧٢) . وكان سحنون يسمح بتنفيذ العقوبات الخفيفة في الجامع : كالضرب بالدرة ، وما خف من الأدب كالصفع على القفا . أما اذا أقام الحدود من الجلد والضرب بالسوط ، فكان تنفيذه خارج الجامع(٢٧٣) .

الشدة في تطبيق القانون :

ومن الأحكام القاسية التي أخذت على سحنون ـ الذي عرف بأنه كان رقيق القلب غزير الدمعة ، ولكنه في نفس الوقت شديدا في الحق ، لا يخاف في الله لومة لائم(٢٧٤) ـ ما أنزله من العذاب بغريمه وخصمه : قاضي القيروان السابق ابن أبي الجواد . حقيقة أن ابن أبي الجواد أتهم في وديعـة ٥٠٠ (خمسمائة) دينار من قبل بعض الناس ، ولكن نفى ابن أبي الجواد للتهمة . وهو ما هو معروف من أنه القاضي السابق ، ورفض سحنون ما عرضته زوجة ابن أبي الجواد ، وهي أسماء بنت أسد بن الفرات ، من دفع المال المطلوب هبة لزوجها ، أمر له مغزاه . فسحنون فسر ذلك الرفض في شكل قوالب قانونية

---

(٢٧٠) انظر المالكي ، ج ١ ص ٢٧٧ ، المدارك ، ص ٦٠٠ ـ ٦٠١ ، تراجم أغلبية ، ص ١٠٥ (حيث تضيف الرواية أن الجلوس في ذلك البيت صار سنة للمالكية ، فاذا ولي القضاء عراقي أي حنفي حضنه ، واذا ولي مدني أي مالكي جاءه وحكم فيه) .

(٢٧١) انظر المالكي ، ج ١ ص ٢٧٧ ، المدارك ، ص ٦٠١ ، تراجم أغلبية ، ص ١٠٥ .

(٢٧٢) المالكي ، ج ١ ص ٢٧٧ ، المدارك ، ص ٦٠١ ، تراجم ، ص ١٠٥ .

(٢٧٣) نفس المصادر .

(٢٧٤) انظر المدارك ، ص ٥٨٨ ، تراجم أغلبية ، ص ٨٦ .

جصة عاصلوب العرض دون الجوهر ، مما كان موضوعا لجدل الفقهاء فيما بعد(٢٧٥) ، كما أصر على اخراج الرحل المهيب فى طريق القيروان الكبير المعروف بالسماط ، وضربه بالسياط امام عامة الناس أكثر من مرة فى كل يوم جمعة ، حتى انتهى الأمر بمرض الرجل وموته(٢٧٦) .

كل ذلك يدل على أن الأمر لم يكن متعلقا فقط بالقصاص من ابن أبى الجواد من اجل الوديعة ، بل يرجح أنه كانت فى نفس سحنون أشياء قبل ابن أبى الجواد ، يعود تاريخها الى الوقت الذى تعرض فيه سحنون للامتحان بخلق القرآن ، حيث وقف ابن أبى الجواد موقفا عدائيا من سحنون . ولولا الوزير على بن حميد لما قدر لسحنون أن ينجو من عقوبة صارمة ، من الزامه بالاقامة الجبرية فى منزله ، ومنعه من التدريس ، والأمر باخذ ثياب من يدخل عليه ، مما اعتبرته هيئة المحكمة . « قتل الحياة »(٢٧٧) .

ولكنه اذا اعتبرنا أن تشدد سحنون وقسوته مع ابن أبى الجواد يعتبر احدى هفوات الامام المرموق ، فمما لا شك فيه أنه كان لا يخاف فى الله لومة لائم ، وأنه كان يقف بصرامة ضد أقارب الأمير محمد وأعوانه ، ويأخذ منهم الحقوق لأصحابها ، ويطبق عليهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من أبناء الشعب . هذا ، كما كان يطبق مبدأ الرقابة هذه على الأمير نفسه .

تجلى ذلك عندما قام عمرو بن سليم المعروف بالقويع أو القويبع فى منطقة تونس سنة ٢٣٤ هـ/٨٤٨ م(٢٧٨) ، ورفض سحنون ما طلبه محمد ابن الأغلب من الفتوى بضرورة قتال الخارجى ، واعتبار ذلك نوعا من الجهاد . وفى ذلك تقول الرواية انه رد على الأمير قائلا : « عشك من ذلك على هذا . متى كانت القضاة تشاورها الملوك فى صلاح سلطانها »(٢٧٩) .

---

(٢٧٥) انظر المالكى ، ص ٢٧٨ ، ٢٨١ ، المدارك ، ص ٦٠٥ ، تراجم أغلبية ، ص ١١١ وتقول الرواية ان سحنون لم يقبل هبة زوجة ابن ابى الجواد « لان مالكا لا يلزم قبول الهبة ، ولو قالت : اناقض عنه ما طلب منه ، لما رد ذلك سحنون والله اعلم ... » ، وذلك أن الهبة لا تكون الا للمعدم الذى ليست لديه أموال .

(٢٧٦) المالكى ، ج ١ ص ٢٧٨ ، المدارك ص ٦٠١ - ٦٠٢ ، ٦٠٥ ، تراجم أغلبية ص ١٠٦ - ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١١ ، وانظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٠ .

(٢٧٧) انظر المدارك ، ص ٦٠٩ - ٦١٢ ، تراجم أغلبية ، ص ١٦ ، ١١٨ ، وقارن المالكى ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٢٧٨) انظر فيما سبق ، ص ٨٤ .

(٢٧٩) انظر المالكى ، ج ١ ص ٢٨٠ ، المدارك ، ص ٦٠٤ - ٦٠٥ .

وتجلى ذلك أيضا اثر قضاء خفاجة بن سفيان بن سوادة عـــلى ثورة القويع ، ودخول جند الأمير محمد من السودان ، وبعض قواد جنده بسبى تونس من النساء الحرائر الى القيروان • فعندما سمع سحنون بذلك ، وكان حديث عهد بالقضاء ، أمر طلبته بالتصدي لحاتم الأسود ، فتى الأمير محمد ، واستخلاص النساء التونسيات من أسره • وعندما شكا الأسود الى الأمـــير محمد ظل سحنون صامدا ، بل انه أمر بسجن الفتى الأسود(٢٨٠) • وتضيف الرواية الى ذلك أنه عندما بعث الأمير محمد اليه يقول : ان السبى له شخصيا ، ولذا وقف سحنون لأن النساء لسن من الاماء ، بعث اليه الأمير من يبلغه ان وقوفه أمام رغبة الأمير عبث ، ثارت ثائرة القاضي الكبير وأقسم بالله ثلاثا ، في حضرة رسول الأمير ، ان العابث هو محمد بن الأغلب ، وأنه لن يتسامح في الأمر ، ولو فصل رأسه عن جسده •

ومع انه كتب كتابا متاسيا للأمير ، تحت الحاح ابنه محمد بن سحنون الذي جعله يثير ويبدل كثيرا من عباراته(٢٨١) ، فان الأمير محمد بن الأغلب نظر في الخطاب وضرب به الأرض ، وهو يقول : « ما أدرى أمو علينا أم نحن عليه ! » • ورغم تأثر الأمير الذي اسود وجهه ورفض أن يستقبل أحدا الى ما بعد العصر ، فانه عاد يقول : « ما أظن هذا الرجل يريد بنا الا خيرا ، ونحن لا نعلم »(٢٨٢) •

وكانت وقفة سحنون الصلبة هذه ضد سبى النساء التميميات من أهل تونس سببا في أن أصدر الأمير محمد أوامره بفك أسر التونسيات من كل البلاد • كما كتب سحنون الى أعوانه من المحتسبين يطلب منهم تفتيش قوافل

---

(٢٨٠) ويروى لنا المالكي والقاضي عياض تلك القصة أكثر من مرة مع تغير شخصيات أبطالها • فصاحب السبى في القصة الثانية يأتي في شكل قائد من قواد ابن الأغلب اســـمه منصور الذي ينتزع سحنون منه السبى بنفســه ، ثم يكون في القصة الثالثة بعض قواد ابن الأغلب الأفارقة مما يضطر سحنون معه الى الكتابة الى اخوانه الصوفية في البوادي الذين حضروا في حوالى الف رجل ، منهم مائة منهم لسد القائد ، واخرجوا النساء الحرائر • وعندما احتج الأمير عليه سحنون بالاستقالة من القضاء • انظر المالكي ج ١ ص ٢٧٦ • ٢٨٢ ، المدارك ، ص ٦٠٦ — ٦٠٧ ، تراجم ص ١١١ — ١١٢ •

(٢٨١) وكان مما كتب سحنون في كتابه للأمير محمد : « وبالكوم ما لي أدعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار ، تدعونني لأكفر بالله » — الآية (المدارك ، ص ٦٠٤ ، تراجم أغلبية ، ص ١١٢ ، وقارن المالكي ، ج ١ ص ٢٨٠) •

(٢٨٢) المالكي ، ج ١ ص ٢٨٠ ، المدارك ، ص ٦٠٤ •

التجار بحثا عنهن • فكان المحتسب يعترض القافلة ويكشف براقع النساء ، حتى قالت انها من سبي تونس ســيرت الى سحنون الذي أطلق عــدة منهن(٢٨٣) •

الأمير يعين قاضيا ثانيا الى جانب سحنون

والظاهر انه أمام تشبث سحنون بمبادئه وتشدده في تطبيق القانون ، ومعاملته مع أحد المقربين من قرابة الأمير ورجال الحاشية ، رأى محمد بن الأغلب ان خير وسيلة للافلات من قبضة قاضيه ـ وكان يجله رغم عنفه ـ هو أن يعين قاضيا ثانيا الى جانبه ، تماما ، كما فعل عمه زيادة الله عندما عين أســد ابن الفرات قاضيا الى جانب أبي محرز •

وهكذا ، ودون علم ســحنون ، عين محمد بن الأغلب شريكا له في القضاء ، يعرفه الكتاب باسم الطبني ، نسبة الى مدينة طبنة عاصمة الزاب • وفوجيء سحنون بارتفاع الخصوم عن بابه الى منافسه الجديد ، وزاد تأثره عندما سأل الأمير عن الأمر فأنكر معرفته به أصلا ، مما اعتبره سحنون نوعا من الاستهزاء به •

ولم يجد سحنون سبيلا الى الاحتجاج على ذلك الا بالاعتكاف في داره لفترة من الوقت ، كان الطبني يحكم أثناءها في الجامع ، والى جانبه كان يحكم أيضا حبيب صاحب المظالم ونائب سحنون أو معاونه •

ثم انه عندما رأى سحنون أن يعود الى مجلس القضاء في الجامع من جديد ، خرج الطبني الى داره حيث كان يحكم فيما يعرض عليه من القضايا • ولم يستمر الحال على هذا المنوال الا حوالي أربعين يوما توفي بعدها سحنون ، ودفن بمقبرة باب نافع من القيروان(٢٨٤) ، وذلك في شهر رجب من سنة ٢٤٠ هـ/اغسطس ٨٥٤ م(٢٨٥) ، وله من العمر حوالي ثمانين عاما ، بعد حياة حافلة بالعلم والعبادة ، والكرم والشجاعة ، والعفة والزهد •

---

(٢٨٣) المدارك ، ص ٦٠٤ ، تراجم ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ، وقارن المالكي ، ج ١ ص ٢٨٠ •

(٢٨٤) المدارك ، ص ٦٠٨ ـ ٦٠٩ ، تراجم أغلبية ، ص ١١٤ ـ ١١٥ •

(٢٨٥) وتقول الرواية أن الأمير محمد بن الأغلب أرسل اليه بكفن وحنوط ، فاحتال ابنه محمد حتى كفن في غيره • أنظر المالكي ، ج ١ ص ٢٨٨ (وعن يوم وفاته قيل يوم ٣ رجب او ٧ من نفس الشهر) ، وقارن المدارك ، ص ٦٢٤ ، تراجم أغلبية ، ص ١٣٣ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ١١١ •

تراث سحنون :

وبصرف النظر عما تركه سحنون من الألم في نفوس خصومه من الجهمية الذين كان يكفرهم ويكفرونه ، حتى أنهم امتنعوا عن صلاة الجنازة عليه(٢٨٦) ، كما كان يفعل هو أيضا بالنسبة لهم ، فلقد ترك سحنون بصماته واضحة في كل افريقية والمغرب والأندلس وصقلية ، بصفته صاحب المدونة في فقه مالك بن أنس ، وواضع الأسس المتينة للمذهب المالكي في تلك البلاد . وفي القضاء بسبب الى سحنون كل التنظيمات القضائية التي أشرنا اليها(٢٨٧) . وفي ميدان العبادة والجهاد كان سحنون عالما وحده : فالعبـــاد في مجالسه كانوا أكثر من طلبة العلم(٢٨٨) ، كما كان السماع منه يعادل - بالنسبة لأصحابه وتلاميذهم - « ماء الحياة »(٢٨٩) .

أما تلاميذه الذين زادوا على سبعمائة فقيه وشيخ ، فكانوا المصابيح المنيرة في كل بلدة(٢٩٠) ، وأقواله وفتاويه وأعماله صارت القدوة الحسنة في كل البلاد(٢٩١) . ودعوته الى الربط بين الأمر بالمعروف والعبادة والجهاد ظلت أصداؤها تدوي في رباطات الساحل الافريقي ، وخاصة في المنستير - حيث كان يقيم مع المرابطين بصحبة اخوانه ، مثل : ابن رشيد ، وابن الصمادحي ، وابن نعيم(٢٩٢) - على مدى الأجيال التالية ، وخاصة بعد أن ظل سؤدد العلم قائما في بيته ، بفضل ابنه محمد الذي ذاعت شهرته هو الآخر .

حداد شعبي لوفاة سحنون :

وهكذا لم يكن من الغريب أن ترتج القيروان لموته ، وأن يبكى مشائخ الأندلس ، وألا يتمكنوا من ضبط عـــواطفهم فيحرقون تعاليمه ، ويضربون خدودهم كالنساء(٢٩٣) . وهو الأمر الذي كان ينهى عنه في الجنائز ، ويؤدب

---

(٢٨٦) المالكي ، ج ١ ص ٢٨٨ ، المدارك ، ص ٦٢٤ ، تراجم أغلبية ، ص ١٣٣ .

(٢٨٧) أنظر فيما سبق ، ص ٩٠ وما بعدها .

(٢٨٨) المدارك ، ص ٦١٣ ، تراجم أغلبية ، ص ١١٩ .

(٢٨٩) تراجم اغلبية ، ص ١٣٦ .

(٢٩٠) المدارك ، ص ٦١٣ ، تراجم اغلبية ، ص ١٢٠ .

(٢٩١) المدارك ، ص ٦١٤ وما بعدها ، تراجم اغلبية ، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٢٩٢) المدارك ، ص ٦١٣ (حيث الرباط في قصر زياد) ، ص ٦١٦ (المنستير) ، وقارن تراجم اغلبية ، ص ١٢٤ .

(٢٩٣) المالكي ، ج ١ ص ٢٨٨ ، المدارك ، ص ٦٢٤ ، تراجم اغلبية ، ص ١٣٤ .

عنيه الأدب الخفيف . ولم يكن من الغريب أن يرتبه الراتون نثرا وشعرا(٢٩٤)، وأن يراه الراؤون في نومهم في موكب النبي والصحابة سائرا خلف مالك ابن أنس(٢٩٥) — امامه وأستاذه .

وهكذا فاذا كان زيادة الله له الحق في أن يعتز بأنه ولي القضاء لابن أبي محرز ، فمن باب أولى ان يعتز محمد بن الأغلب ، الذي توفي في ٢ من المحرم سنة ٢٤٢ هـ/١١ مايه ٨٥٦ م ، أي بعد حوالي سنة ونصف سنة من وفاة سحنون بأنه عهد بقضاء افريقية الى سحنون . وانه وفى له بشروطه لمدة سبع سنوات ، وهو الامر الذي يستحق أن يكون شفيعا للأمــير الاغلبي الشاب ، الذي قضى وعمره ٣٦ سنة ، أي وهو في عنفوان الشباب ، تاركا الملك لابن أخيه ابي ابراهيم أحمد ، كما ينص على ذلك ابن عذاري ، لأنه كان عقيما لا يولد له(٢٩٦) .

أبو ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب : ٢٤٢-٢٤٩هـ/ ٨٥٦ — ٨٦٣ م .

خلف ابو ابراهيم أحمد ابن عمه في امارة افريقية ، وله من العمــر عشرين سنة . ومع ذلك لم يطل حكمه الا الى أقل من ثماني سنوات، مضت هادئة ساكنة لم يعكر صفوها الا اضطراب منطقة طرابلس لبعض الوقت . أما عن الجهاد في صقلية فقد كان مظفرا اذ سقطت عــلى أيامه قصريانة (كاستروجيوفاني) ، وهي من مدن الجزيرة الهامة ، وكان للخليفة — نصيبه من مغانمها(٢٩٧) . وهكذا سمحت الظروف للامير الشاب أن يقضي سنوات حكمه القصير سمحا في أعمال الخير والعمران .

---

(٢٩٤) المالكي ، ج ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٠ ، المدارك ص ٦٢٦ ، تراجم اغلبية ، ص ١٣٦ .

(٢٩٥) المدارك ص ٦٢٤ — ٦٢٥ تراجم اغلبية ص ١٢٤ ، وقارن المالكي ، ص ٢٨٩

(٢٩٦) أنظر ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠٨ ، ابن الابار الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٦٩ ، وأنظر ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٢ . أما عما يقوله ابن الأثير (سنة ٢٤٢ هـ وابن خلدون ج ٤ ص ١٠٢) من أن أبا ابراهيم أحمد كان ابنا لمحمد المتوفي (وليس ابنا لأخيه) فهذا ما شرحته رواية الحلة السيراء التي قالت ان الأمير أبا العباس محمد كان له أخ اسمه ايضا محمد أبو عبد الله وانه كان واليا لطرابلس وتوفي بها سنة ٢٣٣ هـ ، ومن ولاة امراء بني الأغلب الولاة بعد أبي العباس هذا وذلك ما دعا عددا من الكتاب من قدامى ومحدثين الى الخطأ بنسبة من أتى من الاغالبة بعد ذلك الى أبي العباس محمد وليس الى أخيه أبي عبد الله كما يشير الى ذلك حسين مؤنس الحلة السيراء هامش ١٦٩ — ولو انه ينسب خطأ الى ابن عذاري وهو غير صحيح .

(٢٩٧) أنظر فيما بعد في فتح صقلية ص ٢٤٩ ٢٥١

والامير أحمد أبو ابراهيم كان ، كما رآه الكتاب : « حسن السيرة ، كريم الأخلاق والأفعال ، من أجود الناس وأسمحهم ، وارفقهم بالرعية ، مع : دين واجتناب للظلم ، على حداثة سنه وقلة عمره »(٢٩٨) .

اضطراب منطقة طرابلس :

أما عن اضطراب منطقة طرابلس التي كان على ولايتها عبد الله بن محمد ابن الأغلب ، فالظاهر أن مثيريها كانوا من قبائل البربر الاباضية في تلك النواحي ، من هوارة أو لواتة(٢٩٩) ، على ما نظن . وتذكر روايتا ابن الأثير والنويري انهم امتنعوا على الـوالي ، ولم يؤدوا ما كان عليهم من العشور والصدقات ، وأن الوالي عبد الله بن محمد أخا الأمير قام بقتالهم بمن معه من الجند أكثر من مرة ، ولكنهم هزموه حتى ألجأوه الى لبـدة التي حصنها ، ثم انه رأى أن الأمر يتطلب مجهودا أكبر من طاقته فأرسل الى الأمـير أبي ابراهيم أحمد يطلب منه المعونة فسير اليه الكثير من العساكر مع أخيـه زيادة الله .

ودارت حروب شديدة بين قوات القيروان وبين الثوار من البربر ، انتهت بقتل الكثيرين منهم ، والانتقام من الأسرى الذين قتلوا ، كما أحرق ما كان في معسكرهم من الأمتعة والعتاد . وبذلك أذعن ثوار طرابلس من القبائل المغربية ، وأعطوا الرهائن لابن الأغلب ، وأدوا ما كان عليهم من الأموال(٣٠٠) .

أعمال الأمير الشاب الورعة :

وفيما عـدا تلك الحرب المحلية في اقليم طرابلس التي احتفظ لنـا ابن الأثير والنويري ببعض أصدائها ، والفتوح المظفرة في صقلية ، وما قيل من أنه بنى بأرض افريقية عشرة آلاف حصن بالحجـارة والكلس وأبواب الحديد ، وأنه اشترى العبيد واتخذهم جندا(٣٠١) ، انصرف الأمير الشاب ،

---

(٢٩٨) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٥ ب ـ ١١٦ أ ، ابن عذارى ، ج ٩ ص ١١٢ -
(٢٩٩) ابن الأثير ، سنة ٢٤٥ ، ج ٧ ص ٩١ (حيث الكلمة محرفة في شكل « لهان ») -
(٣٠٠) نهاية الأرب ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٥ ب ، الكامل ، سنة ٢٤٥ هـ ، ج ٧ ص ٩١ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠١) .
(٣٠١) ابن الأثير ، سنة ٢٣٦ هـ ج ٦ ص ١٩ه (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠١) .

الذى ولد فى عصر سحنون ، الى أعمال البر والخير . وكانت أولى أعماله هى العهد بقضاء القيروان الى أبى الربيع سليمان بن عمران بن أبى هاشم الملقب بخروفه .

وسليمان بن عمران كان منافسا لسحنون عند ولايته القضاء ، كما رأينا ، ثم ان سحنون اتخذه كاتبا ، قبل أن يوليه قضاء الأقاليم ، فى : بجاية وباجة والاربس(٣٠٢) . وهكذا ، وفى هذا الجو السحنونى — اذا جاز التعبير — كان الأمير أبو ابراهيم أحمد يركب فى ليالى شعبان ورمضان من القصر القديم ، على بعد ثلاثة أميال من القيروان ، وبين يديه الشموع الموقدة ، ويمشى حتى يدخل مدينة عقبة من باب أبى الربيع ، وبين يديه دواب تحمل أكياس الدراهم ، وهو يأمر باعطاء الضعفاء والمساكين منها ، حتى يصل الى المسجد الجامع ، والناس حوله يدعون له خير الدعاء(٣٠٣) . هذا ، كما كان « يقصد دور العلماء والصالحين فيأمر بقرع أبوابهم ، فاذا خرجوا اليه أمر باعطائهم من ذلك المال(٣٠٤) .

أعمال أبى ابراهيم أحمد العمرانية :

مواجل الماء . توسيع جامع القيروان . بناء جامع سوسة .

والى جانب أعمال البر تلك ، وجه الأمير أبو ابراهيم أحمد نشاطه الى أعمال العمران ذات المنافع العامة ، مما يرتفق به الناس ، من : بناء صهاريج الماء التى عرفت فى افريقية بـ « المواجل » ومفردها « ماجل » ، وتجديد المساجد وبنائها وتهيئة الأموال اللازمة لذلك ، خاصة منذ سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م(٣٠٥) .

فلقد زاد أبو ابراهيم أحمد فى مسجد القيروان ، الذى بناه عمه زيادة الله زيادات هامة ، هى : البهو ، والمقصود به البلاطة المستعرضة فى مؤخر بيت الصلاة من جهة الصحن ، وما يحيط بالصحن من المجنبات ثم

---

(٣٠٢) انظر فيما سبق ، ص ٩١ (اعوان القاضى) .

(٣٠٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٢ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٦ أ .

(٣٠٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٦ أ .

(٣٠٥) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٣ (حيث الاشارة الى انه فعل ذلك تكفيرا عن عكوفه على سكر ، فكأنها كانت كفارة لتلك الهفوة) ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ٢٣ .

القبة(٣٠٦) فوق منتصف البهو لتقابل القبة الواقعة فوق المحراب • وبواسطة القبتين كان يمكن لأهل القيروان تحديد اتجاه القبلة ، وهو الخط المستقيم الواصل بين قبة البهو وقبة المحراب • وكان تمام العمل في الجامع في سنة ٢٤٢ هـ/٨٥٦ م •

ولقد أعاد أبو ابراهيم أحمد بناء المسجد الجامع بمدينة تونس والذى أنشأه حسان بن النعمان ، وجدده بن الحبحاب ، وهو مسجد الزيتونة • ولقد عثر على نقش كوفى فى قبة المحراب نصه الآتى : « بسم الله الرحمن الرحيم • مما أمر بعمله الامام المستعين بالله أمير المؤمنين العباسى • طلب ثواب الله وابتغاء مرضاته • على يدى نصير مـــولاه • سنة خمسين ومائتين ـ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ـ صنعه فتح » • وهكذا ، يحمل النص اسم الخليفة المستعين بالله ، كما يحمل اسم الفتى الخادم الذى أشرف على تنفيذ العمل من الناحيتين الادارية والمالية ، وكذا اسم المهندس البناء ، وهو : فتح • أما اسم الأمير الأغلبى الحاكم ، فلا يوجد فى النقش وهو الأمر المستغرب(٣٠٧) • وان كان من الممكن تفسير ذلك بأنه نوع من الأدب من جانب الأمير الأغلبى الذى رأى أن يقدم اسم الخليفة دون ذكر اسمه ـ خاصة وان أبا ابراهيم كان قد توفى فى سنة ٢٤٩ هـ ، وخلفه أخوه أبو محمد زيادة الله (الأوسط) الذى كان له هذا القرار ، على ما نظن •

ومن المتفق عليه ان جامع الزيتونة بتونس ، كما وصل الينا ، حافظ على عناصره الرئيسية منذ بناه أبو ابراهيم ـ مثله فى ذلك مثل جامع القيروان منذ أعاد زيادة الله بناءه • والمسجد الحالى يتكون من الصحن الذى تحيط به الأبهاء ، ومن بيت الصلاة الذى يحتوى على تسعة أروقة رأسية على حائط القبلة من الشمال الى الجنوب • والرواق الأوسط منها وكذلك بلاط المحراب المستعرض أكثر اتساعا وأعلى ارتفاعا من بقية الأروقة والبلاطات العرضية • وعند التقائهما توجد قبة المحراب التى بنيت سنة ٢٥٠ هـ/٨٦٤ م والتى تحمل نقش الخليفة المستعين • وفى مقابل تلك القبة توجد قبة باب البهو ، كما هو الحال فى القيروان حيث يحدد الخط المستقيم بين القبتين اتجـــاه القبلة(٣٠٨) •

---

(٣٠٦) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٥ ب •
(٣٠٧) أنظر ج • مارسيه ، مختصر الفن الاسلامى ، ج ١ ص ٦٣ •
(٣٠٨) أنظر ج • مارسيه ، مختصر الفن الاسلامى ، ج ١ ص ٦٣ •

كذلك كانت سوسة ، مدينة الرباطات والعباد ، موضع رعاية أبي ابراهيم أحمد . فقد حصنها وبنى سورها في سنة ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م(٣٠٩) .

وفي سنة ٢٤٦ هـ/٨٦٠ م كان البدء في حفر الماجل الكبير على باب تونس بمدينة القيروان . واستمر العمل فيه - من بناء الجدران والدعائم الداخلية والخارجية ، وتبليط الأرض - الى أن تم مع زيادات الجامع في سنة ٢٤٨ هـ/٨٦٢ م . ولما كانت القيروان قد تعرضت لسيل عظيم في شتاء سنة ٢٤٧ هـ/٨٦١ م ، كان من نتائجه كسر قنطرة أبي الربيع التي تحمل الماء الى الماجل الذي كان بقرب باب أبي الربيع ، فان الأمير أبا ابراهيم أمر باصلاح القنطرة(٣١٠) وتجديد الماجل(٣١١) .

وكانت آخر أعمال أبي ابراهيم أحمد هو حفر وبناء الماجل الكبير بالمدينة الملكية ، وهي القصر القديم . وذلك أنه بانتهاء ذلك الماجل ، وقبل بداية فصل الأمطار ، اعتل أبو ابراهيم علته التي مات فيها ، فكان يسأل وهو طريح الفراش ان كان الماء قد دخل الماجل . وعندما أتى الماء وعرف ذلك سر به سرورا عظيما ، وأمر خدمه « أن يأتوه بكأس مملوءة منه ، فشربها ، وقال : الحمد لله الذي لم أمت حتى كمل أمره ، ثم مات اثر ذلك »(٣١٢) .

وفاة محمودة :

وهكذا ، توفي أبو ابراهيم أحمد بعد أن ترك بصماته قوية على كل من مدينتي تونس والقيروان ، وحق لأهل القيروان الذين زودهم بالماء الكثير أن يترحموا عليه ، وكذلك كل من دخل المدينة(٣١٣) . وكانت وفاة أحمد في يوم ١٣ من ذي القعدة سنة ٢٤٩ هـ/٢٨ ديسمبر سنة ٨٦٣ م ، وله من العمر ٢٨ سنة ، بعد ولاية ٧ (سبع) سنين و ١٠ (عشرة) أشهر و ١٥ (خمسة

---

(٣٠٩) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٥ ب ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ص ٢٣

(٣١٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٣ .

(٣١١) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٥ ب - حيث تقول الرواية انه بنى الماجل .

(٣١٢) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٥٥ ب ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ص ٢٤ .

(٣١٣) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٥٥ ب .

عشر) يوما(٣١٤) . وخلفه في الامارة أخوه أبو محمد زيادة الله (الثاني) .

ابو محمد زيادة الله بن محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب : ٢٤٩ — ٢٥٠ هـ/٨٦٣ — ٨٦٤ م :

شاب رزين يحكم لمدة سنة واحدة :

لم تطل امارة زيادة الله الثاني هذا الا لمدة سنة واحدة وأسبوع واحد ، وهكذا لم تكن له أخبار تؤثر ، كما يلاحظ ابن عذارى(٣١٥) . وبناء على ذلك فنحن لا نعرف عنه الا أنه ولي في نفس اليوم الذي توفي فيه أخوه أبو ابراهيم، وهو الثلاثاء ١٣ من ذى القعدة ٢٤٩ هـ/٢٨ ديسمبر ٨٦٣ م ، وأنه كتب الى خفاجة بن سفيان في صقلية بامضاء ولايته ، وخلع عليه .

وفيما عدا ذلك يقول الكتاب أن زيادة الله الثاني كان عاقلا حليما حسن السيرة ، جميل الأفعال ، ذا رأى ونجدة ، وجود وشجاعة(٣١٦) . أما عن وفاته ، فكانت ليلة السبت ١٩ من ذى القعدة سنة ٢٥٠ هـ/٢٣ ديسمبر ٨٦٤ م(٣١٧) . وقد خلفه ابن أخيه : أبو عبد الله محمد بن الأمير الأسبق أبي ابراهيم أحمد .

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب :

ابو الغرانيق ٢٥٠ — ٢٦١ هـ/٨٦٤ — ٨٧٥ م :

جلس أبو الغرانيق محمد على سرير الملك في نفس اليوم الذى توفي فيه عمه زيادة الله ، ولما كان والده أبو ابراهيم أحمد ، الأمير الأسبق ، قد

---

(٣١٤) النويرى ، ص ١٥٥ ب (عمره ٢٦ سنة) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٣ ، ابن الأثير سنة ٢٢٦ ، ج٦ص ٥١٩ — ٥٢٠ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠١ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، قسم ٣ ص ٢٤ .

(٣١٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٤ ، وقارن ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ٢٥ (حيث ولايته سنة و٧ أشهر بدلا من و٧ أيام) .

(٣١٦) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٤ ، والنويرى ، المخطوط ، ٢ ج ٢٢ ص ١١٦ أ وهما يشتركان في النص ،وقارن ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ٢٤ — ٢٥ (حيث يضيف الى ذلك ان القاضي سليمان بن عمران كان يقول : « ما ولى لبني الأغلب اعقل من زيادة الله الأصغر) .

(٣١٧) نفس المصدر ، ابن الأثير ، سنة ٢٢٦ هـ ، ج ٦ ص ٥٢٠ ، ابن الخطيب ، قسم ٣ ص ٢٥ (ليلة ٢٠ من ذى القعدة) .

توفى منذ عام وعمره ٢٨ سنة ، فالمفهوم اذن أن أبا الغرانيق كان بعد على عتبات الشباب ، عند ولايته ، مقبلا على الرابعة عشرة من عمره(٣١٨) .

شاب في مقتبل العمر ، مقبل على الحياة ، مغرم بالصيد :

ويصف الكتاب الأمير الشاب بأنه كان غاية في الجود مسرفا في العطاء ، مع حسن سيرة الرعية ورفق بهم(٣١٩) . وهم يضيفون الى ذلك انه غلبته عليه اللذات والشراب والطرب والاشتغال بالصيد ، وانه لم يزل كذلك طول مدته(٣٢٠) . وبسبب هوايته للصيد لقب بـ « أبو الغرانيق » لانه كان يهوى صيد ذلك النوع من الطيور ، حتى أنه بنى قصرا في موضع السهلين ، يخرج اليه لصيدها ، أنفق فيه ثلاثين ألف مثقال من الذهب(٣٢١) ، وهو المبلغ العظيم بالنسبة لقيمة العملة في ذلك العصر .

هذا ، ويقول ابن الأثير أن أبا الغرانيق بنى حصونا ومحارس على ساحل البحر بالمغرب على مسيرة ١٥ (خمسة عشر) يوما من برقة الى جهة المغرب(٣٢٢) .

انتصارات في صقلية ، واضطرابات في الزاب :

واذا كان كل من ابن عذارى والنويرى يشير الى أن ولايته كانت مليئة بالحروب ، فابن عذارى يقصد بذلك حروب صقلية المظفرة بقيادة خفاجة (ابن سفيان بن سوادة) وان تخللتها بعض الانتكاسات . أما النويرى فهو يشير الى اضطراب بلاد الزاب التى يصفها بالثغر(٣٢٣) — جريا على عادة قدامى كتاب الفتوح والمغازى .

ووصف بلاد الزاب الجنوبية الغربية بالثغر ، بمعنى أنها جبهة قتال ،

---

(٣١٨) انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٦ ب ، الذى يقول انه تولى بعد ملكه عشر سنين وخمسة أشهر ، وله من العمر ٢٤ سنة .

(٣١٩) النويرى ، ج ٢٢ ص ١١٧ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٤ ، ابن الخطيب ، الإعلام ، قسم ٣ ص ٢٥ .

(٣٢٠) النويرى ، ج ٢٢ ص ١١٧ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٤ .

(٣٢١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٤ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٦ أ ، وانظر الحلة السيراء ج ١ ص ١٧١ .

(٣٢٢) ابن الأثير ، سنة ٢٣٦ هـ ، ج ٦ ص ٥٢٠ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٥) .

(٣٢٣) النويرى ، ج ٢٢ ص ١١٦ ب .

يعسر بأن الاقليم كان متاخما لامامة الرستميين الاباضية في المغرب الأوسط . أو بوجه أخرى كانت بلاد الزاب داخلة في منطقة نفوذ قبائل البربر التي تعترف بامامة تاهرت الرستمية . والمهم هو أن أبا الغرانيق أرسل الى بلاد الزاب جيشا عظيما عهد بقيادته الى قائده أبي خفاجة محمد بن اسماعيل الذي سار في المنطقة وقبائل البربر تتبدد أمامه الى أن وصل الى مدينة تهودة ، حيث ضريح سيدي عقبة ، ثم الى مدينة بسكرة حيث أعلن أهل تلك المناطق الخضوع له . ومن بسكرة سار محمد بن اسماعيل الى طبنة ، قاعدة بلاد الزاب ، حيث لحق به القائد حي بن مالك البلسوى ، من فريسلن مدينة بلزمة .

ومن طبنة قرر محمد بن اسماعيل (أبو خفاجة) المسير الى مدينة « أبة » ونزلها بكل عساكره ، وألقى في قلوب أهلها الخوف والهلع . وصحيح إن رؤساء القبائل أتو سامعين طائعين ، وعبروا عن تلك الطاعة بتقديم الرهائن ، ودفع ما كان عليهم من الخراج والعشور والصدقات . فان محمد ابن اسماعيل لم يقبل منهم لأن زعيم بني كملان من قبائل هوارة - وهو مهلب ابن صيولات لم يأته بنفسه .

وقرر أبو خفاجة محمد بن اسماعيل المسير الى ابن صيولات وكسر شوكته ، وتحرزت قبائل هوارة من أبي خفاجة ، وهي تحاول مداراته طالبة منه الأمان ، باذلة له كل ما يطلب ، فلم يقبل منهم الا الخضوع تحت سلطان السيف . ولكنه عندما نشب القتال بين الجند الأغلبي وبين بني كملان في قلب أرض هوارة ، انتهت الوقعة بكارثة بالنسبة لجيش القيروان . والظاهر أن عسكر بلزمة وعلى رأسه حي بن مالك البلوى كان مسئولا عن تصلب أبي خفاجة ، بل زعم أنه كان على دراية بالبلاد . وعلى هذا الأساس ، على ما نظن ، تسبب الهزيمة الساحقة التي انتهت بمقتل أبي خفاجة وجماعة من كبار قواده وكثير من جنده والتي تمادت حتى أسوار طبنة « الى البلوى وأهل بلزمة (٣٢٤) .

فتح مالطة :

ولا يخفف من وقع هذه الهزيمة النكراء في رواية النويري ، التي لم تذكر رد فعل الأمير الأغلبي ، الا ما تسجله من فتح جزيرة مالطة على أيام

---

(٣٢٤) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٦ ب .

أبي الغرانيق ، مما يوحي أن هزيمة الجند الأغلبي في الزاب كانت قبيل سنة ٢٦١ هـ/٨٧٤م ، على أواخر أيام أبي الغرانيق . ويرجح ذلك ما تنص عليه رواية ابن الخطيب من أن فتح مالطة وأسر ملكها كان في جمادى الاول من سنة ٢٦١ هـ/فبراير - مارس ٨٧٥ م(٣٢٥) . ولكنه لما كانت مالطة قد فتحت على أيام « أبي الغرانيق » في سنة ٢٥٥ هـ(٣٢٦) فان ذلك يعني أن الروم كانوا قد استعادوها من المسلمين ، وان غزو الجزيرة الثاني في سنة ٢٦١ هـ/٨٧٤ م كان الفتح النهائي .

اعمال عمرانية على أيام أبي الغرانيق :

وهكذا ، فالى جانب ثورة الزاب ، وذكر فتح مالطة ، وحروب صقلية ، لا نجد في حوليات افريقية على أيام أبي الغرانيق ذكرا الا لبناء محمد ابن حمدون الأندلسي المعافري للجامع الشريف المنسوب اليه بالقيروان . والذي سخا في بنائه بالآجر والجص ، وبذل في كسوته بالرخام ، كما حيا له الصهاريج أو جباب الماء تحت الأرض ، وذلك في سنة ٢٥٢ هـ/ ٨٦٦ م(٣٢٧) .

محمد بن سحنون (٢٠٢ - ٢٥٦ هـ/٨١٧ - ٨٧٠ م) :

اهم اعماله ، والحياة الدينية على عهد الأمير أبي الغرانيق :

أما سنة ٢٥٦ هـ/ ٦٩ - ٨٧٠ م ، فهي سنة وفاة محمد بن سحنون الذي خلف والده في الفقه والعلم(٣٢٨) ، ولو أنه لم يل القضاء ، فكانت وفاته بعد ١٦ عاما من وفاة والده ، قاضي القيروان الذائع الصيت . فلقد جدد محمد سيرة والده سحنون ، فعرف بالفقه والجدل والحديث ، والذب عن مذهب أهل الحجاز(٣٢٩) . وعرف محمد بن سحنون بانه كثير الكتب غزير التاليف ، له نحو مائتي كتاب في فنون العلم(٣٣٠) . ومن تواليفه :

---

(٣٢٥) اعمال الأعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٦ .

(٣٢٦) أنظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠١ ، وانظر ابن الخطيب ، اعمال الأعمال ، قسم ٣ ص ٢٦ - حيث اشارة المحققين في الهامش رقم ١ الى أن استيلاء المسلمين على مالطة كان في سنة ٢٥٦ هـ/٨٧٠ م .

(٣٢٧) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١١٤ .

(٣٢٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٥ .

(٣٢٩) تراجم اغلبية ، ص ١٧٣ .

(٣٣٠) المالكي ، ج ٢ ص ٣٤٥ ، تراجم اغلبية ، ص ١٧٣ .

المسند في الحديث ، والجامع في الفقه ، وكتاب الطلحيق ، وكتاب تحـــريم المسكر ، وكتاب آداب المتناظرين ، وتفسير الموطأ ، وكتـــاب الحجـــة على القدرية ، كما ألف كتاب التاريخ في ستة أجزاء ، وغير ذلك من الكتب(٣٣١).

والى جانب العلم جدد محمد بن سحنون سيرة والده في الجود والكرم ، فهو : جواد بماله ، لا يبخل بالعطاء حتى على خصومه(٣٣٢) ، وهو يكتب الرقاع للناس ، كما كان يكتب والده البطائق ، الى الصيارفة بالمشترين دينار وأكثر(٣٣٣) .

هذا ، كما أنه كان يتردد على رباطات الساحل ، كما كان يفعل والده سحنون حتى أن وفاته كانت بالساحل(٣٣٤) . وان كان قد خالف والده في حبه للناس(٣٣٥) .

الصراع بين المالكية والحنفية :

محنة محمد بن سحنون :

وعلى الجملة فقد كان محمد بن سحنون مقدما عند الملوك ، وجيها عند العامة(٣٣٦) ، رغم أنه لم يل القضاء ، بل رغم سوء علاقته بالأمير ورجاله ، من : القاضي سليمان بن عمران (المعروف بخروفه) ، وصاحب الصـــلاة ابن أبي الجواجب .

والظاهر أن ذلك كان بسبب وقوفه ضد الحنفية ، ومقالة المعتزلة بخلق القرآن التي كان يقاومها المالكية . والظاهر أن الدولة الأغلبية ، وهي تتبع تعليمات الخلافة العباسية في بغداد ، حورت في موقفهـــا من معارضيها المالكية ، وجعلته موقفا سياسيا بدلا من اتجاه ديني .

---

(٣٣١) انظر تراجم اغلبية ، ص ١٧٣ ، وتدوين المالكي ، ج ٦ ص ١٤٥ — ٢٤٦ .
(٣٣٢) انظر تراجم اغلبية ، ص ١٧٨ .
(٣٣٣) انظر تراجم اغلبية ، ص ١٨٢ .
(٣٣٤) تراجم اغلبية ، ص ١٨٦ .
(٣٣٥) تراجم اغلبية ، ص ١٨٤ — ١٨٧ .
(٣٣٦) تراجم اغلبية ، ص ١٧٨ .

أفكاره السياسية الدينية :

محمد بن سحنون عندما امتحن على عهد الأمير محمد لم يكن امتحانه ، كما كان الحال بالنسبة لوالده ، عن رأيه في خلق القرآن ، بل كان سؤاله : «ما يقول في يزيد بن معاوية ؟ ، فكان السؤال يعني أن كان المتحن يقف الى جانب الأمويين ، فيكون بالتالي ضد العباسيين • ولقد رد محمد بن سحنون على السؤال ، موجها الكلام الى الأمير محمد ، قائلا : أصلح الله الأمير • لا أقول ما قالت الاباضية ، ولا ما قالت المرجئة • وعندما سئل عما قالتا ؟ قال : قالت الاباضية ان من أذنب ذنبا فهو من أهل النار • وقالت المرجئة : لا تضر الذنوب مع التوحيد • أتى يزيد عظيمـــا جسيما ، ويفعـــل الله في خلقه ما أحب(٣٣٧) •

موقفه من الارجاء : النزاع بين السحنونية والعبدوسية :

ومع أن ابن سحنون يقول انه لا يوافق على مقالة المرجئة ، فان رده هذا يعبر عن فكرة المرجئة الرئيسية التي تترك الحكم على كفر الناس وايمانهم الى الله • فالمعروف أنه كان لمحمد بن سحنون موقف محدد في مسألة الايمان ، اذ كان لا يستثني فيها ، ويقول : « أنا مؤمن عند الله » ، حتى أن خصومه في افريقية ، مثل : ابن عبدوس وأصحابه ، وكذلك أهل مصر والمشرق ، كانوا ينكرون ذلك عليه ، وعلى من يقوله ، وينسبون قائله الى الارجاء(٣٣٨) •

ولقد صار من يقولون بقول محمد بن سحنون هذا في الايمان فرقة عرفت في المغرب باسم « السحنونية » ، وكان أتباعها يسمون خصومهم من العبدوسية ، الذين يخالفونهم في هذا الرأي ، بـ « الشكوكية »(٣٣٩) •

---

(٣٣٧) تراجم أغلبية ، ص ١٨١ •

(٣٣٨) انظر تراجم أغلبية ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ • وابن عبدوس هو محمد بن ابراهيم ابن عبدوس (توفي سنة ٢٦٠ هـ) ، من كبار أصحاب سحنون وأئمة وقته • والذي قيل عنه انه كان أشبه الناس بأخلاق سحنون في فقهه ، وزهادته في ملبسه ومطعمه والذي قيل عنه انه كان صحيح الكتاب ، حسن التقييد ، عالما بما اختلف فيه أهل المدينة ، وما اجتمعوا عليه • وفي زهده ونسكه وعبادته ، قيل : انه كان مستجاب الدعاء (تراجم ، ص ٨٩ ـ ١٩٠)• وقارن ترجمة ابن عبدوس في رياض المالكي • ترجمة رقم ١٤٨ ج ١ ص ٢٦٠ وما بعدها •

(٣٣٩) تراجم أغلبية ، ص ١٨٥ ، المالكي ، ج ١ ص ٣٦٢ • ومن حقيقة موقف ابن عبدوس الزاهد في مسألة الايمان علم قيل ان الذي صح عنه انه كان يقول : أدين بأني مؤمن عند الله في وقتي هذا ، ولاأدري ما يختم لي به • كما قال من زعموا أنه يشك في نفسه ، =

الخصومة مع القاضي وصاحب الصلاة :

والحقيقة أن العلاقة بين محمد بن سحنون المالكي وبين قاضي القيروان سليمان بن عمران الحنفي كانت سيئة حتى اضطر ابن سحنون الى أن يستتر ويتوارى أمام مطاردة القاضي . وعندما خاف على نفسه اضطر الى أن يستجير بالأمير محمد الذي أمنه(٣٤٠) .

ولقد كانت علاقة ابن سحنون سيئة أيضا بصاحب الصلاة في القيروان، أي أمام المسجد الجامع الذي كان من أعوان القاضي ، وهو ابن أبي الجواجب ، الذي كان كثير الاذاية لمحمد بن سحنون(٣٤١) . وعندما ضاق ابن سحنون بأعمال صاحب الصلاة التي لا تليق بمثل من هو في منصبه ، سعى لدى الوزير أحمد بن محمد الحضرمي في عزل ابن أبي الجواجب عن الصـــلاة ، وتعيين عبد الله بن أحمد بن طالب التميمي ، قريب أبي العرانيق ، بدلا منه .

ودبر ابن سحنون ذلك التغيير بطريقة فاجأت كلا من سليمان بن عمران وابن أبي الجواجب ، وذلك قبيل صعود هذا الأخير على درجات المنبر . وظهر كيد ابن سحنون ونكايته للقاضي ومعاونه صاحب الصـــلاة في الخطبة التي خطبها ابن طالب ، والتي أصر فيها على أفكار اهل السنة التي تقرر حتمية المصير الانساني ، والتي تأخذ بظاهر النصوص دون تفسير باطني أو تأويل. فابن طالب قال في خطبته : « ..... والحمد لله الذي عذب على ما لو شاء منه

= ويقول : لا ادري وارجو أن أكون مؤمنا ان شاء الله ـ قال والله ما قلته قط ، فلا جزى الله من حكى هذا عني خيرا ، ما شككت قط أني مؤمن عند الله .

وفي ذلك يرى القاضي عياض أن المسألة لا تتعدى الخلاف في الألفاظ لا في الحقيقة . فمن التفت الى مغيب الحال والخاتمة وما سبق به القدر ، قال بالاستثناء ومن التفت الى حال نفسه وصحة معتقده في وقته ، لم يقل به ولو انه يضيف الى ذلك ذكر ما نشأ من الخلاف بين مفكري المسلمين بعد ثلاثمائة سنة في مسألة الايمان عنه ، وهل المؤمن مؤمن عند الله أم لا .....

(٣٤٠) تراجم أغلبية ، ص ١٧٩ .

(٣٤١) أنظر تراجم أغلبية ص ١٧٩ وفي ذلك تشير الرواية الى أن ابن أبي الجواجب كان يؤذي ابن سحنون بطريقة صبيانية حمقاء اذ كان يميل عن اذنه وهو من أصحابه ويسبه بأقذع السباب ، ولكن ابن سحنون كان يتماسك ويرد عليه كيده بأن يقول له « نعم سنقضي لك حاجتك انشاء الله » وقارن المالكي ج ١ ص ٣٥٣ (حيث الرجل الذي كان يسب ابن سحنون مجهول الاسم)

تعصم ! والحمد لله الذي على عرشه استوى ، وعلى ملكه احتوى ، وهو في الآخر يرى »(٣٤٢) ٠

وهكذا ، فكما كان ابن سحنون سببا في صعود نجم سليمان بن عمران اذ تقول الرواية أنه الذي سعى لدى والده سحنون حتى استخدمه في كتابة القضاء ثم عينه قاضيا في باجة وغيرها(٣٤٣) ، كان ابن سحنون هو السبب في أفول نجمه ٠ والحقيقة أن تعيين ابن طالب في امامة الصلاة كان « أول نكبة سليمان » ، اذ لم تزل أمور عبد الله بن أحمد بن طالب تنمو الى أن صرف الأمير محمد أبو الغرانيق سليمان بن عمران عن قضاء افريقية ، وولى قريبه ابن طالب مكانه ، وان كان ذلك قد حدث في السنة التالية لوفاة محمد ابن سحنون (أي سنة ٢٥٧ هـ/٨٧١ م)(٣٤٤) ٠ هذا ، وان كان سليمان ابن عمران سيعود الى قضاء افريقية مرة أخرى في سنة ٢٥٩ هـ/٨٧٢ م ، عندما يعزل الأمير محمد أبو الغرانيق قريبه التميمي ابن طالب(٣٤٥) ٠

وفي السنة التالية لعزل ابن طالب وولاية سليمان بن عمران الثانية للقضاء القيروان ، وهي سنة ٢٦٠ هـ/٨٧٣ م ، كانت المجاعة الكبرى التي عمت المشرق والمغرب ، والتي أدت الى انتشار الوباء والطاعون ، كما تذكر حوليات ابن عذاري(٣٤٦) ٠ وفيها كانت وفاة الفقيه الزاهد محمد بن ابراهيم ابن عبدوس وأشهر تلاميذ سحنون ، ومنافس محمد بن سحنون في العلم

---

(٣٤٢) تراجم أغلبية ، ص ١٨٠ ٠

(٣٤٣) تراجم أغلبية ، ص ١٧٨ ، وانظر فيما سبق ، ص ١٠١ وص ٣٠٢ ٠

(٣٤٤) أنظر تراجم ، ص ١٨١ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ١١٥ ٠ وفي ابن طالب قيل انه كان شديد الاعظام لابن عبدوس ، عارفا بحقه ، وعليه كان يعتمد في أحكامه ، وفي موقف ابن طالب من ابن سحنون وابن عبدوس ، قيل : كان وجه ابن طالب الى ابن سحنون ، وقلبه الى ابن عبدوس (تراجم ، ص ١٩٢) ٠ والحقيقة انه رغم ان ابن عبدوس ـ مثل ابن سحنون ـ كان من تلاميذ سحنون الا أنه كان يهتم في فقهه بالمعنى والرأي والاستنباط أكثر من اهتمامه بالاسناد ومعرفة الرجال ، وهو الموضوع الشكلي الذي كان يهتم به ابن سحنون كثيرا (تراجم ، ص ١٩١) ٠

(٣٤٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ١١٦ ـ هذا وسيعود عبد الله بن أحمد بن طالب التميمي الى القضاء مرة ثانية سنة ٢٦٧ هـ/٨٨٠ م ، بعد عزل سليمان بن عمران للمرة الثانية ، على عهد ابراهيم بن أحمد بن محمد كما يأتي ٠ وستكون وفاة سليمان في سنة ٢٧٠ هـ/٨٨٣ م (ابن عذاري ج ١ ص ١١٩) ٠ اما عن ابن طالب فسيعتزل للفترة الثانية سنة ٢٧٥ هـ/٨٨٨ م ، ويموت مسموما بتدبير الأمير (ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٢١ ، وانظر فيما بعد ص ١٢٩ ـ ١٣٠)٠

(٣٤٦) ابن عذاري ، ج ١ ص ١١٦ ٠

والفقه ، والذى كان قد تفرد عنه فى النسك والزهد حتى قيل انه صلى الصبح بوضوء العتمة ثلاثين سنة ، نصفها وهو طالب يدرس ونصفها وهو متكب على العبادة(٣٤٧) . وكان ابن عبدوس متواضعا فى مجلس العلم ، زائلا عن صدر فراشه ، حتى لا تعرف انه صاحب المجلس(٣٤٨) . كما كان يتخشع فى صلاته حتى يسقط الرجل ممن يصلون خلفه مغشيا عليه(٣٤٩) . وكان سحنون قد استكتب ابن عبدوس فى جملة من استكتبهم فى القضاء تعيد اليه بكشف الشهود فأنكر اشياء مما يجرى فى الديوان ، فاعتزل الكتابة حتى قيل انه هرب الى سوسة(٣٥٠) . وعلى الجملة ، فقد قيل فيه أخيرا ، وليس هذا بغريب ، انه كان مستجاب الدعاء(٣٥١) .

وبناء على ما تقدم فاذا كانت علاقة محمد بن سحنون ، وهو الذى لم يكن له شىء من نسك ابن عبدوس وعبادته ، لم تكن دائما على ما يرام بالأمير محمد أبى الغرانيق ، فانه يكون من المقبول جدا ألا تكون علاقة الأمير ، الذى وهب حياته فى أواخر سنوات حكمه للهو والطرب والصيد(٣٥٢) ، عـلى ما يرام مع الزاهد الكبير ابن عبدوس .

وفاة أبى الغرانيق :

نهاية تعسة للشاب اللاهى وسط أقطاب التدين والنسك :

وهكذا تقول الرواية أن ابن عبدوس دعا على أبى الغرانيق ، واستجيبت دعوة الرجل الصالح ، فوقع الأمير الذى كان اللهو والشراب قد أنهك قواه فريسة المرض . وكان مرضه من الشدة بحيث أقعده لفترة طويلة طـريح الفراش . حتى انه لقب فى أواخر أيامه بـ « الميت » ، كما كان يشفع عليه بالموت فى كثير من الأيام(٣٥٣) .

---

(٣٤٧) تراجم أغلبية ، ص ١٩٣ ، وقارن المالكى ، ج ١ ص ٣٦٠ — ٣٦١ (حيث النص على أن المدة ٢٨ سنة) .

(٣٤٨) المالكى ، ج ١ ص ٣٦١ ، تراجم اغلبية ، ص ١٩٣ .

(٣٤٩) تراجم أغلبية ، ص ١٩٤ .

(٣٥٠) تراجم اغلبية ص ١٩٤ .

(٣٥١) تراجم أغلبية ، ص ١٩٠ .

(٣٥٢) وفى ذلك تقول الرواية انه غلب عليه الشرب حتى أنه سكر مرة ، وهو بمدينة المرابطين سوسة ، وركب البحر حتى صار الى جزيرة قوصرة ، ثم انه انصرف وهو شائق بعد أن ذهب عنه السكر . أنظر النويرى ، ج ٢٢ ص ١١٧ آ .

(٣٥٣) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٦ آ — ١١٦ ب ، تراجم اغلبية ، ص ١٩٠ .

ملك كانت نهاية أبي الغرانيق الذى أنهك ، خلال حكمه الذى استمر حوالى عشر سنوات ونصف السنة ، والذى عاصر خلافة كل من : المستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد من خلفاء بغداد ، في العبث والشراب • كما أنه بدد اموال الدولة قبل أن يموت في ٦ ص جمادى الأولى سنة ٢٦١ هـ/١٦ فبراير ٨٧٥ م ، وهو في الرابعة والعشرين من عمره ، حتى لم يجد اخوته ، ومنهم ابراهيم الذى خلفه ، في بيت المال شيئا يذكر(٣٥٤) •

ابو اسحق ابراهيم بن أحمد بن محمـــد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب : ٢٦١ - ٢٨٩ هـ/٨٧٥ - ٩٠٢ م :

ولايته : تنحية أبي عقال بن أبي الغرانيق :

كان ابو الغرانيق محمد قد عهد لابنه الطفل أبي عقـــال بالملك من بعده ، على أن يكون ابراهيم : عمه ، الذى كان واليا على القيروان ، وصيا عليه أو نائبا للملك ، كما يقال ، الى أن يبلغ الأمير الطفل سن الرشد • ولكي يتأكد ، وهو في فراش المرض ، ويموت مرتاح البال الى أن ابراهيم أخاه سيبقى لابنه الطفل ، جعل ابراهيم يحلف خمسين يمينا في جامـــع عقبة المبارك بالقيروان بان يفي لولى العهد الصغير وألا ينازعه في ملكه ، وذلك في حضرة مشايخ الأسرة من بنى الأغلب ، وأمام قضاة القيروان وفقائها من أهل الحل والعقد(٣٥٥) • ولكنه ما أن توفى ابو الغرانيق حتى قام أهـــل القيروان الى واليهم ابراهيم ، الذى عرفوه حسن السيرة ، وطلبوا اليه أن يتولى الامارة •

وفيما يتعلق بالحنث في الأيمان التي حلفها ، فقد حللوها عن طريق : أنهم كارهون لامارة الطفل ، وأنهم المسئولون عن منعه من الامارة ، اذ أنه ليس له بيعة في أعناقهم • ومع كل ذلك فلقد طمأنوه بانه لن ينازع ولى العهد الطفل ولن يدخل قصره ، بل أنه سيحكم من داره هو : الموجودة في المدينة الملكية المعروفة بالقصر القديم •

---

* والذى يفهم من الرواية ان مرض أبي الغرانيق هو الذى لثبت أنه ابن عبدوس مستجاب الدعوة •

(٣٥٤) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٧ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٤ ، ابن الخطيب أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ٢٦ •

(٣٥٥) ابن الأثير ، سنة ٢٦١ ، ج ٧ ص ٢٨٤ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٧ أ ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٦ ، بن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٣ •

وهكذا وافق ابراهيم على أن يلى عرش افريقية ، وسار مع أهل ا
الى القصر القديم . ولكن الأمر تطلب محاربة الحرس الأميرى هناك حتى
ابراهيم داره . وفيها بايعه مشايخ أهل القيروان ثم وجوه أهل افريقية
بايعه جماعة بنى الأغلب(٣٥٦) .

عهد الاستبداد ، ذروة العصر الأغلبى :

أمير نموذج لملوك الأغالبة :

وهكذا آلت امارة الدولة الأغلبية الى ابراهيم بن أحمد الذى حكم
من ٢٨ (ثمانية وعشرين) عاما ونصف ، وهى أطول عهود كل ملوك
فى افريقية . ولقد وصلتنا رواية الرقيق التفصيلية عن عهد الأمير ابر
وهى الرواية التى ينقلها النويرى بحذافيرها فى نهاية الأرب ، وتكون
رواية ابن عذارى ومن نقل عنه . ومنها يتضح لنا أن عهد ابراهيم
يمثل طبيعة الحكم الأغلبى على وجه العموم ، بما فيه من حسنات وسي

فابراهيم بن أحمد له حسناته الكثيرة من كف الظلم ونشر ال
وله سيئاته التى لا تغتفر من أعمال العنف التى تصل الى سفك الد
الأسباب ، وربما لغير سبب ، والتى لم يسلم منها خـــدم الأمير وقر
وأهله ، من : بنى عمومته واخوته وحتى أبنائه وبناته . أما عن سياسة
العامة : فالحرب فى صقلية تزاد ظفرا من سنة الى أخرى وفيها يتم
سرقوسة وطبرمين . والأعمال العمرانية ، من : بناء المدن والمحارس
سيرا حثيثا ، كما هو الحال فى عصور الازدهار ، ولا يعـــرقل م
الاضطرابات المعتادة فى أقاليم : طرابلس ، وتونس ، وبلاد الزاب
نجح الأمير فى قمعها ، وان كان بشىء من العنف والقسوة .

ولا بأس من أن تكون نظرة ابن الأثير الاجمالية لعهد الأمـــير ا
ابن أحمد — رغم أن مؤرخنا الكبير كان يعرف رواية الرقيق — هى
جملته يركز على حسناته ، دون مساوىء أفعاله . فابراهيم بن أحـ
نظر ابن الأثير ، كان عادلا حازما فى أموره : أمن البلاد ، وقتل أهل
والفساد . وكان يجلس للعدل فى جامع القيروان ، يوم الخميس والاث

---

(٣٥٦) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٧ أ — ١١٧ ب . ابن عذارى ، ج ١ ص
ابن الخطيب ،أعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٧ .

كل أسبوع ، يسمع شكوى الخصوم ، ويصبر عليهم ، وينصف بينهم(٣٥٧) ».

أما عن مساوىء أفعاله التي ذكرها الرقيق ، فانها لم تلق أذنا صاغية من ابن الأثير فأسقطها من روايته ، على أنها ظالمة أو غير واقعية ـ حسبما رأى المؤرخ الكبير ، كما نظن . ولو أن افتراضنا هذا لا يمنع من أن تكون المعلومات المشينة قد سقطت من نساخ ابن الأثير ـ فهي ، كما يرويها النويرى مقسمة الى نوعين وضعهما تحت عنواني :

١ ـ ومن مساوىء أفعــاله .

٢ ـ ومن قبيح أفعـــاله .

ومن ذلك : « أنه أسرف في سفك دماء أصحابه وحجابه ، حتى يقال انه افتقد منديلا كان يمسح به فمه من شرب النبيذ ، وكان قد سقط من يد بعض جواريه فأصابه خادم فقتله ، وقتل بسببه ثلاثمائة خادم » . ويعلق على ذلك الراوى ، فيقول : « وهذا غاية فى الجور ونهاية في الظلم »(٣٥٨) . أما ابن خلدون الذى أخذ برواية ابن الأثير التى تثنى على ابراهيم فالظاهر أنه عاد يلتمس له العذر بالمرض العقلي بعد أن أورد رواية الرقيق ، فقال : « انه أصابه آخر عمره ماليخوليا أسرف بسببها فى القتل ...(٣٥٩) .

---

(٣٥٧) ابن الأثير ، سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ٢٨٤ (ابن خـلدون ، ج ٤ ص ٢٠٣) ، وقارن رواية الرقيق فى النويرى ، المخطوط ج ٢٢ ص ١٢٢ ب ـ ١٢٣ أ ، حيث يقول انه كان أنصف الملوك للرعية فلا يرد عنه متظلم يأتيه ، وكان يجلس بعد صلاة الجمعة ، وينادى مناديه : من له مظلمة ! فربما لم يأته أحد لكف بعض الناس من بعض . هذا ، وكان يقمع أصحاب الأقدار والأغنياء عن الظلم ، ويعمل على انصاف الرعية « فهم مادة الملك » ، ويبالغ فى عقوبة أهل بيته وولده اذا ظلموا . وهو ينصف المتظلمين حتى من والدته ، كما سنرى .

(٣٥٨) نهاية الأرب ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٣ ب ـ ١٢٤ أ ـ ١٢٤ ب . وتضيف الرواية الى ذلك أنه قتل ابنه أبا الأغلب لظن ظنه به . وقتل ثمانية من اخوته ، وانه قتـــل بناته اللاتى ربتهن أمه خلية منه . وفى قبيح أعماله يذكر له كلفه بالأحداث ، وانه كان له فى بعض قصوره منهم نيف وستون حدثا ، وأنه قتلهم لأمور ساءته منهم ، بل ويبلغ الحد الى طرحهم فى النار أو اغلاق بيت الحمام الساخن عليهم . وانه كان يقتل بأنواع أخـــرى من العذاب ، مثل : الخنق أو البناء على من يريد قتله حتى يموت جوعا وعطشا ، وغير ذلك مما أضرب ابن الأثير عن الاشارة اليه . وانظر ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٩ وما بعدها . حيث يضيف ابن الخطيب تعليقا له ، يقول فيه : « اللهم لا ترحمه ، وضاعف عليه سخطك وعذابك الذى لا يعقبه رضاك ولا تمنحه رحمتك » .

(٣٥٩) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٤ .

أما ابن عذاري فقد قسم سيرة ابراهيم الى فترة طيبة استمرت لسبع سنوات ، كان فيها حسن السيرة ، تبعتها فترة تغيرت فيها أحواله الى قرب نهاية حكمه عندما مال الى الزهد والتنسك ، وترك الملك لابنه أبي العباس ونذر نفسه للجهاد في صقلية(٣٦٠) .

والمهم أنه بعد أن استقر ابراهيم في داره في القصر القديم ، في مواجهة قصر ابن أخيه الطفل أبي عقال ، بدأ حكمه بداية طيبة ، فولى حجابته لحسن ابن قرهب ، وأمر بانفاذ الكتب الى العمال والجباة بحسن السيرة في أعمالهم وشدد على ضرورة الرفق بالرعية(٣٦١) .

بناء عاصمة جديدة : رقادة :

وأهم ما يميز عهد ابراهيم بن أحمد هو ما قام به من السير على سنن كبار الحكام من منشئي الدول ، وذلك باتخاذ عاصمة جـديدة ، غير القصر القديم ، وهي المدينة التي كان قد بناها ابراهيم بن الأغلب مؤسس الأسرة وسماها بـ « العباسية » . ففي سنة ٢٦٣ هـ/٨٧٦ م بدأ ابراهيم بن أحمد في بناء مدينة رقادة ، على ٤ (أربعة) أميال من القيروان ، والتي أصبحت احدى ضواحي مدينة عقبة ، مثلها في ذلك مثل القصر القديم .

أما عن التسمية « رقادة » ، فقد قيل انها نسبة الى الرقاد أي النوم وذلك لطيب مناخ المنطقة التي اختيرت للبناء(٣٦٢) . وخططت المدينة بحيث

---

(٣٦٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٢ .

(٣٦١) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٧ ب ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ٢٩ ، وانظر ابن الأثير ، سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ٢٨٤ .

(٣٦٢) وفي ذلك قيل ان الأمير ابراهيم خرج يتجول خارج القيروان الى ان وصل منطقة رقادة ، فوجدها جيدة المناخ معتدلة الهواء ، طيبة التربة ، حتى غالبه النعاس فيها وكان يشكو من الأرق ـ فلذلك سميت رقادة . هذا ، كما قيل ان من دخلها لم يزل ضاحكا مستبشرا بالسرور لغير علة . انظر النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٧ ب ، كتاب الاستبصار ، ص ١١٦ والهامش ١ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧ . وقارن البكري ص ٢٧ والحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٢ (حيث القصة التي تقول ان الأمير كان قد أصيب بالأرق فأمره اسحق الطبيب ، بعد أن فشل في علاجه ، بالرياضة . فلما وصل الى المكان نام فيه موضع المدينة رقادة) .

هذا ولو ان البكري يذكر رواية أخرى (ص ٢٨) تقول ان الموضع سمي « رقادة » نسبة الى رقاد جثث قتلى قبائل ورفجومة الذين تغلبوا على القيروان وذلك عندما خرج اليهم

كان دورها ١٤ (أربعة عشر) ألف ذراع(٣٦٣) . وبنيت بها القصور العجيبة ومسجد جامع(٣٦٤) . وكان أول القصور التي بنيت فيها هو القصر المعروف بالفتح ، الذي تم بناؤه في العام التالي (٢٦٤ هـ/٨٧٧ م) ، فانتقـل اليه ابراهيم بن أحمد من القصر القديم(٣٦٥) . وبذلك صارت رقادة العـاصمة الجديدة ، وأصبحت رمزا لدولة ابراهيم الثاني .

واستمرت أعمال ابراهيم في اعمار رقادة من اجراء الميـاه اليهـا ، واغتراس صنوف الثمار الطيبة والرياحين ، وبناء القصور داخل أسـوار المدينة ، مثل : قصر « بغداد » وقصر « المختار » ، حتى صارت رقادة ، قبل نهاية عهده ، أكبر من القيروان(٣٦٦) . وهكذا ، لم تزل دار ملك بني الأغلب الى أن هرب عنها زيادة الله أمام أبي عبد الله الشيعي(٣٦٧) .

والى زيادة الله الأخير ينسب انشاء الصهريج الكبير والقصر المواجه له ، اللذين كان من مفاخر رقادة . وكان طول الصهريج ٥٠٠ ذراع وعرضه ٤٠٠ ذراع حتى سمي بالبحر . أما عن القصر العظيم الذي بني في مواجهته على أربع طبقات ، وسمي بـ « العروس » (كما عرف بقصر البحر) ، فقد أنفق فيه ٢٣٢ الف دينار(٣٦٨) ، وكان مضرب المثل في الفخامة والأبهة(٣٦٩) .

= ابو الخطاب عبد الأعلى امام الاباضية من طرابلس ، وقتلهم ، في ذلك الموضع - الذي كان اذ ذاك منية - قتلا ذريعا ، فسميت ، رقادة .

(٣٦٣) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٧ ب .

(٣٦٤) الحلة السيراء ج ١ ص ١٧٢ .

(٣٦٥) النويري ، المخطوط ، ج ٢ ٢ص ١١٧ ب (حيث تقول الرواية انه انتقل الى رقادة في سنة ٢٦٣ هـ/٨٧٦ م) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧ .

(٣٦٦) الحلة السيراء ج ١ ص ١٧٦ ، وانظر البكري الذي يحدد دورها بأكثر من ٢٤ الف ذراع ، أي حوالي ١٢ كيلو متر (ص ٢٧) . وفي عمران رقادة يقـول حسن حسني عبد الوهاب انه كان يوجد في « قصر الصحن » على مسافة من المدينة « بيت الحكمة » ، وانه الى جانب المستشفى « الصحة » كان لرقادة « دارة الطراز » - مثلها مثل العواصم الكبيرة . كما وجد في ظاهرها ميدان واسع هو « الملعب » الذي كانت تجري فيه الخيل ، ويتخذه الجند لأيام العرض . وفي جانب الميدان كان محـل السيدين (انظر الورقات ، قسم ١ ص ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٧٢) .

(٣٦٧) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٢ .

(٣٦٨) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٦ .

(٣٦٩) انظر فيما بعد ، ص ١٧٥ .

وفي فخامة قصر العروس هذا ، قيل ان عبيد الله المهدي كان يقول انه واحد من ثلاثة أشياء بافريقية لم ير مثلها في الشرق(٣٧٠) ٠

وتشير الرواية الى أنه عندما انتقل ابراهيم بن أحمد من القصر القديم الى رقادة ، منع بيع النبيذ بمدينة القيروان ، وأباحه في رقادة(٣٧١) ٠ وبذلك لم تعد رقادة دار الأمير ومسكنه فقط ، بل صارت متنزها له وموضع فرجة حيث كان يأتيه الندماء والمداحون والشعراء(٣٧٢) ٠

وتوجد بقايا رقادة حاليا على بعد ٥ (خمسة) كيلومترات من بقايا القصر القديم ، أى على بعد ٩ كم جنوبي القيروان ٠ ويوجد هنالك حوض عظيم مربع الشكل ، له جدران ضخمة ودعامات شبيهة بدعامات مواجل القيروان ، وأغلب الظن أنه الماجل الذى كان يعرف بالبحر والذى أعطى لقصر العروس اسم « قصر البحر » أما عن القصر نفسه فلم تبق الا بقايا جدران قليلة منه ، وأرضية بعض القاعات المكسوة بالفسيفساء المكونة من مكعبات حجرية صغيرة الحجم ، زخرفتها في شكل ضفائر حلزونية ٠ ويشـــير ج٠ مارسيه الى أنه يمكن أن يوجد لهذه الفسيفساء شبيه في بقايا آثار كنـــائس افريقية في القرنين ٣ ، ٤ م ٠ وهذا يعني أن صانع الفسيفساء الأغلبية صانع محـــلى ، وأن الفن كان وطنيا موروثا من القديم(٣٧٣) ٠

---

(٣٧٠) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٦ — ويسكت النص عن ذكر الشيئين الآخرين ، أما البكرى (ص ٢٦) فيذكر اثنين فقط ماجل القيروان وهذا القصر ٠

(٣٧١) أنظر البكرى ، ص ٢٧ — حيث الاشارة الى شعر بعض الظرفاء بهذه المناسبة ، وفيه يقول ٠

يا سيد النـــاس وابن ســـيدهم ومن اليـــه القلـــوب منقـــادة
ما حـــرم الشرب في مدينتنـــا وهـــو حـــلال بأرض رقـــادة

وقارن الاستبصار ، ص ١١٦ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٣ ٠

(٣٧٢) أنظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٣ — حيث الاشارة الى انتجاع الشاعر بكر ابن حماد التاهرتي الأمير ابراهيم ومدحه اياه ، والأمير مصطبح في الجنان مع الجوارى ٠ وفي حدائق رقادة وغروسها التي اثمرت وأكل من ثمرها ابراهيم ، تقول الرواية ان القاضي عبد الله ابن طالب عندما صحب الأمير الى تلك الجنان ، طلب منه ان يشكر الله على آلاء غرسه وأكل منه ثم طلب منه أن يدفع من الثمر صدقة أهل الذمة (مستشفى القيروان) ، ثم طلب منه أن يعزل الجائرين من عماله وأن يعدل في الرعية ٠ أنظر حسن حسنى عبد الوهاب ، الورقات ، القسم ١ ص ٣٦٤ (عن رياض النفوس للمالكي) ٠

(٣٧٣) أنظر ج٠ مارسيه ، مختصر الفن الاسلامي (بالفرنسية) ، ص ٤٣ — ٤٤ ٠

وكان أول الأنباء السعيدة التي تلقاها الأمير ابراهيم الثاني في قصره الجديد هو نبأ سقوط مدينة سرقوسة بين أيدي القوات الأغلبية في صقلية في نفس تلك السنة(٣٧٤) ، وستظل أخبار صقلية تشغل الجزء الأكبر من حوليات ابراهيم بن أحمد .

الخدم الصقالبة في القصر القديم يحتجون على تغيير العاصمة : وابراهيم يرد عليهم بالعنف :

ولكن انتقال ابراهيم الى رقادة لم يتم دون ردود فعل عنيفة لدى موالي الأغالبة ، من : الصقالبة والخدم في المدينة الملكية القديمة ، ممن ساءهم خروج الحكم من القصر القديم الذي نشأوا فيه . والظاهر أن ابراهيم بادر الى قائد هذا التململ منهم ، وهو فتى يقال له مطروح (ابن أم بادر) فقتله ، مما دعا الى التذمر في القصر القديم بين الموالي من الجند الأغلبي الصقلبي ، فشقوا عصا الطاعة ، وقطعوا طريق السابلة ، فيما بين رقادة والقيروان . ومع أن ابراهيم ترك تسوية هذه المسألة الى أهل القيروان الذين دافعوا عن مصالحهم ، فخرجوا الى لقاء موالي القصر القديم في أعداد لا تحصى حتى ردعوهم وأجبروهم على طلب الأمان ، فان الأمير كان يضمر للمخالفين أمرا عظيما .

فعندما حان وقت دفع الأرزاق الى الجند والخدم ، جلس ابراهيم في قصره الجديد المعروف بقصر الفتح في رقادة ، وحصر جميع العبيد والموالي من القصر القديم ، فكان كلما تقدم رجل منهم نزع منه سيفه وقبض عليه ، حتى تم توقيفهم كلهم . وتقول الرواية ان ابراهيم شتتهم ومزقهم شر ممزق ، فأمر بقتل بعضهم ضربا بالسياط وصلبهم ، كما أمر بحبس عدد منهم في سجن القيروان حتى الموت ، ونفى عددا منهم الى صقلية(٣٧٥) .

استخدام الجند من السودان :

وكان التخلص من الخدم الصقلبي سببا في أن اتجه ابراهيم الى الاستعاضة عنهم بالعبيد من السودان ، فاشترى منهم أعدادا كثيرة ، وأحسن تدريبهم على الجندية ، وكساهم الكساء البديع ، وصار يعتمد عليهم في الحروب ، فظهر منهم شجاعة وجلد وقوة(٣٧٦) .

---

(٣٧٤) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ أ ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٨ .
(٣٧٥) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ أ .
(٣٧٦) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ أ ، وانظر فيما بعد ، ص ١٣٢ وص ٤٣٦ .

متاعب خارجية في طرابلس :

مواجهة غير متوقعة بين الاغالبة والطولونيين :

والظاهر أن مذبحة الموالى الصقلبية كانت أولى المتاعب التى حلها ابراهيم ابن أحمد بالعنف والقسوة • وأنها كانت أول بشير بتغير احواله الذى أشار اليه الكتاب • أما المتاعب الحقيقية فقد أخذت تهب رياحها عليه اعتبارا من السنة التالية ، وهى سنة ٢٦٥ هـ/٧٨ — ٨٧٩ م ، وذلك عندما فكر العباس ابن أحمد بن طولون فى أن يستقل عن والده بامارة يقتطعها لنفسه فى برقة التى كانت تابعة لمصر وقتئذ ، ويضيف اليها ما أمكنه اضافته من طرابلس والاقاليم الشرقية من المملكة الأغلبية • وهى الوقت الذى استقر فيه العباس فى برقة أتى القحط العظيم الذى أتم بافريقية سنه ٢٦٦ هـ/٨٧٩ م ، ممـا أدى الى الغلاء المفرط ، فعكر صفو ابراهيم ، حين كان اشد ما يكون حاجة الى الصفاء •

والظاهر أن العباس بن أحمد بن طولون وجه أنظاره نحو الغرب اذ كان يعلم أن الأمور غير مستقرة فى برقة ، التى كانت أعلنت العصيان على الحكم الطولونى منذ حوالى أربع سنوات • ففى سنة ٢٦١ هـ/٧٤ — ٨٧٥ م ثار أهل برقة ، وأخرجوا أميرهم المصرى محمد بن الفرج الفرغانى • وعندما سير اليهم أحمد بن طولون غلامه المعروف بلؤلؤ ، على رأس قواته ، ناصحا اياه الا يكون العنف الا آخر وسيلة يلجأ اليها ، لم تنجح سياسة اللين • واضطر لؤلؤ الى حصر المدينة ، وضربها بالمجانيق قبل أن تعود الى أنس الطاعة • مما دعا لؤلؤا الى الانتقام من زعماء الثورة ، فطبق على بعضهم قانون المفسدين فى الأرض ، وعاد ببعضهم الى مصر حيث شهر بهم ، بينما خلع بن طولون على قائده المظفر ، وطوق رقبته بطوقين من الذهب(٣٧٧) •

مسير العباس بن احمد بن طولون الى برقة :

فالذى يهمنا اذن — دون البحث فى أسباب الحركة الدفينة — أن العباس ابن أحمد بن طولون انتهز فرصة غياب والده فى الشام ، وقام بانقلاب ساعده

---

(٣٧٧) ابن الأثير ، سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ٢٨٣ • أما عن سلخ برقة عن افريقية وضمها الى مصر سنة ١٧٤ هـ/٧٩١ م ، فانظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٧٤ — وهــذا ما غاب عن ابن خلدون الذى يقول ان الطولونى ملك برقة من يد محمد بن قهرب قائد بن الأغلب (ج ٤ ص ٢٠٣) •

بيه عدد من كبار القواد(٣٧٨) ، فاستولى على ما كان في بيت المال في مصر ، مما قدر بثمانمائة حمل من دنانير الذهب ، وقوم بمليون ومائتي ألف دينار . وقبض العباس على وزير والده ، وهو أبو عبد الله أحمد بن محمد الكاتب ، وساقه معه مقيدا في اتجاه برقة(٣٧٩) ، التي وصـــل اليها في ثمانمائة فارس ، وعشرة آلاف راجل من السودان ، منهم خمسة آلاف جمل(٣٨٠) ، في شهر ربيع الأول سنة ٢٦٥ هـ/نوفمبر ٨٧٨ م(٣٨١) .

ولما كان ابن عذارى يجعل وصول العباس الى برقة في ربيع الآخر من سنة ٢٦٧ هـ/نوفمبر ٨٨٠ م ، وذلك في اطار روايته لفتنة ولد ابن طولون حين أراد التغلب على افريقية ، يكون من المقبول أن تكون أحداث الفتنة قد امتدت على طول السنتين أو بعضهما(٣٨٢) . فالواضح أن الذي يقصـــده ابن عذارى ليس وصول ولد بن طولون الى برقة ، بل بدء العمليات العسكرية ضد الأغالبة في ولاية طرابلس ، مما يعني أن خروج العباس نحو طرابلس تم بعد أكثر من سنة من وصوله الى برقة . والواضح من النصوص أنه خلال

---

(٣٧٨) ابن الأثير ، سنة ٢٦٥ هـ ، ج ٧ ص ٣٢٤ ، وأنظر ابن تغرى بردى ، النجوم ، سنة ٢٦٥ ، ج ٣ص٤٠ . ولمزيد من التفصيلات أنظر الكندي ، الولاة والقضاة ، ط. جست ، بيروت ١٩٠٨ ، (أحداث سنة ٢٦٥ هـ) ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

(٣٧٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٨ .

(٣٨٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٨ .

(٣٨١) ابن الأثير ، ســـنة ٢٦٥ هـ ، ج ٧ ص ٣٢٤ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ أ ، ابن تغرى بردى ، سنة ٢٦٥ ، ج ٣ ص ٤٠ . وقارن الكندي ، الولاة والقضاء ، ص ٢٢١ (حيث تقول الرواية ان خروج العباس الى الجيزة كان في ٨ شعبان سنة ٢٦٥ هـ ، وأن عودة أحمد بن طولون من الشام الى الفسطاط كان في شهر رمضان التالي من نفس السنة ـ وهو الأمر الذي يستحق اعادة النظر ، خاصة وان خروج أحمد بن طولون الى الشام كان في شعبان من سنة ٢٦٤ هـ (ص ٢١٩) .

(٣٨٢) والذي نراه هو أن ابن عذارى (ج ١ ص ١١٨) يتعجل الأحداث جميعا ويجعلها تدور في نفس سنة ٢٦٧ هـ ، من : خروج ولد بن طولون من مصر واستقراره في برقة ، وخروجه الى طرابلس على عجل ، قبل أن يعود والده من الشام ، وقبل أن يستعد ابراهيم بن أحمد للمطالبة . وهو الأمر الذي وان بدا غير طبيعي ، فهو لا يختلف كثيرا عن رواية كـــل من ابن الأثير والنويري وابن تغرى بردى الذين يجعلون الأحداث تدور أيضا كلها في سنة ٢٦٥ هـ/ ٨٧٨ م . ورغم أن ابن الأثير يعرف أن عملية العباس انتهت تماما في ســنة ٢٦٨ هـ/٨٨٢ م (الكامل سنة ٢٦٥ هـ ج ٧ ص ٣٢٥ وانظر ابن خلدون (ج ٤ ص ٢٠٣) الذي يجعل خروج العباس في سنة ٢٦٥ هـ والمعركة في سنة ٢٦٧ هـ) . وهكذا يكون التوفيق بين الروايتين أمرا مناسبا .

تلك الفترة كان احمد بن طولون قد عاد من الشام الى مصر ، وارسل الى ابنه العباس يلاطفه ، بل ويستعطفه من أجل العودة الى بلده . ولكن حشية من كان مع العباس من القواد من العقاب(٣٨٣) اذا عادوا ، جعلوه لا يستجيب الى طلب والده ، بل وجعلوه يتمادى في تطلعه أكثر فأكثر نحو الغرب اما من أجل تكوين امارة معقولة بضم طرابلس الغنية الى برقة ، واما من أجل الابتعاد عن يدي والده القوي ، الذي قد لا تكون برقة بعيدة عن مناله(٣٨٤) ، كما حدث في تجربة برقة سنة ٢٦١ هـ/٨٧٤ م .

العباس يتصل بالقبائل في طرابلس وافريقية :

هكذا يكون العباس قد استقر في برقة لمدة عام وأكثر ، وهو ينظر في خير وسيلة لدخول طرابلس ، بل وافريقية أيضا . فأخـــذ يكاتب رؤساء القبائل هناك من البربر ، حسبما تقول رواية ابن الأثير(٣٨٥) . ولما كان هؤلاء يقفون موقف المعارضة من الـــدولة الأغلبية لأن كثـــيرا منهم كانوا من الاباضية ، فقد استجاب له بعضهم ، وامتنع بعضهم منه . وتقول رواية ابن الأثير ، أكثر من ذلك ، ان العبـــاس الطولوني أراد أن يغرر بابراهيم ابن أحمد ، فكتب اليه يقول : « ان أمير المؤمنين قد قلدني أمر افريقيـــة وأعمالها »(٣٨٦) ، وهو الأمر المستغرب(٣٨٧) .

---

(٣٨٣) ابن الأثير ، سنة ٢٦٥ هـ ، ج ٧ ص ٣٢٤ ، وانظر الكندي ، الولاة والقضاة ، ص ٢٢٠ .

(٣٨٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ١١٨ ، وانظر الكندي ، الولاة ... ، ص ٢٢٢ (حيث ن عل ان العباس رأى أن افريقية أمنع له من برقة) .

(٣٨٥) ابن الأثير ، سنة ٢٦٥ ، ج ٧ ص ٣٢٤ ـ وهو الأمر الذي تنكره رواية ابن عذاري (ص ١١٨) عندما تقول ان العباس لم يقبل نصيحة أبي عبد الله أحمد بن محمد الكاتب ، ر والده ، بأن يؤخر التقدم الى طرابلس حتى يصانع البربر .

(٣٨٦) ابن الأثير ، أحداث سنة ٢٦٥ ، ج ٧ ص ٣٢٤ ، وقارن الكندي ، ص ٢٢٢ (حيث ل الرواية ان العباس كتب الى ابراهيم بن أحمد : « ان كتاب المعتمد ورد عليه بتقليده افريقية يأمره بالدعاء له بها ، ويخبره انه صائر اليه » .

(٣٨٧) فالمعروف ان الخليفة العباسي المعتضد لم يهدد ابراهيم بن أحمد بالخلع الا فيما بعد بسنة ٢٨٧ هـ/٩٠٠ م ، كما سنرى فيما بعد . مما يدعو الى الظن انه ربما كان في الأمر خلط من بعض الكتاب ، الا اذا كان العباس بن أحمد بن طولون كان على دراية بسوء سيرة ابراهيم بن أحمد في ذلك الوقت المبكر ، أو بخلافات بين أفراد الأسرة الأغلبية ترتبت على الغدر بابن اخيه أبي عقال ، أو بسبب فتكه بالموالي من الصقلبية ، كما رأينا .

ابراهيم يبعث قائده ابن قرهب نحو طرابلس :

والمهم أن استجابة عدد من زعماء البربر في أقاليم افريقية الشرقية شجع العباس على المسير نحو لبدة شرق طرابلس • وعندما وصل الى ابراهيم ابن أحمد خبر مسيرة العباس هذه أسرع باخراج قائده أحمد بن قرهب - أخي الحاجب محمد بن قرهب - في ١٦٠٠ (ألف وستمائة) فارس خيلا مجردة لا رجل فيها ، كما تقول رواية ابن عذارى ، وأمره بالاسراع ليلا نحو طرابلس التى دخلها فعلا قبل وصول العباس الى لبدة(٣٨٨) • وفي طرابلس عمل ابن قرهب على حشد ما أمكنه حشده من جند طرابلس ، ومن بربر المنطقة المجاورين ، وأسرع نحو لبدة فدخلها قبل أن تصلها مقدمة القوات الطولونية(٣٨٩) •

اللقاء بين الأغالبة والطولونيين في وادى ورداسة :

وخرج بن قرهب بفرسانة من لبدة متجها نحو الشرق حيث بدت له طلائع العباس بن أحمد بن طولون على بعد ١٥ (خمسة عشر) ميلا من لبدة ، فى موضع يعرف عند الرقيق بوادى ورداسة(٣٩٠) • ومع أن العباس لم يزحف نحو لبدة الا بـ ٨٠٠ (ثمانمائة) فارس فقط ، يتبعهم ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) براجل ، من السودان ، فان الخدعة التى قام بها عندما جعل نصف سودانة الآخرين ، وهم ٥ (خمسة) آلاف رجل يركبون الجمال ، وهم يحملون البنود التى صنعها فى برقة ، ويزحفون وراء القطعة الرئيسية من الجيش ، نجحت فى تحقيق ما كان يهدف اليه •

فقد فزع ابن قرهب بعد مناوشة يسيرة ، وانهزم نحو طرابلس ، وهو يظن أن من بدأ بقتالهم لم يكونوا الا مقدمه الجيش المصرى الرهيب(٣٩١) •

الطولونيون يدخلون لبدة ويحاصرون طرابلس ، وقيام أباضية نفوسة ضدهم :

وبذلك استمر العباس فى مسيرته نحو افريقية ، وفتح حصن لبدة أبوابه له دون قتال فى جمادى الأولى سنة ٢٦٦ هـ/ديسمبر ٨٧٩ - يناير

---

(٣٨٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٨ •

(٣٨٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٨ •

(٣٩٠) النويرى ، المخطوط ج ٢٢ ص ١١٨ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٨ •

(٣٩١) ابن عذارى ، ج١ ص ١١٨ أ •

٨٨٠ م . ولكن رجاله أساءوا معاملة أهل لبدة أسوأ المعاملة ونهبوهم(٣٩٢) .

وفي لبدة تتبع العباس المنهزمين من جند ابن قرهب الى طرابلس ، فنزلها وضرب عليها الحصار ، ونصب حولها المجانيق ، وبدأ يضيق عليها الخناق لمدة قربت من شهر ونصف شهر . وكان السودان من رجاله يغيرون في هذه الأثناء على أهل البوادي في أطراف المدينة ويسيئون معاملتهم ، حتى قيل انهم اعتدوا على الحرم وهتكوا الستر ، مما آثار بربر نفوسة الاباضية ، القاطنين في منطقة الجبل المعروف بهذا الاسم جنوبي مدينة طرابلس ، وكان زعيمهم وقتئذ هو أبو منصور الياس بن منصور النفوسي(٣٩٣) .

هذا ولا بأس في أن يكون من أسباب الصدام بين الأمير الطولوني والزعيم النفوسي ، هو عدم اذعان هذا الأخير لما طلبه منه العباس من الدخول في طاعته ، والقدوم عليه ، مع تهديده بوطء بلده بالخيل والرجال ان لم يفعل . فهذا ما تقوله الرواية التي ينقلها الباروني عن ابن سعيد في تاريخه « الدر المكنون »(٣٩٤) . والمهم أنه رغم أن أباضية جبل نفوسة كانوا لا يعترفون بسلطان المملكة الأغلبية ، اذ كانوا مستقلين بجبلهم ، وهم في نفس الوقت يعترفون بإمامة الرستميين في تاهرت ، مثلهم في ذلك مثل بربر اقليم الزاب الدائم الثورة على الأغالبة ، فقد غضب الياس بن منصور لما نزل بجيرانه أهل طرابلس الذين استغاثوا به ، وقام محتسبا ، كما يقول ابن عذاري ، في سبيل الله على رأس ١٢ (اثني عشر) ألف رجل من النفوسيين ، زحف بهم نحو العباس(٣٩٥) .

انسحاب غير منظم للقوات الطولونية أمام الاباضية :

وهكذا ، بينما الحرب محتدمة حول تحصينات طرابلس بين الجند الطولوني والجند الأغلبي ، اذ بالعباس بن أحمد بن طولون يفاجأ بالاباضية من بربر نفوسة ، يقودهم الياس بن منصور . وكان من الطبيعي أن يسقط

---

(٣٩٢) ابن الأثير ، سنة ٢٦٥ ، هـ ، ج ٧ ص ٣٢٤ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ أ ، وانظر الكندي ، ص ٢٢٢ (حيث النص على التاريخ المذكور) .

(٣٩٣) أنظر ابن عذاري ، ج ١ ص ١١٩ ، الذي يسمي النفوسي بأبي منصور فقط وابن الأثير ، سنة ٢٦٥ هـ ، ج ٧ ص ٣٢٤ ، والكندي ، ص ٢٢٢ .

(٣٩٤) انظر الأزهار الرياضية ، قسم ٢ ،:ص ٢٥٧ ، ص ٢٥٨ - حيث رد أبي منصور العنيف على العباس الذي يعتبر بمثابة اعلان للحرب على الأمير الطولوني .

(٣٩٥) البيان ، ج ١ ص ١١٩ .

ي بعد اذ وقع بين سنـدان أسوار طرابلس وبين مطرقة محتسب نفوسة(٣٩٦) ، واستعر لهيب الحرب ، والعباس يحاول أن يشق طريق العودة الى برقة ، حتى اضطر أن يحارب بيده ، بينما كان رجاله يتساقطون حوله · وبذلك انقلب الانسحاب الى هزيمة قبيحة كاد العباس أن يؤسر فيها ، لولا أن خلصه بعض مواليه من السودان(٣٩٧) ·

الأموال المصرية تسد فراغا في خزانة ابراهيم :

في هذه الظروف الصعبة خلص العباس بفلول قواته بصعوبة الى برقة ، ولكن بعد أن تركوا ما كان في معسكرهم من الأموال والعتاد نهبا لأهل طرابلس وحدهم · وذلك أن اباضية نفوسة تورعوا عن أخذ شيء منه(٣٩٨) ·

وفي تلك الأثناء كان ابراهيم بن أحمد يحاول حشد جند افريقية في القيروان ، ولما كانت خزانته خاوية ، فانه اضطر الى أن يضرب حلى نسائه دنانير ودراهم ، وزعها على العسكر · وعندما خرج على رأس قواته يريد نجدة رجاله في طرابلس ، أتاه خبر هزيمة ولد ابن طولون ، وهو على الطريق في قابس ، من ابن قرهب نفسه الذى أراد أن يبشره بالفتح(٣٩٩) ، وما أخذ من

---

(٣٩٦) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٩ — الذى يقول ان العباس عندما سأل وزير والده أبا عبد الله الكاتب : ما الرأي ؟ قال له : ببرقة خلفته · وهو يقصد بذلك نصيحة أبي عبد الله الكاتب له بأن يؤخر التقدم الى طرابلس حتى يصانع البربر ، وهى النصيحة التى لم يقبلها ولد بن طولون اذ كان يظن أنه يستطيع شراء زعماء البربر بما كان معه من الأموال (وأنظر أيضا ص ١١٨) ·

(٣٩٧) ابن الأثير ، سنة ٢٦٥ هـ ، ج ٧ ص ٢٢٤ ، وأنظر الكندى ، ص ٢٢٣ (حيث الاشارة الى ما قاله العباس في تلك المناسبة من أشعار الحماسة ، ومنها :

لو كنت شاهدة كسري بلبـدة اذ ... بالسيف أضرب والهـامات تبتـدر

اذا لـعـاينت مني مـا تنـاذره ... عني الأحـاديث والأنبـاء والخبر

ولو أن الكندى يتبع ذلك بقوله : وقتل يومئذ صناديد عسكره ووجوه أصحابه وحماته ، ونهبت أمواله وسلاحه ، ورجع هاربا الى برقة في شر واختلال) ·

(٣٩٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٩ · أما عن العباس ، فقد اهتم والده لأنباء هزيمته وضياع ما كان معه من الأموال ، فلما علم بنجاته أرسل اليه جيشا قاتله في برقة ، وأسره بعد معارك شديدة ، ثم عاد به الى والده الذى انتقم من القواد الذين كانوا معه ، كما حبسه هو بعد أن ضربه بالمقارع ، في بعض قصوره (أنظر ابن الأثير ، سنة ٢٦٥ هـ) ، وذلك لغاية سنة ٢٦٨ هـ/٨٨١ م · ولمزيد من التفصيلات أنظر الكندى ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ (حيث النص على قطع يدى العباس ورجليه) ·

(٣٦٦) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ أ ·

«الأموال • وهنا لم يكن لابراهيم من هم الا البحث عن الأموال المصرية التى انتهبها رجاله ، حتى « كان الرجل من أهل العسكر يبيع مساقيل ابن طولون سرا بما أمكنه ، خوفا من أن تؤخذ منه »(٤٠٠) •

والظاهر أن قلة الأموال فى خزانة ابراهيم ، مما اضطره الى استخدام حلى نسائه التى كانت تعتبر وقتئذ أشبه باحتياطى للأمير ــ كما نقول الآن ــ لم تكن نتيجة لتبديد أبى الغرانيق الأموال ، كما يريد ابن عذارى ، فالأمير المتهم كان قد توفى منذ أكثر من خمس سنوات طوال ، استطاع خلالها أخوه ابراهيم جمع الأموال وبناء القصور فى رقادة • والحقيقة أن قلة الأموال لا يفسرها الا القحط العظيم الذى يسجله ابن عذارى نفسه فى حولياته فى سنة ٢٦٦ هـ/٧٩ ــ ٨٨٠ م السابقة ، والذى عاد قاسيا فى السنة التالية ٢٦٨ هـ/ ٨١ ــ ٨٨٢ م ، حتى بلغ قفيز القمح الذى يعادل مقدار أردب وربع بالمصرى ، كما يقول النويرى ، ثمانيــة دنانير ، حتى هلك النــاس وأكلوا بعضهم بعضا(٤٠١) •

المجاعة والاضطرابات الداخلية سنة ٢٦٨ هـ/٨١ ــ ٨٨٢ م :

وأغلب الظن أن المجاعة التى ألمت بالبلاد فى سنة ٢٦٨ هـ كانت سببا فى كوارث أخرى ، كان على أهل كثير من المناطق تحمل عبئها أيضا • فالظاهر أن الشدة جعلت قبائل اقليم الزاب يمتنعون عن دفع ما عليهم من الأموال • ورغم المساعدة التى قدمها اخوانهم اباضية نفوسة فى العام السابق للجند الأغلبى فى طرابلس ضد عسكر ولد ابن طولون ــ والتى ربما كانت سببا فيما قدمه ابراهيم لرؤسائهم من الاحسان عندما قدموا عليه فى القيروان ــ فقد فتك بهم ابراهيم بن أحمد فتكا ذريعا ، ولم يستثن أطفالهم من القتل ، حتى كانوا يحملون على العجل الى الحفر ويلقون فيها(٤٠٢) •

وزداجة فى باجة :

وتقول الروايات ان قبائل وزداجة فى اقليم باجة غضبت (فى نفس السنة) ، ومنعوا ما كانوا يدفعونه للأمير من الأموال (الصدقات) ، وعندما قاتلهم الوالى ، وهو الحسن بن سفيان من أجل ذلك ، هزموه هزيمة منكرة ،

---

(٤٠٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٩ •

(٤٠١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ أ ــ ١٨ ب ٦ •

(٤٠٢) ابن الأثير سنة ٢٦٨ هـ ج ٧ ص ٣٧٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٩ •

اذ ردوه حتى أبواب باجة نفسها ٠وهنا أرسل ابراهيم بن أحمد اليهم قائده الحاجب محمد بن قرهب بالجيوش ٠ واعتصم ابن قرهب ببعض الجبال المشرفة على منطقة وزداجة واسمه المشار ، حتى اتخذ له معسكرا حصينا ، كان يرسل منه الخيل صباحا ومساء ضد الوزداجيين ، الى أن انتهى الأمر بأن اعلنوا طاعتهم ، ودفعوا اليه برهائنهم(٤٠٣) ٠

هوارة (ما بين العصيان والطاعة) :

وقامت قبائل هوارة هي الاخرى بالعصيان فعاثت في البلاد وقطعت السبل ، فسير اليهم ابراهيم حاجبه ابن قرهب الذى بدأ باستخدام السياسة معهم ، فعرض عليهم الرجوع الى الطاعة فى نظير الأمان ، ولكنهم أبوا ٠وعندئذ هاجمهم ، فلما انهزموا استباح ديارهم : فنهب العسكر منازلهم وأحرقوها بالنار ، قبل أن يعودوا الى القيروان ٠ وعندئذ عادت هوارة تطلب الامان ، وركنت الى الطاعة(٤٠٤) ٠

لواتة في باجة :

وفي نفس سنة ٢٦٨ هـ/٨١ ـ ٨٨٢ م عادت المنطقة المجاورة لباجة الى الاضطراب بفضل قبائل لواتة التى احتشدت بأجمعها ، وحاصرت مدينة ترنة لعدة أيام قبل أن يدخلوها وينهبوا ما فيها ٠ ومن هناك مضوا الى منطقة باجة نفسها وقصر الافريقي ، وهم ينشرون الفزع والفوضى ٠ وعندما أخرج اليهم الأمير ابراهيم حاجبه محمد بن قرهب ، جانبه الظفر هذه المرة ٠ فلقد انهزم الجند القيروانى أمام اللواتيين بل ان ابن قرهب نفسه كبا به فرسه حتى لحقه خصومه وقتلوه ، دون أن يحاول تخليصه من كان معه من أصحابه الذين ظفروا من الهزيمة بالهرب ، وذلك في شهر ذى الحجة سنة ٢٦٨ هـ/ يونيه ـ يوليه ٨٨٢ م ٠

وعز على ابراهيم ما نزل بابن قرهب ، وعزم على الثأر له فأمر بحشد جيش عظيم من الجند والانصار والموالى ، وسيرهم فى السنة التالية (٢٦٩هـ/ ٨٢ ـ ٨٨٣ م) تحت قيادة ابنه أبى العباس عبد الله ٠ وعندما رأت قبائل لواتة انه لا قبل لها بذلك الجيش الكبير انهزموا أمامهم فى اتجاه باجة ، ولكنه

---

(٤٠٣) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ ب ٠
(٤٠٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ ب ٠

لحق ببعضهم هناك ، وقتلهم قتلا ذريعا ، بينما تشتت النـــاجون منهم فى كل ناحية(٤٠٥) .

السلام لمدة خمس سنوات تنتهى باصلاح مالى :

ومنذ سنة ٢٦٩ هـ/٨٢ — ٨٨٣ م استقرت الأمور فى المملكة لابراهيم فلا نجد ذكرا الا لحروب صقلية المظفرة أو وفاة عالم أو زاهد أو قاض ، أو وصول رجل من رجال الدولة أو نكبة تحل به ، وذلك لمدة خمس سنوات أو أكثر(٤٠٦) . ففى سنة ٢٧٥ هـ/٨٨ — ٨٨٩ م ، عندما قرر ابراهيم بن أحمد القيام باصلاح مالى لقى معارضة قوية من أهل القيروان ، كما حدث على ايام عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب ، انتهت باضطراب وقتال بينهم وبين الأمير .

درهم الفضة وحدة التعامل الصغرى ، وثورة صغار التجار فى القيروان :

فلقد قرر ابراهيم بن أحمد الغاء قطع النقود الصغيرة التى اعتاد التعامل بها أهل القيروان ، وقرر التعامل بدلامنها بالدراهم الصحاح من الفضة(٤٠٧). وكان من الطبيعى أن يحدث ذلك التغيير بعض المتاعب فى التعــــامل فى الأسواق ، فأنكرت العامة فى القيروان ذلك الاجـــراء وأغلقوا حوانيتهم ، واجتمعوا سويا فى تظاهرة كبيرة سارت الى رقادة ، حيث شغبت ضد الأمير الذى أمر الحرس بتطويقهم ثم حبسهم فى الجامع . وعندما علم أهل القيروان بذلك تجمعوا خارج باب المدينة ، وأظهروا معارضتهم لابراهيم الذى وجه اليهم وزيره أبا عبد الله بن أبى اسحق ، فتلقوه بالسباب وبالحجارة . وعندئذ ركب ابراهيم بن أحمد بنفسه الى القيروان ، وبصحبته حاجبه الجديد نصر ابن الصمصامة فى جماعة من الجند ، فاعترضه القيروانيون ، وناصبوه القتال على قدر ما تسمح به طاقتهم .

---

(٤٠٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٨ ب — ١١٩ أ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٤٠٦) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٠ وما بعدها (حوليات ٢٦٩ — ٢٨٤ هـ) .

(٤٠٧) اغلب الظن ان المقصود بقطع النقود الصغيرة هنا ليست الفلوس النحاسية أو ما شابهها بل اجزاء الدراهم الفضية نفسها ، اذ لما كان التعامل فى النقود حينئذ يتم بالوزن عن طريق الصيارفة ، فكثيرا ما كانت تقطع دراهم الفضة الى اجزاء صغيرة — ربما لندرة الفلوس — من انصاف واثلاث وارباع ، لتسهيل عمليات الشراء الصغيرة حتى شاع هذا الضرر ، وتطلب الأمر ذلك الاصلاح . أنظر حسن حسنى عبد الوهاب ، الورقات ، قسم ١ ص ٤٣٢ .

وعلى عكس ما عرف عن ابراهيم من حدة المزاج في مثل هذه الظروف، فانه قرر أن يعامل القيروانيين بالسياسة واللين ، لتقدم الى المصلى (مصلى العيدين خارج المدينة) ، حيث جلس وأمر جنده بالكف عن قتال العامة من أهل القيروان • وعندما استقر به المجلس ، وهدأ الناس ، خرج اليه الفقيه الزاهد أبو حفص أحمد بن مغيث ، ودار بينهما حديث طويل حول موضوع النقود الجديدة ، وما تضرر به العامة وضعفاء الناس • والمهم أن تدخل فقيه القيروان وزاهدها انتهى بتهدئة الأحوال ، اذ دخل الوزير ابن اسحق معه الى المدينة ، واخترقا سماط القيروان ، وهو شارعها الكبير ، فكانت تلك الجولة سببا في سكون أهل القيروان • وبذلك رجع ابراهيم بن أحمد الى رقادة ، وأطلق أهل السوق الذين كانوا محبوسين في الجامع •

استقرار الاصلاح النقدي :

وبذلك تم لابراهيم اصلاحه المالي فانقطعت النقود والقطع الصغيرة من افريقية الى وقت صاحب الرواية التي ينقلها ابن عذارى(٤٠٨) وضرب ابراهيم ابن أحمد دنانير ودراهم سماها العشرية ، لانها كانت على النظام العشري المعمول به أيامنا هذه ، اذ كان في كل دينـــار من الذهب عشرة دراهم من الفضة(٤٠٩) • واذا كان ذلك يعني أن الدرهم أصبح قطعة النقود الصغرى ، فانه يعني مستوى مرتفعا للمعيشة في افريقية على أيام بني الأغلب ابتداء من عهد ابراهيم ، ولو أننا نظن أن الدرهم كان مقسما هو الآخر الى عشرة نقود •

تبدل في مزاج ابراهيم بن أحمد نحو القسوة الدموية ، وأثر ذلك على مجريات الأمور :

تصفية رجال الدولة والمقربين بطريقة « سوداوية » :

القاضي :

ولكنه اذا كان الأمير ابراهيم قد ظهـــر بمظهر المترفق ازاء معارضة القيروانيين لاصلاحه النقدي ، فانه كان قاسيا بغير ضمير ولا وازع عندما عزل

---

(٤٠٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٠ - ١٢١ - حيث يهتم ابن عذارى بالثورة أكثر من اهتمامه بالاصلاح النقدي فيسمى الحركة : « ثورة الدراهم على ابراهيم بن أحمد » •

(٤٠٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢١ •

قريبه قاضي القيروان عبد الله بن أحمد بن طالب التميمي ، الذي رأيناه من قبل صديقا لمحمد بن سحنون(٤١٠) ، وحبسه ثم دس له السم في الطعام فمات ابن طالب عقب أكله مباشرة ، وذلك في شهر رجب من نفس سنة ٢٧٥ هـ/ ٩ نوفمبر ٨٨٨ م(٤١١) ولقد استقضى ابراهيم بعده محمد بن عبدون ابن أبي ثور ، الذي كان حده طحانا ، كما يقول ابن عذاري ، وكان يتسب اسمه : محمد بن عبد ... عيني(٤١٢) .

الكاتب :

ولقد زاد عسف ابراهيم بن أحمد ، وبانت غلظة قلبه عندما حبس في السنة التالية (٢٧٦ هـ/٨٨٩ م) كاتبه محمد بن حيسون المعروف بابن البريدي ، والذي عرف بانه كان شاعرا مجيدا . ولقد كتب ابن البريدي الى ابراهيم من السجن خطابا ضمنه أبياتا رقيقة يستعطفه بها ، فيها يقول :

هبني أسأت فأين العفو والكرم ... اذ قادني نحوك الاذعان والندم
يا خير من مدت الأيدي اليه أما ... ترثي لصب بهاه عندك القلم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر ... إن الملوك اذا ما استرحموا رحموا

وغضب الأمير الذي كان لا ينكر الشعر ، بل كان يحسن النظم أيضا والنقد ، لأن كاتبه الشاعر التعس كتب اليه : « هبني أسأت » ، وكان المفروض فيه أن يعرف أنه أساء فعلا وليس احتمالا . وعلق الأمير الخبير في الشعر ونقده ، بقوله : أما انه لو قال :

ونحن الكاتبون وقد أسأنا ... فهبنا للكرام الكاتبينا

لعفوت عنه ، ثم أمر — ويضيف ابن عذاري . قبحه الله ! — به ، فحمل تابوت حتى مات(٤١٣) .

---

(٤١٠) انظر فيما سبق ، ص ١١٠ — ١١١ .

(٤١١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢١ .

(٤١٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢١ .

(٤١٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢١ — ١٢٢ ، وقارن ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ٣٠ — ٣٢ . حيث اسم الكاتب الشاعر « أحمد القديدي » ، وحيث نص الرسالة التي بعث بها الى الأمير ابراهيم ، وكذلك أبيات الشعر الثلاثة ، وان كانت مختلفة بعض الاختلاف . فالشطرة الثانية من البيت الأول تبدأ بـ « وقد » بدلا من « اذ » ، والشطرة الثانية من البيت الثاني ترد في شكل : « ترثي لمن قد بكاه عندك القلم » . كما تقول الرواية ان الأمير علق على الشطرة الثانية من البيت الثالث ، فقال : « ان الملوك اذا ما استرحموا قتلوا » .

الحاجب .

وزادت قسوة ابراهيم بن أحمد وغلظة قلبه في العقوبة الشديدة التي أنزلها في العام التالي (٢٧٧ هـ/٨٩٠ م) بحاجبه نصر بن الصمصامة ، اذ أمر بضربه ٥٠٠ (خمسمائة) سوط ، فلم ينطق — الرجل المسكين — بكلمة ، ولا تحرك من موضعه . ثم انه أمر بعد ذلك بضرب عنقه ، فتقبل الحاجب المخلص الحكم راضيا ، حتى قالت الرواية انه قال لمن حوله : لا تظنوا أني أجزع من الموت ، بل انه وعدهم أنه يفتح يده ويغلقها ثلاث مرات بعد ضربه . وتريد الرواية أن تضفي على الرجل المستسلم لظلم سيده هالة من هالات القديسين أو أصحاب الخوارق ، تتناسب مع ما نزل به من العذاب ، فتقول : انه فعل ما وعد به(٤١٤) . ولم يكتف ابراهيم بذلك بل انه قتل أيضا اخوة ابن الصمصامة وقرابته(٤١٥) .

عامل الخراج :

وفي السنة التالية (٢٧٨ هـ/٨٩١ م) التي عهد فيها ابراهيم بن أحمد بولاية المظالم الى أبي العباس بن ابراهيم بن أحمد بن الأغلب ، عرض ديوان الخراج على سوادة النصراني شريطة أن يدخل في الاسلام . ولما جرؤ الرجل التعس الحظ على القول انه ما كان له أن يدع دينه من أجل رياسة ينالها ، أمر به فقطع نصفين ، كما تقول الرواية ، ثم صلب(٤١٦) .

الطبيب الخطير : خبير السموم :

والظاهر أن أخلاق ابراهيم بن أحمد أخذت تزداد سوءا مع ما كان يعرض له خلال حكمه الطويل من المتاعب ، ففي سنة ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م التالية ، تقول رواية ابن عذاري : انه قتل كثيرا من أهل افريقية بطرا وشهوة ، أي بدون جريرة ارتكبوها . وكان ممن راح ضحية الأمير ، الذي أصبح سوداوي المزاج : اسحق بن عمران المتطبب ، المعروف بـ « سم ساعة » ، لأنه كان خبيرا في تحضير السموم القاتلة — والذي كان ولا شك يزود الأمير بها ، كذلك السم الذي دس لابن طالب القاضي بعد عزله وسجنه ، فقضى

---

(٤١٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٣ . وتضيف الرواية أن ابراهيم تعجب لذلك فشق من قلب الرجل ، ورأى منظرا عجيبا اذ كان القلب نائما في الكبد ، وعليه شعرات نابتة كثيرة .

(٤١٥) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ أ .

(٤١٦) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٢ .

على الرجل من فوره فى رجب سنة ٢٧٥ هـ/٨٨٨ م(٤١٧) ·

والظاهر أن ابراهيم تملكه نوع من الخوف من ذلك الرجل الذى يستطيع تدبير مثل هذا السم الناقع الذى يجلب الحتف لساعته ، فأمر به فقتل وصلب(٤١٨) · وفكرة التشهير بالطبيب المحوف عن طريق الصلب تعنى أن الرجل كان مكروها من عامة الشعب ، ان لم يكن فى الأمر نزوة من نزوات الأمير الغريب الأطوار ·

الفتى الحاجب :

وفى نفس هذا العام راح الحاجب الجديد لابراهيم ، وهو فتح الفتى ، ضحية انزال عقوبة الضرب به بالسياط حتى الموت(٤١٩) · وذلك بعد أقل من سنتين من قتل الحاجب السابق ابن الصمصامة · ثم انه ولى حجابته الحسن بن نافذ ، وأضاف اليه عدة ولايات ، كما يقول النويرى(٤٢٠) ، ومنها امارة صقلية — وهو الأمر الذى لا نعرفه · ومن حجاب ابراهيم · أحمد ابن محمد بن حمزة الحرون الذى كان مقدما عند الأمير ، ولو أننا لا نعرف تاريخ ذلك(٤٢١) ·

فتيان الصقالبة ، وعلم النجوم :

والحقيقة أن مقتل فتح الحاجب لم يكن الا مقدمة لما قام به ابراهيم ابن أحمد ، فى نفس السنة ، من التخلص من جميع فتيانه الصقالبة · وفى ذلك تقول الرواية انه كان كثير الاصغاء الى قول المنجمين والكهنة(٤٢٢) — وهو الأمر الذى شاع فى بلاط الخلفاء والأمراء ، منذ ترجمت السياسة اليونانية القديمة الى العربية ، وكانت تحوى نصوصا عما يلزم الملك فى سياسته من علم النجوم · وكان المنجمون قد قالوا ان ابراهيم يقتله رجل ناقص

---

(٤١٧) عن أبى طالب ومصرعه فى السجن ، انظر فيما سبق ، ص ١٣٠ ·

(٤١٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٢ ، وقارن الحلة السيراء ج ١ ص ١٧٣ — حيث ينقل البكرى (انظر ص ٢٧ وقارن الاستبصار ، ص ١١٦) ان اسحق الطبيب هذا ، هو الذى نسب اليه الطريفل اسحق · والاطريفل دواء مركب فيه بعض الهليلجات ، وتزاد فيه الأدوية حسب الحاجة · انظر هـ ١ فى النص المصحح لحسين مؤنس ·

(٤١٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٢ ·

(٤٢٠) النويرى ، ج ٢٢ ص ١١٩ ، أ ·

(٤٢١) أنظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨٧ ·

(٤٢٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٢

العقل ، وأنه يمكن أن يكون فتى من خدامه .

وعى هذا الطريق تملك ابراهيم نوع من الخوف المرضى من فتيانه ، فكان اذا رأى أحدا منهم فيه حركة ونشاط وحدة ، وهو يتقلد سيفا ، قال : هذا هو صاحبي ! فيقتله . وتضيف الرواية الى ذلك أنه لما قتل من فتيانه جماعة وقع بقلبه أنه قد استفسد اليهم ، فضمه الحذر منهم الى قتل جميعهم ، فقتلهم فى هذا العام(٤٢٣) .

استخدام السودان :

وبدلا من الفتيان الصقالبة ، أحاط ابراهيم بن أحمد نفسه بحاشية من الفتيان السودان(٤٢٤) . وكان ابراهيم قد بدأ يهتم بشراء العبيد السودان ، ولا بأس فى أن يكون ذلك تقليدا لما رآه من جند العباس بن أحمد بن طولون ، الذى كان يتكون فى معظمه من الرجالة السودان — رغم استخدامهم لدى الأغالبة منذ أيام ابراهيم الأول . وتقول رواية النويرى ان عدد السودان الذين اشتراهم بلغ مائة ألف رجل ، أحسن تدريبهم وكساهم ، وألزمهم ببابه ، وأنه جعل عليهم قائدين منهم ، هما : ميمون وراشد(٤٢٥) ، فكأن كلا من الرجلين كانت له قيادة خمسين ألفا . وأغلب الظن أن الرواية تبالغ كثيرا فى هذا العدد الذى يمكن انقاصه الى العشر . فهذا ما ترجحه رواية تالية تقول ان عدد فتيسانه من الحرس السودانى كانوا ٥ (خمسة) آلاف أسود(٤٢٦) . وهكذا فاننا نشك فيما يقوله ابن عذارى ، من : أن ابراهيم عاد وعرض له من السودان ما عرض من الفتيان الصقالبة ، فقتلهم أجمعين(٤٢٧) .

---

(٤٢٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٢ — ١٢٣ ، وانظر النويرى ، ج ٢٢ ص ١١٩ آ : حيث تقول الرواية « ان سبب قتلهم هو ما بلغه من أن جماعة من الخدام الصقالبة يريدون قتله ، وقتل أمه فقتلهم عن آخرهم ، وقتل بناته بعد ذلك . والاشارة الى محاولة قتل أمه هنا تعنى ان السيدة والدة الأمير لم تكن تكتفى بحياة الحريم بل كان لها دورها فى الحياة العامة .

(٤٢٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٣ .

(٤٢٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٣ ص ١١٩ آ .

(٤٢٦) انظر فيما بعد ، ص ١٣٦ وهـ ٤٤٠ .

(٤٢٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٣ .

مذبحة عرب بلزمة :

المسمار الأول في نعش الدولة الأغلبية :

أما ما اعتبره الكتاب بمثابة بداية النهاية بالنسبة للدولة الأغلبية ، فهو ما قام به ابراهيم بن أحمد في سنة ٢٨٠ هـ/٨٩٣ م من الايقاع برجال قلعة بلزمة جنوب غرب باغاية ، من أهل الزاب ، الذى كانوا من أبناء العرب والجند الداخلين الى افريقية منذ الفتح ، وكان معظمهم من القيسية ، أى من أقرباء عصبية الاغالبة : بنى تميم(٤٢٨) .

فلقد كانت منطقة الزاب من المناطق غير الخاضعة تماما للأغالبة ، كما رأينا ، بسبب وجودها على طـــرف الصحراء ، بعيدا عن متنـــاول حكومة القيروان ، وبسبب وجود قبائل البربر من الاباضية الذين كانوا يميلون الى امارة تاهرت الرستمية . وفي هذه الظروف لم يكن من الغريب أن تتمتع قبائل العرب في الاقليم ، هى الأخرى ، بنوع من الاستقلال عن أمراء الأغالبة حتى أنهم كانوا يستطيعون اجارة خصوم الأمير ، كما فعل بنو مالك(٤٢٩) . ولقد حاول ابراهيم بن أحمد في سنة ٢٧٨ هـ/٨٩١ م ، وهو التاريخ الذى يقدمه النويرى لقتلهم والذى نرى أنه يعتبر بداية للأحـــداث التي أدت الى المذبحة ، أن يخضعهم لسلطانه فسار اليهم في قواته وناوشهم بالحرب ، ولكنه عندما تيقن من استحالة التغلب عليهم أظهر العفو عنهم ورجع .

والظاهر أن ابراهيم أراد استخدام الخديعة بدلا من الحرب ، فأخـــذ يلاطفهم ويقربهم من نفسه حتى استحاب زعمـــاؤهم الى ما دعاهم اليه من

---

(٤٢٨) أنظر ابن عذارى ج ١ ص ١٢٣ ـ الذى أسندنا متاريخه ، وهو سنة ٢٨٠ هـ/ م ، النويرى ، المخطوط ج ٢٢ ص ١١٩ أ ـ الذى يضع ذلك مع أحداث سنة ٢٧٨ هـ/ م . وقارن القاضي النعمان ، في رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضي ، بيروت ، ص ٨٨ ـ حيث يقول ان حادثة بلزمة كانت قبل أبي عبد الله الشيعي بزمان طويل . ان أبو عبد الله قد وصل الى بلاد كتامة في سنة ٢٨٠ هـ (أى في تاريخ ابن عذارى) فان [illegible]ثة لا تكون قبل أبي عبد الله بزمان طويل ، حتى لو أخذنا بتاريخ النويرى سنة ٢٧٨ هـ ، نرى أنه كان بداية للأحداث ، أى لتمرد بلزمة . وربما كان القاضي النعمان يقصد أن [illegible]دثة كانت قبل ظهور خطر الداعي على الأغالبة ، أى بعد سنة ٢٨٧ هـ ، كما سنرى .

(٤٢٩) افتتاح الدعوة للقاضي النعمان ، ص ٨٨ ـ حيث يجعـــل سبب غضب ابراهيم ابن أحمد على البلزميين ، هو هروب رجل من حبسه والتجائه الى بنى مالك ببلزمة مستجيرا بهم من ابراهيم فأجاروه .

القدوم عليه في رقادة . وقدم وفد أهل بلزمة وأهل الزاب(٤٣٠) ، وكانوا في بداية الأمر حوالى ٧٠٠ (سبعمائة) رجل من أبطالهم(٤٣١) ، زادوا مع مرور الوقت حتى أصبحوا نحوا من ١٠٠٠ (ألف) رجل(٤٣٢) . ولا ندرى أن كان ابراهيم اعتبر هؤلاء كرهائن لديه أم أن ذلك كان نوعا من الاتفاق بينه وبين عرب أهل الزاب . اذ تقول الرواية انه أنزلهم معه في رقادة في دار عظيمة تصفها رواية النويرى بأنها كانت كالفندق ، بينما يقول ابن عذارى انه بناها خصيصا لهم وانها كانت تشتمل على عدد من الدور ترجع كلها الى باب واحد(٤٣٣) .

وعندما شعر ابراهيم أن القوم سكنوا واطمأنوا ، بعدما أجراه عليهم من الرزق الواسع والخلع السنية ، جمع ثقات رجاله لأخذ أرزاقهم ثم أمرهم بمصاحبة ابنه عبد الله (أبي العباس) للقضاء على البلزميين المنهمكين في الاستمتاع بمباهج الحياة ، في فندقهم الكبير . وذات صباح باكر أحاط بالمخدوعين جند ابراهيم من السودان ، ولكنه — رغم المفاجأة — لم يستسلم العرب الأشداء ، بل امتنعوا ودافعوا عن أنفسهم من الصباح الى وقت العصر . وكانت النهاية المحتومة مقتلهم جميعا ، عن آخرهم(٤٣٤) . والظاهر أنه يحق للكتاب القول أن ذلك كان سبب انقطاع دولة بني الأغلب ، اذ كان أهل بلزمة القيسية ، وهم من العرب الخلص البلديين الذين استقروا في افريقية منذ وقت فتحها يذلون ، وهم في موقعهم الاستراتيجي من بلاد الزاب على السفح الشمالى لاوراس ، قبائل كتامة ، ويتخذونهم خولا وعبيدا ، ويفرضون عليهم العشور والصدقات . فكان الذي صنع ابراهيم بن أحمد مما أنقذ كتامة من تلك الذلة ، وأوجد لهم السبيل الى القيام مع الشيعي(٤٣٥) .

---

(٤٣٠) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ أ ، افتتاح الدعوة ، ص ٨٨ .

(٤٣١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٣ .

(٤٣٢) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ أ ، افتتاح الدعوة ، ص ٨٨ .

(٤٣٣) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٣ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ أ ، وقارن افتتاح الدعوة ، ص ٨٨ — حيث يقول انه انزلهم برقادة في مكان ادار عليه سوراً ، وجعل عليه بابا ، يقرب فندق البلزميين .

(٤٣٤) انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٣ ، وقارن افتتاح الدعوة ، ص ٨٨ حيث يقول ان العبيد احاطوا بالبلزميين ليلا .

(٤٣٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٣ . وانظر افتتاح الدعوة (ص ٨٩) — حيث يقول ان شاعرا شيعيا من أهل قفطة ، هو محمد بن رمضان كان في صحابة بني مالك البلزميين ، وكان يتحدث في انقطاع الدولة الأغلبية ، وفي البلزميين . —

انتقاض البلاد على ابراهيم بن أحمد :

والحقيقة أن الكتاب يعطون صورة قاتمة لاحوال افريقية عقب تلك المذبحة الخسيسة ، في سنة ٢٨٠ هـ/٨٩٣ م ، وهو تاريخ ابن عذارى الذى أخذنا به(٤٣٦) ، اذ نرى البلاد وكأنها تحولت الى دولة طوائف ثانية تخضع فيها كل مدينة الى قائد من القواد أو جماعة من الناس ، فمعظم البلاد منتزية على سلطان ابراهيم بن أحمد في تلك السنة ، مما يعني أن مقدمات ذلك ترجع الى سنة ٢٧٨ هـ/٨٩١ م ، وهو التاريخ الذى يحدده النويرى ، مع بداية مسألة أهل بلزمة(٤٣٧) - فكأن الأوضـــاع عادت الى ما كانت عليه أيام زيادة الله الأول(٤٣٨) .

الاضطراب يعم كل المملكة :

فلقد خرجت على ابراهيم كل ، من : تونس ، والجزيرة ، والأربس ، وصقطورة ، وباجة ، وقمودة ، في شهر رجب رجب من سنة ٢٧٨ هـ/اكتوبر ٨٩١ م ، ولم يجتمع أهل هذه الكور بمكان واحد ، بل قدموا عـــلى أنفسهم رجالا من الجند وغيرهم ، كما حدث على عهد زيادة الله الأول ، فأقام كل رئيس منهم بمكانه . وتفسر الرواية هذا الخلاف بجور السلطان ابراهيم الذى أخذ عبيدهم وخيلهم ، مما ترتب عليه : أن صارت افريقية عليه نارا موقدة ، ولم يبق بيده من الأعمال الا الساحل الشرقي الى طرابلس(٤٣٩) . وأمام هذا الموقف الصعب اضطر ابراهيم الى أن يختندق على نفسه في رقادة ، فحفر حولها حفيرا ، ونصب عليه أبواب الحديد ، وجمع حوله ثقاته من الجند ، واستعان بالحرس من فتيانه السودان دون غيرهم ، فجعلهم يحيطون بقـ ره ،

---

* وهجا ابراهيم بشعر قال فيه

جل المصاب لئن كان الذى ذكروا — مما أتتنا به الأنبـــاء والخبر
من ألف أروع كالآساد قـــد قتلوا — لساعة من ســـواد الليل اذ غدروا
حرمت سيفك كأسا أنت شاربهـــا — صبـــا قليـــل وامسر الله ينتظر
فـــدولة القـــائم المهـــدى قد أزفت — أيامهـــا والـــدى [illegible] الأ[illegible]

(٤٣٦) انظر فيما سبق ، ص ١٢٢ هـ ٤٢٨ .

(٤٣٧) انظر فيما سبق ، ص ١٣٥ .

(٤٣٨) انظر فيما ســـبق ، ص ٥٠ وما بعدها (حيث ما سميناه [illegible] « ملوك الطوائف » بافريقية) .

(٤٣٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٣ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ ب .

وكانوا خمسة آلاف أسود(٤٤٠) .

مبدأ : فرق تسد :

العمل على التفرقة بين المخالفين :

والظاهر أن الحال استمر على هذا المنوال طوال سنة ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م التالية ، وابراهيم يستشير ثقاته وأهل المعرفة في الحروب من أهل افريقية المجربين . ومن ذلك ما تقوله رواية الرقيق التي ينقلها النويرى ، من أن ابراهيم بن احمد أحضر شيخا من بنى عامر بن نافع ـ وعامر هذا الذى ينسب اليه الشيخ هو صاحب منصور الطنبذى ، وكانت له صولة وجولة في أعقاب ثورة منصور على أيام زيادة الله الأول(٤٤١) ـ وشاوره في الامر . وكانت نصيحة الشيخ الثمينة ، هي : أن الثوار لو عاجلوا ابراهيم قبل أن تختلف كلمتهم فهنـــاك خــوف من أن يهزموه . أما اذا صبر عليهم الى أن يختلفوا فسيمكنه منهم ما يريد(٤٤٢) . فكان الشيخ العامرى كان يأمر ابراهيم بتطبيق ذلك المبدأ الذى نجحت روما في استخدامه قديما ضــد خصومها ، والذى أصبح أصلا من أصول السياسة الدولية ، وهو مبـــدأ : « فرق تسد » .

وتضيف الرواية أن ابراهيم بن أحمد تنبه الى خطورة نصيحة الشيخ ، فأمر ابنه أبا العباس بحبسه عنده ، لئلا يتكلم بهذا الرأى فيصـــل الى خصومه . وهكذا ، كانت مكافأة العامرى على نصيحته الغالية ، هي : الحبس في قصر ولى العهد الى أن تم لابراهيم الظفر بخصومه(٤٤٣) .

ابراهيم يقضي على الثوار واحد بعد الآخر :

الجزيرة :

وهكذا مع مطلع سنة ٢٨٠ هـ/٨٩٣ م أخذ ابراهيم ينفرد بأهل كــل منطقة ثائرة على حدة ، وبدأ بمنطقة الجزيرة ، جزيرة شريك ، وصطفورة ،

---

(٤٤٠) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٣ ، النويرى ، ج ٢٢ ص ١١٩ ب . وابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٣ ، حيث النص على أن ابراهيم بن أحمد « استركب العبيد السودان واستكثر منهم فبلغوا ثلاثة آلاف » .

(٤٤١) انظر فيما سبق ، ص ٥٥ وما بعدها .

(٤٤٢) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ ب .

(٤٤٣) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ ب .

حيث وجه عسكره الذى انتقم من أهلها فقتل منهم خلقا كثيرا ، وأتى برئيسهم المعروف بابن أبى أحمد أسيرا ، فأمر به ابراهيم فقتل وصلب . وكان هذا النجاح سبب ظفره ، كما يقول النويرى(٤٤٤) .

قمودة :

وعندما تحرك أهل قمودة وجه اليهم ابراهيم فتاه الحبشى ميمون ، على رأس السودان ، فقاتلهم حتى انهزموا ، وقتل جماعة منهم(٤٤٥) .

تونس :

وأخيرا أتى دور تونس التى وجه اليها عسكرا عظيما ، على رأسه فتاه ميمون الخادم وماجه الحسن بن نائل . وانتهى القتال الشديد بانهزام أهل تونس الذين قتلوا قتلا ذريعا ، ثم دخول مدينة تونس نفسها بالسيف فى يوم ٣٠ من ذى الحجة سنة ٢٨٠ هـ/٢ مارس ٨٩٤ م ، حيث انتهب ما فيها من الأموال ، كما استبيحت الذرية(٤٤٦) .

ووصل خبر دخول تونس سريعا الى الأمير ابراهيم على جناح طائر ، ومعه خبر تسيير ١٢٠٠ (الف ومائتى) أسير من أكابر القوم اليه . وهنا بعث ابراهيم الى قائده ميمون يأمره بألا يقطع رأس أى قتيل ، وطلب اليه أن يوجه القتلى محمولين على العجل الى القيروان ، حيث شق موكبهم الجنائزى الحزين الطريق الكبير فى المدينة ، وهو السماط(٤٤٧) ، ليكون ذلك عبرة لمن يعتبر .

تونس مرة اخرى :

والظاهر أن اضطرابات تونس تطلبت حملة ثانية ، فى مطلع سنة ٢٨١ هـ/٨٩٤ م ، قام بها ميمون ضـــد جمـــاعة من بنى تميم ، عصبية

---

(٤٤٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ ب .

(٤٤٥) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٣ — ١٢٤ ، وقارن النويرى ، ج ٢٢ ص ١١٩ ب — حيث يقول ان ابراهيم أرسل الى قمودة صالحا الخادم

(٤٤٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٤ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ ب — ١٢٠ أ — حيث تاريخ دخوله فى شهر رمضان .

(٤٤٧) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٩ ب — ١٢٠ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٤ . وقارن ابن خلدون (ج ٤ ص ٢٠٣) الذى يلخص كل ذلك فى أقل من سطر اذ يقول : « وفى سنة ثمانين (٢٨٠ هـ) كثر الخوارج وفرق العساكر اليهم فاستلحموا » .

الأغالبة ، وغيرهم • ونفذ ميمون الأسود أوامر ابراهيم بحذافيرها فقتل جماعة من بني تميم ، وصلبهم على باب المدينة • وعاد الخادم الظافر من تونس وبصحبته أكابر أهلها يقدمون الطاعة للأمير والولاء • واستقبل ابراهيم فتاه السوداني بما يليق بما حققه من النصر والظفر ، فكساه الخز والوشي والديباج ، وطوقه - على طريقة الخلفاء وأمراء المشرق - بطوق من الذهب حول عنقه ، وحمله على فرس ، وأعاده من غده الى تونس(٤٤٨) ، كنائب له هناك •

اتخاذ مدينة تونس مقرا لابراهيم :

والحقيقة أن ابراهيم بن احمد عندما أعاد ميمونا الى تونس في اليوم التالي لتكريمه على ظفره ، كان قد قرر أن يجعل مدينة تونس واقليمها يشعران بالحكومة الأغلبية ، وبوطأة الأمير عن قرب ، اذ أمر فتاه الحبشي بأن يبني له ، على وجه السرعة ، قصورا لسكناه ، ومساكن لنزول حرمه وحاشيته(٤٤٩) •

والظاهر ان اعداد المساكن الأميرية في مدينة تونس لم يستغرق وقتا طويلا ، مما يرجح أنها اشتريت شراء أو اخذت أخذا ولم تبن ، وذلك انه ابراهيم بن أحمد خرج من القيروان ، في طريقه الى منازله الجديدة يوم ٢٤ من جمادى الآخرة سنة ٢٨١ هـ/٣١ اغسطس ٨٩٤ م ، بأهل بيته وجميع ولده ، ووصل الى تونس التي استوطنها ، في ٦ رجب/١١ سبتمبر(٤٥٠) •

ابراهيم بن أحمد يشدد قبضته على البلاد :

العهد الى ابنائه بولاية الأقاليم :

ولكي يزيد ابراهيم بن أحمد في توطيد الأمن والاستقرار في البلاد ،

---

(٤٤٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩ •

(٤٤٩) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ أ ، وانظر تلخيص ابن خلدون (ج ٤ ص ٢٠٣) •

(٤٥٠) انظر النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ أ - حيث تاريخ الخروج ٢٤ من جمادى الأولى ، ولكنا جعلناه جمادى الثاني حتى يتفق مع تاريخ ابن عذارى (ج ١ ص ١٢٩) الخاص بالاستيطان في تونس ، وهو ٦ رجب • بمعنى أن الرحلة استغرقت نحوا من عشرة أيام ، وهو الأمر المقبول •

قرر في السنة التالية ، وهي سنة ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م ، أن يعهد بولاية اقاليم افريقية الى أبنائه ، حسبما تقول رواية ابن عذارى المقتضبة ، التي لا تمدنا بتفصيلات الموضوع ، مما كان يمكن أن يكون مفيدا للدراسة(٤٥١).

هل أدت النقلة الى تونس أغراضها ؟ :

العودة الى رقادة :

والحقيقة أنه اذا كان ابراهيم بن أحمد قد أراد من وجوده بمدينة تونس أن تشعر المنطقة الدائمة الاضطراب بوطأة حكومته ، وتركن الى الهدوء والسكينة ، فالظاهر أن تونس المتطرفة بعيدا ، على شاطيء البحر وعن قلب البلاد ، لم تكن مهيأة بعد للدور الذي كانت تقوم به قرطاجنة قبل الاسلام . فمركز الثقل في افريقية كان في الدواخل ، على كل حال ، حيث تجمعات القبائل الكبيرة من العرب والبربر . وكانت منطقة القيروان حتى ذلك الوقت خير مركز يمكن السيطرة منه على أطراف البلاد . هذا ، اذا تركنا جانبا جو الصحراء الصحي الجاف ، في القيروان ، والقصر القديم ، ورقادة — الى جانب القصور الملكية الفاخرة ، ومواجل الماء العظيمة ، التي كانت لا تحرم المقيم هناك من منظر البحر الساكن ، ونسيمه الرطب .

وهكذا لم يكن من الغريب ألا يقيم ابراهيم بن أحمد في تونس — التي ستظل عاصمة ثانية للمملكة — الا أقل من سنة ونصف سنة . وذلك أنه قرر العودة الى رقادة في مطلع سنة ٢٨٣ هـ/٨٩٦ م ، فغادر تونس في ١٠ من المحرم/٢٩ فبراير . هذا ولا يمنع ذلك من أن يكون سبب عودة ابراهيم ابن أحمد الى رقادة هو اضطراب الأحوال في اقليم طرابلس — كما سنرى — بسبب تهديد قبائل نفوسة الاباضية . أما ما تقوله رواية النويري من أنه كان يريد محاربة ابن طولون في مصر(٤٥٢) ، فهو أمر بعيد الاحتمال ، وان كان من حق ابراهيم أن يتمنى الثأر لما فعله العباس بن أحمد بن طولون من التهجم على بلاده .

الأحوال تنذر بالانفجار في اقليم طرابلس ، والخلافة تحتج على سياسة ابراهيم العنيفة في تونس :

والمهم هو أن ابراهيم كان قد أخرج ابنه أبا منصور أحمد الى

---

(٤٥١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩ .

(٤٥٢) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ أ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣ .

طرابلس(٤٥٣) ، ليكون واليا عليها حسبما قرره في العام السابق (٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م) ، وذلك بدلا من محمد بن زيادة الله ، ابن عمه ، الذي كان معروفا بالادب والظرف ، والذي كانت له بعض التواليف من الكتب . واذا كان من الممكن أن يكون لين محمد بن زيادة الله في حكم طرابلس من اسباب عزله ، فقد كان هناك سبب اقوى من كل الأسباب لسخط ابراهيم عليه ، وهو انه كان مرشحا لتولي الامارة في ذلك الوقت . فعندما أرسل الخليفة المعتضد الى ابراهيم يعنفه على ظلمه وسوء فعله بأهل تونس ، كان مما بين ما كتبه له : « ان انتهيت عن أخلاقك هذه ، والا فسلم العمل الذي بيدك لابن عمك محمد بن زيادة الله »(٤٥٤) .

قبائل نفوسة الاباضية في اقليم طرابلس تقف ضد ابراهيم :

. هذا ، ومع أن النصوص القيروانية لا تشير الى السبب الذي من أجله وقفت قبائل نفوسة ضد ابراهيم بن أحمد في طرابلس ، فلا بأس من أن تكون أعمال الظلم والقسوة التي لحقت قبائل الريفية من اميرهم العنيف ، ومنهم قبائل الاباضية ، مثل : هوارة وأهل الزاب ، هي التي جعلت أباضية نفوسة وطرابلس يهبون محتسبين ضد الأمير الأغلبي ، تماما ، كما فعلوا مع الطولوني عندما تجرا سوداتة على كشف الستور وهتك الحرم في طرابلس(٤٥٥) .

هذا ، واذا كانت الرواية الاباضية تخطىء عندما تقول أن الخليفة العباسي هو الذي سير ابراهيم بن أحمد من المشرق للقضاء على امامة الرستميين ، في تاهرت(٤٥٦) ، فلا بأس أن يكون وقوف ابراهيم ضد الاباضية بأوامر من الخلافة . ولا بأس أيضا في أن يكون ابراهيم قد سار لحرب نفوسة ترضية للخليفة المعتضد الذي كان يهدده بالعزل بالأمس القريب .

ابراهيم يسير بنفسه لقتال نفوسة :

وقعة مانو(٤٥٧) :

وعلى كل حال ، فقد خرج ابراهيم بن أحمد من رقادة ، التي لم يمكث

---

(٤٥٣) النويري ، ج ١ ص ١٢٩ .

(٤٥٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩ ، وقارن الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨٩ ، ٩٠ .

(٤٥٥) انظر فيما سبق ، عن حملة العباس بن أحمد بن طولون ، ص ١٢٤ وص ٢٩٢ .

(٤٥٦) انظر أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٣ ـ أ ، وفيما بعد في تاريخ الرستميين ص ٢٨٣ .

(٤٥٧) عن الوقعة انظر في تاريخ الرستميين ، فيما بعد ، ص ٢٨٧ .

فيها الا شهرا وبعض شهر ، في ٢٤ من صفر سنة ٢٨٣ هـ/١٠ أبريل ٨٩٦ م ، بعساكره متتبعا خطى ابنه أحمد الذى كان قد سبقه الى هناك من تونس . وكان ابراهيم فى منتصف الطريق بين قابس وطرابلس ، فى موضع يعرف عند كتاب الاباضية بـ « مانو » عندما اعترضته قبائل نفوسة فى منتصف ربيع الأول/٣ مايه ، فى جمع عظيم يقدر بحوالى ٢٠ (عشرين) ألف رجل ، لا فارس معهم ، ومعهم الجواز(٤٥٨) .

قتال عظيم ، وانتقام مروع :

ولم يكن أميرنا ــ الذى عرفناه حاد المزاج ، سريع الغضب ، لا يعرف الحدود عندما يطلق العنان لثأره وانتقامه ــ ممن يتردد فى مواجهة مثل هذا التحدى . واذا عرفنا ان اباضية نفوسة الخوارج كانوا يقومون ، فى مثل قيامهم هذا ، احتسابا لوجه الله ، من أجل تغيير المنكر واحقاق الحق ، ادركنا نوع القتال العظيم الذى وقع بين الطرفين . ولقد بدأت المعركة الشديدة بتفوق مؤقت للخوارج ، الذين عرفوا بشدة اندفاعهم عند بدء القتال ، حتى قتل ميمون الخادم ــ حامل الطوق الذهبى ــ وجماعة ممن معه من فتيان السودان . ثم انهزمت نفوسة ، وتمادى انهزامهم الى طرابلس ، وابراهيم يتبعهم بالقتل الذريع ، حتى شاطىء البحر الذى احمر ماؤه من دمائهم ، كما تقول رواية النويرى(٤٥٩) .

وتنسب هذه الرواية الى ابراهيم بن أحمد ، وهو الخبير بمثل هذه المذابح ، أنه قال : « لو كان هذا القتل لله لكان اسرافا » . ولكنه عندما علم من بعض رجاله أن من مذهبهم تكفير علي بن أبي طالب ، ولما تأكد له من مشايخهم صدق رأيهم هذا ، بل انهم يكفرون من لم يكفره ، انتقم ممن وقعوا فى الأسر منهم انتقاما رهيبا . فتقول الرواية : انه كان يقد أضلاع الرجل منهم من تحت منكبيه ، ويطعنه بالحربة فيصيب قلبه ، وأنه فعل ذلك بيديه بـ ٥٠٠ (خمسمائة) رجل دفعة واحدة(٤٦٠) .

وتقول رواية ابن عذارى التى تجعل تلك الحادثة وقعة ثانية ، فى نفوسة ، فى السنة التالية (٢٨٤ هـ/٨٩٧ م) : ان ابراهيم أمر أن تنضم

---

(٤٥٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ آ .

(٤٥٩) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ ، وانظر تفاصيل المعركة من وجهة النظر المغربية الاباضية فيما بعد ، ص ٢٩٠ : حيث يقال ان الاباضية فقدوا ١٢ (اثنى عشر) الف قتيل ، منهم ٤٠٠ (اربعمائة) عالم فقيه ، وعن طوق ميمون الذهبى ، انظر فيما سبق ، ص ١٣٩ .

(٤٦٠) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ ب .

قلوب هؤلاء الرجال في حبال ، وأن تنصب على باب تونس(٤٦١) .

قتل والي طرابلس : محمد بن زيادة الله ، واشاعة الرعب في الاقليم :

ومن محرزة نفوسة سار ابراهيم الى طرابلس حيث ارتفع بابن عمه الأديب الظريف ، محمد بن زيادة الله ، صاحب التواليف ، الذي سبق أن رشحه الخليفة ليلي عرش افريقية بدلا منه ؛ وكان ابراهيم كثير الحسد له ، من حسده ، على علمه وأدبه - كما تقول الرواية - فقتله وصلبه(٤٦٢) .

والظاهر أن ابراهيم بن أحمد أراد أن يلقن أعداءه في منطقة طرابلس درسا لا ينسوه ، فتقول رواية ابن عذارى انه نهض من طرابلس الى تاورغا ، شرقيها ، حيث قتل بها خمسة عشر رجلا ، وأمر بطبخ رؤسهم ، وهو يظهر أنه يريد أكلها ، هو ومن معه من رجاله(٤٦٣) - وهي القصة الأسطورية التي نجد لها شبيها في فتح الأندلس على يدي موسى بن نصير ، والتي يقصد بها بث الرعب في قلوب الخصوم .

اضطراب العسكر :

ولقد أتى هذا العمل الشاذ بنتيجة عكسية ، كما تقول الرواية ، اذ ارتاع أهل العسكر منه ، وقالوا : قد خولط ، فانفض الناس عنه . هذا ، ولو أن الأقرب الى المنطق هو ما تقوله رواية النويري ، من أن كثيرا من اصحابه ضجروا من مسيره الطويلة حتى تاورغا ، ففروا عائدين إلى إفريقية ، ولم يبق معه الا أقل من النصف منهم ، وأنه لما رأى ذلك عاد الى رقادة(٤٦٤) . وتضيف رواية ابن عذارى أن ابراهيم بن أحمد فرض عقوبة مالية على كل من

---

(٤٦١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٠ . ولما كانت الرواية لا تنص على أن المقصود بباب تونس هو باب القيروان ، المعروف بهذا الاسم ، مما قد يعني باب تونس المدينة ، حيث كان يعيش ابراهيم منذ فترة وجيزة ، فان عدم التخصيص هذا قد يوحي بوجود نوع من الربط بين قيام النفوسيين ضد ابراهيم بن أحمد في طرابلس ، وبين ما قام به في تونس من أعمال العنف والقسوة التي بلغت حد النهب واستباحة الأعراض .

(٤٦٢) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ ب ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩ ، والحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨٠ - حيث الاشارة الى رواية تقول ان الخليفة كان يقارن بين سوء أخلاق ابراهيم وحسن أخلاق عامله على طرابلس محمد بن زيادة الله ، ثم ذكر رواية الرقيق التي تنص على أن الخليفة رشح محمد بن زيادة الله للامارة بدلا من ابراهيم .

(٤٦٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩ .

(٤٦٤) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ ب .

انقض عنه ، مقدارها ثلاثين دينارا ، وأن هـــذه الغرامة سميت « غـــرم الهاربين »(٤٦٥) .

نوع من الرقابة الشعبية :

شيخ صالح يأمر ابراهيم بالمعروف :

ولا نعرف ان كانت تلك الغرامة التى فرضها ابراهيم على الفارين من عسكره ، أم الفظائع القصصية التى أنزلها بأعدائه في طرابلس ، هى التى دفعت الشيخ الصالح أبا الأحوص المكفوف الى أن يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ، في كتاب خطى أملاه على بعض أهل سوسة ، بلده ، وبعثه اليه . وكان في بعض فقرات الكتاب : « يا فاسق ! يا جائر ! يا خائن ! قد حدت عن شرائع الاسلام ، وعن قريب تعاين مقعدك من جهنم ، وسترد فتعلم » . وتنص الرواية على أن ابراهيم عذر الشيخ المكفوف : لدينه وفضله ، ولكنه هدده بقتل عدد من أهل سوسة ان لم يبعث اليه بمن كتب له الكتاب . وكان رد الشيخ الصالح هو دعوة ابراهيم من جديد الى التوبة ، والرجـــوع عن الجور . والمهم في الرواية بعد ذلك : ان الله حفظ أبا الأحوص من انتقام ابراهيم ، فمات الرجل الصـــالح فى نفس السنة ، وهى سنة ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م(٤٦٦) .

هل حققت دعوة الشيخ الصالح غرضها ؟ :

ومع أن النويرى فيما ينقله عن الرقيق ينهى أعمال ابراهيم بن أحمد بأحداث طرابلس وتونسة ، فى سنة ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م ، ليختم بعد ذلك بده باعتزاله الملك وزهده ، بعد ثلاث ســـنوات ، أي فى سنة ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م ، فان ابن عذاري يشير الى عدد من الأحداث التى وقعت فى افريقية لال تلك الفترة . مثل : سخطه من جديد ، فى سنة ٢٨٦ هـ/٨٩٩ م ، على اعة من فتيانه وقتلهم(٤٦٧) ، ووقعة اوقعها احد أبنائه ببعض القبـــائل بنى بلطيط ببسكرة ، واقراره للامور هناك(٤٦٨) ، ثم حملة أخرى قام

---

(٤٦٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٠ .

(٤٦٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٠ .

(٤٦٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ .

(٤٦٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ ـ حيث تقول الرواية انه بطل الوقعة وهو ابنــه أبو العباس الذى كان فى صقلية وتتنذ ، والغالب الظن أنه أبو عبد الله .

بقا ابنه أبو عبد الله فى الزاب ، فى سنة ٢٨٨ هـ/٩٠١ م(٤٦٩) . وذلك قبل ان تاتى توبة ابراهيم فى سنة ٢٨٩ هـ/٩٠٢ م .

تحذير جديد من الخلافة : مقدمة للاعتزال :

ورواية النويرى تبدأ باعتزال ابراهيم وزهده متقدما سنتين على موعده ، وذلك بالبدء بالمقدمات التى تتعلق باستمرار تدخل الخلافة فى شئون افريقية ، نتيجة لسوء سياسة ابراهيم مع رعيته ، وهو الأمر الذى يبدأ بتهديد المعتضد لابراهيم ، كما رأينا ، بالعزل فى سنة ٢٨٣ هـ/٨٩٦(٤٧٠) .

ففى سنة ٢٨٧ هـ/٩٠٠ م قدم من بغداد على الأمير ابراهيم رسول الخليفة المعتضد بالله . ومن الواضح أن ابراهيم بن أحمد كان مقيما فى مدينة تونس ، وذلك أنه خرج لاستقبال رسول الخليفة فى السبخة قرب تونس ، حيث ضرب له سرادق (فازة) أسود اللون ، أى بشعار الخلافة .

وخلا رسول الخليفة بابراهيم ، وكان بينهما محاورة شفهيه ، اذ لم يات المبعوث الخلافى بكتاب محرر ، وذلك أن الخليفة كان قد ارسل مبعوثه بسرعة وعلى عضب ، بعد أن أتت شكاوى أهل تونس تترى على ديوان الخلافة فى بغداد . وكان من بين شكاوى أهل تونس ما قرروه من أن أميرهم ابراهيم عندما سبى بناتهم ونساءهم ، أهدى منهن الى الخليفة نفسه ، وهو الأمر الذى أثار سخط المعتضد على واليه الجرىء الذى لا يكتفى بغمس يديه فى المنكر ، بل يورط الخليفة بغمس يديه هو الآخر فيه .

وتنص الرواية على أن الخليفة أمر رسوله بأن يطلب من ابراهيم بن أحمد اعتزال الحكم ، وتولية ابنه أبى العباس على افريقية ، ثم المسير مع الرسول الى بغداد للقاء الخليفة(٤٧١) .

ورغم ما تقوله رواية النويرى من أن ابراهيم كره المسير الى بغداد بصحبة الرسول ، وأنه قرر الاعتزال ، وأظهر الزهد ، وأنه ولى ابنه

---

(٤٦٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ .

(٤٧٠) انظر فيما سبق ، ص ١٤٦ وهـ ٤٥٤ .

(٤٧١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢١ أ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

أبا العباس ـ وكل ذلك كرد فعل مباشر للقاء مبعوث الخلافة(٤٧٢) ـ فالمعروف أن ذلك تطلب بعض الوقت ، ربما بسبب وجود أبي العباس في صقلية .
ومع أن ابن عذارى يضع توبة ابراهيم بن أحمد في سنة ٢٨٩ هـ/ ٩٠٢ م ، وهي نفس السنة التي بدأت بخروجه الى صقلية ، فالاقرب الى الواقع أن تكون توبة ابراهيم بن أحمد في أواخر سنة ٢٨٨ هـ/٩٠٢ م ، بعد أن تأمل في موقف مشايخ أهل افريقية منه ، مثل : أبي الأحوص الصالح الذي وعظه بالخشن من الكلام ، وخشيته من موقف الخلافة العدائي منه . وأخيراً ربما كان الدافع الحقيقي الى توبته واستقامته ، هو نجاح دعوة أبي عبد الله الشيعي في بلاد كتامة .

نجاح أبي عبد الله الشيعي واعتزال ابراهيم بن أحمد :

واذا كان من المقبول أن يكون من أسباب توبة ابراهيم عن أعمال الظلم ، هو النجاح الذي حققته الدعوة الفاطمية في كتامة ، على يدي أبي عبد الله الشيعي ، فانه ليس من المقبول أن يكون ذلك هو السبب في اعتزاله الحكم ، كما تكرر الرواية الفاطمية المتقبية في أكثر من موضع(٤٧٣) .

والذي لا شك فيه أن أميرنا ، الذي عرف بحدة المزاج ، ما كان يرضى بأن يكون اعتزاله نوعاً من الانسحاب من ميدان القتال ، وتركه للداعيا الفاطمي ، الذي كان بعد ، في بداية أمره . وهذا ما تعترف به الروايا الفاطمية ، ضمنا ، عندما تقول انه لم يرغب في قتال الداعي لأنه ـ هو نفسه ـ كان يتشيع .

واذا كان أبو عبد الله الداعي قد دخل الى بلاد كتامة سنة ٢٨٠ هـ ٨٩٣ م ، على عهد ابراهيم بن أحمد ، مما جعل ابن عذارى يتخذ هذه السنة بداية لقيام الدولة العبيدية الشيعية(٤٧٤) . وان أمره كان قد عظم فعلا ـ في اقليمه ـ وقتما اعتزل ابراهيم سنة ٢٨٩ هـ/٩٠٢ م ، فقد كان

---

(٤٧٢) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢١ أ .

(٤٧٣) انظر افتتاح الدعوة للقاضي النعمان ص ٨١ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٢١ . والحقيقة أن النعمان يقول ان ابراهيم بن أحمد كان لا يرغب في قتال أبي عبد الله الداعي لعلمه من بيانه صاحب الدولة التي تزيل الاغالبة ، بل ويضيف الى ذلك أن ابراهيم كان يتشيع و من أهل بيته ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٤٠ ـ ٢٠٥ . وانظر في الدعوة الفاطميا فيما بعد ، ص ٥٣٦ وهـ ١١ .

(٤٧٤) البيان لابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٤ .

قوات ابراهيم في ميله وسعيه تستطيع أن ترده ، ومن ثمة عن كتامة بعيدا عن أسوار كل من المدينتين(٤٧٥) .

والحقيقة أنه طالما كان ابراهيم في الحكم ، لم تتخذ الدعوة الفاطمية أبعادا خطيرة . أضف الى ذلك أن توبة ابراهيم واعتزاله لم يكن تخليا عن مسئولياته كحاكم ، وخاصة كمحارب : فهو قد ترك قتال الثوار في افريقية ليقاتل « الكفار » في أوروبا . ولكن ذلك نرى أن تحويل ابراهيم للقوات الاغلبية الى صقلية ، في الوقت الذي كان يعظم أمر أبي عبد الله الشيعي ، كما ينص على ذلك الكتاب(٤٧٦) ، كان من الاسباب التي خففت الوطأة عن الداعي ، وبالتالي كانت من أسباب المساعدة على صموده ، ثم نجاحه . وكل ذلك عن غير قصد من ابراهيم بن أحمد ، الذي فضل أن يهب نفسه للجهاد .

توبة ابراهيم :

وهكذا يدل استقراء الأحداث على أن جانب الخير عند ابراهيم بن أحمد بدأ يتغلب على جانب الشر ، منذ سنة ٢٨٨ هـ/٩٠١ م ، أي بعد ذلك اللقاء العاصف مع رسول خليفة بغداد ـ في السنة السابقة .

فلقد أظهر ابراهيم التوبة ، ورفض الملك ، ولبس الخشن من الثياب(٤٧٧) . وأراد أن يرضي العامة ويستميل قلوب الخاصة بفعله(٤٧٨) ، فأمر باخراج من في سجونه(٤٧٩) ، ورد المظالم ، وأسقط القبالات (المكوس) ، وأخذ العشر طعاما ـ بدلا من الضريبة المالية الثابتة ، التي اعتبرناها اصلاحا ـ وترك لأهل الضياع خراج سنة ، وسماها سنة العدل(٤٨٠) ، وبينما كان ينتظر عودة ابنه أبي العباس ، وكان قد بعث اليه بالرجوع من صقلية ليسلمه الملك(٤٨١) ، تطرف ابراهيم بن أحمد في عمل

---

(٤٧٥) انظر فيما بعد ، الفصل الخاص بالدعوة الفاطمية ، ص ٥٦٠ وما بعدها .

(٤٧٦) ابن الأثير ، سنة ٢٨٩ هـ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٥ (حيث النص على أن ابراهيم كان « قد أسر لابنه أبي العباس في شأن الشيعي ونهاه عن محاربته ولئن يلحق به الى صقلية ان ظهر عليه) .

(٤٧٧) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢١ أ .

(٤٧٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ .

(٤٧٩) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢١ أ .

(٤٨٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ .

(٤٨١) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢١ أ .

البر والورع ، فاعتق مماليكه ، وأعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلهـا أموالا عظيمة ليفرقوها في الضعفاء والمساكين • ويعلق صاحب الرواية ـ وهـو مصدر الرقيق في أغلب الظن ـ على ذلك فيقول : ان تلك الأموال « استؤكلت واعطيت من لا يستحقها ، وأنفقت في اللذات ، وصرفت في الشهوات »(٤٨٢) •

الاعتزال والعهد لأبي العباس :

وعندما وصل أبو العباس ، ولي العهد ، من صقلية ، في أواخر سنة ٢٨٨ هـ/٩٠١ م(٤٨٣) ، سلمه أبوه الملك في ٢٢ ربيع الأول سنة ٢٨٩ هـ/ ٩ مارس ٩٠٢ م(٤٨٤) ، وبدأ هو في الاستعداد للخروج الى صقلية مجاهدا •

وفاة ابراهيم بن أحمد في ايطاليا :

وتقول الرواية ان ابراهيم بن أحمد فكر في أول الأمر في الحج عن طريق مصر ، ولكنه خشي أن تثور الحرب بينه وبين بني طولون ، فتسفك الدماء بينهما • وبناء على ذلك فانه قرر الجهاد في صقلية ، مما يعني أن الجهاد ـ في نظر رجال ذلك العصر ـ كان لا يقل عن الحج ، ان لم يزد عليه • وهكذا فقد أخذ طريقه من رقادة الى سوسة ، أرض الرباط وميناء صقلية العسكري • وفي جنوب ايطاليا يتوفى الأمير ابراهيم بن أحمد يوم ١٦ من ذي القعدة سنة ٢٨٩ هـ/٢٣ أكتوبر ، ٩٠٢ ، بعد أن قام بأعمال مجيدة لم يكن أقلها استيلاؤه على مدينة طبرمين في صقلية(٤٨٥) •

شخصية ابراهيم وتقويم عهده :

هكذا توفي ابراهيم بن أحمد وله من العمر حوالى ٥٤ سنة ، بعد حكم دام أكثر من ٢٨ (ثمانية وعشرين) سنة(٤٨٦) •

---

(٤٨٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٢ •

(٤٨٣) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٢ ، الذي يضعها في شهر ربيـع الأول ، وذلك الأحداث التي يذكرها تحت سنة ٢٨٧ هـ ، وهي التي حدث فيها اللقاء بين رسول الخليفة راهيم •

(٤٨٤) انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٤ ـ حيث النص على ان ابراهيم بن أحمد كتب نابا ولاه فيه عهده ، وصير اليه خالصه ووزراءه •

(٤٨٥) انظر فيما بعد في فتوح صقلية ، ص ٢٨١ وما بعدها •

(٤٨٦) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٣ ب ـ مولده يوم الأضحى سنة ٢٣٥ هـ/ ٢٥ يولية ٨٥٠ م ، فكان عمره ٥٢ سنة • و ١١ شهرا وأياما • أما ولايته فكانت ٢٨ سنة =

ما بين الجائر الظالم والمصلح العادل :

ولقد حفل ملكه الطويل ، بالجهاد في صقلية ، والفتن الداخلية ، وأعمال العمران العظيمة ، والاصلاحات الادارية والمالية الرشيدة . كما ملأه ، على المستوى الشخصي ، بأعمال الخير والشر على السواء — حتى اختلفت الآراء في تقييمه ، كما يحدث بالنسبة لكبار الرجال . فابراهيم ، في نظر الفقهاء والصالحين : جائر ظالم . وهو عند ابن الأثير : خير مصلح عادل ، وعند الرقيق — الذي ينقله ابن عذاري والنويري — . وسط بين الخير والشر ، له شطحاته المحمودة والمرذولة في كلا الجانبين .

والحقيقة انه لم يكن من الغريب أن تنتقل أحداث الحكم الذي طال الى أكثر من ٢٨ سنة ، وهو الأمر غير المعتاد بين أمراء الأغالبة ، كاهل ابراهيم ابن أحمد ، حيا وميتا . ولكن الذي لا ينبغي أن يغيب عن ذهن الدارسين ، هو ما يجب من التفرقة بين أمور الحكم العامة ، وشئون الأمير الخاصة . ولو أن الأمور العامة كانت تختلط بشئون الامير الخاصة في ذلك النوع من الحكم الذي كان سائدا في تلك العصور ، والذي يصنف حاليا في طبقة « الحكم الفردي » ، كما يقال . والذي نراه : هو أن ابن الأثير نظر الى عهد ابراهيم ابن أحمد من وجهة النظر العامة .

وابراهيم من هذا الوجه : مجسد ، مجتهد من يوم ولايته التي بدأها بحرب أهل القصر القديم ، الى يوم وفاته بميدان الجهاد في صقلية وايطاليا . والرجل ، وان عرف بحدة المزاج ، فقد كان راجح العقل تواقا الى القيام بجليل الأعمال ، في ميادين السياسة والعمران .

في أعماله العمرانية : تامين الطرق وبناء المحارس :

وهكذا ، فاذا كانت رواية الرقيق تشهد له خلال السنوات السبع الأولى من عهده(٤٨٧) فهي شهادة جيدة لابراهيم ، ترجح شهادة ابن الأثير الذي يضيف الى عدله وحزمه في أموره ، وعقله ، وحبه للخير والاحسان ،

= و٦ أشهر و١٢ يوما » وقارن ابن عذاري ج ١ ص ١٣٢ ، الذي يجعل مولده يوم الاثنين من سنة ٢٣٧ هـ/٨٤٨ م فتكون وفاته وعمره ٥٢ سنة » .

(٤٨٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٢ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٣ ب .
وانظر فيما سبق ، ص ١١٥ .

وحسن سيرته ، وفطنته ، أنه قتل أهل البغي والفساد ، « وكان القرا والتجار يسيرون في الطرق آمنين »(٤٨٨) ٠

واذا كانت رواية ابن الأثير تبالغ عنـــدما تقول انه : « بني الحصـ والمحارس على سواحل البحر ، حتى كان يوقد النار من سبتة فيصل الخبر الاسكندرية في الليلة الواحدة » ، مما يعني أن نفوذ ابراهيم السياسي ممتدا بين طنجة والاسكندرية ، فهذا الامر غير صحيح ٠ واذا كان ذلك يـ أن التضامن بين المسالح والرباطات البحرية على طول سواحل البحـ المتوسط من الاسكندرية الى جبل طارق كان أمرا واقعا ، فهو الأمر المحتم أما ما هو حقيقي ، فهو ما تؤكده الرواية من أن العرب كانوا يستخدمون في ذلك الوقت المبكر من القرن الـ ٣ هـ/٩ م ، الاشـــارات الضوئية للتخاطب بين المحارس البحرية ليلا ، وهي الطريقة المعروفة حاليا بـ « اشارات مورس » ، التي تستخدمها السفن في التخاطب فيما بينها ـ اليوم ٠

ما بين الأمور العامة وشئون الأمير الخاصة :

أما ما تقوله رواية الرقيق من أن التغير طرأ على أحوال ابراهيم بن أ منذ تعرضت بلاده الى غارة العباس بن أحمد بن طولون ، وأنه لما كفي مؤ حرص على جمع الأموال ثم اشتد أمره ، فأخذ في قتل أصحابه وكفاته وحجا ثم قتل ابنه وبناته ، وأتى بأمور لم يأت غيره بمثلها(٤٨٩) ، فان هـ الرواية تخلط بين الامور العامة وشئون الامير الخاصة ٠

---

(٤٨٨) أنظر ابن الأثير سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ٢٨٦ ـ حيث تستثير فطنة الأمير ابرا ابن أحمد العظيمة في اظهار خفايا « المعلات » ٠ وذلك في قصة امراة عجوز كانت تتردد قصر الامير وتعرف عند أهل القصر بالصلاح ٠ وكيف أنها استجابت لنزوة طرأت للوزير عـ اشتهى زوجة تاجر من أهل القيروان ، فاحتالت العجوز حتى وصلت الى بيت الزوجة العفيفا وكافات احسانها بالاستيلاء على حليها ٠ وتروى القصة كيف استجاب الأمير لشكوى التاجر وكشف حيلة المرأة ، وانتقم منها بقتلها ، ثم كيف انه دبر التخلص من الوزير بعد ذلك والحقيقة أن اهتمام ابن الأثير بتلك القصة ، وان كان يخرج عن نطاق التاريخ العام ، ا يبين نوعا من التاريخ الخاص بالأمير ابراهيم ، ومما يمكن أن يلقي بالأضواء على حقيقة ما يحاك حول الرجل من المؤامرات ، والتي وان ظهرت صغيرة فانها تعطي ردود فعله العنيفة ا من الشرقية ٠

(٤٨٩) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٣ ب ٠

فحرص ابراهيم بن أحمد على جمع الأموال ليس من الأمور التى تؤخذ عليه ، وان جرت العادة بأن يضج الناس ، من العامة والخاصة ، من جباية الضرائب التى سماها الفقهاء فى كثير من الأحيان بـ « المغارم » وبـ « المظالم » .

مستبد مصلح : اثر الاصلاحات المالية :

والحقيقة أن الدولة الأغلبية كانت منذ نشأتها فى حاجة الى الأموال للانفاق على الجيوش ، وبناء المدن الملكية ، والمساجد الكبرى ، والمنشآت ذات المنافع العامة ، من : المسالح والمحارس والربط ، وصهاريج الماء والقناطر ، وغيرها . ومن أجل تنظيم ميزانية متوازنة لا تخضع لتقلبات الطقس والجو ، أو لمزاج زعماء القبائل ، كانت محاولات الأغالبة فى تقرير ضرائب ثابتة للخراج ، تدفع نقدا ولا تؤخذ عينا من ناتج المحصول حسب النسبة المئوية المقررة ، التى كانت تزيد وتقل تبعا لزيادة المحصول ونقصانه . وهذا الأمر كان يعتبر من جانب الفقهاء خروجا على الشرع ، وكان عامة الناس يستجيبون ، بطبيعة الحال ، الى مقالة الفقهاء ، ويعتبرون ذلك نوعا من الجور والظلم .

وفى هذا الاطار التنظيمى ، قام الأمير ابراهيم باصلاحاته النقدية التى استهدفت اقرار النظام العشرى — وهو النظام السائد الآن — ولا اعتبار لما ترتب على ذلك من الأصداء فى أسواق القيروان ، وبين أهل العاصمة . ولقد تبين تفهم ابراهيم بن أحمد لأحوال العامة فى رده اللين على مقاومة أهل القيروان لذلك الاصلاح النقدى حتى مر فى هدوء(٤٩٠) . وتتضح حسن سياسة ابراهيم ازاء الشعب وعامة الرعية مما يقال من أنه كان يعرف أن الرعية هم مادة الملك ، فان أباح ظلمهم لم يصل اليه نفعهم ، ولحقه الضرر(٤٩١) .

عنف فى سبيل هيبة الدولة :

أما عن عنفه مع المخالفين لأوامره ، من : كبار رجال الدولة ، ومن الخدم وأهل الحاشية ، أو وقوفه بصلابة وشدة ضد الخارجين على دولته ، من

---

(٤٩٠) انظر فيما سبق ، ص ١٢٩ وهـ ٤٠٩ .

(٤٩١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٢٣ أ .

القواد أو زعماء القبائل ، فلا يفسره الا حرصه على أن تكون كلمته ، أي كلمة الدولة ، هي الأولى والأخيرة . فلقد علمته التجارب أن ذوى الاقدار والأموال اذا احسوا من أنفسهم قوة ، ولم يقمعوا ، لم يؤمن شرهم وبطرهم . وانه اذا كف الملك عنهم وامنوا ، دعاهم ذلك الى منازعته واعمال الحيلة عليه(٤٩٢) .

وفي اطار هذا المبدأ السياسي ، الذي يعني أن سلامة الدولة ـ أي سلامة الأمير ـ فوق كل اعتبار ، يمكن أن نفسر ذلك الجموح الذي ظهر منه في قمع الثورات والقضاء على المتسببين فيها دون رحمة أو شفقة ، وكذلك تلك الشطحات التي ظهرت منه في حق ابنه أبي الأغلب ، أو اخوته الثمانية الذين لم يتردد على سفك دمائهم ، وان كان بشيء من الغلظة التي لا تتفق مع ما لرابطة القرابة والدم من الحرمة(٤٩٣) . ومثل هذا يمكن أن يقال عن بعض ما أوقعه بفتيانه وحرمه وقرابته ، من القتل والتعذيب والتنكيل .

أسرار القصور ، وأثرها على نفسية الأمير :

هذا عن بعض ما كان يحدث تحت شعار أمن الدولة وسلامة هيبتها . أما عن البعض الآخر ، فان استقراء النصوص يمكن أن يدل على مسائل حساسة مما كان يمس أعماق خصوصيات ما كان يجري بين فتيان البلاط ، وفي اجنحة الحريم في قصور الأمير .

والدة ابراهيم : شخصية عارمة تقبع في ظل الأمير :

فكثير من قصص العنف التي كان بطلها ابراهيم بن أحمد ، كانت في الحقيقة من قصص الحريم ، وكان بطلها الحقيقي شخصية أخرى ، كان لها مقامها الكبير في قلب الأمير ، وهي : « السيدة الوالدة » أمه .

الوالدة تعمل في التجارة ، والأمير ينصف المتعاملين معها :

ويظهر من النصوص أن السيدة والدة ابراهيم كانت ذات شخصية عارمة ، وان نفوذها لم يكن يحده نطاق الحريم ، بل كان يتعداه الى خارج حوائط القصر ورقادة ، في : معاملات تجارية مع أصحاب القوافل وكبار

---

(٤٩٢) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٣ أ ـ ١٢٣ ب .

(٤٩٣) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٤ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٢ .

التجار . هذا ما يتضح من قصة الرجلين القيروانيين اللذين أتيا ابراهيم ابن أحمد ، وهو بمقصورة المسجد الجامع في القيروان ينظر الى المظالم . فعندما أدناهما من نفسه ، وسألهما عن حالهما ، قالا له : كنا شريكين « للسيدة » — يعنيان أمه — في جمال وغيرها ، فاحتبست لنا ٦٠٠ (ستمائة) دينار . ولم يظهر الأمير الحاد المزاج — عادة — أية علامة من علامات الاستغراب ، بل ارسل خادما يسأل والدته عن الأمر . ورجع الخادم يخبره على لسانها : نعم ان الامر ، كما ذكرا : « الا أن بيني وبينهما حسابا ، وانما احتبست هذا المال حتى أحاسبهما : فان بقي عليهما شيء ، والا دفعت مالهما اليهما » .

ولا ندري ان كان الأمير قد أعجب بوالدته التي تحسن ادارة الأموال ، وتدقق في حساب شركائها من التجار أم لا ! وذلك أن رد فعله المباشر كان قسما ، وجهه الى والدته الصعبة في معاملاتها ، ينص فيه على أنها ان لم توجه بالمال الى أصحابه ، فانه سيجعلها تقف في التو واللحظة مع خصميها بين يدي صاحب المظالم : عيسى بن مسكين . ولكنه بعد أن وجهت « الوالدة » بالمال اليه ، فدفعه الى الرجلين ، لم ينس أن يقول لهما : « أما أنا فقد أنصفتكما فيما ادعيتما ، فاذهبا ، واقطعا حسابها ، والا فانتما أعلم »(٤٩٤) .

وأغلب الظن أن الرجلين عادا الى السيدة الوالدة يطلبان منها السماح فيما فعلاه من شكواها الى ابنها الأمير ، وحصولهما على مالهما ، مع التعهد بمراجعة الحساب في الوقت الذي تشاؤه السيدة .

دعوة المتظلمين الى مجلس الأمير :

وفي اطار هذه الصورة من العدل والانصاف ، كان ابراهيم يجعل ولده ورجاله يأمرون عبيدهم ورجالهم بالطواف في يوم الخميس في الأزقة والفنادق يسألون ان كان هناك شاك أو متظلم ، من : عبد أو وكيل . « فاذا وجدوا أحدا أتوا به الى دار ولد الأمير أو قرابته فينصفه »(٤٩٥) .

مآسي الحريم ومسئولية الوالدة وغيرها من النساء :

وان من كانت هذه سيرته في العدل في الرعية ، وهي السيرة التي

---

(٤٩٤) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٢ أ .

(٤٩٥) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٢ أ — ١٢٣ ب .

ينوه بها ابن الأثير كثيرا ، كان من الغريب أن يقتل بناته الستة عشر جارية : اللائى ربتهن « السيدة » أمه صفية منه ، خشية ، عليهن حتى بلغن مبلغ الشباب(٤٩٦) ، ثم الوصيفتين المغنيتين الموسيقيتين اللتين قدمتهما له والدته ـ عندما دخل عليها في بعض الايام ، فأحضرت له الطعام فأكل وشرب وانبسط لتأتنس بهما(٤٩٧) ٠

فمثل قصص الحريم هذه ، مما شاركت فيه الوالدة ، قد لا تستطيع الحكم فيها لابراهيم بن أحمد أو عليه ، طالما خفيت علينا أسرار تلك القصور العجيبة ، التي كان يتردد عليها العجائز من النساء اللاتي يتظاهرن بالفضيلة والصلاح ، ولا يترددن في المشاركة في مغامرات نسائية ، يساهم فيها الوزير ، ويكون القصد منها غواية بعض الجميلات من نساء تجار القيروان ، مما كان يميط ابراهيم بنفسه اللثام عنه ، ويجزى المشاركين فيها بأقصى العقوبة ، مما لفت انتباه ابن الاثير(٤٩٨) ٠

مثل هذه القصة الحساسة التي كانت تحاك أطرافها في قصر الأمير ، الى جانب قصص فتيان واحداث كانت تدور في القصور ، ولحمة نسيجها

وسداته أمور انحرافات مما يدور في المجتمعات المحلة(٤٩٩) ، وخاصة عندما يتجمع الرجال وحدهم ، كما كان حال الفتيان والخدم ، وكما كان حال النساء وحدهن في مجتمع الجواري والخادمات أو في أجنحة الحريم ٠ فمثل هذه الأمور الحساسة هي التي يمكن أن تفسر ردود فعل غير انسانية ، مما كان يقوم به ابراهيم بن أحمد ، مثل : البناء على المذنبين حتى الموت جوعا وعطشا ، أو غلق أبواب البيوت الساخنة في الحمامات عليهم الى أن يموتوا خنقا(٥٠٠) ٠ وغير ذلك مما قيل انه لم يفعله أحد قبله ٠

تقييم أخير : خطيئة عصر :

والحقيقة أن الخطيئة لم تكن خطيئة ابراهيم بن أحمد ، بل كانت خطيئة

---

(٤٩٦) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٣ ب ـ ١٢٤ أ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ٠

(٤٩٧) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٤ ب ٠

(٤٩٨) انظر فيما سبق ، ص ١٥٠ هـ ٤٨٨ ٠

(٤٩٩) انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٤ أ ٠

(٥٠٠) انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٤ أ ٠

عصر أو مجتمع بأسره • ونخص منه مجتمع القصور ، سواء في القصر القديم الذى بناه ابراهيم الأول ، أو فى قصور رقادة التى بناها ابراهيمنا الثانى •
فهذا المجتمع الذى كان غارقا فى اللهو والشراب وحياة الحـــريم ، لم يكن وحده • فقد كان شديد الصلة بمجتمع القيروان المجاور حيث مسجد عقبة الجامع ، وحيث العلماء والفقهاء والعباد والزهاد والنساك ، ممن كانوا قدوة فى حسن السيرة ، وجميل الأخلاق • وكان لمجتمع أهل الدين والنسك هذا أثره على مجتمع القصور اللاهى : حيث كان يوجـــه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر •

تمزق بين الخير والشر :

هكذا كان الأمير ممزقا بين الحياة المترفة ، ان لم نقل الفاسدة ، التى كان يحياها ، وبين ما كان يستمع اليه ــ من الدعاء الى التقوى وعمل الخير • وكان تمزق الأمير هذا يظهر واضحا ، عندما يجد نفسه مضطرا الى المعاقبة على مفاسد من نوع التى كان يسمح لنفسه بارتكابها ، فكانت تأتى الشطحات المستغربة فى القسوة غير المعتادة • ولا بأس فى ذلك ، فأخلاقيـــات ذلك العصر ــ بل وربما كل العصور ــ كانت تسمح للأمير بما لا يسمح هو به لغيره من الناس ، ولو كان ــ فى بعض الأحيان ــ أقرب الناس اليه ، وتلك هى الأنانية أو هى الأنا أولا ، وربما ، وأخيرا أيضا •

وهكذا يكفى ابراهيم بن أحمد أن شهد له الكتاب خلال سنوات حكمه السبعة الأولى ــ وهى تساوى عهدا من عهود الكثيرين من أســـلافه • واذا كانوا قد رموه بالجور والظلم بعد ذلك ، فوزره تراكم النوازل مع مرور سنوات حكمه الطويل • ثم ان كفة الميزان رجحت الى جانبه فى آخر الأمر : عندما تاب وأناب وقام بخير الأعمال ، ثم تزهد ولبس الخشن من الثياب ، ووهب نفسه بعد ذلك للجهاد ، فى مطلع سنة ٢٨٩ هـ/٩٠٢ م •

وكان ابراهيم قد سلم زمام الأمور فى رقادة الى ابنه أبى العباس بمجرد وصوله من صقلية ، وذلك فى شهر ربيع الأول من سنة ٢٨٨ هـ/مارس ٩٠١ م ، وأخذ هو يعد نفسه للمسير الى صقلية • وهكذا بدأ أبو العباس عهده كنائب للملك ، أو وصى على العرش •

ابو العباس عبد الله بن ابراهيم بن احمد بن محمد بن الأغلب بن ابراهيم ابن الأغلب: ٢٨٩ — ٢٩٠ هـ/٩٠١ — ٩٠٣ م :

نائب الملك : الفارس العالم :

يمكن اعتبار عهد أبى العباس الذى لم يطل الا الى حوالى سنة ونصف السنة ، استمرارا لعهد والده ابراهيم . فقد كان أبو العباس عبد الله أحب أبناء ابراهيم الى نفسه ، وكان أبوه يهيئه للملك من بعده . فقد رأينا أبا العباس يقود الحملات العسكرية فى مختلف الاقاليم ، قبل أن يعهد اليه والده بالقيادة فى صقلية .

وفى أخلاق أبى العباس الذى كان أحد الفرسان ، شجاعا بطلا عالما بالحرب ، حسن النظر فى الجدل ، وأستاذه فى ذلك عبد الله بن الأشج(٥٠١) ، تقول رواية الرقيق : انه كان على خوف شديد من أبيه لسوء أخلاقه ، فكان يظهر له من الطاعة والتذلل امرا عظيما ، فكان ابراهيم يكرمه ، ويفضله على سائر أولاده(٥٠٢) .

اعادة النظر فى أعمال الوالد الناسك :

وفى خلال الفترة التى كان أبو العباس نائبا للملك فيها ، وبعد خروج والده الى صقلية فى اوائل سنة ٢٨٩ هـ/٩٠١ م ، طالب باعادة الأموال التى كان أخرجها أبوه الى الفقهاء ووجوه الناس ليفرقوها فى المساكين ، والتى كانت قد استؤكلت فى معظمها ، واعطيت لمن لا يستحقها ، وانفقت فى اللذات ، وصرفت فى الشهوات(٥٠٣) وكان يقول لمشايخ افريقية : « اغتنمتم الفرصة فى المال لمرض الامير أبى ، ومغيبى عنه » ، فرجع معظم المال معلا(٥٠٤) .

---

(٥٠١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ ب ، وانظر ابن الأثير ، سنة ٢٨٩ هـ ج ٧ ص ٥٢٠ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٤ .

(٥٠٢) أنظر النويرى ، ج ٢٢ ص ١٢٥ ب ، ابن الأثير ، سنة ٢٨٩ هـ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٤ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ص ٣٦ — حيث النص على أن ابراهيم ولاه عهده وصير اليه خاتمه ووزراءه ، وكتب له بذلك كتابا مشهورا .

(٥٠٣) أنظر فيما سبق ، ص ١٤٨ وهـ ٤٨٢ .

(٥٠٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٣ .

وهكذا عادت السنة فسميت بسنة الجور ، بعد أن كانت سميت بسنة العدل ، عندما رفع ابراهيم خــراج الضياع عن أصحابها(٥٠٥) . وقام أبو العباس بتغييرات في ولايات الاقاليم ، فعزل من أحب وولى على الفور من أحب(٥٠٦) . فلقد عهد أبو العباس بولاية قضـــاء القيروان الى محمد ابن الأسود الصديني ، وجعل اليه الأحكام والنظر في العمال وجباة الأموال ، فكان الصديني يامر بالمعروف وينهى عن المنكر . وعن قضائه يقال إنه كان قويا فيه ، شديدا على رجال السلطان ، رفيقا بالضعفاء والمظلومين . ولما لم يكن الرجل واسع العلم ، فانه كان يشاور العلماء ، فلم يقطع حكما الا برأي ابن عبدون القاضي ، ولكن الصديني لما كان ممن يظهرون القــول بخلق القرآن ، فانه كان مكروها من العامة(٥٠٧) .

وفي خلال السنة هذه بدأت قوات أبي عبد الله الشيعي تظهر في بلاد الزاب وما حواليها ، حتى انه تجح في أخذ مدينة ميلة ، مما جعل أبا العباس يسير اليه أخاه أبا عبد الله المشهور بالأحول وبأبي حوال(٥٠٨) ، الذي استعاد ميلة ، وأنزل هزيمة مريرة بالداعي ، كادت تتحول الى كارثة . هذا ، ولو أن الأحول سوف ينهزم في السنة التالية ، ٢٩٠ هـ/٩٠٣ م ، أمام قوات أبي عبد الله الداعي ، وهو ما سنعالجه بشيء من التفصيل في الفصل الخاص بالدعوة الفاطمية(٥٠٩) .

أبو العباس أميرا :

ومع دخول سنة ٢٩٠ هـ/٩٠٣ م ، وقبل أن يصل الى أبي العباس خبر وفاة والده في صقلية ، وكانت في ١٦ من ذي القعدة من العام السابق ٢٨٩ هـ/٢٢ أكتوبر ٩٠٢ م ولا بأس أن يكون قد وصله خبر مرضه الشديد

---

(٥٠٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٣ ـ ويضيف ابن عذارى انها سميت أيضا بسنة النجوم نظرا لتساقط النجوم في شهر ذي القعدة وقارن افتتاح الدعوة للقاضي النعمان ، ص ٩٢ . (عن سنة النجوم) .

(٥٠٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٢ .

(٥٠٧) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ أ ـ ١٢٥ ب .

(٥٠٨) لانه كان يكسر ميتيه اذا طال النظر . كما تنص رواية ابن الأثير (سنة ٢٩٦ هـ) ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٠٥ . والرواية تنص على أن الذي حرض أبا العباس على ارسال أبي حوال لقتال الشيعي هو فتح بن يحيى أمير مسالته من كتامة الذي كان قد لجأ الى الأمير الأغلبي بعد قتال مرير مع الداعي . وانظر فيما بعد ، ص ٥٦٠ .

(٥٠٩) انظر فيما بعد ، ص ٥٥٩ ـ ٥٦١ ، ص ٥٦٣ وما بعدها .

— كتب الى العمال ليأخذوا له البيعة ، على أن أباه فوض اليه الأمر ، وتخلى له عن الملك ، واشتغل بالعبادة(٥١٠) . وكتب الى العمال كتابا يقرأ على العامة ، يعدهم فيه الاحسان ، والعدل ، والرفق ، والجهاد(٥١١) .

أبو العباس يتنسك بدوره :

وعندما وصل أبا العباس نبأ وفاة والده من صقلية ، تغيرت أحواله . وفي ذلك تقول الروايات : انه أظهر التقشف ، ولبس الصوف ، وأظهر العدل والاحسان والانصاف والجلوس على الأرض ، وجالس أهل العلم وشاورهم . ولم يسكن أبو العباس قصر أبيه في تونس ، ولكنه اشترى دارا مبنية بالطوب فسكنها ، وكان لا يركب الا الى الجامع(٥١٢) .

والظاهر أن الشاب الذي كان يخشى اباه خشية عظيمة ، والذي كان يظهر له من الطاعة والتذلل أمرا عظيما ، أصيب بصدمة نفسية ، كما يقال ، عندما عرف نبأ وفاة والده ومثله الاعلى ، مما يدل على أن خشيته لوالده وتذلله لم يكن عن خوف ورهبة ، كما قال الرقيق ، بل عن حب عميق ، وتقدير في موقع القلب عظيم . وفي ذلك دارت همهمات القوم تقول . ان أهل النجوم أمروا أبا العباس بذلك ، أو أنه ألمت به وسوسة(٥١٣) .

وشاية بولي العهد : زيادة الله ، تنتهي بحبسه :

وسعى الى علم أبي العباس ، عن طريق بعض الوشاة ، أن ابنه زيادة الله الذي كان في صحبة جده عندما توفي في صقلية ، والذي آلت اليه قيادة

---

(٥١٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٣ ، وقارن افتتاح الدعوة (ص ٩٢) حيث وفاة ابراهيم يلي ١٢ من ذي القعدة .

(٥١١) ابن الأثير في سنة ٢٨٩ هـ ٢ ج ٧ ص ٥٢٠ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٥) .

(٥١٢) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ أ ، ابن الأثير ، سنة ٢٨٩ هـ . وانظر افتتاح الدعوة (ص ١٤١) حيث يقول القاضي النعمان أن أبا العباس : « عدل فيهم وتواضع لهم ، وجلس في المسجد الجامع لظلاماتهم على حصير ، ونصب درة بين يديه » جدا كما ينسب النعمان الى أبي العباس انه أراد أن يسترضي العامة من المالكية ، فعزل قاضيه الحنفي محمد الصديني الذي كان يقول بخلق القرآن واستقضى بدلا منه حماس ابن مروان الهمداني ، الذي كان مالكيا . والحقيقة ان ذلك تم على عهد زيادة الله ، كما يأتي (وانظر افتتاح الدعوة ، ص ١٤٦ — ١٤٧) .

(٥١٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٤ .

العسكر هناك ، ينوي الخروج عليه ، واعتقد أبو العباس في الوثنايه ، وأرسل الى ابنه يستحثه على القدوم عليه بتونس ، فلما قدم عليه زيادة الله في ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ٢٩٠ هـ/٢٠ مايه ٩٠٣ م قبض عليه ، واخذ ما كان معه من المال والعتاد ، وحبسه في بيت داخل دارة ، هو وبعض رجاله(٥١٤) .

مقتل ابي العباس بأيدي فتيانه :

وكان ابو العباس عندما فعل ما فعله من حبس ابنه زيادة الله كمن سعى الى حتفه بظلفه . فبعد شهرين وأيام من سجن زيادة الله ، وذلك في يوم الأربعاء ٢٩ شعبان/٢٨ يولية ، دخل أبو العباس الى المنام ، ثم انه خرج للراحة في دار خالية . والظاهر أن الرجل الذي عرف بانه كان شجاعا بطلا ، عالما بالحرب(٥١٥) ، كان يعيش في حالة شك وخوف ممن حوله ، ان لم تكن به وسوسة ، كما قال بعض الناس . وذلك انه استلقى على سرير خزيران ، وقد وضع سيفه تحت رأسه ، ولم يعد أن أخرج كل من كان في الدار باستثناء فتيين من فتيانه الصقالبة ، كان يثق فيهما . وبينما تقول رواية النويري ان زيادة الله هو الذي اغرى عددا من خدم ابيه ليغتالوه(٥١٦)، فلا بأس من الأخذ برواية ابن عذارى التي تقول انه عندما نام أبو العباس ، تآمر الفتيان على قتله ، لتكون فرصة لهما يساعدان فيها زيادة الله على الملك ، ويفوزان بالحظوة عنده . وبعد أن نفذ الجريمة ، مضيا الى حيث كان زيادة الله محبوسا ، وأعلماه بمقتل والده . ولكي يتأكد من أن ليس في الأمر مكيدة ألقيا اليه بالرأس ، ثم أتيا اليه بحداد كسر قيديه(٥١٧) .

وهكذا انتهى عهد أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن أحمد باغتياله

---

(٥١٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٤ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ أ ، وانظر ابن الاثير ، سنة ٢٨٩ ، ج ٧ ص ٥٢١ ، الذي ينص على ان الاب سبب حبسه لابنه زيادة الله ما بلغه عنه ، وهو في صقلية ، من انهماكه على اللهو وادمانه شرب الخمر (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٥) .

(٥١٥) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ ب . وفي الشعر الذي قاله عن حروبه في صقلية انظر فيما بعد (عن صقلية ، ص ٢٨٠) .

(٥١٦) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ ب ، ابن الاثير ، سنة ٢٨٩ هـ ، ج ٧ ص ٥٢١ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٥ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٥ .

(٥١٧) ابن عذارى ج ١ ص ١٣٤ ، النويري المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ - ٦ ، وقارن ابن الخطيب ، اعمال الأعلام ، قسم ٣ ، ص ٣٧ .

في قصره بمدينة تونس ، في آخـــر شعبان من سنة ٢٩٠ هـ/٢٨ يوليه ٩٠٣ م(٥١٨) ، بعد امارة لم تطل الى أكثر من سنة ونصف سنة ، منذ عهد اليه أبوه بالأمر ، وما لا يزيد على نصف سنة منذ استقل بالامارة بعد وفاة والده ، قضاها بتونس . وآلت الولاية الى ابنه زيادة الله الذى خـــرج من السجن الى سرير الملك لكي يختم قائمة ملوك الاغالبة .

آخر الاغالبة : زيادة الله الثالث :

أبو مضر زيادة الله بن أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب : ٢٩٠ — ٢٩٦ هـ/٩٠٣ م :

ولاية ثمنها شراء القواد ، والغدر بالأعمام ، وقتل الاخوة والفتيان :

لم تتم ولاية زيادة الله الثالث بعد مقتل والده دون تدبير ، فقد كان هناك أعمامه ممن يمكن أن يثبوا عليه ، ويسبقوه الى الامارة . وهكذا لم يعلن زيادة الله نبأ مقتل والده بل كتمه ، وأرسل الى بعض أصحابه ممن كانوا معه في حبس والده ، مثل : عبد الله بن الصائغ ، وأبي مسلم منصور بن اسماعيل ، ومن غيرهم مثل عبد الله بن أبي طالب ، وسألهم المشورة .

وأشارت عليه الجماعة بأن يرسل الى أعمامه يدعوهم ، ووجوه الرجال والقواد ، على لسان أبيه الى القدوم عليه في دار الامارة . وتقول رواية ابن عذارى ، التي ينقلها عن عريب بن سعد ، أنه عندما وصل أعمامه ووجوه القوم ، دفع اليهم الصلات ، وأخذ عليهم البيعة . ثم انه أمر أن ينادى بتونس(٥١٩) بقدوم من كان بهـــا من الجند على باب الأمير . فلمـــا ركبوا بأسلحتهم أمر زيادة الله بادخالهم واحدا واحدا ، فكان الرجل منهم يبايع ، ويعطى خمسين مثقالا اذا كان من وجوه العسكر ، أما الرجال فانه أبقساهم على بابه(٥٢٠) . ثم انه أمر في نفس ذلك اليوم بكتاب كتاب بيعته ، وبعث به فقرىء على منبر المسجد الجامع بتونس . وبذلك تمت له بيعة الخاصـــة في آخر يوم من أيام شعبان/٢٩ يوليه ، ثم انه أخذت له البيعة على العامة .

---

(٥١٨) القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص ١٤٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ص ٣٧ .

(٥١٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٥ ، وقارن ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم ٣ ص ٣٧ — ٣٨ .

(٥٢٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٥ .

من اهل تونس في نفس اليوم ، وكتب الى العمال بالبلاد بأن يأخذوا له البيعة على من قبلهم(٥٢١) . وبذلك تمت بيعة الخاصة والعامة .

ولما قرب وقت العشاء أمر بالنداء في الجند ان يصردوا صباح اليوم التالي لأخذ عطياتهم . وبينما سمع لمن بايعه من اهل تونس ، واعيان اجنادها بالانصراف ، فانه مطل عمومته في الانصراف عنه الى أن حل الليل . وعندئذ نفذ ما كان أشار به عليه أصحابه ، فقبض عليهم وكبلهم وادخلهم في مركب من نوع الشيني ، ووكل بهم بعض ثقاته ليمضوا بهم الى جزيرة الكرات ، على بعد ١٢ (اثني عشر) ميلا من مدينة تونس . وهناك ضربت رقابهم في الليلة الثالثة من شهر رمضان المعظم .

أما عن الجند الذين كانوا يترددون على بابه كل يوم فانه مطلهم ، حتى : « بردت قلوبهم وملوا الاختلاف الى داره »(٥٢٢) .

واستمرت سلسلة القتل والذبح التي بدأ بها زيادة الله الثالث ملكه ، فأمر بقتل الفتيين الصقلبيين اللذين قتلا والده ، وانزل بهما عقوبة المفسدين في الأرض ، فأمر بقطع أيديهما وأرجلهما ، ثم صلبهما على كل من باب القيروان وباب الجزيرة ، من أبواب تونس(٥٢٣) .

هذا وتنص الرواية على أنه لم يستثن من مذبحة أعمامه أبا الأغلب : عمه الزاهد الساكن بسوسة ، فقتله هو الآخر . ومما يثير عجب الكتاب ما فعله زيادة الله بأخيه أبي عبد الله الأحول (أبي حوال) ، الذي كان يقاتل أبا عبد الله الشيعي في الزاب ، فقد أرسل اليه فتاه « فتوح » الرومي في ٥٠ (خمسين) فارسا يطلب منه القدوم عليه ولا يتخلف . فلما اقبل

---

(٥٢١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٥ .

(٥٢٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٥ ، وقارن النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٢٥ ب - الذي يقول انه ارسل من اخوته وبني عمه ٢٩ (تسعة وعشرين) رجلا الى جزيرة في البحر يقال لها جزيرة الكرات فقتلوا في شهر رمضان من هذه السنة . وانظر ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ج ٨ ص ٢١ : حيث يقول على الجملة انه قتل من قدر عليه من أعمامه واخوته وقارن القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص ١٤٦ .

(٥٢٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٥ - ١٣٦ ، وقارن النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ ب ، افتتاح الدعوة ص ١٤٥ . ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ٣٨ .

الأحول عن طريق بلزمة - الى زيادة الله أمر به فقتل ساعة وصوله(٥٢٤) . فكان ذلك أعظم فتح عند الشيعى ، كما تقول رواية النويرى(٥٢٥) . هذا ، كمـــا قتل ابن القياد ، اذ اتهمـــه بأنه هو الذى أشار على أبيه بتاديبـــه وتقيسه(٥٢٦) .

نتائج فاشلة لمقدمات تعسة :

وهكذا ، اذا كانت النتـــائج عادة ما تكون منسجمة مـــع المقدمات ، فالمفروض أن تكون نهاية عهد يبدأ باراقة الدماء بهذا الشكل غير الواعى ، هو الغرق فى الدماء أيضا ، وان كان ذلك على يدى الداعى : ممثل الفاطميين الذى أصبح زعيم قبائل كتامة .

والمهم أن أهم ما يبرز من الأحداث التى تسجلها حوليات افريقية على عهـــد زيادة الله الثالث الذى لم يطل الا الى أقل من ست ســـنوات ، هـو انتصارات الشيعى المتوالية على قوات الأغالبة ، وما يقـع خلالهـا من عزل قاض أو تولية عامل أو وفاة فقيه . وذلك الى جانب المحاولات اليائسة فى سبيل وقف المد الفاطمى ، من : الاتصال بالخلافة ، أو تحريض الفقهاء أو عامة الشعب على الفاطميين الشيعة ، ثم نقل مركز الدولة الى مكانه الطبيعى فى القيروان ورقادة .

وينتهى الأمر بيأس الأمير الذى لم ينفعه انغماسه فى اللهو والشراب ، ولم يجد له ملجأ الا الهرب الى مصر ، تاركا بلاده وقصوره الى الشيعى مودعا بغضب الشعب وسخطه على الأسرة التى لم تستطع أن تصون النعمة أو أن تدافع عن حماها .

احكام نظام الدولة وترتيب الدواوين :

والمهم أن زيادة الله الأخير بدأ تنظيم دولته ، التى كلفته حياة والـ[illegible] والعشرات من اخـــوته وبنى عمومته وأهل بيته ، بأن عهـــد لـ[illegible] الأولين ، وهما : عبد الله بن الصائغ ، وأبو مسلم منصور بن اسماعيل

---

(٥٢٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ ، افتتاح الدعوة ، ص ٤٦ ا، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٦ .

(٥٢٥) النويرى ، ج ٢٢ ص ١٣٦ ا ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ج ٨ ص ١١

(٥٢٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ .

باهم دواوين الدولة . فكان من تصيب ابن الصائغ الوزارة والبريد ، ومن نصيب أبى مسلم ديوان الخراج(٥٢٧) . والظاهر أنه ولى الخراج بدلا من العامل السابق ، هذيل النفطى ، الذى قتل فى السنة التالية (٢٩١ هـ/ ٩٠٤ م) ربما بعد محاسبته على ما كان بين يديه من الأموال(٥٢٨) .

ولكى يكتسب زيادة الله تأييد الشعب ، ويرضى فقهاء المالكية عزل قاضى القيروان الحنفى الذى كان ، رغم علمه وفضله ، مكروها من الناس بسبب قوله بخلق القرآن ، وولى قضاء العاصمة الى حماس بن مروان بن سماك الهمدانى ، الذى عرف بالورع وبعلمه بمذهب مالك وأصحابه . وكانت فرصة استغلها زيادة الله فكتب كتابا الى القيروان قرىء على الناس ، وفيه : انى عزلت عنكم الجافى الجلف المبتدع المتعسف ، ووليت القضاء حماس بن مروان : لرأفته ، ورحمته ، وطهارته ، وعلمه بالكتاب والسنة(٥٢٩) . وحقق حماس ما كان يامله الناس فيه ، فعدل فى أحكامه ، ولم يكن يهاب أحدا فى ولايته ونظره(٥٣٠) .

ولكى يؤكد زيادة الله سلطانه قام فى السنة الثانية من حكمه (٢٩١ هـ/٩٠٤ م) بتعيين ابنه محمد وليا لعهده ، وكانت مناسبة لأخذ البيعة له من جديد مع البيعة لولى العهد(٥٣١) .

أما عن وظيفة عامل القيروان ، فبعد أن عين فيها : على بن أبى الفوارس فى نفس سنة ٢٩١ هـ/٩٠٤ م ، عاد وعزله بأحمد بن مسرور المشهور بالخال(٥٣٢) .

الصراع ضد أبى عبد الله الشيعى : محاولات جادة بدون طائل :

وفيما يتعلق بالحرب ضد أبى عبد الله الشيعى ، فقد عهد زيادة الله

---

(٥٢٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ ب .

(٥٢٨) أنظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ .

(٥٢٩) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ ب ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ ، وكتاب افتتاح الدعوة ، ص ١٤٦ — ١٤٧ — حيث ينسب ذلك الى أبى العباس والى زيادة الله تضامنا [illegible] .

(٥٣٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ .

(٥٣١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ .

(٥٣٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

بقيادتها - بعد قتل اخيه الأحول (أو أبي حوال) - الى قريبه ابراهيم بن أبي الأغلب ، كما كرس لها المزيد من عنايته ، ولكن دون جدوى • وذلك أن أبا عبد الله ، الذي كان قد انتهى من ادخال معظم قبائل كتامة في الدعوة ، وجعلهم في شكل جيوش نظامية حسنة التدريب ، ملتزمة بالطاعة ، أخذ يتطلع الى المدن الأغلبية غير البعيدة من بلاد كتامة ، وهو الأمر الذي فصله القاضي النعمان في رسالة افتتاح الدعوة ، بطريقة فذة •

فقد اثبت المؤلف الفقيه ، في تلك الرسالة ، أنه مؤرخ من النوع الموهوب ، المطلع على بواطن الامور • وهذا ما يفسر كيف أن الرسالة المنقبية ، أصلا ، أصبحت المصدر الرئيسي الذي أخذ عنه كبار المؤرخين ، من المشارقة والمغاربة ، مثل : ابن الأثير ، الذي يكاد يكتفي بتلخيصها ، وابن عذاري الذي يعتمد عليها الى حد كبير ، وان كان يضيف اليها اضافات هامة من مصادر لم تصل الى أيدينا بعد ، مما يأخذ بوجهة النظر المقابلة لرأى النعمان •

وبناء على ذلك فقد استخدمنا « افتتاح الدعوة » في الفصول التي خصصناها ، فيما بعد ، لقيام أبي عبد الله بالدعوة في بلاد كتامة والصراع مع الأغالبة • والذي يؤخذ على رواية القاضي النعمان أنها قد التزمت بحدود الدعوة الفاطمية ، لا تخرج عنها الى ما يحيط بها من أحوال الأغالبة ، والأوضاع الداخلية في افريقية الا الى حد محدود • ولذلك فقد اقتضى المنهج أن نعرض للموضوع خلال سياق عرضنا لأحوال الأغالبة هنا ، كما يعرضها ابن عذارى ، مكتفين بالاشارة الى « افتتاح الدعوة » • واذا كان عيب هذا المنهج أن الحقيقة التاريخية تظهر فيه وكأنها ذات وجهين ، وهذا ما لا نمارى فيه - والحقائق نسبية على كل حال - فان من محاسنه ظهور الأحداث منسجمة مع مقدماتها ، في كل من وجهى الواقع التاريخي • ويتبقى على المؤرخ استخلاص النتائج النهائية عند المقارنة بين كل من الوجهين •

والمهم أنه في السنة الثانية من ملك زيادة الله (٢٩١ هـ/٩٠٤ م) نجح الداعي أبو عبد الله في الاستيلاء على كل من مدينتى ميلة وسطيف ، مما أثار الذعر في نفس الأمير الأغلبي(٥٣٣) •

---

(٥٣٣) انظر فيما بعد ، في قيام الدعوة الفاطمية ، ص ٥٥٩ ، ٥٦٢ •

التطلع نحو الخلافة شرقا ، والحسنيين في الغرب :

والظاهر أن زيادة الله أخذ يطلع الخلافة في بغداد على مجريات الأمور في افريقية عسى أن يخرج تلك الحرب من نطاقها المحلي ، بتدخل الخلافة التي يمكن أن تهيىء لها مساندات من خارج افريقية • فهذا ما يمكن فهمه مما دعله زيادة الله عندما سير ، في نفس السنة ، الحسن بن حاتم رسولا من قبله الى الخليفة المقتدر ، بهدايا وطرف(٥٣٤) ، الا اذا كان يهدف من اتصاله بالخلافة أمرا ثانيا ، كزيادة توكيد ملكه باقرار الخلافة له ولو بطريقـة معنوية ، وهو الأمر الوارد أيضا ، ولكن في ثنايا الموضوع الأكبر ، المتمثل في الخطر الكتامي •

والى جانب ذلك حاول زيادة الله أن يوثق صلاته بالحسنيين ، أقارب الأدارسـة في المغرب الأوسط ، حتى يساعدوه في مقـاومة كتامة ، فاقر الحسن بن أبي العيش على رئاسة قبائل جراوة ، وذلك بعـد وفاة والده أبي العيش(٥٣٥) • ولم تعرف قبل ذلك أن الحسنيين كانوا يدينون بالطاعة للاغالبة •

تعبئة الرأي العام في افريقية ضد الشيعي :

ويؤيد فكرة أن مسألة الشيعي وخطر كتامة أصبحا الشغل الشاغل لزيادة الله ، ما قام به الأمير من دعوة فقهاء افريقية الى حيث كان يقيم في تونس • فوصل عدد كبير من فقهاء افريقية الى تونس ، واجتمعوا في بيت الوزير عبد الله بن الصـائغ ، ولكن بصفته صاحب الشرطـة أو رئيس الاستخبارات ، كما نقول الآن • وأثناء تباحثهم في أمـر الشيعي أخبرهم ابن الصائغ ، على لسان الأمير : ان « هذا الصنعاني (نسبة الى صنعاء) الخارج علينا مع كتامة ، يلعن أبا بكر وعمر - رضهما - ويزعم ان أصحاب النبي - صلعم - ارتدوا بعده ، ويسمي أصحابه « المؤمنين » ، ومن يخالفه في مذهبه : « الكافرين » ، ويبيح دم من خالفه في رأيه »(٥٣٦) •

وكان من الطبيعي أن يكون رد الفقهاء على مثل هذا الخبر : اظهـار

---

(٥٣٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٧ •

(٥٣٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٧ •

(٥٣٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٧ •

اللعنة على الشيعي والبراءة منه ، وتحريض الناس على قتـــاله ، والفتوى بمجاهدته(٥٣٧) ، فكأنه من الكافرين ، في نظرهم ، هو الآخر .

هدية الى الخليفة :

والظاهر أن زيادة الله كان يأمل خيرا في خلافة بغداد ، بدون أن يقدر ما كانت تسير اليه من الضعف والوهن في ذلك الوقت . فالمكتفي ولي في سنة ٢٨٩ هـ/ ٩٠٢ م والقرامطة ، اخوة الفاطميين ، يثيرون الاضطراب في الشام ، بل وفي العراق أيضا . والمقتدر الذي ولي في سنة ٢٩٥ هـ/٩٠٨ م انتهى به الأمر أولا الى الخلع سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م ، قبل أن يقتل على يدي رئيس الحرس التركي ، وان كان فيما بعد سنة ٣٢٠ هـ/٩٣٢ م . فبعد اجتماع الفقهاء ، أرسل زيادة الله هدية عظيمة الى الخليفة المكتفي ، فيها ٢٠٠ (مائتا) خادم ، وخيل ، وبز كثير وطيب ، ومن اللبوذ المغربية (قمـــاش صوف غليظ) ١٢٠٠ (الف ومائتان) . وكان يضمن الهدية عشرة آلاف درهم ، في كـــل درهم عشرة دراهم(٥٣٨) ، وعشرة آلاف دينـــار سكت خصيصا للخليفة ، اذ كان وزن الدينار منها عشرة مثاقيـــل ، أي عشرة دنانير .

والذي قد يهمنا أكثر من ذلك هو أنه كتب في كل مثقال من تلك المثاقيل بيتين من الشعر ، يقولان :

ياسائرا نحو الخليفة قل له	ان قد كفـــاك الله أمرك كله
بزيادة الله بن عبد الله سيف	الله من دون الخليفة سله(٥٣٩)

فكأنه يريد أن يقول للخليفة انه يقـــاتل الشيعي باسمه ، وتحت راياته السوداء . ونحن نظن أنه ، وهو يقول انه يكفي الخليفة العباسي حربا هذه في الجبهة الافريقية ، انما كان يبغي تأييد الخليفة المعنوي ، على الأقل ، ان لم يكن المادي ــ وهو التأييد الذي لا يكون الا من مصر القريبة . وهذا ما لم تفكر فيه الخلافة ــ نظريا فقط ــ الا بعد هرب زيادة الله الى مصر ، بل وبعد خروجه من مصر ، وهو في طريقه الى بغداد(٥٤٠) .

---

(٥٣٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٧ .

(٥٣٨) انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٨ ، والرواية منسوبة الى الصولي في « كتاب الوزراء » .

(٥٣٩) الحلة السيراء ج ١ ص ١٧١ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٧ .

(٥٤٠) انظر فيما بعد ، ص ١٨٤ .

نقل العاصمة الى رقادة : وعبث وقت الجد :

اما اهم ما قام به زيادة الله ، من الناحية العملية ، في مواجهة الخطر الكتامي ، فهو اعادته لمركز الدولة من تونس المتطرفة الى القيروان ورقادة ، ليكون قريبا من مركز الأحداث ، اى جبهة القتـــال في الزاب ، وان كانت رواية الرقيق التي ينقلها النويري تظهر أكثر تشاؤما : اذ تفسر النقلة من تونس الى رقادة بالخوف من أن يسير اليها الشيعي ويأخذها في غفلة من الأمير(٥٤١) .

ففي مطلع سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٤ م وصل وزير المال ، صاحب الخـــراج ، أبو مسلم منصور بن اسماعيل بن يونس الى رقادة لاصـــلاح القصور الملكية بها ، ورفع ما كان قد وهي من المدينة(٥٤٢) ، كما جدد سورها(٥٤٣) .

والظاهر أن الأمر لم يقف عند الأعمال العمرانية الضرورية للسكنى او للدفاع عن المدينة ، اذ أنشأ أبو مسلم مركبا على الماجل الكبيـر المعروف بالبحر ، وسماه بـ « الزلاج »(٥٤٤) . وفي شهر ربيع الآخر من السنة/ فبراير ٩٠٥ م ، قدم زيادة الله من تونس الى رقادة ، ونزل في قصره المواجه للصهريج الكبير(٥٤٥) ، الذي كان يعرف بقصر « العروس » ، كمـا عرف بقصر البحر ، والذي نسب انشاؤه اليه ، ربما بهذه المناسبة(٥٤٦) ــ حتى يتمتع بالاقامة فوق ماء الماجل في ذلك الزلاج .

وهكذا لم تمنع جدية الموقف الحرج من انصراف الأمـــير الى التمتـــع بمباهج الحياة . ولو أن ذلك لم يمنع الأمير من رقابة عمــاله ، وكان أول فرائس مجيئه الى منطقة العاصمة ، هو : والي القـــيروان أحمد بن مسرور المشهور بالخال ، الذي وان لم يعزل من منصبه ، فانه أدب فضرب ، وطوف به بمدينة القيروان مخشبا على بغل باكاف(٥٤٧) .

---

(٥٤١) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٩ ب .

(٥٤٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٧ .

(٥٤٣) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٥ ب ــ حيث لما نزلها زيادة الله عمر سورها .

(٥٤٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٨ ــ حيث تذكر الرواية القيروان بدلا من رقادة .

(٥٤٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٨ .

(٥٤٦) انظر فيما سبق ، ص ١١٧ .

(٥٤٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٨ .

الاعداد الجدي لحرب الداعي :

وهكذا كان زيادة الله يجتهد فعلا في مواجهة الخطر الذي يتهدد دولته ، وكانت عودته الى القيروان علامة جيدة على صحة عزمه . فبدأ بحشد أبطال الرجال من أحرار العرب والموالي من الجند ، كما أخذ في جمع السلاح وآلات الحرب . ولا شك في أن أخبار اعدادات زيادة الله هذه ، وحشد جيش يبلغ ٤٠ (أربعين) ألف رجل(٥٤٨) ، كانت تصل أولا بأول الى أبي عبد الله الشيعي الذي ارتاع ، كما تقول رواية ابن عذاري ، وأخذ في حشد كتامة(٥٤٩) .

موقعة خاسرة قرب قسنطينة :

ولقد التقى الجيش الكبير الذي أعده زيادة الله تحت قيادة ابراهيم ابن حبشي ، في سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م ، بحشود كتامة التي قادها الداعي ، غير بعيد من مدينة قسنطينة(٥٥٠) . وانتهت الملحمة العظيمة ، التي تطاعن فيها القوم بالرماح حتى تحطمت ، وبالسيوف حتى تكسرت ، بانهزام ابراهيم وجنده الأغلبي . وتقول الرواية ان ابراهيم ورجاله لم ينجوا الا بفضل ما تركوه من المغانم التي انشغلت بها كتامة ، من : الأموال والسلاح والسروج والخيل حتى اغتنى أصحاب الشيعي من أول مغانمهم هذه : فلبسوا أثواب الحرير ، وتقلدوا السيوف المحلاة(٥٥١) .

وكان للامام الفاطمي عبيد الله المهدي ، الذي كان مستخفيا في سجلماسة ، قرب وادي درعة من صحراء المغرب الأقصى الجنوبية ، حيث بني مدرار من الخوارج الصفرية ، نصيبه من تلك المغانم ، من : الحرير

---

(٥٤٨) ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ج ٨ ص ١٠ .

(٥٤٩) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٨ - حيث يشير أيضا الى بساطة أوضاع الداعي الشيعي الذي لم يكن له ديوان للجند النظامي ، بل كان : « يكتب الى رؤساء القبائل ، فيحشدون من يليهم طاعة له ورغبة فيه » . وكان الداعي يكتفي بأن يكتب لهم : « الوعد يوم كذا في موضع كذا » ، بينما يصرخ صارخ بين يديه ، « حرام على من تخلف » . وبهذه الكيفية لم يكن يتخلف [illegible] كتامة حتى اجتمع له منهم ما لا يحصى كثرة - وعن تنظيم [illegible] عبد الله [illegible] انظر فيما بعد [illegible] الدعوة الفاطمية ص ٥٥٣ وما بعدها .

(٥٥٠) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٥٧ ، ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٥ ، وفي الدعوة الفاطمية ، فيما بعد ، ص ٥٦٤ وهـ ٨٢٢ ، حيث تختلف الروايات في اسم المكان في ما بين : كيونة ، وكيدونة ، وكيوفة .

(٥٥١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٣٨ .

والدنانير التي لا يوجد لها مثيل في ذلك البلد(٥٥٢) .

نتائج الهزيمة : معنويات متدنية في الجيش الأغلبي :

أما عن نتائج المعركة - التي وقعت في تلك السنة (٢٩٢ هـ/ ٤ - ٩٠٥ م) التي ولد فيها واحد من أشهر مؤرخي المغرب ، هو محمد ابن يوسف الوراق القيرواني(٥٥٣) - فتلخصت في ازدياد قوة الشيعي من ناحية ، ووقوع الوهن على أهل افريقية ، ودخول الجزع في قلوبهم ، من ناحية أخرى(٥٥٤) . والحقيقة انه منذ تلك الوقعة أصبح الصراع بين الأغالبة وبين الشيعي ومن معه من كتامة ، عبارة عن سلسلة من الهزائم المتوالية للجند الأغلبي ، لا يعرف زيادة الله لها من علاج . وفي هذا المجال لم تعد تجدي حتى كتب الخلافة الواردة من بغداد ، والتي كان يحث فيها الخليفة أهل افريقية على نصرة زيادة الله ومحاربة الشيعي ، والتي كانت تقرأ في المساجد على الناس ، كما حدث بالنسبة لكتاب الخليفة المكتفي بالله الذي ورد الى القيروان في السنة التالية ، وهي سنة ٢٩٣ هـ/٥ - ٩٠٦ م(٥٥٥) .

تخبط زيادة الله في اختيار الرجال :

ويتضح من تفصيلات الأحداث أن الامور اضطربت على زيادة الله الأخير حتى ضاقت به السبل ، ولم يجد من يلجأ اليه من الرجال ، في سبيل انقاذ ما يمكن انقاذه ، الا أولئك الذين كان قد أساء اليهم بالأمس القريب ، ممن كان الحقد يملأ قلوبهم عليه .

فبعد هزيمة جند ابراهيم بن حبشي ، التي خسر فيها الجيش كل عتاده وأمتعته جهز زيادة الله في سنة ٢٩٣/٩٠٦ م التالية ، جيشا سيره الى الأربس - القريبة - لمحاربة الشيعي ، وكان ثقاتة على رأس ذلك الجيش ، هما :

---

(٥٥٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ ، وقارن افتتاح الدعوة ، ص ١٥٨ - حيث توجد تفصيلات وافية عن المعركة ، لخصناها في الدعوة الفاطمية ، فيما بعد ، ص ٥٦٥ - ٥٦٦ .

(٥٥٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٩ .

(٥٥٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٩ .

(٥٥٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٠ ، وقارن افتتاح الدعوة ، ص ١٧٤ ، ١٧٨ ، وانظر الدعوة الفاطمية فيما بعد .

مدلج بن زكريا ، وأحمد بن مسرور الخال ـ واحمد بن مسرور ، الذى كان يشغل منصب والى القيروان ، رأيناه مربوطا إلى خشبة ، في السنة السابقة ، وهو يطوف به في سماط القيروان بعد أن ضرب بأمر زيادة الله . أما زميله مدلج فكان زيادة الله قد نازعه في منيـــة كانت له تعرف بـ « الجليدية » ، وانتهى النزاع بأن حكم القاضي حماس بن مروان ضد مدلج ، مما جعله يحقد على الأمير .

وهكذا خرج الرجلان بأمر زيادة الله من أجل « جهاد الشيعى » ، يوم الاثنين ١٠ جمادى الثانية/٨ ابريل ، وهما يضمران الخلاف . فقد رجعـــا بالعسكر الى القيروان بعـــد ثلاثة أيام ، يوم الخميس ١٣ من نفس الشهر/ ١١ ابريل(٥٥٦) ، وهى المدة التى لا تسمح الا بالذهاب الى الأربس والعوده منها فقط ؛ واذا كان القائدان ومن معهما من الجند قد رضوا لانفسهم بالجبن والخنوع ، فان ذلك ما لم يرض به غـــوغاء القيروان الـــذين خرجوا اليهم يدافعونهم ، ويدفعونهم دفعا الى القيام بواجبهم ، حتى انتهى الأمر بأن كبا بمدلج فرسه ، فقتل من ساعته ، كما قتل معه واحد من وجوه عسكره ، هو : ابن بربر ، وصلب الاثنان فى التو واللحظة على باب رقادة من أبواب القيروان(٥٥٧) .

الأربس ــ على أبواب القيروان ــ ثغرا ، ومقرا مؤقتا للأمير وحاشيته :

وبذلك أصبحت مدينـــة الأربس ــ على مســـيرة يوم أو يومين من القيروان ــ وكأنها ثغر افريقية فى مواجهة الشيعى ، بينما القتال ما زال يعد ، بعيدا فى الزاب ، حيث باغاية وطبنة ، وان كانتا على وشك السقوط . واضطر زيادة الله الى الخروج الى الأربس ، التى صارت مركز القيادة ، حيث اجتمع الكثير من العسكر ، طمعا فى العطاء وليس رغبة فى القتال . وفى ذلك تقول الرواية ان الأمير كان يعطى هناك الأموال جزافا بالصحاف فكان يعطى للرجل ملء الصفحة دنانير فى كسائه ، ثم يحمل على فرس ، ولكنه كان يخرج فلا يرى بعدها أبدا(٥٥٨) .

---

(٥٥٦) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣٩ .
(٥٥٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ ــ ١٤٠ .
(٥٥٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٠ .

ما بين الجد والهزل في مركز القيادة :

وفي الأربس خلط زيادة الله الجد بالهزل مرتين معا . فبـــدلا من أن تكون مجالسه ، في القاعدة العسكرية ، متناسبة مع واقع الحال ، سمح لنفسه بعقد مجالس المناظرة . وقد لا يكون في الامر غرابة ، لاول وهلة ، فالرواية تقول : انه عندما قدم عليه أبو يعقوب اسحق بن سليمان الأسرائيلي المتطبب من المشرق ، بصحبة أبي الحسن بن حاتم ، رسوله الى الخلافة في سنة ٢٩١ هـ/٩٠٤ م ، عقد مجلسا للمنـــاظرة في علوم الأوائل . وكان موضوع المنـــاظرة ، الذى كان على العـــالم القيرواني ابن حنيش المعروف باليوناني ، مناقشته مع الطبيب الاسرائيلي الوافد من العراق ، هو : موضوع العلاقة بين الملوحة والحلاوة ، من وجهة النظر الفلسفية المحضة . ولكنـــه عندما بدأت المناقشة العلمية العميقة تحتد ، اتضح أن أميرنا اللاهي لا يحسن الاستماع الى مثل هذا الجدل الراقي . فقد تملكه الضحك الشديد اثنـــاء الجدل ، مما يحمل على الظن أنه لم يكن يعقد مثل هذا المجلس الا من أجـــل الراحة . وهذا ما شهد به اسحق المتطبب ، اذ قال عن مجلس زيادة الله هذا : انه قليل الوقار ، كثير اللهو(٥٥٩) .

والمهم أن زيادة الله نجح في توجيه العساكر الى باغاية ، أما طبنـــة عاصمة الزاب فشحنها بالرجال والعتاد ، وقدم عليها حاجبه : أبا المقارع الحسن بن أحمد بن نافذ ، يعاونه شبيب بن أبي شداد القمودى ، وخفاجة العيسى ، وهم من المعروفين ، من أهل البسالة والنجـــدة ، وأمرهم بشن الغارات من طبنة على أرض كتامة(٥٦٠) .

استيلاء الداعي على بلزمة وطبنة :

ومع أن رواية ابن عـــذارى تقول ان الحـــرب دارت ســـجالا بين الفريقين(٥٦١) ، فان تكملة الـــرواية — التي قطعتهـــا بعض الأحـــداث العارضة(٥٦٢) ، لا تدل على صحة هذا القـــول . ففي نفس هـــذه السنة

---

(٥٥٩) انظر تفصيلات الموضوع في ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤١ .

(٥٦٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٠ — حيث القراءة : ابن نافد بدلا من ابن نافذ ، وشعيب بدلا من شبيب . ولقد اخذنا برواية افتتاح الدعوة — انظر فيما بعد ، ص ٢١٥ .

(٥٦١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٠ .

(٥٦٢) مثل تولية القضاء بالخلافة الى محمد بن عبد الله المعروف بابن جيمال ، رغم عدم علمه وورعه ، وما كان فيه من الغفلة ، ولكن لانه كان محسوب الوزير صاحب البريد عبد الصمد

(٢٩٣ هـ/٩٠٦ م) تقلب أبو عبد الله الداعي على مدينة بلزمة ، ثم على عاصمة الزاب ، طبنة ، التي دخلها بالأمان ، في آخر ذي الحجة (٢١ اكتوبر ٩٠٦ م) . ولما كان يطبّنة أبو المقارع الحسن بن أحمد حاجب زيادة الله ووالي المدينة مع صاحبيه شبيب القمودي ، وخفاجه التميمي(٥٦٣) ، فان ذلك يعني أن أهل البسالة والنجدة لم يغنوا شيئا . وحـق للكتاب أن يعتبروا القضاء على القيسية من العرب في بلزمة ، الذين كانوا يذلون كتامة ، وذلك على عهد ابراهيم بن أحمد ، بمثابة اول حاجز طرأ على دولة الأغالبة(٥٦٤) .

حزب الدعاية تسير جنبا الى جنب مع القتال :

أبو عبد الله يلغي نظام الضرائب الأغلبي ، ويعلن العودة الى السنة في طبنة :

والظاهر أن أبا عبد الله الشيعي كان قد اكتسب قلوب النـاس في الزاب ، بفضل دعايته الذكية ، مما يتعلق بالدعوة الى الرجوع بالاسلام الى نقائه الأول على عهد الرسول . فهو - في طبنة - يرفض أموال جبـاية العشور التي تقدم اليه ، حسب انتظام الضرائبي الثابت ، على أساس أنها من المغارم ، ويقول : « انما العشر حبوب ، وهذا عيني » ، ويأمر بأن يرد على كل رجل ما أخذ منه ، ويقول : « سنة العشور معروفة »(٥٦٥) . وهو يقول لمن أتاه بمال الخراج . هذا مال لا خير فيه ، ولا قبالة ، ولا خراج على المسلمين في أموالهم . ثم يأمر ثقات أهل طبنة برده على أهله(٥٦٦) .

وهكذا سر به أهل طبنة ، ورجوا أن يستعمل فيهم الكتاب والسنة .

= ابن الصايغ ليس الا (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٠) أو تقدم أبي يعقوب اسحق بن سليمان الاسرائيلي المتطبب على زيادة الله في الارس وعقد مجلس المناظرة المذكور .

(٥٦٣) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٠ ، وقارن افتتاح الدعوة الذي يلخصه ابن الأثير (سنة ٢٩٦ هـ) حيث الرواية التعصبية التي لا يعيبها الا أنها غير مؤرخة . وهي تجسد الفاطمية ، فيما بعد ، ص ٥٦٥ - ٥٦٦ .

(٥٦٤) انظر فيما سبق ، ص ١٣٦ وص ٤٣٥ .

(٥٦٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤١ - وهو « يناقش » في المال الآتي من جباية اليهود

(٥٦٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤١ - وهو « يناقش » في المال الآتي من جباية اليهود والنصارى ، لأن سنة الرسول كانت تقضي بأن يؤخذ من الملي ٤٨ درهما ، ومن المتوسط ٢٤ درهما ، ومن الفقير ١٢ درهما ، ولا يقبله الا بعد أن يعرف أنه أخذ حسب الفرق الذي كان يتخذه عمر - رضه ، فيقول : هذا مال طيب ، ويأمر أحد الدعاة بتفريقه على أصحابه .

(٥٦٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٢ .

وعن هذا الطريق ، انتشر فعله في جميع نواحي افريقيــة ، فتاقت أنفس الناس اليه ، وكاتبوه ، ودخلوا في طاعته ، مما زاد في غم زيادة الله(٥٦٧) .

زيادة الله يحاول اكتساب أهل قسطيلية (توزر) برفع الظلم عنهم ، فيسيء الى عماله :

في هذه الظروف الصعبة لم يكن من الغريب أن يستجيب زيادة الله في مطلع سنة ٢٩٤ هـ/٩٠٦ م ، وهو في الأربس ، الى تظلم أهل قسطيلية من قاضيهم محمد بن مفرج المعروف بابن الشاعر ، فيكتب الى عامله هناك بعزله وتخشيبه ورفعه الى بابه . وتقول الرواية أن كتاب زيادة الله وصل الى قسطيلية والعامل غائب في بعض مصالحه ، فلما « تبـادر بعض القوم الذين رفعوا عليه الى مجلس القضاء الذي كان فيه ، فسبوه وهموا بالبسط اليه ، فأمر غلمانه بأخذهم وضربهم ، وقيدهم وحبسهم » ؟ ولكنه لمـا قدم العامل ، وعرف ما في الكتاب ، « أوثقــه حديدا ، وخشبه ، ووجهه الى زيادة الله ، فضربه بالدرة ، وحبسه ، وذلك للنصف من المحرم (٥ نوفمبر)» .

ولا بأس في أن يكون زيادة الله قد أراد الا يتقرب بهذا العمل من أهل قسطيلية فقط ، بل انه كان قد أتى به على أنه عمل من أعمال الخير والقربى من الله ، عسى أن يجعل له فيه مخرجا من محنته .

محاولات لاستعادة الزاب :

ابن حبشي يخرج بقواته الى طبنة :

وذلك أنه في اليوم الذي كان يضرب ابن الشاعر قاضي قسطيلية ، وهو مخشب ، في الأربس ، أي في ١٥ محرم سنة ٢٩٤ هـ/٥ نوفمبر ٩٠٦ م ، خرج ابراهيم بن حبشي بعساكره لملاقاة أبي عبيــد الله الشيعي بمـدينة طبنة(٥٦٨) ، وأغلب الظن أن الأمر كان مجرد صدفة . ومع أن الرواية لا تعرفنا بما حدث لذلك العسكر ، هذه المــرة ، فمن المعروف انه لم يكن بأسعد حظا من المرات السابقة ، ان لم يكن قد ذهب للقاء الشيعي عـلى الاطلاق .

---

(٥٦٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٢ .
(٥٦٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٢ .

هرون الطبنى يسير الى بلزمة :

هذا عن رواية ابن عذارى ، أما رواية القاضي النعمان ، فيفهم منها أن زيادة الله وجه جيشا آخر الى بلزمة ، وان قيادة الجيش الذى بلغت عدته ١٢ (اثنى عشر) ألف رجل كانت الى هرون الطبني ، أخي زيادة الله الطبنى ، والى باغاية • وكان مصير تلك الحملة هو الهزيمة . ومقتل قائدها هرون(٥٦٩) ، كما كان من نتائجها سقوط مدينة تيجس(٥٧٠) •

ومما يرجح وقوع كل من حملتى ابراهيم بن حبشى ، وهرون الطبنى في نفس الوقت ، أى في أوائل سنة ٢٩٤ هـ/ أواخر سنة ٩٠٦ م ، هو اتفاق كل من ابن عذارى والقاضي النعمان في نتيجة الحملتين • فبينما يقول ابن عذارى أن زيادة الله انصرف من الأربس في تلك السنه الى رقادة ، بعد أن استخلف على الجيش بالأربس قريبه ابراهيم بن أحمد بن أبى عقال ، وانه بدأ بناء سور مدينة رقادة « بالطوب والطوابى »(٥٧١) ، يزيد النعمان تلك الرواية ايضاحا ، فيقول انه بعد مقتل هرون اغتم زيادة الله كثيرا ، وقرر الخروج بنفسه الى لقاء الداعي ، ولكنه بعد أن احتفل مع أهل القيروان بالخروج الى الأربس ، عاد واستمع الى نصح الناصحين له بالا يفعل ذلك : فهزيمته ، لو وقعت ، لن تكون كمثل هزيمة قواده ، فرجع الى قصره برقادة(٥٧٢) •

بداية النهاية : تحصين رقادة والانصراف الى اللهو :

وكان تجديد سور رقادة يعنى بداية النهاية ، اذ يبدأ الكتاب في القول ان زيادة الله انصرف منذ ذلك الحين الى دفن همومه في العبث واللهو • فالتزم التنزه على البحر ، وهم يقصدون الجلوس وسط الماجل الكبير ، المعروف بالبحر ، في المركب المعروف بالزلاج • كما التزم اتباع اللذات ومنادمة العيارين والشطار والزمامرة والضراطين • وهم يقولون انه كان

---

(٥٦٩) افتتاح الدعوة ، ص ١٦٤ ـ ١٦٦ ، وقارن ابن الخطيب ، الاعلام ، قسم ٣ - ص ٤٠ (حيث الاسم هارون بن الطبنى ؟) •

(٥٧٠) افتتاح الدعوة ، ص ١٦٧ ـ ١٦٩ ، وانظر فيما بعد في الدعاية الفاطمية ، ص ٥٦٧

(٥٧١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٢ •

(٥٧٢) افتتاح الدعوة ، ص ١٧٨ ـ ١٨١ ـ وانظر فيما بعد ، في الدعاية الفا؟ ص ٥٦٩ وما بعدها •

اذا فكر في غلبة عدوه على أكثر مواضع عمله ، يقول لندمائه : « املأ واسقني من القرن يكفيني »(٥٧٣) .

الى غير ذلك من الأخبار التي تدخل في أخص خصوصيات القصور ، مما لا يليق ذكره فضلا عن عمله . وهذا ما يفسر كيف أن مثل هذا النظام المبني على المظاهر الخداعة ، ما كان يمكنه بأى حال من الأحوال ، أن يقف أمام دعوة كتامة : دعوة العودة الى مجتمع الاسلام في نقائه الأول(٥٧٤) . وفي هذا المقام يذكر الكتاب أنه كان اذا أظهر زيادة الله الغم بأمر الشيعي أخذوا له في التسلي ، فكان مما غنته جارية له ذات يوم ، هذان البيتان من الشعر ، اللذان كان لهما صدى عميق في نفسه .

اصبر لـدهر نـال منـ	ـك فهكـذا مضت الدهـور
فـرح ، وحـزن مـرة	لا الحزن دام ولا السرور(٥٧٥)

ووسط الأنباء المضحكة المبكية ، يستعفي قاضي القيروان الورع حماس ابن مروان ، ويقبل استعفاؤه ، ويولى عوضا عنه والى رقادة : المغفل الجاهل ، محمد بن عبد الله بن جيمال ، محسوب الوزير صاحب الأخبـار عبد الله بن الصائغ ، ويظل في منصبه الى أن يهرب زيادة الله(٥٧٦) .

---

(٥٧٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٣ . وقارن افتتاح الدعوة ، ص ١٨٣ ، - حيث يشرح القاضي النعمان ان هـذه الكلمات كانت بيتا من الشعر يغني في دور في مجلس شراب زيادة الله ، وان احد ندمائه الهه سد سعوط بالغاية ، هذا بالاضافة الى ما يروونه عن كلفه بعض الغلمان ، وما كان من وجده عليه وما كانت تقوم به بعض الجوارى من اصلاح ذات البين بينهما ، وما قالته من الشعر مثل :

يأيها الملك الميمـون طائره	رفقا فان يد المشوق غرل بعلم
كم ذا التجلد والاحشاء شائقة	أعيذ كفك ان تسطو على كبدي

ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٣ ، وقارن الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٧ - حيث ينسب ابن الأبار تلك الرواية الى أبي بكر محمد بن محمد الصولي في كتابه « الاخبار المنثورة » ، والمهم يقول أن الغلام الفحل كان يدعى خطابا ، وان زيادة الله نقش اسمه في السكة ، وانه عندما سخط عليه قيده بقيد من ذهب ، وأن ذلك الشعر الذي غنته الجارية كان من نظم الوزير صاحب البريد والشرطة : عبد الله الصائغ . وانظر فيما بعد ، ص ٥٧٠ وهـ ١٤٠ .

(٥٧٤) انظر فيما بعد ، في قيام الدعوة الفاطمية ، من دعوة أبي عبد الله التي جعلت من الدين أساسا لتنظيم الجماعة (جماعة المؤمنين) ، ص ٥٥٣ .

(٥٧٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٣ .

(٥٧٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٣ .

التفكير فى الرحيل الى مصر سنة ٢٩٤ هـ/٦ - ٩٠٧ م :

وجاء سقوط باغـــاية بالأمان فى شهر شـــعبان سنة ٢٩٤ هـ/مايه ٩٠٧ م(٥٧٧) ، بعد أن كاتبه أهلها(٥٧٨) ، يعلن نهاية النهاية . فعندما طلب زيادة الله المشورة من وزيره وصديقه القديم . عبد الله بن الصائغ ، الذى كان يعرف دقة الموقف بصفته صاحب البريد ، كما كان يعرف ضعف أميره ، نصحه بالرحيل الى مصر سرا ، على أن يستخلف على افريقية قائدا يجعل اليه أمر العساكر ، ويترك له الأموال . وراقت الفكرة للأمير الذى كان يهرب من الغم الى اللهو والعبث ، وأمر بشراء خمسمائة جمل لرحيله ، ولكنه ظهر له خطأ هذا الرأى وخشى قيام النـــاس عليه ، وثوراتهم به ، فتوقف عن تنفيذه(٥٧٩) .

ويفهم من الرواية أن الذى بين له خطأ فكرة الهرب هو قائد جيوشه وابن عمه ابراهيم بن حبشى بن عمر ، الذى تعرض له وادخله اجمل قصوره فى رقادة ، وهو قصر البحر المشرف على الماجل العظيم وجعله يتمعن فيما كان فيه من الزخارف والصور ، وافهمه أن مثل هذا المنزل لا ينبغى أن يهجر أو يترك للأعداء . وضرب له المثل بما فعله جده الذى ظل مقيما بالقصر القديم الذى لا يقارن أبدا بقصره البديع ، وصبر فيه على الحصـــار أعواما كثيرة ، وقد أبغضه جل أهل بلده ، وقام عليه رؤساء جنده ، فبقى مقيما فيه ، وضابطا له حتى أظهره الله عليهم ، ومكنه منهم »(٥٨٠) .

واطمأن زيادة الله أكثر عندما قال له ابراهيم بن حبشى انه أكثر مالا من جده ، وأن أهل البلاد معه ، بينما عدوه الشيعى شيخ مجهول غريب عن كتامة ، وانه فى حصن منيع ، رأن النصر معه بحول الله . وهكذا أجـــل زيادة الله مشروع الهرب فصار يرسل الرجال والأموال الى الأربس ، التى أصبحت أقصى ثغوره ، « فكانت خيل أبى عبد الله الشيعى تغير على الأربس من باغاية ، وخيل زيادة الله تغير على باغاية من الأربس »(٥٨١) .

---

(٥٧٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٣ .

(٥٧٨) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٨١ - ١٨٢ ، وتلخيص ابن الاثير سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٥ - حيث يفهم أن سقوط باغاية كان فى سنة ٢٩٥ هـ/٩٠٨ م .

(٥٧٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٣ .

(٥٨٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ ، وعن اضطراب البلاد على أيام ابراهيم الثانى بن أحمد . انظر فيما سبق ، ص ١٣٦ وهـ ٤٣٨ .

(٥٨١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ .

مأتم القيروان يكاد ينقلب عرسا :

زيارة سفير القسطنطينية :

وبينما كانت رقادة تتخذ وضع التأهب لكل طارىء أو حدث ، وبينما أهل القيروان يتوجسون خيفة ، وينتشرون المتشس حول مدينتهم ، ويعيشون في الأخبية المضروبة حولها ، كان على ذلك المنظر الذى يكاد يشبه المأتم أن ينقلب الى حفل عرس أو فرح •

ففي ذلك الوقت عاد حبيشي وابن أبي حجر وابن عباس ، وهم : رسل زيادة الله الى بلد الروم ، ومعهم رسول صاحب القسطنطينية(٥٨٢) • وكان على زيادة الله أن يحتفل بالسفير ، الاحتفال اللائق بملك : افريقية والمغرب ، وما وراء البحار من صقليه وقلوريه (كلابريا) ، وغيرها من المواضع في ايطاليا وسواحل الفرنج • وهكذا استقبل رسول قيصر الروم بما يليق به هو الآخر من الحفاوة ، فكسى واقيم له حفل كبير في الملعب القديم القريب من رقادة ، وحشد زيادة الله الناس والعساكر للمباهاة بهم ، « فكان جمعا عظيما »(٥٨٣) •

عودة زيادة الله الى مدينة تونس في أول سنة ٢٩٥ هـ/٩٠٧ م :

وهكذا عاشت كل من رقادة والقيروان ما بين الخوف والرجاء ، وظلت الاستعدادات لحراسه العاصمة على قدم وساق ، مجدد زيادة الله الحشد ، وكان يرغب الناس في الانضمام الى الجندية بالأموال(٥٨٤) • ولكنــه اذا كانت احداث سنة ٢٩٤ هـ/٦ ــ ٩٠٧ م الخاصة بتحصين القيروان ورقادة تنتهي بأن يعين زيادة الله في شــهر شــعبان (مايه ٩٠٧ م) ابن قرهب في حجابته(٥٨٥) ، فان أحداث سنة ٢٩٥ هـ/٧ ــ ٩٠٨ م تبدأ بخروج زيادة الله في شهر المحرم (اكتوبر ٩٠٧ م) الى مدينة تونس ؛ ليحاول ترتيب أموره فيها ، كما تقول الرواية(٥٨٦) • وهو الأمر الذى يعني الكف عن مواجهة الأخطار المحدقة بالقيروان •

---

(٥٨٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ •

(٥٨٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ •

(٥٨٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ •

(٥٨٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ •

(٥٨٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ •

جولة كبرى لأبي عبد الله يجتاح فيها ما بين مجانة وقمودة :

وإذا كانت رواية ابن عذارى تكتفي بالاشارة الى الجفاف الذى حل بمنطقة القيروان ، حتى قام القاضي محمد بن جيمال لصلاة الاستسقاء في يوم الاثنين ٦ ربيع الأول (١٤ يناير ٩٠٨ م) ، ثم عزل ابن أبي الوليد عن الصلاة وتعيين ابن يزيد كصاحب الصلاة مكانه في منتصف ربيع الآخر (٢٣ يناير) . وذكر أهم وفيات علماء البلاد وفقهائها في نفس السنة(٥٨٧) ، فان رواية النعمان التي يلخصها بن الأثير تسجل للداعي انتصارات متوالية خلال سنة ٢٩٥ هـ/٧ ــ ٩٠٨ م . من ذلك . افتتاحه لمدينة مجانة عنوة وقتل عاملها ، وملك مدن . قصر الافريقي ، وتيفاش ، وقالمة . وتأتي بعد ذلك المسيرة المظفرة الى مسكيانة ، وتبسا ، ومديرة (حيدرة) ومرماجنة (قرب الحدود التونسية الجزائرية الحالية) . ومجانة والقصرين (من اقليم قمودة الذى تعتبر القيروان على تخومه ، حتى ظن ابراهيم بن أبي الأغلب أن الداعي قرر المسير الى رقادة نفسها) .

والغريب في الأمر أنه بعد تلك المسيرة المظفرة ، أو النزهة العسكرية كما يقال ، رجع أبو عبد الله الشيعي ، عبر قسطيلية ، الى باغاية . ومنها عاد الى قاعدته ، دار الهجرة ، في ايكجان(٥٨٨) .

الاستيلاء على قسطيلية ، وبلاد الجريد :

وتأتي سنة ٢٩٦ هـ/٨ ــ ٩٠٩ م لتكون آخر السنين في عمر الدولة الأغلبية ففيها وصلت خيل الشيعي من جديد الى قسطيلية حيث انهزم أبو مسلم منصور بن اسماعيل صاحب الخراج السابق ، ومعاونه شبيب ابن أبي الصارم ، وانسحبا الى مدينة توزر ، حيث تبعتهم الخيل الكتامية الى هناك ، وهي تحرق القرى وتفسد ما تمر به من الزروع والنعم . وانتهى الداعي الاستيلاء على توزر بالاستيلاء على قفصة ، عاصمة بلاد الجريد(٥٨٩) . وكانت تلك مفاجأة فاجأ بها الشيعي الجند الأغلبي ، بعد شهرين كان قد أوقف خلالهما أصحابه عن الغارات حتى ظن الأغالبة أنه مريض ، بل حتى

---

(٥٨٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٤ ــ ١٤٥ .

(٥٨٨) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٩٢ ــ ١٩٦ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٥ ــ وفيما بعد ، ص ٥٧٣ .

(٥٨٩) انظر فيما بعد ، ص ٥٧٥ .

قالوا : انه قدحات(٥٩٠) ، وقد ظنـوا أن الفرج قد جـاءهم من حيث لم يحتسبوا .

رد فعل أليم في العاصمة :

ولقد كان لعودة نشاط فرسان أبي عبـد الله الشيعي ، بعد ذلك السكوت ، أثرا عميقا في قلب زيادة الله الذي هاله الأمر وراءه ، بل وفي صوب أهل الحاضرة التي ارتجت ، فاضطربت أحوال الجند ، وخيم اليأس على الناس الذين خافوا على ذراريهم وأهلهم من السبي والاسترقاق . اما عن معاوني زيادة الله الرئيسيين ، وهما : الوزير ابن الصائغ ، وصاحب الخراج أبو مسلم ، فقد فسدت الحال بينهما عندما ألقى ابن الصائغ سبب فساد الدولة على أبي مسلم .

ومع أن الرواية تشير الى خدمة أبي مسلم أيام ابراهيم بن أحمد(٥٩١) ، عندما كان ابن الصائغ كاتبا له ، حيث يمكن أن يكون القصـد من تلك الاشارة هو مذبحة عرب بلزمة ، في سنة ٢٨٠ هـ/٩٣ - ٨٩٤ م ، التي قيل انها كانت سبب انقطاع الدولة الأغلبية ، فمن الواضح أن ابن الصائغ كان يقصد فساد الدولة بسبب انهزام أبي مسلم الاخير في قسطيلية . فلقد انتهى الأمر بأن كتب زيادة الله الى قائده شبيب بن أبي الصارم معـاون ابي مسلم بتوزر ، يأمره بضرب عنق هذا الأخير . وتقبل الشيخ الحكم ، وهو يتحسر على أن يكون هذا جزاءه بعد خدمته وبلائه(٥٩٢) .

الجولة الأخيرة : سقوط الأربس :

وأخيرا جاء سقوط الأربس في ٢٤ من جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ/ ١٨ مارس ٩٠٩ م ، يعلن نعي الدولة الأغلبية بعد أن انهزم ابراهيم بن أحمد ابن أبي الأغلب في عساكر افريقية وجمهور أجنادها الذين بلغوا ٤٠ (أربعين) الف رجل ، ودخل الشيعي المدينة بالسيف عنوة(٥٩٣) .

---

(٥٩٠) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٥ ، وانظر فيما بعد ، ص ٧٦ه .

(٥٩١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٥ .

(٥٩٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٦ - وربما كان أبو مسلم يأسف على نصيحة زيادة الله بقتل عمومته واخوته ، عندما قال لشبيب لو انه لم ينصحه بذلك وشغله بهم ، ما دار عليه من قبله ما دار .

(٥٩٣) ابن عذارى ج ١ ص ١٤٦ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٣٦ (، الحلة السيراء ، ج ١ ص١٧٥، ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ج ٨ ص ١٧٠ - حيث ينقل عن الشيعي -

وانتهت هزيمة الجيش الأغلبي الكبير بمذبحة كبرى في مسجد الأربـ
الجامع حيث فزع الناس وفلول العسكر ، وهم يركبون بعضهم بعضا .
شك أن رواية ابن عذارى ، تبالغ في عدد من قتلتهم كتامة بأمر أبي عبد
الشيعي في الجامع ، اذ تقول : « انه قتل داخل المسجد ثلاثين ألف رجل
وكان قتلهم من بعد صلاة العصر الى آخر الليل ، وان الدماء كانت تسـ
من أبواب المسجد ، كما يسيل الماء من وابل الغيث »(٥٩٤) . ومن المقبول
يكون عدد القتلى ثلاثة آلاف ، كما يقول ابن الأثير(٥٩٥) .

ولم يبق عسكر الشيعي في الأربس : فعندما أصبح الصباح ، وقد فر
أصحاب أبي عبد الله من القتل والنهب والسبي ، نادى بالرحيل عائدا
اتجاه قاعدته في مدينة باغاية .

وتفسر الرواية الأغلبية ذلك بأنه خشي أن يحـــاشد عليه أهـ
افريقية(٥٩٦) ، وهو الأمر الذي لم يعمله زيادة الله الذي يأس نهائيا
مواصلة النضال . وحق للأمير أن ييأس طالما أن معنويات رجاله كانت
انحطت الى درجة أنهم فروا في معركة الأربس بمجرد أن صائحا صاح بيـ
بوجود كمين للشيعي ، في الوقت الذي كانوا أكثر من ند لنكتاميين(٥٩٧)
وهذا ما قد يفسر كيف ان أبا عبد الله ترك الأربس عائدا نحو باغاية — هـ
المرة — خشية عودة الجند الأغلبي ، وان كانت طريقته في الحرب دائمـ
الضرب بعنف ثم فك الالتحام .

زيادة الله يعد العدة للرحيل :

والمهم أن زيادة الله أسقط في يده عندما بلغه نبأ الهزيمة يوم سقو
الأربس ، وتأكدت له نهاية ملكه . ومع أنه كان قد قرر الرحيل وأخـ

— النعمان في افتتاح الدعوة ، ان جند أبي عبد الله بلغوا ٢٠٠ (مائتي) ألف فارس . ،
أصحاب زيادة الله كانوا لا يحصون عددا . وانظر فيما بعد في قيام الدعوة الفاطمية .
٥٧٧ وما بعدها .

(٥٩٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٦ .

(٥٩٥) ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ٤٥ .

(٥٩٦) ابن عذارى ، ، ج ١ ص ١٤٦ — ١٤٧ . وقارن رواية القاضي النعمان في افـ
الدعوة . حيث تفصيلات المعركة . وفيها يقول ان القاضي انسحب في طريق تموحة وقسطيـ
(ص ٢٠١ — ٢٠٥) — وانظر فيما بعد ، الدعوة الفاطمية ، ص ٥٧٩ وما بعدها .

(٥٩٧) ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ٤٥ — حيث يلخص افتتاح الدعوة .

يستعد له ، فقد رأى أنه من حسن السياسة أن يفعل ذلك خفية من أهل القيروان • وهداه تفكيره السقيم الى أن يعلن ان الأنباء أتته بالنصر ، وأن يرسل الى السجون آمرا بضرب أعناق خصومه من المحبوسين ، على أن يطاف برؤسهم في القيروان وفي القصر القديم(٥٩٨) •

والظاهر أن قصده من ذلك كان شغل أهل العاصمة بمواكب قتلاه ، بينما كان يجمع أثقاله وأمواله ، ويرسل الى خاصة رجاله وأهل بيته يعرفهم الحالة ، وينذرهم بالخروج معه(٥٩٩) •

أما الوزير صاحب البريد : عبد الله بن الصائغ ، فقد أراد أن يجرب عملية انقاذ أخيرة ، فكذب خبر انتصار الشيعي ، وأعلن على أبواب رقادة أن الأمير بعد حشدا جديدا ، وأنه سيكافيء الرجال مكافأة جزيلة : للفارس عشرون دينارا ، وللراجل عشرة دنانير(٦٠٠) ، وهو ما لا يقارن بما كان يعطى بالصحاف من قبل • وأشار الوزير على زيادة الله بالمقام ، وطمأنه الى اجتماع العسكر حوله ، وأن عليه أن يخرج العطاء(٦٠١) •

وأتت النتيجة عكسية تماما بالنسبة لتلك المقدمات التي قام بها ابن الصائغ : « فأهل القيروان بدر اليهم سوء الظن ، وعلموا أن الدائرة كانت على أصحاب زيادة الله وماجوا فيما بينهم ، وجعلت الخاصة وأهل الخدمة يفرون من رقادة(٦٠٢) • وأما رد فعل زيادة الله بعد أن ألح عليه الوزير كثيرا ، فكان اتهام ابن الصائغ بالتآمر عليه ، ومواجهته بصدق ما كان يقال عنه من أنه كان يكاتب الشيعي(٦٠٣) ، وهو الأمر الذى نفاه بشدة أبو عبد الله ، فيما بعد(٦٠٤) •

فرار مأساوى :

وهكذا ، وفي هذا الجو المأساوى ـ جو انهيار نظام وقيام نظام ، حيث

---

(٥٩٨) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٦ ب •
(٥٩٩) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٦ ب •
(٦٠٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٦ •
(٦٠١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٦ ب •
(٦٠٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٧ •
(٦٠٣) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٦ ب •
(٦٠٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٨ ب •

يختلط الحابل بالنابل ، كما يقال ، وحيث ترتفع رؤوس وتنخفض هامات في دوامة التغيير العنيف ـ أخذ زيادة الله في شد الأموال والجواهر والسلاح، وما خف من الأمتعة النفيسة . وكذلك فعل رجـــاله . ثم انه انتخب من عبيده الصقالبة ألف خادم ، وجعـل على وسط كل واحد منهم ألف دينار . وفي ليلة الاثنين ٢٥ جمادى الآخرة/١٩ مارس وهى الليلة التالية لورود النبأ العظيم ، تواعد مع أصحابه على الرحيل ، وتقلد سيفه ، وقدم الأحمال تمر بين يديه ، وقد حمل من يعز عليه من جواريه وأمهات أولاده . وبدأت القافلة الملكية الحزينة مسيرتها وسط عويل الأعداد الكبيرة ممن كان قد تركهم في قصوره من الجوارى والحريم ، ونحيبهم(٦٠٥) .

واتخذ الموكب الذى كان يهتدى فى مسيرته ليلا بالمشاعل طــريق المشرق ومصر وتبعه الناس قوما بعد قوم . وكانت المحطة الأولى التى توقف فيها هى مدينة طرابلس التى اقام فيها أكثر من أسبوعين(٦٠٦) .

عمليات النهب تبدأ بالوزير :

وخلال تلك الفترة تأكد لزيادة الله غدر وزيره ابن الصائغ ، الذى كان قد دبر الهرب بأهله وحشمه وأمواله ، مع بعض أحمال من المال اقتطعها لنفسه من بيت المال ، وذلك فى مركب كان قد أعدها لذلك ، وكان قصده الالتجاء الى صقلية . ولكن لسوء طالعه ألقت الرياح بالمركب الى ســـاحل طرابلس ، حيث وقع فريسة سهلة بين يدى زيادة الله الذى انتقم منه .

---

(٦٠٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٧ ا ـ وانظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ، ١٦٧ . حيث يقول : انه خرج هاربا على عيون أهله وحرمه وولده . ومن المناظر الرقيقة التى يشير اليها الكتاب ، ما قامت به احدى جواريه ، ممن تركهن ، وقد اخذت عودا ووضعته على صدرها ، وغنته لتحركه على حملها معه ، فقالت :

لم أنس يوم الوداع موقفهـــا ... وجفنها فى دموعهـا غرق
وقولها والركاب سائرة ... تتركنا سيدى وتنطلق
استودع الله ظبيـة جزعت ... للبين والبين فيه لى حرق

فدمعت عينا زيادة الله عند سماعها . وتختلف النهـاية : فتقول رواية ابن عذارى ان سوء الموقف وضيق الحال شغله عن حملها معه . بينما تقول رواية النويرى انه امر بحط حمل مال عن بغل وحملها عليه ، وهو ما يأخذ به ابن الخطيب (الاعلام . قسم ٣ ص ٤٤) .

(٦٠٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٨ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٨ ب ـ حيث يقول انه اقام هناك ١٧ يوما .

بتحريض من كانوا معه ، فقتله(٦٠٧) .

نهب رقادة :

أما عن مدينة رقادة فقد نهبها الناس صبيحة خروج زيادة الله . ورغم ما تقوله رواية ابن عذاري ، من : أنهم أخذوا من بقايا أموال بني الأغلب ومتاعهم ، وصنوف الآنية من الذهب والفضة مالا يحيط به وصف ؛ فالظاهر أن ما كان قد بقي في قصور رقادة من المتاع لم يكن الا قليلا . وربما كانت رواية النويري أدق ، اذ تقول : ان الناس بعد أن عرفوا بهروب زيادة الله ، أسرعوا الى رقادة ، وانتهبوا ما فيها ، واحتووا على قصور زيادة حتى صاروا الى البحث في المطامير ، وانتزاع حديد الأبواب ، وحمل الأسرة ، ونقل الماعون(٦٠٨) . وهذا لا يمنع من أن تكون هذه المنهوبات القليلة القيمة سببا في نزاعات بين الناس ، وأن يرجع القوى منهم ليأخذ من الضعيف ما سبقه اليه ، كما يقول ابن عذاري(٦٠٩) . واذا كان النويري يقول ان ذلك النهب استمر لستة أيام عندما تراءت خيل الشيعي ، فان ذلك يعني أن النهب كان مستمرا ، بعد أن وصل ابراهيم بن أحمد بن أبي الأغلب المنهزم من الأربس الى القيروان ، فيمن كان قد بقي معه من القواد .

ابراهيم بن أبي الأغلب يقوم بمحاولة فاشلة لتقلد الامارة في رقادة :

نزل ابراهيم في قصر الامارة حيث اجتمع على بابه خلق كثير ، وبايعوه بالامارة ثم انه بعث يستدعي أعيان الناس ، من : الفقهاء والتجار والعامة ، وانتقد في حضرتهم تصرفات زيادة الله الذي أسند أمر البلاد الى الحونة من الرجال ، وهو يقصد بذلك عبد الله بن الصائغ بطبيعة الحال . وحاول ابراهيم بذلك أن يبايعوه أميرا بدل ابن عمه الهارب اذ قال لهم : ان كتامة مفسدون في الأرض ، وطلب منهم الاخلاص له ، وامدادة بالرجال والمال ليدافع عن حريمهم ومهجهم . ورغم أنه أخذ البيعة بالامارة في الجامع

---

(٦٠٧) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٧ أ - ١٢٨ ب ، ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٨ - ١٤٩ - حيث يقول ان ابن الصائغ اقتطع ثلاثين حملا من المال ، في كل حمل ستة عشر ألف مثقال ، ولكن عامل سوسة ، وهو ابن الهمداني ، وضع يده على الأموال ، وخزنها في قصر الرباط بسوسة ، حتى صارت الى الشيعة .

(٦٠٨) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٧ أ - ١٢٧ ب ، وقارن ابن الخطيب ، الاعلام ، القسم ٣ ص ٤٤ .

(٦٠٩) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٨ .

بعد صلاة الظهر الا أن عامة الناس الذين كانوا قد سئموا الحرب وخشوا سوء العاقبة ، ثاروا به وطالبوا بالأمن والسلام لبلدهم ، وأخبروه أنه إذا كان قد عجز عن دفع كتامة ومعه العساكر والسلاح والأموال ، فهو سيكون الآن أعجز عن مدافعتهم مما كان عليه قبلا ، لأنهم لم يعد لديهم أموال ؛ وعندما لمح ابراهيم الى امكانية الاستفادة من أموال الاحباس (الأوقاف) والودائع ، صاحوا به واحتشد الغوغاء وصاح الجميع : « لا طاعة لك علينا ولا بيعة لك في أعناقنا فاخرج عنا » . وانتهى الأمر بأن اضطروه هو ومن معه الى ركوب خيلهم والنجاة بأنفسهم عن طريق باب أبي الربيع ، والناس يركضون وراءهم ، ويرجمونهم بالحجارة ، ثم انهم لحقوا بزيادة الله(٦١٠) .

وهكذا ، وخلال وجود زيادة الله في طرابلس تضخم موكبه بالفارين من افريقية ، ممن خافوا على أنفسهم وعلى أهلهم . ولو أن منهم من لم يستطع الفكاك من قدره ، نسعى الى حتفه بظلفه ، مثل عبد الله بن الصائغ الوزير . وعندما لحق ابراهيم بن أبي الأغلب بزيادة الله ، ولما علم هذا الأخير بما كان قد فكر فيه ابراهيم من عقد الولاية لنفسه في القيروان نقم عليه ، ولكنه اكتفي بالاعراض عنه . وعندما عرف أن ابراهيم وصاحبه أبا المصعب بن زرارة يقعان فيه وينالان منه ، قرر التخلص منهما لولا هروبهما الى الاسكندرية ، واستجارتهما بعاملها الذي أرسلهما الى عامل مصر : موسى النوشري ، حيث دسا لزيادة الله ، وحذرا من طمعه في مصر .

وهذا ما قد يفسر كيف أن النوشري لم يحسن استقبال زيادة ، الذي لم يقم في مصر أكثر من ثمانية أيام ، خرج بعدها الى طريق بغداد ، بعد أن تخلف كثير من أصحابه في مصر . وفي الرملة من أرض فلسطين هرب كثير من أصحابه ، ورجاله حاشيته . وبعد اقامة سنة في الرقة ، تفرق فيها من كان قد بقي له من رجاله ، وتشتت أمره ، وناع عليه قاضي الرقة بعض خصيانه الصقالبة : الكب على شرب الخمر وسماع الموسيقى والغناء (الملاهي) . وأخيرا وصلته الأوامر من ديوان الخلافة بالعـــودة الى مصر ، وكانت الأوامر قد صدرت الى واليها بمعاونته ، وتمكينه من العودة الى بلاده ، واسترجاع دولته ، وهو الأمر الذي لم يتحقق .

وبدد الأمير التعس ما كان قد بقي من قواه في شرب الخمر والانهماك

(٦١٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٨ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٧ أ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ٤٥ - ٤٦ .

في اللذات ، قبل ان ينهي أيامه في بيت المقدس(٦١١) . وبذلك انقرضت دولة الاغالبة ، بعد ان عاشت ١١١ سنة وثلاثة أشهر .

---

(٦١١) انظر النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٩ أ _ ١٢٩ ب .

الفصل الثانى

صقلية الأغلبية

واستقرار العرب فى جنوب إيطاليا

من الفتح إلى نهاية الأغالبة

(٢١٢ هـ / ٨٢٧م - ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م)

تمهيـــــد :

العرب وصقلية قبل الفتح الأغلبي :

بعد تأسيس مدينة تونس سنة ٨٤ هـ/٧٠٣ م ، أصبحت ولاية افريقية قوة بحرية بعد أن كانت قوة برية فقط ، منذ انشاء القيروان بعيدا عن الساحل (سنة ٥٠ هـ/٦٧٠ م) خشية الأسطول البيزنطى • وبفضـــل المراكب الحربية التى كانت تخرجها دار الصناعة فى تونس ، لم يعد عرب افريقية ينتظرون مجىء الاسطول الرومى من صقلية أو غيرها من سواحل القسطنطينية لكى يدافعوه ، بل أصبحت مراكبهم تجوب البحر المتوسط ، وهى تعترض مراكب الروم ، وتغير على سواحلهم فى جزر البحر بصـــفة حاصة • وهكذا ، قام أسطول تونس بغارات ناجحة على : صقلية وسردانية وكورسيكا (قورشيقا) ، قبيل سنة ٩٠ هـ/٧٠٨ م ، كانت التمهيد الحقيقى لعملية الغزو الكبرى فى شبه جزيرة ايبريا(١) •

ولقد كان لصقلية بالذات دور هام فى الصراع البحرى بين العـــرب والروم منذ وقت مبكر ، عندما لجأ اليها قسطنطين ، قيصر الروم ، منهزما فى سنة ٣٥ هـ/٦٥٥ م فى موقعة الصوارى ، التى دارت بالقرب من الشواطىء الليبية ، ثم عندما كان الاسطول البيزنطى يغير على سواحل المغرب ، كمـا حدث فى برقة حيث فاجأ زهير بن قيس البلوى سنة ٦٩ هـ/٦٨٨ م ، وكما حدث عندما استرد الروم قرطاجنة سنة ٧٤ هـ/٦٩٣ م ، بعد أن فتحها

---

(١) انظر الفقرات الخاصة بذلك فيما سبق ، ج ١ ص ٢٤٦ وما يليها •

حسان بن النعمان(٢) .

وذلك لا يمنع من أن يكون العرب قد قاموا — قبل بناء القاعدة البحرية في تونس — بغارات أولية على الجزيرة في ذلك الوقت المبكر . فالروايات تشير الى أن معاوية بن حديج أمر بغزو صقلية ، وأنه كان من بين المغانم التى جيء بها من هناك : أصنام من ذهب وفضة(٣) . واذا صحت حملة معاوية ابن حديج هذه ، فمن المرجح أن تكون أثناء ولايته لافريقية ، حوالى سنة ٤٥ هـ/٦٦٥ م ، وباسطول مصر .

حملات تونس الأولى على الجزيرة :

اما عن الحملات الحقيقية التى قام بها أسطول تونس على صقلية ، فانها لم تبدأ الا بعد ولاية موسى بن نصير للمغرب سنة ٨٦ هـ/٧٠٥ م . وكانت أولاها تلك التى قام بها عياش بن أخيل ، وأغار فيها على مدينة سرقوسة . ولا بأس أن تكون قد تمت سنة ٨٦ هـ/٧٠٥ م ، كما في رواية ابن قتيبة(٤)، وان كان خليفة بن خياط يسجل غارة على صقلية فى نفس السنة ، قام بها المغيرة بن أبى بردة العبدى(٥) . ويشير ابن قتيبة الى حملة ثانية قام بهـــا عبد الله بن موسى بن نصير على مدينة من مدن صقلية ، ومعه أشراف الرجال الذين بلغ عددهم ما بين ٩٠٠ (تسعمائة) و ١٠٠٠ (ألف) رجل ، مما يعنى أن عدد سفن الحملة كان حوالى ١٠ (عشر) سفن . أما عن الغنيمة فقد بلغت حوالى مائة ألف دينار ، وذلك أن سهم الرجل بلغ مائة دينـــار ذهبا . أما عن تاريخ الحملة فتقول الرواية انه سنة ٨٥ هـ/٧٠٤ م . ولكنه لما كانت ولاية موسى للمغرب فى سنة ٨٦ هـ/٧٠٥ م ، فأغلب الظن أنه يجب تصحيح التاريخ الى سنة ٩٥ هـ/٧١٤ م ، وقتما كان عبد الله بن موسى ،

---

(٢) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ١٦٢ — ١٦٣ ، ٢١١ ، ٢٢٨ . ومن المعروف ان الامبراطور البيزنطى كونستانز الثانى كان قد سار من القسطنطينية فى سنة ٦٦٢ م الى صقلية لكى يجعل نصب عينيه ولايات الامبراطورية فى الجزيرة وفى جنوب ايطاليا حتى يمكنه الحفاظ على ارض اليونان الرئيسية من أن يحاصرها العرب ، وانه بقى فى صقلية الى وفاته فى سنة ٦٦٨ (انظر عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ط ، أدنبره ١٩٧٥ ، ص ٣) .

(٣) النويرى ، المكتبة الصقلية ، ص ٤٢٥ — ٤٢٦ . وان كان مما يشكك فى تلك الرواية انها تجعل تاريخ الحملة هو سنة ٣٢ ، فى خلافة معاوية ، وان التماثيل الثمينة لم تجد لها سوقا نافقة الا فى بلاد الهند البعيدة .

(٤) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٤٦ وهامش ٢٦٤ حيث غزو سردانية أيضا .

(٥) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٢٩٢ .

صاحب الحمة ، نائبا لوالده على افريقية(٦) •

ومع أنه من المعروف أن الحرب البرية والبحرية مع الروم في شرق البحر المتوسط كانت تدور في الثغور في شكل صوائف وشواتي سنوية منتظمة ، الا اذا كانت هناك هدنة مع الروم او كانت هناك أحداث داخلية تمنع من تجهيز الصائفة أو الشاتية ، فالذى نلاحظه من حوليات الحرب البحرية مع الروم في وسط البحر ، وبالذات في صقلية ، ان الصوائف والشواتي كانت متباعدة • واذا كان من الطبيعي أن يسقط بعض تلك الصوائف من القوائم التي يقدمها الكتاب ، واذا كان من المقبول أن تسرى الهدنة التي كانت تعقدها الخلافة في المشرق على العمليات الحربية في المغرب ، فمن المرجح أن الاضطرابات التي عرفتها بلاد المغرب على أواخر أيام الدولة الاموية ، وفي بداية عهد الدولة العباسية ، والتي قام بها ، على وجه الخصوص ، الخوارج من الصفرية ومن الاباضية ، كان لها أثرها في تباعد حملات العرب على صقلية •

ويرجع الفضل لتاريخ خليفة بن خياط الذى ينفرد بمعلومات تكاد تكون سنوية عن نشاط ولاة المغرب في جزر وسط البحر المتوسط خلال الفترة ما بين سنة ١٠٢ هـ وسنة ١٢٢ هـ ، وذلك أنه يسجل فيها أكثر من ١٥ (خمس عشرة) غزوة بحرية ، انصبت جميعا على كل من جزيرتي صقلية وسردانية باستثناء غزوة سنة ١٠٦ هـ/٧٢٤ م التي أتى فيها ذكر قرسقة (كورسيكا) ، الى جانب سردانية(٧) ، وكانت بقيادة محمد بن أبي بكر من بني جمح ، وغزوة سنة ١٠٤ هـ/٧٢٢ م التي لم يحدد هدفها في البحر ، وكانت بقيادة عمرو بن مالك(٨) ، وكذلك الغزوة الكبيرة التي قام بها المستنير بن الحارث سنة ١١١ هـ/٧٢٩ م في ١٨٠ (مائة وثمانين) مركبا ، والتي أبطأت في العودة حتى هجم الشتاء فغرقت المراكب ولم ينج منها الا ١٧ (سبعة عشر) مركبا(٩) •

---

(٦) أنظر ابن قتيبة ، المكتبة الصقلية ، ص ١٦٤ ، ٢١١ (حيث ينقل ابن الشباط تلك الرواية) عن نيابة عبد الله لوالده بعد عودة موسى الى دمشق ، أنظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٥٢ و هـ ٣٩٥ •

(٧) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٤٩ •

(٨) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٣٨ •

(٩) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٥٥ •

وتدل الدراسة الاحصائية لتلك الحمـــلات ، حسب ترتيبها الزمني اعتبارا من حملة سنة ١٠٣ هـ/٧٢١ م ، أنها تمت على عهد ثلاثة من كبار ولاة المغرب في العصر الأموي ، هم : بشر بن صفوان ، وعبيدة بن عبد الرحمن، وعبيد الله بن الحبحاب . فعلى عهد بشر بن صفوان كانت وجهة الحمـــلات البحرية الأربعة الى سردانية على وجه الخصوص ، وذلك في سنوات ١٠٣ هـ /٧٢١ م بقيادة يزيد بن مسروق اليحصبي([١٠]) ، ١٠٤ هـ/٧٢٢ م بقيادة عمرو بن فاتك الكلبي([١١]) ، و ١٠٦ هـ/٧٢٤ م بقيادة محمد بن أبي بكر مولى بني جمح([١٢]) ، وأخيرا سنة ١٠٩ هـ/٧٢٧ م بقيادة محمد بن أبي بكر مرة أخرى([١٣]) .

واذا كانت حوليات خليفة بن خياط تنص على أن كل هـــذه الحملات قد كللت بالنجاح ، فكانت تعود سالمة بالمغانم ، فالظـــاهر ان حملة سنة ١٠٩ هـ/٧٢٧ م الأخيرة كانت أنجحها . فيذا ما يمكن أن نفهمه من الروايه التي نجدها في كل من ابن الأثير والنويري ، والتي تنسب قيادة الحملة الى الوالي بشر بن صفوان نفسه ، وتقول انه سار الى صقلية فغنم شيئا كثيرا ثم رجع الى القيروان حيث توفي بها في نفس السنة([١٤]) . وهذا لا يمنع من أن تكون سنة ١٠٩ هـ/٧٢٧ م قد شهدت حملتين بحريتين دفعة واحدة : الأولى على سردانية بقيادة محمد بن أبي بكر ، والثانية على صقلية بقيادة بشر بن صفوان .

أما عن الحملات التي تمت على عهد عبيدة بن عبد الرحمن ، وهي ست ، فكانت وجهتها صقلية بصفة خاصة ، على الوجه التالي : في سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م قامت حملة صغيرة بقيادة عثمان بن أبي عبيدة عـــلى رأس ٧٠٠ (سبعمائة) فارس هاجمت مدينة سرقوسة ، ونجحت في هزيمة القوة البيزنطية التي تصدت لها وأسرت قائدها (بطريقهم)([١٥]) ، وعن حملة

---

(١٠) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٣٦ .
(١١) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٣٨ .
(١٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٤٩ .
(١٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٥٢ .
(١٤) ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢١٨ ، النويري ، ج ٢٢ ص ٢٢٥ ب ، وعن الحملات على عهد بشر بن صفوان ، انظر ايضا سبق ، ج ١ ص ٢٧٣ .
(١٥) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٥٣ – ٣٥٤ .

السنة التي بعدها ١١١ هـ/٧٢٩ م فكانت حملة كبيرة بلغت عدة مراكبها ١٨٠ (مائة وثمانين) مركبا ، قادها المستنير بن الحارث ، ويظن من سياق الأحداث ان وجهتها كانت سرقوسة التي ظل يحاصرها العرب الى أن هجم عليهم فصل الشتاء ، مما عرضهم الى كارثة مروعة ، وهم في طريق العودة اذ غرقت معظم المراكب ، ولم ينج منهـــا الا ١٧ (سبعة عشر) مركبـــا فقط(١٦) •

وفي سنة ١١٢ هـ/٧٣٠ م تكللت الحملة التي قادها ثابت بن خيثم الاردني بالنجاح : اذ هـــاجم الجزيرة ، وعاد ســـالما الى افريقية بالسبايا والمغانم(١٧) • وكذلك كان حظ الحملة التي قادها في سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م عبد الملك بن قطن (الحجازي) الى صقلية أيضا(١٨) ، وتلك التي قادها في نفس السنة عبد الله بن زياد الأنصاري الى سردانية(١٩) • أما آخر الحملات التي تمت على عهد عبيدة بن عبد الرحمن فقد قادها في سنة ١١٥ هـ/٧٣٣ م بكر بن سويد الى صقلية ، وأغلب الظن أنهـــا لم تحقق أغراضها بسبب استخدام الروم للقذائف النارية في مدافعتهم للأسطول العربي(٢٠) •

أما عن الحملات البحرية التي تمت على عهد عبيد الله بن الحبحاب فيما بين سنة ١١٦ هـ/٧٣٤ م وسنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م ، كما ترد في تاريخ خليفة ابن خياط ، فهي خمس : اثنتان منها سارتا الى سردانية ، وثلاث كانت وجهتها صقلية • ولقد سارت حملة سنة ١١٦ هـ/٧٣٤ م بقيادة عثمان بن أبي عبيدة الى صقلية ولكنها فوجئت وهي في طريق العودة باعتراض مسيرتها من قبل الأسطول البيزنطي • ورغم نجاح القائد العربي في التخلص من هذا المأزق باحتراق القافلة المعادية ، الا أن الروم نجحوا في الاحاطة بعدد من المراكب الحربية العربية ، وأسروا من كان فيها من المحاربين • وكان من بينهم

---

(١٦) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٥٥ •

(١٧) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٥٧ •

(١٨) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٥٩ – ٣٦٠ – حيث القراءة عبد الله بن قطن والصحيح « عبد الملك » من عندنا ، وذلك ان عبد الملك بن قطن كان له شأن في أحـــداث الأندلس سنة ١٢٢ هـ عندما عارض نزول جند الشام بقيادة بلج بن بشر ثم موافقته على ذلك بعد ان استشرت ثورة البربر هناك – انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٨٨ – ٢٨٩ •

(١٩) تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٦٠ •

(٢٠) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦١ ، وعن الحملات على عهد عبيدة انظر فيما سبق ج ١ ص ٢٧٦ وما بعدها •

مشاهير الأسرى ، ولدا أمير البحر عثمان بن أبي عبيدة نفسه ، وهما : عمرو وسليمان ، الى جانب عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضي افريقية المشهور وراوينها فيما بعد ، ولن يطلق سراحهم الا في سنة ١٢١ هـ/٧٣٩ م أو بعدها عندما تم تبادل الأسرى (الفداء) بين العرب والروم(٢١) ·

وكانت قيادة حملة السنه التالية (١١٧ هـ/٧٣٥ م) لأخي عثمان ، وهو : حبيب بن أبي عبيدة الذي سار الى سردانية حيث فاجأ بعض مدنها « وأثخن في القتل والسباء »(٢٢) · وفي سنة ١١٨ هـ/٧٣٦ م التالية كانت قيادة حملة صقلية الى قثم بن عوانة الكلبي الذي نزل على مدينة أوليه ؟ ، ولكن الحملة لم تستطع أن تحقق لغراضها بعد أن أحاط بها الروم " ولا ندري ان كان نوع من الاتفاق قد تم بين الطرفين المتحاربين يقضي بأن يسحب العرب بعد أن يخلي الروم عنهم أم أن ظروف القتال التي لم ترجح كفة أحد الطرفين هي التي قضت بهذه التسوية(٢٣) · وفي السنة التالية وهي ١١٩ هـ/٧٣٧ م كان قثم بن عوانة سيء الحظ في حملته على سردانية اذ غرقت بعض سفنه وهي في طريق العودة وكانت مركبة القيادة بينها وفيها قثم نفسه الذي مات غريقا(٢٤) ·

أول محاولة للاستقرار في الجزيرة :

اما عن حملة سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م فكانت بقيادة حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة بن نافع وبصحبته ابنه عبد الرحمن بن حبيب ، الذي صار أميرا لافريقية في سنة ١٢٧ هـ/٧٤٤ م(٢٥) · ولقد حقق عبد الرحمن ، الذي اطلقه والده على رأس الخيالة ، نجاحا عظيما ، اذ لم يلق جمعا من جموع الروم في الجزيرة الا هزمه ، حتى وصل في جولته العاصفة الى مدينة سرقوسة الكبيرة والعاصمة الرومية وقتئذ للجزيرة ، فهزم حاميتها ، وضرب الحصار عليها حتى صالحوه على الجزية · وكان هذا النجاح سببا في أن قرر حبيب بن أبي عبيدة البقاء في الجزيرة الى أن يفتحها جميعا ، لولا ثورة البربر الخارجية التي

---

(٢١) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦٢ ، وانظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٨٠ و ٣٠٤ ·

(٢٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦٢ ·

(٢٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦٣ ·

(٢٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٤٦ ، وعن الحملات على عهد عبيد الله بن الحبحاب ، انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٧٦ وما بعدها ·

(٢٥) انظر فيما سبق ج ١ ، ص ٣١٣ وما بعدها ·

اضطرت ابن الحبحاب الوالي الى استدعائه الى افريقية على عجل(٢٦) ٠

أما عن الحملة التالية فاتت بعد ١٣ عاما اى فى سنة ١٣٥ هـ/٧٥٤ م ، وقام بها عبد الرحمن بن حبيب نفسه ـ بعد أن استقل بافريقية ، ووسع مملكته غربا بالاستيلاء على تلمسان ، والذى كانت تراوده ذكريات نجاحاته اللامعة في الجزيرة من غير شك ٠ ولقد عاد عبد الرحمن بالسبيْ من صقلية والغنيمة ، بعد أن صالحه أهلها على الجزية من جديد ٠ وفي طريق العودة عرج عبد الرحمن على سردانية التي صـــالحه أهلها أيضا عـــلى أن يدفعوا له الجزية(٢٧) ٠

الروم يحصنون الجزيرة :

ومنذ حملة سنة ١٣٥ هـ/٧٥٢ م تلك ، تصمت الحوليات الافريقية عن ذكر الحملات الحربية فيما وراء البحر لمدة تزيد على أربعين عاما ، بسبب انشغال الولاة في المغرب بالفتن ، كما تقول رواية ابن الأثير ٠ والظاهر أن غزو صقلية فى سنة ١٣٥ هـ/٧٥٢ م كان درسا قاسيا للروم ولأهـــل الجزيرة ، تعلموا منه كيف يحمون بلدهم فلقد قام الروم باعمار الجزيرة من جميع جهاتها ، وجددوا ما كان فيها من الحصون والمعاقل(٢٨) ٠

وأكثر من هذا فقد بدأ الروم (على عهد قسطنطين الخامس) باتخـاذ الاحتياطات العسكرية البحرية لما كان يمكن أن يفاجئهم به العرب ، فصاروا يخرجون في الصيف ، عندما تتحسن الأحوال الجوية ، في مراكبهم يطوفون حول الجزيرة ، فيما يعرف حاليا باسم « دوريات الحراسة » بل وزيادة على ذلك فربما صادفوا مراكب تجار المسلمين فاستولوا عليها(٢٩) ٠ وعن هذا الطريق جمع أسطولهم بين الدفاع عن الجزيرة وقطع خطوط الملاحة العربية ٠

---

(٢٦) ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢١٩ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٥ ب ؛ وقارن خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٣٦٩ ، وانظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٢٨ ٠

(٢٧) ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ص ٢٢٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٥ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٥ ب ـ حيث السنة ١٣ هـ ، والغالب الظن ان كلمـة « خمسة » سقطت من الناسخ (عن سنة ١٣٥ هـ) ٠

(٢٨) وهكذا فقد كانت غارات العرب على الجزيرة سببا في أن بنى أهلهـا المعاقل والحصون ولم يتركوا جبلا الا حصنوا عليه حصنا ـ النويرى ، المكتبة الصقلية ، ص ٤٢٦ (سنة ١٣٠ هـ) ٠

(٢٩) ابن الأثير ، المكتبة ص ٢٢ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٥ ب ـ ٢٢٦ أ ٠

وفى سنة ١٧٨ هـ/٧٩٤ م تعود الحوليات الى ذكر صقلية ، ولكن بشأن خروج الشاتية بقيادة سليمان بن راشد الذى كان يصحب معه « السد » بطريق صقلية(٣)، أي حاكمها . ومع أننا نظن أن الأمر يتعلق هنا بالصوائف والشواتى فى الجبهة الشرقية المواجهة للروم فى اقليم العواصم فى شمال الشام وأرض الروم ، فمن المرجح أن يكون المقصود بالبيد هو « البيد Elpidius » حاكم صقلية الذى ثار فى سنة ٧٨٢ ضد الامبراطورة ايرين وأعلن نفسه امبراطورا ، ثم انه عندما انهزم هرب لاجئا الى افريقية(٣١) .

الأغالبة يتعرفون على صقلية ، وغيرها من الجزر :

وفى سنة ٢٠١ هـ/٨١٦ م ، على عهد زيادة الله الأول ، جهز الأمير جيشا فى البحر فى مراكب كثيرة الى سردانية . وتقول الرواية ان نجاح هذه الحملة لم يكن تاما ، اذ عطبت بعض المراكب بعد أن غنمت الروم فى الجزيرة وقتلوا الكثيرين منهم ، مما دعا زيادة الله الى مكافأة من وصل من الرجال سالما(٣٢) . ومع أن ابن الأثير يجعل غزو سردينيا هذه فى سنة ٢٠١ هـ/٨١٦ م كمقدمة لفتح زيادة الله لصقلية ، فاننا نجد فى حوليات ابن عذارى حملة أخرى لزيادة الله قريبة الشبه من تلك الحملة . اذ يظهر من الرواية أنها لم تكن موفقة تماما ، وذلك أن رجالها « أصابوا ، وأصيب منهم ، ثم قفلوا » ، دون اشارة الى الغنائم أو السبى(٣٣) .

وفى سنة ٢٠٤ هـ/٨١٩ م سير زيادة الله قريبه أبا العباس محمد ابن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الأغلب بن سالم لغزو صقلية ، قبل غزوها على يدى أسد بن الفرات(٣٤) ، وبذلك يكون قد قطع الهدنة التى عقدها قبل ست سنوات مع قائد الجزيرة البيزنطى(٣٥) .

وهكذا ، بفضل تلك الحملات ، وغيرها مما سقط من حوليات افريقية والمغرب ، كان العرب قد تعرفوا على صقلية وغيرها من جزر البحر ، مثل :

---

(٣٠) ابن الأثير ، المكتبة ، ص ٢٢٠ .
(٣١) انظر عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ٥ .
(٣٢) ابن الأثير ، المكتبة ، ص ٢٢٦ .
(٣٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٧ .
(٣٤) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨١ ، المكتبة ، ص ٢٢٧ .
(٣٥) انظر فيما بعد ص ٢١١ ، هـ ٨٢ .

سردانية وكورسيكا . واذا كانت هذه الجزر قد ظهرت في بعض الأحيان كقواعد للروم يمكن أن تهدد الملاحة التجارية العربية في البحر المتوسط ، كما يمكن أن تهدد أيضا سواحل المغرب ، فانها كانت قد صارت بالنسبة لعرب المغرب أرض المغانم الكثيرة والسبي البديع .

وبناء على كل ذلك لم يكن من الغريب أن يفكر زيادة الله الأول في غزو صقلية بشكل نهائي في سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ، رغم ما كان يصادفه من المتاعب الداخلية ، المتمثلة في الثورات والاضطرابات التي لا تعد ، في داخل مملكته . والظاهر أنه عندما قرر القيام بتلك المغامرة ، كان يزمع اصطياد عصفورين بحجر واحد ، كما يقال . فمن جهة كان سيفتتح بلادا جديدة ينترعها من الروم ويضمها الى مملكته اى الى ارض الاسلام ، ومن جهة ثانية كان يمكنه أن يوجه حماس أهل افريقية من المقاتلين نحو الجهاد في بلاد الروم ، فيتخلص مما كانوا يسببونه له من المتاعب ، ويحقق لبلاده ما كان يصبوا اليه من الأمن والاستقرار . وقبل أن نتكلم في فتح الجزيرة يحسن أن نعرف بأحوالها قبيل الفتح ، فهذا الى جانب ما ذكرناه من الغارات التمهيدية ، يعتبر المدخل المعقول لدراسة الموضوع .

صقلية ، كما عرفها الكتاب العرب
البلاد والسكان

١ - البـــلاد :

الاسم : صقلية :

فسر الكتاب العرب اسم الجزيرة « صقلية » حسب منهجهم القديم الذي ينسب البلاد والجماعات الى أجداد حقيقيين او اسطوريين ، تماما كما قالوا :

ان افريقية نسبة الى الملكة افريقية أو الملك اليمني القديم افريقس(٣٦) ، وان اسبانيا نسبة الى قوم سكنوها في القديم هم الاسبان او نسبة الى الملك اشبان ، أو أن الأندلس نسبة الى قبائل الجرمان المعروفة بـ « الوندال »(٣٧) .

ففي ضوء هذه النظرية قالوا : ان صقلية سميت باسم الملك « صقلوس » كما سميت ايطاليا باسم أخيه « ايطال » . وفي ذلك لم يتردد بعضهم في

---

(٣٦) انظر اخبار عبيد بن شرية في كتاب التيجان لوهب بن منبه ، ص ٣٢٢ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ (نسبة الى افريقس بن ابرهة) .

(٣٧) الحميري صفة جزيرة الأندلس ، ص ٣ .

القول أن جزيرة صقلية كان يسكنها في قديم الدهر أمة همجية ، تأكل الناس . أو انه كان فيها جنس من المسوخ بعين واحده في وسط جباههم ، يسمون صقلوفس(٣٨) ، وهي الأسطورة اليونانية الأصل على ما نظن ، اذ نجد لها شبيها في أوديسة هوميروس .

فكان اسم صقلية مشتق من اسم « صيقلوفس » أو « صيقلو » أو « سيقلو » الذي نرى أنه نفس اسم « شيقلو »(٣٩) . هذا ، كما نجد اسم صقلية بالسين في « سقلية » و « سكيلية » ، والصساد في « صقلية » و « صيقيلية »(٤٠) كما نجده مهموزا في شكل « اصقلية » أيضا ، و « اسقلية »(٤١) .

الموقع :

وتشغل صقلية موقعا جغرافيا ممتازا بفضل وجودها بين ذراع شبه جزيرة ايطاليا ، الممتد من وسط أوروبا جنوبا في قلب البحر المتوسط ، وبين ذراع القارة الافريقية الشمالي الذي يمثل قلب ولاية افريقية العربية او البلاد التونسية الحالية ، والذي يمتد شمالا في مقابل ايطاليا . وبفضل هذا الموقع تكاد جزيرة صقلية تربط بين سواحل أوروبا وسواحل بلاد المغرب ، وان كانت الجزيرة أقرب الى سواحل ايطاليا الجنوبية ، في اقليم كلابريا الذي عرفه العرب باسم « قلورية » .

---

(٣٨) البكري - جغرافية الاندلس واوروبا ، تحقيق عبد الرحمن حجي ، ص ٢١٧ (والمحقق يقرأها في شكل حقلوفس) .

(٣٩) نحن نرى أن الشين في شيقلو كانت سينا في الأصل لأن الشين والسين كثيرا ما تختلطان في اللغة العربية وتحل الواحدة منهما محل الأخرى . أما عن القاف فالغالب الظن أنها جيم ، كما تنطق في اللهجة المصرية ، ثم انها انقلبت الى غين ، كما في بعض اللهجات العربية . ولا بأس في أن تكون الـ « جيم » في الكلمة حرف « قا ف» أصلا . فكان كلمة « شيقلو » هي تحريف لكلمة « سيقلو » ، وهو الأمر المقبول .

(٤٠) انظر المكتبة الصقلية . من كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة ، ج ١ ص ١٦٣ هـ ٥ . ص ١٦٤

(٤١) وذلك لأن حرف الصاد الاول كان ينطق ساكنا ، في شكل « صقلية » ، وهو الأمر الغريب على اللغة العربية ، فوضعت الهمزة قبل الصاد ، وذلك ، كما كانت تكتب طرابلس في شكل اطرابلس ، او كما ينطق اسم « محمد » في بعض اللهجات في شكل « امحمد » .

مضيق مسينا ، بين شمال الجزيرة وبين كلابريا ، لا يتجاوز اتساعه في الموضع الضيق منه ٣ (ثلاث) كيلو مترات ، حتى أن الواقف في مسيني، على ساحل صقلية يرى من في ريو على ساحل ايطاليا(٤٢) . ولهذا عرف مضيق مسينا ، مثله في ذلك مثل مضيق جبل طارق ، باسم « المجاز » ، كما عرف على وجه التخصيص باسم « مجاز الفارو » اي مجاز المنار ، نسبة الى ضوء نار البركان القريب ، الذى كان يستضاء به في السفر على أكثر من مائة فرسخ ، في البر وفي البحر على السواء(٤٣) .

اما عن المسافة بين جنوبي صقلية وبين أقرب سواحل افريقية اليها ، وذلك في شبه جزيرة شريك في شمال البلاد التونسية ، فانها تصل الى ١٢٠ (مائة وعشرين) كيلو متر(٤٤) . هذا وتوجد بين صقلية وسواحل البلاد التونسية اعداد من الجزر الصغيرة ، من أشهرها جزيرة قوصرة أو قوصرا ، بين ساحل مدينة المهدية والركن الجنوبي الغربي لصقلية ، حيث مدينة مازر ، وبينها وبين مازر مجرى واحد أي حوالي ٦٠ ميلا . وقوصرة هي المعروفة حاليا باسم جزيرة « بنطلارية »(٤٥) .

وهكذا كانت صقلية ، بفضل موقعها الوسط بين ايطاليا والبلاد التونسية ، وبفضل الجزر الصغيرة بينها وبين سواحل افريقية ، معبرا طبيعيا ما بين السواحل الأوربية والسواحل الافريقية ، على طول العصور التاريخية .

الشكل :

الساحل الشرقي :

وصقلية جزيرة على شكل مثلث طوله مسيرة ٧ (سبعة) أيام وعرضه

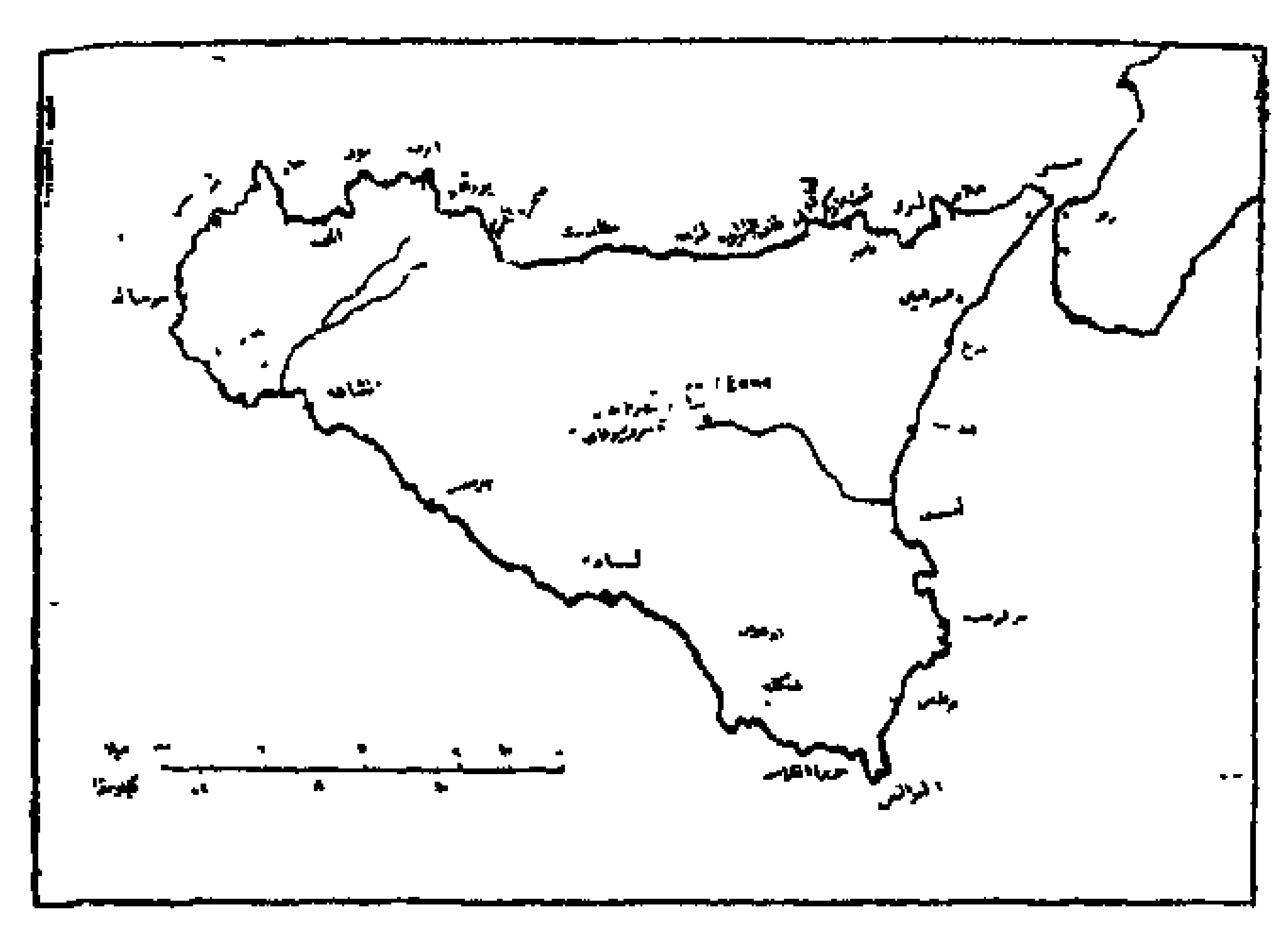
---

(٤٢) ياقوت معجم البلدان ، ط أوروبا ج ٤ ص ٥٢٥ (في مسيني) ، ابن جبير ، المكتبة الصقلية ، ص ٧٨ .

(٤٣) المسعودي التنبيه والاشراف ، المكتبة الصقلية ص ٢ ، معجم البلدان ، ط اوروبا ج ٣ ص ٤٠٦ ، ابن جبير ، المكتبة الصقلية ، ص ٨٢ .

(٤٤) انظر احمد المدني ، المسلمون في صقلية ، ص ٨ . وهي عند الكتاب العرب تعادل مجريين (١٢٠ ميلا) او يومين بالريح الطيبة . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٤٠٦ .

(٤٥) البكري ، صفة الأندلس وأوروبا ، ص ٢٣٦ وهامش المحقق ، ياقوت ، المعجم ج ٤ ص ٢٠٠ .



شكل رقم (١)

جزيرة صقلية ، توزيع المدن تبعا لرواية الادريسى

مسيرة ٤ (أربعة) أيام(٤٦) • ومدينة مسينة (Messina) تمثل رأس المثلث الشمالى ، فى مقابل مدينة ريو (Reggio) فى كلابريا ، ومنها ينحدر الشاطىء الشرقى ، الذى يوصف بأنه ساحل صخرى لا حلجان فيه الى مدينة قطانيا (Catania) (٤٧) التى عرفت أيضا ب « قطاليا » ، كما عرفها الكتاب العرب باسم « مدينة الفيل »(٤٨) ، مارا بطبرمين (Tabrmina) على بعد مرحلة (٣٥ ميلا) ، ثم ب « لياج » على مرحلة اخرى(٤٩) • وفى قطانيا يصبح الساحل رمليا ، وهو يستمر جنوبا ، الى

---

(٤٦) ابن حوقل ، المكتبة الصقلية ، ص ٥ ، وانظر ياقوت ، المعجم ، ج ٣ ص ٤٠٣ ، والمكتبة ص ١١٤ - وهنا ينبغى الاشارة الى أهمية رواية ابن حوقل الذى يتحرى الدقة أكثر ، فيقول انها على شكل مثلث متساوى الساقين ، زاويته الحادة من غربى الجزيرة • انظر معجم البلدان ، ج ٣ ص ٤٠٩ (حيث ينقل رواية ابن حوقل الذى يصفه بالتاجر) •

(٤٧) انظر أسعد الدلاتى ، المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، ص ٩ •

(٤٨) الادريسى ، المكتبة الصقلية ، ص ٣٥ •

(٤٩) الادريسى ، المكتبة الصقلية ، ص ٣٣ — ٣٦ •

قلعة « لنتيني » على بعد مرحلة ، الى مدينة سرقوسة (Siracusa) : عاصمة الجزيرة القديمة ، التي يعرفها الكتاب العرب بمدينه أرشميدس ، صاحب نظرية كثافة الأجسام الطافية او الوزن النوعي[٥٠] .

ومن سرقوسة الى قلعة نوطس (Noto) مرحلة ، وهي على بعد ٨ (ثمانية) أميال من البحر ، وبين نوطس والبحر حصن قسباري . ثم الى طرف الجزيرة في هذا الساحل الشرقي ، حيث لا يوجد عمران ، وهو الطرف الذي يسمى « البوالص » ، مرحلة .

الشاطىء الجنوبي :

ومن البوالص يبدأ الشاطىء الجنوبي[٥١] حيث يمر بقلعة « شكلة » ، على ٧ (سبعة) أميال (وشكله في الداخل على بعد ٣ أميال من البحر) ، ثم قلعة أرغوص (Ragusa) على ١٣ ميلا (وهي أيضا في الداخل على بعد ٧ أميال من البحر) ، ثم حصن لنبياذة على بعد مرحلة ـ وهي على بعد مرحلة أيضا من جرجنت (Agrigento) (التي تبعد عن البحر ٣ أميال) .

ومن جرجنت الى « الشاقة » مرحلة (والشاقة أول عمل قلعة البلوط على ٩ أميال من الشاقة) ، ثم الى مازر (Mazara) مرحلتان . ومن مازر ١٨ ميلا الى « مرسى » أو « مرسى على » ، وهي مرسالا حاليا ، ثم الى طرابنش (Trapani) على بعد مرحلة خفيفة[٥٢] . وفي مقابل طرابنش التي تنتهي عند الساحل الجنوبي ، تقع جزر : الراهب ، واليابسة ، ومليطة[٥٣] .

الشاطىء الشمالي :

ومن طرابنش ، ذات المرسى الساكن الذي كان مشتى للسفن ، يبدأ الشاطىء الشمالي الصخري من الغرب الى الشرق في اتجاه العاصمة بلرم (Palermo) ، مارا بجبل حامد على بعد ١٠ (عشرة) أميال ، ثم الحمة

---

(٥٠) الادريسي ، المكتبة الصقلية ، ص ٣٦ . وعن سرقوسة انظر ياقوت ، معجم البلدان ج ٣ ص ٨١ . وعن وصف الساحل الشرقي انظر أحمد المدني ، المسلمون في صقلية ، ص ٦٠ .

(٥١) الادريسي ، المكتبة ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٥٢) المرحلة الخفيفة عند الادريسي تزيد على ٢٠ ميلا وتقل عن ٢٩ ميلا .

(٥٣) الادريسي ، المكتبة الصقلية ، ص ٣٨ ـ ٤١ ، أحمد المدني ، المسلمون في صقلية ص ٦٠ (عن وصف الساحل الجنوبي) .

(وهي قلعة حصينة على بعد ثلاثة أميال من البحر ، بها حامة حامية عذبة الماء معتدلة السخونة كان يستحم فيها الناس) التي تقع على مرحلة من طرابنش ، ثم قلعة « أولى » على بعد ١٠ (عشرة) أميال ، ثم بلدة برطنيق على بعد ١٢ ميلا (ومنطقتهاغنية بزراعة القطن والحناء) ثم شنس على بعد ٨ أميال ، ثم بلدة قرينش (الغنية باللوز والتين الناشف والخروب) . ومن قرينش الى بلرم ١٢ ميلا(٥٤) .

ومن بلرم الى مسينا ، حيث يسير الساحل في اتجاه الشرق في شكل أفقي ، يعدد الادريسي ١٠ (عشرة) مواضع ما بين حصن وبلدة لطيفة ، هي : حصن بورقاذ على بعد ١٢ ميلا ، وصخرة الحرير (الداخلة في البحر) على بعد ١٢ ميلا ، وحصن جلفودي (الذي يشبه المدينه) على بعد مرحلة ، وحصن طزعة (القايم على سطح جبل منيع) على بعد مرحلة وقلعة القوارب على بعد ١٢ ميلا ، وبلدة القارونية (التي تعتبر أول اقليم مسيني) على بعد ١٢ ميلا ، وبلدة شنت ماركو (التي اشتهرت بحريرها ونسيجها ، وبصناعة المراكب من خشب جبلها) على بعد ١٠ (عشرة) أميال ، وحصن ناصو على بعد ١٠ (عشرة) أميال ، وبلدة بقطش على بعد ١٢ ميلا ، ثم بليدة ليبري على مسافة ٣ أميال ثم حصن ميلاص (الذى كان كثير الكتان الطيب ، وفي مياهه يصطاد التن الحفيل) على بعد ١٢ ميلا .

وبعد ميلاص تأتي مسيني ، على بعد مرحلة في نهاية الشاطيء الشمالي ، وفي رأس المثلث ، حيث يلتقي الشاطيء الشمالي بالشاطيء الشرقي في مقابل بلدة ريو في قلورية(٥٥) .

وهكذا يعدد الادريسي المواضع الرئيسيه على كل من شواطيء صقلية التي تكون أضلاع شكلها المثلث . وطول الجهة الشرقية من الجزيرة التي تمتد من مسيني الى البوالص أو جزيرة الارنب ٢٠٠ (مائتي) ميل ، والجهة الجنوبية من طرف جزيرة الأرنب الى طرابنش طولها ٤٥٠ (أربعمائة وخمسون) ميلا ، وهذا الشاطيء هو اطول أضلاع المثلث ، أما الجهة الشمالية ، من اطرابنشي الى المجاز أو الفارو ، فطولها ٢٥٠ (مائتان وخمسون) ميلا(٥٦) . والادريسي يخصص دراسة تفصيلية لكل مراسي تلك

(٥٤) الادريسي ، المكتبة ، ص ٤١ - ٤٣ .

(٥٥) انظر الادريسي ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٨ - ٣٣ .

(٥٦) الادريسي ، المكتبة الصقلية ، ص ٧١ .



شكل رقم (٢)

صقلية بين افريقية وقلورية ـ كما رسمها الادريسي

الشواطىء من كبيرة وصغيرة ، ويحدد المسافات بينها ، بحيث يذكر لنا على الساحل الشرقي أكثر من ٤٠ (أربعين) مرسى تتراوح المسافات فيما بينها ، على الجملة ، من ميل واحد الى ٢٥ ميلا . أما المسافات بين معظمها فهي ما بين ٦ أميال و ١٢ ميلا(٥٧) . ويعدد من مراسي الساحل الجنوبي من مرسى البوالص الى طرابنش أكثر من ٣٧ مرسى(٥٨) . ومن مراسي الساحل الشمالي ما بين مسيني وطرابنش يعدد أكثر من أربعين مرسى(٥٩) .

أما عن مدن الداخل فأهمها : علقمة (Alcamo) في الركن الغربي من الجزيرة ، وقصر يانة (Castro Giovanni) وهو الإسم المشتق من انا (Enna) اسمها القديم ، وقلعة أبيس (Caltani Setta) ، وقلعة جيروله (Caltagirone) التي تقع في جنوب منتصف المسافة مابين قطانيا وجرجنت(٦٠) .

الوصف :

جزيرة الخصب والعمران :

وبفضل موقع صقلية الجزري في وسط البحر المتوسط . في الاقليم المعتدل الرابع والخامس — حسب تقسيمات الجغرافيين العرب التي أخذوها عن بطليموس — وبفضل جبالها وكثرة مياهها ، كانت في نظر العرب صنوة الأندلس من حيث : غناها الزراعي والحيواني ، وكذلك المعدني . فهي عند المقدسي : « جزيرة واسعة جليلة ليس للمسلمين جزيرة أجل ، ولا أعمر ، ولا أكثر مدنا منها(٦١) . وبها من الخصب والزروع والمواشي والرقيق ما يفضل عن سائر مدن الاسلام المتاخمة للبحر ، كما يقول الاصطخري(٦٢) .

أما ابن حوقل الذي زار الجزيرة في سنة ٣٦٢ هـ/٧٢ — ٩٧٣ م ، فيقول ان الغالب عليها الجبال والقلاع والحصون» وان جميع أرضها مسكونة

---

(٥٧) الادريسي ، المكتبة الصقلية ، ص ٦٨ — ٧٠ .
(٥٨) الادريسي ، المكتبة الصقلية ، ص ٦٧ — ٦٩ .
(٥٩) الادريسي ، المكتبة الصقلية ، ص ٦٦ — ٦٧ ، ٧٠ — ٧١ .
(٦٠) انظر ماركيلو موروبلو ، بيروت ١٩٥٧ ، ص ٢ .
(٦١) احسن التقاسيم ، ط . بريل ١٩٠٦ ، ص ٢٣٢ .
(٦٢) الاصطخري ، المسالك ، المكتبة الصقليه ، ص ٢

مزروعة(٦٣) . وهي في وصف البكري الاندلسي : كثيرة الزرع والضرع والفواكه(٦٤) . والادريسي ، الذي رسم خريطتها مبينا مدنها وقراها وأنهارها ، مما أشرنا الى بعضه ، يصفها قائلا « ان جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلا ومحاسن ، ووحيدة البلدان طيبا ومساكن ، وقديما دخلها المتجولون من سائر الأقطار ، والمترددون بين المدن والأمصار ، وكلهم أجمعوا على تفضيلها ، وشرف مقدارها وأعجبوا بزاهر حسنها ، ونطقوا بفضائل ما بها ، وما جمعته من مفترق المحاسن ، وضمته الى خيرات سائر المواطن(٦٥) .

ابنة الأندلس :

أما ابن جبير ، الرحالة الأندلسي ، فقد قال في وصفه لصقلية : « وهي كثيرة المدن والعمائر والضياع ، وتسميتها تطول ... وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف ، وكفى بانها ابنة الأندلس في سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة ، مشحونة بالأرزاق على اختلافها ، مملوءة بأنواع الفواكه واصنافها . وجبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح والشاه بلوط ، والبندق ، والاجاص ، وغيرها من الفواكه(٦٦) .

ومما نقله ياقوت عن صقلية : « وهي كثيرة المواشي جدا ، من : الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والحيوان الوحشي . وأن بها جميع الفواكه على اختلاف أنواعها ، وأن كلأها لا ينقطع صيفا ولا شتاء ، وأرضها تنبت الزعفران » . وهو يضيف : « وليس فيها سبع ولا حية ولا عقرب »(٦٧) ، مما يميزها على سائر البلدان .

الثروة المعدنية :

والمهم أن صقلية كانت تتميز عن كثير من بلاد العرب بانها كانت غنية بمعادنها التي تمثلت ، في : الكبريت والحديد والذهب والنحاس والرصاص والزئبق والنوشادر والنفط وغيرها ...

---

(٦٣) ابن حوقل ، المسالك - المكتبة الصقلية ، ص ٤ .
(٦٤) البكري ، جغرافية الأندلس واوروبا ، ص ٢١٢ .
(٦٥) الادريسي - المكتبة الصقلية ، ص ٢٥ .
(٦٦) ابن جبير ، المكتبة الصقلية ، ص ٨٢ .
(٦٧) معجم البلدان ، ج ٣ ص ٤٠٧ .

جبـــل النار :

وأول ما كان يثير انتباه الكتاب العرب ، كما أثار انتبــاه اليونان والرومان قبلهم ، هو بركان صقلية الشهير ، الذي عرف عند العرب باسم « جبل النار » ، كما عرف باسم « الأطمة » أي عن النار التي تنبـــع من الأرض(٦٨) • وهو بركان آتنا المشهور الذي يصل ارتفاعه الى أكثر من ٣ (ثلاثة) آلاف متر • ورغم أنه كان بركانا هامدا الا انه كانت له ثورات وغضبات ما بين الحين والحين ، ولو أن المقدسي حدد الزمن ما بين الفــورة والأخرى بعشر سنوات(٦٩) •

الحجر الخفاف والذهب :

وكان البركان يقذف اللهب الذي كان يتساقط مكونا الحجر الخفاف ، الذي كان يطفو ما يقع منه في البحر على سطح الماء ، وهو في شكل حجر اسفنجي أسود اللون ، بينما الذي يسقط منه في البر يكون أبيض واصفر ووردي اللون ، في « هيئة الشهد وأكواز النحل الصغيرة » • وكان الأسود من هذا الحجر يستخدم لحك الأرجل في الحمام ، ولهذا سمي بحجر الرجل ، كما كان يستخدم الأبيض منه مثلما تستخدم الممحاة فتحك به الكتابة من الدفاتر والرقوق ، ومنه ما كان يعـــرف بـ « الفـــك » ، وما كان يسمى بـ « القيسور »(٧٠) •

هذا ، كما كان الذهب يستخرج من بعض المناجم في جبل البركان ، ولهذا السبب عرف جبل النار أيضا بـ « جبل الذهب »(٧١) •

الكبريت :

ومما عده الكتاب من عجائب صقلية أيضا معدن الكبريت الأصفر ، الذي وصف بأنه لا مثيل له بموضع آخر • ومنجم الكبريت لم يكن بعيدا من جبل النار ، وكان له : « قطاعون عاملون يتنـــاولون ذلك ، قد تمرطت

---

(٦٨) انظر المسعودي ، مروج الذهب ، المكتبة الصقلية ، ص ١ ، والتنبيه والاشراف ، المكتبة ص ٢ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤٠٧ ، ج ٤ ص ٥٥٥ •

(٦٩) أحسن التقاسيم ، ص ٢٤١ •

(٧٠) المسعودي ، مروج الذهب ، المكتبة ، ص ٦ ، التنبيه والاشراف ، المكتبة ، ص ٢ — وقارن تحفة الألباب ونخبة الاعجاب لأبي حامد الغرناطي ، المكتبة ، ص ٧٤ •

(٧١) القزويني ، عجائب المخلوقات ، المكتبة ، ص ٢٣٩ •

شعورهم ، ونصلت اظفارهم من حرة ويبسة » . وكانوا « يجدونه فى بعض الأيام سائلا متميعا ، فيتخذون له فى الأرض مواضع يجتمع فيها » ، كما كانوا « يجدونه فى غير ذلك الأوان قد تحجر فيقطعونه بالمعاويل »(٧٢) .

وكان الكبريت يوجد أيضا فى جنوب شرقى صقلية فى : جرجنت وفى الشرق فى : قطانيا ، وفى الشمال الشرقى ، حول بلرم .

النفط :

والنفط (البترول) كان معروفا فى الجزيرة أيضا ، وكان يستخرج من بعض الآبار بالقرب من قلعة المينا » ، غير بعيـــد من سرقوسة . وكان للنفط موسم معلوم من السنة يظهر فيه على سطح الماء فى تلك الآبار ، وذلك فى أواخر الشتاء وبدء الربيع خلال ثلاثة اشهر ، هى : شباط (فبراير) وآذار (مارس) ونيسان (ابريل) .

أما عن كيفية استخراجه : فكان للآبار درج ينزل عليه الرجل من العاملين فى استخراج النفط ، وقد خمر رأسه ، اى غطاها بقطعة من القماش كالخمار أو النقاب . « ويسد مسام أنفه ، وان تنفس فى البئر هلك فى ساعته » . وما أخرج من النفط « وضع فى قصار (أى آنية فخار) فيملو الدهن منه ، وهو المستعمل »(٧٣) .

ومن معادن صقلية المشهورة النوشادر الابيض الذى كان يرفع الى بلاد الاندلس رغم وجوده هناك — وكذلك الى مصر . ولو أن أهل مصر استغنوا عنه بعد ذلك بتراب الحمامات ، كما يقول المقدسى(٧٤) .

٣ — السكان :

لما كانت صقلية ، بفضل موقعها الجغرافى ، فى منتصف البحر المتوسط ، اشبه بمعبر بين اوروبا وافريقية ، لم يكن من الغريب ان يطرأ على تكوينها البشرى الكثير من التغيير والتبديل ، تبعا لمجريات الأحداث فى حوض البحر

---

(٧٢) البكرى ، جغرافية الاندلس واوروبا ، ص ٢١٥ ، وانظر رواية البكرى ، كما نقلها أمين الشباط ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٦٠ .

(٧٣) البكرى ، جغرافية الاندلس واوروبا ، ص ٢١٦ .

(٧٤) احسن التقاسيم ، ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

المتوسط ، وفي كل من الساحلين المشرفين على الجزيرة ، سواء في اوروبا أم في افريقيا ، حتى صارت قصة الجنس الأصـــلي لسكان صقلية ، وهم الصيقلو أو الصقليون أشبه بقصة أسطورية ، كما رأينا(٧٥) ٠

منذ القديم عرفت الجزيرة الفينيقيين ، واليونان ، والقرطاجيين ثم الرومان الايطاليين ، وقبائل الغربيين من : الجرمان والوندال ، قبل أن تدخل في نطاق الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وهي بيزنطة او دولة الروم كما عرفها العرب ، وذلك عندما استرجعها بليزاريوس من أيدي الوندال ، هي وولاية المغرب حوالي سنة ٥٣٠ م(٧٦) ٠

ومع أنه مما لا شك فيه أن مجيء كل موج من الغزاة أو المهاجرين كان له أثره على التركيب البشرى لسكان الجزيرة وعلى لغتهم ، فان جمهرة السكان ظلت ذات طابع بشرى ولغوى ومزاجى خاص بها ، يفرقها — على كل حال — عن جنس الغزاة ، سواء كانوا من الفينيقيين أو اليونان او القرطاجنيين أو الرومان والروم ٠ ومثل هذا سيحدث على أيام العرب أيضا ، وان كان الى حد محدود ، بسبب التغييرات الأساسية التى طرأت على اهل كل البلدان التى دخلت فى حوزة الدولة الاسلامية ، اذ صاروا عربا أولا وقبل كل شيء ٠

روم افريقية يعمرون صقلية :

وفيما يتعلق بروم صقلية يقـــول ياقوت : ان الجزيرة كانت قليلة العمارة ، خاملة قبل الاسلام ٠ فلما فتح المسلمون بلاد المغرب ، هرب أهل أفريقية اليها فأقاموا بها يعمرونها ، فأحسنوا — حتى تنحت فى أيام بني الأغلب(٧٧) ٠

وهذه الفقرة الأخيرة تدل على الصله الوثيقة بين افريقية وصقلية ، على عهد البيزنطيين قبيل دخول العرب الى المغرب ٠ وهى تبين أن الصبغة الرومية البيزنطية كانت الغالبة على أهل صقلية ٠

---

(٧٥) أنظر فيما سبق ، ص ١٩٧ ٠

(٧٦) أنظر احسان عباس ، العرب فى صقلية ، ط٠ دار المعـــارف بمصر ، ص ٢٥ ، مارتينو موريبو ، المسلمون فى صقلية ، ص ٢ — ٦ ٠

(٧٧) انظر معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤٠٧ — وقريب من هذا ما يقوله الدمشقى ، فى نخبة الدهر وعجائب البر والبحر ، عن صقلية ، وهو يذكر تحولها الى الحضارة بعدما كانت فى أيدى المسلمين كانت حاضرة فى العلم ، كثيرة العلمــــاء والأدباء والفضلاء // صناعية الأندلس — المكتبة الصقلية ، ص ١٤٤ ٠

ولا شك أن فكرة صقلية الرومية هي التي جعلت العرب يجعلونها بلد كبار مفكري اليونان القدماء . فبلرم هي بلد ارسطاطاليس الذي كان معلقا في خشبة في هيكلها(٧٨) . والفيلسوف فرفوريوس ، صاحب كتاب المدخل الى كتب ارسطاطاليس المعروف باسم « ايساغوجي » ، هلك فيها في جبل النار(٧٩) ، وكان بها كذلك قبر جاليوس(٨٠) .

والرواية تبين أيضا أنه اذا كان روم افريقية قد غادروا البلاد وانتقلوا الى صقلية يعمرونها ، فلم يكن من العسير على العرب بعد أن استقروا في افريقية أن يتبعوهم الى هناك ، وأن يتابعوا ذلك العمران في شتى المجالات -

---

(٧٨) مراصد الاطلاع - للبكري ، المكتبة ، ص ٢٣٧ ، كتاب جغرافية مجهول ، المكتبة ص ١٢ .

(٧٩) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، المكتبة ، ص ٢ ، مروج الذهب ، المكتبة ص ١ -

(٨٠) عن البكري ، كما نقله ابن الشباط ، المكتبة ، ص ٢١٠ .

فتح الأغالبة لصقلية

المقدمات :

صقلية : دار أهل العهد :

كانت صقلية اذن ، بعد فتح العرب للمغرب ، مركزا للأسطول البيزنطي ، يهدد منه سواحل المغرب العربية ومراكب التجار العرب(٨١) ، كما كانت أيضا ملجأ لأعداء العرب من روم افريقية الذين تركوا البلاد ، واستقروا في الجزيرة ، وعملوا - وهم يكنون العداء للعرب - على زيادة انتعاشها الاقتصادي الذي جعل منها توأمة الأندلس . وكان كل من هذين العاملين كافيا ، وحده ، لكي يفكر العرب جديا في غزو الجزيرة عندما أصبحوا قوة بحرية تستطيع مناوأة الروم في البحر . وهكذا بدأت الغارات الاستطلاعية السابقة على صقلية وغيرها من جزر البحر ، مثل : سردينيا وكورسيكا ، وهي الغارات التي كانت تنتهي في كثير من الأحيان بالصلح ودفع الجزية للعرب . وبذلك لم تعد صقلية أرض العدو وبلاد المغانم والسبي فقط ، بل بلاد المعاهدين من أهل الذمة أيضا .

هذا ، ولو أن المصادر لا تمدنا بتفصيلات عما كان يتم بين الروم والعرب من المعاهدات، مما يعني أن أهل ذلك العصر لم يكونوا يستسيغون قيام السلام بين الروم ودولة الاسلام ، حتى كانت تلك المعاهدات تتم بما يحفظ سريتها ، من : الخفاء والكتمان .

ذلك ما يتضح من دراسة الأسباب التي أدت الى غزو الأغالبة لصقلية ، على عهد الأمير زيادة الله الأول ، في سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م . حقيقة أن اضطراب الجند الأغلبي ، وعدم الاستقرار الذي عرفته معظم ولايات افريقية يمكن أن يكون من الأسباب التي حدت بالأمير الى توجيه نشاط جنده ورعاياه نحو الجهاد فيما وراء البحار في صقلية ، بدلا من صرفه في الفتن والتقاتل

---

(٨١) انظر فيما سبق ، ص ١٩٥ .

فيما بينهم · ولكن لكي ينجح الفتح في صقلية ، كان الأمر يتطلب اعـــدادا عسكريا على مستوى مناسب للعملية الكبيرة ، كما كان يتطلب تغطية قانونية تسمح بنقض معاهدة السلام التي كانت معقودة بين روم صقلية من جهـــة وبين الأغالبة من جهة اخرى ، منذ أيام أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب الأمير السابق(٨٢) ·

الصقليون ينقضون الصلح :

ومن الواضح أن معاهدة السلام تلك كانت تقضي بأن يعيد الروم في صقلية كل من كان لديهم من الأسرى : من الجند أو من أهل افريقية(٨٣) · وهو الأمر الذي قام حوله جدل في افريقية في أواخر سنة ٢١١ هـ أو أوائل سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) ، عندما حضر القائد البيزنطي فيمي (أوفيميوس Euphemius) الذي كان خارجا على امبراطور القسطنطينية مع بعض انصاره ، والذي كان يريد أن يستعدي زيادة الله على الروم في صقلية ، أو كان يريد أن يطلب منه معونة عربية ليستعيد بها سلطانه في الجزيرة ، فاعلن أن الروم خرقوا الهدنة في صقلية · وأنهم يحتجزون اعـــدادا من أسرى المسلمين هناك(٨٤) ·

---

(٨٢) انظر المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ص ٨٦ · والحقيقة ان ابراهيم بن الاغلب كان قد عقد الصلح — في سبيل تأمين الملاحة العربية في البحر المتوسط — لمدة عشر سنوات مع القائد البيزنطي في صقلية ، وهو قسطنطين · ورغم تغير السياسة الأغلبية التي هدفت الى تقوية الامارة بحريا عن طريق الاهتمام الكبير بالأسطول مما أثار انتباه البيزنطيين في صقلية ، فان الأمر انتهى بعقد صلح جديد لمدة عشر سنوات بين أبي العباس عبد الله الذي خلف والده ابراهيم بن الأغلب وبين جريجوري القائد البيزنطي في صقلية ، وذلك في سنة ٨١٣ ، كما تم تبادل الأسرى ، وتقرر تأمين سلامة التجار من الجانبين · أنظر عزيز (أحمد) ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ٥ ·

(٨٣) أنظر المالكي ، ج ١ ص ١٨٦ ، المكتبة ، ص ١٨٢ — حيث تقول الرواية على لسان سليمان بن عمران قاضي القيروان بعد سحنون (انظر فيما سبق ج ١ ، ص ٧٤ و هـ ٧٠ الذي كان قد حضر مع شيوخ القيروان كتاب الهدنة ، الذي قرئ على جماعة الناس ، وكان فيه : « ان من دخل اليهم من المسلمين وأراد أن يردوه الى المسلمين كان ذلك عليهم » ·

(٨٤) انظر المالكي ، ج ١ ص ١٨٦ ، المكتبة ، ص ١٨٢ — وهذه الرواية منقولة أكثر من رواية القاضي عياض المقتضبة في المدارك (ص ٤٧٦ ، تراجم اغلبية ، ص ٦٦) التي تجعل الرسل الذين حضروا الى القيروان ، وهم : رسل طاغية الروم و ... الذين ... نفس الرواية مع شك القاضي ابي محرز فيهم · ويؤيد رواية المالكي ما ... عليه الروايات التي تقول ان فيمي ، بعد ان اخرجته جيوش القيصر من صقلية ، سار فصلا الى افريقية ، الى ال —

وجمع زيادة الله أهل الحل والعقد من مستشاريه ، ومن العلماء ، وعلى رأسهم قاضيا افريقية حينئذ ، وهما : أبو محرز وأسد بن الفرات ، لمناقشة أمر اخلال روم صقلية بشروط الهدنة ، اذ احتجزوا بعض أسرى العرب ولم يطلقوهم حسب مقالة فيمي وأصحابه ، الذين كان بينهم واحد من المسلمين ، كما تقول رواية المالكي(٨٥) . ولا بأس أنه كان ترجمانا للروم ، اصطحبوه معهم . والظاهر أن فيمي وأصحابه أرادوا أن يظهروا بمظهر أصحاب الأمر الشرعيين في صقلية ، وهذا ما لم يخف على أبي محرز القاضي ، الذي رأى التروي في أمر تقرير خرق الهدنة حتى تظهر البينة(٨٦) .

وكان أبو محرز يرى عدم الأخذ بمقالة فيمي وصحبه ، على أساس عدم جواز قبول شهادتهم على أنفسهم أو على خصومهم من أبناء جلدتهم . أما أسد ابن الفرات الذي كان قد جمع ، الى العلم والفقه ، الشجاعة - حتى أنه كان يعد من بين شجعان افريقية في ذلك الوقت - والذي كان يميل الى نقض الهدنة ، فانه اعترض على تشكيك أبي محرز في شهادة فيمي وصحبه ، واعتبرهم رسل ملك الروم ، وقال في ذلك : « بالرسل هادناهم ، وبهم نجعلهم ناقضين » . وأضاف الى ذلك الآية التي تقول : « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون » ، وأكد ما تدعو اليه الآية ، بقـــوله : « فنحن الأعلون »(٨٧) .

وعلى أساس فتوى أسد بن الفرات تلك تم نقض الهدنة مع الروم . وبناء على ذلك قرر زيادة الله غزو جزيرة صقلية ، وهو الأمـــر الذي كرهه علماء افريقية وقتئذ ، لأنه لم يصح عندهم أن الروم نقضوا العهد(٨٨) .

صراعات داخلية في الجزيرة تمهد للفتح :

وهكذا كان فتح صقلية ، مثل فتح الأندلس ، نتيجة مباشرة لصراعات داخلية بين زعماء البلاد ممن طلب بعضهم معونة العرب ، أو سهلوا عليهم

= القيروان . انظر ياقوت ، معجم البلدان ط . أوروبا ، ج ٢ ص ٤٠٧ ، البكري . جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ٢٦٩ .

(٨٥) المالكي ، المكتبة ، ص ١٨٢ ، وعن أسد وأبي محرز انظر فيما سبق ، ص ٦٦ وما بعدها .

(٨٦) المالكي ، ج ٢ ص ١٨٦ ، المكتبة ، ص ١٨٢ ، تراجم أغلبية ص ٦٦ .

(٨٧) انظر تراجم أغلبية ، ص ٦٦ ، المدارك ، ص ٤٧٧ ، المالكي ، ج ١ ص ٢٨٧ ، المكتبة ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٨٨) المالكي ، ج ٢ ص ١٨٧ ، المكتبة ، ص ١٨٣ .

أمر الاستيلاء على الجزيرة . ففي سنة ٢١١ هـ/٢٦ - ٨٢٧ م ، قام نزاع بين حاكم صقلية البيزنطي قسطنطين ، وبين فيمي قائد جيش الاسطول الذي تصفه رواية ابن الأثير المنقولة عن الرقيق - التي حافظ عليها النويري بشكل جيد ، بينما انطمست بعض معالمها عند ابن خلدون ، والتي يعتمد عليها ، على أساس أنها يونانية الأصل - بالحزم والشجاعة(٨٩) . وانتهى ذلك النزاع بأن هاجم فيمي بمراكبه سرقوسة العاصمة ، واستولى عليها بعد أن هزم قسطنطين الذي لجأ الى مدينة قطانيا القريبة ، على نفس الساحل الشرقي للجزيرة ، شمال سرقوسه ، حيث طاردته قوات فيمي وأخذته وقتلته .

وبموت قسطنطين آل حكم صقلية الى فيمي الذي اتخذ اللقب الملكي ، بمعنى اعلان الاستقلال عن الامبراطورية ، وعهد بولايات الأقاليم الى اتباعه ، وكان منهم القائد الأرمني بلاطة ، ابن عم ميخائيل حاكم مدينة بلرم . ولم يلبث بلاطه أن طمع بدوره في ملك الجزيرة فتحالف مع ابن عمه ميخائيل ، ونجح الاثنان في هزيمة فيمي ، وانتزاع سرقوسة من بين يديه - وهنا لم يجد فيمي ملجأ الا افريقية حيث كان الأمير زيادة الله(٩٠) .

حقيقة عرض فيمي ، واحتمالات النجاح والفشل ، ودور أسد بن الفرات :

في هذه الظروف ، وبصرف النظر عن نقض الصلح أو عدمه ، عرض القائد فيمي على زيادة الله أن يعاونه على فتح صقلية . وسهل له أمر ذلك ، ووعده - على ما نظن - بأن يكون تابعا له في الجزيرة ، الا اذا كان في نية فيمي الغدر بعد أن يساعده العرب ، وهو الأمر الذي يظهر من خشية العرب من وجوده في صفوفهم ، عندما نزلوا في الجزيرة . والظاهر أن زيادة الله وعددا لا بأس به من مستشاريه ، وعلى رأسهم القاضي أسد بن الفرات ، أرادوا انتهاز الفرصة ، ودفع حدود الاسلام في قلب البحر المتوسط ، بل والى السواحل الاوروبية بضم صقلية . ولكنهم كانوا مترددين في حساب الكسب والخسارة في المغامرة البعيدة فيما وراء البحر ، وخاصة أن القصد ، هذه المرة ، لم

---

(٨٩) ومن أسباب ثورة فيمي تقول الرواية البيزنطية انه أحب راهبة اسمها هوموتيزا وتزوجها رغم ارادتها - وعندما بلغ ذلك مسامع الامبراطور ميخائيل الثاني أمر حاكم الجزيرة قسطنطين بمحاكمة فيمي وقطع أنفه (أنظر عزيز احمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ٦) .

(٩٠) ابن الأثير المكتبة الصقلية ص ٢٢٠ و ٢٢٣ - النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٦ أ المكتبة ص ٤٢٧ ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٩ ، والمكتبة ، ص ٤٥٦ .

يكن غارة عادية من تلك الغارات التي كانوا يقومون بها على صقلية وغيرها من الجزر القريبة منها ، مثل : سردانية وكورسيكا ، بل هـــو الاستقرار والاستيطان في الجزيرة ٠

يتضح ذلك من المناقشات التي دارت بين فقهـــاء افريقية الـــذين اختلفوا في الأمر ، فكره بعضهم غزو الجزيرة ، على أساس أنه لم يصح عندهم أن الروم نقضوا العهد(٩١) ، أو ما تصح به بعضهم ، عندما قالوا : نغزوها ولا نسكنها ، ولا نتخذها وطنا ٠ ويظهر ذلك بشكل أوضح فيما ينسب الى فقيه افريقية وامامها الشهير سحنون بن سعيد ، من أنه : سأل العارفين بالمسألة عن المسافة بين صقلية وبلاد الروم ، وعن المسافة بينها وبين افريقية. وانه عندما عرف أن الانسان يروح مرتين وثلاثة في النهار من ساحل صقلية الى ساحل بلاد الروم — والمقصود بذلك عبور مجاز مسيني الضيق — وان المسافة بين الجزيرة وبين افريقية : يوم وليلة ، أظهر عدم موافقته عـــلى الغزو ، على أساس ان امدادات الروم ستكون قريبة جدا من الجزيرة ، بينما سيكون العرب بعيدين عن قواعدهم ٠ وهكذا قال سحنون : « لو كنت طائرا ما طرت عليها »(٩٢) ٠

ترتب على ذلك أن انقسم الناس الى ثلاثة أطراف ، من
محبذين للغزو وراغبين فيه ، وعلى رأسهم أسد بن الفرات ٠
ومعارضين للمغامرة غير المضمونة ، وعلى رأسهم سحنون بن سعيد ٠

ثم جماعة الوسط ممن كانوا يودون الغزو ويخشون من القيام بالمغامرة. والمثل لهم زاهد افريقية وعابدها وقتئذ : عبد الرحيم بن عبد ربه الربعي ، الذي كان يعرف بعبد الرحيم المستجاب ، والذي كان في أول أمره تاجرا في سوق البزازين بالقيروان ٠ فقد كان عبد الرحيم مترددا ما بين الخروج للغزو أو البقاء لاصلاح واعادة بناء رباط قصر زياد الذي كان يتردد عليه في الساحل ، فاقنعه سحنون بأن يبقى ويبني قصر زياد ليكون حـــرسا

---

(٩١) انظر الصفحة السابقة ٠

(٩٢) النويري ٠ المخطوط ٠ ج ٢٢ ص ٢٢٦ ب ، المكتبة ٠ ص ٤٢٧ — ٤٢٨ حيث تسمى الرواية صاحب الرأي المعارض باسم : « ابن قادم » الذي ربما كان واحدا من أصـــحاب سحنون ٠ وعن ابن قادم الذي يظهر في صورة واحد من قواد أسد في صقلية وانه كان يحبذ العودة الى افريقية فقال : « كن حياة رجل مسلم أحب الينا من اصـــل الشرك كلهم » ، انظر المالكي ٠ ج ١ ص ١٨٨ ثم ص ١٨٩ ؛ حيث أدب أسد ابن قادم فضربه بالسوط ٠

للمسلمين ، وعونا لهم يلجأون اليه ، ويرابطون فيه(٩٣) .

رأى الشجعان ينتصر : أسد بن الفرات قائدا :

والمهم ان رأى جماعة المتحمسين للجهاد هو الذى انتصر ، فقرر زيادة الله القيام بالغزوة ، وأصدر أمره الى القائد البيزنطى فيمى وأصحابه بالتوجه الى سوسة ، قاعدة الفتح وأرض المحارس والرباط ، والاقامة فيها حتى يتم الاعداد للحملة ، ويستعد الاسطول(٩٤) . ولم يكن من الغريب أن يسند زيادة الله قيادة الحملة الى أسد بن الفرات ، الذى كان على فقهه وعلمه ، معدودا بين الشجعان ، والذى كان قد سبق له غزو سردانية بأمر زيادة الله ، وأشرف على فتحها ، كما تقول الرواية ، لولا حسد من كان معه من القواد(٩٥) .

الاجتهاد فى بناء السفن للحملة :

دار صناعة فى مقبرة سوسة :

ويظهر من سيرة أسد بن الفرات ، كما يعرضها كتاب تراجم علماء افريقية ، انه كان يتعجل الاعداد للحملة والمسير الى الجهاد ، حتى قيل : انه كان يشعر بتثاقل زيادة الله فى ذلك ويشكو منه(٩٦) . هذا ، ولو أننا نجد فى تراجم غير أسد من العلماء بعض التفصيلات الطريفة عما كان يقوم به زيادة الله من تجهيز الاسطول فى سوسة . ففى ترجمة يحيى بن عمر بن يوسف الأندلسى ، دفين سوسة ، يتضح أنه لما أمر زيادة الله بانشاء المراكب

---

(٩٣) انظر المالكى ، ج ١ ص ٣٢٧ ، المكتبة ، ص ١٨٦ — وتقول الرواية ان سحنون بن سعيد نصح عبد الرحيم بذلك لانه كان يعرف عنه انه يخاف البحر . وان عبد الرحيم عندما شاور أسد بن الفرات فى نصيحة سحنون له ، رد عليه قائلا : « الذى أشار عليك به هو الصواب » ، وان أسدا أثنت موافقته على ذلك بان سعي فى موافقة الأمير على أن يبنى عبد الرحيم قصر زياد ، فأخرج له السجل الخاص بذلك . وتقول الرواية ان عبد الرحيم أنفق فى اصلاح القصر واعادة بنائه ١٨ (ثمانية عشر) ألف دينار ، منها ١٢ (اثنى عشر) ألف دينار من ماله ، و ٦ (ستة) آلاف دينار من مال اخوانه ومحبيه .

(٩٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٦ ب ، المكتبة ، ص ٤٢٨ .

(٩٥) تراجم الغلبية ، ص ٦٧ — وتقول الرواية ان حسد اخوانه له اثناء الفتح بلغ مسامع الامير الذى سأل عن اسماء المتهمين فى الامر وان أسدا رفض ان يسميهم .

(٩٦) المالكى ، ج ١ ص ١٨٧ ، المكتبة ، ص ١٨٢ .

للخروج الى صقلية ، كان فتيانه من السودان يشاركون في عمال دار الصناعة التي ضاق بها المكان حتى أن العاملين في بناء السفن اضطروا الى استخدام مقبرة سوسة ، وهدموا ما فيهـا من القبور ، حيث رقدوا المراكب التي كان يجرى انشاؤها ، « الا قبر يحيى بن عمر ، ما جسر احد على هدمه » وعندما سئل بعض العاملين من الفتيان السودان قال : « أما ترى عليه نورا عظيما ، فهو الذى منعنا من هدمه »(٩٧) .

الذى يفهم من ترجمة أسد بن الفرات انه ، في الوقت الذى كان يتعجل الاعداد للحملة ، كان يفضل البقاء في وظيفة القضاء . ففي ذلك تقول الرواية انه قال لزيادة الله « أصلح الله الأمير من بعد القضاء ، والنظر في حلال الله تعالى وحرامه ، تعزلني وتوليني الامارة ؟ » وكان رد الأمير « انى لم أعزلك عن القضاء ، بل وليتك الامارة ، وهي شرف من القضاء ، وأبقيت لك اسم القضاء فأنت قاض أمير » . وزعم ما تقوله الرواية من انه « لم يجتمع الامارة والقضاء لاحد ببلد افريقية الا لأسد »(٩٨) ، فقد كان ذلك أمرا طبيعيا بالنسبة لأسد ، اذ كان الجيش يحتاج دائما الى قاض ، يسمى « قاضي العسكر » ، للنظر في أمور الحلال والحرام ، بين الجند ، وينظر في مسألة توزيع المغانم وتحديد الخمس الخاص بالأمير . وهكذا ، بينما كان الاعداد للحملة يجرى على قدم وساق ، والناس يتواردون على أسد يسألونه عن الخروج معه ، وما يحس أن يكون معهم من العدة والعتاد ، أصدر زيادة الله سجلا بولاية أسد على صقلية أميرا وقاضيا(٩٩) .

خروج أسد من القيروان :

وعندما جهز الأسطول في سوسة ، وتم الاعداد للحملة في القيروان ، كان على أسد بن الفرات أن يخرج لركوب الأسطول في سوسة ، وذلك بعد إقامة حفل عقد اللواء له في المسجد الجامع بالقيروان بمعرفة الأمير ، حيث يقرأ سجل الامارة ، أى قيادة الحملة . ويصف مترجموا أسد بن الفرات حفل خروجه من القيروان ، في الطريق الى سوسة ، وصفا رائعا : فقد خرج محوطا

---

(٩٧) المالكي ، ج ١ ص ٢٠٠ ، المكتبة ، ص ١٨٧ — ١٨٨ .

(٩٨) المالكي ، ج ١ ص ١٨٢ ، المكتبة ، ص ١٨٢ تراجم أغلبية ص ٦٦ .

(٩٩) المالكي ، ج ١ ص ٢٢٧ ، المكتبة ص ١٨٦ ؛ ترجمة عبد الرحيم بن عبد ربه . وتقول الرواية ان اسدا حمل الأمير يصدر أيضا سجلا بناء قصر بن زياد ، كما سبق .

بوجوه أهل العلم من المودعين وكبار أهل افريقية من عامة الناس ، ورجال الحاشية الذين خرجوا جميعا بأمر زيادة الله .

ونظر أسد الى الناس عن يمينه وعن شماله ، والبنود مشورة فوق الرؤس ، وقد صهلت الخيل ، وضربت الطبول ، فأخذه التأثر . ووقف القائد الفقيه خطيبا في الجمع الحاشد من المشيعين ، فقال : « والله يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا جد قط ، ولا رأى أحد من بيتي مثل هذا قط ، وما رأيت ما ترون الا بالاقلام ، فاجهدوا أنفسكم واتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه واصبروا على شدته فانكم تنالون به الدنيا والآخرة »(١٠٠) . فكانت مناسبة استغلها القاضي القائد للحث على طلب العلم الى جانب الدعوة الى الجهاد .

حجم الحملة ومعداتها :

ولا نعرف متى خرج أســــد من القيروان ولا كم من الوقت أمضى في سوسة حيث كان يشرف على رجال الحملة الذين بلغ عددهم ٧٠٠ (سبعمائة) فارس بخيلهم ، و ١٠ (عشرة) آلاف راجل . ولكن من المعروف أنهم كانوا قد انتظموا في مراكبهم التي بلغت ١٠٠ (مائة) مركب ، قبل صباح السبت الموافق للنصف من شهر ربيع الأول من سنة ٢١٢ هـ/١٤ يونية ٨٢٧ م ، حينما أعطيت الاشارة للاسطول بالاقلاع ، وذلك في خلافة المأمون(١٠١) .

وهذا يعني أن حمولة المركب كانت حوالى ١٠٠ (مائة) رجل دون النوتية . وتقول رواية ابن عذارى ان رجال الحملة كانوا يتكونون من أشراف افريقية ، من : العــــرب والجنـــــد والبربر والأندلسيين ، وأهــــل العلم والبصائر(١٠٢) . وذلك يعني أن العرب الذين شاركوا في الحملة كانوا من سلالة القرشيين وعرب الفتوح الأولى في افريقية الذين عرفوا بالبلديين ، الى جانب التميميين من أقارب الأغالبة. أما الجند فالمقصود بهم عسكر الأميروفتيانه من الصقالبة ومن السودان ، وأما بربر افريقية فلا بأس أن يكونوا جماعات من هوارة طرابلس ونفزاوة ، ومن قبــائل الزاب وبضمنهم كتامة . أما عن

---

(١٠٠) المالكي ج ١ ص ١٨٨ ، المكتبة ، ص ١٨٤ ، وقارن تراجم إغلبية ، ص ٦٧ .

(١٠١) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٦ ب ، المكتبة ، ص ٤٢٨ ثم المخطوط ، ص ١١١ ا حيث تقول الرواية ان أسدا سار في عشرة آلاف ـ وقارن المالكي ج ١ ص ١٨٧ .

(١٠٢) ابن عذارى ج ١ ص ١٠٢ .

الأندلسيين فالمقصود بهم ، كما نرى ، أولئك الذين كانوا قد استقروا في افريقية ، ومنهم من كان من أهل العلم والبصائر ، الذين ساهموا في هذا الجهاد ، وهم غير الأندلسيين من الغزاة البحريين الذين سيأتي ذكرهم عما قريب ٠

أما عن مراكب فيمي التي لا تشير اليها الرواية في تلك الرحلة ، فأغلب الظن انها سارت بصحبة اسد ، كما تقول رواية النويري(١٠٣) ٠

اقلاع الحملة الى مازر (مزاره Mazara) :

واذا كانت الرحلة في البحر في ريح الصيف المواتية تستغرق يوما وليلة ، كما قيل لسحنون(١٠٤) ، وهي مسافة مجربين بمسافات أهل البحر وقتئذ ، أي حوالي ١٢٠ ميلا ، فان هذا لا يعني أن أسطولا حربيا مثقلا بالرجال والعتاد كان يمكنه أن يصل في اليوم التالي الى ساحل صقلية ٠ فقد استغرقت الرحلة ٣ (ثلاثة) أيام ، ووصل الأسطول الى ساحل مازر صباح يوم الثلاثاء ١٣ من ربيع الأول (١٦ يونيه)(١٠٥) ٠

أما عن اختيار ساحل مازر لنزول الحملة ، فكان يحقق للعرب ميزتين : احداهما ، أن ساحلها يعتبر أقرب السواحل الصقلية الى الأرض الافريقية ، وثانيتهما : أنها كانت بعيدة عن مركز الثقل البيزنطي في الجزيرة ، وذلك على الساحل الشرقي حيث : سرقوسة وقطانيا و بلرمين ، كما أن مدينة مازر نفسها كانت بعيدة في الداخل على بعد أميال من الساحل ٠

مازر قاعدة العمليات :

وهكذا ، أمر أسد بن الفرات بالخيل فأخرجت من المراكب في هدوء ، وتبعها الرجال ، واتخذ له في الموضع معسكرا ، وانتظر يتحسس مواضع قدميه في المكان لمدة ثلاثة أيام ٠ وواضح من رواية النويري أن أصحاب

---

(١٠٣) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٦ المكتبة ، ص ٤٢٨ (حيث يقول ان الاسطول كان في « نحو مائة مركب سوى مراكب فيمي ») ٠

(١٠٤) انظر فيما سبق ، ص ٢١٣ ٠

(١٠٥) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٦ ب ، المكتبة ص ٤٢٨ ، وانظر تاريخ صقلية حسب تاريخ الروم ، المكتبة الصقلية ص ١٦٥ (حيث يجعل الوصول الى مازر في منتصف يوليه ؟ ٠

فيمي لم ينزلوا في المعسكر العربي ، بل أقاموا بالقرب منه ، وذلك أن رجال أسد عندما أخذوا في اليوم الثالث سرية من سرايا الروم ظهر لهم أنهم من أصحاب فيمي فتركوهم(١٠٦) ، مما يعني أن المنطقة لم تكن محصنة ، وأنه لم يكن بها حاميات من البيزنطيين ·

وبذلك استولى أسد على مازر ، وبث سراياه في المنطقة تغنم وتسبي ، حتى امتلأ المعسكر بالسائمة الكثيرة والسبي والسلاح (كراعات)(١٠٧) ·

اللقاء مع حاكم الجزيرة في « مرج بلاطه » (Pelato ?) :

وعندما اطمأن أسد الى سلامة موقعه قرر المسير الى لقاء القائد الأرمني بلاطه ، الذي كان قد سيطر على الجزيرة وطرد فيمي · فعبأ رجاله وخرج بهم من مازر متجها الى حيث كان بلاطه في بعض قلاعه بمرج يعرف باسمه ، فهو « مرج بلاطه » ، مسترشدا بفيمي ورجاله· وعندما برز بلاطه ، عبأ أسد رجاله في هيئة القتال ، وطلب من فيمي ورجاله أن يقفوا بعيدا على الحياد · وانتهى القتال غير المتكافىء في نظر الرواية التي تقول ، بكثير من المبالغة ، ان بلاطه زحف في ١٥٠ (مائة وخمسين) ألفا(١٠٨) بانهزام بلاطه نحو قصريانة (كاستروجيوفاني) ، وهي المدينة الكبيرة التي تعتبر عاصمة وسط الجزيرة ، بعد أن فقد كثيرا من رجاله ، وترك الكثير من عدده وعتاده غنيمة بين أيدي رجال أسد ·

وللرواة الحق في تضخيم الدور الذي قام به أسد بن الفرات أثنـــاء القتال الكبير · فهو عندما طلب الى أصحاب فيمي أن يعتزلوا رجاله ، أمرهم بأن يجعلوا على رؤسهم سيما يعرفون بها لئلا يتوهم واحد من العرب أنهم من الأعداء ، فيصيبهم بمكروه · وبنـــاء على ذلك لقد جعل أصحاب فيمي الحشيش على رؤسهم(١٠٩) مما يعني أنهم كانوا مختبئين فيما يشبه الكمين وأنهم استخدموا فروع الأشجار والحشيش على رؤسهم للتمويه ·

---

(١٠٦) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٦ ب ، المكتبة ، ص ٤٢٨ ·

(١٠٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠٣ ·

(١٠٨) المالكي ، ج ١ ص ١٨٨ ، المكتبة ، ص ١٨٤ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١١ أ · وتذكر هذه المبالغة بما قيل في فتح الأندلس من أن جيش لذريق كان يزيد على مائة ألف بينما كان جيش طارق حوالى عشرة آلاف ·

(١٠٩) المالكي ج ١ ص ١٨٨ ، المكتبة ص ١٨٥ ·

ووقف أسد يحمل لواء القيادة في قلب عسكره ، وهو يزمزم بآيات من القرآن الكريم ، وخاصة سورة « ياسين » . وعندما بدأ الروم حملتهم على رجاله الذين راعهم الأمر ، أقبل أسد يرفع من معنوياتهم ، ويقول لهم : « هؤلاء عجم الساحل ، هؤلاء عبيدكم لا تهابوهم » ، واندفع باللواء تحت ابطه ، وحمل الناس معه . وبلغ من تشبث أسد باللواء تحت ابطه أثناء تموج الناس في المعركة الى درجة أن سال الدم من تحت ابطه على قناة اللواء ، وعلى طول ذراعه(١١٠) .

ولم يستقر بلاطه كثيرا في قصريانة اذ غلبه الخوف من العرب ، فخرج من قصريانة نحو مسيني من حيث عبر الى قلورية في جنوب ايطاليا ، ربما من أجل العودة بمن كان يدين له بالطاعة في هذا الصقع من الرجال ، ولكنه قتل هناك(١١١) .

وبذلك تحققت أول مرحلة من مراحل غزو صقلية على يدى أسد ابن الفرات الذى كتب الى زيادة الله بالفتح . وكان على الامير الأغلبى أن يخطر بدوره الخليفة المأمون فى بغداد بما تم فى صقلية من الفتوح باسم الخلافة(١١٢) .

التوسع نحو سرقوسة :

وبعد ذلك عاد أسد بن الفرات فى اتجاه معسكره بمازر ، وهو يكتم آلام ابطه الجريح . واستولى فى طريق العودة على الحصون والقرى الواقعة على البحر ، مثل افيمية التى كان بها كنيسة كبيرة . وبعد أن أصلح أسد من شأنه قرر المسير نحو الشرق الى سرقوسة حيث قوات الروم الرئيسية ، فترك مازر بعد أن استخلف عليها القائد أبا زكي الكناني ، واتخذ طريق الساحل الجنوبى فى اتجاه الركن الجنوبى الشرقى من الجزيرة حيث طرق البوالص أو أنف الأرنب ، كما يسميه الادريسى(١١٣) .

---

(١١٠) المالكى . ج ١ ص ١٨٨ ، المكتبة ، ص ١٨٥ ويشرح المالكى عجم الساحل بأنهم الذين كانوا هربوا من ساحل افريقية عندما فتحها العرب . وانظر تراجم أغلبية ، ص ٦٧

(١١١) النويرى المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٦ ب ، ٢٢٧ أ المكتبة ، ص ٤٢٨ وانظر ابن الأثير ، صفحة ٢٠١ ، ابن خلدون المكتبة ، ص ٤٦٦ .

(١١٢) انظر فيما سبق ، ص ٢١٨ .

(١١٣) الادريسى المكتبة ص ٣٧ ٧١ وعن افيمية انظر النويرى المخطوط ص ٢٢٧ أ .

وتقول الرواية انه التقى بالقرب من البندة المعروفة بكنيسة السنقين. بعدد من الروم بقيادة بعض بطارقة سرقوسة ، و بهم خدعوه ومكروا به ، عندما طلبوا منه الأمان نظير دفع الجزية ، وذلك أن عدقهم كان اتخذ فسحة من الوقت للاستعداد لمواصلة الحرب .

وتنص الرواية على أن أهل الجزيرة اجتمعوا الى قلعة الكرات في الجزيرة المعروفة بنفس هذا الاسم ، على بعد ٣ أميال من البوالص ، حيث جمعوا فيها كل أموال الجزيرة(١١٤) . أما عن أهل سرقوسة الذين ذلوا والقوا سلاحهم، فانهم عادوا الى مناوأة العرب(١١٥) .

وهكذا بعد أن أقام أسد بن الفرات في موضعه أياما تبين له أن أهـــل سرقوسة « مكروا به حتى أصلحوا حصنهم ، وأدخلوا اليه جميع ما كان في الربض وفي الكنـــايس من الذهب والفضـــة والميرة ـ فتقـــدم وناصبهم القتال »(١١٦) .

حصار سرقوسة :

ومن تحت أسوار سرقوسة حيث استقر أسد في معسكره ، أخذ يبث السرايا في أنحاء المنطقة لتعود اليه بالمغانم العظيمة والسبي الكثير ، حتى ضج أهل المنطقة ، واضطر المحاصرون في سرقوسة الى طلب الأمان من جديد . وتقول الرواية أن أسدا كان يميل الى أن يجيب الى ما طلبه أهل سرقوسة من الامان ، ولكنه لم يستطع أمام معارضة المتزمتين من أصحابه . فظل مقيمـــا في المنطقة ، وهو يناصب أهلها العداء ، ويواصل عليهم شن الغارات(١١٧) في البر والبحر جميعا ، بينما كان زيادة الله يواصل امداده بالرجـــال والعتاد(١١٨) .

---

(١١٤) النويري ، المخطوط ، ص ٢٢٧ أ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (في ولاية زيادة الله ، ج ٦ ص ١٣٦) ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٩ .

(١١٥) نفس المصدر .

(١١٦) نفس المصدر .

(١١٧) المالكي ، ج ١ ص ١٨٩ ، المكتبة ، ص ١٨٥ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (ولاية زيادة الله ، ج ٦ ص ١٣٨) ، والنويري ، المخطوط ، ص ٢٢٧ أ .

(١١٨) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (ولاية زيادة الله ، ج ٦ ص ١٣٨) .

القحط والوباء :

والظاهر أن الذى كان قد دفع أسد بن الفرات الى الميل الى عقد الهدنة التى طلبها أهل سرقوسة ، هو القحط والوباء الذى بدأ يحل بالجزيرة منذ السنة التالية لنزوله فى مازر ، وهى سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨ م • فهذا ما يفهم من رواية المالكي التى تشير الى ما نزل بالعسكر من الجوع الذى أضر بهم حتى أكلوا لحم الخيل ، وهو الأمر الذى تؤكده رواية ابن الأثير(١١٩) ، مما دعا بعض كبار القواد الى اقتراح الجلاء عن الجزيرة والعودة الى افريقية •

ورفض أسد بن الفرات بطبيعة الحال كسر الغزوة ، ولم يفقد الأمل فى مقدرة الرجال على انجاز المهمة رغم ما كان يواجههم من الصعوبات • وقام جدل بينه وبين ذلك القائد الذى سميه رواية المالكي بابن قادم ، والذى قال فى معرض دفاعه عن فكرته: « حياة رجل مسلم أحب الينا من أهل الشرك كلهم » - وعندما وجد أسد أن عددا من رجاله يميل الى ترك الغزو والعودة الى الساحل الافريقى هددهم باحراق المراكب• وعندما تطاول ابن قادم عليه، وقال له : « على أقل من هذا قتل الناس عثمان » ، لم يتردد القاضى الأمير فى أن يؤدبه بالسوط(١٢٠) ، تماما كما فعل موسى بن نصير بطارق بن زياد فى قصة فتح الأندلس مع اعتبار عكس الأوضاع •

استمرار الضغط على سرقوسة :

والمهم أنه رغم الوباء والشدة ظل العرب يضغطون على نواحى سرقوسة، ونجحوا فى فتح عدد من المغيران حولها ، وكانت سراياهم تعود من جولاتها بالمغانم والأسلاب(١٢١) التى تعينهم على مواصلة الصراع • بينما كان

---

(١١٩) المالكي ، ج ١٠ ص ١٨٩ ، المكتبة ، ص ١٨٥ ، ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (ولاية زيادة الله ، ج ٦ ص ١٢٨) •

(١٢٠) المالكي • ج ١ ص ١٨٩ ، المكتبة ، ص ١٨٥ ـ والذى يسترعى الانتباه هو أن رواية النويرى ، المخطوط ، ج٢٢ ص ٢٣٦ ، المكتبة ، ص ٤٢٧ ، التى سبقت الاشارة اليها ، والتى نصت على أن الامام سحنون كان من المعارضين لغزو صقلية منذ البداية (انظر فيما سبق ص ٢١٤) تخلط بين سحنون وبين ابن قادم • ولكنه يمكن القول انه ربما كان ابن قادم من أصحاب سحنون • هذا كما يمكن الظن فى أن تكون لقصة فتح الاندلس وما قيل من احراق طارق لمراكبه عقب العبور ، وما قيل من أن موسى ضرب طارقا بالسوط عند طليطلة علاقة بتلك القصة الخاصة بفتح صقلية -

(١٢١) ابن الأثير ، سنة ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٢٢٣ •

الامبراطور ميخائيل الثاني يرسل النجدات الى الجزيرة ، ويعمل على اقناع دوج البندقية « جيوستنيانو بارتيسيباريو Gustiniano Partecipazio بمساهمة أسطوله في مواجهة العرب(١٢٢) .

وهكذا تطلبت العمليات العسكرية أن يستقر أسد في معسكره الجديد تحت أسوار سرقوسة ، وحصنه فأحاطه بخندق يمنع الروم من مداهمته ، وعندما علم العرب بمسير بطريق (قائد) بلرم في عسكر كثيف اليهم ، اقاموا لهم مصائد خارج الخندق . اذ حفروا حفرا كثيرة ، أتت بما كان يرجى منها عندما سقط فيها عدد كبير من المهاجمين وقتلوا . وبذلك نجح العرب في الدفاع عن قاعدتهم ، كما زادوا من ضغطهم على سرقوسة المحاصرة(١٢٣) .

وفاة أسد في الوباء مع وصول اسطول من القسطنطينية :

ولم يكد العرب يتنفسون الصعداء وسط تعب القحط والوباء والجوع حتى فوجئوا بازدياد متاعبهم بوصول أسطول من القسطنطينية معبأ بالرجال والعتاد . وكان وصول الأسطول الرومي في وقت ازدادت فيه شدة الوباء الذي راح ضحيته الكثيرون ، وعلى رأسهم قائدهم وقاضيهم أسد بن الفرات(١٢٤) ، الذي توفي في شعبان من سنة ٢١٣ هـ/أكتوبر — نوفمبر ٨٢٨ م(١٢٥) ، ودفن تحت أسوار سرقوسة(١٢٦) .

---

(١٢٢) عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، ص ٨ .

(١٢٣) ابن الأثير ، سنة ٢٠٢ هـ (زيادة الله) ، المكتبة ، ص ٢٢٣ . وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٩ ، المكتبة ، ص ٦٧ ٤ــ حيث النص على أن المسلمين حاصروا بلرم بدلا من خروج عسكر بلرم الى المسلمين .

(١٢٤) ابن الأثير سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ص ٢٢٣ .

(١٢٥) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٧ أ . وقارن تراجم اغلبية ، ص ٧٠ حيث يضيف الى ذلك انه قيل أن وفاة أسد كانت في سنة ٢١٤ هـ/٨٢٩ م أو في سنة ٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م .

(١٢٦) ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٦٧ ــ حيث يخلط النص بين سرقوسة وبلرم فيقول : انه دفن في المدينة الأخيرة اما نص العبر (ج ٤ ص ١٩٩) فيه انه دفن في قصريانة خطأ — وكان من نصيب ترابصقلية ان يدفن فيه علم أسد الذي كان يتحسر على ضياع علمه بوفاته . فلقد كان يرى في بعض الأحيان وهو يدق صدره ، ويقول : « واحسرتاه ! ان مت : ليدخلن القبر مني علم عظيم » . وانظر تراجم أغلبية ، ص ٦٣ .

اختيار الجند محمد بن أبي الجواري قائدا :

والظاهر أنه كان لوفاة أسد وقع سيء في نفوس عسكره في ذلك الو... الذي كان يفتك بهم الوباء ، حتى قيل أن رهائن الروم الذين كانوا لـ... انتهزوا الفرصة وهربوا(١٢٧) . ورغم أننا لا نعرف أن الأمير زيادة الله قد عين قائدا ثانيا للحملة كما جرت العادة، فان رؤساء الجند اجتمعوا واختا... واحدا منهم ليخلف أسدا في الامارة ، وهو محمد بن أبي الجواري(١٢٨)

الوباء والروم أمام العرب :

العودة الى مازر والتفكير في الرجوع :

وأمام الخسائر التي كان ينزلها الوباء بالقوة العربية وتهديد الج... البيزنطية التي أتت في الأسطول بحرا ، وفي البر أيضا عن طريق ا... وكلابريا ، ترك العرب معسكرهم تحت أسوار سرقوسة وعادوا نحو ا... الى قاعدتهم مازر من حيث قرروا العودة الى افريقية ، فأخذوا في اصـ... مراكبهم .

وتقول الرواية أنهم عندما ركبوا مراكبهم مغادرين مازر ، وجـ... الأسطول البيزنطي يقف لهم بالمرصاد عند المرسى على بعد عدة أميا... المدينة ، ويمنعهم من المغادرة(١٢٩) . وهنا لم يعد أمام العرب من خيـ... البقاء في الجزيرة ، وأغلب الظن أنهم فضلوا الموت — اذا لم يكن منه... بحر السيوف على برد الغرق في لجة الماء . والظاهر أن الروم كا... دخلوا مازر بعد خروج العرب منها اذ تطلب الأمر استعادتها بقتال استمر ثلاثة أيام(١٣٠) .

ورغم ما تقوله الرواية من أن العرب أحرقوا مراكبهم(١٣١) ...

---

(١٢٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ .

(١٢٨) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ (زيادة الله) ، المكتبة ، ص ٢٢٣ ، ... ج ٢٢ ص ٢٢٧ ب ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٦٧ (... ج ٤ ص ١٩٩ — حيث ا... ابن الجواري) ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ حيث القراءة « الحواري » ابن أبي الجوارى .

(١٢٩) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (زيادة الله) ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٧... المكتبة ، ص ٤٢٩ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٦٧ .

(١٣٠) ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٦٧ .

(١٣١) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (زيادة الله) ، النويري ، المخطوط ، ج ... ٢٢٧ ب ، ابن خلدون ، المكتبة ص ٤٦٧ .

الاستقتال في الحرب ، فاغلب الظن أنهم ما كانوا ليضحوا بسفنهم التي تعتبر وسيلة المواصلات الوحيدة بينهم وبين قواعد امدادهم في افريقية ، وأنهم اذا كانوا قد أحرقوا بعض سفنهم فانما يكونون قد فعلوا ذلك ضمن اجراءات الوقاية التي اتخذوها لمقاومة الوباء • وانطلاقا من قاعدتهم في مازر بدأ العرب يوطدون اقدامهم في الاقليم الشرقي بالاستيلاء على حصن ميناو (Mineo) ، على بعد ٣٤ ميلا في اتجاه الجنوب الغربي من لنتيني الواقعة على الساحل شمال سرقوسة(١٣٢) ، بعد حصار استمر ثلاثة أيام ، وبمعاونة أصحاب فيمي حيث استقرت جماعة منهم(١٣٣) • واتبعوا ذلك بالاستيلاء على حصن جرجنت عنوة وسكنوه•• وبذلك هدأت نفوسهم ، واطمأنوا الى طيب المقام(١٣٤) •

فيمي يستمر في معاونة العرب ، فيغتاله الروم في قصريانة :

والذي يفهم من قصة الفتح أن التعاون كان وثيقا بين العرب وبين البطريق فيمي وأصحابه ، على عكس ما قيل من أنه حرض أهل سرقوسة على المقاومة • وهكذا قاد فيمي العرب بعد ذلك نحو وسط الجزيرة الى قصريانة • وتقول الرواية ان القصريانيين غدروا بفيمي عندما فاوضهم باسم العرب • فبعد أن خرجوا اليه وبذلوا له الطاعة ، ووعدوه بأن يكونوا معه ومع المسلمين على كلمة واحدة ويخلعوا طاعة الروم ، طلبوا منه مهلة يوم لترتيب أمر الصلح مع العرب ثم انهم اغتالوه عندما حضر اليهم في اليوم التالي(١٣٥) •

هزيمة الأرمن البيزنطيين في حيز قصريانة :

والظاهر أن هدف أهل قصريانة من خداعهم فيمي والعرب، كان اكتساب

---

(١٣٢) الادريسي ، المكتبة ، ص ٥٧ •

(١٣٣) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (زيادة الله) ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٧ ب • وقارن تاريخ جزيرة صقلية من حين دخلها المسلمون ، الذي يجعل سقوط ميناو بيد أيدي العرب في السنة الرابعة من نزولهم الجزيرة (المكتبة ، ص ١١٦) وهي سنة ٦٣٣٩ من تاريخ العالم •

(١٣٤) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٣ ، النويري ، ج ٢٢ ص ٢٢٧ ب ، ابن خلدون ، المكتبة ص ٤٦٧ (كركنت بدلا من جرجنت) ، ج ٤ ص ١٩٩ (حيث كركيب بدلا من كركنت) •

(١٣٥) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٣ ، النويري ، ج ٢٢ ص ٢٢٧ ب ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٦٧ •

بعض الوقت لحين وصول القوات البيزنطية التي كانت تتجه نحوهم للقضاء على العرب • وكانت القوات الرومية تتكون في معظمها من جنود من الأرمن بقيادة البطريق تودط (Théodote) (١٣٦) • وتم اللقاء بين عرب افريقية وأرمن القسطنطينية في أحواز قصريانة ، وانتهى القتال بهزيمة عسكر تودط ومقتل الكثيرين ، اذ لم يسلم منهم الا من لجأ الى المدينة الحصينة(١٣٧) ، بينما وقع من قوادهم (بطارقتهم) سبعون أسيرا بين أيدى العرب(١٣٨) •

وفاة ابن أبى الجوارى ، وولاية زهير بن نرغوث ، وهزيمة مؤلمة أمام الأرمن :

وعقب المعركة توفي القائد محمد بن أبي الجوارى في أول سنة ٢١٤ هـ/ مارس ٨٢٩ م ، وتم اختيار القائد زهير بن برغوث خلفا له في القيادة(١٣٩)•

وواضح من الرواية أن موقعة قصريانة الأولى لم تكن من المعارك الفاصلة، اذ لم يلبث تودط أن ظهر في الميدان مرة أخرى ، بعد أن نظم فلول قواته الارمنية ، ونجح في الثأر لهزيمته • وكانت بداية دوران الدائرة على العرب عندما خرجت سرية لهم من معسكرها في المنطقة بحثا عن المغانم — من أجل القوت على ما يظهر — فخرج عليهم الروم ، فعادوا منهزمين الى قاعدتهم • وعندما خرجت القوة العربية في جمعها لملاقاة الروم ، حشد هؤلاء كل قواهم ونجحوا في هزيمة العرب في موقعة دامية خسر فيها زهير بن برغوث ألف قتيل من رجاله ، واضطر الى العودة منهزما نحو معسكره حيث اتخذ موقفا دفاعيا ، فخندق حول قاعدته(١٤٠) •

حصر العرب في ميناو :

وهكذا دارت الحرب سجالا بين العرب المحصورين في معسكرهم وبين الروم • وازاء اشتداد الحصر فكر العرب في مفاجأة الروم صباحا على حين

---

(١٣٦) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٧ ب ، المكتبة ، ص ٤٣٠ •

(١٣٧) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (زيادة الله) ، المكتبة ، ص ٢٢٣ •

(١٣٨) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ أ ، المكتبة ، ص ٤٣٠ (حيث القراءة تسعون بطريقا بدلا من سبعين) •

(١٣٩) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ أ ، المكتبة ، ص ٤٣٠ (حيث قراءة الاسم زهير بن برغوث) • ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (زيادة الله ، المكتبة ص ٢٢٣ (حيث القراءة ابن غوث وفي الهامش • ابن برغوث) •

(١٤٠) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٤ •

غرة ، وهو ما يعرف في المصطلح العسكري العربي بـ « البيات » ، ولكن الروم عرفوا — عن طريق جواسيسهم — بما يبيته لهم العرب ، فتنحوا عن معسكرهم . وكانت مفاجأة غير سارة للعرب عندما وجدوا الروم يقبلون عليهم من كل ناحية ، فانهزموا الى حصنهم في ميناو ، بعد أن فقدوا الكثير من القتلى(١٤١) .

وبذلك انقطعت الكتلة الرئيسية من القوات العربية في ميناو عن بقية اخوانهم الموجودين في جرجنت ، وفي مازر ، واشتد عليهم الحصر وقلت عندهم الميرة والأقوات حتى أكلوا دوابهم ، بل واضطروا الى أكل الكلاب(١٤٢) .

حرب الاستقتال : العرب يخربون قاعدتهم في جرجنت (كركنت : Girgenti) وينضمون الى اخوانهم في مازر :

وعندما وصلت أنباء ما يعانيه العرب في ميناو من شدة الحصر والضيق الى اخوانهم في جرجنت ، عبر هؤلاء عن ضيقهم لعجزهم عن مد يد المعونة اليهم بأن هدموا مدينتهم ، وساروا الى مازر(١٤٣) ، مما يعني أيضـــا انهم خافوا البقاء وحدهم ، وهم قلة ، من المقام في جرجنت ، وفضلوا الانضمام الى اخوانهم في مازر حتى يكونوا اقدر على مقـــاومة الروم اذا ما فكروا في الهجوم عليهم .

وهكذا أصبح المسلمون متجمعين في نقطتين فقط من الجزيرة : ١ — في ميناو المحاصرة، قرب الشاطئ الشرقي فيما بين سرقوسة ولنتيني ، ٢ — وفي مازر قرب الركن الجنوبي الغربي . وظل المحاصرون في ميناو صامدين حتى أشرفوا على الهلاك ، عندما دخلت سنة ٢١٥ هـ/٨٣٠ م(١٤٤) ، حينما أتاهم الفرج من حيث لم يحتسبوا .

---

(١٤١) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (زيادة الله) ، المكتبة ص ٢٢٤ .

(١٤٢) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ (زيادة الله) ، المكتبة ص ٢٢٤ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ ، المكتبة ص ٤٣٠ ، ابن خلدون ، المكتبة ص ٤٦٧ .

(١٤٣) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ المكتبة ص ٢٢٤ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٦٨ ، (ج ٤ ص ١٩٩) .

(١٤٤) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٤ : والنص هنا يضع التاريخ ببداية سنة ٢١٤ هـ/٨٢٩ م الذي صححناه الى مدخل سنة ٢١٥ هـ/٨٣٠ م ، على أساس ان وفاة ابن الجواري كانت في مطلع سنة ٢١٤ هـ/٨٢٩ م — كما سبق .

البحريون الأندلسيون ، وغزو صقلية :

ففي بداية سنة ٢١٥ هـ/٨٣٠ م ، كانت صقلية هدفا لغارات تذرو من تلك التي كان يقوم بها الغزاة الاندلسيون من سكان الشواطيء الشرقية للاندلس على سواحل الروم والفرنج ، ليس في الحوض الغربي للبحر المتوسط فقط ، بل وفي الحوض الشرقي أيضا . والذي يفهم من الروايات أن هؤلاء الغزاة البحريين من أهل الأندلس لم يكونوا من الجند النظامي ، بل كانوا من متطوعة المجاهدين ، الذين اتخذوا الغزو البحري صناعة لهم ، وان حكومة قرطبة الاموية لم تكن تمانع فيما يقومون به من أعمال في غير بلاد المسلمين .

وهذا لا يمنع انهم كانوا يقومون بذلك دون علم امراء قرطبة ، بل وربما رغم عدم رضائهم عن ذلك . والمهم أنه لا صحة لما تشير اليه بعض الروايات من الربط بين ذلك النشاط البحري وبين بعض الثورات التي عرفتها بعض مدن الاندلس قرب ذلك الوقت ، وخاصة ثورة الربض الشهيرة في قرطبة ، على أيام الحكم بن هشام . فليس من المقبول أن يقال عن رواد البحار هؤلاء : انهم كانوا من العامة أو من أهل الاسواق .

فمنذ أواخر القرن الثاني الهجري (أوائل القرن ٩ م) كان الأندلسيون قد مدوا نشاطهم الى جزر شرق البحر المتوسط ، حتى انهم كانوا يقصدون ساحل الاسكندرية فيما بين الغارة والأخرى على سواحل الروم ، من أجل الميرة واصلاح شأنهم . ورغم أن ولاة مصر كانوا لا يسمحون لهم - كما تقول حوليات الكندي في قضاة مصر وولاتها - بالنزول الى شاطئ الاسكندرية ، بل كان على تجار الاسكندرية أن يخرجوا الى الأندلسيين في الزوارق بما يحتاجون اليه للاصلاح من شئونهم أو شئون مراكبهم ، من طعام وعتاد وسلاح(١٤٥) ، فان اضطراب أحوال مصر ، نتيجة لاضطراب أحوال بغداد اثر فتنة الأمين والمأمون ، سمحت لهؤلاء الأندلسيين بالاستيلاء على الاسكندرية طوال اثنتى عشرة سنة (٢٠١ هـ - ٢١٢ هـ/٨١٦ - ٨٢٧ م) استقلوا خلالها بالمدينة عن ولاة الفسطاط . وعندما استقرت الأمور للمأمون

---

(١٤٥) انظر الكندي : القضاة والولاة ، ط ، ليدن ، ص ١٥٨ وما بعدها . وانظر للمؤلف ، الاسكندرية من الفتح الاسلامي الى بداية العصر الفاطمي ، في كتاب الاسكندرية في العصور القدم ... ط ١٩٦٣ ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، وللمؤلف أيضا الأثر المغربي والأندلسي في المجتمع الإسكندري ، كتاب تاريخ المجتمع الاسكندري ، ط جامعة الاسكندرية ١٩٧٥ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٧ .

ارسل قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين الى مصر حيث نجح في اخـــراج الاندلسيين من الاسكندرية الى البحر ، شريطة الا ينزلوا في أية أرض تابعة للخلافة .

العلاقة مع غزو كريت :

وهكذا غادر الأندلسيون الاسكندرية في مراكبهم التى كانت تبلـــغ اربعين مركبا ، تحمل حوالى اربعة او خمسة آلاف رجل ، عندما نزلوا الى المدينة قبل عشر سنوات ، واتجهوا بقيادة زعيمهم أبي حفص عمر البلوطي نحو جزيرة كريت التى استولوا عليها ، في نفس الوقت الذى كان اسد بن الفرات ينزل برجاله في جزيرة صقلية . وهذا يدعو الى التأمل فيما اذا كانت هناك ثمة علاقة بين ترتيب غزو كل من صقلية وكريت على الروم ، بمعرفة خلافة بغداد .

حقيقة ان الاتفاقية التى تمت بين عبـــد الله بن طـــاهر وأندلسيي الاسكندرية لم تشترط على الغزاة الا عدم النزول في أرض تابعة للخلافة ، والا يصحبوا معهم أيا من المصريين او العبيد أو المطلوبين(١٤٦) ، ولكن هذا لا يمنع من نزولهم في ارض الروم(١٤٧) . وأغلب الظن أنه لم يكن يخفى على قائد المأمون انهم سيطرقون ساحل جزيرة كريت القريبة . واذا كانت رواية فتح صقلية لا تشير الى دور الخلافة في تلك العملية ، فهي تنص على أن الروم كانوا قد خرقوا اتفاقية الهدنة بينهم وبين الأغالبة ، وليس من الغريب أن الهدنة مع الروم ما كانت تتم بغير علم الخلافة في بغداد أو موافقتها الضمنية على الأقل .

واذا كانت النصوص تشير الى أن زيادة الله قد كتب الى الخليفة المأمون بخبر فتح أسد بن الفرات لصقلية ، فهذه الاشارة تعني أن الخلافة كانت على علم بما يدبره الأغالبة ضد الروم . هذا ، واذا كانت تفصيلات العمليات الحربية تحت لواء أسد بن الفرات لا تشير الى مشاركة الأندلسيين فعلا في غزو صقلية ، كمـــا تذكر الرواية التى يسجلها ابن عذارى ، فان مجرد ذكر أن الأندلسيين كانوا يكونون جماعة لها كيانها الخاص في قوات أسد ، وان كانت غير صحيحة ، يمكن أن تفسر على انها اشارة ضمنية الى ترتيب

---

(١٤٦) نفس المصادر السابقة .

(١٤٧) انظر فيما سبق ، ص ٢١٨ .

غزو كريت على أيدى الاندلسيين السكندريين(١٤٨) فى نفس الوقت الذى كان عرب افريقية يقومون بغزو صقلية ، وذلك بمعرفة الخلافة أو تحت اشرافها حتى يتم مفاجأة الروم فى جهتين دفعة واحدة وان كانت مفاجأة صقلية قد أذهلت الامبراطور من غير شك عن غزو كريت .

حملة الغزاة الأندلسيين :

وبذلك يكون الأندلسيون الذين شاركوا فى غزو صقلية مع أسد ابن الفرات اما من المستوطنين فى افريقية أو من جماعات الغزاة من غير أندلسيى الاسكندرية . وقياسا على ذلك يكون الغزاة الأندلسيون ، الذين نزلوا الى صقلية فى أوائل سنة ٢١٥ هـ/٨٣٠ م ، أيضا من غير أهل كريت . وهذا يعنى أن الكثيرين من أهل سواحل الأندلس الشرقية كانوا قد اتخذوا من الغزو فى البحر صناعة لهم ، وانهم كانوا يجوبون البحر المتوسط من أقصاه الى أدناه ، مما يعنى أنهم كانوا قد غلبوا على سواحل البحر جميعا، منذ ذلك الوقت المبكر ، قبل أن تتم لهم تلك الغلبة على أيام عبد الرحمن الناصر الى جانب الفاطميين(١٤٩) .

والحقيقة أن أعمال الأندلسيين فى البحر المتوسط حينئذ تذكرنا بأعمال النورمنديين (أو الفيكنج) فى بحر الشمال وحتى سواحل الاندلس الغربية ، وكذلك سواحل المغرب — حيث عرفوا بالمجوس — بعد ذلك بقليل ، فكان غزاة البحر الأندلسيين هم نورمنديو العرب فى ذلك الحين .

ويفهم من الروايات العربية أن الأندلسيين وصلوا الى صقلية على دفعتين

---

(١٤٨) ويمكن ان يؤيد حقيقة استقلال عمل الاندلسيين عن أمير الاندلس ما قام به امبراطور بيزنطة تيوفيل بعد ذلك بحوالى عشر سنوات ، من الاتصال بالأمير عبد الرحمن الثانى حيث أرسل اليه سفارة فى سنة ٢٢٥ هـ/٨٤٠ م تحمل رسالة يحثه فيها على المطالبة بعرش أسرته فى الشام ويهاجم العباسيين واتباعهم الأغالبة (أعداء الأمويين والبيزنطيين) ، ويطالب باعادة كريت من أيدى الأندلسيين السكندريين . اذ كان رد الأمير الأندلسى الذى بعث به مع سفيره الشاعر يحيى الغزال فيما يتعلق بكريت : ان الأندلسيين بها هم ثوار ليسوا من رعيته ، وانه يمكن للامبراطور طردهم وعقابهم . أما عن الأغالبة فقد قال : انه لا يستطيع الكفر جهادهم فى سبيل رفع راية الاسلام . أنظر بروفنسال ، تاريخ أسبانيا الاسلامية ، ج ١ ص ٢٥١ — ٢٥٢ . ويذكر ابن حيان أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم أشار فى رده على شكوى امبراطور القسطنطينية من نزول الاندلسيين الى كريت ، وما يطلبه من معاقبتهم : « بأنهم ليسوا فى بلدنا ولا برتبتنا حتى ننفذ عليهم ، وتكفيك مؤونتهم ، وما أحسبك عاجزا عن اخراجهم عما تطرقوه من بلدك » (أنظر المقتبس ، مخطوط كلية الآداب المصور بجامعة الاسكندرية، ص ١٨٧) .

(١٤٩) أنظر مقدمة ابن خلدون ، فصل قيادة الأساطيل ، ط. التجارية ، ص ٢٥٢ .

في ثلاثمائة مركب ، وأن الدفعة الأولى كانت بقيادة أصبغ بن وكيل الهوارى المشهور بـ « فرغلوش » ، بينما كانت الدفعة الثانية بقيادة سليمان بن عافية الطرطوشي • وهذا لا يمنع من مجيء مدد من افريقية بعد ذلك بقليل ، كما تقول بعض الروايات(١٥٠) •

النزول قرب مازر :

اعمال الأندلسيين تحت قيادة فرغلوش : فك الحصار عن ميناو ، وهدمها :

ولا توضح الروايات أين نزل الأندلسيون في صقلية ، ولكن يمكن القول أن الدفعة الثانية نزلت في الركن الغربي من الجزيرة بالقرب من مازر ، وان هذا هو السبب أيضا فيما قيل من أن الدفعة الثانية كانت مددا من افريقية • وهذا ما يفهم أيضا من مسيرة الأندلسيين عندما تقدموا لنجدة المحاصرين في ميناو •

والمهم أن فرغلوش نزل برجاله ومن تحت امرته من القواد ، واخذوا يبثون سراياهم التي استولت على عدد من القلاع الرومية وعادت منها بالمغانم والسبي ، كما تنص على ذلك رواية ابن عذارى التي تمدنا ببعض المعلومات التفصيلية(١٥١) • والظاهر أن عرب مازر هم الذين اتصلوا أولا بالغزاة من الأندلسيين ، وطلبوا منهم اغاثة اخوانهم الذين كانوا يكابدون متاعب الحصر وقلة القوت في ميناو ، كما عرضوا عليهم ما كان يلزمهم من الخيل والدواب(١٥٢) •

ولم يبخل الغزاة الشجعان بتقديم ما طلب اليهم من المعونة ، ولكن

---

(١٥٠) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ أ ، وقارن ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٤ ، ورواية ابن الأثير التي تتفق مع رواية البكرى القطعة الاوصال بشأن مدد افريقى وصل الى الجزيرة (جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ٢٢١ حيث تقرأ « عمروس » بدلا من فرغلوش) ، وكذلك مع رواية ابن خلدون (المكتبة ، ص ٤٦٨ ؛ ج ٤ ص ١٩٦) ، التي تجعل الدفعة الثانيةمكاملمددالمجاهدين في صقلية آتى من افريقية اى من قبل زيادة الله - وهو الأمر الذي لا تشير اليه الروايات الأخرى - ولا باس في أن يكون ابن الأثير أو من نقل عنه ، لم من لقب الهوارى — ولو انه لا يذكر اسماء القادة — نسبة الى قبيلة هوارة المقيمة فيما بين طرابلس والزاوية ان أصبغ كان يقود جيشا افريقيا - أما رواية ابن عذارى فهي لا تذكر الا الدفعة الأولى من الأندلسيين بقيادة فرغلوش (ج ١ ص ١٠٤) •

(١٥١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ •

(١٥٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ أ •

شريطه أن يرد ـ القيادة الى رئيسهم فرغلوش ، وهو الأمر الذى لم يكن أمام قائد الجند الاعلى زهير بن برغوث ، الا قبوله · وهكذا اجتــاح فرغلوش برجاله الجزيرة من مغربهـــا الى مشرقها ، وهو يستولى على القــلاع ويوجه غاراته فى كل اتجاه ، حتى أشرف على ميناو(١٥٣) · ولم يكن أمام البطريق تودط ورجاله من الأرمن الا الانسحاب نحو قصريانة(١٥٤) · وهكذا تم خلاص المحاصرين فى ميناو ، فى جمادى الآخرة من سنة ٢١٥ هـ/يولية ٨٣٠ م(١٥٥)، وعبروا عن ضيقهم بالحصر وكراهيتهم للمكان الذى تعرضوا فيه للأهوال ، بأن هدموا المدينة وأحرقوها(١٥٦) · ولا بأس فى أن يكون احراقها بسبب ما كان قد ألم بهم من الوباء أثناء مقامهم فيها ·

اخذ بلرم ، ووفاة القائد فرغلوش فى الوباء :

وسار رجال ميناو مع الاندلسيين نحو بلدة « غلوالية » (Calloniana) القريبة وتغلبوا عليها(١٥٧) · وتابع الأندلسيون والمغاربة مسيرتهم نحـــو مدينة بلرم وضربوا عليها الحصار ، وضيقوا على من بها الخناق لمدة عام ، الى أن طلب قائدها الأمان لنفسه وأهله وماله · وأجابه العرب الى مطلبه ، فغادر المدينة بحرا الى « بلد الروم » . ودخل العرب بلرم فى رجب من سنة ٢١٦ هـ/ أغسطس ٨٣١ م(١٥٨) ·

وتقول رواية ابن الأثير أن المسلمين لم يجـدوا فى بلرم « الا أقل من ثلاثة آلاف انسان ، وكان فيه لما حصروه سبعون ألفا وماتوا كلهم »(١٥٩) ،

---

(١٥٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ ·

(١٥٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ أ ، المكتبة ص ٤٣٠ ، وانظر تاريخ صقلية من حين دخلها المسلمون مقد بدء العالم ، المكتبة ، ص ١١٦ (حيث يجعل مقتل تودط بعد أخذ ميناو) ·

(١٥٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ أ ، المكتبة ، ص ٤٣٠ ·

(١٥٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ ·

(١٥٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ ·

(١٥٨) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبه ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ، تاريخ صقلية من حيث دخلها المسلمون ··· ، المكتبة ، ص ١٦٦ (الذى يجعل سقوط بلرم فى السنة التالية لأخذ ميناو ومقتل تودط ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٩ ، المكتبة ، ص ٤٦٨ (الذى يقول ان فتح بلرم كان فى سنة ٢١٧ هـ/٨٣٢ م) ، وقارن النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ (حيث تقول الرواية ان حصار بلرم استمر الى سنة ٢٢٠ هـ/٨٣٥ م حيثما استسلمت المدينة بالأمان فى ولاية ، محمد بن عبد الله بن الأغلب) ·

(١٥٩) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٥ ·

مما يعني أن الوباء الذي كان قد ظهر في صقلية سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨ م لم يكن قد انقطع بعد ، وأنه كان ما زال يفتك بأهل الجزيرة • والظاهر أن المسلمين لم يسلموا بدورهم من فتك الوباء ، وذلك ما تشير اليه رواية ابن عذارى التي تقول ان جماعة من المسلمين اعتلوا وأخذهم الوباء ، وكان منهم فرغلوش وغيره من القواد(١٦٠) •

الخلاف مع الأندلسيين ، وعودتهم الى بلادهم :

والظاهر أن غزاة البحر الأندلسيين استفاقوا على ما أنزله بهم الوباء من الخسائر ، ليجدوا أنفسهم قد انغمسوا في أمر ليس من شئونهم ، بصفتهم : باحثين عن المغانم والأسلاب ، وليسوا جندا نظاميا فاتحا ، يحتل البلاد ويستوطنها • وبناء على ذلك لم يكن من الغريب أن يدب الخلاف بينهم وبين اخوانهم الافريقيين • ورغم ما يقوله ابن الاثير من أن الوفاق تم بين الجانبين بعد الخلاف والنزاع(١٦١) ، فنحن نميل الى الأخذ برواية ابن عذارى التي تقول ان الأندلسيين قرروا العودة الى بلادهم ، بعد وفاة قوادهم في الوباء وعلى رأسهم فرغلوش ، وأنهم لقوا متاعب كثيرة أثناء رحلة العودة الى قواعدهم ، اذ « ركب العدو اثرهم . فقتل منهم خلق كثير » ، وذلك قبل أن يأخذوا في اصلاح مراكبهم ، قافلين الى الأندلس(١٦٢) • وبذلك تنتهي قصة مشاركة الأندلسيين في فتح صقلية ، بعد الاستيلاء على بلرم التي اتخذها العرب عاصمة لهم بعد أن اتسعت رقعة اراضيهم واستولوا على كل الاقليم الغربي من الجزيرة •

ولاية ابي فهر محمد بن عبد الله التميمي لصقلية سنة ٢١٦ هـ/٨٣١ م :

ومع أننا لا ندري ماذا حدث لقائد جند صقلية الثالث ، وهو : زهير ابن نرغوث ، فاغلب الظن أنه راح ضحية الوباء مع فرغلوش ، وأنه خلفه في قيادة المسكر قائد آخر ، هو عثمان بن قرهب ، الذي لم يحظ بموافقة زيادة الله فهذا ما يفهم من رواية ابن عذارى التي تشير الى أن الأمير زيادة الله اتخذ قراراً في أواخر سنة ٢١٦ هـ/٨٣١ م ، بتولية قريبة ابي فهر محمد

---

(١٦٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ •

(١٦١) ابن الاثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٥ •

(١٦٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ •

ابن عبد الله التميمي على صقلية ، فوصلها في سنة ٢١٧ هـ/٨٣٢ م ، وأن عثمان بن قرهب هرب عنها(١٦٣) . ولا شك أن العهد بولاية صقلية الى أحد قرابة الامير الأغلبي يعني رعاية خاصة من جانبه لأحوال الجزيرة . وان كان استقلال شخصية الوالي يعني بحكم الضرورة نوعا من استقلال ولايته .

ما بين صقلية وتونس :

والظاهر أن اضطراب منطقة تونس في السنة التسالية ، وهي سنة ٢١٨ هـ/٨٣٣ م ، تطلب عودة أبي فهر محمد بن عبد الله من صقلية ، والبقاء في افريقية الى سنة ٢٢٠ هـ/٨٣٥ م ، بعد أن قضى على ثورة مدينة تونس . وخلال وجود محمد بن عبد الله في افريقية قامت القوة الأغلبية في صقلية بالغارة على منطقة قصريانة مرتين . في الربيع والصيف من سنة ٢١٩ هـ/ ٨٣٤ م ، وهزموا الحامية الرومية في المرتين . عندما خرجت لقتالهم(١٦٤) ، وعادوا الى بلرم بالمغانم والأسلاب(١٦٥) .

وأثناء رحلة العودة الى ولايته في صقلية تعرض محمد بن عبد الله التميمي في رمضان من سنة ٢٢٠ هـ/سبتمبر ٨٣٥ م ، لمتاعب شديدة من جانب البحر الذي ثار بمراكبه التي كانت تحمل الامدادات والرجال ، فاعطب بعضها وحطم له بعضا آخر ، كما أن الروم اعترضوه في البحر وأصابوا له حراقة من مراكبه ، رغم بلاء قائد الأسطول محمد بن السندي الذي خرج في عدد من الحراقات ، وأخذ يطاردهم حتى حال الليل بين الفريقين(١٦٦) .

غارات على قصريانة (Castrogiovanni) :

ولم يبق محمد بن عبد الله التميمي طويلا في بلرم ، اذ خرج برجاله في

---

(١٦٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٤ ، وانظر النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ أ . المكتبة ، ص ٤٣١ — حيث يسمى ابا فهر محمد بن عبد الله بن الاغلب ، وابن عذارى (ج ١ ص ١٠٥) الذي يسميه أيضا « ابن الاغلب » وانظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨١ : حيث ينص على أن محمد بن عبد الله بن الاغلب هذا يعرف هو وأخوه الأغلب بن عبد الله ، وابنه عبد الله بن محمد الذي ولي صقلية فيما بعد سنة ٢٥٩ هـ كما كانت له ولاية طرابلس والقيروان ، ببني عبد الله : نسبة الى جدهم عبد الله أخي ابراهيم بن الاغلب الأمير الأول .

(١٦٤) ابن الاثير سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٥ .

(١٦٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٥ .

(١٦٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٥ — ١٠٦ .

نفس السنة (٢٢٠ هـ/٨٣٥ م) نحو قصريانة في وسط الجزيرة ، ونجح في هزيمة الروم الذين خرجوا اليه ، وعاد الى بلرم محملا بما غنمه في معسكر الروم ، وبصحبته امرأة القائد (البطريق) وابنه أسيرين(١٦٧) ٠

غارات على طبرمين (Tabrmina) ؛ وغدر الجند بقائدهم محمد بن سالم :

واذا كان ابن عذارى يقول بشكل عام انه كان في تلك السنة غزوات كثيرة للمسلمين في صقلية(١٦٨) ، فان ابن الاثير يذكر أن محمد بن عبد الله سير جيشا الى ناحية طبرمين على شمال الشاطىء الشرقي للجزيرة ، جنوب مسينا ، بقيادة محمد بن سالم ٠ ومع أن الحملة حققت أغراضها بعد أن عادت بالمغانم الكثيرة ، الا أنها انتهت نهاية تعسة ، عندما عدا بعض جنود محمد ابن سالم عليه فقتلوه ، ولجأوا الى الروم(١٦٩) ، مما يرجح أن الجريمة قد تمت بتحريضهم ٠

وبذلك تكون تلك الحادثة فاتحة سلسلة من جرائم الغدر التي يقوم بها العسكر ضد قوادهم ، كما سنرى ، وهو الأمر الذى لم تعرفه الجيوش العربية ، في عبر صقلية ، من قبل ٠

غارات على سرقوسة بقيادة الفضل بن يعقوب :

ولا شك أنه كان لذلك الحادث التعس صدى أليم في قلب الأمير زيادة الله ، الذى بعث ، خلفا لمحمد بن سالم ، أحد قواده المشاهير ، وهو : الفضل ابن يعقوب ، الذى قاد سرية كبيرة عاثت في نواحي سرقوسة ، وعادت بالمغانم والأسلاب(١٧٠) ٠

من المواهب الحربية التي اظهرها كل من العرب والروم :

ويضيف ابن الأثير الى ذلك موقعة هامة بين سرية اسلامية كبيرة وبين القوة الرئيسية للروم في الجزيرة التي كان يقودها البطريق حاكم صقلية ، والتي اظهر فيها كل من الجانبين ما كان يتميز به من مواهب قتالية خاصة ٠ ففي أثناء عودة السرية الاسلامية ، وهي محملة بالمغانم ، قطع عليها البطريق

---

(١٦٧) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٥ ٠

(١٦٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٥ ٠

(١٦٩) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٥ ٠

(١٧٠) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٥ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٩) ٠

الطريق ، فاضطرت الى التحصن من الروم في أرض وعرة كثيرة الشجر حتى عجز الروم عن ملاحقتهم ، فوقف البطريق الى وقت العصر يتحداهم أن يخرجوا اليه · ولما طال انتظاره دون تقدم العرب لقتاله ترك المكان ، وتفرق عنه كثير من أصحابه · وكانت فرصة انتهزها العرب للحملة عليه حتى هزموا من كان بقي معه من الرجال ، ونجحوا في الوصول اليه ، واصابته بعدة جراحات حتى سقط عن فرسه · ومع ذلك لم يتمكن العرب من قتله ، اذ أسرع اليه عدد من أبطال فرسانه ، واستنقذوه جريحا وحملوه معهم ·

وخرج العرب من الواقعة — التي وصفت بانها وقعة عظيمة — بما كان في أيدي الروم من السلاح والمتاع والدواب(١٧١) ·

ومع أن ابن الأثير — الذي تظهر روايته ملخصة عند ابن خلدون — يضع كل تلك الأحداث في سنة ٢٢٠ هـ/٨٣٥ م ، فالظاهر أن بعض تلك الأحداث، وبصميمها معركة البطريق الأخيرة ، وقعت في سنة ٢٢١ هـ/٨٣٦ م · وذلك أن الاحداث التالية ، التي تمت في ولاية أبي الاغلب ابراهيم بن عبد الله الذي حل محل أخيه أبي فهر محمد ، يضعها ابن عذاري في أحداث سنة ٢٢٢ هـ/ ٨٣٧ م(١٧٢) ، مما يعني أن عهد زيادة الله بولايته لصقلية التي وصل اليها في رمضان ، كما ينص على ذلك ابن الاثير دون تحديد السنة ، كان في نفس سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧ ، على ما نرى(١٧٣)

ولاية أبي الأغلب ابراهيم بن عبد الله

أعمال حربية في الطريق الى الجزيرة :

وصل أبو الأغلب ابراهيم بن عبد الله الى صقلية أميرا في منتصف رمضان (سنة ٢٢٢ هـ/ ٢١ أغسطس ٨٣٧ م) ، وقد زوده زيادة الله بأسطول حربي كبير التقى وهو في الطريق بأسطول رومي فهزمه وغنم كثيرا من مراكبه · وأمر أبو الأغلب بضرب رقاب كل من وجد فيها من الروم · ويقول ابن الأثير ان أبا الأغلب سير أسطولا آخر الى قوصرة ، فاستولى على حراقة

---

(١٧١) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ ، وانظر ابن خلدون (الذي يلخص نفس الرواية التي نظن انها مأخوذة من الرقيق) ، المكتبة ، ص ٤٦٨ ·

(١٧٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠٦ ·

(١٧٣) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٦ ·

الروم ، وجد فيها رجل متنصر من أهل افريقية ، فأمر بضرب رقبته أيضا ومن معه(١٧٤) .

توسيع النشاط الحربي الى مسينا :

ووسع أبو الأغلب دائرة نشاطه نحو الشمال الغربي للجزيرة ، فبعث سراياه الى جبل النار في منطقة اتنا وما فيها من الحصون ، وذلك بقيادة الفضل بن يعقوب، فكاد للعدو وأحرق الزروع ، وعاد سالما بالمغانم والأسلاب. ولقد بلغت المغانم في بعض تلك الغزوات من الكثرة الى حد بيع الرقيق بابخس الاثمان(١٧٥) . ويقول ابن الاثير أن أبا الأغلب سير أيضا أسطولا الى الجزائر — وربما كان المقصود بها جزائر الايوليان (Eolian) - في منطقة قلورية القريبة من مسينا — فغنموا غنائم عظيمة ، وفتحوا مدنا ومعاقل ، وعادوا سالمين(١٧٦) .

الى قطانية :

أما السرية التي وجهها الى قطانية فلم يحالفها التوفيق ، اذ لقيها العدو وهي محملة بالمغانم ، ونجح في الظهور عليها(١٧٧) .

الى قصريانة : هزيمة السرية ، وأسر قائدها عبد السلام بن عبد الوهاب :

وكذلك لم توفق السرية التي وجهها الى قصريانة ، والتي نرى أن قيادتها كانت الى القائد عبد السلام بن عبد الوهاب ، كما في رواية ابن عذارى . فقد خرج اليها الروم ، وانتهى القتال بانهزام المسلمين واصابة جماعة

---

(١٧٤) ابن الأثير سنة ٢٠٢ هـ ، المكتبة ، ص ٢٣٦ . ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٩٩ ، المكتبة ، ص ٤٦٨ ـ الذي يضع تلك الأحداث في سنة ٢٢٠ هـ/٨٣٥ م ، وكذلك الأحداث التالية التي يضعها ابن عذارى في سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧ م (وهو ما أشرنا اليه) .

(١٧٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٦ (أحداث سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧ م) حيث يجعل قيمة العشل بالحصن « مدنار » وغيره من المعاقل . ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ المكتبة ، ص ٢٣٦ (حيث احداث سنة ٢٢٠ و ٢٢١ هـ) . ابن خلدون (ملخص عن ابن الأثير ، سنة ٢٠٩ هـ ، المكتبة ، ص ٤٦٨ .

(١٧٦) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٣٦ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٠ ، المكتبة ، ص ٤٦٨ .

(١٧٧) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٣٦ (حيث اسم المدينة في النص قسطلياسة ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٢٣٦ (حيث اسم المدينة قطلياناة) ج ٤ ص ٢٠٠ حيث الاسم : قطليانة) .

متهم(١٧٨) . كما وقع قائد الحملة عبدالسلام فى أسر الروم ، وبقى بين أيديهم الى أن تم فداؤه بعد ذلك(١٧٩) .

اخضاع قصريانة :

ولا بأس من أن يكون القائد عبد السلام بن عبد الوهاب قـــد تم فك اساره فى نفس سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧ م ، فى فصل الشتاء ، عندما دخـــل المسلمون مدينة قصريانه قاعدة الجزيرة الوسطى ، فجأة بعد أن عثر بعض المسلمين من رجال السرايا التى كانت تحوم حولها على ثغره فى أسوار ربض المدينة ، فاستدعى العسكر الذى دخلها على حين غرة من أهلها ، واستولى على الربض ، ثم حاصر الحامية الرومية فى الحصن . ولكن الأمر انتهى بالصلح على أن يدفع أهل قصريانة الجزية ، وعاد العرب الى بلرم محملين بالمغـــانم والأسلاب(١٨٠) .

الحرب البحرية ووفاة زيادة الله :

وفيما بين معركتى قصريانة حقق العرب نجاحا عـــلى الروم فى بعض المعارك البحرية التى انتهت بأن غنموا احدى عشرة قطعة من سفن الروم ، منها : ٩ (تسع) مراكب كبار برحالها ، واثنتين من نوع الشلندى (المخصص لحمل الفرسان والعتاد الثقيل)(١٨١) .

وفى نفس السنة ، وهى سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧ م ، كان العرب يحاصرون مدينة جلفوذى (Cefalu) - على الشاطىء الشمالى ، على بعـــد ٥٠ ميلا شرقى بلرم(١٨٢) - منذ مدة ، ويضيقون عليها الخناق ، عندما وصلت قوات رومية كبيرة فى البحر الى المنطقة ، فاضطر العرب الى فك الحصار ، والتقوا بالروم . وبينما كانت المعارك تدور بين الجانبين ، فى منتصف سنة ٢٢٣ هـ/ ٨٣٨ م ، أتت من افريقية أنباء وفاة الأمير زيادة الله ، فكان ذلك سببا فى وهن العرب لبعض الوقت ، ولـــكنهم ما لبثوا أن تماسكوا ، وضبطوا أنفسهم ،

---

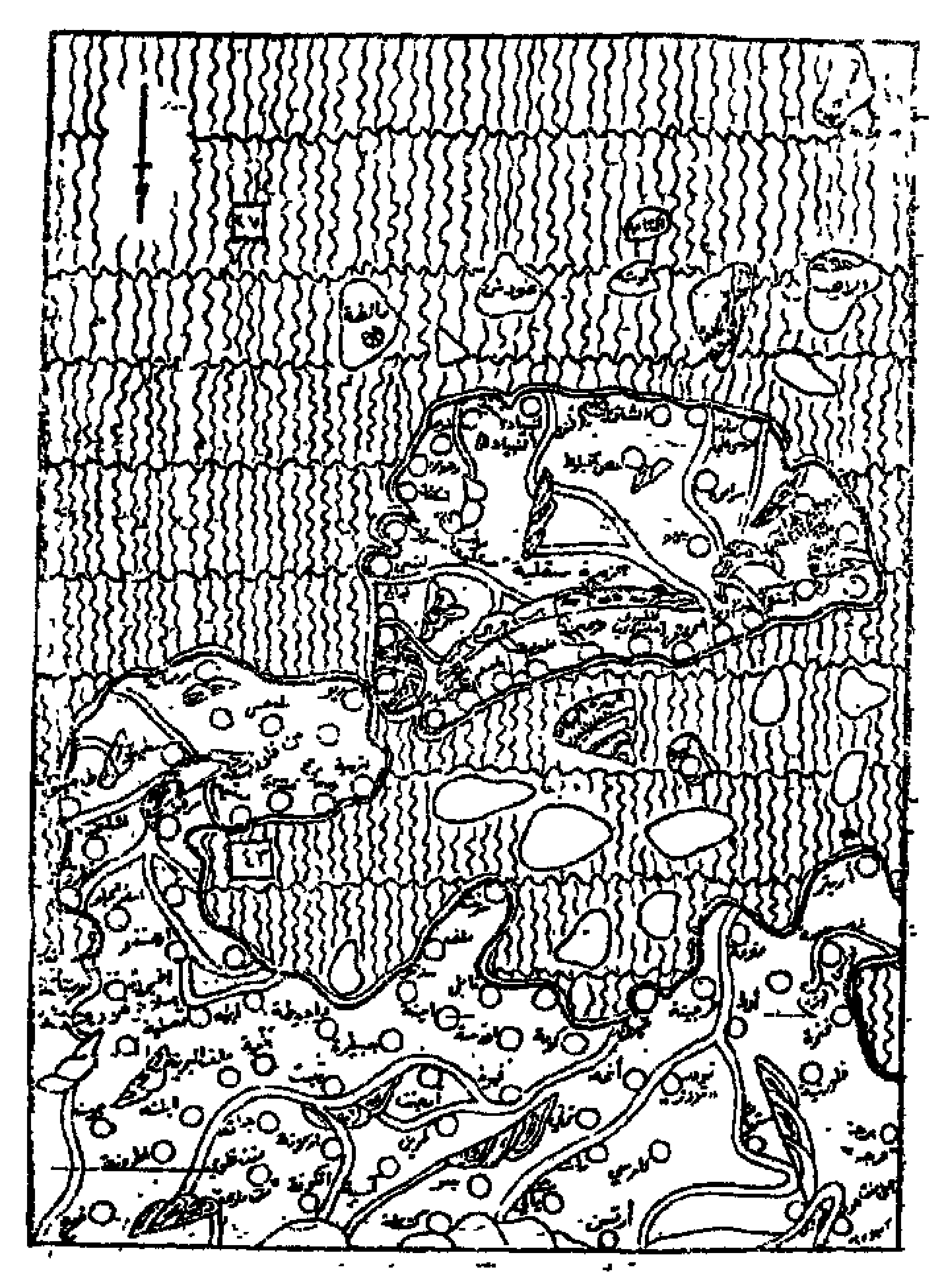
(١٧٨) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٦ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٦٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

(١٧٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٦ .

(١٨٠) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ص ٢٢٧ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٠ ، المكتبة ص ٤٦٩ .

(١٨١) ابن الأثير ، سنة ٢٠١ هـ ، المكتبة ، ص ٢٢٧ . ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٦٩ ج ٤ ص ٢٠٠ .

(١٨٢) الادريسى ، المكتبة ص ٢٨ .



شكل رقم (٣)
صقلية وجنوب ايطاليا كما رسمها الادريسى

ونشطوا كسابق العهد بهم ، كما تقول الرواية(١٨٣) .

خلاصة ما تم في صقلية على عهد زيادة الله الأول :

وهكذا يكون المجاهدون فى صقلية قد أمضوا عشر سنوات من عهد زيادة الله فى الجزيرة ، وطدوا أقدامهم خلالها فى الجزء الغربى منها ، ما بين جرجنت على الساحل الجنوبى وبلرم على الساحل الشمالى . وكانوا قد مدوا نفوذهم فى وسط الجزيرة الى قصريانة ، بينما سرحت سراياهم فى كل مكان من الجزيرة ، ما بين سرقوسة فى الجزء الجنوبى من الساحل الشرقى الى ميناو ، قرب لنتينى ، ثم الى جبل النار حتى منطقة مسينا فى أقصى ذلك الساحل نحو الشمال .

الفتوح فى عهد أبى عقال الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب :

حملة من افريقية ، وتوسع فى داخل الجزيرة ، وفى جنوب ايطاليا :

وفى عهد أبى عقال الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب ، الذى لم يطل الا الى أقل من ثلاث سنوات ، استمر نشاط العرب فى استكمال الفتح فى الجزيرة ، بل وبدأوا فى التوسع فى جنوب ايطاليا . فتقول رواية ابن الأثير أن الأمير الأغلب سير سرية فى سنة ٢٢٤ هـ/٨٣٩ م الى صقلية فغنمت وسلمت(١٨٤) . وهذا يعنى أن تلك السرية سارت فى البحر من افريقية ، وهو الأمر الذى يسترعى الانتباه ، اذ يعنى أن قوات الأمير الرئيسية فى افريقية كانت تشارك فى الأعمال الحربية فى صقلية بأوامر مباشرة منه الأمير — وهذا ما سيظهر بشكل أكثر وضوحا على أيام الفاطميين .

وفى سنة ٢٥٥ هـ/٨٤٠ م استأمن للعرب ، أى دخل فى عهدهم ، عدد من حصون الجزيرة ، منها : جرجة (Geraci) ، وقلعة البلوط (Caltabellotta) فيما بين جرجنت ومازر ، وابلاطنو (Platani) ، وقلعة قارلون (Corleone) ، ومريناو (Marineo) (١٨٥) .

---

(١٨٣) ابن الأثير ، حـ ٦ ص ٢٠١ ، المكتبة ، ص ٢٢٧ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٦٩ ، وعن وفاة زيادة الله أنظر فيما سبق ، ص ٧٥ .

(١٨٤) ابن الأثير ، سنة ٢٢٣ هـ ، ج ٦ ص ٤٩٣ ، المكتبة ، ص ٢٢٨ .

(١٨٥) قارن الادريسى ، المكتبة ، ص ٤٤ ، حيث القراءة جرجسة بدلا من جرجة ، وقارن بدلا من قارلون ، ومرنا بدلا من مريناو [illegible] القراءة الجيدة فى نهاية الارب للنويرى —

الفتوح في كلابريا (قلورية) بجنوب ايطاليا :

وفي نفس السنة (٢٢٥ هـ/٨٤٠ م) ، وسع العرب في صقلية نشاطهم الى قلورية (كلابريا) في جنوب ايطاليا ، حيث سار الاسطول وفتحها ، كما تقول الرواية ، وهزم الاسطول البيزنطي الذي تعرض له هناك ، فانسحب عائدا الى القسطنطينية ، وكان فتحا عظيما(١٨٦) .

العرب يوطدون أقدامهم في وسط الجزيرة :

وفي السنة التالية (٢٢٦ هـ/٨٤١ م) ، وهي السنة التي توفي فيها أبو عقال الاغلب ، ظهرت سيطرة المسلمين على منطقة وسط الجزيرة ، عندما سيروا سراياهم الى منطقـــة قصريانة ، ففعلت بها الأفاعيل ، من : افساد الزروع ، واحراق الدور ، وأخذ المغانم والسبي . ولم يعترضهم معترض ، فساروا الى حصن الغيران الـــذي كان يشتمل عـــلى أربعين غارا فغنموها جميعا(١٨٧) .

وبذلك يكون العرب قد وطدوا أقدامهم في وسط الجزيرة على عهد أبي عقال القصير ، كما مدوا نشاطهم العسكري الى كلابريا في جنوب ايطاليا ، وهو الامر الذي سيجذب انتباههم منذ ذلك الوقت ، مما يعني أن صقلية لم تعد — بالدرجة الأولى — أرض الرباط والجهاد ، بعد أن استولى العرب على كثير من أجزائها ، وأخضعوا معظم ما كان قد تبقى بين أيدي الروم من مدنها لعهدهم .

محاولة فتح باري :

ففي سنة ٢٢٦ هـ/٨٤١ م غزا حياة مولى أبي عقال الأغلب منطقـــة باري ، شمال برنديزي ، التي لم يكن أهلها من الروم ، ولكنه لم يقـــدر

= (المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ ب ، المكتبة ص ٤٣١) ، وقارن ابن الأثير ، السنة ٢٢٣ هـ ، ج ٦ ص ٤٩٤ المكتبة ص ٢٢٨ (حيث القراءة حصن البلوط بدلا من مرسه وقلعة البلوط ، وقرلون بدلا من قلعة قارونية ومرو او مرناو بدلا من مرينا) ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٠ ، المكتبة ، ص ٤٦٩ (حيث يكتفي بذكر كلمتي عدة حصون) . وانظر عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الإسلامية ، ص ١٢ .

(١٨٦) ابن الأثير ، سنة ٢٢٣ هـ ، ج ٦ ص ٤٩٤ ، المكتبة ، ص ٢٢٨ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٠ ، المكتبة ، ص ٤٦٩ .

(١٨٧) ابن الأثير ، سنة ٢٢٣ هـ ، ج ٦ ص ٤٩٤ ، المكتبة ، ص ٢٢٨ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٠ ، المكتبة ، ص ٤٦٩ .



شكل رقم (٤)
صقلية وجنوب ايطاليا

عليها(١٨٨) . والنص هنا على أن أهل بارى لم يكونوا من الروم يعنى أنهم كانوا من الايطاليين المستقلين عن البيزنطيين .

فتح نابولى ومسينا :

وفى سنة ٢٢٨ هـ/٨٤٣ م - على عهد أبى العباس محمد بن الأغلب ، سار الفضل بن جعفر الهمذانى فى الأسطول ، ونزل فى مرسى مسينى وأحاط به . ورغم امتناع مسينى عليه فانه أخذ يبث سراياه فى كلابريا وايطاليا حيث وصلت إلى مدينة نابل (نابولى) التى طلبت الأمان ، نظير دفع الجزية .

---

(١٨٨) ابن الأثير ، سنة ٢٢٦ هـ ، المكتبة ، ص ٢٣٩:٢٠.

والذى نفهم من الرواية أنه كان من شروط صلح نابولى أن يسير بعض أهلها مع العرب لمعاونتهم على اخذ مسينى فكأن مملكة نابولى أصبحت حليفا للأغالبة فى ايطاليا(١٨٩) ، وذلك جريا على سياسة الحلف التى مارسها العرب فى فتوحهم والتى قضت بالتحالف مع أهل البلد المفتوح من أجل المعاونة على فتح ما وراءه من البلاد • وفعلا بينما كان أهل مسينى مشغولين بقتال جعفر استدار العرب وحلفاؤهم من أهل نابولى خلف الجبل (جبل النار ؟) المطل على المدينة ، وصعدوا اليه ثم انهم نزلوا منه اليها ، فانهزم أهل مسينى وفتح العرب البلدة(١٩٠) ، كما فتحوا أيضا مسكان(١٩١) • وبفتح مسينى سيطر العرب على المضيق وأصبح أسطولهم فى موقف استراتيجى ممتاز بالنسبة للأسطول البيزنطى وسط البحر المتوسط •

استئساد العرب ، وانهيار مقاومة الروم :

الالحاح على مدينة لنتينى (Lentini) :

وأمام هذه الفتوح العظيمة قويت نفوس العرب واستأسدوا ، بينما ذل الروم فى صقلية ، حتى أنه عندما سار أبو الأغلب العباس بن الفضل فى سرية ، فى سنة ٢٢٩ هـ/٤٣ — ٨٤٤ م التالية ، الى مدينة بثيرة (Butera) انتهى القتال الكبير بانهزام الروم هزيمة فاحشة ، اذ تركوا فى أرض المعركة أكثر من عشرة آلاف رجل ، بينما لم يستشهد من المسلمين سوى ثلاثة نفر — ولا بأس فى مبالغة الرواية العربية التى تقول انه لم يكن بصقلية قبلهـا

---

(١٨٩) انظر أحمد المدنى ، المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، ص ٧١ — حيث الاشارة الى الأوضاع المضطربة فى جنوب ايطاليا حيث كان النزاع قائما بين مملكة نابولى وجارتها مملكة بنيفنتو (Benevento) اللومباردية ، وان تحالف أهل نابولى مع العرب كان بهدف مقاومة الخطر الذى تهددهم من جانب أهل بنيفنت • وهكذا فمنذ هذا الوقت استقر العرب المغاربة فى قلب ايطاليا وكونوا مملكة مستقلة هى الأخرى عن صقلية الأغلبية ، وهذا ما تشير اليه النصوص بشكل مجمل فيما بعد • أنظر فيما بعد ، عن فتح بارى وتبعية تلك المملكة العربية الايطالية الى خلافة بغداد ، ص ٢٦٤ — ٢٦٥ •

(١٩٠) ابن الأثير ، سنة ٢٢٨ ، ج ٧ ص ٢ من المكتبة ، ص ٣٢٩ (حيث النص : وقاتل الفضل مدينة ستتينة ، بدلا من مدينة لنتينى ، فهى القراءة الصحيحة الموجودة فى الهامش) ، وقارن ابن خلدون من المكتبة ، ج ٤ ص ٤٧١ ، ص ١٧٩ (حيث يكتفى بذكر فتح مسينى دون ذكر صلح أهل نابولى)

(١٩١) نفس المصدر

مثلها ، بعض الشيء(١٩٢) .

واستمر الهدوء في صقلية في سنتي ٢٣٠ و ٢٣١ هـ (٨٤٤ ـ ٨٤٦ م)، ولا بأس أن يكون ذلك الهدوء بسبب غموض الأحـوال في القيروان ، إثر الانقلاب الذي دبره أحمد بن الأغلب ضد أخيه الأمير محمد ، اذ لا يستعيد العرب نشاطهم في صقلية الا في سنة ٢٣٢ هـ/٨٤٦ ـ ٨٤٧ م ، بعـد أن يستعيد محمد سلطاته من أخيه أحمد . أما عن السلم الذي كلفت الامبراطورة تيودورا قد عقدته وقتئذ مع العباسيين في المشرق(١٩٣) ، فاغلب الظن أنه لم يكن يقيد نشاط الاغالبة أو البيزنطيين ضد بعضهم البعض .

اخذ لنتيني : .

ففي تلك السنة (٢٣٢ هـ/٨٤٦ ـ ٨٤٧ م) سار الفضل بن جعفر على رأس قواته الى مدينة لنتيني على الساحل الشرقي لصقلية ، شمال سرقوسة ، وضرب عليها الحصار وراسل أهل لنتيني بطريق صقلية الرومي ، المقيم في سرقوسة ، وطلبوا منه النجدة ، فاتفق معهم على أن يحضر اليهم برجاله على حين غرة من العرب الذين يقعون ، عندئذ ، بين شقي الرحا . وتم الاتفاق على أن تكون علامة وصولهم اليهم ، هي : ايقاد نار في بعض جبال المنطقـة لمدة ثلاثة أيام ، ويكون وصولهم اليهم في اليوم الرابع . وعرف الفضل ، عن طريق جواسيسه تلك الاشارة ، وورد على أهل لنتيني كيدهم في نحرهم ، فأوقد هو النار في الجبل الموعود ، وأعد الكمائن لاستقبال حامية لنتيني في اليوم الرابع من ايقاد النار .

وعندما خرج أهل لنتيني لاستقبال النجدة ، انهزم العرب الذين كانوا يحاصرونهم نحو الكمين ، فلما جازوه وقعوا هم بين شقي الرحا ، ووضـع السيف فيهم ، فلم ينج منهم الا القليل . وبذلك انتهت المعركة بأن سلم أهل لنتيني مدينتهم الى العرب في نظير الأمان ، في : نفوسهم وأموالهم(١٩٤) .

---

(١٩٢) ابن الأثير ، سنة ٢٢٨ هـ ، ج ٧ ص ٢ ، المكتبة ، ص ٢٢٩ ـ حيث القراءة شرة وسرة ، والتصحيح ج بثيرة ، لأماري .

(١٩٣) أنظر عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، ص ١٣ .

(١٩٤) ابن الأثير ، سنة ٢٢٨ هـ ، ج ٧ ص ٣ ، المكتبة ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣١ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٠ ، ج ٤ ص ٢٠١ (حيث لنتيني بدون نقط) ، تاريخ المسلمين في صقلية حسب تاريخ المالي تعنتالروم ، المكتبة ، ص ١٦٦ (حيث ينص على أخذ لنتينة في سنة ٦٣٥٥ ، وهو الأمر الصحيح اذا عرفنا انها فتحت بعد عشرين سنة من نزول العرب في الجزيرة ، وذلك في سنة ٦٣٣٥ حسب نفس التاريخ (ص ١٦٥) .

الاستيلاء على طارنت فى لمبارديا :

وفى نفس السنة (٢٣٢ هـ/٨٤٧ م) اجتاح العرب جنوب ايطاليا واستولوا على مدينة طارنت من اقليم لمبارديا (انكبردة) ، وسكنوها(١٩٥) ، كما وصلوا فى غاراتهم حتى مدينة روما نفسها(١٩٦) • وفى سنة ٢٣٣ هـ/ ٨٤٧ — ٨٤٨ م التالية ، أتت عشر شلنديات للروم وارست فى مرسى الطين ، على بعد ١٠ (عشرة) أميال غرب بلرم(١٩٧) • وعندما خرجت للاغارة على العرب ضلت الطريق ، وغرق منها ٧ (سبع) شلنديات ، وهى فى طريق العودة(١٩٨) •

أخذ ارغوس ، وهدمها :

وفى السنة التالية (٢٣٤ هـ/٤٨ — ٨٤٩ م) أرغم العرب أهل مدينة ارغوس على بعد ١٣ ميلا من مدينة شكلة فى الركن الجنوبى الشرقى من الجزيرة ، و ٥٠ ميلا من بثيرة(١٩٩) ، على طلب الصلح نظير تسليم مدينتهم التى هدمها العرب ، وأخذوا منها ما أمكنهم حمله(٢٠٠) • وهذا يعنى أن فتوحات العرب فى الجزيرة كانت أكبر مما يحتمله توزيع الجند عليها ، فكانوا يتخلصون منها بالهدم والتخريب •

اما فى سنة ٢٣٥ هـ/٤٩ — ٨٥٠ م ، فكانت منطقة قصريانة هدفا لغارات العرب الذين افسدوها ، ونشروا الذعر بين أهلها ، قبل أن يعودوا بالمغانم والأسلاب(٢٠١) ، مما يعنى أن أهل قصريانه كانوا قد أخلوا بالعهد ، وأن تلك الحملة كانت تاديبية لردعهم •

---

(١٩٥) ابن الأثير ، سنة ٢٢٨ هـ ، ج ٧ ص ٢ ، المكتبة ، ص ٢٣٠ ، وانظر ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٧٠ — الذى يجعل ذلك فى السنة التالية ٢٣٣ هـ ، ولو انه لا يذكر اسم المدينة •

(١٩٦) أنظر موندر هيدن ، الأغالبة (بالفرنسية) ، ص ٢٧٨ •

(١٩٧) الادريسى ، المكتبة ، ص ٦٦ •

(١٩٨) ابن الأثير ، سنة ٢٢٨ هـ ، ج ٧ ص ٣ •

(١٩٩) الادريسى ، المكتبة ، ص ٣٨ •

(٢٠٠) ابن الأثير ، سنة ٢٢٨ هـ ، ج ٧ ص ٣ ، المكتبة ، ص ٢٣٠ ، ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٧٠ •

(٢٠١) ابن الأثير ، سنة ٢٢٨ هـ ، ج ٧ ص ٣ ، المكتبة ، ص ٢٣٠ •

وفاة أبي الأغلب ابراهيم بن عبد الله :

وبعد هذه الانتصارات اللامعة ، توفي والي صقلية أبو الأغلب ابراهيم ، في ١٠ من شهر رجب سنة ٢٣٦ هـ/١٠ يناير ٨٥١ م ، بعد ولاية استمرت أكثر من خمسة عشر عاما ، منذ سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧ م(٢٠٢) • والحقيقة إنه برغم ما قد يظهر من الخلط بين أبي الأغلب ابراهيم بن عبد الله هذا ، وأخيه أبي فهر محمد بن عبد الله الذي كانت له الولاية من قبل(٢٠٣) ، مما يمكن أن يفهم منه أنه ربما حدث خطــأ في الاسم ، وأن المقصود بالاسمين شخصية واحدة فقد رأينا ترجيح رواية ، ابن عذارى ، التي أنهت ولاية أبي فهر محمد سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧ م ، وختمت ولاية أبي الأغلب ابراهيم في سنة ٢٣٦ هـ/٨٥١ م • وبنـــاء على ذلك فقد أخذنا رواية ابن الأثير ، ومن نقلها عنه من الكتاب ، وهي الخاصة بوفاة أبي فهر محمد ، أمير صقلية ، في سنة ٢٣٦ هـ/٨٥١ م على أنها خاصة بأبي الأغلب ابراهيم • وتشير تلك الرواية الى أنه كان لا يغزو بنفسه ، بل أقام في بلرم ، من حيث كان يسير الجيوش والسرايا مع نوابه ، فتفتح وتغنم(٢٠٤) •

ولاية العباس بن الفضل بمعرفة الجند : قيادة قوية حازمة :

واجتمع قواد العسكر بعد وفاة أبي الأغلب ابراهيم ، ونظروا فيمن تكون له القيادة بعده ، وتم اتفاقهم على أن تكون قيادتهم الى العباس بن الفضل ابن يعقوب ، وكتبوا بذلك الى أمير افريقية محمد بن الأغلب الذي أقر العباس في ولاية صقلية ، وكتب اليه العهد بالجزيرة ، ولم ينتظر العبـــاس الى أن يصله عهد القيروان له ، فبدأ يمارس سلطاته ، فكان يقود الجيوش بنفسه أو يبعث السرايا ، وهو مقيم في بلرم ، تغـــير وتعود اليـــه بالمغـــانم والأسلاب(٢٠٥) •

---

(٢٠٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١١ •

(٢٠٣) أنظر فيما سبق ، ص ٢٣٣ •

(٢٠٤) ابن الأثير ، سنة ٢٢٨ ، ج ٧ ص ٣ ، المكتبة ، ص ٣٠ ٢ـ ٢٣١ ، ابو الفدا المختصر ، المكتبة ، ص ٤٠٢ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ (حيث النص : « وكان من قبل برو (بدون لا) ويبعث السرايا) ، المكتبة ، ص ٤٧١ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ ب •

(٢٠٥) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٣ ، المكتبة ، ص ٢٣٣ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ص ٤٧١ (حيث اسم العباس : العباس بن الفضل بن جعفر بن يعقوب ابن فزارة) ، النويري : المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ ب •

وعندما وصل كتاب الولاية الى العباس بن الفضل(٢٠٦) ، بدأ بتسجيل نشاط عظيم جعل من عهده فترة مميزة في تاريخ صقلية العربية ، وهذا ما عبر عنه ابن عذارى ، اذ يقول : « فجاهد كثيرا ، وغزا طويلا ، وكان له في الروم مواقف أذلهم بها »(٢٠٧) . فقد خرج العباس بنفسه في سنة ٢٣٧ هـ/ ٨٥١ م ، على رأس قواته التي جعل على مقدمتها عمه رباح (بن يعقوب) ، الذي وجهه نحو قلعة أبي ثور ، بينما اتجه هو نحو قصريانة(٢٠٨) ، التي كان قد اتخذها الروم عاصمة لهم بدلا من سرقوسة المعرضة للغارات البحرية، وذلك بعد استيلاء العرب على بلرم(٢٠٩) .

وأدى رباح المهمة فأغار على قلعة أبي ثور ، وأسر وغنم ، ولحق بالعباس حيث قتل الأسرى . وعاثت القوة العربية في اقليم قصريانة ، وهي تفسد وتحرق وتخرب ، وتأسر وتسبي . ولما لم يخرج البطريق قائدها للقاء العرب عادوا الى بلرم(٢١٠) .

الالحاح على قصريانة وسط الجزيرة ، واجتياح الساحل الشرقي :

وواضح من تتبع العمليات الحربية التي قام بها العباس بن الفضل ، انه كان يرمي الى تحقيق أهداف أبعد بكثير من أهداف سابقيه من الولاة ، وأنه كان يطمح في انهاء الوجود البيزنطي في الجزيرة ، وأنه كان قد قرر الاستيلاء على قصريانة ، كهدف أول له .

ولكنه لما كان من الصعب اقتحام المدينة المحصنة في قمة جبلها المنيع ، فانه رأى الالحاح عليها بالقتال والتخريب حتى ينتهي أمــرها بالارهاق ثم السقوط . فقد قام العباس بالغارة على منطقتها في سنة ٢٣٨ هـ/٨٥٢ م الثانية في عسكر عظيم ، فغنم وخرب وقتل ، وبعث برؤس القتلى الى بلرم . ومن قصريانة سار العباس ليوسع عملياته في نواحي الساحل الشرقي مبتدئا

---

(٢٠٦) ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٤ ، أبو الفدا ، المختصر ، المكتبة ، ص ٤٠٥

(٢٠٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١١ .

(٢٠٨) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٣ ، المكتبة ، ص ٢٢١ (حيث اسم رباح بن سعفر بدلا من ابن يعقوب) .

(٢٠٩) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٨ ب .

(٢١٠) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ ، ج ٧ ص ٢٣ ، المكتبة ، ص ٢٢١ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٧١ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١١١ (الذي يقول بشكل عام انه غنم غنائم عظيمة ، وسبى سبيا كثيرا ، وفتح بلادهم) .

من قطانيا ، في اتجاه الجنوب ، نحو سرقوسة ونوطس ، ثم أرغوس في الطرف الجنوبي الشرقي للجزيرة » « فغنم من جميع هذه البلاد وخرب وأحرق » ، قبل أن ينزل على بثيرة التي ضرب عليها الحصار لمدة خمسة أشهر ـ فكان أخذها في سنة ٢٣٩ هـ/٨٥٣ م التالية ـ ولم يرحه عنها الا بعد أن صالحه أهلها على خمسة آلاف رأس من الماشية(٢١١) .

واستمر العباس يلح بالصوائف على مدن الروم وحصونهم في الجزيرة خلال السنوات التالية ، كما يتضح من الحوليات الصقلية في ابن عذارى ، الذي يكتفي بالاشارة الى أعمال الافساد والتخريب والنكاية في الروم ، في سنوات ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م و ٢٤١ هـ/٨٥٥ م . وهو يشير الى اقامة الفضل في تلك السنة الأخيرة في بعض الجبـــال لمدة ثلاثة أشهر ، يضرب كل يوم حـــول قصريانة ، فيقتل ويصيب ، وتغنم سراياه في كل جهة . كما أنه سير أخاه علي بن الفضل في البحر فأصاب وغنم ، وعاد بأعداد كبيرة من الماشية(٢١٢) .

أما في سنة ٢٤٢ هـ/٨٥٦ م ، وهي السنة التي توفي فيها الأمير الأغلبي أبو العباس محمد بن الأغلب ، وولي ابنه أبو ابراهيم احمد بن محمد بن الأغلب ، فقد استولى فيها العباس على عدد من حصون الروم(٢١٣) .

الاستيلاء على الحصن الجديد :

واستمر الحاح العباس على قصريانة (عاصمة الروم) فخرج اليها في

---

(٢١١) ابن الأثير ، سـنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٢٤ المكتبـة ، ص ٢٣١ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٧١ ـ الذي يلخص الرواية تلخيصا أشبه بالبتر ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١١ ـ الذي يكتفي بالاشارة الى أعمال القتل وبعث الرؤس الى بلرم ونسف الزروع وسبي السبايا في سنة ٢٣٨ هـ ، ثم يجعل تلك الحملة ضمن أحداث سنة ٢٣٩ هـ/٨٥٣ م ، وقارن تاريخ المسلمين في صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة الصقلية ، ص ١٦٦ (حيث يجعل أخذ بثيرة في سنة ٦٣٦٢ ، أي بعد ٢٧ سنة من الفتح ، وهو ما يكاد يتفق مع تاريخ ابن عذارى) .

(٢١٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١١ ـ ١١٢ .

(٢١٣) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٤ ، المكتبة ص ٢٣١ ـ حيث القراءة ما بين « خمسة وجمة » ، بينما أخذ ابن خلدون (المكتبة ، ص ٤٧١) بقراءة الكلمة « حصون جمة » ، التي صحفها أماري الى « حصون خمسة » ، لأنه فضل خمسة على جمة في نص ابن الأثير . وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٢ ـ حيث يقول ان العباس كان ينتقل من حصن الى حصن ففتح أكثرها ، وصالحه بعض أهلها .

سنة ٢٤٣ هـ/٨٥٧ م ، وهزم أهلها عندما خرجوا الى لقائه ، ثم انه تابع مسيرته من جديد الى سرقوسة وطبرمين حيث نشر النهب والتخريب والاحراق على طول الطريق • ونزل العباس على الحصن الجديد الذى كان قد بناه الروم في طبرمين ، جنوب مسينى على الساحل الشرقى رضيق الخناق على الحامية الرومية التى كانت به حتى أنهم فاوضوه على أن يشتروا رحيله عنهم بخمسة عشر ألف دينار ، ولكنه لم يقبل منهم ذلك •

وأمام الحاح العباس على حصن طبرمين الجديد يقول ابن الأثير ان الروم عرضوا على العباس الاستسلام له فى نظير شروط مجحفة بهم ، تقضى بأن يسلموا له الحصن ومن فيه على أن يطلق مائتى نفس منهم فقط • ووافق العباس وملك الحصن ، وباع كل من وجده فيه ، بعد أن وفى لهم بشرطهم فاطلق المائتى شخص الذين عينوهم ، ثم انه هدم الحصن • ويظهر شك ابن الأثير فى تلك الرواية عندما يتبعها بكلمتى والله أعلم(٢١٤) • ونحن نرى أنه ربما كان المقصود بشرط اطلاق المائتى نفس هو الا يأخذ منهم فدية ، بينما كان على الآخرين أن يفتدوا أنفسهم بالمال أو أن يسترقوا •

والى جانب ذلك نجح العباس فى ارغام أهل حصن « شلفودة » (جلفودى) على مصالحته ، شريطة أن يخرجوا من الحصن(٢١٥) •

فتح قصريانة :

وأخيرا صارت الظروف مواتية لفتح قصريانة فى سنة ٢٤٤ هـ/٥٨ — ٨٥٩ م • فعندما تحسنت الأحوال الجوية بعد فصل الشتاء ، سار العباس فى جيوشه من بلرم قاصدا قصريانة ، حيث نشر الرعب والخراب فى اقليمها • ثم انه اتجه نحو سرقوسة حيث كان قد سير أسطولا بحريا بقيادة أخيه على ، ليتم حصار المدينة من جهتى البر والبحر جميعا • والتقى أسطول على بن الفضل باسطول رومى يتكون من اربعين شلنديا ، على رأسه قائد تسميه رواية النويرى بالاقريطشى أى الكريتى (الكريتلى)(٢١٦) • وانتهى

---

(٢١٤) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ج ٧ ص ٢٤ ، المكتبة ص ٢٣٢ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٢ — الذى يسمى المكان بـ « قصر الحديد » (بدلا من القصر الجديد) ، ويقول ان العباس وافق على فدية الـ ١٥ ألف دينار •

(٢١٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٢ •

(٢١٦) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٩ أ ، المكتبة ، ص ٤٣٢ ، وقارن ابن عذارى ، •

القتـــال البحري العنيف بانتصـــار المسلمين وأسر عشر شلنديات رومية برجالها • ولكن الجيش البرى ، وكذلك الأسطول عادا الى قواعدهما في بلرم بما أخذ من المغانم والسبي والاسلاب(٢١٧) •

والظاهر أنه أمام عدم تمكن العباس من تحقيق ما كان يرجـــوه من الاستيلاء على قصريانة خلال ما كان يقوم به من الصوائف ، فكر في معرفة ما يمكن أن يقدر لذلك من النجاح خلال فصل الشتاء ، وقت البرد والثلج ، على غير المعتاد •

وقام العباس فعلا بتسيير شاتية الى قصريانة ، نهب رجالها وخربوا في الاقليم ، وعادوا الى بلرم ومعهم رجل من وجهاء الروم • وتقول الرواية أن العباس أمر بقتل الرجل الذى انزعج للأمر ، وعرض أن يشترى حياته نظير أن يدل العرب على عورة لقصريانة ، يمكن لهم الدخول منها والاستيلاء على المدينة ، والقوم آمنون غير محترسين ، بسبب الشتاء والثلوج •

وانتخب العباس حوالى ألفي رجل من انجاد فرسانه وأبطالهم ، وسار بهم في شهر كانون (ديسمبر — يناير) مع الرجل الى أن قرب من قصريانة حيث كمن معهم مستترا ، بينما سير عمه رباحا مع شجعان هؤلاء الرجال ، فساروا مستخفين في الليل ، ودليلهم الرومي مقيد بين يدى رباح(٢١٨) • ودلهم الرجل على المكان الذى يمكنهم عن طريقه دخول المدينة • وكان الموقع الضعيف في تلك العصور ، هو حيث الثغرة في أسوار البلدة التى كان يخرج منها ماء نهرها محملا بالأوساخ ، وكان في منطقة وعرة من الجبل • وهكذا

= ج ١ ص ١١٢ — الذى استنتج من اسم « الاقريطشى » ، وهو قائد الأسطول الرومى ان المعركة دارت بين العرب والروم قرب سواحل كريت •

(٢١٧) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ ، ج ٧ ص ٢٤ ، المكتبة ، ص ٢٣٢ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ حيث يجعل ذلك في سنة ٢٢٧ هـ وهى السنة التى خصصها ابن الأثير لكل تلك الفتوح ، المكتبة ، ص ٤٧١) • وقارن ابن عذارى ج ١ ص ١١٢ — الذى يذكر أنه بعد ذلك « دارت على المسلمين جولة ، فقتل منهم ، واخذت لهم عشرون مركبا » وهذا ما تشير اليه رواية كتاب التاريخ حسب تاريخ العالم عند الروم - المكتبة الصقلية ، ص ١٦٦ — اذ تقول روايته أنه أخذت مراكب لعلى (ابن الفضل) فى تلك السنة • وانظر ص ٢٥٢ •

(٢١٨) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ج ٧ ص ٢٤ ، المكتبة ص ٢٣٣ • وقارن النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٩ أ ـ حيث تنص الرواية على ان رجال العباس كانوا ألف فارس وسبعمائة راجل وانه جعل على كل عشرة منهم مقدما •

تطلب الأمر استخدام السلاليم لارتفاع ذلك الموضع من الجبل ، والوصول الى السور حيث الثغرة أو الخوخة . وقبيل الفجر ، وأثناء استغراق الحراس فى النوم ، تسللت جماعة الاستطلاع الى داخل السور ، ووضعت السيف فى حراس الأبواب وفتحوها ، لكى يأتى العباس ورجاله على عجل ، ويدخلوا المدينة على حين غرة من أهلها مع آذان صلاة الصبح من يوم الخميس منتصف شوال/٢٥ يناير ٨٥٩ م . وقتل العباس من وجد فى المدينة من المقاتلة ، وأخذ بنات البطارقة بحليهن وأبناء الملوك ، وأصاب فى المدينة من الكنوز والذخائر ما يعجز عنه الوصف(٢١٩) . وكان للخليفة المتوكل الذى أحظى بهذا النصر الكبير ، نصيبه من السبى الجميل(٢٢٠) .

وتقول الرواية أن العباس بنى فى قصريانة مسجدا فى الحال ونصب فيه منبرا ، وخطب فيه يوم الجمعة(٢٢١) ، وهو اليوم التالى . ولا بأس أن يكون العباس قد حول كنيسة المدينة الى مسجد جامع بعد أن زودها بمنبر أمكن اعداده فى يوم وليلة .

رد الفعل لدى الروم :

حملة بحرية الى الجزيرة تنتهى بالفشل :

وكان استيلاء العرب على قصريانة ضربة شديدة للروم لم يكن من القبول أن يتلقوها ساكتين . فلقد أرسل القيصر (ميخائيل الثالث) — فى السنة التالية (٢٤٥ هـ/٨٥٩ م) ، حسبما يقتضى تنسيق الأحداث — من القسطنطينية أسطولا فى ثلاثمائة شلندى نحو صقلية ، يحمل الجنود والعتاد، فى محاولة للتصدى للعرب واسترجاع المدينة الهامة . وعندما علم العباس بوصول تلك الحملة — التى كانت بقيادة قسطنطين كوندوميتيس (Constantine Kondomytes) (٢٢٢) — الى سرقوسة ، خرج بنفسه

---

(٢١٩) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٤ ، المكتبة ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٧١ — ٤٧٢ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٩ أ ، أبو الفدا ، المكتبة ، ص ٤٠٥ ، تاريخ المسلمين فى صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٦ (سنة ٦٣٦٧ أى بعد ٣٢ سنة من الفتح) .

(٢٢٠) أنظر فرندو هيدن (بالفرنسية) ، ص ٣١ (عن ابن خلدون) .

(٢٢١) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ج ٧ ص ٢٤ ، المكتبة ، ص ٢٣٣ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٢ .

(٢٢٢) عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الإسلامية ، ص ١٢ .

في رجاله وأساطيله ، والتقى بهم عند أحواز سرقوسة ، ونجح في هزيمتهم حتى ألجأهم الى مراكبهم ، كمـا أنه تمكن من الاستيلاء على ٣ (ثلث) من مراكبهم .

وتشير الرواية الى تفوق المسلمين على الروم في فن الحرب وقتئذ ، حتى قيل إنه في الوقت الذي كثر القتل في الروم لم يصب من العرب بالنشاب — أي من بعيد — الا ثلاثة نفر(٢٢٣) ، وهو الأمر المستغرب فعلا .

انتفاضات للروم :

ولا بأس من أن يكون الروم قد استطاعوا الثأر لتلك الهزيمة البحرية المفاجئة ، فهذا ما تشير اليه حوليات ابن عذارى ، بعد الانتصار الذي حققه علي بن الفضل في البحر على الروم سنة ٢٤٤ هـ/٨٥٨ م ، اذ تقول : « ثم دارت على المسلمين جولة ، فقتل منهم ، وأخذت لهم عشرون مركبا »(٢٢٤) .

وهذا ما ترجحه الحوليات الصقلية في سنة ٢٤٦ هـ/٨٦٠ م ، عندما سجل نكث عدد كبير من القلاع الصقلية ، وخروجها على طاعة المسلمين ، مثل : سطر ، وآبلا (Avola) ، وابلاطنو (Platani) وقلعة عبد المؤمن ، وقسعة البلوط ، وقلعة أبي ثور (Caltavuturo) ، وغيرها من القلاع مما اضطر العباس الى الخروج اليهم في حملة تأديبية ، ألحق فيها الهزائم بعساكر الروم ، وحاصر قلعتي عبد المؤمن وابلاطنو .

وفي أثناء الحصار بلغته أنباء عن وصول قوات رومية الى الجزيرة فترك حصار القلعتين ، وسار الى لقاء الروم قرب قلعة جلفودى (Cefalu) شرق بلرم . وانتهى القتال بانهزام الروم الى سرقوسة ، وعودة العباس ابن الفضل الى بلرم(٢٢٥) .

---

(٢٢٣) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٤ ، المكتبة ، ص ٢٣٣ : حيث النص على الاستيلاء على « ثلث مراكبهم » (اى مائة شلندى) وهو الأمر المستبعد . وقارن ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٢ ، ج ٤ ص ٢٠٢ : حيث النص ، « واقلع الملهم الى بلادهم بعد أن غنم المسلمون من أسطولهم ثلاثة أو أكثر » .

(٢٢٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٣ ، وانظر فيما سبق ، ص ٢٥٠ ، هـ ٢١٧ .

(٢٢٥) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٤ ، المكتبة ، ص ٢٣٤ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٢ — حيث تصرف في الرواية وجعل مسير العباس الى سرقوسة لقتال الحملة الرومية ، وعودته الى قصريانة وليس الى المدينة « بارم » .

اعمار قصريانة ، ووفاة العباس بن الفضل :

واهتم العباس بقصريانة فعمرها وحصنها وشحنها بالمقاتلة. وفي السنة التالية (٢٤٧ هـ/٨٦١ م) ، وبينما كان العباس يجول برجاله في منطقة سرقوسة ، يتكي في الروم ويغنم أموالهم ، اعتل في موضع غيران قرقنة (Caltagirone) علته التي مات فيها بعد ثلاثة أيام . وذلك في ٣ جمادى الآخرة سنة ٢٤٧ هـ/١٥ اغسطس ٨٦١ م ، ودفن هناك — غير بعيد من قبر أسد بن الفرات — ولكن الروم نبشوا قبره وأحرقوه(٢٢٦) .

تقييم اعمال العباس :

وهكذا تميزت ولاية العباس بن الفضل التي استمرت احدى عشرة سنة ، داوم فيها الجهاد صيفا وشتاء ، بتحقيق انجازات لم يسبقه الى مثلها من تقدمه من الولاة . فكان من أهم أعماله غزو أرض قلورية (كلابريا) وأنكبردة (لومبارديا) التي أسكنها المسلمين(٢٢٧) . وكان تتويج أعماله في صقلية بالاستيلاء على قصريانة التي أصبحت من أهم مـــدن العرب في الجزيرة . وهكذا حق لابن عذارى أن يقول : انه « جاهد كثيرا ، وغزا طويلا ، وكان له في الروم مواقف اذلهم بها »(٢٢٨) . وهكذا لم يكن من الغريب ان يعبر الروم عن حقدهم على العباس او عن خوفهم منه ميتا ، كما كان حيا ، بنبش قبره ، و « احراق شلوه » ، كما يقول ابن خلدون .

---

(٢٢٦) ابن الأثير ، سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٥ ، المكتبة ، ص ٢٣٤ ، ابن خ ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٧٢ . وعن دفن العباس في « كالتاجيرون » انظر عزيز تاريخ صقلية الاسلامية ، ص ١٤ .

(٢٢٧) ابن الأثير سنة ٢٣٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٥ ، المكتبة ، ص ٢٣٤ ، ابن ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٧٢ .

(٢٢٨) البيان ، ج ١ ص ١١١ .

ظامير قوى في مستوى العباس بن الفضل وابنه عبد الله :

خفاجة بن سفيان (٢٤٨ ــ ٢٥٥ هـ/٨٦٢ م ــ ٨٦٩ م) ، وابنه محمد :

فترة انتقالية :

احمد بن يعقوب ، وعبد الله بن العباس (جمادى الآخرة ٢٤٧ هـ/جمادى الأولى ٢٤٨ هـ) :

عندما توفى العباس فى ميدان القتال ، اجتمع قادة العسكر ، كما كانت تجرى العادة في مثل هذه الظروف ، وتناقشوا فيمن يخلفه فى قيادة الجيش، وامارة صقلية بالتالى . وبينما تنص رواية ابن الأثير على أن الناس ولوا عليهم ابنه عبد الله بن العباس ، وكتبوا بذلك الى الأمير الأغلبى فى القيروان(٢٢٩) ، ينص ابن عذارى على أن الذى ولى بعد العباس هو عمه أحمد بن يعقوب ، وأن اهل صقلية الذين ولوه : « كتبوا بذلك الى صاحب افريقيـــة أبى ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب ، فجاء كتابه باثباته(٢٣٠) .

والظاهر أن الأمرين جميعا صحيحين مع اختلاف الترتيب الزمنى ، فهذا ما يظهر من رواية النويرى التى تقول ان النـــاس ولوا « على أنفسهم أحمد بن يعقوب ، ثم ولوا عبد الله بن العباس ، وكتبوا الى أمير القيروان ، فولى خمسة أشهر »(٢٣١) . اذ لما كان الوالى التالى ، وهو خفاجة بن سفيان، قد وصل من القيروان الى الجزيرة فى شهر جمادى الأولى من السنة التالية (٢٤٨ هـ/يولية ٨٦٢ م) ، فكأن الفترة ما بين وفاة العباس ووصول خفاجة بلغت ١١ (احد عشر) شهرا ، ولى منها عبد الله بن العباس خمسة أشهر ، فتكون ولاية عمه أحمد بن يعقوب قبله ــ التى لا نعرف الظروف التى انتهت فيها ، وهل كانت بسبب وفاته أم بسبب عدم رضاء الجند عنه ــ قد استمرت لمدة ستة أشهر ، من جمادى الآخرة سنة ٢٤٧ هـ/اغسطس ٨٦١ م الى ذى الحجة من نفس السنة (فبراير ٨٦٢ م) ، وتكون ولاية عبد الله بن العباس ــ التى لا نجدها فى حوليات ابن عذارى ــ قد بدأت من ذى الحجة وانتهت فى

---

(٢٢٩) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤٠ ؛ المكتبة ، ص ٢٢٤ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٧٢ .

(٢٣٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٣ .

(٢٣١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٩ ب .

جمادى الأولى سنة ٢٤٨ هـ/يولية ٨٦٢ م · وينص ابن الأثير على أنه خلال الاشهر الخمسة التي ولي فيها عبد الله بن العباس ، سار على نفس سياسة الغزو الهوية التي اتبعها والده ، والتي كان يشاركه في تنفيذها ، فأخرج السرايا ، ففتحت قلاعا عدة ، منها : قلعة جبل أبي مالك وقلعة الارمنيين ، وسمة المشرقة(٢٣٢) ·

اختيار خفاجة بن سفيان :

أما لمـــاذا لم يترك الأمير أبو ابراهيم أحمد بن محمد القائد عبد الله ابن العباس في منصبه ، وهو الذي خبر أحوال الجهاد في صقلية وفي ايطاليا طوال الاحدى عشرة سنة التي ولي فيها والده ، وكان فيها بمثابة الشريك له ، فلا ندري ان كان الأمر خاصا بمزاج أمير القيروان أم أنه كان قد حدث خلاف بين أفراد أسرة عبد الله بن العباس بن الفضل ، شارك فيه الجند ، مما أدى الى عزلهم لعمه أحمد بن يعقوب وتوليته ، وهو الأمر الذي يجعل اختيار أمير القيروان لقائد آخر من لدنه ، وهو خفاجة الذي كان له شأنه بين قواد افريقية ، أمرا مقبولا ·

والمهم أن خفاجة وصل الى الجزيرة في جمـــادى الأولى سنة ٢٤٨ هـ/ يوليه ٨٦٢ م ومعه ابنه محمد · وتسلم مقاليد الأمور في بلرم ، وانتهـــج سياسة عسكرية قوية ، تعتبر استمرارا لسياسة العباس بن الفضل ·

التوسع في اقليم سرقوسة والركن الجنوبي الشرقي : فتح نوطس :

فلقد بدأ خفاجة نشاطه في التو واللحظة ، فسير ابنه محمدا على رأس سرية قصدت منطقة سرقوسة ، حيث غنمت وخربت وأحرقت ، وظفرت بمن تعرض لها من الروم · وقبل أن يعود الى بلرم عرج على أرغوص وضيق عليها حتى طلب أهلها الأمان(٢٣٣) ، أي أنهم عادوا الى الخضوع لدفع الجزية ·

---

(٢٣٢) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤٠ ·

(٢٣٣) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ج ٧ ص ٤٠ ، المكتبة ، ص ٢٣٥ — ولما كانت الحوليات الصقلية تذكر ان العرب قد عادوا الى أرغوص مرة أخرى في سنة ٢٥٢ هـ/ ٨٦٦ م ، فان ابن الأثير يتساءل عما اذا كان قد حدث خلط بين التاريخين أم ان الأمر يتعلق بغزوتين مختلفتين — بعد نكس أهل ارغوص — وهو الأمر الذي نراه مقبولا في حرب الصوائف الصقلية ، هذه ، وهذا ما تؤكده رواية تاريخ المسلمين في صقلية بحسب تاريخ العالم عند الروم (المكتبة ، ص ١٦٦) حيث أخذت أرغوص للمرة الأولى في سنة ٦٣٥٦ ، وأخذت في المرة الثانية في سنة ٦٣٧٥ — وان كانت المسافة بين التحين كبيرة تبلغ حوالي ١٩ سنة ·

وظل خفاجة - الذى أقره فى ولاية صقلية الأمير زيادة الله (الثانى) بن محمد ابن الأغلب ، وأرسل اليه بالخلع رمز الامارة ، عندما ولى امارة الاغالبة فى ذى القعدة سنة ٢٤٩ هـ/ديسمبر ٨٦٣ م ، عقب وفاة أخيه أحمد[٢٣٤] - يلح بالصوائف على اقليم الركن الجنوبى الشرقى من الجزيرة حتى تمكن من فتح مدينة نوطس حصن سرقوسة ، فى المحرم من سنة ٢٥٠ هـ/مارس ٨٦٤ م ، وذلك بالاستعانة ببعض أهل المدينة الذى دل العرب على الموضع الذى أمكنهم الدخول منه ، وأخذ العرب فى نوطس أموالا عظيمة - ومن نوطس سارت القوات العربية غربا حيث فتحت شكنه (Scicli) فى جنوب أرغوس ، بعد أن ضربوا عليها الحصار مدة[٢٣٥] .

وعندما توفى زيادة الله الثانى فى ذى القعدة من سنة ٢٥٠ هـ/ديسمبر ٨٦٤ م ، أى بعد سنة واحدة من الولاية ، أقر خفاجة فى ولايته الأمير الجديد محمد بن أحمد أبو الغرانيق .

خصائص الفتوح فى الجزيرة حتى سنة ٢٥٠ هـ/٨٦٤ م :

والواضح من عرض أحداث هذه الحرب العجيبة التى كان يشنها العرب على مدن الروم فى صقلية منذ حوالى أربعين سنة ، أن طلب الأمان من جانب حصون الروم ومدنهم ، كان يعنى الصلح ، وكذلك كانت تعنى كلمة «الفتح» فى معظم الأوقات ، الا اذا كان هناك نص صريح على امتلاك العرب للحصن أو المدينة ، فضلا عن الاشارة الى اقامة العرب فيه ، أو عن هدم المدينة أو الحصن أو احراق الواحد منهما أو الآخر ، فيما يعنى أن أهله سيعودون اليه عما قريب ، لكى تعود الحوليات العربية لتذكر الحرب فى نفس الموضع من جديد .

وهكذا كانت منطقة سرقوسة هدفا لغارة شديدة فى سنة ٢٥١ هـ/٨٦٥ م التالية ، حيث نصب خفاجة للروم كمينا بقيادة ابنه محمد نجح فى أن يقتل منهم ألف فارس ، حتى سميت سرية محمد هذه بـ « سرية الف

---

(٢٣٤) ابن الأثير ، سنة ٢٤٩ هـ ج ٧ ص ٤٧ ، المكتبة ، ص ٢٣٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٣ سنة ٢٤٩ .

(٢٣٥) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ج ٧ ص ٤٠ ، المكتبة ، ص ٢٣٥ ، وقارن تاريخ المسلمين فى صقلية حسب تاريخ العالم ، ص ١٦٦ (من فتح العالم سنة ٦٣٧٤) ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٣ .

فارس » ، كما يقول ابن عذارى(٢٣٦) . وفي ضوء فكرة حرب الصوائف المتوالي هذه ، يمكن لنا أن نفهم الحاح العرب بالحرب على نفس الموضع أكثر من مرة ، رغم الأمان أو الصلح أو الفتح .

صلح طبرمين :

مفاوضات طريفة تشترك فيها النساء :

وهذا ما حير ابن الأثير في صوائف سنة ٢٥٢ هـ/٨٦٦ م(٢٣٧) ، حيث سار خفاجة الى سرقوسة ، ومنها اتجه الى أقصى الشمال الى منطقة جبل النار ، حيث أتاه رسل مدينة طبرمين يطلبون منه الأمان .

ونص ابن الأثير هنا يحوى عبارة غريبة ، اذ يقول : « فارسل (أى خفاجة) امرأته وولده في ذلك ، فتم الأمر »(٢٣٨) ، مما يعنى أن مسألة الأمان أو الصلح كانت تتطلب نوعا من المفاوضات المتعارف عليها في ذلك الوقت . وفكرة إرسال خفاجة لابنه محمد ليفاوض أهل طبرمين نيابة عنه معقولة ، فقد كان محمد بمثابة الساعد الأيمن له في أعماله أو الشريك له في ولايته . وأما ارسال امرأته التى نظن أنها كانت أم محمد أيضا ، فربما كانت لمباهاة الروم الـذين كانوا يعتزون بنسائهم ، بل ويصحبونهن معهم في حروبهم ، كما رأينا في أكثر من معركة .

وهذا يعنى أن العرب في صقلية بدأوا يتأثرون بعادات الروم في الجزيرة ، ومنها ما يتعلق بتشريفهم للنساء واعتزازهم بهن . ولا توضح الرواية الأسباب التى دعت أهل طبرمين للغدر أو نقض الصلح الذى أبرمه محمد بن خفاجة والسيدة والدته مع أهل طبرمين ، وهو الأمر الذى جعل خفاجة يرسل ابنه محمدا من جديد الى طبرمين ولكن لحربها ، هذه المرة . وتقول الرواية أن محمد بن خفاجة فتح طبرمين وسبى اهلها — والفتح ، كما قلنا ، لا يعنى هنا أكثر من الحرب أو املاء الصلح .

صلح ارغوص ، والقيراث :

وفي نفس هذه السنة طلب أهل ارغوص الأمان من جديد ، بمعنى أنهم

---

(٢٣٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٤ .
(٢٣٧) انظر فيما سبق ، ص ٢٢٥ وص ٢٢٣ .
(٢٣٨) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ج ٧ ص ٤٠ ، المكتبة ، ص ٢٣٨ .

كانوا قد نكثوا صلح سنة ٢٤٨ هـ/٨٦٢ م (٢٣٩) . وهذا ما يفسر قسوة شروط الأمان هذه المرة ، اذا اضطر أهل أرغوس الى أن يعرضوا على خفاجة السماح لعدد معين من أهـــل الحصن (سقط من النص) ــ كما حدث في طبرمين أيام العباس ، حينما طلبوا اطلاق مائتي نفس عيسوهم(٢٤٠) ــ يطلقون بأموالهم ودوابهم ، على أن يغنم الباقي . وهذا ما حدث فعلا اذ أخذ خفاجة جميع ما في الحصن من مال ورقيق ودواب ، غير ذلك(٢٤١) .

وتشير الحوليات الصقلية في نفس السنة (٢٥٢ هـ/٨٦٦ م) الى أن أهل الغيران ــ القريبة من سرقوسة ــ هادنوا خفاجة (نظير الجزية) ، وأنه افتتح حصونا كثيرة ، ثم انه مرض مرضا شديدا حتى انه عاد الى بلرم محمولا في محفة (محمل)(٢٤٢) .

الحاح مستمر على اقاليم سرقوسة ، وقطانيا :

ولم يطل مرض خفاجة في بلرم ، اذ أنه عاد في السنة التالية (٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م) الى أقاليم سرقوسة وقطانيا حيث خرب البلاد وأفسد المزروعات ، وبث سراياه في أرض غير المعاهدين من الروم ، فظفرت وعادت بالمغـــانم الكثيرة(٢٤٣) . وظل الالحاح على منطقة سرقوسة في سنة ٢٥٤ هـ/ ٨٦٨ م التالية ، حيث بعث خفاجة سراياه للاستكشاف قبل أن يسير اليها بنفسه ليفسد زروعها في ربيع الأول (مارس) . وكذلك سير في البحر ابنه محمدا في الحراقات عندما علم بوصول حملة من القسطنطينية ، فيها الكثير من الجنود . وكان الظفر في البحر وفي البر جميعا لخفاجة ، اذ انهزم الروم أمام القوات العربية ، وقتل منهم آلاف كثيرة ، وأخذ لهم سلاح وخيل كثير ، عاد بها المسلمون الى بلرم ، في أول شهر رجب (أواخر يونيه)(٢٤٤) .

---

(٢٣٩) انظر فيما سبق ، ص ٢٥٥ وص ٢٣٣ .

(٢٤٠) انظر فيما سبق ، ص ٢٤٩ .

(٢٤١) ابن الأثير سنة ٢٤٧ هـ ج ٧ ص ٤٠ ، المكتبة ، ص ٢٣٥ ، ابن خلدن ، المكتبة ، ص ٤٧٣ ، ج ٤ ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣ .

(٢٤٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٤ ، ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤٠ ، المكتبة ، ص ٢٣٥ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٣ ، ج ٤ ص ٢٠٢ .

(٢٤٣) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ج ٧ ص ٤٠ ، المكتبة ، ص ٢٣٥ ــ ٢٣٦ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٣ ، ج٤ ص ٢٠٣ .

(٢٤٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٥ .

بمجرد عودة خفاجة الى بلرم سير ابنه محمدا على رأس الأسطول لغزو مدينة عبطة ، في أرض ايطاليا على ما يظهر ، فحاصر محمد المدينة في البحر ، وبث سراياه حولها في البر لمدة زادت على شهرين ، قبل أن يعود بمراكبه مشحونة بالمغانم الى بلرم في شهر شوال (سبتمبر)(٢٤٥) .

محاولة لم يقدر لها النجاح لاخذ طبرمين :

وكانت مدينة طبرمين — التي توصف بأنها من أحسن مدن صقلية ، والتي لا نعرف ان كانت قد نقضت ثانية بعد فتحها على يدى محمد بن خفاجة، بعد صلح سنة ٢٥٢ هـ/٨٦٦ م — هدفا لخفاجة في السنة التالية (٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م) ، وذلك عندما عرض عليه بعض أهلها تسهيل مهمة دخول العرب اليها ، عن طريق غير مطروق ، كان يعرفه الرجل . ففى شهر صفر (يناير — فبراير) سير خفاجة ابنه محمدا مع جماعة من الفرسان وبصحبته ذلك الرجل الدليل الطبرميني . وعندما اقتربت الجماعة من طبرمين توقف محمد وأمر بعض عسكره أن يقدموا رجاله مع الدليل ، على أن يلحق بهم الى داخل المدينة عندما يفتحوا أبوابها . ودخلت المجموعة من المغاوير (الكوماندوس) المدينة فعلا ، وامتلكت بابها وسورها . ولكنها بدلا من أن تعطى اشارة الهجوم النهائي لمحمد وبقية العسكر ، شرعت في السبى والغنيمة . والظاهر أن محمد بن خفاجة كان هو الآخر مترددا أو غير واثق من نجاح العملية في وقتها المحدد ، فتأخر عن ذلك الوقت الذى كان قد ضربه لرجال تلك الطليعة، حتى ظن هؤلاء أنه ربما كان العدو أوقع به وبرجاله .

وهكذا أرقفت الجماعة السبى ، كما تقول الرواية ، وخرجوا منهزمين — واغلب الظن أنهم فعلوا ذلك عندما هاجت المدينة وماجت بعد أن شعرت بما يحدث داخل أسوارها .

هذا ولا بأس في شرح ابن خلدون الذى قال : ان محمدا أتى من ناحية أخرى غير التى كان قد تم الاتفاق عليها ، فكان وصوله المفـــاجىء من تلك الناحية سببا في ذعر جماعة الطليعة الذين ظنوه ورجـــاله مددا للروم . فجفلوا ، مما دعاه هو الآخر الى الجفول خلفهم .

---

(٢٤٥) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ج ٧ ص ٤١ ، المكتبة ، ص ٢٣٦ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٣ .

والمهم أن محمد بن خفاجة عندما وصل الى باب المدينة في رجاله التقى بأصحابه وقد خرجوا منها ، فلم يكن أمامه الا العودة وراءهم(٢٤٦) . وهذا يؤيد فكرة تنبه حامية المدينة وأهلها ، وأخذهم بالأهبة للمقاومة . وهكذا لم تتحقق أمنية عزيزة على خفاجة كان يمكن أن يوازن بها ما قام به من أعمال بما قام به سلفه العباس بن الفضل ، عندما استولى على قصريانة بطريقة مشابهة ، قبل ذلك الوقت باحدى عشرة سنة .

الضغط على سرقوسة :

ولم يثبط هذا الفشل من عزيمة خفاجة الذى خرج من بلرم في الشهر التالى (ربيع الأول/فبراير مارس) على رأس قواته الى برسة ، بينما سير ابنه محمدا في عسكر كبير الى سرقوسة . ودار قتال شديد بين عسكر محمد وبين جيش رومى كبير ، انتهى لغير صالح محمد الذى عاد مفلولا الى والده ، بعد أن فقد كثيرا من رجاله . وهنا خرج خفاجة بنفسه على رأس قواته نحو سرقوسة وضرب عليها الحصار ، وضيق على اهلها ، بينما كانت سراياه تفسد الاقليم وتهلك الزرع(٢٤٧) .

مقتل خفاجة بيد رجل من عسكره :

وعندما رأى خفاجة أن حملته التأديبية ضد سرقوسة حققت أغراضها ، رفع عنها الحصار وأمر بالعودة الى بلرم عن طريق وادى الطين . والظاهر أن خفاجة كان يخشى من مكيدة يقوم بها الروم ضده ، وهو في طريق العودة ، فقرر الرحيل من وادى الطين ، وهو مدلج ليلا . وأثناء المسيرة الليلية ، وقع ما كان يحذره خفاجة ، اذ اغتاله رجل من عسكره بطعنة قاتلة مات منها ، وذلك في أول شهر رجب سنة ٢٥٥ هـ/١٥ يونية ٨٦٩ م .

والغريب في الأمر أن القاتل نجح في الهرب ولجأ الى سرقوسة(٢٤٨) ، مما يعنى أن الأمر حدث ، في غالب الظن ، بتدبير من الروم .

---

(٢٤٦) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤١ ، المكتبة ص ٢٣٦ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٢ (ج ٤ ص ٢٠٢ — حيث القراءة طرميس بدلا من طبرمين) .

(٢٤٧) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤١ ، المكتبة ، ص ٢٣٧ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢ ، المكتبة ، ص ٤٧٢ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٥ — الذى يقول ان سبب الهزيمة كان مقتل شجاع من شجعان المسلمين ، فانكسروا لقتله .

(٢٤٨) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤١ ، المكتبة ، ص ٢٣٧ ، ابن خلدون ، المكتبة ، ص ٤٧٣ ، أبو الفدا ، المكتبة ، ص ٤٠٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٥ .

اختيار محمد بن خفاجة للولاية :

ولاية قصيرة لمدة سنتين ، تم خلالهما فتح مالطة :

وحمل خفاجة قتيلا الى بلرم حيث دفن ، واجتمع قواد العسكر في العاصمة ، واتفقوا على أن يعهدوا بالقيادة الى ابنه محمد ، وكتبوا بذلك الى الأمير أبي الغرانيق محمد بن أحمد ، الذى وافق على اختيارهم ، وكتب الى محمد بن خفاجة عهده بالولاية على صقلية ، وسير اليه الملابس الرسمية ، المعروفة بالخلع ، وهي رمز الولاية(٢٤٩) ٠

ولم تستمر ولاية محمد بن خفاجة الا مدة سنتين ، تم في الأولى منهما الاغارة على اقليم سرقوسة بمعرفة عمه عبد الله بن سفيان ، الذى أهلك زروعها في سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م(٢٥٠) ، وأخذ جزيرة مالطة بمعرفة أحمد ابن عمر بن عبد الله(٢٥١) ٠ وفي السنة الثانية (٢٥٦ هـ/٨٧٠ م) تشير الحوليات الى هزيمة الأسطول البيزنطى ، الذى حاول استرجاع الجزيرة ، وفك الحصار عن مالطة(٢٥٢) ٠ ثم يأتي مقتل محمد بأيدى بعض خدمه الخصيان ، من الصقالبة ليضع نهاية تعسة لأعماله المجيدة في صقلية ، وذلك في نهاية اليوم الثالث من رجب سنة ٢٥٧ هـ/٢٨ مايو ٨٧١ م ٠ وكتم الخصيان قتله الى أن هربوا ليلا ، فلم يعرف قتله الا من الغد ، وعندئذ طلب الخدم ، وقتل الذين قتلوه منهم(٢٥٣) ٠

---

(٢٤٩) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤١ ، وسنة ٢٥٥ هـ ، ج ٧ ص ٨٦ ، المكتبة ص ٢٣٧ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٢-٢٠٣ ، المكتبة ، ص ٤٧٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٥ ، النويرى المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٩ ب ٠

(٢٥٠) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤١ ، المكتبة ، ص ٢٢٨ ٠

(٢٥١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٦ ب ٠

(٢٥٢) تاريخ المسلمين في صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة الصقلية ، ص ١٦٦ ، وقارن فيما سبق ، ص ١٠٦ ٠

(٢٥٣) ابن الأثير ، سنة ٢٤٧ هـ ، ج ٧ ص ٤١ ، وسنة ٢٥٧ هـ ، ج ٧ ص ٩٩ ، المكتبة ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٢٩ ب ، ٢٣٠ أ ، أبو الفدا ، المكتبة ، ص ٤٠٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٥ ٠

فترة قلقة :

خلفاء محمد بن خفاجة :

وتختلف الروايات عند كل من ابن الأثير ، وابن عذاري ، والنويري ، فيمن خلف محمد بن خفاجة في ولاية صقلية ، ونرى أن رواية النويري التي تتصف بالاتساق وانتظام الأحداث أولى بالتقديم على غيرها • فحسب النويري ، اجتمع قواد العسكر وولوا على أنفسهم محمد بن أبي الحسين ، وكتبوا الى أبي الغرانيق محمد بن أحمد في افريقية بذلك(٢٥٤) • ولكن الأمير الأغلبي عهد بولاية صقلية الى رباح بن يعقوب ، كما عهد بولاية الأرض الكبيرة ، أي قلورية وانكبردة وما وراءهما من ايطاليا ، الى أخي رباح ، وهو عبد الله بن يعقوب(٢٥٥) • وهذا يعني أن الممتلكات الأغلبية في ايطاليا كانت قد أصبحت من الاتساع والأهمية بحيث تكون ولاية يمكن أن يكون لهـــا كيانها المستقل عن الولاية الأم في صقلية •

ولم تطل ولاية رباح بن يعقوب الذي توفي في المحرم سنة ٢٥٨ هـ/ نوفمبر — ديسمبر ٨٧١ م ، وكذلك مات أخوه عبد الله في ايطاليا ، بعده في شهر صفر التالي من نفس السنة (يناير — فبراير) • وعندما اختار قواد العسكر أبا العباس بن عبد الله بن يعقوب لامارتهم ، لم يلبث الا أشهرا ثم مات ، فعهدوا بقيادتهم الى أخيه ، الى أن وصلهم عهد الأمير أبي الغرانيق بالولاية الى الحسين بن رباح • ولكنه لم يلبث أن عزله ، واستعمل عبد الله ابن محمد بن عبد الله التميمي ، قريبه ، الذي كان « أديبا شاعرا ، طالبـــا للحديث والفقه ، وذلك في شوال سنة ٢٥٩ هـ/اغسطس ٨٧٣ م(٢٥٦) •

---

(٢٥٤) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٠ أ •

(٢٥٥) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٠ أ ، وقارن رواية ابن عذاري ، ج (ص ١١٥ — التي تجعل ولاية صقلية لأحمد بن يعقوب والأرض الكبيرة لأخيه عبد الله بن يعقوب. أما ابن الأثير ، سنة ٢٥٧ هـ ، ج ٧ ص ٩٩ ، المكتبة ، ص ٢٢٨ ، فيقول ان أبا الغرانيق (محمد بن أحمد) استعمل على صقلية أحمد بن يعقوب ابن المضاء بن سلمة الذي لم تطل أيامه ، ومات في سنة ٢٥٨ هـ • وتذكر حوليـــات المسلمين في صقلية حسب تاريخ الروم (المكتبة ، ص ١٦٦) ان المسلمين لقوا هزيمة كبيرة في سالرنة (سالرنو) في ايطاليا في تلك الفترة ، وهي سنة ٦٣٨٠ التي تعادل سنة ٨٦٣ م تقريبا •

(٢٥٦) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٠ أ (حيث آخر الاســم « ابن ابراهيم بن الأغلب » بدلا من « ابن الأغلب بن سالم » كما يوضح ذلك ابن الأبار في الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨٥ ، المكتبة ، ص ٣٢٧ ، الذي يعرف بأنه كان واليا على طرابلس ، ويذكر بعض شعره متأسية عزله عن طرابلس) •

وهذا يعنى توالى أربعة أمراء على صقلية فى أقل من سنتين(٢٥٧) .

وخلال فترة السنتين تلك ، تشير الحوليات الى حملة قام بها المجاهدون فى صقلية ضد سرقوسة ، سنة ٢٥٩ هـ/٧٢ - ٨٧٣ م فى عهد الحسين ابن رباح ، انتهت بالصلح على أن يطلق أهل سرقوسة ٣٦٠ (ثلاثمائة وستين) من أسرى المسلمين الذين كانوا لديهم(٢٥٨) .

ومنذ سنة ٢٥٩ هـ/٨٧٢ م والى سنة ٢٦٤ هـ/٨٧٧ م ، حينما فتحت مدينة سرقوسة فى عهد الأمير الأغلبى ابراهيم بن أحمد الذى خلف أخاه أبا الغرانيق محمد بن أحمد فى جمادى الأولى سنة ٢٦١ هـ/١٧ فبراير ٨٧٥ م ، لا نجد ذكرا لأحداث ذات بال فى حوليات صقلية التى رأيناها حافلة بالصوائف والشواتى فى البر والبحر على السواء ، مما يمكن أن يفسر بأن الجزيرة كانت تمر بفترة مضطربة بعد مقتل خفاجة ثم ابنه محمد(٢٥٩) . والحقيقة انه لا يفسر فترة الاضطراب التى نراها حتمية وقتئذ الا قائمة النويرى التى تحتوى على سبعة ولاة تداولوا حكم صقلية وايطاليا الجنوبية فيما بين سنة ٢٥٧ هـ/٨٧٠ م وسنة ٢٥٩ هـ/٨٧٢ م(٢٦٠) .

بارى ولاية عربية مستقلة : خروج المفرج بن سالم فى ايطاليا على أبى الغرانيق :

والحقيقة أن العرب كانوا قد بدأوا يتطلعون نحو جنوب ايطاليا اعتبارا من سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧ م عندما وسعوا نشاطهم الحربى الى مسينا وسيروا أسطولهم الى جزائر الايوليان المتاخمة لكلابريا(٢٦٠ م) . ولم تأت سنة ٢٢٥ هـ/٨٤٠ م حتى كان الأسطول الأغلبى يوطد أقدام العرب فى كلابريا

---

(٢٥٧) ونلاحظ أن النويرى (نفس المصدر) يذكر ان ذلك حدث قبل أن يلى أبو مالك أحمد بن عمر بن عبد الله بن الأغلب المعروف بحبشى ، الذى يلى متوليا عليها ٢٦ (ستا وعشرين) سنة . وهو الأمر الذى لا يتفق مع واقع الأحداث . اذ نجد الوالى سنة ٢٦١ هـ/٧٤ - ٨٧٥ م هو جعفر بن محمد فى كل من ابن الأثير وابن عذارى .

(٢٥٨) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٦ . الذى يجعل الوالى الحسين بن أحمد بن يعقوب حسب روايته التى وضحنا عليها رواية النويرى . وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٥٥ هـ ، ج ٧ ص ١٠٥ ، المكتبة ج ص ٢٣٨ - حيث لا يذكر اسم الوالى .

(٢٥٩) انظر أحمد المدنى ، صقلية الاسلامية ، ص ٨٢ .

(٢٦٠) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ٢٣٠ أ .

(٢٦٠ م) أنظر فيما سبق ، ص ١٨٩ .

(قلورية) نفسها ، مما اعتبر في افريقية وقتئذ فتحا عظيما(٢٦١) ، ولا بأس في اعتبار سنة ٢٢٥ هـ/٨٤٠ م علامة مميزة في تاريخ الفتوح العربية في البحر المتوسط ، تماما كما هو الحال بالنسبة لسنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ حيث كان فتح كل من كريت وصقلية · ففي السنة التالية (٢٢٦ هـ/٨٤١ م) بدأت أول محاولة عربية لغزو واحدة من عواصم جنوب ايطاليا ، هي . مدينة باري الواقعة شمال برنديزي على ساحل البحر الادرياتي ، وان لم تكلل تلك المحاولة بالنجاح · وبعد ذلك بسنتين (في ٢٢٨ هـ/٨٤٣ م) كان العرب يضغطون على امارة نابولي ، على المتوسط ، التي لم تعقد الصلح مع العرب فقط بل حالفتهم نكاية في امارة بنيفنتو اللومباردية - جارتها الداخلية - وقدمت لهم العون في غزو اقليم مسينا ، بل وربما سهلت لهم طريق سياحتهم نحو روما والفاتيكان(٢٦٢) ·

وفي سنة ٢٣٢ هـ/٨٤٧ م كان العرب يستولون على مدينة طارنت اللومباردية ويقيمون فيهـــا(٢٦٣) ، ثم يتبعون ذلك بالاستيلاء على باري مما كان يقتضي فتح برنديزي على نفس الطريق · وهكذا ، فقبل أن ينتصف القرن الثالث الهجري (منتصف القرن ٩ م) كانت كـــل أراضي جنـــوب ايطاليا - من سيبونتو (Siponto) شرقا الى مستوى مصب نهر التيبر غربا - بين أيدي جماعات مختلفة من العرب والمسلمين(٢٦٤) ·

والظاهر أن الموقع الجغرافي المتطرف للأقاليم الادرياتية الايطالية التي استقر فيها العرب ، بالنسبة الى صقلية وافريقية ، كان يسمح للمسئولين المباشرين عن تلك الأقاليم بحرية العمل ، سواء على المستوى الحربي أو على المستوى السياسي أو الاداري · هكذا تنص رواية ابن الأثير على أن القوات الأغلبية لم تنجح في فتح مدينة باري سنة ٢٢٦ هـ/٨٤١ م وان الذي فتحها بعد ذلك هو « خلفون البربري » الذي تحقق له ذلك على عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ/٨٤٧ - ٨٦١ م) · وبعـــد ذلك تذكر الرواية ، التي جمعت بتلخيص شديد أحداث الفتوح في ايطاليا بهذه المناسبة ، ان من يسمى المفرج بن سالم الذي لا تعرفنا بهويته ، استطاع أن يفتح ٢٤ (أربعة

---

(٢٦١) انظر فيما سبق ، ص ١٦٢ ·

(٢٦٢) انظر فيما سبق ، ص ١٩٢-١٩٣ ·

(٢٦٣) انظر فيما سبق ، ص ١٩٤ ·

(٢٦٤) انظر عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية بالانجليزية ، ص ١٩ ·

وعشرين ، حصنا استولى عليها (٢٦٥) في منطقة ابوليا (Apulia) (٢٦٦)
وكان المفرج بن ســالم يعمل لحسابه الخاص مستقلا عن أمير القيروان .
لا بأس أن يكون ذلك صحيحا ، فالغزاة من الأندلسيين والمغاربة الذين
كانوا يعملون لحسابهم الخاص في أوروبا التي يمكن أن يشملها اصطلاح
« الأرض الكبيرة » ، كانوا يمثلون طلائع القوات النظامية ، في تلك الفترة
التي انتابت جماعة المسلمين في الجناح الغربي من المتوسط موجة من الحماس
من أجل الجهاد الذي لا ينتقص من قدره ما صاحبه من الرغبة في المغانم
الثمينة والسبي الجميل .

وهذا ما يفهم مما تذكره رواية ابن الأثير بعد ذلك ، من أن المفرج بن
سالم كتب الى والي مصر يعلمه خبره ، « وأنه لا يرى لنفسه ، ومن معه من
المسلمين صلاة الا بأن يعتمد له الامام على ناحيته ، ويوليه اياها ، ليخرج
من حد المتغلبين » . وهذا النص يدل على أن المفرج كان يعمل في ايطاليا
لحسابه الخاص ، بمعنى انه كان خارجا فعلا على سلطان الأمير الأغلبي ، وكان
يطمح في أن يكون ولاءه مباشرة الى خلافة بغداد ، عبر والي مصر أحمــد
ابن طولون . وما تضيفه الرواية من أن المفرج بن سالم ، الذي بنى مسجدا
جامعا في باري ، انتهى بأن شغب عليه أصحابه وقتلوه ، وذلك قبل وفاة
الأمير الأغلبي محمد بن أحمد أبي الغرانيق ، وولاية ابراهيم بن أحمــد
(٢٦١ هـ/٨٧٥ م) ، يدل على أن المفرج قام بخروجه على الأغالبة في نفس
تلك الفترة التي نعالجها(٢٦٧) . هــذا ولا بأس أن يكون سقوط باري بين

---

(٢٦٥) ابن الأثير ، سنة ٢٣٦ (ط . بيروت ١٩٦٥ ، ج ٦ ص ٥٢٠ - ٥٢١) ، المكتبة ، ص ٢٣٩ وإذا كانت النصوص العربية لم تقدم لنا التفصيلات الخاصة بفتح تلك الحصون فان الحوليات الفرنجية يمكن أن تساعد في سد هذا النقص ، وهو ما اتجهت اليه الدراسات الحديثة . وعن فتوح العرب في منطقة الادرياتي ، كمــا حــدث في استريا (Istria) وجزيرة شرسو (Cherso) وسيبونتو (Siponto) وابوليا (Apulia) وراجوسا (Ragusa) الى جانب استعانة الامارات الايطالية واللومباردية بالعرب في صراعاتها الداخلية ، كما حدث في بنيفنتو (Benevento) وباري وكذلك علاقات العرب بحلفائهم اهل نابولي وغيرهم من اهل امالفي (Amalfi) وجايتا (Gaeta) وسرينتو (Sorrento) وموقف البــابوية منهم ، انظر عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ١٨ - ٢١ .

(٢٦٦) انظر عزيز احمد ، تاريخ صقلية الإسلامية ، ص ١٩ (حيث الاشارة الى ان عدد الحصون هو ٤٨ وليس ٢٤) .

(٢٦٧) ابن الأثير ، سنة ٢٣٦ (ط . بيروت ١٩٦٥ ، ج ٦ ص ٥٢٠ - ٥٢١) ، المكتبة ، ص ٢٣٩ والحقيقة أن سعي العرب في ايطاليا للاعتراف بخلافة بغداد كان يعني - الى جانب التخلص من سيادة الأغالبة - محاولة الاستعانة بالشرق الاسلامي لمواجهة ما كان يتهددهم في

أيدي الفرنج سنة ٨٧١ م (٢٥٧ هـ) هو السبب في تلك الثورة التي راح ضحيتها المفرج بن سالم مما سمح للأمير أبي الغرانيق بتعيين عبد الله ابن يعقوب واليا على « الارض الكبيرة » (سنة ٢٥٨ هـ) الى جانب أخيه رباح والي صقلية ، مما سبق ذكره .

فتح سرقوسة : حصارها برا وبحرا :

والمهم أن الوالي على صقلية في سنة ٢٦٤ هـ/٧٧ ــ ٨٧٨ م كان جعفر ابن محمد ، الذي تابع سياسة الالحاح على سرقوسة بالصوائف والشواتي التي أصبحت تقليدية ، فغزا اقليمها في تلك السنة وأفسد زروعهــا ، ثم وسع عملياته العسكرية بحيث شملت أرض قطانية وطبرمين ورمطة ، في شمال الساحل الشرقي للجزيرة . والظاهر أنه أمام سهولة تلك العمليات،

= ذلك الوقت من اخطار . فمنذ منتصف القرن ٩ م كان قد تم احياء البحرية البيزنطية بفضل مجهودات الأسرة المقدونية ، ونجح البيزنطيون في استعادة بعض أملاكهم في جنوب ايطاليا ، كما نجحت امارة نابولي بالتعاون مع عناصر من أمالفي وجايتا وسورينتو من طرد العرب من بعض مواقعهم جنوب خليج سالرنو الى جانب ترقعهم في منطقة الادرياتي رغم تمسكهم لباري وبرنديزي ، ومع ذلك فقد كانوا يستطيعون الرد على ما كان يهددهم من تلك الاخطار . ففي سنة ٨٤٦ م كانوا يستطيعون الاقتراب من روما ، ويقتحمون تحصينات البابا جريجوري الرابع، ويستولون على نفائس كتدرائية القديس بطرس ، وهزيمة لويس الثــاني قبل أن يصبح امبراطورا لفرنسا . وبفضل محافظة العرب على مواقعهم في الجنوب الايطالي بفضل ارتكازهم على محور طارنت ــ باري ، تمكن المفرج بن سالم من احتــلال ٢٤ حصنا في منطقة ابوليــا (Apulia) . أما عما قام به الامبراطور الفرنسي لويس الثاني ــ بالتعاون مع باسيل الأول البيزنطي ــ من أعمال حربية غير موفقة في أول الأمر (سنة ٨٦٦ م) فانها منعت ، على كل حال ، سقوط المزيد من الأراضي الايطالية بين أيدي العرب . أما عن نجاح لويس في فتح باري على العرب ، سنة ٨٧١ م (٢٥٧ هـ) فاغلب الظن انه كان السبب في الثورة ضد المفرج وعودة جنوب ايطاليا الى الحكم الأغلبي عندما وليها عبد الله بن يعقوب الذي حاصر سالرنو ولكنه توفي أثناء الحصار . وبعد وفاة لويس الثاني صعد العرب الى أعالي الادرياتيك، كما قامت سراياهم من طارنت بالمغــارة على امارة بنيفنتو التي عقدت الصلح معهــم خشية البيزنطيين الذين نجحوا في استلام باري آخر الأمر . وهكذا فمنذ سنة ٨٧٥ كان العرب في طارنت يتخذون موقف الدفاع بينما كانت لهم اليد العليا في خليج نابولي مما حمل أسقف نابولي يطلب معونتهم في سنة ٨٨٠ ، وهو الأمر الذي جعل البابا يوحنا الثامن يصدر ضده الحرمان . انظر عزيز احمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ١٨ ــ ٢١ . وقارن فيما يتعلق بمسألة باري ، محمد الطالبي ، الاغالبة ، في كتاب تاريخ تونس في العصر الوسيط ، بالفرنسية ، ص ١٥٣ .

وجد أن الفرصة أصبحت مواتية ليقتطف ثمرة جهود خمسين سنة وأكثر ، بالاستيلاء على سرقوسة ، التى كانت تمثل حينئذ عاصمة الروم فى الجزيرة . فلقد نزل جعفر برجاله حول المدينة وحصرها من جهة البر ، بينما سير أسطول بلرم ليحصرها من جهة البحر ، وأخذ يضيق الخناق عليها حتى نجح فى الاستيلاء على بعض أرباضها .

ولما كان الحصار قد طال لمدة أشهر بلغت تسعا عند سقوط المدينة ، فقد كانت هناك فسحة من الوقت لكى يأتى أسطول من القسطنطينية (بعثه الامبراطور باسيليوس بقيادة الأميرال ادرياق) ، فى محاولة يائســة لفك الحصار عن المدينة الرومية الهامة . ولكنه عندما وصل الأسطول البيزنطى لم يستطع الوقوف أمام أسطول صقلية العربى الذى حطمه . وبذلك تم تطويق المدينة تطويقا تاما(٢٦٨) .

ولم تستطع سرقوسة مواصلة الدفاع عندما انتهى الشهر التاسع من الحصر ، فدخلها المسلمون عنوة ، وقتل من أهلها أكثر من أربعة آلاف رجل ، وأصيب فيها من المغانم ما لم يصب بمدينة أخرى ، حتى أنه لم ينج من رجالها الا الشاذ الفذ ، كما تقول رواية ابن الأثير ، وذلك فى ١٤ رمضان سنة ٢٦٤ هـ/٢١ مايه ٨٧٨ م(٢٦٩) .

هدم المدينة :

وبعد أن أقام العرب مدة شهرين فى سرقوسة هدموها فى منتصف ذى القعدة (٢٠ يوليه) . والظاهر أن العرب هدموها عندما وصل أسطول بيزنطى فى محاولة جديدة لانقاذ المدينة أو لاستعادتها ـ لظفروا به ، وأخذوا منه أربع قطع ، فقتلوا من فيها ـ حتى يقطعوا الأمل على الروم فى العودة اليها . وعاد العرب الى بلرم فى آخر ذى القعدة (٣ اغسطس)(٢٧٠) .

---

(٢٦٨) ابن الأثير ، سنة ٢٦٤ هـ ، ج ٧ ص ١٢٧ ، المكتبة ، ص ٢٤٣ .

(٢٦٩) ابن الأثير ، سنة ٢٦٤ هـ ، ج ٧ ص ١٢٧ ، المكتبة ، ص ٢٤٣ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١١٧ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧ ، وانظر تاريخ المسلمين فى صقلية تحسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٦ (اخذت فى ٢١ مايه ٦٣٨٦) .

(٢٧٠) ابن الأثير ، سنة ٢٦٤ ، ج ٧ ص ١٢٧ ، المكتبة ، ص ٢٤٣ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧ . ومن الجانب المسيحى فان قصة سقوط سرقوسة البيزنطية وعلم حصونها وسلب أحيائها يرويها الراهب ثيودوسيوس الذى كان بين الأسرى الذين اقتيدوا الى بلرم . انظر محمد طالبى ، الأغالبة ، فى كتاب تاريخ تونس فى العصر الوسيط ، بالفرنسية ، ص ١٤٥ ، عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ١٥ .

مقتل جعفر بن محمد فى مؤامرة أغلبية :

ولم يكتب لجعفر بن محمد أن يستمتع طويلا بالنصر العظيم الذى حققه فى سرقوسة ، وذلك أنه راح ضحية غدر غلمانه الصقالبة الذين استجابوا لإغراء كل من الأغلب بن محمد الأغلب الملقب بـ « خرج الرعونة » ، وأبى عقال الأغلب (بن محمد) بن أحمد ، ولى العهد السابق ، اللذين كانا محبوسين عنده بأمر من الأمير ابراهيم بن احمد . ونجح « خرج الرعونة » فى الاستيلاء على بلرم وضبطها بمعاونة أبى عقال ، ولكن أهـــل بلرم لم يطمئنوا اليهما فوثبوا بهما وبمن اتصل بهما ، فأخرجوهم من صقلية الى افريقيـــة . وآلت ولاية صقلية الى الحسن بن رباح(٢٧١) .

الحسن بن رباح :

محاولات ضد طبرمين ، وصراع غير موفق ضد الأسطول البيزنطى :

وبسقوط سرقوسة لم يبق من المدن الهامة فى صقلية بين أيدى الروم سوى مدينة طبرمين التى بدأ العرب يتطلعون الى الاستيلاء عليها ، وان كان ذلك لن يتم الا بعد حوالى ٢٥ سنة . ففى سنة ٢٦٥ هـ/٧٨ ــ ٨٧٩ م سار الحسن بن رباح على رأس الصائفة لغزو طبرمين ، حيث التقى بالروم . وكانت الحرب سجـــالا بين الفريقين ، فبعـــد أن دارت الدائرة عـــلى العرب عادوا واسترجعوا شـــجاعتهم المفقودة ، فكانت لهم الكرة عـــلى الروم فهزموهم وقتلوهم ، وقتلوا قائدهم البطريق(٢٧٢) .

وتقول رواية ابن عذارى ، فى سنة ٢٦٦ هـ/٧٩ ــ ٨٨٠ م التـــالية ، ان صاحب صقلية (الحسن بن رباح) أغزى الـــروم ، فالتقى فى البحر بمراكبهم ، مما يعنى أن الغزوة كانت فى ايطاليا الجنوبية . والظاهر أن عدد المراكب الصقلية العربية كانت قليلة اذ لم تستطع الوقوف أمام الأسطول البيزنطى المكون من نحو ١٤٠ (مائة واربعين) مركبا . فرغم أن المراكب العربية قاتلت قتالا شديدا الا أن الأمر انتهى بأن سلم البحارة العرب عددا من مراكبهم الى الروم الذين أخذوها . وفى الوقت الذى عاد المنهزمون الى بلرم ، فانتقموا بشن الغارات على من يجاورهم من الروم لعدة شهور ، وهم

---

(٢٧١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧ .

(٢٧٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧ .

يغنمون ويفسدون أرضهم(٢٧٣) . كان الروم ينزلون جيشا بريا في كلابريا يقدر بحوالى ٣٥ ألف رجل لكي يحاصروا طارنت برا بينما كان الأسطول يحاصرها بحرا حتى اضطروها الى الاستسلام بعد مقاومة عنيدة في أواخر سنة ٨٨٠ م . وبذلك لم يبق للأغالبة في ايطاليا نفسها الا ثلاثة مواقع حصينة أهمها سبرينة(٢٧٤) .

الحسن بن العباس : قيادة غير موفقة :

وهكذا ظهر ضعف الحسن بن رباح ، في ولاية صقلية وقيادة جيوشها وأساطيلها ، فعهد ابراهيم بن أحمد بالجزيرة في سنة ٢٦٧ هـ/ ٨٠ - ٨٨١ م التالية ، الى الحسن بن العباس ، الذى بث السرايا ضد الروم في نواحى صقلية ، كما خرج بنفسه الى نواحي قطانية وطبرمين ، فأفسد الزرع وقطع الأشجار ، وكذلك فعل بناحية « بقارة » قبل أن يعود الى بلرم محملا بالمغانم .

هذا وتشير الرواية الى أن الروم نجحوا بدورهم في تسيير سراياهم ضد المسلمين ، في أيام الحسن بن العباس ، وأنهم نجحوا في اصابة كثير منهم(٢٧٥) . والظاهر أن الروم في الجزيرة كانوا قد انتهزوا فترة الاضطرابات التي أشرنا اليها بعد مقتل خفاجة وابنه محمد فاستأسدوا . وذلك انهم في سنة ٢٦٨ هـ/٨١ - ٨٨٢ م التالية ، نجحوا في مواجهة سرية كان قد سيرها الحسن بن العباس بقيادة رجل يعرف بأبي ثور ، وربما كان صاحب القلعة المعروفة بهذا الاسم . وانزلوا بها هزيمة منكرة ، اذ تقول الرواية : ان المسلمين أصيبوا كلهم غير سبعة نفر فقط(٢٧٦) .

---

(٢٧٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧ ، ابن الأثير ، سنة ٢٦٦ هـ ، ج ٧ ص ١٣٢ ، المكتبة ، ص ٢٤٣ . وانظر محمد طالبي ، الأغالبة ، في تاريخ تونس في العصر الوسيط ، ص ١٥٣ (حيث كانت قيادة الأسطول البيزنطي الى أمير البحر نزار (Nasar) السورى الأصل وحيث تحديد موضع المركة البحرية في عرض البحر أمام ميلازو (Milazzo) .

(٢٧٤) انظر محمد طالبي ، الأغالبة ، في كتاب تاريخ تونس في العصر الوسيط ، ص ١٥٣ (والمواقع الثلاثة التي بقيت للعرب في ايطاليا بعد سقوط طارنت ، هي : منتيه (Amantea) ، وسبرينه (Santa Severina) وتروبيا (Tropea)) .

(٢٧٥) ابن الأثير ، سنة ٢٦٧ هـ ، ج ٧ ص ١٤٤ ، المكتبة ، ص ٢٤٤ . أبو الفداء ، المكتبة ، ص ٤٠٦ ، اما ابن عذارى فيكتفى بالاشارة الى ولاية الحسن فى سنة ٢٦٧ هـ (ج ١ ص ١١٧) .

(٢٧٦) ابن الأثير ، سنة ٢٦٨ هـ ، ج ٧ ص ١٤٨ ، المكتبة ، المكتبة ، ٢٤٤ .

محمد بن الفضل : عود الى عهود القوة :

غزو أقاليم قطانيا وطبرمين :

وهكذا كان من الطبيعي أن يعزل الحسن بن العباس ، بعد هذا الفشل في نفس السنة (٢٦٨ هـ/٨٨١ م) ، وأن يعهد الأمير ابراهيم بن أحمد بولاية صقلية الى محمد بن الفضل(٢٧٧) ، الذى نجح فى تقويم الموقف في مواجهة الروم ، وجدد ذكريات أعمال العباس بن الفضل ، وخفاجة بن سفيان ، فقد بث محمد بن الفضل السرايا في كل النواحي التي يسكنها الروم ، وعاود الالحاح بالحرب والافساد في منطقة الساحل الشرقي الشمالي حيث قطانيا وطبرمين .

فلقد خرج بعد ولايته مباشرة في جيوش عظيمة ، واتجه نحو قطانيا حيث أهلك زروعها . ووجه محمد بن الفضل مراكبه الى الشلنديات التى كانت في ميناء المدينة ، ونجح فى تدمير كثير منها وقتل بحارتها . ومن قطانيا إتجه محمد بن الفضل شمالا الى اقليم طبرمين حيث أفسد زرعها ، وعندما خرجت قوات الروم ألحق بهـا هزيمة منكرة حتى قيل ان المعركة انجلت عن مقتـل ثلاثة آلاف رجـل من الروم ، وأنه أرسـل رؤسهم الى بلرم ، اعلانا عما حققه من الظفر .

اقتحام القلعة الجديدة : « مدينة الملك » :

وهاجم المسلمون ، فى منطقة طبرمين ، القلعة الجديدة التى كان قد بناها الروم ، وسموها « مدينة الملك » ، ونجحوا في اقتحامها عنوة ، فقتلوا المقاتلة ، وعادوا الى بلرم محملين بمن سبوه ممن كان فيهـا من النساء والذرارى(٢٧٨) . واستمر الحاج محمد بن الفضل فى السنة التالية (٢٦٩هـ /٨٨٣ م) على نفس المنطقة فخرج فى عساكره الى ناحية روطة ، وبلغ فى مسيرته الى قطانية حيث خرب نواحيها ، وقتل وسبى وغنم ، وعاد الى بلرم فى شهر ذى الحجة (يونيه ٨٨٣ م)(٢٧٩) .

---

(٢٧٧) ابن الأثير ، سنة ٢٦٨ هـ ، ج ٧ ص ١٤٨ ، المكتبة ، ص ٢٤٤ ، ابن عذارى ج ١ ص ١١٩ .

(٢٧٨) ابن الأثير ، سنة ٢٦٨ هـ ، ج ٧ ص ١٤٨ ، المكتبة ، ص ٢٤٤ ، تاريخ المسلمين في صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٧ ، (حيث يذكر ان اسم القائد الرومي المهزوم فى طبرمين هو برصامس : (Barsamius)) .

(٢٧٩) ابن الأثير ، سنة ٢٦٩ ، ج ٧ ص ١٥٩ ، المكتبة ، ص ٢٤٤ .

الحسين بن أحمد واليا :

ولا نعرف كيف انتهت ولاية محمد بن الفضل ، وذلك أن الحوليات الصقلية لا تشير الى أية أحداث في سنة ٢٧٠ هـ/٨٣ - ٨٨٤ م ، ثم تفاجئنا بعد سرد ما قامت به صائفة سنة ٢٧١ هـ/٨٤ - ٨٨٥ م في منطقة رمطة ، من : التخريب ، وما عادت به من الغنيمة والسبي والأسر الكثير ، بوفاة أمير صقلية ، وهو الحسين بن أحمد(٢٨٠) ، مما يعني وفاة محمد بن الفضل أو عزله في سنة ٢٧٠ هـ/٨٣ - ٨٨٤ م ، وتولية الحسين بن أحمد الذي ينبغي اذن أن تنسب له غزوة سنة ٢٧١ هـ/٨٤ - ٨٨٥ م .

سوادة بن محمد بن خفاجة :

قيادة حازمة تبعا لتقاليد الأسرة : غارات على قطانيا وطبرمين :

وهكذا صارت امارة صقلية في سنة ٨٤/٢٧١ - ٨٨٥ م الى سوادة ابن محمد بن خفاجة (التميمي) ، الذي أعاد سيرة والده وجده العظيمين في الجزيرة . فقد خرج في نفس السنة في عسكر كبير الى مدينة قطانية حيث بث الخراب والذعر في أرجائها ، واتبع ذلك بالمسير الى طبرمين وألح على أهلها بالقتال وافساد الزروع ، حيث أرغم قائد الحامية الرومية ، وحاكم المدينة المحلي على طلب الهدنة . وانتهت المفاوضات بين سوادة ورسول الروم الى تقرير الهدنة لمدة ثلاثة أشهر في نظير فداء ثلاثمائة أسير من المسلمين ، دفع بهم الروم الى سوادة الذي رجع الى بلرم(٢٨١) .

ومع اقبال ربيع سنة ٢٧٢ هـ/٨٨٦ م ، كانت هدنة الثلاثة أشهر قد انصرمت ، فاعاد سوادة تسيير سراياه الى مواطن الروم في الجزيرة ، تفسد وتعود بالغنائم والسبي .

---

(٢٨٠) ابن الأثير ، سنة ٢٧١ هـ ج ٧ ص ١٦٧ ، المكتبة ، ص ٢٤٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٩ .

(٢٨١) ابن الأثير ، سنة ٢٧١ هـ ، ج ٧ ص ١٦٧ ، المكتبة ، ص ٢٤٥ . ويذكر تاريخ المسلمين في صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٧ ، ان الذي أتى بالافتداء هو البوليطي وانه أخرج سبي سرقوسة . وعن ولاية سوادة بعد وفاة الحسن بن أحمد انظر ابن عذارى ج ١ ص ١١٩ .

عناد الأسطول البيزنطي والعمل على انهاء الوجود العربي في ايطاليا :

والغريب في أمر الصراع بين العرب والروم في صقلية ان البيزنطيين لم ييأسوا ، ولم يهنوا كثيرا من طول القتال ، ومما كان ينزل بهم من الهزائم . ففي نفس السنة وصل أسطول من القسطنطينية ، مشحون بالعساكر بقيادة قائد اسمه انجفور (نقفور أو نيقوفوروس) الى بلاد العرب في ايطاليا ، وضرب الحصار على مدينة سبرينة (Santa Severina) ، وضيق على من بها من المسلمين حتى أنهم سلموها اياه على الأمان ، وعادوا الى أرض صقلية[٢٨٢] . واتبع نقفور ذلك بحصار مدينة منتتينة (Amantea) حتى أرغم أهلها على تسليمها ، هي الأخرى ، والعودة الى بلرم[٢٨٣] . وبذلك فقد العرب معظم فتوحاتهم في ايطاليا ، فكان ذلك نذيرا بسوء المصير لصقلية العربية نفسها رغم محاولات ابراهيم الثاني بن أحمد[٢٨٤] .

ومما يؤسف له أن الحوليات الصقلية في كتاب ابن الأثير ، وهي التي عليها المعول الأول في دراسة تاريخ فتوح العرب في صقلية ، تنقطع بعد سرد أحداث سنة ٢٧٢ هـ/٨٥ - ٨٨٦ م تلك ، فلا تظهر من جديد الا بعد ١٥ (خمسة عشر) عاما ، مع أحداث سنة ٢٨٧ هـ/٩٠٠ م . ولحسن الحظ فان حوليات ابن عذاري تعاون الى حد لا بأس به في سد تلك الثغرة ، بتكملة ما يمكن اكماله من هذا الفراغ .

ثورة اهل بلرم على سوادة :

فابن عذاري يعرفنا في أحداث سنة ٢٧٣ هـ/٨٦ - ٨٨٧ م ، بنهاية امارة سوادة بن محمد بن خفاجة على صقلية ، اذ وثب عليه أهل بلرم ،

---

(٢٨٢) ابن الأثير ، سنة ٢٧٢ هـ ، ج ٧ ص ١٦٩ ، المكتبة ، ص ٢٤٥ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٠ . اما عن القائد البيزنطي فهو نقفور فوكاس القديم الذي سيلي حفيده الذي حمل نفس الاسم عرش بيزنطة فيما بعد . انظر محمد طالبي ، الأغالبة ، في تاريخ تونس في العصر الوسيط ، ص ١٥٤ .

(٢٨٣) ابن الأثير ، سنة ٢٧٢ هـ ، ج ٧ ، ص ١٦٩ ، المكتبة ، ص ٢٤٥ .

(٢٨٤) والحقيقة ان البيزنطيين بمساعدة حلفائهم من الصرب والكروات والمدرتيين كانوا قبل ذلك قد استعادوا طارنت (Tarente) قبل ذلك بحوالي ست سنوات (٨٨٠م) ، مما كان يعني العجز عن مقاومتهم لكثير من الأسباب الداخلية والخارجية مما كانت تعاني منه دولة الأغالبة (انظر محمد طالبي ، عن الأغالبة ، في تاريخ تونس - العصر الوسيط ، بالفرنسية ، ص ١٥٣ - ١٥٤) .

ومعظمهم من البربر وعلى أخيه وبعض رجاله - ربما بسبب ما أنزله الروم في العام السابق بأهل كل من سبرينة ومنتتينه في ايطاليا - ورجهوهم مقيدين الى افريقية . « واجتمع وجوه أهل البلد على أن يرأسهم أبو العباس بن علي ، فولوه على أنفسهم »(٢٨٥) .

والظاهر أن الأمير ابراهيم بن احمد لم ترقه أحداث صقلية ، ففكر في رجل قوي من بطانته ، يمكنه أن يضبط الامور في الجزيرة ، ويقف بقوة أمام تهديدات الروم وانتفاضات أهل البلاد . ووقع اختياره على قريبه أبي مالك أحمد بن عمر بن عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب المعروف بحبشي(٢٨٦)، الذي عرف بأنه كان من أبطال الرجال وشجعان القواد .

ولاية حبشي : أحمد بن عمر بن عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب :

وولاية حبشي (أحمد بن عمر) موضع خلاف بين الكتاب . فبينما يضعها ابن عذاري هنا في سنة ٢٧٣ هـ/٨٨٦ م ، نجد أن النويري يضعها سنة ٢٦١ هـ/٨٧٤ م على أن تستمر ٢٦ سنة أي الى سنة ٢٨٧ هـ/٩٠٠ م ، في الوقت الذي نجد فيه توالي غيره من الولاة في حكم صقلية ، مما يجعلنا نظن أنه ربما كانت ولاية حبشي لصقلية ، وهو القائد الكبير ، شرفية ، وأنه ربما كان قد بقي بافريقية ، وهو ينيب عنه في امارة الجزيرة ، وقيادة عسكرها . ففي العمليات العسكرية التي دارت في الجزيرة في سنة ٢٧٥ هـ/ ٨٨٩ م لا تذكر رواية ابن عذاري اسم حبشي ، بل تقول ان أهل صقلية حققوا انتصارات عظيمة : فكانت لهم على الروم صولة في البر والبحر جميعا ، في ساحل ريو ، قتل فيهما من الروم أكثر من سبعة آلاف رجل، وغرق لهم نحو من خمسة آلاف ، وأخذت مراكب الروم في ميلاص ، وهرب أهل ريو .

وكان من نتيجة هذا الظفر العظيم أن أخلى الروم كثيرا من المدن والحصون التي تجاور المسلمين . وظهرت سطوة أهل صقلية أيضا في ايطاليا (الأرض الكبيرة) التي تتابعت عليها السرايا تغنم وتسبي ، وتعود

---

(٢٨٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٠ ، وانظر تاريخ المسلمين في صقلية حسب تاريخ الروم ، المكتبة ، ص ١٦٧ - حيث يرد الحادث بعنوان : « الحرب الأولى بين الجند والبربر » .

(٢٨٦) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٠ ، وانظر النويري ، ج ٢٢ ص ٢٣٠ أ - الذي يجعل ولاية حبشي لصقلية لمدة ٢٦ سنة ابتداء من ٢٦١ هـ/٨٧٥ م

بأعمالها الى بلرم(٢٨٧) .

والظاهر أن الانتصارات السهلة التى حققها الأغالبة فى جنوب ايطاليا ، وخاصة فى وقعة ميلاس (٢٧٥ هـ/٨٨٨ م) ، جعلت الأمير ابراهيم ابن أحمد يستهين ، هو وبطانته ، بتلك الحرب حتى أنه عهد الى قريبه مجبر ابن ابراهيم بن سفيان ، الذى كان ينادمه لحذقة الغناء ، بقيادة عسكر مسينى وكلابريا (قلورية) . واثناء عبور القائد المغنى فى أحد الشوانى الى الشاطىء الايطالى أسره الروم ، وحملوه الى القسطنطينية حيث مات فى السجن هناك(٢٨٨) .

سوادة بن محمد :

وفى نفس تلك السنة (٢٧٦ هـ/٨٨٩ م) كانت الصائفة الصقلية الى طبرمين . وتذكر الرواية أن الغزوة كانت بقيادة سوادة بن محمد الذى ضرب الحصار على المدينة(٢٨٩) ، وهو الأمر الذى اذا صح فانه يعنى أن الأمير ابراهيم بن أحمد كان قد رد سوادة الى صقلية على أن يعمل تحت امرة حبشى او أن يكون ممثلا له هناك .

محمد بن الفضل ، وصلح لين مع الروم :

وبعد ذلك بسنة ، أى فى سنة ٢٧٨ هـ/٩٠١ م ، نجد أن محمد بن الفضل يعود واليا لصقلية من جديد(٢٩٠) ، ولكن يظهر من النصوص بعد ذلك أنه لم يصل الى صقلية الا فى السنة التالية (٢٧٩ هـ/٩٠٢ م) .

---

(٢٨٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٠ ، تاريخ المسلمين فى صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٧ (سنة ٦٣٩٧) .

(٢٨٨) انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٨٥ ، المكتبة ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ . ومجبر هذا هو الذى قال فى أسره قصيدة طويلة بعث بها من محبسه عند الروم ، وراحت فى الرقيقة حتى رواها — لرقتها — معظم الناس . وفيها يقول :

الا ليت شعرى ما الذى فعل الدهر ... باخواننا يا قيروان ويا قصر
ولى آمرها يقول :
لمن الذى نجى من الجب يوسفا ... وفرج عن ايوب اذ مسه الضر
وخلص ابراهيم من نار قومه ... واعل عصا موسى فذل له السحر
يصبر أهل الاسر فى طول اسرهم ... على معضلات الاسر . لا سلم الاسر

(٢٨٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢١ .

(٢٩٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٢ .

حيث دخل حضرة بلرم في اليوم الثاني من شهر صفر/١٧ يناير ٩٠٢م(٢٩١) .

والظاهر أنه بسبب اضطراب الأحوال في افريقية على ابراهيم بن احمد خفت وطأة العرب على الروم في الجزيرة ، حتى اضطر الأمير الأغلبي الى الموافقة على أن يعقد أهل صقلية ، في سنة ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م ، صلحا مع الروم لم تكن شروطه ، كما عهدنا ، في صالح المسلمين . فلقد تم الصلح لمدة ٤٠ (أربعين) شهرا ، واذا كان الروم قد وافقوا على فك أسر ألف رجل من المسلمين ، فان المسلمين في صقلية وافقوا على أن يقدموا رهائنهم الى الروم ، ضمانا للوفاء « في كل ثلاثة أشهر ثلاثة من العرب ، وثلاثة من البربر »(٢٩٢) .

الفتنة بين العرب والبربر :

ولا شك في أن الاضطرابات التي عرفتها افريقية في ذلك الوقت كانت لها أصداؤها في صقلية التي هاجت فيهـا الفتنة بين العرب والبربر ، في سنة ٢٨٥ هـ/٨٩٨ م . وواضح من النصوص أن صاحب البريد كان يوالي الأمير ابراهيم بن أحمد بأخبار الفتنة وأسماء المتسببين فيها . فقد أرسل ابراهيم الى المسئولين في الجزيرة الكتب يطلب منهم دعوة الناس الى الرجوع الى الطاعـة ، ويعطيهم الأمان أجمعين ، حاشى بعض زعماء الفتنة ، وهم : أبو الحسن يزيد وولداه ، وزعيم عربي آخر لا يعرف الا لقبه ، وهـو : الحضرمي .

وتم القبض على هـؤلاء المطلوبين الذين سيروا الى افريقية في نفس السنة ، حيث انتحر منهم أبو الحسن بالسم ، فمات لساعته في حضرة الأمير ابراهيم بن أحمد . وأمر ابراهيم عقب ذلك بقتل ولدى أبي الحسن ، كما أمر بقتل الحضرمي ضربا بالمقارع بين يديه(٢٩٣) .

---

(٢٩١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٢ .

(٢٩٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٩ ، تاريخ المسلمين في صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٧ (حيث يجعل الهدنة بين المسلمين والروم في أيام (الوالي) أبي علي سنة ٦٤٠٤ ، التي تعادل سنة ٧٠ من بدء الفتح بالسنين الرومية) .

(٢٩٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣١ ، تاريخ المسلمين في صقلية حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٧ (حيث تولب البربر على الجند واسلامهم أبي الحسين وأولاده الى أهل افريقية سنة ٦٤٠٦) .

أبو العباس بن ابراهيم بن احمد :

ابو العباس ، ولى العهد ، واليا والفتنة على اشدها :

والذى يفهم من ابن الأثير أن والى صقلية خلال تلك الفترة المضطربة ، كان أحمد بن عمر الأغلبى المعروف بحبشى ، الذى رأيناه واليا فى سنة ٢٧٣ هـ/٨٨٦ م ، حسب رواية ابن عذارى — مما دعانا الى الظن أن ولايته كانت شرفية ، إن لم يكن قد عزل بعد فترة قصيرة ثم عاد أخيرا الى ولايته — وان الأمير ابراهيم بن أحمد استضعفه ، فعهد فى سنة ٢٨٧ هـ/٩٠٠ م بولاية صقلية الى ابنه وولى عهده أبى العبـاس ، الذى كان قائدا محترفا ، مارس الحروب وأطفأ الفتن فى افريقية وغيرها ·

ووصل أبو العباس الى صقلية فى غـــرة شعبان (١ اغسطس) فى أسطول مكون من ١٢٠ (مائة وعشرين) مركبا ، وأربعين حربية(٢٩٤) ، فى وقت كانت الفتنة على أشدها · فقد كان جيش العاصمة بلرم ، حيث العرب ، يهاجم أهل جرجنت ، حيث البربر ، فى بلدهم · ويتضح من مسار الأحداث أن الأمير الأغلبى أبا العباس كان على دراية بتلك الفتنة التى كانت تعنت المسلمين فى الجزيرة ، ولهذا نزل بأسطوله على مدينة طرابنش الرومية، وحاصرها(٢٩٥) ·

وكانت تلك سياسة حكيمة منه اذ أظهر أنه حضر من أجل الجهـــاد — الذى يمكن أن يجتمع عليه المتقاتلون فيما بينهم من المسلمين — قبـل ان يحضر من أجل اصلاح الأحوال فى البلاد ·

عصيان اهل العاصمة :

والمهم أنه عندما علم قواد عسكر بلرم بوصول أبى العباس، عادوا من جرجنت

(٢٩٤) ابن الأثير ، ســــنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠٠ ، المكتبة ، ص ٢٤٦ ، ونهاية النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ ب (حيث ينص على أن ولاية ابى العباس لصقلية كانت فى سنة ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م ، وأنه سار اليها فى جمادى الآخرة/يونيه) ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٣ (حيث النص على انه وصل اليها فى ١٦٠ (مائة وستين) مركبا) ·

(٢٩٥) ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠٠ ؛ المكتبة ، ص ٢٤٦ ، وقارن تاريخ المسلمين بصقلية حسبما تاريخ العــالم عنــد الــروم ، المكتبة ، ص ١٦٧ (حيث النص على أن أبا العباس نزل فى مازر فى ٢٤ يوليو ، سنة ٦٤٠٨) ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٣ (حيث القراءة طرابة بدلا من طرابنش) ·

الى العاصمة ، وارسلوا جماعة من شيوخهم ، وعلى رأسهم قاضي المدينة ، يعلنون اليه الطاعة ، ويعتذرون عما بدر منهم ، من قصد جرجنت وقتال اهلها ، فاستمع اليهم ثم انه سمح للقاضي بالعودة ، بينما احتجز جماعة المشايخ لديه(٢٩٦) . ثم ان وفدا من أهل جرجنت وصل الى ابن العباس ، وشكوا من البلرميين ، « فاخبروه أنهم مخالفون عليه ، وانهم انما سيروا مشايخهم خديعة ومكرا ، وانهم لا ايمان لهم ، ولا عهد » ، وسألوه أن يختبر صدق كلامهم ، اذا شاء ، بأن يرسل في طلب بعض زعماء اهل بلرم ممن عددوا له أسماءهم ، لعلمهم أنهم لن يلبوا طلبه(٢٩٧) .

وارسل ابو العباس الى بلرم ثمانية من مشايخ أهل الربقية يطلبون حضور من سماهم الجرجنتيون من زعمائهم الى حضرة الامير . فامتنع البلرميون ، بل انهم حبسوا المشايخ الافريقيين ، « مكافأة للعلة في مشايخهم »(٢٩٨) .

وهكذا اظهر أهل بلرم الخلاف على الأمير الأغلبي ، وحشدوا حشودهم . وفي منتصف شعبان (١٦ اغسطس) كانوا يزحفون نحو طرابنش لحربه ، ويتقدمهم مسعود الباجي وأصحابه من زعماء الفتنة ، وعلى رأسهم رجل يسمي ركمونة ، تصفه الرواية ، بأنه : « أمير السفهاء » .

ولم يكتف البلرميون بجيشهم البري ، بل أرادوها حربا كلية - كما نقول الآن - فسيروا الى طرابنش أسطولا في البحر مكونا من نحو ثلاثين قطعة ، ولكنه لم يقدر له ان يتم مهمته اذ « هاج البحر على الأسطول ، فعطب أكثره وعاد الباقي الى بلرم » .

هزيمة الثوار في طرابنش :

ووصل الجيش البلرمي الى طرابنش حيث التقى بقوات أبي العباس .

---

(٢٩٦) ابن الاثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠٠ ، المكتبة ، ص ٢٤٦ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ .

(٢٩٧) ابن الاثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠٠ ، المكتبة ، ص ٢٤٦ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٢٩٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ ، وقارن ابن الاثير ، سنة ٢٨٧ ، ج ٧ ص ٢٠٠ ، المكتبة ، ص ٢٤٦ - حيث يقول ان ابا العباس اعتقل شيوخ بلرم بعد ان علم بحبس وفد مشايخ أهل الربقية ، بمعنى ان زعماء بلرم لم يكونوا في حبسه بل كانوا محتجزين لديه أشبه بالضيوف منهم بالرهائن او المعتقلين .

ولم يكن اللقاء الاول حاسما ، رغم أنهم اقتتلوا أشد القتال ، فقتل من الفريقين جماعة وافترقوا • أما اللقاء الثاني الذي وقع في يوم ٢٢ شعبان (٢٢ اغسطس) ، فاستمر من الصباح الى وقت العصر ، عندما انهزم جيش البلرميين ، بعد أن قتل منهم عدد كثير ، وتبعهم أبو العباس الى بلرم في البر والبحر(٢٩٩) •

هزيمة ثانية للعصاة على ابواب بلرم :

ورغم الهزيمة فلم يستكن الثوار المجاهدون الذين اتخذوا الحرب صناعة وطنية لهم ، اذ أنه عندما اقترب أبو العباس من بلرم نفسها عادوا الى قتاله ، بعد أن جيشوا أهل البلد ، في العاشر من رمضان/٨ سبتمبر ٩٠٠ م • واستمر القتال من الصباح الباكر الى العصر عندما انهزم البلرميون « ووقع السيف فيهم الى المغرب »(٣٠٠) •

اللجوء الى بلاد الروم :

وهكذا انتهت فتنة بلرم بدخول أبي العباس المدينة وسيطرته عن أرباضها التي وزع عليها قواده في عشرين من رمضان (١٨ سبتمبر) ، ولكنها كانت نهاية تعسة بالنسبة للغزاة الصقليين من أهل العاصمة ، الذين انتهبت أموالهم ، كما هرب كثير من رجالهم ونسائهم لاجئين لدى الروم • وكذلك هرب زعماء الفتنة مثل : « ركموية » واقرانه من رجال الحرب الى بلاد النصرانية كالقسطنطينية وغيرها(٣٠١) • والمقصود بذلك انهم لجاوا الى الارض الكبيرة في ايطاليا ، عبر مضيق مسينا ، على ما نظن ، حيث كانت هناك مجالات واسعة لنشاطاتهم الحربية ، مع العرب او الروم ، او مع غيرهم من الفرنج •

---

(٢٩٩) ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠٠ ، المكتبة ص ٢٤٦ ، وقارن ابن عذارى ج ١ ص ١٣١ •

(٣٠٠) ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠٠ ، المكتبة ص ٢٤٦ – ٢٤٧ ، وامارى ، تاريخ المسلمين في صقلية ، المكتبة ، ص ١٦٧ – حيث النص على ان ابا العباس ، اخذ بلرم بعد مقتلة كبيرة في ٨ سبتمبر سنة ٩٠٠ •

(٣٠١) ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠١ ، المكتبة ، ص ٢٤٦ – ٢٤٧ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٠ ب ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٦ •

ابو العباس في طبرمين وقطانيا :

وبعد أن ملك أبو العباس المدينة ، وعمل على اقرار الأمور فيها : فأمن أهلها ، واكتفى بأخذ جماعة من أعيانها وجههم الى والده في الرقية ، بدأ ولايته العملية بالمسير الى طبرمين التي كانت ترنوا اليها أبصار المجاهدين منذ مدة طويلة ، فقطع كرومها ، وشن الحرب على الروم فيها ٠

ومن طبرمين سار أبو العباس جنوبا الى قطانيا ، وضرب عليهما الحصار ، ولكنه لما « لم ينل منها غرضا » ، رجع الى « المدينة » ، أي بلرم ، حيث قضى فصل الشتاء(٣٠٢) ٠

حصار دمنش ، واخذ ريو :

وعندما تحسنت الأحوال الجوية وطاب الزمان في مطلع صيف سنة ٢٨٨ هـ/٩٠١ م ، تجهز أبو العباس للغزو فسير الأسطول وسيره في أول ربيع الآخر (٢٥ مارس) ، ليحط على مدينة دمنش ، التي نصب عليها المجانيق وأخذ يضرب أسوارها بالحجارة - والظاهر أنه لم يرد أن ينهك قواه على أسوار دمنش ، فانصرف عنها بعد أيام الى مسيني ، من حيث عبر المجاز في « الحربية » الى مدينة ريو المقابلة ، حيث كان قد اجتمع فيها جيش رومي كبير ٠

وعندما نزل عسكر أبي العباس الى البر الايطالي في شهر رجب (يونيه) ، لقيهم الروم على باب المدينة ، ولكن العسكر الأغلبي تمكن من هزيمتهم هزيمة تامة ، ودخل المدينة عنوة ، وحصل فيها على مغانم عظيمة ٠ والى جانب ما غنمه أبو العباس في ريو من احمال الذهب والفضة ، فانه شحن مراكبه بالدقيق والأمتعة ، وعاد راجعا الى مسيني ٠ ورواية ابن الأثير هنا لا تذكر ، ماذا كان من أمر ريو ، وان كانت قد بقيت فيها حامية اسلامية ، مما يرجح أنه تم الصلح بين أهلها وبين العرب ، رغم فتحها عنوة ٠ وهذا ما يمكن أن يفهم من رواية ابن عذارى التي تذكر أيضا أنه استأمنت له حصون ، وأعطوه الجزية(٣٠٣) ٠

---

(٣٠٢) ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ ، ج ٧ ص ٢٠١ ، المكتبة ، ص ٢٤٧ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٦ ٠

(٣٠٣) ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠١ ، المكتبة ، ص ٢٤٧ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣١ ، والنويري ، ج ٢٢ ص ١٢٠ ب ، تاريخ المسلمين في صقلية ٠٠٠ ، المكتبة ، ص ١٦٧ (حيث النص على اخذ ريو في ١٠ من شهر يوليو « سنة ٩٠١ ») ٠

وفي مسيني التقى أبو العباس بأسطول رومي كان قد وصل لتوه من القسطنطينية ، فهاجمه وأخذ منه ثلاثين مركبا • وبعد أن هدم سور مسيني رجع الى المدينة بلرم ، ليقضي فصل الشتاء(٣٠٤) •

استدعاء أبي العباس الى افريقية :

وهكذا تنتهي ولاية أبي العباس بن ابراهيم بن أحمد لصقلية التي استمرت حوالى سنتين ، ملأها بأعمال البطولة والفتوة ، ومزج فيها أعمال السيف بأعمال القلم •• وفي ذلك أنشد ابو العباس في دواء شربه بصقلية ، فقال :

شربت الدواء على غربة	بعيدا عن الأهل والمنزل
وكنت اذا ما شربت الدواء	تطليت بالمسك والمندل
فقد صار شربي بحار الدماء	ونقع العجاجة والقسطل(٣٠٥)

وبذلك قطع أبو العباس دابر الفتنة ، وأقر الأمور في الجزيرة ، وأعاد للجهاد في صقلية وايطاليا ، أيام عزه وامجاده • وكان والده ابراهيم بن أحمد ، الذي أظهر التوبة والنسك في أواخر أيامه ، قد قرر أن يهب ما تبقى من عمره للجهاد في صقلية ، قربى لله وزلفى ، وكتب اليه يأمره بالعودة سريعا الى افريقية • واستجاب أبو العباس لأمر والده ، وترك العسكر مع ولديه أبي مضر (زيادة الله) وأبي معد ، ورجع الى افريقية « جريدة » ، في خمس قطع من المراكب المعروفة بالشواني • وعند وصوله استخلفه أبوه ابراهيم ابن أحمد كنائب له على البلاد ، بينما تجهز هو الى الجهاد ، فأخرج ما كان قد أدخره من المال والسلاح ، وهو يظهر العزم على أن يتبع الجهاد بالحج(٣٠٦) •

ابراهيم بن أحمد مجاهدا في صقلية :

وسار ابراهيم بن أحمد من القيروان الى سوسة ، أرض الرباط وقاعدة العمليات العسكرية في صقلية وايطاليا ، « فدخلها وعليه فرو مرقع في زي الزهاد » ، وذلك في مطلع سنة ٢٨٩ هـ/٩٠١ – ٩٠٢ م(٣٠٧) ، وكان قد تم تجهيز الأسطول الذي لم يدخر وسعا في سبيل اعداده •

---

(٣٠٤) ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠١ ، المكتبة ، ص ٢٤٧ •

(٣٠٥) انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٧٥ •

(٣٠٦) ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، جـ ٧ ص ٢٠١ ، المكتبة ، ص ٢٤٨ ، سنة ٢٦١ ، ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ، ص ٢٤٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٢ ، وانظر فيما سبق ، ص ١٤٥ – ١٤٦ •

(٣٠٧) ابن الأثير ، سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ص ٢٤٠ •

وعندما اطمأن الأمير الى أن كل شيء متعلق باعداد الحملة وتجهيزها على ما يرام ، سار من سوسة في الأسطول الى صقلية حيث نزل في أواخر شهر رجب سنة ٢٨٩ هـ (أوائل يوليه) على مدينة نرطتوا (Neritimum) وملكها . وفي صقلية أظهر ابراهيم بن أحمد العدل وأحسن الى الرعية - في سبيل تهيئة كل امكانات الصقليين للجهاد . وفي ذلك تقول الرواية انه فرق الخيل والسلاح على أصحابه وأمر بالعطاء ، فأعطى الفارس عشرين دينارا والراجل عشرة . ومن هنالك سار في البحر الى طرابنش حيث أقام ١٧ (سبعة عشر) يوما يعطى الأرزاق لمن معه . ومن طرابنش رحل الى بلرم نوصلها في ٢٧ شعبان (٨ أغسطس) . وفي بلرم أقام ابراهيم بن أحمد أربعة عشر يوما ، امر فيها برد المظالم ، وأعطى أهل المدينة (بلرم) ومن كان بها من الغزاة البحريين الأرزاق(٣٠٨) .

الاستيلاء على طبرمين :

وبعد ان أتم ابراهيم جهازه ، سار الى طبرمين التي كانت هدفا عزيزا على ولاة صقلية ، وقواد جيوشها ، منذ سنوات وسنوات . وعرف أهل طبرمين قصد الأمير الأغلبي ، فكانوا على أتم الاستعداد للقائه بمجرد وصوله أمام أسوار مدينتهم .

وأعد ابراهيم بن أحمد قواته في هيئة القتال ، وأخذ القراء في قراءة الآيات القرآنية التي تحض على الجهاد ، فقرأ القارىء : « انا فتحنا لك فتحا مبينا » ، ولكن الأمير أمره بأن يقرأ الآية التي تقول : «هذان خصمان اختصموا في ربهم » . وعندما انتهى القارىء دعا ابراهيم ربه ، وقال : « اللهم اني اختصم أنا والكفار اليك في هذا اليوم » ، فكان هذا الدعاء بمثابة اشارة البدء بشن الهجوم على قوات طبرمين الرومية . وكان الأمير ابراهيم نفسه أول المهاجمين : « فحمل ، ومعه أهل البصائر فهزم الكفار ، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا » .

ويفهم من الرواية أن هجوم القوات الأغلبية كان من العنف والشدة بحيث انه لم يسمح للروم بالعودة الى المدينة والاعتصام بأسوارها . اذ عندما

---

(٣٠٨) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢١ - ابن الأثير ، سنة ٢٨٧ هـ ، ج ٧ ص ٢٠١ ، المكتبة ، ص ٢٤١ .

كان الروم ينهزمون الى الداخل عبر الأبواب كان المسلمون يدخلون معهم المدينة عنوة ٠ وهكذا اندفعت جماعات من العسكر الرومي الى المراكب الموجودة في الميناء ، وهربوا ناجين بأنفسهم بينما التجأت جماعات أخرى الى حصن المدينة واعتصموا به ٠ وهؤلاء أحاط بهم الجند الأغلبي ، و « قاتلوهم فاستنزلوهم قهرا ، وغنموا أموالهم ، وسبوا ذراريهم » ، وذلك في يوم ٢٢ شعبان من نفس سنة ٢٨٩ هـ/٢ اغسطس ٩٠٢ م ٠ وبذلك فتحت طبرمين عنوة ، وأمر ابراهيم بن أحمد بقتل المقاتلة ، وبيع السبي والغنيمة(٣٠٩) ٠

صدى سقوط طبرمين في القسطنطينية :

وكان لفتح عاصمة الاقليم الشمالي الشرقي من صقلية رنة حزن شديد في القسطنطينية ، حيث أعلن الامبراطور الحداد ، كما كانت تقضي رسوم المملكة او كما رأى الملك رسمه في تلك المناسبة : « فبقي سبعة أيام لا يلبس التاج ، وقال ٠ » لا يلبس التاج محزون »(٣١٠) ٠

ابراهيم بن احمد وفكرة الحج عن طريق القسطنطينية :

ولا شك أن الرواية العربية تبالغ عندما تقول ان الروم الذين هالهم الأمر قرروا ارسال حملة كبيرة لحفظ ما كان قد تبقى بأيديهم من الجزيرة ، ولكنهم خشوا أن يقصد ابراهيم بن أحمد ، بعد ذلك النصر الكبير ، القسطنطينية نفسها ، حتى أن الملك احتاط للأمر فترك في عاصمته قوات كبيرة قادرة على حمايتها(٣١١) ٠ وأغلب الظن أن هذه الفكرة هي أصل الرواية التي قالت ان ابراهيم بن أحمد ، عندما تنسك وترك المملكة كان يفكر في الذهاب الى الحج ، ولكنه عاد وقرر أن يجمع بين الحج والجهاد ، ورأى أن يكون

---

(٣٠٩) ابن الأثير ، سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ، ص ٢٤١ ، وقارن النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢١ ب ، افتتاح الدعوة للقاضي النعمان ، ص ٩٢ ، تاريخ صقلية من حين دخلها المسلمون حسب تاريخ العالم عند الروم ، المكتبة ، ص ١٦٨ (حيث النص على اخذ طبرمين في أول يوم من شهر اوسه سنة ٦٤١٦) ٠ وانظر عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، ص ١٧ — حيث الاشارة الى ما نص عليه بعض الكتاب البيزنطيين من اتهام قوادهم وبعضهم قائد البحر الأصيل يوستاثيوس ارجيروس (Eustathius Argyrus) بالتقصير الاجرامي ، بل بالخيانة والغدر رغم ان يوستاثيوس أعيد الى منصبه مباشرة بمعرفة الامبراطور ليو الرابع ٠

(٣١٠) ابن الأثير ، سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ، ص ٢٤١ ٠

(٣١١) انظر ابن الأثير ، سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ، ص ٢٤٢ ٠

حجة عن طريق صقلية ، مما يعني أن صقلية كانت محطة في الطريق الى القسطنطينية والمشرق ، وهي الفكرة التي أثارت خيال الكتاب العرب ، وربما رجال الحرب والسياسة أيضا ، منذ فتوح المغرب أو فتح الأندلس .

فتوح ابراهيم بن أحمد بعد طبرمين :

والمهم أن ابراهيم بن أحمد ، بعد أن ملك طبرمين ، بث سراياه في مدن صقلية وقلاعها التي كانت ما زالت بين أيدي الروم في المنطقة ، فوجد بعضها قد تركها اهلها ، وجلوا عنها ، مثل : ميقش ، التي هاجمها حفيده زيادة الله ابن أبي العباس ، ودمنش ، التي سير اليها ولده أبا الأغلب ، بينما أذعن بعضها وعرض الصلح على دفع الجزية ، ولكن القادة العرب لم يقبلوا الا تسليم الحصون نفسها ، مثل : رمطة التي سار اليها ابنه أبو مضر ، والياج ، التي سار اليها سعدون الجلوي(٣١٢) .

حصار كسنته (Cosenza) ، ومرض ابراهيم :

وسار ابراهيم بن أحمد الى مسيني ، حيث أقام بها يومئذ ، ثم انه أمر عسكره بالتعدية الى قلورية (كلابريا) في يوم ٢٥ رمضان (٣ سبتمبر) . وسار حتى قرب من مدينة كسنته . ورفض ابراهيم ما عرضه عليه أهل كسنته من طلب الأمان ، وأمر عسكره بالتقدم الى المدينة ، بينما بقي هو في الساقة ، اذ ألم به الضعف من المرض الذي مات فيه . ونزلت العساكر في الوادي ، وأحاطوا بالمدينة . وفي ٢٥ من شوال (٢ أكتوبر) فرق أبناءه وحفدته وكبار قواده على أبواب كسنته ، وأمر بالزحف عليها ، بينما بدأت المجانيق تضرب الأسوار بحجارتها(٣١٣) .

وفي نفس هذا الوقت زاد بالأمير المرض ، وهو علة الذرب ، أو البطن ، الذي اشتد عليه ، واضطره الى الانفراد بعيدا عن العسكر . وكان لغياب الأمير أثره في هبوط معنويات الجند الذين لم يجتهدوا في قتال كسنته ، كما تقول

---

(٣١٢) ابن الأثير ، سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ، ص ٢٤٢ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ في ١٢٢ ؟ .

(٣١٣) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٣ أ ، ابن الأثير ، سنة ٢٦١ ، ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ، ص ٢٤٢ ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠٤ (حيث القراءة : كسنة بدلا من كسنته) .

رواية ابن الأثير • وزاد اشتداد المرض بابراهيم حتى منعه النوم ، واخيرا عندما أصابه الفواق ، كان ذلك يعني اعلان وفاته التي وقعت في ليلة السبت ١٨ من ذي القعدة سنة ٢٨٩ هـ/٢٥ أكتوبر ٩٠٢ م(٣١٤) •

زيادة الله بن أبي العباس واليا :

واجتمع قواد العسكر ، وبعد أن تشاوروا فيما بينهم ، قرروا أن تؤول القيادة الى حفيد ابراهيم بن أحمد ، وهو أبو مضر زيادة الله بن العباس ، الذي عرضها بدوره على عمه أبي الأغلب الذي لم يتقدم على زيادة الله ، لأنه كان يحب السلامة • وهنا عرض زيادة الله على أهل كسنته الأمان الذي كانوا قد طلبوه ، وهم لا يعرفون بوفاة الأمير ، فاجابوا •

وعندما عادت السرايا التي كانت قد سارت الى نواحي كسنته ، عاد العسكر بأجمعه ، وهم يحملون تابوت ابراهيم بن أحمد الى بلرم ، ومنهـــا أرسل الى القيروان ليدفن هناك(٣١٥) •

عزل زيادة الله :

ولم تطل ولاية زيادة الله لصقلية الا الى اقل من ستة أشهر ، اذ استدعاه والده أبو العباس الى افريقية بسبب : « اعتكافه عـــلى اللهو وادمانه شرب الخمر » ، كما تقول رواية ابن الأثير(٣١٦) ، ولو اننا نفضل رواية ابن عذارى، التي نصت على أنه : « وشي به اليه أنه يريد الالتزاء عليه » ، ويرجع ذلك ما تضيفه الرواية من أن زيادة الله عندما عاد الى افريقية في ٢٠ جمادى الأخيرة من سنة ٢٩٠ هـ/٢٢ مايه ٩٠٣ م ، أخذ أبوه ما كان معه من الأموال والعدد وحبسه داخل القصر ، كما حبس جماعة من أصحابه الذين كانوا معه(٣١٧) •

---

(٣١٤) ابن الأثير سنة ٢٦١ هـ ، ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ، ص ٢٤٢ ، ابو الفــداء ، المكتبة ، ص ٤٠٦ ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٢ أ (حيث وفاة ابراهيم بن أحمد في ١٢ من ذي القعدة/١٩ أكتوبر) ، وانظر افتتاح الدعوة للقاضي النعمان ، ص ٩٢ (حيث وفاة ابراهيم في ١٢ من ذي القعدة •

(٣١٥) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ١٢٢ أ — ١٢٢ ب ـ حيث يقول ان ابراهيم دفن في بلرم ، وانظر افتتاح الدعوة ، ص ٩٢ • أما ابن الأثير (سنة ٢٨٩ هـ ج ٧ ص ١١٣ ، المكتبة ، ص ٢٤٢) الذي اخذنا بروايته هنا فيشير الى انه دفن في القيروان ، وهو الأمر الذي لم يشذ عن ابن خلدون (ج ٤ ص ٢٠٤) •

(٣١٦) ابن الأثير ، سنة ٢٨٩ هـ ، ج ٧ ص ٢٠١ ، المكتبة ، ص ٢٤٦ •

(٣١٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٤ ، وانظر فيما سبق ، ص ١٥٦ •

محمد بن السرقوسي واليا لصقلية :

وعهد أبو العباس بولاية صقلية الى القائد محمد بن السرقوسي[٣١٨] ، الذى يتضح من اسمه أنه صقلي أصيل ، من أبناء جيل المجاهدين الأول في الجزيرة • وهذا الأمر له أهميته ، من حيث أنه يعني أنه ، بعد ثمانين سنة من غزو الجزيرة ، أصبح من الممكن أن تؤول ادارة شئون صقلية ، من : جهاد وغيره الى أبنائها ، بعد أن كان حكامها من رجال الأغالبة الوافدين من افريقية• ولا شك أنه كان في ذلك ترضيـــة للصقليين المعتزين بأنفسهم ، بصفتهم المجاهدين أولا وقبل كل شيء ، دون غيرهم من أهل المملكة الأغلبية ، والذين كانوا قد بدأوا يسبمون المتاعب لأمير القيروان منذ مدة ، كما رأينا ، وخاصة في ذلك الوقت الذى كان الشيعي يشكل خطرا داهما على الأغـــالبة في افريقية •

فكان تولية السرقوسي كانت تعني ـ الى حد ما ـ ترك جبهـــة صقلية لأهلها ، فهم أدرى بما فيها ، ولو لفترة من الوقت تسمح بتوجيه كل الجهود الى الشيعي ومن معه من كتامة • وذلك ما يرجحه سكوت حوليات ابن الأثير وغيره عن أحداث صقلية طوال عهد زيادة الله تقريبا ، باستثناء الإشارة ، في سنة ٢٩٤ هـ/٩٠٧ م ، الى عودة السفارة التي كان قد أرسلها الى بلد الروم ، ومعها رسول صاحب القسطنطينية ، والتي ربما كان هدفها اقرار الهدنة بين الطرفين[٣١٩] •

احمد بن أبي الحسين بن رباح واليا :

وفي السنة التالية (٢٩٥ هـ/٩٠٨ م) ، عزل زيادة الله والي صقلية : محمد بن السرقوسي ، واستعمل بدلا منه أحمد بن أبي الحسين بن رباح ، وهو أيضا سليل قواد الجزيرة وولاتها[٣٢٠] •

الصقليون يخلعون طاعة الأغالبة ويعترفون بأبي عبد الله الشيعي :

ولم يبق الوالي الجديد في منصبه الا حوالي سنة واحدة ، وذلك انه عندما

---

(٣١٨) ابن الأثير ، سنة ٢٨٩ هـ ، ج ٧ ص ٢٠٦ ، المكتبة ، ص ٢٤٩ ، وانظر النويري ـ المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٠ أ ـ حيث القراءة الخاطئة : « محمد بن أبي الفوارس » •

(٣١٩) أنظر فيما سبق ، ص ١٧٧ •

(٣٢٠) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٠ أ ـ ٢٣٠ ب •

فاز الشيعي بافريقية في السنة التالية (٢٩٦ هـ/٩٠٩ م) ، وثب اهل صقلية عليه ، وانتهبوا ماله وحبسوه ، وولوا على أنفسهم علي بن أبي الفوارس في ١٠ من رجب سنة ٢٩٦ هـ/١٥ ابريل ٩٠٩ م . وبعث الصقليون بأحمد ابن أبي الحسين بن رباح الى أبي عبد الله الشيعي وكتبوا اليه أن يبقي على « ابن أبي الفوارس » ، فأجابهم الى ذلك ، وكتب اليه ان يغزو برا وبحرا[٣٢١] .

وبذلك كان أحمد بن أبي الحسين بن رباح آخر ولاة الاغالبة في صقلية، وكان علي بن أبي الفوارس أول من حكم الجزيرة باسم الفاطميين .

الحسن بن أحمد بن أبي خنزير ، أول والٍ فاطمي :

ولكنه عندما دخل المهدي رقادة ، تعود أخبار صقلية متواترة على طول الحوليات . ولقد بدأ ذلك بتعيين الحسن بن أحمد بن أبي خنزير واليا على صقلية في أواخر سنة ٢٩٧ هـ/٩١٠ م ، وهو ما سنعود اليه — انشاء الله — عند دراسة العصر الفاطمي في افريقية والمغرب .

---

(٣٢١) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ص ٢٣٠ ب .

الفصل الثالث

الدولة الرستمية

في تاهرت وجبل نفوسة

(١٦١هـ/٧٧٧م - ٢٩٦هـ/٩٠٨م)

قيام الرستميين في تاهرت :

رغم أن دولة الأغالبة كانت ممثلة الخلافة ، صاحبة الحق ألشرعي في حكم بلاد المغرب من أقصاها الى أقصاها ، الا أن استقلالها كان نتيجة طبيعية للأوضاع السياسية في المغرب في ذلك الحين • فالرستميون كانوا قد اقتطعوا المغرب الأوسط بينما كان الأدارسة في طريقهم الى تثبيت أقدامهم في المغرب الأقصى بمعنى أن الرشيد عمل على ايجاد نوع من توازن القوى عندما عهد بافريقية الى ابن الأغلب • ومؤسس أسرة الرستميين هو عبد الرحمن بن رستم ابن بهرام الفارسي ، وكان بهرام جده من موالي عثمان بن عفان ، ولو أنالكتاب يجعلون له نسبا يرتفع به الى ملوك الفرس القدماء (١) أما عن كيفية هجرته الى افريقية فتقول الرواية أن أباه رستم قدم من العراق الى مكة وبصحبته زوجته وابنه عبد الرحمن ، لأداء فريضة الحج فمات ، فتزوجت امرأته برجل من أهل القيروان حملها وابنها عبد الرحمن معه عند عودته الى بلده (٢) • وتربى عبد الرحمن بن رستم في القيروان وأخذ العلم عن فقهائها ومال الى تعاليم الخوارج ، ووقع تحت تأثير سلامة بن سعيد الذي كان يدعو الى مذهب

---

(١) يقال ان جده هو بهرام بن ذي شراز بن سابور بن بابكان بن سابور ذي الأكتاف الملك الفارسي • انظر البكري ، ص ٦٧ وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢١ ، الدرجيني ، طبقات الاباضية ، المخطوط ورقة ٩ (ط الجزائر ، ص ١٩) عن نسب عبد الرحمن ، ص ٢٠ — (ط الجزائر ، ص ٤٢) عن نسب ميمون خليفة عبد الرحمن .

(٢) الدرجيني ، طبقات الاباضية ، المخطوط ، ورقة ٩ (ط الجزائر ص ١٩ — ٢٠) حيث تقول الرواية المنقبية الطابع ان رستم والد عبد الرحمن عندما سار الى الحج كان يقصد الذهاب الى المغرب عن طريق مكة حيث انه كان خبيرا بعلم النجوم وانه كان يعرف ان ذريته ستملك بلاد المغرب ، وانظر الشماخي ، سير طبعة جبل نفوسة ، ص ١٣٣ —

الإباضية (٣) . ولما بلغ مبلغ الشباب رحل الى البصرة حيث درس على أئمة المذهب هناك ، ومنهم أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي ، مع بعض اخوانه من المغاربة . وبذلك أصبح واحدا من خمسة هم « حملة العلم » ، كما ذكرنا من قبل (٤) .

وعندما عاد عبد الرحمن أدراجه الى المغرب جد في تحقيق أمنية شيخه سلامة بن سعيد الذي كان يقول : « وددت أن يظهر هذا الأمر يوما واحدا فما أبالي أن تضرب عنقي »(٥) ، فاشترك في ثورة طرابلس بقيادة أبي الخطاب ، وعندما استخلص هذا الأخير مدينة القيروان من صفرية ورفجومة عهد اليه بولايتها . وبقي عبد الرحمن بن رستم بالقيروان الى أن قدم محمد بن الأشعث بالقوات العباسية فخرج تلبية لنداء أبي الخطاب ، ولكنه عاد من قابس عندما رأى هزيمة الاباضية قبل أن يفر من القيروان خفية نحو المغرب الأوسط سنة ١٤٤ هـ/٧٦١ م(٦) . ورغم ما تقوله بعض الروايات من أن ابن رستم بنى مدينة تاهرت عقب فراره أي في سنة ١٤٤ هـ أو بعدها بقليل (٧) ، فالأقرب الى الصحة أن ابن رستم لم يفكر في ربط مصيره وأتباعه بالمغرب الأوسط الا بعد أن فشلت محاولاته في العودة من جديد الى افريقية . ففي سنة ١٥١هـ/ ٧٦٨ م اشترك ابن رستم مع بقية الخوارج من أباضية وصفرية في حصار عمر بن حفص في طبنة ، وانتهى الأمر بالانهزام الى تاهرت (٨) . والظاهر أن المقصود بتاهرت هنا ليست المدينة بل أرض تاهرت أي اقليمها . فابن عذارى يحدد اختطاط تاهرت الرستمية في سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٧ — ٧٧٨م (٩) . وهو

---

(٣) انظر الدرجيني (الطبقات ، المخطوط ، ورقة ٦ ، ط الجزائر ، ص ١١) الذي يسجل رواية الاباضية التي ترجع الى الامام افلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عن مدة انتشار مذهبي الاباضية والصفرية ، والتي تقول ان أول من دعا الى هذين المذهبين في قيروان افريقية هما . سلامة بن سعيد وعكرمة مولى ابن عباس اللذان قدما من البصرة ، وان سلامة كان يدعو الى مذهب الاباضية بينما كان عكرمة يدعو الى مذهب الصفرية .

(٤) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٤١ وهامش ٥ .

(٥) الشماخي ، ص ١٢٣ ، والدرجيني ، طبقات الاباضية ، ورقة ٦ (ط الجزائر ، ص ١١ — ١٢) حيث النص « وددت أن لو ظهر هذا الأمر يوما واحدا من أول النهار الى آخره فلا آسف على الحياة بعده . وانظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢١٩ و ص ٣٠ .

(٦) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٤٥ .

(٧) انظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢٣ والترجمة ، ج١ ص ٢٤٢ ، النويري ، ص ٩٣ أ ، والترجمة (ابن خلدون) ج ١ ص ٣٧٥ .

(٨) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٥٥ — ٣٥٦ .

(٩) البيان ، ط . كولان ، ص ١٩٦ .

الأمر الذي تؤيده روايات الأباضية عن اقامة ابن رستم فيها بين سنة ١٦٠ هـ و سنة ١٦٢ (١٠) ، أي بعد أكثر من خمس عشرة سنة من فرار عبد الرحمن من القيروان وعشر سنوات من انهزامه في طبنة ، وذلك أمر مقبول ٠

وهذا لا يعني أن تاهرت لم تكن موجودة قبل ذلك التاريخ ، فالمدينة قديمة ترجع الى العصر الروماني ثم البيزنطي (١١) ، ولقد جاء ذكرها أيام الفتوح الأولى سنة ٦٢هـ/٦٨١ ـ ٦٨٢ م في حملة عقبة بن نافع التي استشهد فيها(١٢)٠ فلكي يستقر ابن رستم واتباعه الذين جاءوا من بلاد افريقية وطرابلس في المغرب الأوسط كان لابد لهم من تنظيم دعاية واسعة النطاق لنشر تعاليم المذهب الأباضي بين قبائل المنطقة ، ونداء هذه القبائل الى تأييد ابن رستم ، وهذا أمر طبيعي تطلب تنفيذه حوالي خمسة عشر عاما ٠ ولقد ساعد على نجاح دعوة ابن رستم أن المنطقة التي نزلها تعتبر امتدادا لبلاد الزاب ، وأن كثيرا من قبائلها من لواته وهوارة وزواغة ومطماطة (١٣) أصلها من أقاليم المغرب الشرقية في طرابلس ونفزاوة وبلاد الجريد ـ مهد الدعوة الأباضية ٠ ولقد سهل هذا الأمر مسير كثير من أباضية تلك الأقاليم الى ابن رستم حيث أقاموا بين بني جلدتهم في المغرب الأوسط ٠ (أنظر شكل ٥ ص ٢٩٢) ٠ ٠

اما عن السبب في اختيار منطقة تاهرت مركزا للدعوة فيرجع أولا الى أنها منطقة داخلية منطوية على نفسها ٠ فرغم أن تاهرت على رأس الطريق الموصل من منطقة التلول الى أسافل وادي شلف المؤدي الى البحر ، ورغم أنها معلقة في أعلى المنطقة الجبلية (تلول منداس) على ارتفاع ١٠١٠٠ر١ متر الا أنها تقع على السفح الجنوبي للجبل ـ جبل كرول ـ (الذي يرتفع الى ٢٠٠ر١ متر) (١٤) بمعنى أنها توجه أنظارها نحو الداخل ، وتدير ظهرها للبحر ٠ وهذا يمثل موقعا استراتيجيا ممتازا بالنسبة لجماعة يحيط بها الأعداء من كل جانب ، وترجو أن تعيش في أمان ـ في حاضرها على الأقل ـ بعد أن فشلت في الاحتفاظ بانتصاراتها في عواصم المغرب الشرقية ٠

---

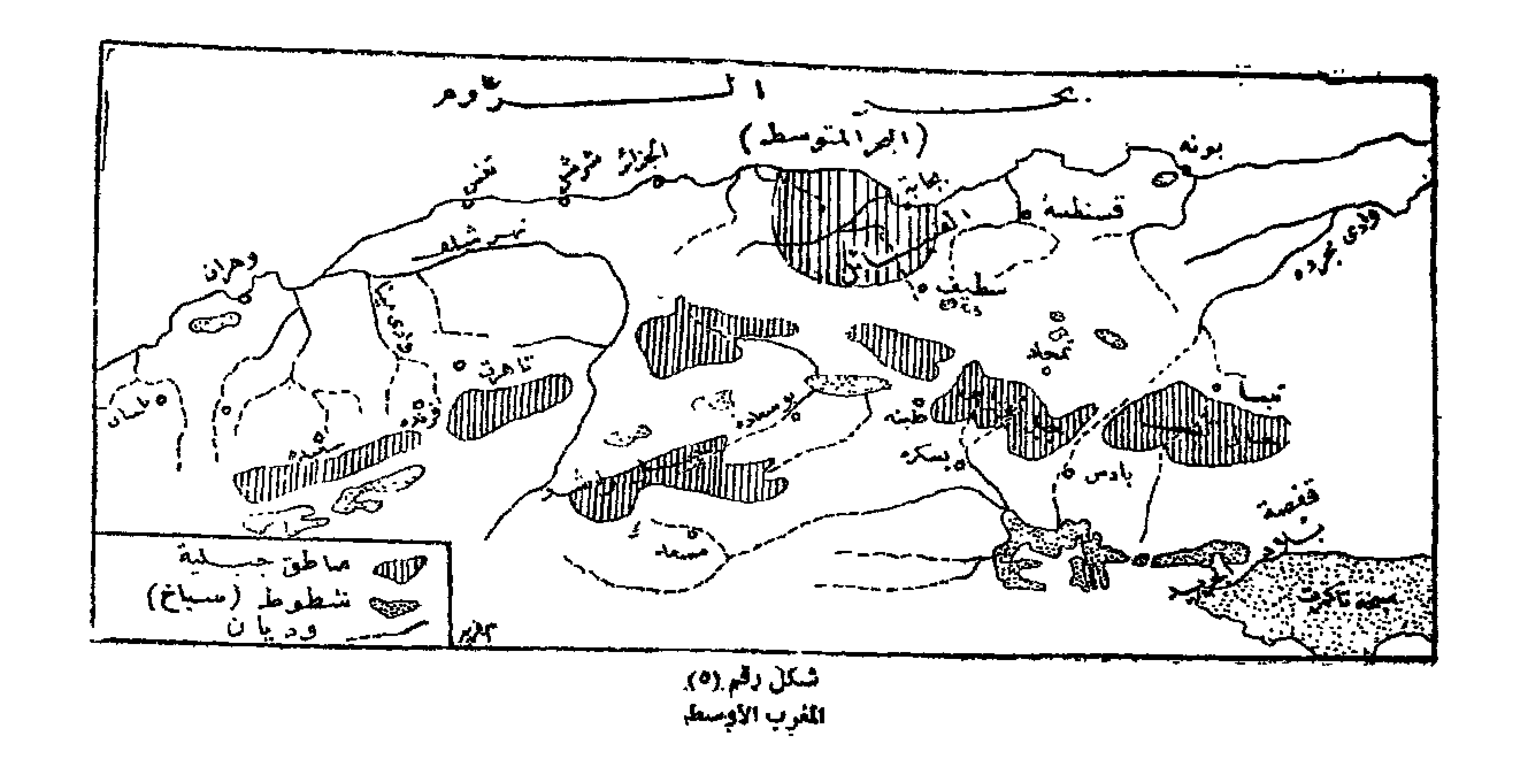
(١٠) أبو زكريا ، كتاب السير وأخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ١٣ ـ أ ، الدرجيني طبقات الاباضية ، المخطوط ، ص ١٩ ـ أ (ط٠ الجزائر ، ص ٤٠ ـ ٤١) ٠

(١١) عن خرائب تاهرت الرومانية والبيزنطية انظر :
Gautier : Le passé de l'Afr du Nord, p. 322

(١٢) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ١٩٧ ٠

(١٣) انظر البكري ، ص ٦٧ (يكتب لواته بالطاء : « لواطة ») ٠

(١٤) انظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢١ ، وانظر أيضا Gautier: op. cit., p. 328



شكل رقم (٥)
المغرب الأوسط

وبرغم وعورة المنطقة وقسوة طقسها وخاصة في فصل الشتاء حيث تغزر الغيوم والأمطار ، وتسقط الثلوج وتشتد البرودة . ويعز الدفء ، مما كان موضوعا لنكت الظرفاء وشعر الشعراء(١٥) ، فان المنطقة عرفت بثروتها الزراعية وكثرة مراعيها الغنية على وجه الخصوص ، وهي مدينة بذلك لكثرة مياهها . « تاهرت » على نهر كبير يأتيها من ناحية الغرب يسمى مينة (ميناس) ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تانس ، ومنه تشرب أرضها وبساتينها ، وبالقرب منها نهر سيرات ، وهو نهر كبير مشهور يقع في البحر عند مدينة أزواوا ، وهي مدينة قديمة رومية »(١٦) . وينوه كل الجغرافيين بكثرة زروعها وبساتينها ، ولكنهم يؤكدون شهرتها كاقليم للمراعي والانتاج الحيواني . وفي ذلك يقول ابن حوقل عن تاهرت : « وهي أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية »(١٧) . والحقيقة أن صفة الرعي هي الغالبة على بلاد المغرب الأوسط ، « فهي كثيرة الخصب والزرع ، كثيرة الغنم والماشية ، طيبة المراعي ، ومنها تجلب الأغنام الى بلاد المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وطيب لحومها »(١٨) وعلى أساس طبيعة المنطقة يفسر جوتييه (استنادا الى ابن خلدون) طبيعة الامارة الرستمية : فهي مملكة بترية أي بدوية (١٩) ، على عكس الممالك

---

(١٥) من ذلك ما يقال من أن أحد أهل تاهرت سئل كم عدد شهور الشتاء عندكم ؟ فأجاب ثلاثة عشر شهرا (ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٨) . كما يقال ان بعض التاهرتيين ذهب الى مكة لقضاء فريضة الحج فلما راى توقد الشمس بمكة نظر اليها وقال : « احرقي ما شئت فوالله انك بتاهرت لذليلة » . وفي بردها قال أبو بكر بن حماد (توفي سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ — ٩٠٩ م) :

ما أصعب البرد وريعته	واطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم اذا ما بدت	كأنها تنشر من تحت
فنحن في بحر بلا لجة	تجري بنا الريح على السمت
نفرح بالشمس اذا أشرقت	كفرحة الذمي بالسبت

(انظر البكري ، ٦٧ ، كتاب الاستبصار ، ص ١٧٨ ، الدرجيني ، طبقات الاباضية ، المخطوط ، ص ١٩ — ب (ط الجزائر ، ص ٤٢ — ٤٣) ، وعن ابن حماد انظر مبارك الميلي ، تاريخ الجزائر ، ج ٢ ص ٣١) .

(١٦) انظر كتاب الاستبصار ، ص ١٧٨ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢١٢ . ولقد كانت كثرة مياه تاهرت سببا في تغني الشعراء بها ، فقال بعضهم :

سقى الله تاهرت المنا وسويقة	بساحتها حيثا يطيب به المحل

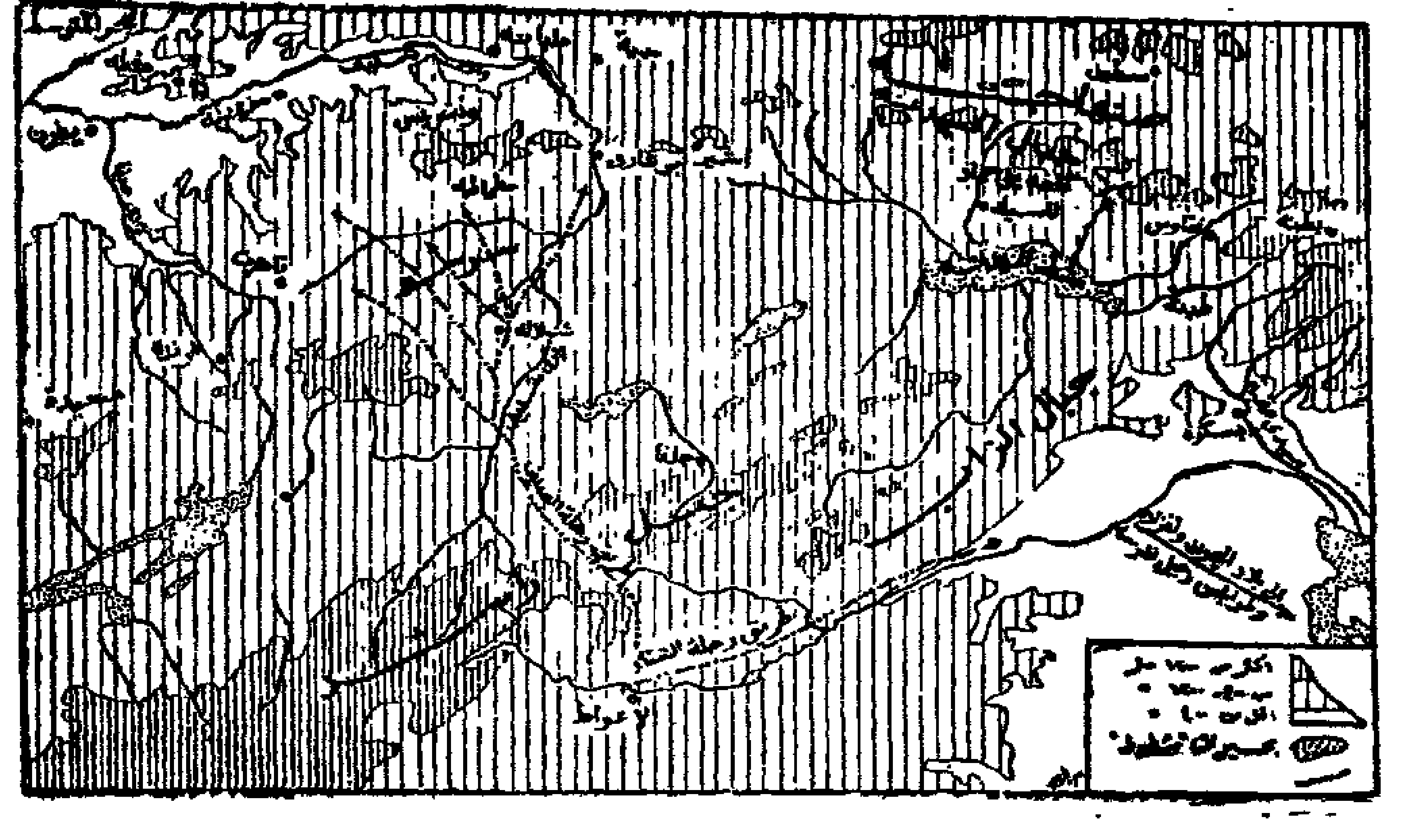
(ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٨) .

(١٧) ابن حوقل ، طبعة بيروت ، ص ٨٦ .

(١٨) كتاب الاستبصار ، ص ١٧٩ .

(١٩) Gautier, Le Passé de l'Afr du Nord ..., p. 326 - 330.

وانظر شكل ٦ ص ٢٩٤ .



شكل رقم (٦)

اقليم تاهرت : طريق رحلتى الرعاة فى الشتاء والصيف   انظر جوتييه ص ٢٣٣ ، ومبارك الميلى (الخريطة
الملحقة [illegible]

الحضرية في القيروان وفي فاس ·

قيروان جديد في المغرب الأوسط : بناء تاهرت الرستمية او تاهرت الجديدة :

نجحت الدعاية التي قام بها عبد الرحمن بن رستم واتباعه فانضمت اليه قبائل المغرب الأوسط التي استجابت للدعوة الأباضية ، كما انضم اليه كثير من الخوارج الصفرية ، بل ومن جماعة تسمى بالواصلية الـذين يعتبرهم البكري من الأباضية (٢٠) ـ رغم أن المعروف عن الواصلية أنهم من المعتزلة وهو الأمر الذي تقره الروايات الأباضية · فأبو زكريا يعرف الواصلية بأنهم قوم من البربر أكثرهم من قبائل زناته (٢١) ، والدرجيني الذي يسميهم بالواصلية يعرفهم أيضا باسم المعتزلة(٢٢) · والظاهر أن الفرقتين تحالفتا نتيجة لأخذهما بموقف الوسط بالنسبة لمرتكبي الكبائر (موقف المنزلة بين المنزلتين) ، وأنه لهذا السبب اعتبر معتزلة المغرب من الأباضية أو اعتبرت بعض جماعات الأباضية من المعتزلة ، واعترف الجميع بامامته (٢٣) ، وعلى راسهم أبو حاتم الذي خلف أبا الخطاب في طرابلس · فأبو حاتم ـ في نظر ائمة الاباضية ـ كان امام دفاع (٢٤) ولم يكن امام ظهور كأبي الخطاب ، وعلى ذلك كان « يرسل مازاد على ما يحتاج اليه مما جمع من الزكاة لعبد الرحمن بن رستم قبل أن يتولى الأمور وولاية الظهور »(٢٥) والحقيقة ان اجتماع هذه الفرق المتنافرة في دعوة واحدة يمكن أن يفهم منه أن المسالة لم تكن مسالة اصلاح ديني يسعى اليه البعض أو الآخرون ، بل مسالة سياسية هدفها مدافعة حكم ممثلي الخلافة والاستقلال عن الدولة : بمعنى أن الدين لم يكن الا ستارا لاخفاء هـــذا

---

(٢٠) انظر البكري ، ص ٧٢ ·

(٢١) كتاب السير وأخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ١٩ ـ أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٦ ـ أ (ط· الجزائر ، ص ٥٧) ·

(٢٢) طبقات الاباضية ، المخطوط ، ص ٢٦ ـ أ ، ط· الجزائر ، ص ٥٧ (الواصلية) ، ص ٣٧ ـ ب ، ط· الجزائر ، ص ٦٠ (المعتزلة) ·

(٢٣) انظر البكري (ص ٦٧) الذي يقول « كان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت ··· وكان عددهم نحو ٣٠ الفا في بيوت كبيوت العرب يحملونها » ، بمعنى أنهم بدو ظواعن · وانظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢١ · وعن الاباضية وعلاقتهم بالفرق الأخرى انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٤٤ ، ٣١٨ · وانظر مبارك بن محمد الميلي ، تاريخ الجزائر طبعة قسنطينة سنة ١٣٥٠ هـ ، ج ٢ ص ٧ ـ ٩ ، ١٢ ·

(٢٤) الدرجيني ، طبقات الاباضية ، المخطوط ، ورقة ١٧ (ط· الجزائر ، ص ٣٧) ·

(٢٥) الدرجيني ، طبقات الاباضيـــة ، المخطـوط ، ص ١٧ ـ أ (ط· الجزائر ، ص ٣٦ ـ ٣٧) ، وانظر الشماخي ، السير ، ص ١٣٨ ·

الهدف أو لاعطاء موقف الانفصال نوعا من الشرعية .

وبعد أن بويع عبد الرحمن بن رستم بالامامة في سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٦ — ٧٧٧ م ، وهو التاريخ الذي رجحته كتب الأباضية ابتداء من أبي زكريا ومن نقل عنه (٢٦) ، كان من الطبيعي أن يتخذ مقرا له يكون مركزا للدولة الناشئة. ووقع الاختيار على منطقة تاهرت للأسباب التي بيناها . من « استراتيجية » المكان الجبلي ، وتوفر العصبية البترية ، وغنى الموقع بالماء والمراعي . هذا ولا بأس من أن يكون ابن رستم قد إرتاد المكان من قبل ، وأنه استحسنه بعد أن أقام فيه عقب فراره من القيروان ، كما يقول الكتاب .

ويضفي كتاب أهل المذهب من الأباضية على فرار عبد الرحمن بن رستم الى جبل تاهرت ، وعلى بناء المدينة ، لونا قصصيا مثيرا كذلك الذي نسبه من سبقهم من الكتاب الذين أرخوا لبناء الاسكندرية والفسطاط والقيروان وكذلك القاهرة الى هذه المدن عند بنائها . فابن رستم قبل أن يفر من القيروان وقع بين يدى عبد الرحمن بن حبيب (الفهرى) ولكن أحد القيروانيين شفع له فأطلقه ابن حبيب (٢٧) . وخرج الامام ومعه ابنه عبد الوهاب وغلام له ، وفي الطريق مات فرسه في قسطيلية من بلاد الجريد فمشى على رجليه حتى ضعف عن المشى ، فكان ابنه وغلامه يحملانه (٢٨) . وبعد جهد جهيد وصل الى جبل سوفجج(٢٩) حيث اعتصم قبل أن يلحق شيوخ أهل الدعوة من طرابلس ،

---

(٢٦) انظر السير لأبي زكريا ، المخطوط ، ص ١٣ — ا الذى يسجل هنا أن ابن رستم بويع سنة ١٦٠ هـ/٧٧٦ — ٧٧٧ م ، ثم يعود ليقول وقيل انه بويع في سنة ١٦٢ هـ/ ٧٧٨ — ٧٧٩ م . وانظر الدرجيني ، طبقات الاباضية ، المخطوط ، ص ١٩ — ا والمطبوع ، ص ٤٠ — ٤١ ، الشماخي ، السير ص ١٣٩ . ولقد أخذنا بالرواية الأولى نظرا لأن اختطاط تاهرت تم في سنة ١٦١ هـ ، كما يحدد ذلك ابن عذارى (انظر فيما سبق ، ص ٢٩١) .

(٢٧) الدرجيني ، طبقات الاباضية ، المخطوط ، ص ١٦ — ب (ط. الجزائر ، ص ٣٥) : الذى يقول ان ابن رستم كان يكره عبد الرحمن بن حبيب ، وانه وصفه ذات مرة « بأنه شيطان عليه بشر ابن آدم » فحقدها عليه ابن حبيب . وانظر الشماخي ، ص ١٣٢ . وعن فرار ابن رستم من القيروان انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٤٢ وكذلك ص ٣٤٥ . وعن مشاركة الفهرى في ثورة الخوارج انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٥٢ — ٣٥٥ .

(٢٨) الدرجيني ، الطبقات ، المخطوط ، ص ١٦ — ب ، ١٧ — ا وتقول الرواية انهم دفنوا الفرس حتى لا يقتصروا أثره فسمى الموضع بقبر الفرس (وانظر ط. الجزائر ، ص ٣٥ — ٣٦).

(٢٩) الشماخي ، ص ١٣٣ . ولا نعرف ان كان المقصود بهذا الجبل هو جبل تاهرت الذى يسميه صاحب كتاب الاستبصار (ص ١٨٧) « قرقل » ، وابن خلدون (ج ٦ ص ١٢١) « كزول » (جزول) أم غيره . وانظر الدرجيني ، الطبقات ، ص ١٧ — ا (ط. الجزائر ، ص ٣٦) ، الذى يسمى الجبل المنيع « وادى ايج » .

الذين بلغوا ستين شيخا وأكثر ، مع أعوانهم من غير شك (٣٠) • وحسب هذه الرواية تبع ابن الأشعث الامام الى الجبل وضرب عليه الحصار كما احتاط للأمر بخندق حول عسكره خشية هجوم مفاجىء يقوم به ابن رستم ، وفي خلال ذلك « وحم ا لجبل بأهله ، ومات من أصحاب عبد الرحمن بشر كثير ••• فأيس منه ابن الأشعث وعاد الى القيروان » كما يقول الشماخي (٣١) ، ولو أنه من المقبول ايضا ان يكون الجدري الذي أصاب الجبل قد وقع أيضا في عسكر ابن الأشعث والحق به خسائر كبيرة مما جعل ابن الأشعث يتشاور مع قواده ويقرر الرحيل ، كما يقول الدرجيني (٣٢) •

اما عن بناء المدينة فله قصة عجيبة أشبه بقصة عقبة وبناء القيروان • فبعد أن اتفق رؤوساء العابدين وكبار الزاهدين وجماعة المؤمنين على بناء مدينة ، أرسلوا الرواد من أهل المعرفة في اختيار الجهات ليختاروا المكان الذي يصلح لبناء مدينة تكون حرزا للمسلمين وحصنا لهم ، فطافوا اطراف ا لبـــلاد واستحسـ روا موضع تيهرت • وكانت تيهرت غياضا (٣٣) وأشجارا ملتفة يسكنها أنواع السباع والوحوش • وهكذا ، وكما فعل عقبة بن نافع أمـــام شجراء القيروان ، فعل عباد الأباضية ، فارسلوا مناديا ينادي باعلا صوته سباعها ووحوشها وهوامها ان اخرجوا وارتحلوا ، فانا مريدون عمارتها ونازلين بها ، واجلوها ثلاثة أيام • ويذكر ابو زكريا الذي ينقله الدرجيني والشماخي « وذكروا انهم رأوا بها وحوشا تحمل اولادها في افواهها يعني سباعا — والله أعلم »(٣٤) • ثم انهم عمدوا الى تنظيف المكان مما كان فيه من الأعشاب والشجيرات فأطلقوا فيها النيران ، وهو الأمر المقبول الذي رأينا أنه ربما كان سببا معقولا لهروب السباع والهوام ، مما اعتبره البعض كرامة لعقبة بن نافع بالنسبة لبناء القيروان ، وبذلك أصبح لتاهرت — في نظـــر

---

(٣٠) الدرجيني ، الطبقات ، المخطوط ، ص ١٧ — أ (المطبوع ، ص ٣٦) •

(٣١) الشماخي ، ص ١٣٣ •

(٣٢) طبقات الاباضية ، المخطوط ، ص ١٧ — أ (المطبوع ، ص ٣٦) •

(٣٣) البكري ، ص ٦٨ (غيضة اشبه) ، ابن عذاري ، ج ١ ص ١٩٦ (غيضة) • وانظر الدرجيني ، الطبقات ، ص ١٩ — أ ، المطبوع ، ص ٤١ (رياض لا عمارة بهـــا الا السباع والهوام) ، ص ٣٠ — أ ، المطبوع ، ص ٤٤ (غيضة اشبه) ، وانظر الشماخي ، السير ، ص ١٣٩ (غياظيل) •

(٣٤) انظر ابو زكريا ، كتاب السير واخبار الائمة ، المخطوط ، ص ١٣ — ب ، الدرجيني الطبقات ، المخطوط ، ص ١٩ — أ (المطبوع ، ص ٤١) ، الشماخي ، السير ، ص ١٣٩ •

الاباضية كرامبا ، مثلها في ذلك مثل القيروان بالنسبة لأهل السنة (٣٥) ٠

هذا عن القصة أو الأسطورة الشعبية التي ظهرت في وقت متأخر والتي تحمل في ثناياها بعض الحقائق من غير شك ٠ أما أقدم نص تاريخي عن بناء تاهرت فنجده في البكري الذي يقول — نقلا عن محمد بن يوسف — انه بعد اتفاق الجماعة الاباضية على امامة عبد الرحمن بن رستم وبنيان مدينة تجمعهم ، نزلوا موضع تاهرت وهو غيضة (٣٦) على خمسة أميال غـــربي المدينة (٣٧) ٠ واختار ابن رستم موضعا مربعا لاشعراء فيه ، ولهذا شبهه البربر بالدف لتربيعه وسموه تاقدمت (٣٨) ٠ ورغم أن الموضع كان لقوم مستضعفين من مراسة وصنهاجة ، فان عبد الرحمن بن رستم فاوضهم في بيعه ، ولما رفضوا اتفق معهم على أن يبيحوا للجماعة البناء على أن يكون لهم الحق في جباية خارج الأسواق (٣٩) ٠

وكما هي العادة في بناء المدن الاسلامية بدء بتخطيط المسجد الجامع ، وقطع الخشب اللازم للبناء من شجر الشعراء ٠ أما عن تخطيط الجامع فيذكر البكري أنه ظل على حاله الى أيامه أو الى أيام محمد بن يوسف الذي ينقل هو عنه (٤٠) مكونا من أربعة بلاطات (٤١) ٠

---

(٣٥) انظر أبو زكريا ، السير وأخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ١٣ — ب ، وقارن الدرجيني ، طبقات الاباضية ، المخطوط ، ص ١٩ — أ حيث تضيف الرواية الى ذلك أن أصول الأشجار القوية التي لم تأت عليها النيران عولجت بأن وضع الخث والعسل في أصولها فأتت الخنازير ليلا وحفرت أصولها حتى قلعتها مما يعني أن المنطقـــة كانت معروفة بخنازيرها الوحشية وقارن المطبوع ، ص ٤١ (حيث كلمة حبس بدلا من خث) ٠ أما عن قصة بنـــاء القيروان المماثلة ، انظر فيما سبق ج ١ ص ١٨٥ — ١٨٦ ٠

(٣٦) البكري ، ص ٦٨ ، وانظر الدرجيني ، الطبقـــــات ، المخطوط ، ص ٢٠ — أ (المطبوع ، ص ٤٣) حيث ينقل نص البكري ٠

(٣٧) البكري ، ص ٦٧ (تاهرت القديمة شرقي الحديثة على خمســة أميال منها) ، وانظر الدرجيني ، الطبقات ، المخطوط ، ص ٢٠ — أ (المطبوع ، ص ٤٣) ٠

(٣٨) البكري ، ص ٦٨ ، قارن الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ — أ ، حيث كلمة الدف بالبربرية = « باطراست » ، وقارن المطبوع ، ص ٤٤ ، والشماخي (ص ١٣٩) الذي ينقل هنا ما سبق أن قيل من انهم أحرقوا الأشجار في الموضع ٠

(٣٩) انظر البكري ، ص ٦٨ الذي ينقله الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ — ب (المطبوع ، ص ٤٤) ، والشماخي ص ١٤٥ ٠

(٤٠) البكري يكتب حوالي سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٨ م ٠ أما عن محمد بن يوسف فهو متوفى سنة ٣٦٣ هـ/٩٧٤ م ٠ انظر مقدمة De Slane لكتاب البكري ص ١٦ ٠

(٤١) البكري ، ص ٦٨ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ — ب (المطبوع ، ص ٤٤) ، ابن عذاري ، ج ١ ص ١٩٦ ٠

ورغم ما يقوله البكرى من أنهم اختطوا وبنوا - حول المسجد كما جرت العادة - ورغم ما يقوله أبو زكريا ومن نقل عنه من كتاب الاباضية مثل الدرجيني والشماخي من أنهم اختطوا دورا وقصورا وبيوتا ، فالمعروف ان تاهرت الجديدة - مثلها مثل قيروان عقبة - لم تكن تعني في أول أمرها أكثر من معسكر للجماعة الاباضية • ولقد ظلت صفة المعسكر هذه لاصقة بالمدينة مدة طويلة ، وذلك ما يسجله البكرى ، عندما يقول : « وسمي الموضع معسكر عبد الرحمن بن رستم الى اليوم »(٤٢) ، وهي التسمية التي ينقلها الدرجيني ثم يضيف بعدها ما ينقله من أبي زكريا من أن تاهرت سميت بـ « المعسكر المبارك » (٤٣) •

امامة عبد الرحمن بن رستم ، وتطور الأفكار الخارجية :

والظاهر أنه بعد أن تم بناء تاهرت الجديدة لتكون « حرزا وحصنا للاسلام » أخذت وفود القبائل تأتي من الأقاليم المجاورة لبيعة الامام • فهذا ما ينص عليه كتاب الأباضية الأوائل عندما يجعلون مبايعة ابن رستم بعد بناء تاهرت والرواية الأباضية تقول : انهم نظروا فيمن يصلح للولاية من رؤساء القبائل فوجدوا في كل قبيلة رأسا أو رأسين يمكن أن يكونوا من بين المرشحين ، وأخيرا اتفق رأيهم على عبد الرحمن للاسباب التي لخصها الشماخي في قوله : لفضله ، وكونه من حملة العلم ، وكونه عامل أبي الخطاب على افريقية ، ولأنه لا قبيلة له تمنعه اذا تغير عن طريق العدل (٤٤) • والواضح

---

(٤٢) البكرى ، ص ٦٨ • أما ما يذكره البكرى عن أسوار المدينة وأبوابها التي يذكر منها باب الصفا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن وقصبتها المسماة بالمعصومة ، فذلك عن وصف تاهرت بعد أن تمدنت وعظمت وأمها الناس من كل مكان ، كما وصفها ابن الصغير (أخبار الأئمة ص ١١ ، ص ١٣) في أواخر القرن الثالث الهجرى/٩ م ، وهو مصدر البكرى ومن نقل عنه مثل الدرجيني ، المخطوط ، ص ١٩ - ب (المطبوع ، ص ٤٢) •

(٤٣) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ - أ ، الدرجيني ، المخطوط ص ٢٠ - ب ، ٢١ - أ (المطبوع ، ص ٤٤) •

(٤٤) الشماخي ، ص ١٣٩-١٤٠ ، وانظر ابن الصغير ، ص ٩ ، الذي يجعل سبب طلبهم اختيار الامام خشيتهم من وجود كثير من رؤساء القبائل الذين يمكن ان يطمعوا في الولاية فيؤدي ذلك الى الفتنة ، وانظر الدرجيني ، طبقات الاباضية ، المخطوط ص ١٩ - ب -

أن هذه الرواية لا يقصد بها تحديد وقت اختيار عبد الرحمن بن رستم للامامة بعد بناء المدينة الجديدة فذلك مالم يقل به أحد من قبل اذ كانت له الرئاسة في اباضية القيروان منذ أيام أبي الخطاب ، بل حتى قيل أنه عرضت عليه الامامة قبل تولية ابن الخطاب فاعرض عنها (٤٥) ، ثم أصبحت املته على الجميع بعد وفاة هذا الأخير ، وذلك مايقوله فقهاء الأباضية كما أشرنا (٤٦) • وبناء على ذلك نعتقد أن هذه الرواية تعنى مبايعة رؤساء القبائل الى جانب أنها تبين ظروف انتخاب عبد الرحمن التى أراد فقهاء الاباضية أن يجعلوا منها مبادىء أساسية لانتخاب الامام • فلقد توفرت في الامام الأول شروط أربعة ذوات طبيعة مختلفة : أولها أخلاقي ، وثانيها علمي ، وكل من ثالثها ورابعها سياسي • أما عن البرنامج الذى تمت على أساسه البيعة ، فكان العمل بكتاب الله وسنة رسوله وآثار الراشدين ، وعلى هذا الشرط قبل عبد الرحمن أماناتهم (٤٧) ، واشترط عليهم هو الآخر « الطاعة في الحق »(٤٨) •

ولا بأس من أن يكون ذلك الترتيب الخاص باختيار الامام صحيحا • فالمبدآن الأولان من المبادىء المطلوب توفرها في اختيار الامام أو الخليفة كما اتفق على ذلك الفقهاء : « فالفضل »في هذا النص أو حميد الأوصاف عند الدرجيني إنما هو ما يوازي « العدالة » التى تعني الكمال الاخلاقي ، من حيث سلامة الاعتقاد وسلامة الجوارح ونزاهة التصرفات الشخصية (٤٩) وأما كونه من حملة العلم ، فالعلم شرط أساسي ليس بالنسبة للمرشح لتولي الامامة أو الخلافة فحسب بل هو ضروري أيضا بالنسبة لطبقة أهل الاختيار ، أى أصحاب الحق فى انتخاب الامام أو الخليفة • هذا ولو أن العلم بالنسبة للطبقة الثانية هو العلم الذي يوصل الى اختيار الأصلح ، أما بالنسبة للامام فهو

= (المطبوع ، ص ٤٣) الذي يضيف الى ما سبق : لدينه ، وعلمه ، وسابقته ، ومكانته ، وحميد أوصافه •

(٤٥) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٢ ـ ب ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٩ ـ ب (المطبوع ، ص ٤٢) •

(٤٦) أنظر فيما سبق ، ص ٢٩٥ وهامش ٢٤ •

(٤٧) أبو زكريا ، كتاب السير وأخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ٢٣ ـ ب ، وقارن الدرجيني ، طبقات الاباضية ، المخطوط ص ١٩ ـ ب (المطبوع ، ص ٤٢) •

(٤٨) ابن الصغير أخبار الأئمة ، ص ٩ •

(٤٩) أنظر الماوردي ، الأحكام السلطانية ، طبعة القاهرة ١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م ، فصل عقد الامامة ، ص ٤ ، ابن خلدون ، المقدمة ، الفصل ٢٦ في اختلاف الأمة في حكم منصب الخلافة والامامة ، ص ١٩٣ •

العلم الذي يوصل الى مصلحة الجماعة في الدنيا وسعادتها في الآخرة (٥٠) . أما الشرط الثالث وهو « كونه عامل أبي الخطاب على افريقية » ، أو أنه كان قاضيا له وناظرا (٥١) ، فيمثل فكرة التعيين أو الوصية التي تحولت الى مبدأ الوراثة ، وهذا يعني تحول الجماعة الأباضية عن مبدأ الاختيار . فعند أهل السنة قبل مبدأ التعيين أو الوصية على أنه حقيقة تاريخية : بعد أن عهد النبي لأبي بكر بامامة الصلاة ، وبعد أن أوصى أبو بكر بخلافة عمر ، وبعد أن حدد عمر أهل الخلافة في ستة نفر ثم أتى معاوية وجعل العهد لابنه يزيد ، وبعد الأمويين طبق العباسيون أيضا مبدأ الوراثة . حدث كل ذلك مع الاحتفاظ بالشكليات من حيث تطبيق مبدأ الاختيار الممثل في البيعة . ولقد انتهى الأمر باشتراط صفة القرشية في المرشح للخلافة (٥٢) .

والمعروف أن الخوارج لم يوافقوا على مبدأ التعيين أو الوراثة ، وأنهم طالبوا بتطبيق مبدأ الشورى أي الانتخاب ، وألا تقتصر طبقة المرشحين على طائفة من الطوائف ، بل يكون الترشيح مفتوحا أمام الجميع دون أية تفرقة عنصرية حتى أجازوا امامة العبد الأسود طالما يتمتع بالأهلية (٥٣) . وهذا يعني أن الأصل السياسي عند الخوارج هو تطبيق مبدأ الجمهورية التي تكون السلطة العليا فيها للشعب جميعا دون تمييز . أما المبدأ الرابع ، وهو « أنه لا قبيلة له تمنعه اذا تغير عن طريق العدل ، فهو شرط سياسي يتنافى مع نظرية العصبية التي تقوم عليها الدولة ، كما لاحظ ابن خلدون في انهيار وقيام الدول الاسلامية (٥٤) . ومبدأ عدم استناد الامام الى قبيلة أو عصبية يهدف الى دفع ما يمكن أن تتعرض له الجماعة الأباضية من الاستبداد ، كما يطمح الى تحقيق الامامة ، أو الحكومة المثالية ، التي يكون العدل عصبيتها . وهذا الأمر يمثل مرحلة من مراحل تطور الأفكار الخارجية ، اذ سيقول بعض مفكري الخوارج

---

(٥٠) الماوردي ، نفس الفصل ، ابن خلدون ، المقدمة ، الفصل ٢٥ (في معنى الخلافة والامامة) .

(٥١) ابن الصغير ، ص ٦ .

(٥٢) الماوردي ، نفس الفصل ، ابن خلدون ، الفصل ٢٦ (اختلاف الأمة في حكم منصب الامامة والخلافة) .

(٥٣) انظر ابن خلدون ، فصل اختلاف الأمة في حكم منصب الخلافة وشروطه ، ص ١٩٤ ، الشهرستاني ، الملل والنحل ، ص ٨٧ .

(٥٤) ابن خلدون ، المقدمة ، الفصل ١٨ (في أن الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك) ص ١٣٦ .

انه اذا تحقق العدل بين أفراد الجماعة فلن تكون هناك حاجة الى الامامة اى الى الحكومة (٥٥) .

ومن الواضح أن اصحاب هذه الافكار كانوا نظريين أكثر مما يجب ، فعندما اقام الأباضية أمامتهم في تاهرت لم يستطيعوا تطبيق نظرية الانتخاب الجمهورية في اختيار الامام ، فأصبحت امامتهم وراثية في بني رستم - مثلهم في ذلك مثل العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس . وهذا يعني أنهم لم يتمكنوا من التخلص من تاثير مبدأ الوراثة الذي أصبح تاريخيا تقليديا عند أهل السنة أو أنهم لم يستطيعوا التخلص من أفكارهم الأولى عندما كانوا شيعة يطالبون بأن تكون الامامة وراثية في آل البيت .

حقيقة ان الجماعة الإباضية في تاهرت بدأت في الانقسام على نفسها منذ أن خلف عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم والده في الامامة سنة١٦٨هـ (٧٨٤ - ٧٨٥ م) ، عندما انكر البعض ان يرث عبد الوهاب والده في الرئاسة، ولهذا السبب أطلق عليهم اسم النكار أو النكارية ، بينما تمسكت الغالبية بصحة امامة عبد الوهاب على أساس اختيار الأفضل (٥٦) ، وربما كان ذلك صحيحا . ولكنا سنصبح امام أسرة من الأئمة الأفاضل تورث الحكم لأبنائها الأفاضل - دون غيرهم من الناس - وربما كان ذلك شبيها بما عرف عند الشيعة رغم أنه لا ينبني على مبدأ الوصيه .

اعمال عبد الرحمن بن رستم :

والحقيقة ان عبد الرحمن بن رستم كان عند حسن ظن الجماعة فيه ، فقد أحسن السيرة وجلس في مسجده للأرملة والضعيف فلم ينقم عليه أحد في حكومة . ولم يكن في أيامه اختلاف (٥٧) . وفي هذا المقام يؤكد كتاب

---

(٥٥) الشهرستاني ، الملل والنحل ، طبعة ليبزج ص ٦٧ ، الماوردي ، الفصل الأول في عقد الامامة ، ابن خلدون ، المقدمة ، الفصل ٢٦ (ويشير الماوردي وابن خلدون هنا الى اتفاق بعض فرق الخوارج في هذا الراى مع الأصم شيخ المعتزلة) ، وانظر احمد بن ابي ضياف ، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان تونس ١٩٦٣ ، ج ١ ص ٦ .

(٥٦) عن صفات عبد الوهاب بن رستم انظر فيما بعد ص ٣١٥ .

(٥٧) ابن الصغير ، السير واخبار الائمة ، ص ١٠ ، وانظر أبو زكريا ، السير واخبار الائمة ، المخطوط ، ص ١٣ ب ، الدرجيني ، الطبقات المخطوط ص ١٩ - ب (المطبوع ص ٤٢) .

الإباضية فضل عبد الرحمن وعدالته التي كانت سببا في الاعتراف به ليس كامام لجماعة الاباضية في تاهرت والمغرب فقط بل وكذلك لاباضية المشرق ، وذلك في الوقت الذي كان أبو عبيدة حيا في البصرة ، وكان لعمان أمامهـــا (واليها) الاباضي ، الذي يسمى عبد الوارث (٥٨) ٠

فعندما وصلت أخبار عدل ابن رستم الى مدينة البصرة — مركز المذهب في العراق — قال أهل الدعوة : « ظهر في المغرب أمام ملأه عدلا وسوف يملك المشرق (٥٩) » ٠ وجمعوا ثلاثة أحمال من المال سيروها الى المغرب مع بعض الرسل ، وطلبوا منهم أن ينظروا في أمره فان كان حاله على مابلغهم أعطوه المال (٦٠) ٠ وعندما وصل الرسل الى تاهرت ، نزلوا خارج المدينة ، في بعض المصليات هناك ، حيث تركوا أحمال المال ثم دخلوا المدينة من بابها المعروف بباب الصفا ، كما يقول ابن الصغير ، وهم يسألون عن دار الامارة (٦١) ٠

وعندما وصلوا الى الدار وجدوا صاحبها في أعلى بيت يصلح بيده السقف وعبد' له يعجن الطين في أسفل الدار ويناوله اياه ٠ وعندما سألوا الغلام ان يستأذن لهم على سيده ، طلب عبد الرحمن الى غلامه أن يمهلهم بعض الوقت حتى ينزل ويغسل جسده من الطين (٦٢) ٠

وعندما دخل البصريون على الامام وجدوه جالسا على حصير فوقه جلد ، ولا شيء في بيته سوى وسادته التي ينـــام عليهـــا وسيفه ورمحه وفرسه المربوط خارج البيت(٦٣) ٠ وعندما أمر الغلام بان يقـــدم لهـــم الطعام أتت المائدة وعليها قرص خبز وسمن وشيء من ملح ٠ فهشمت القرص ، ولثت

---

(٥٨) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ — أ ، وانظر الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ — ب (حيث النص : وابو عبيدة حي وتولى في امامة عبد الرحمن ٠ وقارن المطبوع ، ص ٤٥ — حيث النص : وأبو عبيدة حي اذ ذاك وفي امامة عبد الرحمن) ٠

(٥٩) ابن الصغير ، ص ١٠ ٠

(٦٠) ابن الصغير ، ص ١٠ ، أبو زكريا المخطوط ، ص ١٤ — أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ — ب (المطبوع ، ص ٤٥) ٠

(٦١) ابن الصغير ، ص ١١ (يقول عن المصلى انه الذي كان به قبر مسالة « مصالة »)٠

(٦٢) ابن الصغير ، ص ١١ ، أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ — أ ، الدرجيني المخطوط ، ص ٢٠ — ب (المطبوع ، ص ٤٥) ٠

(٦٣) ابن الصغير ، ص ١١ ٠

بالسمن وأكل الجميع (٦٤) •

وهكذا لم يختلف الامام الشعبي في حقيقته عن تلك الصورة التي صورتها أخباره لهم في المشرق ، فاجتمع رأيهم على انهم رضوا عنه ، « فقال بعضهم لبعض يكفينا من السؤال عنه ما رأينا منه : من اصلاحه لداره بنفسه ومطعمه وملبسه وحلية بيته فما نرى الا أن ندفع اليه المال ولا نشاور أحدا فيه (٦٥) ، ونادى عبد الرحمن الناس الى الصلاة الجامعة ، وشاور أصحاب الرأى وزعماء القبائل فيما يفعل بالمال فاشاروا عليه أن يفرقه في وجوهه المشروعة ، على أن يكون الثلث لشراء الكراع ، والثلث لشراء السلاح ، والثلث لباقي الفقراء وذوي الحاجات (٦٦) ، وتم ذلك بمحضر الرسل (٦٧) • ولقد ترتب على ذلك أن قويت جماعة الاباضية في تاهرت وانتعش فقراؤها وحسنت أحوالهم •

وبذلك تحقق الأمن لتاهرت وأصبح يخالها من كان يحيط بها من القبائل • وعندئذ أخذ التاهرتيون يشرعون في العمارة والبناء ، وأحياء الأرض الموات وغرس البساتين ، بفضل أعمال الرى ، من : شق القنوات واجراء الانهار واتخاذ الارحاء عليها لطحن الغلال •

وهكذا فعندما قرر اباضية المشرق أن يساندوا إمام أهل الدعوة الذي تحقق ظهوره في المغرب ، على أساس أنه الخليفة الحقيقي للائمة الأوائل ، مثل : أبي بلال مرداس وأبي حمزة الشارى ، كما تقول رواية ابن الصغير ، فبعثوا اليه من جديد بعشرة أحمال من المال ، رفض عبد الرحمن بن رستم قبول المـال وطلب رده الى أهله ، رغم الحاح الرسل وتململ بعض وجـوه أصحابه • ولقد فعل ذلك الامام عندما سأل عن أحوال اخوانه بالمشرق وعرف

---

(٦٤) ابن الصغير ، ص ١١ ، وقارن الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ - ب (المطبوع ، ص ٤٥) •

(٦٥) ابن الصغير ، ص ١١ ، وقارن ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ - أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ - ب (المطبوع ، ص ٤٥) •

(٦٦) ابن الصغير ، ص ١٢ ، وقارن ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ - أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ - ب (المطبوع ، ص ٤٥ - حيث النص « ولي الاسلام » بدلا من « ولي السلاح ») •

(٦٧) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ - أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ - ب (المطبوع ، ص ٤٥) •

أنهم « مستترون غير ظاهرين ، وأنهم مستضعفون غير قاهرين ، وأن جماعتهم مثل ما جماعة الناس من الغناء والفقر» (٦٨) .

وهذا النص الأخير يبين أن عبد الرحمن بن رستم لم يكن ليكتفي من الناحية النظرية على الأقل ـ بما تحقق من استقلال « أهل المغرب» في تاهرت وأعمالها ، بل كان يرمى الى تحرير الجماعة الاباضية في المشرق من الحكم العباسى ، وهذا لا يمنع فكرة طموح الجماعة الاباضية في نشر مذهبها في كل دولة الخلافة . وذلك ما يشير اليه كتاب الاباضية عندما يقولون بأن [illegible] : « فتعجب أهل المشرق من زهده في الدنيا ورأوا أن امامته فرض عليهم ، واعترف كل أباضي بامامته ، وواصلوه بكتبهم ووصاياهم(٦٩) ، طوال مدة امامته التى استمرت ثماني سنوات ١٦٠ ـ ١٦٨ هـ/ ٧٧٦ ـ ٧٨٤م (٧٠) .

تنظيم دولة (الامامة) تاهرت على عهد عبد الرحمن بن رستم :

وهكذا نجحت الجماعة الاباضية في المغرب الأوسط في اقامة دولة مستقلة لها ، وأصبحت تاهرت العاصمة لها حكومتها المستقلة عن دول المغرب المعاصرة ، وعن دولة الخلافة في المشرق . فلقد حمل عبدالرحمن بن رستم لقب الامام أي رئيس الجماعة جريا على تقاليد الخوارج ، وهو اللقب الخلافي ذو الصبغة الدينية بصفة ان الامام هو الذى يؤم جماعة المؤمنين في الصلاة مما ترتب عليه أن ابن رستم حمل أيضا لقب أمير المؤمنين ، كما نرى ذلك عند كتاب الاباضية (٧١) . ورغم أن لقب أمير المؤمنين كان اللقب الخلافي المميز ـ

---

(٦٨) ابن الصغير ، ص ١٣ ـ ١٤ . وقارن أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ ـ أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٠ ـ ب ، ٢١ ـ أ (المطبوع ، ص ٤٥) ، الشماخي ، ص ١٤٠ (لأن أهل بلاده يتمتعون بالعدل ، وأصحاب المشرق في حاجة الى أن يعدلوا به عن أنفسهم الظلم) .

(٦٩) ابن الصغير ، ص ١٥ ، أبو زكريا ، المخطوط ص ١٤ ـ أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢١ ـ أ (المطبوع ، ص ٤٥) .

(٧٠) المعروف أن عبد الرحمن بن رستم توفى سنة ١٦٨ هـ . وعلى أساس أنه بويع بالامامة سنة ١٦٠ هـ ، كما سبق ص ٢٩١ (انظر ، سكراى ، ترجمة ابن الصغير (بالفرنسية) ص ٦) ، وهو التاريخ الذى رجحناه على سنة ١٦٢ هـ ، تكون امامته ثماني سنوات .

(٧١) انظر الدرجيني ، المخطوط ، ص ١٧ ـ ب : حيث يقول أن والى طرابلس عندما خرج الى جماعة أبى حاتم وطلب منهم الطاعة لأمير المؤمنين واتقوه وهم يقصدون امامهم (والمطبوع ، ص ٣٧) .

على اعتبار أن الامام هو أمير المؤمنين فان ابن رستم لم يحمل لقب الخليفة رغم اعتراف أهل الدعوة بامامته في المشرق ورغم طموحه في أن يظهروا هناك أيضا ، كما ظهروا في المغرب ٠ واذا كان الرستميون قد حملوا لقب « الخليفة » ، فلا بأس أن يكون ذلك قد حدث بعد أن استفحلت الدولة على عهد عبد الوهاب ابن عبد الرحمن (٧٢) ٠

ورغم أن عبد الرحمن بن رستم قام بمهمة الامامة حسبما قضت البيعة ، من : سلوك سبيل العدل من جهته والتزام الجماعة بطاعته في الحق من جانبهم ، ورغم الاجماع على أنه : لم يبدل في سيرته ولم يغير وأن الجماعة لم تعترض عليه في أمر ولم تخالفه في حكومة ، فلقد مارس ابن رستم سلطاته ممارسة ديموقراطية ، كما نقول الآن ، أي حسب أصول الشورى المتعارف عليها عند جماعة المسلمين الأوائل ، على عهد الرسول والراشدين وآثار الصالحين ؛ حقيقة انه كان يمارس وظيفة امام الصلاة والقاضي بين الناس في مسجد تاهرت ، كما كان مستعدا لقيادة المجاهدين من أهل الدعوة في كل وقت اذ كان سيفه ورمحه في متناول يديه بينما كان فرسه مربوطة الى عضادة بابه ، فان ذلك لا يعني أنه كان يحكم الجماعة حكما استبداديا ، وان كان صالحا ٠ فقد كان يجتمع بالناس في مسجد المدينة عقب كل صلاة ، كما كان يشاور وجوه أهل الدعوة عقب انصراف عامة الناس في كل مناسبة ٠ وهذا ما تنص عليه الروايات الخاصة باستقبال رسل أهل البصرة عندما ساروا اليه بأحمال المال ، في المرتين جميعا ، وان كانت نفس الروايات تشير الى أن اعيان الجماعة — من مستشارية — وان كانوا قد قدموا له المشورة في المرة الأولى ، فانهم تركوا له اتخاذ القرار النهائي في المرة الثانية عندما رفض أخذ أي شيء من المال ، وأمر برده الى أهله ٠ وهكذا ظهر زهد الامام — الذي لم تتبدل أحواله رغم تغير أحوال أهل بلده الى ما هو أحسن — وعدالته ، وضرب لأهل بلده ولاخوانه من أهل البصرة المثل في المحافظة على سنن السلف الصالح ، وهي التي كانت تقضي بعدم خروج صدقة أهل بلد من البلدان الى أهل بلد غيره طالما كان فيهم المستحقون لها من الضعفاء والمساكين (٧٣) ٠

---

(٧٢) هذا ما قد يفهم من رواية ابن خلدون (ج ٦ ص ١٢١) الذي يقول عن عبد الوهاب « انه ولي بعد أن هلك والده عبد الرحمن وانه ولي ابنه ميمونا ، وكان رأس الاباضية والصفرية والواصلية ، وانصرف الى تلوسة (مقرسة) والصفرية والواصلية ، وكان يسلم عليه بالخلافة » ٠ وانظر فيما بعد ، ص ٣١٤ وه ٩٢ وه ٩٣ ٠

(٧٣) انظر الماوردي ، الأحكام ، الباب ١١ في ولاية الصدقات ط٠ مصر ١٩٠٩ م ص ١٠٢ — « ولا يجوز أن تنقل زكاة بلد الى غيره الا عند عدم أهل السهمان فيه » ٠

وفي اطار هذا الحرص على تطبيق الكتاب والسنة وآثار الصالحين حاول فقهاء الاباضية فيما بعد الاجتهاد في تفسير كيفية قبول عبد الرحمن بن رستم لما قدمه أهل البصرة من المال في أول مرة ، ورفضه أخذ ماحملوه اليه منه في المرة الثانية . وفي اجتهادهم هذا قالوا انه ربما عرف الامام أنه كان في احمال المال الثانية أموال أتت عن غير طريق الصدقة ، مما يمكن أن يشكك في سلامة مصدرها ، بمعنى ان ذلك كان سبب رفضها (٧٤) . بينما الرواية صريحة فيما تنسبه الى الامام من أنه قبل الاموال في أول مرة لأن أهل تاهرت كانوا في حاجة اليها للدفاع عن أنفسهم بينما كانت أحوالهم قد تحسنت واستغنوا عندما أتت دفعة الأموال الثانية ، فكان غيرهم من ضعفاء أخوانهم أولى بها منهم ، وهذا ما رفع من شأن الرجل وزاد في تعظيم معاصريه له .

دولة المشاركة والمساواة :

ومن طريق العدالة في توزيع الأموال والأرزاق حققت امامة تاهرت الرستمية على عهد عبد الرحمن ما كان يصبو اليه الكثيرون من المساواة في الحقوق والواجبات ، وخاصة ما يتعلق منها بالأموال وهي المشكلة التي فجرت الفتنة الكبرى بمقتل الخليفة عثمان بن عفان الذي يقف منه الخوارج وبضمنهم الأباضية موقفا عدائيا مرا (٧٥) .

التنظيم المالي :

وفي جمع الأموال وانفاقها يقول ابن الصغير عن عهد عبد الرحمن بن رستم : « والسيرة واحدة ، وقضاته مختارة ، وبيوت أمواله ممتلئة ، وأصحاب شرطته والطائفون به قائمون فيقبضون أعشارهم في غلال كل (شهر) من أهل الشاة والبعير . . . لا يظلمون ولا يظلمون . . فاذا حضر جميع ذلك صرف الطعام الى الفقراء وبيعت الشاة والبعير . فاذا صارت أموالا دفع منها الى العمال بقدر ما يستحقون على عملهم ، ثم نظر في باقي سائر المال فاذا عرف مبلغه أمر باحصاء من في البلد وقيما حول البلد ثم أمر باحصاء الفقراء والمساكين ، فاذا علم عددهم أمر باحصاء ما في الأهراء من الطعام ثم أمر بجميع مابقي من مال الصدقة فاشترى منه اكسية صوفا وجبابا صوفا وفراء وزيتا ثم دفع في كل أهل بيت بقدر ذلك . ويؤثر بأكثر ذلك أهل الفاقة من مذهبه . ثم ينظر الى

---

(٧٤) انظر الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢١ ـ أ ، المطبوع ، ص ٤٦ .

(٧٥) الوسياني المخطوط ، ص ٤٢ ب .

ما اجتمع من مال الجزية وخراج الارضين ، وما أشبه ذلك فيقطع لنفسه وحشمه وقضاته وأصحاب شرطته والقائمين بأموره ما يكفيهم في سنتهم ، ثم ان فضل صرفه في مصالح المسلمين(٧٦) .

تنظيم دولة رعاة :

من هذا النص الفريد في الموضوع ، والذى يعتبر أقدم النصوص التى وصلتنا عن الامامة الرستمية فى تاهرت ، يتضح لنا أن تنظيم امامة تاهرت كان تنظيم دولة بدوية تعيش على الرعى أولا وقبل كل شيء . فأهم مورد لخزانة مال الامام عبد الرحمن هو ضريبة الأعشار ، من الشاة والبعير التى كانت تجبى فى أول كل شهر قمرى . ولما كان من المفهوم أن ضريبة الأعشار التى تعنى العشر تمثل الزكاة أو الصدقة ، وهى الواجب المالى الوحيد الذى يقع على عاتق المسلمين ، فالمفروض أن الضريبة المقررة كانت ربع العشر ـ فى مجتمع تاهرت المتمسك بالسنن الأولى ـ لا تتجاوزه بأى حال من الأحوال ، وأن تسميتها بالعشر كان نوعا من التخفيف لكلمتى ربع العشر ، على ما نظن. وكلمتى « لا يظلمون ويظلمون » تعنى التمسك بشكل لا يقبل الجدل فى تحديد قدر الضريبة دون زيادة أو نقصان . والمفهوم أيضا من ثنايا النص أن الضريبة لم تكن تجبى على قطعان الماشية وحدها ، بل كانت تجبى على ناتج الأرض من الحب ، من : القمح والشعير ، الذى يعرف بالطعام ، والذى كان يصرف عينا بمجرد جمعه على الفقراء . وذلك أن أرزاق العمال (من جامعى الصدقات) كانت تصرف لهم نقدا بعد بيع غنم العشر وجماله . وكانت الأرزاق تصرف لهؤلاء العمال تبعا لنوع الوظيفة التى يقوم بها كل منهم .

معاونو الامام :

والمفهوم من ترتيب الموظفين الرئيسيين ، من عمال الامام وأعوانه ، أنهم يتوالون على الوجه الآتى : القضاة ويمثلون الطبقة الأولى ، ويتلوهم أصحاب الشرطة الذين يمثلون نواب القاضى ، من المحتسبين المشرفين على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الأسواق وفى القبائل ، وبعدهم تأتى طبقة العمال من جباة الأموال المعروفين بالطائفين أو الطوافين . والتسمية مشتقة من طبيعة الوظيفة التى تتمثل فى الطواف على القبائل والبلدان وتجمعات أهل الدعوة لجباية الصدقة أو العشر .

---

(٧٦) ابن الصغير : أخبار الأئمة ص ١٥ ـ ١٦

أموال الصدقة :

وبعد توزيع الطعام ورواتب عمال الصدقة السنوية من الزكاة كان على أعوان الامام أن يحصوا ما تبقى في الاهراء من الطعام (الحبوب) وما تبقى من أموال الصدقة • وكانت هذه البواقي من نصيب أهل الدعوة في تاهرت وفيما حولها من الضواحي والظواهر ، وكان للفقراء والمساكين نصيبهم الوافي فيها مرة أخرى ، فكان على العمال أن يحصوا الجميع • وعندما يتم ذلك الاحصاء السكاني الدقيق كان الامام يأمر بشراء الملابس اللازمة لفصل الشتاء ، من : الأكسية الصوف والجباب الصوف وكذلك ملابس الفرو ، ويوزع كل ذلك على أهل كل بيت حسب حاجته وحسبما تسمح به الأموال • والنص على أن عبد الرحمن بن رستم كان « يؤثر بأكثر ذلك أهل الفاقة من مذهبه » يعني أن القاطنين في حيز تاهرت من غير أهل المذهب كان لهم نصيبهم في ذلك التوزيع الجماعي السنوي •

وهكذا كانت توزع أموال الزكاة أو الصدقة على المستحقين من الفقراء والمساكين ، وكان المشرفون على الجباية من الطائفين لهم أجرهم من نفس المال الذي جمعوه • أما كسوة الشتاء والزيت اللازم للطعام أو لانارة المشاعل والقناديل فكان يصرف لجميع أهل البلد من فائض الأموال في الأهراء وفي الخزائن •

رواتب الامام وأعوانه :

أما الامام وأعوانه من الحشم والقضاة وأصحاب الشرطة وسائر معاونيه فكانت أرزاقهم السنوية تقطع من مال الجزية وخراج الأرضين وما أشبهه • ويفهم من ذلك أنه كان من بين رعايا تاهرت أهل ذمة ، من : اليهود ، على وجه الخصوص ، والنصارى • ولا بأس من أن نضيف ، الى ما كان يجمع منهم ، المال الذي كان يجبى من غير أهل المذهب من السنة أو من الصفرية أو الشيعة• وهو الأمر الذي نكتفي بالاشارة اليه •

وبعد ذلك كان اذا فضل من المال فضل صرفه الامام في « مصالح المسلمين» ، في المرافق العامة : كالمساجد والمصليات ودور العلم والضيافة والحمامات ، وكذلك فيما تقوى به الجماعة من أمور الدفاع كشراء الكراع والسلاح والخيل ، أو تحصين العاصمة وتوسيع أسوارها ، أو غير ذلك مما يصلح به شأن الجماعة •

ازدهار تاهرت على عهد عبد الرحمن بن رستم : العاصمة الاباضية سوق عالمية :

وهكذا عاشت الجماعة الأباضية في تاهرت في ظل امامة عبد الرحمن ابن رستم في نظام مثالي يحقق العدالة والمساواة بين جميع أهل الدعوة • فالامام كان القدوة الطيبة لرعيته في الزهد والعفاف والتفاني في مصلحة الجماعة ، وعلى الجملة في حسن السيرة واقامة الحق والعدل • ولقد ظهرت العدالة في شكلها الملموس في أحكام الامام المنصفة بين المتخاصمين ، وأكثر من ذلك في المسألة الشائكة الخاصة بتوزيع الأموال • ولكنه لماكانت امامة تاهرت دولة رعوية ، كما رأينا ، فان ناتج دخلها الوطني ما كان يمكن أن يهيء حياة الرخاء التي يتحدث عنها ابن الصغير والتي لا تكتفي بالنص على انتعاش فقرائها بل ترسم لمدينة تاهرت صورة زاهية بفضل دورها وقصورها وبساتينها وطواحينها وكثرة خيراتها ـ وكل ذلك على عهد الامام عبد الرحمن الذي لم يتجاوز ثمانية أعوام ، كما قلنا •

والحقيقة أن ابن الصغير المالكي الذي عاش في تاهرت على أواخر أيام الرستميين والذي يقر بأنه لم يحرف ما سمعه من الاباضية ولن يزيد أو ينقص ـ يشرح أسباب انتعاش التاهرتيين وازدهار المدينة بفضل أنها أصبحت قبلة الرفاق من التجار الذين أتوا من كل الامصار - ففي خلال سنوات قليلة لم يعد ينزل تاهرت أحد من الغرباء الا استوطن معهم ، وابتنى بين أظهرهم «لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة امامه ، وعدله في رعيته ، وأمانه على نفسه وماله » • وبصرف النظر عما يقوله ابن الصغير من أن ما طرأ على المدينة قد حدث خلال السنوات القليلة التي ولي أمرها عبد الرحمن بن رستم ، فمن المقبول أنه مع مرور الوقت ، وعلى عهد خلفاء عبد الرحمن ، صارت تاهرت مدينة عالمية ، كما تقول الآن : « حتى لا ترى دارا الا قيل هذه لفلان الكوفي ، وهذه لفلان البصري ، وهذه لفلان القروي • وهذا مسجد القرويين ورحبتهم ، وهذا مسجد البصريين ، وهذا مسجد الكوفيين » (٧٧) • مما يعني أن رواد تاهرت الأوائل كانوا من أهل العراق الحوبي حيث مركز الدعوة الأول ، ومن قيروان افريقية حيث نشأ أقطاب الدعوة الأوائل وجاهدوا في سبيل اقامة المذهب •

وتنص رواية ابن الصغير هذه على أن تاهرت دانت بتحضيرها هذا الى ازدهار تجاراتها بعد أن أصبحت سوقا دولية « فاستعملت السبل الى بلد

---

(٧٧) ابن الصغير ، ص ١٢ ـ ١٣ •

السودان ، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة ، فأقاموا على ذلك (سنتين أو أقل من ذلك أو أكثر) والعمارة زائدة والناس والتجار من كل الاقطار تاجرون (٧٨) • ويفسر الشماخى ذلك فيقول ان التجار ساروا الى تاهرت بتجاراتهم وأموالهم من مصر وأفريقية والمغرب (٧٩) • ولا ندرى ان كان الاندلسيون الذين كان لهم نشاطهم في بدء الحركة الخارجية في المغرب قد ساهموا في ازدهار مدينة تاهرت في ذلك الوقت ؟ وذلك أن البكرى يذكر أنه كان من بين أبواب تاهرت الأربعة الأولى باب يسمى باب الأندلس (٨٠) مما يعنى وجود طائفة من الأندلسيين في المدينة حتى نسب اليهم ذلك الباب. واذا صحت رواية ابن الصغير من أن باب الصفا الذى يذكره البكرى كان من أبواب المدينة على عهد عبد الرحمن بن رستم فلا بأس من أن يكون باب الأندلس هو الآخر من أبواب المدينة الأولى ، وهذا يعنى ان الاندلسيين ساهموا فى بناء المدينة ، وفى اقامة مجتمع تاهرت الاول (٨١) • وهو الأمر الذى يؤكده عدد من كبار المشايخ من أصحاب عبد الرحمن من الاندلسيين • كما سنرى حالا •

والمهم من كل ذلك أن تاهرت بدأت ترقى وتزدهر منذ أيام عبدالرحمن، وان التجارة ـ وخاصة تجارة بلاد السودان حيث الذهب ـ كانت من الأسباب الرئيسية التى اجتذبت الباحثين عن الربح من المشرق والمغرب والأندلس • ولا شك أن طبيعة التنظيم الأباضى الذى لا يقبل جباية الضرائب على المتاجر، على اعتبار أنها من المغارم ، كان من الأسباب الاضافية التى شجعت التجار على ارتياد تاهرت ، الى جانب ما ساد المدينة من الأمن واجتماع الكلمة وحسن سيرة الامام عبد الرحمن الذى توفى فى سنة ١٦٨ هـ/٧٨٤ م ، تاركا لكبار أصحابه اختيار خلف له على سنة السلف من الراشدين •

امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم : (١٦٨ هـ ـ ١٩٨هـ/٧٨٤ ـ ٨١٤ م)

هكذا نجح عبد الرحمن بن رستم فى توطيد أركان الامامة الأباضية

---

(٧٨) ابن الصغير ، ص ١٢ ـ ١٣ •

(٧٩) السير ، ص ١٥٨ •

(٨٠) البكرى ، ص ٦٨ •

(٨١) ابن الصغير ، ص ١١ (عن باب الصفا) ، وانظر فى بناء المدينة ، فيما سبق ، ص ٢٩٣ وص ٦٨ •

في تاهرت ، بفضل عدالته وحسن سيرته الى أن توفي سنة ١٦٨ هـ / ٨٤ـ ٧٨٥ م ، وأصبح النموذج الصحيح للامام الاباضي ، ولم يكن من الغريب أن يستفيد ابنه عبد الوهاب من سمعته الطيبة ، وأن يفوز على منافسيه ويتولى الامامة • وابن الصغير الذى يمثل أقدم وثيقة وصلتنا عن اباضية تاهرت يقول فعلا أنه لما مات عبد الرحمن بن رستم قامت الأباضية وعقدت الامامة لابنه عبد الوهاب (٨٢) ، و ن المتأخرين من الاباضية أرادوا للامام عبدالرحمن أن يسير على نهج عمر بن الخطاب • فعندما مرض عبد الرحمن مرضه الذي مات فيه ، جعل الأمر شورى في ستة نفر من كبار أصحابه وسابعهم ابنه عبد الوهاب (٨٣) • وهم : مسعود الاندلسي ، أبو قدامه يزيد بن فندين اليفرني ، عمران بن مروان الأندلسي ، أبو الموفق سعدوس بن عطية ، شكر ابن صالح الكتامي ، مصعب بن سرمان ، عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم• كما انتهي أمر السبعة هنا بعد جدل ومناجاة طالت الى شهر عند أبي زكريا وزادت الى شهرين عند الدرجيني بعده ، وانتهت ازاء ضغط العامة ، الى المفاضلة بين اثنين هما : مسعود الأندلسي ، وعبد الوهاب بن رستم • وكادت كفة مسعود ترجح ــ كما تقول الرواية الاباضية ــ ولكنه عندما علم بميل الجماعة الى مبايعته اختفي زهدا في الولاية (٨٤) ، ولو أنه ظهر وكان أول المبايعين عندما تم الأمر لعبد الوهاب • والظاهر أنه الى جانب ما اتصف به عبد الوهاب من العلم والشجاعة والتقوى واللين (٨٥) ، كان للعصبية دورها في اختياره : اذ أن الزعيم اليفرني أبو قدامة يزيد بن فندين لما أيقن أنـه لن يصل الى الامامة مال الى عبد الوهاب لصلة الرحم لأن امه يفرنية من بني يفرن مثله ، وأنه رجا من وراء ذلك أن يؤثرهم في الأمر(٨٦) •

---

(٨٢) ابن الصغير ، ص ١٦

(٨٣) انظر أبو زكريا ، المخطوط ، ١٤ ــ ب ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢١ ــ أ (المطبوع ، ص ٤٦) • وقارن الشماخي ، ص ١٤٥ • أما ما يورده البكرى ص ٦٧ : ٦٨ ، وكذلك ابن عذارى • (ج ١ ص ١٩٧) عن أئمة الرستميين فهو مقتضب ، كما أنه مختلط في بعض الأحيان • فبينما يجعل البكرى تاهرت لميمون بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رستم بمعنى تقديم عبد الوهاب على عبد الرحمن ، يجعل ابن عذارى الامامة بعد عبد الرحمن لابنه عبد الوارث وليس عبد الوهاب •

(٨٤) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ ــ ب ، الدرجيني ، المخطـوط ، ص ٢١ ــ أ (المطبوع ، ص ٤٦) ، الشماخي ، ص ١٤٤ •

(٨٥) الشماخي ، ص ١٤٤ •

(٨٦) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ ــ ب ، الدرجيني ، المخطـوط ، ص ٢١ ــ ب (المطبوع ، ص ٤٧) ، الشماخي ص ١٤٥ •

ابن فندين ، زعيم بني يفرن ، يطالب بمجلس للشورى :

والمهم من كل ذلك أن عبد الوهاب استفاد من وصية والده الضخم ، في : الزهد والعدالة وحسن السيرة ، ونجح في انتزاع امامة الاباضية من كبار منافسيه ، من رؤساء القبائل وشيوخ المذهب ، بعد جدل استمر حوالي الشهر أو أكثر • وكان من الطبيعي أن يطالب هؤلاء الشيوخ بأن يكون لهم رأي في ادارة شئون الدولة ، كما كان قد عودهم الامام عبد الرحمن ، بصفتهم أهل الشورى أو أهل الحل والعقد ، كما هو الحال عند السنة ، وأن يكون على رأس المطـــالبين بذلك يزيد بن فندين زعيم بني يفرن ، وهي القبيلة المغربية (البربرية) القوية التي صاهرها عبد الرحمن ، فكانوا سندا له ، وخاصة بعد أن صاروا أخوال عبد الوهاب ، والظاهر أن ابن فندين نادى باقامة مجلس استشاري من الزعماء يعاون الامام في الحكم وذلك أثناء مداولات مجمع المشايخ الذين تغافلوا عن مطلبه ، ولو أن مسعودا الأندلسي كان ضد تقييد الامام بشرط من الشروط (٨٧) •

امامة قوية على عهد عبد الوهاب :

وسارت الأمور على ما يرام على عهد الامام الرستمي الثاني عبدالوهاب، فقويت امامة تاهرت حتى قال ابن الصغير : انه « اجتمع له (عبد الوهاب) من أمر الاباضية وغيرهم مالم يجتمع للاباضية قبله ، ودان له مالم يدن لغيره، واجتمع له من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لاحد قبله »(٨٨) • ويضيف صاحب أخبار الأئمة الرستميين مما حكاه له مشايخ الاباضية : « أنه بلغت سمته (قوته) الى أن حاصر مدينةاطرابلس وملك المغرب بأسره الى مدينة يقال لها تلمسان ، فلم يزل كذلك وعلى ذلك ، وأمور الناس مجتمعة ••• الى

---

(٨٧) أنظر أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٤ ـ ب ، ١٥ ـ أ ؛ حيث يقول ان ابن فندين اشترط الا يقضي عبد الوهاب أمرا دون جماعة معلومة ، وان مسعودا الأندلسي رفض هذا الشرط • وقارن الدرجيني (المخطوط ، ص ٢١ ـ ب والمطبوع ، ص ٤٧) الذي يقول ان يزيد بن فندين رفض البيعة ما لم يستجب لشرطه وان الامام عبد الوهاب صرف من أمر مبايعته بسبب ما بينهما من النسب ، وان مسعودا الأندلسي قال : لا نعلم في الامامة شرطا غير العمل بالكتاب والسنة وآثار الصالحين ، وان جماعة المتحكين وافقوا وتركوا الشرط • وبذلك تمت البيعة وحمل عبد الوهاب الى دار الامارة •

(٨٨) أخبار الأئمة ص ٦٦ •

أن حدثت الفرقة »(٨٩) ٠

وحصار عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم لمدينة طرابلس ، الذي انتهى بعد وفاة ابراهيم بن الأغلب سنة ١٩٦هـ/٨١٢ م بالاتفاق بين ولي العهد الاغلبي عبد الله بن ابراهيم الذي خلف والده وبين امام تاهرت على ان تظل المدينة وأقاليمها الساحلية تحت حكم الأغالبة ، وأن تصير الأقاليم الظاهرية الأخرى الى حكم عبد الوهاب معروف لنا (٩٠) ٠ والقصد من الاشارة اليه عند كتاب الاباضية هو النص على أن المملكة الرستمية كانت تمتد غربا الى طرابلس ٠ وفي اطار هذا المعنى يريد ابن الصغير ، باشارته الى ملك المغرب بأسره الى تلمسان ، النص على أن امامة تاهرت نشرت سلطانها على كل المغرب الأوسط الذي تعتبر مدينة تلمسان حده الغربي حيث تبدأ وراءها حدود المغرب الأقصى ٠ ورغم أن اشارته « الى مدينة يقال لها تلمسان »تعني انه لم تكن لديه فكرة واضحة عن عاصمة المغرب الأوسط الغربية التي ستكون كما سنرى ، مجال صراع بين الرستميين وبين الأدارسة الذي سيستولون عليها (٩١) ، فالمهم أن انتشار سلطان عبد الوهاب من طرابلس الى تلمسان هو الذي دعا ابن خلدون الى القول أنه « كان يسلم عليه بالخلافة »(٩٢) ، الأمر الذي يسميه ابن الصغير : الانتقال من حال « الامامة الى حال الملك »(٩٣) ٠

وهكذا تستمر امامة عبد الوهاب من سنة ١٦٨ هـ حينما بويع والى سنة ١٩٧ هـ /٨١٣ م حينما انهى حصاره لطرابلس بمعاونة هوارة وزناته ونفوسة ، أي لمدة حوالي ثلاثين عاما ، لا تمدنا خلالها حوليات أفريقية والمغرب التاريخية بمعلومات عن النشاطات السياسية والعسكرية للدولة الرستمية ٠ اما كتاب الأباضية : من أبي زكريا ومن نقل عنه مثل الدرجيني والوسياني وأخيرا الشماخي ـ ودون استثناء ابن الصغير المالكي رغم اشاراته التاريخية ـ فانهم لا يمدوننا بغير المعلومات ذات الطبيعة المنقبية الا فيما يتعلق بالانقسامات

---

(٨٩) ابن الصغير ، ص ١٧ ، وقارن ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٥ ـ أ : الذي لا ينتمي الا الى مجتمع تاهرت ، فيقول « ولم تظهر عليه اموره أحد في حكومة ولا في خصومة حتى نحم بن فندين وأصحابه » وهو النص الذي يحكي الدرجيني مثله المخطوط ، ص ٢١ ـ ب (المطبوع ، ص ٤٧) ٠

(٩٠) أنظر فيما سبق ص ٤٠ ٠

(٩١) أنظر فيما بعد ص ٤٤٤ ٠

(٩٢) أنظر فيما سبق ، ص ٣٠٦ وص ٧٢ ٠

(٩٣) أنظر فيما بعد ، ص ٣٣٦ وص ١٢١ ٠

المذهبية التي عرفتها جماعة أهل الدعوة . وفي هذه الدائرة الضيقة يكتفي ابن الصغير ، كما أشرنا ، بتلخيص الأعمال السياسية الخارجية لعبد الوهاب بحصار طرابلس وبسط سلطانه الى تلمسان ثم يشير الى افتراق الاباضية بعد ذلك ، أي بعد سنة ١٩٧ هـ /٨١٣ م . أما أبو زكريا فيلخص فترة الثلاثين سنة السابقة على الانقسام من عهد عبد الوهاب بقوله : « ولم ينتم عليه في أمره أحد في حكومة ولا خصومة حتى نجم ابن فندين وأصحابه »(٩٤) .

الفتنة بين اباضية المغرب :

الانشقاق الأول : النكار (أو النكارية) :

كان من الطبيعي وقد ثبت عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم طوال هذه الفترة الطويلة وتأكد سلطانه شرقا في جبل نفوسة وأحواز طرابلس وغربا حتى أحواز تلمسان أن يزداد استئثاره بالأمور مع تضخم ملكه . وكان من الطبيعي أيضا ألا يرضى المعارضون لمبدأ استبداد الامام بالسلطة ، وعلى رأسهم يزيد بن فندين — صاحب هذا الشرط — وأن ينازعوا عبدالوهاب في أن يكون له السلطان المطلق . ومن هنا ارتفعت أصواتهم تطالبه بألا يقطع أمرا دون مشورة . وكان رد عبد الوهاب ومسانديه منذ البداية ، مثل ابن مسعود الأندلسي — كما رأينا — : انه لا شرط للامامة الا الحكم بالكتاب والسنة وآثار الصالحين قبله . ولم يقف الاختلاف الفقهي الدستوري — في الدولة التي اتسعت وازدادت رفاهيتها وانتشر العلم بين أبنائها — عند المطالبة بالمشاركة في ادارة شئون البلاد وعدم الاستبداد بالأمور ، بل انه اتسع عندما أثار المعارضون مسألة نظرية جديدة سبق لأهل المشرق، من المفكرين، الكلام فيها ، وهي : مسألة شرط العلم عند الامام ، وهل يجوز أن يبقى الامام في السلطة اذا ما ظهر بين أفراد الجماعة من هو أعلم منه ؟ وعن هذا الطريق شككوا في صحة استمرار عبد الوهاب في الامامة (٩٥) . والحقيقة انه اذا كان الامام الأول عبد الرحمن بن رستم قد عرف بأنه امام دفاع أي رجل حرب يجلس ، كما رأينا ، وسيفه ورمحه قرب يده وفرسه غير بعيد من بابه ، وأنه لم يكن له كتاب معروف من تأليفه ، كما يقول ابن الصغير ، فان عبدالوهاب كان له كتاب معروف بمسائل نفوسة الجبل ، لأن نفوسة كتبت اليه مسائل

---

(٩٤) أنظر فيما سبق ، ص ٣١٤ وهـ ٨٩ .

(٩٥) الشماخي ، ص ١٤٦ .

اشكلت عليها ، وهذا الكتاب اطلع عليه ابن الصغير بنفسه (٩٦) ٠

دور سدراتة ومزاتة في الخلاف :

هذا عن النظر الى مسألة المعارضة من الناحية النظرية الصرفة التي أعطاها اياها المتأخرون من الاباضية ٠ أما عن واقع الحال ، كما يظهر عند ابن الصغير المالكي التاهرتي الذي حافظ على ماسمعه من أبناء بلدته من الاباضية ، فيدل على أن المسألة كانت سياسة وانه شارك فيها قبائـــل الاباضية المغربية (البربرية) من سائر بوادي المغرب الأوسط ٠ فقد جرت العادة على أن ترحل قبائل مزاتة وسدراتة في فصل الربيع من بواديهم الجنوبية نحو تاهرت وأحوازها طلبا للنجعة لشياههم وبعيرهم ، وبينماكانت قطعان الماشية ترعى الكلأ في حراسة الرعاة من أبناء القبائل ومن العبيدكان رؤساؤهم ووجوههم يترددون على المدينة حيث يكرمهم مشايخها ويحسنون اليهم ٠ ويشير ابن الصغير الى أنه في « سنة الفرقة » كان الربيع طيبا ، وأن المزاتيين والسدراتيين انتجعوا أكمل انتجاع انتجعوه قط (٩٧) ، مما يعني طول المدة التي قضوها حول تاهرت في ذلك الموسم ٠ والظاهر أن طول مدة النجعة كانت كافية لتجاذب أطراف الحديث بين المعارضين من التاهرتيين : ممن يكتفي ابن الصغير بالاشارة اليهم دون تسميتهم بينما يجعلهم أبو زكريا ومن نقل عنه ، على وجه التحديد : يزيد بن فندين وأصحابه ، وهم الذين كانت قلوبهم قد تغيرت على الامام عبد الوهاب ، فعادوا يطالبون بشرط مشاركة الجماعة المعلومة في ادارة الأمور ، وأخذوا يشيعون أن الامام حابى عليهم بعض الناس فعهد اليهم بالولايات دونهم ٠ وتضيف الرواية أن دعوة المعارضة التي قالت تارة : نحن وليناه ، وتارة : كيف يلينا وفينا أعلم منه ، وتارة : انما كانت ولايته على شرط ، لقيت آذانا صاغية من طوائف من النـاس ممن تصفهم بالجهال والطغام حتى إنتشر الخلاف (٩٨)٠

في هذا الجو المكفهر استمع الضيوف من المزاتيين والسدراتيين الى ما أسره اليهم مضيفوهم من المعارضين الذين قالوا لهم ، حسب رواية ابن الصغير : « ان الأمور قد تغيرت ، والأحوال قد تبدلت : قاضينا جائر ،

---

(٩٦) أخبار الأئمة الرستميين ، ص ١٧ ٠

(٩٧) أخبار الأئمة ، ص ١٧ ٠

(٩٨) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٥ ـ أ الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٢ ـ أ (المطبوع ، ص ٤٨) ٠

، صاحب بيت مالنا خائن ، وصاحب شرطتنا فاسق وأمامنا لا يغير من ذلك شيئا . وقد جاء الله بكم ، فادخلوا الى هذا الامام واسألوه عن . قاصيه ، صاحب بيت مالنا وصاحب شرطتنا ، وأن يولى علينا خيارنا ، فأجابوهم»(٩٩) .

ورغم ما يقوله كتاب الاباضية من أن سياسة الامام عبد الوهاب فيما يتعلق باستخدام العمال والاعوان تتلخص في : رغبته في أهل الخير ، واستعمال أهل العلم والبصيرة والدين ، وخاصة ممن ليست لهم رغبة في الولاية(١٠٠) ، فان رواية ابن الصغير ، فيما يتعلق بالحوار الذى دار بين المزاتيين والسدراتيين وبين الامام عبد الوهاب بهذا الصدد ، مقبولة - حسب تقاليد أهل ذلك العصر - ان لم تقل معقولة . فوجوه زناتة عندما فاتحوا عبد الوهاب في أمر عماله الذين أثاروا المعارضين ، أجابهم قائلا : « جزاكم الله من وفد خيرا ، فقد تم من الاسلام ما يفتقده من كان مثلكم . الأمر اليكم . قدموا من رأيتم وأخروا من رأيتم » ، فدعوا له وأثنوا عليه .

وعندما انصرف المزاتيون أخبر الامام وجوه رجاله بما حدث من كلام المزاتيين وجوابه عليهم ، فلم يوافقوه على ما فعل : على أساس أن ذلك يسيء اليه ، كما يسيء الى اخوانه ورجاله . ولفتوا نظرة الى أن رضوخه لمطالب المزاتيين سيجرئهم عليه وعلى أولاده فيما بعد ، وأن الأمر قد يصل في سلسلة مطالبهم التى قد تتوالى الى حد مطالبتهم بخلعه ، عندما يقولون له : « ان المسلمين في ابتداء أمرك لم يجتمعوا عليك فانخلع واردد اليهم أمرهم ، فان اجتمعوا عليك جملة ، فزت بحظك وكان ذلك زيادة لك في شرفك (١٠١) .

وانتهت المداولات بين الامام وبين مستشاريه الى تعديل وعده للمزاتيين بأن يطلب اليهم استشارة اخوانهم في المسألة ، كما سيستشير هو الآخر اخوانه ، وانه يجب أن يكون خلع من يخلعونه وتقديم من يقدمونه في حضور الجميع ، على أن يستدعى عبد الوهاب وجوه رجاله هؤلاء اذا ما وافق المزاتيون على ذلك .

---

(٩٩) ابن الصغير ص ١٨ .

(١٠٠) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٠ - ٩ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٢ - ٣ ؛ المطبوع ، ص ٤٨) ، الشماخى ص ١٤٨ .

(١٠١) ابن الصغير ص ١٨ - ١٩ .

وعندما حضر المزاتيون لستدعي عبد الوهاب مستشاريه الدين شكروهم على حسن صنيعهم ، ولكنهم لفتوا نظرهم الى المبدأ القانوني الذي يقضي بانه : « لا يجب عزل قاض ولا صاحب بيت مال الا بجرحة تظهر عليه ، ولا يجب عزل القضاة ببغى البغاة وسعى السعاة » • ورغم أن جماعة مشايخ البدو المزاتية أخذت بهذا المنطق الذى لم تعتد عليه ، فانهم قالوا : « ما هكذا كان عقدنا مع الامام بالأمس ، ما هذا الا رأى حدث أو أمر أبرم »(١٠٢) • وكان من الطبيعى أن يعتبروا ذلك اخلالا بالوعد من جانب عبد الوهاب ، وأن يخرجوا من مجلسه غاضبين • وبذلك يكون الاختلاف قد زاد بين جماعة الاباضية ، اذ انضمت قبائل مزاتة وسدراتة الى جانب المعارضين من أصحاب ابن فندين •

تجمع المعارضين والمطالبة بمحاكمة عبد الوهاب :

وتجمع المعارضون لعبد الوهاب من أهل تاهرت وخاصة من اليفرنيين أنصار ابن فندين ، ومن القبائل الوافدة الى بوادى العاصمة الاباضية ، فى موضع جبلى فى ظاهر المدينة عرف عند الاباضية بـ « كدية النكار »(١٠٣) ، نسبة الى النكار أو النكارية ، وهو الاسم الذى أعطى للمخالفين على عبد الوهاب لأنهم أنكروا امامته ، كما سماهم خصومهم أيضا بالنكاث لنكثهم بيعة الامام (١٠٤) • وتم نوع من الحلف بين النكار على انهم لا يدخلون الغرب (أى تاهرت) « أو يعزل ما سألوا عزله ، ويحاكموا عبد الوهاب ومن معه »(١٠٥) • وكان من الطبيعى ، أن تبدأ المناوشات الحربية بين النكار وبين عبد الوهاب وأنصاره من أهل تاهرت ، طالما ان المفاوضات بين الجانبين انتهت الى عدم الاتفاق •

ورغم ما يقوله ابن الصغير من أن عبد الوهاب قضى على خصومه بسهولة بعد أن أعذرهم وأنذرهم(١٠٦) ، فان أبا زكريا ومن نقل عنه من كتاب الاباضية لا يريدون للامام أن يكون متسرعا فى قتال خصومه ، اخوة الأمس ، قبل أن

---

(١٠٢) ابن الصغير ، ص ١٩ •

(١٠٣) ابن الصغير ، ص ١٩ •

(١٠٤) الشماخى ، ص ١٤٨ ، ابن الصغير ، ص ٧٩ •

(١٠٥) ابن الصغير ، ص ١٩ — ٢٠ والقراءة فى النص الا يدخلوا الغرب بدلا من الغرب التى تعنى أن مساكنهم كانت فى شرقها •

(١٠٦) أخبار الأئمة الرستميين ، ص ٢٠ •

يستنفد كل الأساليب القانونية المتعارف عليها ، وليس الاعذار والانــذار فقط .

فلقد عرض عبد الوهاب على خصومه أصحاب ابن فندين أن يضعوا اوزار الحرب حتى يستشيروا اخوانهم في المشرق فيما أثير من مسائل : شرط الحكم بمشورة جماعة معلومة ، وجواز امامة من يوجد أعلم منه . وفي هذه المرة لم يكن الاخوة الذين طلبت مشورتهم في البصرة ، كما كان الحال قبل ذلك ، بل في مصر وفي مكة : مما يعني أن مركز الثقــل الخــارجي الاباضي ، من الناحية النظرية أو الايديولوجية ، كما يقال الآن ، كأن قد انتقل من العراق الى مصر والحجاز ، وهو الأمر الذي يسترعي الانتباه ، اذ يعني انحسار المدارس الفكرية الخارجية من مركز الخلافة ، جنوبا نحو الجزيرة العربية ، وغربا نحو مصر .

وتم الاتفاق على ارسال رسولين لقيا في مصر : شعيب بن المعرف وشيعته ومنهم شخص يعرف بأبي المتوكل (١٠٧) ، وفي مكة التقيا بأبي عمر والربيع بن حبيب وأبي غسان مخلد بن المعرد الغساني (١٠٨) . ولقد أجاب زعماء أهل الدعوة في مكة ببطلان الشرط وجواز امامة العالم اذا وجد من هو أعلم منه ، وأن الامامة لا تبطل الا بحدث في الاسلام بعد الاعذار والانذار من جانب الجماعة ، والاصرار والاستكبار من أمامهم (١٠٩) ، أما شعيب بن المعرف

---

(١٠٧) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٥ — ب ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٢ — ب (المطبوع ، ص ٤٩ — حيث : شعيب بن المعروف بدلا من بن المعرف) .

(١٠٨) أبو زكريا ، ص ١٥ — ب ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٢ — ب (المطبوع ، ص ٤٩) .

(١٠٩) انظر أبو زكريا ، السير وأخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ١٥ — ب ، ص ١٦ — آ حيث يورد نص كتاب أهل المشرق على الوجه التالي : « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، يا اخواننا قد بلغنا ما كان قبلكم وفهمنا ما كتبتموا (كاتبتمونا) به من أمر الشرط ، فليس من سيرة المسلمين أن يجعلوا الشرط في الامامة : أن لا يقضي أمرا دون جماعة معــلومة ، فالامامة صحيحة والشرط باطل ، فلو صح بالامامة شرط لما قام في حق ولا أقيم له حد ، ولعطلت الحدود ولبطلت الأحكام وضاع الحق . والجماعة يتعذر اتفاقها على أن الامام ان قدم اليه سارق فلا يصيب أن يقيم عليه الحد فيقطع يده حتى تحضر الجماعة ، ولا يجاهد الامام عدوا ولا ينهاها عن فساد الا بحضرة الجماعة المعلومة فالامامة صحيحة والشرط باطل . وما ذكرتم من تولية رجل وفي جماعة المسلمين من هو أعلم منه فذلك جائز (جايز) اذا كان في الشجاعة والفضل بمنزلة حسنة ، وقد ولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه وزيد بن ثابت افرض منه ، وعلي بن أبي طالب اقضى منه ، ومعاذ بن جبل رضي الله عنه أعلم منه . وهذا ما ليس =

برأس الجماعة في مصر ، فانه قرر المسير الى تاهرت(١١٠) للنظر في المسألة على مسرح الاحداث ، كما يقال ، أو بمنظر شاهد العيان .

والحقيقة انه لا بأس في أن يكون أهل الدعوة في مصر قد مالوا الى رأى المعارضين للامام عبد الوهاب . فهذا ما يمكن أن يفهم من رواية أبى زكريا التي تقول ان شعيبا عزم على المسير الى تاهرت« فخرج في نفر من أصحابه بغير مشورة من مشايخ مصر طمعا في الامارة . وقد كان بها جماعة المسلمين : مشايخ ذوو فضل وعلم وورع ، وقد نهاه بعضهم عن الخروج الى تاهرت ، فقالوا له : تقدم الى بلد اختلف أهلها ولم يشتغل (بكلامهم) واستعجل هو وأصحابه طمعا في الامارة ، فمضوا مستعجلين حتى أنضوا رواحلهم فصاروا يسوقونها سوقا ، وحكي عنهم أنهم وصلوا من مصر الى تاهرت في عشرين يوما »(١١١) . ورغم ما تقوله الرواية من أن شعيب دخل

«فيه خلاف لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . أفرضكم زيد وأقضاكم علي وأعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وقول صلى الله عليه وسلم : معاذ بن جبل سيد العلماء ، وانه سيحشر غدا يوم القيامة (القيمة) أمام العلماء بخطوة » . ويضيف أبو زكريا بعد ذلك انهم ردوا الجواب باثبات ولاية عبد الوهاب وذكروا ان الامامة لا تبطل الا بحدث في الاسلام .

وقارن الدرجيني (المخطوط ، ص ٢٢ ب ، والمطبوع ، ص ٤٩ — ٥٠) الذى ينقل النص وفيه بعد البسملة والتصلية والتحية (فقد اتصل بنا ما وقع قبلكم وما كتبتم فيه . فأما ما ذكرتموه من أمر الشرط ... ان يجعلوا في الامامة شرطا أن لا يقطع الامام ... . الامامة صحيحة .. في الامامة الشرط .. ولبطلت الحدود والأحكام .. يعدم اتفاقهم ... فلا يمكنه أن يقيم عليه الحق فيقطع .. أو زنا أحد فلم يرجم أو يجلد حتى تحضر الجماعة » و . يجاهد ... ولا ينهى عن منكر الا بمحضر الجماعة فيكونوا كلهم اذا اماما وكلهم للامام فهو ابطال الامامة وتتبعه غير الاستقامة ، ورمى الامامة به بغى والسؤال عن هذا غي . وأما ما ذكرتم من تولية ... جائز اذا كان مستكملا لشروط الامامة ، وكان من أهل الفضل والدين والعدل والسياسة والمرتبة المرضية ، فقد ولى أبو بكر ... » وانظر الشماخي ، ص ١٤٨ .
وقارن الماوردي ، باب عقد الامامة ، ص ٥ (فلو تعين لأهل الاختيار واحد هو أفضل الجماعة فبايعوه على الامامة وحدث بعده من هو أفضل منه انعقدت ببيعتهم امامة الأول ، ولم يجز العدول عنه الى من هو أفضل منه) . وبمثل هذا قال الزيدية من فرق الشيعة المعتزلة ، شريطة أن يكون الأئمة من أولاد فاطمة بطبيعة الحال (أنظر الشهرستاني : الملل والنحل ، ص ١١٥) . وقارن ابن خلكان (ط محيى الدين ، ج ٢ ص ٣٣٥) الذى يقول ان الامام زيد ابن علي بن الحسين « كان يجوز امامة المفضول مع قيام الأفضل للمصلحة » .

(١١٠) ابو زكريا : المخطوط ، ص ٧٥ ب ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٢ — ب (المطبوع : ص ٥٠) .

(١١١) السير وأخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ١٦ ب (أنضاء الابل يعني أهزالها من كثرة السفر — أنظر لسان العرب ، النضو نضا ، ج ٢٠ ص ٢٠٢ — ٢٠٤) .

على الامام عبد الوهاب وما كان يمكنه الا أن يفعل ذلك ، وأنه أفتاه بنفس فتوى اهل مكة التي وصلت فيما بعد بصحة امامته ، الا أن المهم هو أنه انضم الى جانب يزيد بن فندين وأصحابه ، فكان يناجيهم ويؤازرهم .

تسميات جديدة للنكار :

وعن هذا الطريق اكتسب النكار تسميات جديدة عند خصومهم اتباع عبد الوهاب ، منها : النجوية ، والشعيبية الذين عرفوا بالشغبية والملحدة ، والنكاثة (١١٢) .

علاقة المعارضين باهل تاهرت الذين عرفوا بالوهبية :

ومع أن المعارضين لعبد الوهاب من النكارية كانوا يعيشون خارج تاهرت الا أنهم كانوا يدخلون المدينة جماعات حيث احتفظوا بمساكنهم القديمة ، مما أثار خشيه أعوان الامام الذين طلبوا منه أن يمنعهم من ذلك . وتشير رواية ابي زكريا الى أن عبد الوهاب عندما كلمهم في الخروج نهائيا من المدينة لم يهتموا كثير بكلامه اذ قالوا له : « هذه مدينتنا وتلك منازلنا » . وسألوه عما اذا كانوا قد اقترفوا جرما يستحقون عليه الخروج . ومع ان الامام تركهم يدخلون المدينة ويخرجون منها . فالظاهر أن العلاقات ساءت بين النكارية وبين أتباع عبد الوهاب الذين صاروا يعرفون عند الكتاب باسم الوهبية نسبة اليه (١١٣) .

---

(١١٢) انظر أبو زكريا ، المخطوط ، ١٦ — أ ، ١٦ — ب) حيث يشرح النجوية : لانهم صاروا يجتمعون ويتناجون . اما الشعيبية فهي في النص في شكل « الشغبية لاشغالهم في الاسلام الشغب » . والظاهر أن هذا تحريف مقصود من جانب الوهبية لتجريح خصومهم بنسبهم الى الشغب ، بينما المفهوم من سياق الرواية أن المقصود هو شعيب المصري والنسبة اليه الشعيبية . وأما الملحدة : فلانهم « الحدوا في أسماء الله لقوله تعالى : الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » والمقصود بذلك هي مسألة نفي الصفات عند المعتزلة . اما النكاثة : « لنكثهم بيعة الامام بغير حدث » . وانظر الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٢ — ب ، ٢٣ — أ (المطبوع ، ص ٥٠ — ٥١) .

هذا ولا بأس من الاشارة الى أن الدرجيني يشير فيما بعد (المطبوع ، ص ١٦٩) الى أن النكارية من خصوم الوهبية قبلوا صفة « النكار » على أنها تشمل الخوارج جميعا لانها نسبة الى انكار حكم الحكمين بصفين ، فكان هذه التسمية تعادل اصطلاح « المحكمة » الذين كانوا : لا حكم الا لله .

(١١٣) انظر ابن الصغير (ص ١٦) الذي يصر على اطلاق الاباضية على بعض اتباع الوهبية من نكار ، ووهبية ، ولكنه يشير الى أنه لا يعرف اسم الوهبية ، بينما يعرف اسم [illegible]

تأزم الموقف بين الفريقين :

وانتهى الأمر الى تأزم الموقف بين الجماعتين عندما اعتاد النكار على دخول تاهرت وهم يحملون السلاح ، محمل أهل المدينة بدورهم السلاح بأمر عبد الوهاب خشية الغدر · ولقد تحقق غدر النكار فى مغامرة قصصية قاموا بها ، كما يقول أبو زكريا ، للتخلص من الامام ·

مؤامرة قصصية لاغتيال الامام :

فقد تظاهر النكار بأنهم يتناعون على صندوق (تابوت) وضعوا فيه رجلا معه سيفه وحملوه الى دار عبد الوهاب حيث وضعوه الى أن يحكم بينهم ، وكان هدفهم أن يخرج الرجل لاغتيال الامام ليلا · وفشلت المؤامرة بسبب سهر الامام من أجل الصلاة والقراءة والدرس من جهة ، ثم بسبب فطنته وحرصه · حيث وضع زقامنفوخا فى فراشه ، وجلس يترقب الخائن الى أن خرج من تابوته وضرب الزق ، فقده الامام بسيفه نصفين ، وأعاده قتيلا الى التابوت (١١٤) · وهكذا اتضحت نية الغدر لدى النكارية ، وأمر عبد الوهاب أن يكون أهل تاهرت على أهبة الاستعداد دائما بسلاحهم · وانتهز خصوم الامام ، من : ابن فندين وأصحابه ومنهم شعيب المصرى ، خروج الامام من تاهرت فى بعض حاجاته واستغفلوا أهل المدينة وحاولوا الدخول عليهم على حين غرة ، « فقامت الصيحة فى المدينة من كل مكان» (١١٥) ·

احداهما هى اليزيدية اتباع عبد الله بن يزيد والأخرى هى المصرية اتباع عيسى بن عمر ثم أحمد بن الحسين ، وأن من يسمى بالوهبية يميلون الى هذين المذهبين ، مما يعنى تطورا أو تقسيمات جديدة بين أتباع عبد الوهـــاب الذين لم يعودوا يعرفون باسم الوهبية على أيام ابن الصغير ؛ على أواخــــر الرستميين ، حيث كانوا يسمون فى ذلك الوقت أيضــــا باسم العسكرية الذى كان يعرف به معظم قبائل نفوسة فى تاهرت · هذا ، كما ظن ابن حوقل أن تسمية الوهبية فى جبل نفوسة نسبة الى عبد الله بن وهب الراسبى أول أئمة الحرورية فى العراق ، ويقول انه وصل مع عبد الله بن اباض الى الجبل وماتا فيه (ط· بيروت ، ص ٩٣)·

(١١٤) انظر أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٧ ــ أ ، ١٧ ــ ب (وقارن الدرجينى ، المطبوع ، ص ٥٢ ــ ٥٣) · حيث كان الترتيب أن يؤذن القاتل بعد أن يقتل الامام فيأتى أصحابه الى دار الامارة · فلما لم يسمعوا الأذان أتوا صباحا وحملوا تابوتهم ووجدوا صاحبهم فيه قتيلا ، فخرجوا من المدينة خوفا من سيفهم من المسلمين ، وقارن الشماخى (ص ١٤٩) · حيث يقول ان أصحاب الامام هم الذين غرروا بالمتآمرين ووضعوا الزق المنفوخ ·

(١١٥) انظر أبو زكريا ، المخطوط ، ١٧ ــ ب حيث تقول الرواية أن السبب فى تعجل ابن فندين وشعيب بالقيام بتلك المحاولة انهم كانوا يخشون وصول فتوى أهل المشرق فى ذلك الخلاف خشية بادانتهما ، وهو ما سيحدث بعد قليل (وقارن الدرجينى ، المطبوع ، ص ٥٤) ·

بلاء ولي العهد افلح ، ومقتل ابن فندين :

وترجع رواية أبي زكريا فضل انقاذ تاهرت مما كان يدبره لها خصومها الى شجاعة ولي العهد افلح بن عبد الوهاب الذى عاجلته الحادثة وهو يتزين فخرج بأحد شقي رأسه مضفرا والآخر دون تضفير ، ووقف وحده يدافع عن باب المدينة حتى انسلخت رجله الى العرقوب وحتى تحطمت درقته ، فاقتلع الباب الضخم يتقي به ضربات الأعداء . وكان من بين ضحايا افلح يزيد بن فندين الذى لم تمنع البيضتان اللتان كانتا على راسه من « أن يضربه افلح على أم راسه ضربة »فقده والبيضتين والرأس ،وتشب السيف في عمود باب المدينة ، وحس أفلح بن عبد الوهاب في يده الشدة فظن ذلك كله رأسه فقال له : ما أقوا رأسك يابربرى يامشوم »(١١٦) .

خلاف شعيب في حيز طرابلس :

وبمقتـــل يزيد بن فندين انهزم أصحابه بعد أن تركوا من قتلاهم ١٢ (اثني عشر) الفا كانت دماؤهم تجرى كالسيل ، كما تبالغ الرواية ، على باب المدينة . وزعم أن الامام عبد الوهاب أمر عندما رجع بجمع القتلى ، وصلى عليهم ودفنهم . « طمعا في العافية لعامة المسلمين من بقية أصحاب ابن فندين » ، فان شعيبا الذى فر الى حيز طرابلس ، ربما في المنطقة الواقعة بين المدينة وجبل نفوسه ،وظل يظهر الخلاف للامام ويعلن البراءة منه ، وينشر دعايته المناهضة لامام تاهرت بين الحجاج الوافدين من المشرق (١١٧) . فكان وأصحابه يقولون : « قتل المسلمين » (١١٨) . ولم تثمر دعاية شعيب ضد عبد الوهاب ، اذ عندما وصلت أنباء تلك الفتنة الى أهل الدعوة بالحجاز من جماعة المسلمين ، وعلى رأسهم الربيع بن حبيب ، « برءوا من شعيب ويزيد بن فندين وأصحابه الذين قتلوا معه ، ومن كان على سبيلهم الا من تاب . وكان الربيع بن حبيب يقول في مجالسه : عبد الوهاب أمامنا وتقينا وامام المسلمين أجمعين »(١١٩) .

---

(١١٦) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٧ ــ ب ، ١٨ ـ أ ، الدرجيني ، المطبوع ، ص ٥٤ .

(١١٧) انظر أبو زكريا ، ص ١٨ ـ أ ، ٢٨ ـ أ (الدرجيني ، المطبوع ، ص ٥٥) .
أما ابن الصغير (ص ١٩) فانه يقول ان الامام عبد الوهاب هو الذى خرج اليهم وصرعهم في لمح البصر .

(١١٨) الشماخي ، ص ١٥٦ .

(١١٩) انظر أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٨ ـ أ : حيث قيل للربيع كيف تبرأ من شعيب من غير حدث ، فقال وأي حدث أعظم من براءته من عبد الوهاب امير المؤمنين (الدرجيني ، المطبوع ، ص ٥٥) .

اعتزال المخالفين الذين عرفوا بالواصلية ، وتحول الامامة الى ملكـــية أى خلافة :

وبذلك تمت القطيعة تماما بين تاهرت وبين خصومها من أصحاب ابن فندين الذين بقيت في نفوسهم حزازات وضغائن فتنحوا بناجيتهم بالقرب من تاهرت التى لم يعودوا يدخلونها ، ونظن أن ذلك هو السبب فى تسميتهم أيضا بالمعتزلة (١٢٠) لاعتزالهم أهل تاهرت ، وأن ذلك هو السبب فـى تسميتهم فيما بعد بالواصلية ، ولو أن كتاب الاباضية يفرقون بين النكار وبين الواصلية من الخارجين على امامة تاهرت ، كما سنرى - هذا ، كما يمكن التفكير فى أن يكون المقصود بالاعتزال وبالواصلية هنا نوعا مـــن الفكر الشيعى الزيدى الذى كان قد امتزج بالاعتزال عن طريق تلمذة الامام زيد لواصل بن عطاء حتى قيل انه صار « وجميـــع أصحابه معتزلة فى المذهب والاعتقاد(١٢١) » وهذا ما قد يعتبر من مقدمات قيام الدولة الادريسية(١٢٢) وحق لابن الصغير أن يقول : انه بعد انتصار عبد الوهاب هذا على خصومه اشتد أمره ، « وانتقل من حال الامامة الى حال الملك »(١٢٣) ، أى من حال الدولة الدينية الى حال الدولة السياسية — شبيها بما حدث فى دولة الخلافة أيام معاوية (١٢٤) -

ومع أن ابن الصغير يبدأ تاريخه لمرحلة « الملك » فى تاهرت بالافتراق الثانى الذى عرفته الاباضية على عهد عبد الوهاب أيضا ، ويجعل سبب الافتراق هو الخلاف مع قبائل هوارة ، فالأقرب الى المنطق أن تكون تلك المرحلة بعد الانتهاء من الصراع مع الواصلية فى أحواز تاهرت ، كما يفصل ذلك أبو زكريا ومن نقل عنه • وذلك أن هوارة كانت تسكن فى حيز طرابلس

---

(١٢٠) انظر أبو زكريا (ص ١٨ — أ) الذى يعود فيكرر انهم تنحوا بالزيرة أو الكدية التى سميت كدية النكار . الشماخى ، ص ١٥٤ (حيث يسميهم معتزلة) •

(١٢١) انظر ابن خلكان (عن الامام زيد المتوفى سنة ١٢٢ هـ) ، ج ١ ص ٢٢٥ •

(١٢٢) أنظر فيما سبق ، ص ٢١٩ وهـ ١٠٨ ، هذا ، ولو أنه من الغريب ان ينكرس تقسيم البربر عند نسابتهم ، مع مرور الوقت ، الى ، معتزلة وإباضية وسنية ، بل وأن تنسب غالبية رواته فى أواخر القرن الخامس الهجرى/١١ م الى المعتزلة باستثناء بعضهم ، مثل : بنى برزال وبنى واسين الاباضية ، وكذلك بنى مغراوة وبنى يفرن السنية — انظر ابن حزم جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٦٣ ، حيث ينسب ابن حزم تلك الرواية الى معاصره أبى محمد بويكنى البرزالى ، النسابة الاباضى ، الذى كان عالما بأنسابهم) •

(١٢٣) أخبار الأئمة الرستميين ، ص ٣٠ •

(١٢٤) انظر فيما سبق ، ص ٢٠٦ وهـ ٧٢ •

حيث كان النزاع الذى أدى الى الانشقاق الثانى بين الاباضية (١٢٥) ٠

الصراع ضد النكار والواصلية :

وحسب رواية ابى زكريا ينقسم الصراع بين عبد الوهاب وبين خصومه الى مرحلتين الأولى ضد النكار والثانية ضد الواصلية ، وهو الأمر الذى يتضمن فى ثناياه أن يكون هناك فرق زمنى معقول بين الصراعين ٠

النكار :

وكان سبب الصراع ضد النكار هو اغتيال « ولى العهد » ميمون بن عبدالوهاب الذى قتل غدرا بليل، ومثل به فمزق لحمه اربا خارج تاهرت(١٢٦) ٠ ومع أن عبد الوهاب دفن ابنه دون أن يدرى من قتله ، فانه لم يلبث أن تيقن أن النكار هم الذين قتلوه ، وذلك عندما مر ابن لميمون بهم ، وهو يسعى فى بعض حاجاته ، فصاحوا به : « يا ابن المهدور دمه » ٠ وهنا قرر عبدالوهاب الانتقام من قاتلى ولده فجهز جيشا أنفذه اليهم ، ولكى يتم الثأر جعل قيادته الى واحد من أبناء القتيل ٠ وعلى بعد أيام من تاهرت التقى جيش عبدالوهاب بخصومه ، وهزمهم هزيمة منكرة حتى قيل انه عد من اسمه هارون ، وهو أقل الأسماء شيوعا بين القتلى ، فكانوا ٣٠٠ (ثلثمائة هارون) قتيلا (١٢٧) ٠

الواصلية :

أما عن الصراع ضد الواصلية فاتى بعد ما نزل بالنكار من الوهن والضعف ، مما يعنى أن جماعة الواصلية تختلف عن جماعة النكار ، وهو الأمر الذى يشير اليه أبو زكريا عندما يعرف الواصلية بأنهم « قوم من البربر

---

(١٢٥) انظر ابن الصغير ، ص ٣٠ ، حيث يجعل هوارة ولواته فى حيز تاهرت ، وهو الأمر الذى لا يتفق مع واقع الحال وان كان الأمر لا يمنع من وجود عشائر مهاجرة من طرابلس الى تاهرت ٠

(١٢٦) انظر ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٨ - ب ، الدرجينى ، المطبوع ، ص ٥٦) « الذى يقول ان الامام جزع عندما رآه وقال . « أى بنى اجتمعت فيك ثلاثة أمثال للعامة فى قولهم : ويل لمن مرت الخيل بكساه ، ويح لمن أصيب بليل ، وقال القائل : اذا مسست ابن السلطان فامسسه مسا عنيفا » ٠ وعن ولاية ميمون العهد ، انظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢١ ، وانظر فيما سبق ، ص ٢٠٦ وهـ ٧٢ ٠

(١٢٧) ابو زكريا ، المخطوط ص ١٨ - ب (الدرجينى ، المطبوع ، ص ٥٦) ٠

أكثرهم قبائل زناته »(١٢٨) • ويضيف الدرجيني الى ذلك أنهم كانوا يعيشون قريبا من تاهرت ، وأكثرهم أهل البادية (١٢٩) وان عددهم كان – على أيام ميمون – نحو ثلاثين الفا في بيوت كبيوت الاعراب يحملونها(١٣٠) ، مما يعنى أن الخصومة حملت هذه المرة طابعا عرقيا شعوبيا وليس مذهبيا ، كما في حالة النكار • ويعطى أبو زكريا لخصومه الواصلية لونا سياسيا عندما يشير الى أنهم تحركوا « حين احسوا ببعض الفرقة في الاباضية ، وأرادوا أن ينتهزوا بعض الفرصة »(١٣١) • وواضح من النص أن زعماء الواصلية هؤلاء كانوا يحسنون الجدل في المسائل التي كانت موضع خلاف بين أهل المذهب ، مما جعل الكتاب ينسبونهم فعلا الى المعتزلة بعد أن كان اعتزالهم سياسيا بمعنى الانحياز عن مجتمع تاهرت والابتعاد عنه • فهذا ما تشير اليه الرواية التي تقول : ان ابن سيدهم كان فارسا مغوارا صعب المنال ، وانه كان فيهم أيضا رجل مناظر يجيد فنون الكلام ، وكثيرا ما ناظر الامام : وكان شديد المعارضة حديد العارضة ، مما يفهم منه أن عبد الوهاب لم يكن له طاقة به في هذا الفن (١٣٢) •

الاستعانة بنفوسة في الصراع ضد الواصلية :

وهكذا نفهم من قصة الفارس الواصلي المغوار وصاحبه المناظر الشديد المراس أن جماعة الواصلية كانت قد قويت من الناحيتين العسكرية والمذهبية، وأن الأمر كان سينتهي بالصراع بينهم وبين امام تاهرت عندما اشتدت معارضتهم له • وتقول رواية أبي زكريا ان عبد الوهاب انذرهم وأعذرهم قبل أن يلقاهم في عدة معارك • ويفهم من الرواية التي تنص على أن الامام استنجد في آخر الأمر بقبائل جبل نفوسة أنه لقي منهم شدة • فقد طلب من نفوسة « أن يبعثوا له جيشا نجيبا يكون فيهم رجل عالم بفنون الرد على المخالفين ، ورجل عالم بفنون التفسير ، ورجل شجاع بطل يبارز الفتى المعتزلي الموصوف

---

(١٢٨) السير واخبار الائمة ، المخطوط ، ص ١٩ – أ (الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٦ أ ، المطبوع ، ص ٥٧) •

(١٢٩) الطبقات ، المخطوط ، ص ٢٦ – أ (المطبوع ، ص ٥٧) •

(١٣٠) الطبقات المخطوط ، ص ٢٠ – أ ; المطبوع ، ص ٤٣) • وانظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢١ •

(١٣١) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٩ – ٢٠ •

(١٣٢) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ١٩ – أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٢٦ – أ ; المطبوع ، ص ٥٧) •

بالشجاعة »(١٣٣) • واختار عامل عبد الوهاب على جبل نفوسة أربعة رجال أرسلهم الى عبد الوهاب ، وهم : مهدي الويغوي الخبير بفن المناظرة ، ومحمد بن يانيس العابد الزاهد العالم بتفسير القرآن ، وأيوب بن العباس الفارس الذي لا يشق له غبار • أما الرابع فاختلف في أمره فهو اما محمد أبو محمد او أبو الحسن الأيدلاني (١٣٤) •

ومع أن الامام الذي كان ينتظر عسكرا كثيفا من نفوسة ، حتى انه وعد من يبشره بوصولهم من عبيده بالحرية ، عجب من غير شك لوصول الرجال الأربعة وحدهم ، فان هؤلاء لم يلبثوا ان اكتسبوا ثقته في أنهم اكفاء للقيام بالمهمة التي كان يرجوها من نفوسة • فبعد ان انزلهم في دار الضيافة واجرى عليهم ما يلزمهم الى أن استراحوا ، ناقشهم في أمر مواجهة الواصلية في المناظرة والحرب • فعرف مهديا بأسلوب الفتى الواصلي المنتحل للمناظرة، وفهم مهدي كيف كان المعتزلي يزوغ عن الحجة ويحيد عن الجواب ، وكيف كان يلبس على الامام ويسرق منه السؤال(١٣٥) • أما عن أيوب بن العباس فقد أذهل القوم بقوته الأسطورية حتى أنه عندما أراد اختيار فرس من دار الدواب في تاهرت لم تعجبه جميع الافراس التي كانت تكاد تقع بين يديه ، عندما كان يجذبها (يجدها) محاولا اختبار قوتها . حتى انتهى به الأمر

---

(١٣٣) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ١٩ ــ أ ، الدرجيني ، المخطوط ص ٢٦ ــ أ (المطبوع ، ص ٥٧) ، الشماخي ، ص ١٥٤ •

(١٣٤) ابو زكريا ، ص ١٩ ــ أ الدرجيني ، ص ٢٦ ــ أ (المطبوع ، ص ٥٧ ــ ٥٨) • وتقول الرواية ان الاربعة عندما خرجوا في هيئة السفر الى تاهرت أمر محمد بن يانيس على ان يكون خادما لهم ، فكان يجهز طعامهم ويعلف خيلهم ثم يقضي بقية ليلة قائما يصلي • وانه تمادى في ذلك رغم اعتراضهم عليه والحاحهم في أن يرفق بنفسه ، حتى انه عندما أخبرهم انه لن يصلي الا ركعتين لم يتمه منهما الا مع طلوع الفجر ، لانه قرأ نصفا من القرآن مع كل من الركعتين • وبلغ أمر ابن يانيس من الاجتهاد في الصلاة ليلا حتى في الأيام الباردة الممطرة الى ان قالوا له « ان كان لا يدخل الجنة الا من كان مثلك يابن يانيس سنصيبك فيها الوحشة » (وقارن الدرجيني ، ص ٢٦ ــ ب ، ٢٧ ــ أ ، المطبوع ، ص ٥٨ ــ ٥٩) •

(١٣٥) انظر أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٠ ــ ب وتضيف الرواية هنا ان مهديا كان يترك أصحابه ويخرج لمناظرة المخالفين وانه أعاد منهم الى المذهب تسعين عالما • أما عن صفات مهدي الذي أكل غداء زملائه ليلا وهو صحيح لم يطبخ فكانت ثلاث اذا قدم اليه اي طعام قضى منه حاجته ولا يبالي ،والثانية اذا اخذ فترة من الليل اكتفى بها ولا يبالي ، والثالثة انه كان لا يخاف محالفا على نفسه أن يغلبه في الحجة • وقارن الدرجيني ، المخطوط ص ٢٧ ــ أ ، ٢٧ ــ ب ، المطبوع ، ص ٥٩ ــ ٦٠) •

الى علاج فرسه الذى كان قد أصابه الحفا ، وذلك بالرمل المحمى الذى كان على الفرس أن يطأة بحوافره لمدة ثلاثة أيام (١٣٦) ٠

مناظرة حربية تنتهى بهزيمة الواصلية :

وهكذا عندما استعد الامام عبد الوهاب ، ضرب الموعد لخصومه الواصلية بعد ثلاثة أيام حيث خرج بعسكره ومعه جماعة نفوسة الأربعة . وتم اللقاء العجيب بين الاخوة المنشقين ، ودعا عبد الوهاب الواصلية الى الحق وأعذرهم ، ولكنهم طلبوا المناظرة ٠ وهنا صف كل من الطرفين صفوفه ، وكان على المتناظرين أن يتباريا بين الصفين ، ومع كل منهما وجوه أصحابه ٠ وخرج الفتى المناظر من المعتزلة، وخرج اليه مهدى الذى قدمه محمد بن يانيس ، وأحس الفتى المعتزلى بشبح الهزيمة أمام مهدى فعرض عليه أن يستر كل منهما على صاحبه اذا تمت له الغلبة ٠ ومع أن مهديا وافق على ذلك الا انه قال لأصحابه أن علامة انتصاره على المعتزلى أن ينزع شاشيته عن رأسه، ويضعها تحت ركبته ٠

وهكذا بدأ الجدل الفقهى بسيطا مفهوما من الحاضرين ، « فلم يفلج منهم أحد على صاحبه ، ثم انهما دخلا فى فنون العلم ، فخفى ذلك عمن حضرهما » ، دون الامام بطبيعة الحال ٠ ولو أن الجدل بين العملاقين العالمين لم يلبث أن صار غير مفهوم من الجميع ، فكانه « الصفق بين الحجرين » ٠ وعلى حين فجأة نزع مهدى شاشيته من على رأسه ، فكان ذلك علامة انتصاره، فملأ التكبير والتهليل فى صفوف الوهبية (١٣٧) ٠

وكان على المبارزة أن تبدأ بعد المناظرة ، فخرج الفارس المعتزلى المعروف بالشجاعة وخرج أيوب بن العباس للقائه ٠ ولم تكن الا جولة بالخيل أو بعض جولة حتى حمل أيوب على خصمه فقتله بسيفه القصير ذى الحد الواحد أو سلكه فى رمحه ، فكانت تلك اشارة ببدء المعركة الحامية الوطيس، وكان بطلا تلك الملحمة : أفلح بن الامام الذى صار يضرب فى ناحية ، وأيوب

---

(١٣٦) أبو زكريا ، المخطوط ص ٢١ — أ ، وقارن الدرجينى ، المخطوط ص ٢٧ — ب (المطبوع ، ص ٦٠ — ٦١) ٠

(١٣٧) أبو زكريا المخطوط ٢١ — ب هذا ، بينما احتج الفتى المعتزلى على مهدى وقال له غدرتنى يامهدى وقارن الدرجينى المخطوط ، ص ٢٧ — ب ، المطبوع ، ص ٦١ (حيث القلنسوة على رأس مهدى بدلا من الشاشية) ٠

ابن العباس الذي كان يضرب في الناحية الاخرى • وانتهت المعركة الدامية بهزيمة الواصلية بعد أن بقي معظمهم مجندلين في ميدان القتال (١٢٨) •

وبذلك يكون الامام عبدالوهاب قد كسر شوكة خصومه المذهبيين في احواز تاهرت ، وعن هذا الطريق تصح مقالة ابن الصغير من أنه « انتقل من حال الامامة الى حال الملك » •

مقدمات للانشقاق الثاني :

اضطراب منطقة طرابلس :

وتبدأ حال الملك السياسية بالافتراق الثاني بين الاباضية ، وذلك في الجناح الشرقي من الامامة ، في منطقة طرابلس حيث يبدأ بالصراع مع قبائل هوارة ، كما يقول ابن الصغير ، وهو الأمر الذي تؤيده رواية أبي زكريا التي تمهد للانشقاق بحصار مدينة طرابلس التي كانت تابعة للاغالبة •واذا كانت الرواية الاباضية تقول ان عبد الوهاب عندما اتخذ طريق المشرق كان يقصد الحج ، فانه مما يشكك فيها أنها تشبه الرواية الأغلبية الخاصة بالأمير ابراهيم بن أحمد ، عندما ترك الامارة وسار للجهاد في صقلية (١٢٩) فقيل انه كان يقصد الحج • فعندما وصل الامام الى جبل نفوسة رفض أهل الجبل أن يتركوه يواصل طريقه خشية المسودة « فتتعطل أمور المسلمين وحدود الله » • ومما يؤيد الشك في أمر الحج أن اقامة الامام عبد الوهاب في جبل نفوسه (في بني زمور) التي طالت الى سبع سنوات ، لا يكفي لتفسير طول أمدها أنه كان ينتظر وصول الفتوى من علماء المذهب في مكة — وهم : أبوعمرو

---

(١٢٨) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٢ — أ : حيث يقول ان عدد من قتلهم افلح فاد وحدا فقط عن عدد من قتلهم ايوب • كما ان ايوبا ضرب بسيفه عمودا وهو يظنه رجلا فصار العمود نصفين • وترى الرواية الاباضية ان الواصلية ارادوا الغدر بايوب بعد يومين فدعوه فسار اليهم رغم نصح الناصحين له بالا يفعل • وفي حي الواصلية ظهر ايوب بمظهر الرجل الخارق ، كما يقال الآن ، فهو يأكل قصعة الثريد والشاة التي عليها حتى عظامها ، ويشرب وطلب اللبن اكله ثم يقضي ليله مكبا يقرأ القرآن ، ويصلي الصبح بوضوء العشاء الآخرة • وعند طلوع الشمس يلاعب فتيان الحي على الخيل ، وعندما حاول البعض انتهاز الفرصة فشقة على ايوب بالرمح كان نصيبه القتل مع سبعة من اصحابه ، ولم يتوقف ايوب عن القتل الا عندما صاحت به نساء الحي يرجونه الكف • وفي طريق عودته الى تاهرت يقطع ارجل سبع ولبؤة وينادى من يريد أكل اللحم من أهل الوادي من البربر ، فاكل من يأكل المكروه (وقارن الدرجيني ، المطبوع ، ص ٦٢ — حيث : شكه بالرمح واحتمله كالجرادة بدلا من سلكه في الرمح) •

(١٢٩) انظر فيما سبق ، ص ١٤٩ •

والربيع بن حبيب ـ وابن عباد ـ بأنه يمكنه بعث مال ليحج به من ينوب عنه، وبأنه « ليس عليه حج لأن أمان الطرق من الشروط التي يجب بها الحج على من استطاعه » (١٤٠) « والحقيقة أن خصوم الامام عبد الوهاب في منطقة طرابلس كانوا يسببون له المتاعب ، منذ أن لجأ الى هناك شعيب المصرى حليف يزيد بن فندين بعد مقتل هذا الأخير ، كما رأينا (١٤١) .

الحرب مع هوارة :

ومع أن رواية ابن الصغير عن الافتراق الثاني لا تتعلق بهذا الانشقاق مباشرة فانها تصلح كمقدمة منطقية له رغم ما يكسمها من الأخطاء مثل اقامة هواره ولواته في حيز تاهرت . فالذى يفهم منها أن مصاهرة كادت تتم بين بعض مقدمي قبائل هواره من بني مسالة الذين يعرفون بالأوس ،وبين بعض زعماء قبائل لواته، عندما خطب الأول ابنة الثاني التي عرفت بحسنها وجمالها، وأن بعض المقربين من الامام عبد الوهاب حذره من مغبة تلك المصاهرة أو ذلك الحلف ، مما دعا عبد الوهاب الى خطبة الصبية الهوارية الجميلة لنفسه . وكان من الطبيعي أن يغضب مقدم الأوس ، وخاصة عندما مشت السعاة بين الفريقين ، مما أدى الى الحرب واغارة هوارة على أعوان عبد الوهاب ، قرب نهر يقال له نهر أبي سعد الله .

والذى يفهم من الرواية أيضا ان المسالة كان يمكن أن تنتهى عند هذا الحد ، لولا ما قيل من أن هوارة أخلت بمبادىء المذهب ، عندما سمح بعض رجالها باخذ خاتم من أصبع قتيل في تلك المعركة رغم أنه لم يسلبه : فلم ينزعوا له ثوبا ولا أخذوا له فرسا ولا سرجا ولا لجاما . اذ لما عرف الامام أن هوارة قد استحلوا الاموال أعد العدة لقتالهم ، فخرج اليهم في ألف فرس أبلق وحشود من العسكر لا يعلم عددها الا الله ، وكانت نفوسة تمثل جزءا كبيرا منهم ، مما يؤيد أن اللقاء كان غير بعيد من جبل نفوسة ، ان لم يكن قد وقع في الجبل نفسه .

وتم اللقاء بين الامام وبين بني أوس وهوارة ومن معهم من القبائل على مجرى نهر جاف يقال له أسلان ، وانتهى القتال العظيم ، الذي ثبت فيـــه

---

(١٤٠) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٢ — أ ، ٢٢ — ب ، وقارن الدرجيني ، المطبوع ، ص ٦٥ — ٦٦ (حيث الاشارة الى الاخوان في المشرق ، والمقدم في ذلك العصر : أبو الربيـــع حبيب ، وابن عباد المصرى) ، الشماخى ، ص ١٥٦ .

(١٤١) انظر فيما سبق ، ص ٣٢٣ .

الناس : « لا يولى بعضهم لبعض الدبر حتى سال الوادى ذلك اليوم دما » ، بانهزام الهواريين ، ولكن بعد أن هلك خلق كثير ، وان « كان القتل فى هوارة أفضح وأشنع » . واثبت افلح بن عبد الوهاب من جديد بطولة نادرة فى المعركة ، فكان يجول فى ميدان القتال ذات اليمين وذات اليسار وفى القلب ، مما لفت نظر عبد الوهاب الذى كان جالسا فى محمل والى جانبه رجل من نفوسه ، وهو يدير المعركة بحماس أثار الفزع فى قلب عديسـلة النفوسى . ولو أن الرواية تعود لتقول أن عبد الوهاب هو الذى فض جمع القوم بكتيبته .

وهكذا انتهت الموقعة بانهزام هوارة الى جبل يسجان (ايكجان ؟) ، وبترشيح أفلح بن عبد الوهاب لولاية عهد امامة تاهرت بعد والده « فانقطع اليه المنقطعون ودارت اليه الحوائج والعطاء من تحت يديه ... »(١٤٢) .

عبد الوهاب فى جبل نفوسة وحصار طرابلس :

والظاهر أن توتر الأحوال فى منطقة طرابلس هى التى جعلت الامام عبد الوهاب يقيم فى جبل نفوسة ، وهو أحد مواطن الدعوة الرئيسية ، تلك الاقامة التى طالت الى سبع سنوات كما تقول الرواية . وعندما استقرت الأمور فى الاقليم رنا عبد الوهاب بانظاره نحو مدينة طرابلس العاصمة نفسها، على أمل انتزاعها من الأغالبة . ولا نعرف ان كان يمكن الربط بين أحداث بلاد الزاب حيث قام الصراع بين الأغالبة وبين القبائل الاباضية هناك ، وبين محاولة عبد الوهاب الاستيلاء على طرابلس أم لا . والمهم أن عبد الوهاب سار لحصار المدينة ، كما يقول أبو زكريا ، ومعه أهل الاقاليم المتاخمة لها وأهل جبل نفوسة وعامة من بجبالهم . وأنه دار مع أهل المدينة ومن معهم من الجند الاغلبى قتال شديد ، « استشهد » فيه عابد جبل نفوسة وزاهدها مهدى(١٤٣) الذى قال فيه ابن خالته ، عندما تخاصما فى حضرة عبد الوهاب انه اشتغل بآخرته حتى أضر بدنياه .

وهذه الشهادة هى التى أقرها الامام أثناء اقامته تلك بجبل نفوسه ، عندما لجأ فى يوم مطر وقر الى دار مهدى فلم يجد فيه شيئا مما أشعره فعلا

---

(١٤٢) ابن الصغير ، ص ٢٠ - ٢٣ .

(١٤٣) ابو زكريا ، ص ٢٣ - ب (الذى كان وجهه يعبس أو ينبسط وهو قتيل عندما يسمع هرم التوصيف أو هزم المسودة) .

بالضرر ، بينما وجد في دار ابن حالة مهدى المترفة ما كان يلزمه من الثياب اللطيفة ، والفرش والطعام ، فضلا عن النار التى بعثت الدفء في أوصال الجماعة ، وهذا ما جعل الامام يرجع في حكمه ، ويقيم الحجة لابن حالة مهدى(١٤٤) • وهذا يعني تطور في افكار الاباضية نحو التخفيف من التزمت في مسائل الزهد ، والتسامح التدريجي في مسائل الدنيا وما يتعلق بها من المعاملات ، حتى انتهى الأمر بأن أصبح « الرخص » سمة من سمات فقههم •

ازمة عدم ثقة بين عبد الوهاب واتباعه :

والغريب في الأمر أن ابن الصغير لا يذكر شيئا عن حصار عبدالوهاب لطرابلس ، بينما لا يعرف أبو زكريا الاتفاقية السياسية التى انهت انهت حرب طرابلس مع الأغالبة في سنة ١٩٦ هـ/٨١٢ م ، وذلك باعتراف عبدالله ابن ابراهيم بن الاغلب بالسيادة للاباضية على الأقاليم الـــداخلية من طرابلس (١٤٥) ، وان كان ما يقوله بشأن تلك الحرب يمكن أن يكون اضافة الى ما تسجله الحوليات الافريقية • فأبو زكريا يشير الى أنه حدث نوع من عدم الثقة بين الامام عبد الوهاب وأتباعه بلغ حد أنه ، عندما كان يتناجى معهم عن حرب الأغالبة (كيد العدو) كان يخرج سرهم رغم ما اتخذه من الاحتياطات التي انتهت بتقليل عدد من كان يتناجى معهم ، حتى ارتاب في الأمر هو ووزيره ابن عمران الذى لم يعد يتناجى مع أحد سواه • وحتى قال عبد الوهاب انه لا يستطيع أن يحاصر طرابلس برجل واحد ، فعاد أدراجه الى جــــبل نفوسه ، « وقد آيس (يأس) من فتح المدينة » ، رغم حلمه واحتماله وصبره • وفي الجبل أقام عبد الوهاب لبعض الوقت وهو ينشر العلم بين اهله ويحكم بين المتخاصمين من أهل المذهب (١٤٦) •

والذى يفهم من الروايات الاباضية أن الامام عبد الوهاب كان يقيم في جبل نفوسه في منطقة بني زمور حيث عرف الجبل هناك باسمهم ، وحيث كان للامام مصلى في قرية تلالت (١٤٧) • وأثناء مقام الامام عبد الوهاب هناك

---

(١٤٤) أبو زكريا ، ص ٢٣ ـ أ •

(١٤٥) انظر فيما سبق ، ص ٤٠ وهامش ٦١ •

(١٤٦) أبو زكريا ، ص ٢٣ ـ ب •

(١٤٧) وكان في المكان الذى يصلى فيه ملاطه يتكىء عليها ويبلغ ارتفاعها الى ارتفاع رأسه وهو جالس • وكانت على أيام أبي زكريا « تبلغ للراكب الى الصدر » ، مما يعني عظم قامة عبد الوهاب • السير وأخبار الائمة ، المخطوط ، ص ٢٢ ـ ب • أما بني زمور فهي مسرخة في شكل تمر • وقارن الشماخي : السير ، ص ١٥٩ •

استعمل رجلا على المنطقة يقال له مدرار (١٤٨) ٠

الخلفية : الانشقاق الثاني :

وبسبب الولاية على حيز طرابلس ، وهل يجب أن يستمع الامام الى رغبة أهل المنطقة في اختيار واليهم ، أم أنه صاحب الحق المطلق في تولية من يشاء وحجب ولاية من يشاء ، مما يذكر بمسألة الشرط التي كان يطالب بها يزيد بن فندين ، كان الانشقاق الثاني أو الافتراق بين اباضية الرستميين ٠

السمح بن أبي الخطاب : وولاية طرابلس :

فعندما قرر عبد الوهاب العودة الى تاهرت طلب اليه أهل حيز طرابلس ان يولي عليهم أبا عبد الأعلى السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى ٠ وتظهر رواية ابي زكريا أن عبد الوهاب لم يكن راضيا عن ذلك ، ولكن على أساس أن السمح وزيره ، وأحب الناس اليه وأنصحهم له ، وأنه لكل ذلك لا يحب مفارقته ٠ وأمام الحاح الناس وافق عبد الوهاب على تولية السمح على حيز طرابلس الذي نظن أنه يعني المنطقة الواقعة بين المدينة وبين جبل نفوسة ، على أساس أنه آثرهم على نفسه(١٤٩) ٠ وأحسن السمح السيرة في رعيته وفرق أعوانه في أرجاء البلاد ، وهو مقر بامامة عبد الوهاب ، ناصح له الى أن مرض مرضه الذي مات فيه ٠ واجتمع أعيان أهل الاقليم يطلبون اليه الوصية ، فأوصاهم ، كما يقول أبو زكريا ، بتقوى الله واتباع أمر الامام عبد الوهاب وطاعته « ما دام مستقيما على الحق الذي عليه سلفكم وجهاد من خالفكم » ٠

خلف بن السمح ، وولاية طرابلس :

ولكنه عندما توفي السمح كان لموته صدى عظيم في نفوس الناس الذين احبوه وعظموه حتى أنهم ائتمروا بأمر العامة من الناس « ممن ليس له بصيرة بامور الدين ولا علم بأمور المسلمين » : فولوا على أنفسهم ابنه ، وهو : خلف ابن السمح (١٥٠) ٠ ونحن لا ندري ان كان خلف هو اسمه الحقيقي أم أنه اسم تجريح اطلقه عليه الكتاب من خصومه ، كما سيطلقون عليه لقب الخبيث

---

(١٤٨) أبو زكريا ، ص ٢٣ — أ ٠

(١٤٩) ابو زكريا ، ص ٢٤ — ب وقارن الدرجيني ، المطبوع ، ص ٦٧ ، الشماخي ص ١٦٢ ٠

(١٥٠) أبو زكريا ، ص ٢٤ — ب ٠

ابن الطيب(١٥١) ، تماما كما فعل أهل السنة بمحمد بن أبي بكر الذي اتهم في مقتل عثمان . وكما فعل كتاب الامويين بأبان بن عثمان عندما اتهم في فتنة ابن الزبير .

ورغم اعتراض علماء المذهب مثل : أبي المنيب اسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو الحسن أيوب عامل الامام على جبل نفوسة ، على هذا الاجراء ولفتهم الانظار الى أنه لا يجوز أن يسبقوا امامهم الى شيء من أمورهم ، رد الراغبون في تولية خلف بأنه اذا لم يرض الامام عنه عزلوه . وبعد أن أعلنوا ولاية خلف عليهم كتبوا بذلك الى الامام .

عبد الوهاب لا يوافق على ولاية خلف :

وكان رد عبد الوهاب الذي يحمل في كتابه لقب أمير المؤمنين (١٥٢) على أهل حيز طرابلس ان من ولى خلفا بغير رضاء أمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين . وان من أبى توليته فقد أصاب ، ثم انه أقر كل العمال الذين استعملهم السمح الا خلف بن السمح الى أن يأتيه أمره ، كما أمرهم بالتوبة من هذا العمل . وتمسك أنصار خلف به وراجعوا عبد الوهاب فيما كتب به اليهم ، وطلبوا اليه أن يستجيب لرغبتهم في تولية خلف . ورفض الامام ذلك مستندا الى أنه لا يسعه ذلك فيما بينه وبين ربه ، وطلب اليهم من جديد أن يتوبوا ، كما أرسل كتابا خاصا الى خلف يعرفه فيه بأنه حرام على من يقدم اليه صدقات ماله أن يفعل ذلك ، وأنه حرام عليه أن يأخذها ، وامره بأن يعتزل أمور المسلمين .

خلف يرفض الاعتزال :

ولم يكن من الغريب أن يرفض خلف ، وهو حفيد الامام الأول أبي الخطاب الاعتزال ، وأن يعتز ويأبى ويستكبر ، في الوقت الذي تمادى الجهال في توليته ، بينما تركه المسلمون في غيه وزيغه ، كما يقول أبو زكريا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (١٥٣) .

---

(١٥١) ابو زكريا ، ص ٢٥ ـ ب (الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣١ ـ ب ، المطبوع ، ص ٧٠) .

(١٥٢) ابو زكريا ص ٢٤ ـ ب .

(١٥٣) السير واخبار الائمة ، المخطوط ، ص ٢٥ ـ أ . وتقول الرواية ان الامام عبد الوهاب كتب كتابين الى خاصة حيز طرابلس احدهما فيه عزل خلف والثاني فيه تعيينه ـ

استفتاء علماء المشرق والاحتجاج بالاستقلال :

وكما جرت العادة من قبل ، بعث المخالفون لعبد الوهاب كتابا الى مشايخ المذهب في المشرق وكان رأسهم في ذلك الوقت هو أبو سفيان محبوب ابن الرحيل (١٥٤) .

ورغم أن ابن الرحيل كتب اليهم يخطىء من لم يوافق عبد الوهاب ويحضهم على طاعة الامام ، فانهم صرفوا النظر عن جوابه الذى لم يصادف هواهم ، وأعلنوا أن عبد الوهاب ليس امامهم ، واعتلوا بأنهم يسكنون فى اقليم منقطع عن بلاده ، مما يسمح لهم بأن يكون لهم امامهم الخاص ، وهو خلف بن السمح . وعلى هذه المسألة وعد أبو زكريا بأن يرد في كتاب خاص يكرسه لافتراق الاباضية ، ولكن الظروف لم تمكنه من ذلك على ما نفهمه من الدرجينى (١٥٥) . وكان ذلك يعنى اعلان استقلال اباضية حيز طرابلس الذى كان تابعا لجبل نفوسة عن امامة تاهرت ، وقبل ذلك عن ولاية جبل نفوسة ، واعلان امامة خلف .

أبو عبيدة عبد الحميد الجناوى واليا لجبل نفوسة : والنزاع بين اباضية طرابلس واباضية نفوسة :

توفى عامل جبل نفوسة أبو الحسن أيوب الذى كان مناهضا لخلف ابن السمح ، وأرسل أهل الدعوة في الجبل الى عبد الوهاب يطلبون تولية عامل جديد عليهم ، حسبما كانت تقضى تقاليد الجماعة والمحافظة على

= واليا اذا قبل كتاب العزل الأول ولم تكن له رغبة في الأمور ، وان خلفا رفض كتاب العزل فتركه الخاصة من أهل طرابلس في غية الى أن يحكم الله بينه وبين الامام (وقارن الدرجيني ، المطبوع ، ص ٦٩) .

(١٥٤) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٥ - أ ، ٢٥ - ب حيث يعتبره تابعا لطبقة الربيع ابن حبيب ، وأبى غسان بن مخلد بن المرد ، وأبى المهاجر ، وأبى أيوب وائل .

(١٥٥) أبو زكريا ، المخطوط ، ٢٥ - ب : حيث يقول انهم فعلوا ذلك من غير سخط وانه لم يكن بيننا وبينهم مسائل الا الاقرار بامامة عبد الوهاب - رضى الله عنه . وقارن الدرجيني ، الطبقات ، المخطوط ، ص ٢١ - ب ، ٢٢ - أ (المطبوع ، ص ٤٧ - ٤٨) : حيث يذكر ان الشيخ اسماعيل بن صالح سأل الشيخ ابا نوح بن يوسف عن الكتاب الذى وعد به الشيخ أبو زكريا ، فرد عليه بأن الذى قام به عنه هو الشيخ أبو عمار عبد الكافي وهو الكتاب الموجز . وعن اعلان امامة خلف ، قارن الشماخي . ص ١٨١ حيث يقول : « واعتلوا بأن حوزة طرابلس منقطعة عن حوزة تيهرت وبعيدة منها » .

الشكليات . وقد أرسل الامام بدوره الى قادة أهل الدعوة يطلب اليهم ترشيح من يرضون عنه من افاضلهم وأولادهم بادارة أمور المسلمين ، ووقع الاختيار على أبى عبيدة عبد الحميد الجناوى ، وهو رجل من ناحية ايجاوزعرف بالصلاح والتقوى والعفاف والزهد فى طلب الدنيا وتولى المناصب .

وهكذا فعندما عرضوا الولاية على أبى عبيدة ، قال . « أنا ضعيف لست اقدر على القيام بأمور المسلمين » . وكان زهد أبى عبيدة فى الولاية سببا فى تشبث الامام عبد الوهاب — الذى كان يميل الى من ليست لهم رغبة فى الولاية ، وهو الرأى المعروف عند كثير من الفقهاء المسلمين وقتئذ — به . وفى ذلك يقول أبو زكريا : ان الامام عبد الوهاب حلف لهم بالعربية والبربرية، وبالحضرية ، وبالحبشية : انه لا يقلد أمور المسلمين الا رجلا يقول « أنا ضعيف » (١٥٦) .

واذا صح هذا الأمر فان مجتمع الاباضية فى تاهرت يكون مؤلفا فى ذلك الوقت من العرب والبربر والسودان ، من أهل البادية ومن أهل الحضر أيضا . وهكذا لا يكون « الضعف » فى الفكر السياسى الاباضى مانعا من تقلد الولاية . ففى رأى عبد الوهاب أن الشخص المرشح لتقلد مصالح المسلمين يمكن ان يكون ضعيفا من ثلاثة أوجه : ضعف البدن ، أو قلة العلم ، أو الفقر فى المال ، مما يعنى بطريقة عكسية ، أن شروط الولاية هى : صحة البدن وكثرة العلم ووفرة المال . وفيما يتعلق بأبى عبيدة عبد الحميد قال الامام : انه ان كان ضعيف البدن قواه الله بالدخول فى أمور المسلمين ، وان كان ضعيفا فى العلم فعليه بالاستعانة بأبى زكريا يصلتن التوكيتى أوحد أهل الجبل فى العلم والفضل ، وفيما يتعلق بالفقر ، لو كان ، فيمكنه الاستغناء ببيت مال المسلمين (١٥٧) .

وهكذا ولى أبو عبيدة عبد الحميد على جبل نفوسه وأحسن السيرة (١٥٨)

---

(١٥٦) ابو زكريا ، ص ٢٦ — أ ، الدرجينى ، ص ٣١ — ب (المطبوع ، ص ٧١) ، وقارن الشماخى ، ص ١٨٢ .

(١٥٧) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٦ — أ ، وقارن الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٢ — أ ، المطبوع ، ص ٧١ ، الذى يقول بأن ضعف البدن ان « الحق » يقويه ، ويسمى أبا زكريا بالالاوتى .

(١٥٨) ابو زكريا ، ص ٢٦ — أ : حيث تاخذ الرواية طابعا قصصيا فتقول انه لم يقبل الا بعد أن استشار نفرا معروفة بالصلاح والورع والتقوى ، وبعد ان هددته بتفسيخ عظامه فى جهنم اذا لم يقبل . وقارن الدرجينى ، ص ٣١ — ب (المطبوع ، ص ٧١) .

بفضل من كان حوله من علماء الجبل وفضلائه وزهاده ، مثل أبي زكريا الذي قيل فيه « الجبل هو أبو زكريا ، وابو زكريا هو الجبل » ، وأبي مرداس العابد الزاهد الذي اشتغل بأمر آخرته حتى ضيع أمر دنياه ، وأبي العباس(١٥٩) .

معارضة خلف لولاية عبد الحميد :

وعندما علم خلف بن السمح بتولية أبي عبيدة عبد الحميد أخذته العزة بالاثم واستكبر ، كما يقول أبو زكريا ، وعمل على أن يفرض أمر ولايته الواقع « فبسي الغارات واللصوص على أهل الدعوة » - دعوة المسلمين من رعية أبي عبيدة (١٦٠) . ورد أبو عبيدة على استفزازات افلح بطلب الكف عن اذاية المسلمين ، والاكتفاء بكون الخلاف نظريا أو تركه على مستواه القانوني . ولكنه أمام اصرار خلف على اعماله العدائية ارسل يطلب الاذن من تاهرت بمناجزته . وكان رد الامام عبد الوهاب ان يستخدم أبو عبيدة المداراة والملاطفة مع خلف والا يحاربه الا حرب دفاع عن النفس والمال . وهكذا كانت أوضاع امامة تاهرت وعلاقتها بجبل نفوسه وحيز طرابلس عندما توفى الامام عبد الوهاب في سنة (١٩٨ هـ) .

عهد افلح بن عبد الوهاب (بن عبد الرحمن بن رستم) (١٩٨ - ٢٤٧ هـ / ٧٨٤ - ٨٦١ م) :

صفات الامام الجديد : الشجاعة والعلم :

كان من الطبيعي أن تؤول الخلافة ، كما يقول ابن الصغير ، الى افلح بن عبد الوهاب ، بعد وفاة والده الذي كان قد رشحه للامارة . فلقد كان افلح مؤهلا لولاية امامة تاهرت ، لما عرف عنه من الشجاعة التي اظهرها في أكثر من لقاء مع الخصوم ، والعلم الذي نبغ فيه وهو بعد شاب يافع ، حتى قيل: « انه قعد بين يديه أربع حلق يتعلمون عنده فنون العلم قبل أن يبلغ الحلم »(١٦١) .

---

(١٥٩) أبو زكريا ، ص ٢٦ - أ ، ٢٦ - ب أما من تاهرت ، كما قال أهل المشرق فلم يكن يعد فيها الا الامام عبد الوهاب ووزيره مزور بن عمران .

(١٦٠) ابو زكريا ، ص ٢٦ - ب (الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٠ - ب ، المطبوع ، ص ٧١) .

(١٦١) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٩ - أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٤ - ٩ (المطبوع ، ص ٧٧) . والى جانب علوم الدين قيل انه وكذلك اتقنه بلغا في حساب الغبار والنجامة مبلغا عظيما حتى انه كان يعرف عدد ما سيذبح في السوق من البقر في اليوم التالي . =

وهكذا وجـــد رؤساء الجماعة الاباضية بتاهرت في ولي عهـد الامام عبد الوهاب أهم صفتين لازمتين للامام ، وهما الشجاعة اللازمة للامام في وقت الخوف من الاعداء الذين تدانوا من تاهرت طمعا في الاستيلاء عليها(١٦٢) ، وما يتبعها من العزم والحزم(١٦٣) ، ثم العلم اللازم لمناجزة الخصوم المذهبيين بعد أن أخذت الانشقاقات تدب بين أبناء أهل الدعوة ، مما تطلب مناجزتهم بالمناظرات قبل السيوف . وهكذا حذا فقهاء الاباضية حذو مشرعي أهـــل السنة الذين يشترطون في اختيار الامام : العلم وقت السلم والشجاعة وقت الحرب (١٦٤) ، وان كان الاباضية يصرون على خصلة التواضـــع وضرورة المشورة فيمن يلي أمور الجماعة ، من الامام الى أعوانه (١٦٥) .

والمعلومات الخاصة بامامة أفلح ابن عبد الوهاب تنقسم ، كما يبدو لنا في المصادر الاباضية الى قسمين : أحدهما خاص بأحداث تاهرت ، وهذه توجد في كتاب ابن الصغير ومن نقل عنه ، والآخر خاص بأحوال جبل نفوسه وحيز طرابلس ، وتلك توجد في كتاب أبي زكريا ومن أخذ عنه . ولكنه مما يؤسف له أن عهد أفلح الذى طال الى حوالى ٥٠ سنة أو يزيد (١٦٦) ، كان من المفروض أن تعج بالأخبار التاريخية الهامة ، لا يظهر لنا في كتب أهل المنصب الا في شكل السيرة المنقبية المعتادة ، دون تواريخ الوقائع أو علامات مميزة تبين العلاقات الرسمية بين الأحداث المتوالية بطريقة عفوية من غير ضابط وقتي أو رابط .

= بل وانه كان يعرف أنه سيذبح بقرة صفراء في بطنها عجل له غرة في جبهته . وان أخته كانت تستطيع أن تصحح له ذلك بمعرفة ان ما ترصه غرة في جبين العجل الذى لم يولد بعد ، انما هو طرف ذنبه الأبيض الذي انقلب على جبهته .

(١٦٢) الدرجيني ، ص ٣٢ — ب (المطبوع ، ص ٧٢) ، وانظر الشماخي ، السير ، ص ١٩٢ .

(١٦٣) ابن الصغير ، ص ٢٣ .

(١٦٤) انظر الماوردي ، الفصل الخاص بعقد الامامة .

(١٦٥) انظر الشماخي (ص ١٩٢) الذي ينقل عن ابن الصغير روايات لا نجـــدها في طبعة موتيلينسكي عن كيفية امتحان نفوسه لافلح وثبوت تواضعه لهم . فقد كان يحمل لهم المصباح يستضيئون به وهم يأكلون ليلا ؛ وعندما أعطوه لقمة من الطعام جعل المصباح على ركبته فأخذها بيديه معا كالملوك .

(١٦٦) انظر ابن الصـــغير ، أخبـــار الأئمة ص ٢٦ (٥٠ سنة) ، وقارن أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣١ — ب (٦٠ سنة . والدرجيني ، المطبوع ، ص ٨٣) .

تاهرت على عهد افلح :

ويلخص ابن الصغير عهد افلح الطويل فيقول انه تميز بسياسة الأخذ بالعزم والحزم فطار صيته واستقرت أمور دولته ودان له الجميع : من أهل المذهب ، ومن الخارجين عليهم من الشراة الذين لم يطعنوا عليه في شيء من اجكامه ، ولا في صدقاته ولا في أعشاره (١٦٧) ، فكانت النتيجة الطبيعية لذلك ، هي : ازدهار تاهرت ، ذلك الازدهار الذى نسبه نفس الكتاب الى عهد المدينة الأول أيام عبد الرحمن بن رستم .

رضاء « الشراة » عن افلح الذى كان يشاورهم فى الأمر :

أما عن رضاء الاباضية الذين يسميهم ابن الصغير بالشراة عن امامة افلح ، فقد أتى نتيجة سياسته المتزنة التى لم تنكر عليهم المشاركة بالرأى فى تدبير أمورهم . فلقد بدأ « الشراة » بامتحانه عندما توفى قاض من قضاة والده عبد الوهاب ، فسألوه أن يولى عليهم قاضيا يستحق القضاء ، فطلب اليهم أن يتفقوا على من يريدون من بين خيارهم وأنه سيعينه ، ويعاضده فى القيام بأمره .

اختيارهم لمحكم الهوارى قاضيا :

ولم يجد « الشراة » بينهم من يستحق القضاء ، بل وقع اختيارهم على أحد مشاهير أهل الورع والدين ، وهو محكم الهوارى الساكن بعيدا بجبل أوراس (١٦٨) . وعندما أخبروا الامام أفلح بذلك لفت نظرهم الى أن الرجل « نشأ فى بادية ، ولا يعرف لذى القدر قدره ، ولا لذى الشرف شرفه » . وامام تمسك الجماعة برأيهم وافق أفلح ، وخاصة ان اخاه أبا العباس كان من اشد المحبذين لولاية محكم .

وظهرت مشاركة الجماعة فى تدبير امورهم عندما « خرجت الرسل بكتاب من أفلح وكتاب من « الشراة » الى محكم » فى داخل كل كتاب منهما ، بعد اثبات بسم الله العظيم : « أما بعد فقد نزل بالمسلمين أمر لا غنى بهم عن حضورك ، وهم منتظرون لقدومك ولا يسعك التخلف فيما بينك وبين الله عن اللحوق بهم والاجتماع معهم ليجتمع رايك ورايهم على ما فيه صلاح

(١٦٧) ابن الصغير ، اخبار الائمة ، ص ٢٣ .

(١٦٨) ابن الصغير ، ص ٢٣ .

المسلمين »(١٦٩) .

بدوي بين مرفهين ، لا يفرق بين المتخاصمين :

وأخذ محكم كساءه وعصاه ، وركب دابته متجهاً نحو البلدة (تاهرت) حيث نزل في المسجد الجامع . وأتى القوم اليه وسألوه أن يقبل القضاء والا كان مسئولا عما يحدث من الفتن واراقة الدماء ، بل انهم ابتغوا ذلك بالتهديد بأنهم سيجبرونه على تقلد المنصب ، وأن الأولى به أن يقبل حتى يكون جزاؤه الشكر منهم . وأمام الحاحهم قبل الرجل البدوي الخشن ولاية القضاء بعد أن حذرهم ، من : « ان الحق مر أمر من الدواء ، ولا يشرب الدواء الا كرها » وبعد أن عرفهم بأنهم مرفهون أبناء نعم ، وان غيره ربما كان أحب اليهم منه (١٧٠) . وهكذا انزل القوم محكما الهواري في دار القضاء ، واشتروا له خادما صغيرة ، وأجروا عليه من بيت المال قوته (١٧١) .

وسار محكم في قضائه السيرة التي أملوها منه فلم يفرق في أحكامه بين غني وفقير أو شريف ووضيع . فعندما تنازع أبو العباس ، وهو أخو افلح الذي كان من الراغبين في تولية محكم ، مع أحد أصهار الامام بسبب قطعة من الأرض ورفعا أمرهما الى أفلح ، أمرهما الامام بالمسير الى محكم الهواري . وعندما رأى محكم أن أبا العباس يسمح لنفسه بطلب الماء ، وهو في مجلس القضاء في سقيفة داره بينما خصمه واقف بالباب ، غضب لذلك وأمر بأن يقدم الماء الى الخصم حتى يساوي بينهما مما أثار حفيظة أبي العباس . وعندما اشتكى أبو العباس من معاملة محكم قال له الامام افلح ان الحق كان في جانب محكم وانه لو فعل غير ذلك لكان مداهنا ، مما زاد في اعجاب الاباضية بامامهم الذي لا يعرف الهوادة في الحق ولا يخشى فيه لومة لائم (١٧٢) .

توطد أركان المملكة وزيادة ازدهار تاهرت :

وهكذا توطدت اركان الامامة الرستمية وازدهرت تاهرت على عهد افلح الذي طال ملكه حتى نشأ له البنون وبنون البنين ، وشمخ في ملكه ، وابتنى القصور واتخذ بابا من حديد ، وبنى الجفان ، واطعم فيها أيسام

---

(١٦٩) ابن الصغير ، ص ٢٤ .

(١٧٠) ابن الصغير ، ص ٢٤ .

(١٧١) ابن الصغير ، ص ٢٥ .

(١٧٢) ابن الصغير ، ص ٢٥ — ٢٦ .

الحفان (١٧٣) • وفى ازدهار تاهرت على أيام افلح يضيف ابن الصغير :
« وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات واتته الرفاق (التجار)
والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات » (١٧٤) •

قصور تاهرت :

هذا ، كما تنافس الناس فى البنيان داخل العاصمة وخارجها ، فبنوا
القصور وعمروا الضياع وأجروا خلالها الانهار • ومن اشهر المبانى التى اقيمت
فى أرباض تاهرت قصر عبد الواحد الذى كان مشهورا على أيام ابن الصغير ،
وكذلك القصران اللذان عرفا باسم بانياهما : ابان وحمويه • وكان سكان
هذين القصرين على قدر طيب من الرفاهية وسهولة الحياة بفضل عناية
صاحبيهما بهما ، كما سمع ابن الصغير من بعض شهود العيان • فعندما كان
ابان وحمويه يذهبان لزيارة القصرين ، كان أهلها يستقبلونهما فى شرفات
منازلهم ، وعليهم الثياب الملونة ، من : أحمر وأصفر ، كأنهم البدور على
الجدران (١٧٥) •

بوادى تاهرت وعناصر السكان :

وبفضل سياسة أفلح الرشيدة ورجال دولته المجتهدين انتشرت القبائل
حول تاهرت ، وعمرت العمائر ، وكثرت الاموال بايديهم ، فى الحواضر
والبوادى •

ويفهم من رواية ابن الصغير ان عناصر سكان اقليم تاهرت النشطة
كانوا من الفرس الذين ابتنوا القصور ، ومن نفوسة الذين ابتنوا العدوة ،
ومن الجند القادمين من أفريقية الذين ابتنوا المدينة التى كانت عامرة عندما
كان ابن الصغير يدون مذكراته هذه (١٧٦) •

تنظيم تاهرت على عهد افلح :

والظاهر أن الفرس كانت لهم ، على عهد افلح ، مكانة ممتازة فى تاهرت
حتى أن بعض الكتاب سمى امامة تاهرت الاباضية بالدولة الفارسية • وفى

---

(١٧٣) ابن الصغير ، ص ٣٦ •
(١٧٤) ابن الصغير ، ص ٣٦ •
(١٧٥) ابن الصغير ، ص ٣٦ •
(١٧٦) ابن الصغير ، ص ٣٦ — ٣٧ •

ذلك يروى ابن الصغير ، مما سمعه ، انه كان للعجم (الفرس) مقدم يقال له « ابن وردة » ، وأنه كان قد ابتنى سوقا عرف باسمه ، « فكان صاحب شرطة أفلح اذا تخلل المدينة لافتقادها لم يجسر أن يدخل سوق ابن وردة ولا يتخلله هيبة »(١٧٧) . أما عن النفوسيين فلم تكن بلادهم تمثل فقط مركز الثقل الشرقى من الامامة الرستمية فيما وراء بلاد الأعالية ، بل كانوا هـم أنفسهم يمثلون عصب الدولة فى تاهرت نفسها : « فكانت نفوسة تلى عقد تقديم القضاة وبيوت الأموال ، وانكار المنكر فى الأسواق ، والاحتساب على الفساق »(١٧٨) . أما الاجناد من بطانة السلطان فكانوا من أهل افريقية ، كما سبقت الاشارة ، وكان قوادهم ، كما يتضح من الرواية ، من أولاد أفلح وحشمه (١٧٩) .

هكذا ازدهرت أحوال تاهرت على عهد أفلح بن عبد الوهاب واتخذت شكل العاصمة العالمية بفضل تنوع سكانها من الفرس والنفوسيين والأفارقة. ولقد عم الرخاء القبائل المنتشرة حول المدينة ، بفضل ما اكتسبوه من الأموال وما اقتنوه من العبيد والخيول الى أن نالهم من الكبر ما نال أهـل المدينة : « حتى خاف أفلح أن تجتمع الأيدى عليه فتزيل ملكه » (١٨٠) وهكذا رأى أفلح فى أواخر سنوات امامته أن يتبع بين القبائل سياسة « فرق تسد » ، وهذا ما سنعود اليه بعد استعراض الاحوال فى بلاد نفوسة .

جبل نفوسه وحيز طرابلس :

خلف بن السمح يحمل لواء المعارضة .

على عكس ابن الصغير الذى انفرد بقصة تاهرت على أيام أفلح ، خصص أبو زكريا ومن نقل عنه ، مثل : الدرجينى كل روايته على عهد أفلح لأحوال جبل نفوسه وحيز طرابلس ، حيث كان خلف بن السمح يحمل لواء المعارضة ضد أفلح وواليه أبى عبيدة عبد الحميد الجناوى بعد أن رفض التعايش السلمى الذى اقترحه عليه هذا الأخير أيام الامام عبد الوهاب ، على أساس أن ينفرد

---

(١٧٧) انظر ابن الصغير ، ص ٢٧ . الذى يضيف ان ابن وردة كان من وجوه العجم وأنه كانت قد بقيت منهم بقية على أيامه فى مدينة ميجانة .

(١٧٨) ابن الصغير ، ص ٢٧ .

(١٧٩) ابن الصغير ، ص ٢٧ .

(١٨٠) ابن الصغير ، ص ٢٧ .

كل منهما بناحيته (١٨١) . فقد رفض خلف الاعتراف بالامام أفلح ، وانحاز بمن انضم اليه من الرجال الى موضع يعرف بـ « تيمتى »(١٨٢) ، وما يليها من المشرق . وهو رافع راية العصيان ، غير مقر بامامة أفلح ولادان بطاعته .

الحرب بين خلف وأبى عبيدة عبد الحميد :

ومن تيمتى (تمتى) أخذ خلف يشن الغارات على رعايا الامام المقيمين فى حيز أبى عبيدة عبد الحميد ، ويستبيح أموالهم ويخرب ديارهم ويقتل رجالهم دون تمييز ، كما يقول كتاب الاباضية ، حتى أنه قتل خطأ فى بعض الاحيان بعض أولئك الذين كانوا قد دانوا له بالطاعة ، وهو يحسب أنهم من رعية أبى عبيدة عبد الحميد (١٨٣) . وهكذا عظمت شوكة خلف الذى استخدم الترغيب أيضا الى جانب الترهيب ، فاستمال الرجال بعطاياه من الاقطاعات والأموال ، وصارت اليه الخيل والى اهل بيته ومواليه ومماليكه ، وساعده على ذلك أن ما كان تحت حوزته من الأرض كان خصيبا بينما كانت أرض أبى عبيدة جدبة (١٨٤) .

وكتب عبد الحميد الى الامام أفلح يستشيره فى أمر الخبيث بن الطيب ، كما تقول رواية الدرجينى ، ويستأذنه فى الدفاع ، ولكن الامام كتب اليه بمثل ما كان قد كتب به والده من استخدام اللين والمداراة (١٨٥) . واستمر خلف فى أعمال العدوانية ضد رعية عبد الحميد فبعث بسرية من أربعمائة رجل نهبت قرية تعرف بـ « تسمات درف » فأخذ رجاله ما قدروا عليه من أموالها، وفكوا ما قدروا عليه من الجمال بعد أن كان قد أخذ أكثر الخيل ،كما قتلوا عددا من أهل القرية . وأصابوا عشرة أنفس من أصحاب أبى عبيدة عبد الحميد (١٨٦) . وتقول الرواية الاباضية أن عبد الحميد الذى كان واقفا

---

(١٨١) أنظر فيما سبق ، ص ٣٣٧ .

(١٨٢) انظر أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٦ ــ ب حيث الكلمة تمتى ، وقارن الدرجينى الذى اخذنا بكتابته ، المخطوط ، ص ٣٢ ــ ب (المطبوع ، ص ٧٢) ، الشماخى ، ص ١٨٣ .

(١٨٣) انظر أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٦ ــ ب ، الدرجينى المخطوط ، ص ٣٢ ــ ب (المطبوع ، ص ٧٢) ، الشماخى ، ص ١٨٣ .

(١٨٤) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٧ ــ أ ، الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٢ ــ ب ص ٣٣ ــ أ (المطبوع ، ص ٧٢ ــ ٧٣) .

(١٨٥) الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٢ ــ ب (المطبوع ، ص ٧٢) ، وما سبق ، ص ٣٣٧ .

(١٨٦) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٧ ــ أ ، الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٣ ــ أ (حيث يسمى القرية ايدوف) والمطبوع ، ص ٧٣ (حيث تسمى القرية ويدوفه ، وحيث : وقتلوا ما قدروا عليه من الرجال بدلا وفكوا ... الجمال) .

على رأس عسكره ببعد من الجبل كان قد منع أصحابه ـ بناء على تعليمات الامام أفلح ـ من التعرض لرجال خلف (١٨٧) ، ولكنه لما استبان له تعيهم أمر رجاله (المسلمين) بمنابذتهم ، فهزموهم وقتلوا منهم كثيرا ، ولكن عبد الحميد منع عسكره من اتباعهم . وبذلك عاد كل من خلف وعبد الحميد الى موضعه : الأول الى تيمتي والثاني الى موطنه وكذلك أصحابه (١٨٨) .

معركة تعادل غزوة بدر :

وعاد عبد الحميد الى مداراة خلف فأرسل اليه يطلب منه السلام على أن يكون كل منهما في حيزه ، ولكن خلفا أبى من ذلك واستمر في شن الغارات على أهل طاعة أبي عبيدة واعداد العدة لاستئصالهم . وهكذا عندما اجتمع الى خلف عدد كبير من الرجال خرج لملاقاة عبد الحميد في معركة فاصلة ، وذلك بعد سنة من لقاء « قسمات درف » . ومع أن عبد الحميد خرج الى هذا اللقاء في عدد قليل من أصحابه « عددهم هو عدد أصحاب بدر » أي ٣١٣ رجلا أو سبعمائة بينما كان خلف في ٤ (أربعة) آلاف فارس ، فانه كان مطمئنا الى أن رجاله كانوا من أهل البصائر الذين يموتون على ما أبصروا ، وهذا مالم يشاطره اياه خلف (١٨٩) .

المناظرة قبل القتال :

وذلك أنه قبل القتال بدأت مناظرة بين الفريقين حاول كل منهما فيها أن يثبت صحة موقفه ، فلقد أرسل خلف الى أبي عبيدة رسولين طلبا منه خلع الامام أفلح واثبات ولايته هو ، وكانت الحجة في ذلك أن حيز جبل نفوسة منقطع عن تاهرت . ويعرض أبو زكريا الأسانيد التي ارتكز عليها اتباع الامام أفلح في تفنيد حجج خلف وأتباعه على الوجه الآتي : فقد بدأ أبو عبيدة عبد الحميد بأن سأل رسولي خلف عما اذا كان الامام عبدالوهاب ثم ابنه أفلح قد أحدثا أمرا يحـــل به خلع ولايتهما ؟ واحتج لذلك بطـــاعة

---

(١٨٧) الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٣ ـ أ (المطبوع ، ص ٧٣) ، الشماخي ، ص ١٨٣ .

(١٨٨) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٧ ـ أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٣ ـ أ (المطبوع ، ص ٧٣) .

(١٨٩) أنظر أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٧ ـ ب ، حيث يسجل أن رجال أبي عبيدة كانوا ٣١٣ رجلا وأن رجال خلف كانوا ارستى الفا (وقارن الشماخي ، السير ص ١٨٦) . بينما يقول الدرجيني ان رجال عبد الحميد ربما بلغ سبعمائة رجلا وان رجال خلف كانوا ٤ آلاف فارس وهو ما رجحناه فأخذنا به (المخطوط ، ص ٣٣ ب ، المطبوع ، ص ٧٤) .

السمع اى والد حلف لعبد الوهاب • وعندما اعتل رسل خلف بالحوزات وانقطاعها رد عليهم من جديد بطاعة السمع لعبد الوهاب رغم اختـــــلاف الحوزات •

وعندما اجاب رسولا خلف بالخوف من اراقة الدماء ان لم يطع عبدالحميد خلفا ، سالهما : أيهما أعظم ، اراقة الدماء أو ترك القيام بدين الله ؟ ولما قالا له أن اراقة الدماء أعظم احتج عليهما بأعمال السلف الصالح من رؤســـاء الخوارج ، وقال لهما : لو صح ذلك لافترق أصحاب النهر (النهروان) وغيرهم ، وذعنوا لطاعــة الظلمة المسودة ، وأصحاب النخيلة ، وأبو بلال وأصحابه ، وعبد الله بن يحيى ، وأبو حمزة وأصحابهما ، من روادهم في المشرق ، ثم أبو الخطاب ومن تبعه من المسلمين ، وأبو حاتم ومن تبعه من رؤسائهم في المغرب • فكل أولئك لم يتركوا القيام بحق الله مخافة اهراق الدماء ، بل انهم حبذوا الجهاد في سبيل الله وفضلوه • وأضاف عبد الحميد الى ذلك أنه اذا كانت أراقة الدماء أعظم من القيام بدين الله تعالى ، فعلى ما يقتلون الناس ؟(١٩٠) •

المباهلة بعد المناظرة :

وانتهت المناظرة في يوم خميس دون الاتفاق ، وكان على السيف أن يقرر لمن يكون الحكم • فهكذا طلب أبو عبيدة عبد الحميد من الرسولين أن يرجعا الى صاحبهما ، وأن يكون الابتهال الى الله مرجعا ثانيا لهم قبل الالتجاء الى الحرب • وكان الابتهال ، كما قال لهما عبد الحميد ، يقتضي من الخصمين ـ خلف وعبد الحميد ـ الصيام يوم الجمعة ثم الطلوع مع أحد كبار أهل الثقة وهو أبو المنيب اسماعيل بن درار الغدامسي ، فكانه الحكم ، على شعب الجبل : « فنبتهل ، فنجعل لعنة الله على الكاذبين ، وأن يفتح بيننا وبينكم ، وهو خير الفاتحين » (١٩١) •

وأغلب الظن أن المباهلة المقترحة لم تتم اذ تشير الرواية مباشرة الى استعداد خلف للقاء أبي عبيدة وأمره لرجاله بالتهيؤ لهذا اللقاء ، وأن أباعبيدة

---

(١٩٠) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٧ ـ ب ، وقارن الدرجيني المخطوط ، ص ٣٣ ـ ب (المطبوع ، ص ٧٥) •

(١٩١) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٨ ـ ب ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٤ ـ أ (المطبوع ، ص ٧٥) •

أمر رجاله عندما اقتربوا من حصومهم ــ بناء على نصيحة من أحد اصحاب خلف ــ بالتراجع الى سفح الجبل ليكونوا في موقع استراتيجى جيد ، حيث يمكنهم أن ينالوا من عدوهم اذا كانت الجولة لهم ، وليصبحوا فى مأمن منهم لو دارت الدائرة عليهم . وعندما تراجع أصحاب أبى عبيدة الى سفح الجبل ظن خلف أنهم جبنوا وخافوا فأمر رجاله بالهجوم عليهم .

وهنا قام أبو عبيدة بالابتهال الى الله ، وبعد أن توضأ وصلى ركعتين ــ فدعا الله وابتهل اليه أن يفل شوكتهم(١٩٢) . وذلك قبل أن يرغب أصحابه فى القتال ، ويدعو لمن يموت تائبا من العاملين الصالحين منهم (١٩٣) .

معركة اجناون ، وهزيمة خلف (٢٢١ هـ/٨٣٦م) :

وهكذا تم اللقاء غير بعيد من أجناون بالجبل ، كما يقول الشماخى (١٩٤)، عشية الخميس ١٣ من رجب عام ٢٢١ هـ/٤ يولية ٨٣٦ م ، وأصحاب أبى عبيدة يقاتلون للدفاع فى سبيل الله ــ دفاع أهل البغى . واشتد القتال الشديد الذى أبلى فيه العباس بن أيوب بن العباس بلاء حسنا ، فكان يكشف خيل خلف يمينا وشمالا ، بانهزام أهل البغى من أصحاب خلف هزيمة منكرة ، بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة . ورغم بغى الخلفيين من النكار فقد أمر أبو عبيـــدة عبد الحميد رجاله بالا « يتبعوا مدبرهم ولا يجهزوا على جريحهم ، وأحسن السيرة فيهم (١٩٥) .

---

(١٩٢) أبو زكريا المخطوط ، ص ٢٦ ــ ب ، الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٤ ــ أ (المطبوع ، ص ٧٥) .

(١٩٣) الشماخى ، السير ، ص ١٨١ : حيث يقول انه دعا بالجنة لمن مات تائبا « الا من كان على فراش حرام أو قتل يد ، أو غصب مالا » .

(١٩٤) السير ، ص ١٨٩ .

(١٩٥) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٨ ــ ب ، حيث تقول الرواية المنقبية أن العباس ابن أيوب ضرب رجلا فطار رأسه ، فقال العباس للرأس : « الى النار » فقال له الرأس مجيبا وبئس المصير » . هذا ، كما تشير الرواية الى أن الرجل من أصحاب أبى عبيدة كان يرمى بالمزراق فيخرج من ظهر خصمه ويركز خلفه . وقارن الدرجينى ، المخطوط ص ٣٤ ــ أ (المطبوع ، ص ٧٦) .

خلف يهجر خصومه :

وهكذا عاد خلف مهزوما الى موضعه في تيمتي ، ولكنه بدلا من أن يتعظ بمن درس الهزيمة تمادى في أعماله العدوانية ضد اتباع عبد الحميد وافلح • فتقول رواية أبى زكريا أنه أخرج من اقليم تيمتي من كان هناك من نفوسه وغيرهم ممن لم يكونوا متعاطفين معه ، « وأجل لهم ثلاثة أيام ، فمن وجد بعد ذلك فمهدور دمه وماله » ، لم يفرق فى ذلك بين اليتامى والمساكين والأرامل ومن ليس له ذنب » ، ممن أخرجوا على كره منهم • وصار هؤلاء يتوافدون على أبى عبيدة ويعلنون التوبة ويرجعون عن خلف ، الذي وهن بعد ذلك « حتى مات فى زيفه وغيه » ، وحتى ان ابنه اضطر الى الانحياز بأعوانه فيما بعد الى جزيرة جربة (١٩٦) • وبذلك انتهت قصة الافتراق الثاني ، وهو أفتراق الخلفية ، في امامة تاهرت الرستمية ، وتمكنت امامة أفلح الذيَ « ألقا بيده يمينا وشمالا ، وتمكن في امامته واطردت له الأمور واستقامت له الأحوال » • اما أبو عبيدة عبد الحميد فقد ظل ملازما الطاعة الى أن ادركته منيته ، فاستعمل الامام أفلح مكانه ، على نفوسة ، العباس بن أيوب بن العباس الذى أحسن السيرة على سبيل أصحابه الى أن توفي (١٩٧) ، وكانت وفاته ايذانا بالانشقاق الثالث بين أباضية تاهرت •

النفاثية ، والافتراق الثالث في الاباضية على عهد الامام افلح :

تسمية النفاثية :

اذا كانت نفوسة وجبلها قد مثلت مركز الثقل فى امامة تاهرت الرستمية، فان مدينة قنطرارة وحيزها كانت بمثابة مركز الثقل في جبل نفوسة (١٩٨) • وبسبب التنافس على ولاية اقليم قنطرارة كان الانشقاق الثالث بين الاباضية

---

(١٩٦) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٨ ـ ب ، ٢٩ ـ أ ، وقارن الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٤ ـ أ (المطبوع ، ص ٧٦) : الذى يذكر أن حفيد خلف هو الذى انحاز بأعوان جده الى جربة حيث اقاموا بعيدين عن المشاركة فى امور الدولة الرستمية •

(١٩٧) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٩ ـ أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٤ ـ أ (المطبوع ، ص ٧٧) •

(١٩٨) انظر البارونى ، كتاب الأزهار الرياضية فى آئمة وملوك الاباضية ، قسم ٢ ص ١٩٦ ـ ١٩٧ : حيث يقرر المؤلف أن قنطرارة هى المدينة المعروفة حاليا بـ « تيجى » وكانت ذات عمارة واسعة وثمار متنوعة ، وعيون جارية فى ذلك العهد ، وان لم يبق فيها الآن الا قليل من النخيل وبعض العيون التى لا ينتفع بها •

على عهد الامام أفلح بن عبد الوهاب ، وهو الانشقاق الذى عرف أصحابه بالنفاثية نسبة الى نفاث ، وهو اسم الشهرة الذى عرف به قائد الحركة فرج ابن نصر النفوسى (١٩٩) • ومع أن البارونى يسجل اسمه فى شكل نفات ويقول انه ربما كان من القرية المعروفة الآن بنفاته ، والتى ربما كان أهلها المالكية من سلالته (٢٠٠) ، فالواضح من النصوص أن أصحاب الامام أفلح هم الذين أطلقوا اسم نفاث على فرج : كلقب تجريحى ، كما فعلوا مع النكار ، وهو الاسم الذى يكاد يعادل اسم الخوارج الذى أطلق على أسلافهم الأوائل • واذا صح ذلك فأغلب الظن ان اسم نفاث مشتق من الفعل نفث ينفث ، والمقصود به هو نفث سموم الخلاف والفرقة •

نفاث : فرج بن نصر النفوسى : تكوينه العلمى :

وكان فرج بن نصر النفوسى ، الذى اشتهر بنفاث ، من علماء الاباضية المشهورين بغزارة العلم والاجتهاد وصواب الرأى • اعترف له بذلك خصومه من شيوخ المذهب ، وسجلوا الحقائق والاساطير حول علمه ورجاحة عقله وقوة فكره • فقالوا انه أخذ العلم عن الامام افلح نفسه (٢٠١) الذى كان قد طهر نبوغه قبل أن يبلغ الحلم • ونصوا على أنه لم يكن يكتفى بالعلم النظرى بل كان يسعى الى اثبات النظرية بالتجربة ، كما حدث عندما سألته امرأة عن بيضة طاهرة طبخت فى قدر مجوسى • « فدخل الدار فأخذ بيضة ونيلا ، وطبخها ، ونزع القشر فوجد النيل قد سود القشرة وتغير داخل البيضة حتى صار كلون النيل ، فعلم أن القشر لا يمنع النجس»(٢٠٢) •

هذا ، كما قيل انه سار الى المشرق ما بين الحجاز والعراق ـ لطلب العلم على شيوخ المذهب هناك ـ وأنه دخل بغداد ، حاضرة الخلافة ، وبلغ به الأمر الى حد أنه تحدى العلماء والفقهاء من بطانة أمير المؤمنين وناظرهم فى مجلسه ، واجاب على أسئلتهم ، « حتى عيوا فلم يقدروا له على شىء » ، وحتى « تعجب السلطان من علمه مع سخافته ونسبه وقلة أدبه ، وقال نعم العسل فى ظرف

---

(١٩٩) أبو زكريا ، ص ٢٩ ـ ب ، الدرجينى ، ص ٣٤ ـ أ (المطبوع ، ص ٧٧) •
(٢٠٠) الأزهار الرياضية ، قسم ٢ ص ١٩٦ •
(٢٠١) أبو زكريا ، ص ٢٩ ـ أ (الدرجينى ، المطبوع ، ص ٧٨) •
(٢٠٢) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٠ ـ أ ، وقارن الدرجينى ص ٣٥ ـ ب (المطبوع ص ٧٩) •

سوء (٢٠٣) .

ديوان جابر بن زيد :

وكانت فرصة انتهزها نفاث لكي يسمح له الخليفة بنسخ ديوان جابر ابن زيد (٢٠٤) الذي كان محصورا في خزائن دار الخلافـــة لا ينتفع بـــه أحـــد (٢٠٥) .

اسباب دينية للخلاف :

وتشير الرواية الى أن نفاثا عندما وصل ومعه ديوان جابر الى طرابلس الغرب أخذ يضعف أهل مذهبه ، وساء ظنه بهم ، مما يؤكد أن رحلة المشرق قد كانت اكسبته من العلم مالم يكن معروفا لدى أهل المذهب في المغرب ، وان ذلك كان من الأسباب الرئيسية للخلاف بينه وبين الامام أفلح . أما ما تقوله رواية ابي زكريا من أن نفاثا خاف أن يصير ديوان جابر الى أهل دعـــوة المسلمين ، فيزدادوا به علما ، وانه فضل أن يدفن الديوان في بعض المواضع ،

---

(٢٠٣) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٠ - أ ، ٣٠ - ب . حيث تقول الرواية ان نفاثا كان جالسا في حانوت بعض البغداديين عندما سمع المنادي ، فقال له صاحب الحانوت : ان من أجاب لأمير المؤمنين مسائله عله سؤاله والا قطعت رأسه ، فأسرع نفـــاث على التقـــدم للاجابة ، وانه عندما أدخله الأعوان على أمير المؤمنين الذى قربه وسأله عن أحواله وبلده ونسبه بدأ نفاث كلامه قائلا : يا أمير المؤمنين ، انا رجل من البربر ، والبربر ليس معهم ادب فاريد ان اتكلم في مجلسك بما بدى لى . وقارن الدرجيني ، ص ٣٦ - أ ، ٣٦ - ب (المطبوع ، ص ٨٠) .

(٢٠٤) عن جابر بن زيد الأزدي صاحب الديوان (٢١ هـ - ٩٦ هـ) الذى يعتبر من مؤسسي المذهب الاباضي وشيخ أبي عبيـــدة مسلم بن ابي كريمة ، انظـــر علي يحيى معمر ، الاباضية في موكب التاريخ ، ج ١ ص ١٤٢ - ١٥١ .

(٢٠٥) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٠ - ب ، ٣١ - أ . وتضيف الرواية ان وزراء الخليفة اعترضوا على السماح لنفاث بنسخ ديوان جابر وخروجه من دار الخلافة ، واستدلوا بذلك على علم نفاث وعقله وما سيصير اليه بعد أن ينسخ ديوان جابر ، وانهم فكروا في حيلة تمنع من ذلك فعرضوا على نفاث أن يستعير الديوان لليلة واحدة عندما يريد . وواجه نفاث المأزق بأن اختار أطول ليالي السنة ، وبذل المال بسخاء لعدد كبير من الوراقين ، من : نساخ ومجلدين وأمدهم بالورق والحبر الكثير حتى نجحوا فعلا في نسخ ديوان جابر في تلك الليلة الا كتابا واحدا من العشرة كتب ، أبى عليه السلطان أن ينسخه ، ولكنه سمح له أن يقرأه مرة واحدة بين يديه ، كانت كافية لأن يحفظه نفاث عن ظهر قلب . وتضيف الرواية ان السلطان حاول أن يحتال على نفاث حتى لا يخرج بالديوان من بغداد عن طريق تعجيزه بالاجابة لعدد من المسائل ، ولكنهم لم يقدروا له على شيء ، ثم انه عرج على مكة قبل أن يأخذ طريق المغرب حتى يضللهم . وقارن الدرجيني ، ص ٣٦ - ب (المطبوع ، ص ٨١ - ٨٢) .

« وأنه لم يعرف موضعه الى يومنا هذا » ، وهذا كله بغيا وحسدا (٢٠٦) ، فالمقصود به تأكيد أن رحلة المشرق كانت بعد الافتراق ، وهو الامر الذى يجافى المنطق السليم الذى يرجح أن الانشقاق كان بعد رحلة نفاث الى المشرق حيث تفقه في المذهب ، ورأى أن ينشر اجتهاداته التى أشرنا اليها .

أسباب سياسية للخلاف :

ومع أن أبا زكريا يصبغ حياة نفاث العلمية الحافلة هذه عقب خلافه مع الامام أفلح ، الأمر الذى أدى الى ذلك الافتراق الثالث فى الاباضية بالمملكة الرستمية ، فالواضح أن أبا زكريا اراد بذلك - وهذا ما فعله أهل المذهب الذين نقلوا عنه - ان يجعل أساس الانشقاق الثالث سياسيا ، وان كان الافتراق قد أصبح مذهبيا . فهو يجعل المنافسة على ولاية قنطرارة والحاح نفاث فى الوصول الى منصب الوالى هى السبب فى ذلك الانشقاق . وفى ذلك ينص أن الامام افلح كان قد استعمل على قنطـــرارة أبا يونس وسيم بن يونس النفوسى الذى أصلح ما كان يدور فى المنطقة الزراعية الغنية من افســـــاد للزروع(٢٠٧) ، كما انه اشتد فى جمع الزكاة من مستحقى دفعها ، حيث أعلن أنه « لاقرار من الصدقة » (٢٠٨) .

ولاية قنطرارة : منافسة بين نفاث وسعد بن وسيم :

وعندما توفى أبو يونس وسيم كان ابنه سعد يطلب العلم لدى الامام أفلح وبصحبته فرج بن نصر وهو نفاث . وعندما نظر أفلح فيمن يستعمله على قنطرارة ، فاختبر الناس وميرهم ، « وجد سعد بن يونس لامور المسلمين أصلح ، ولأمور الدين أحسن ، ولحدود الله أصلب » . فكتب سجلا باستعماله ، ودفع السجل بعد ختمه الى سعد ونفاث ، ولم يبين لهما من العامل ، وأمرهما ألا يفضا السجل الا في قنطرارة . وخلال الطريق « استخف الشره وسوء الخلق وحب الرياسة » نفاثا ، « ففتش وراء الكتاب وفض خاتمه وقرأه » . واستاء

---

(٢٠٦) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣١ - أ ، ٣١ - ب ، وقارن الدرجينى ص ٣٧ - أ (المطبوع ، ص ٨٢) .

(٢٠٧) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٩ - أ : حيث ينص على أن سبب خروج أبى يونس الى قنطرارة أن الخدم كن يحتطبن من اجنة الناس فاذا جاء المطر فى المواضع التى احتطبن منها فتتهدم الجسور من ذلك - وقارن الدرجينى ، ص ٣٤ - ب ، ٣٥ - أ (المطبوع ، ص ٧٧) .

(٢٠٨) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٩ - أ .

نفاث لأن الامام أفلح فضل عليه سعد بن وسيم لولاية قنطرارة : « فاضمر في قلبه الغش والعداوة » . وهكذا فرغم أن سعدا ولى قنطرارة فأحسن السيرة ، وقام بحق الله ، وأقام له منبرا وجمعه ، يعني أنه كان يؤم صلاة الجمعة ويدعو للامام أفلح في الخطبة ، فان نفاثا أظهر الطعن في الامام (٢٠٩) .

نفاث يطعن في الامام ويثير خلافات فقهية ، ما بين التقليد والتحديث :

والى هنا ورواية أبي زكريا تسجل أن سبب خلاف نفاث سياسي دنيوي، من أجل ولاية قنطرارة . ولكنه يأتي بعد ذلك بأسباب أخرى ذات طبيعة فقهية مذهبية ترجع أن الخلاف كان دينيا من حيث الشكل على الأقل ، أو أنه صار هكذا . من ذلك ما ينسب الى نفاث من أنه قال في الامام أفلح: « أضاع أمور المسلمين ، ويزيد في الخلقة ويلبس الطرطور ، ويخرج الى الصيد ، ويطلى بالأسبر»(٢١٠) . مما يعني أن نفاثا كان متمسكا بسنن أهل الدعوة القديمة، وأنه كان ضد مظاهر التطور التي أخذ به الامام أفلح ، من التجديد في الزى وتقليد خلفاء بغداد وعمالهم في لبس القلانس ، والعناية بالملبس والمظهر ، وانفاق بعض الوقت في الرياضة والقنص . ثم تتسلسل الخلافات المذهبية والفقهية في عدد من المسائل التي يظهر فيها اجتهاد نفاث ، والتي انكرت عليه حتى نسب بسبب بعضها الى الكفر .

فمن المسائل التي ابتدعها نفاث : زعمه أن خطبة الجمعة بدعة . ومن أخطرها فتواه بأن أبناء أخي الرجل من الأب والأم (أى الشقيق) أولى بوراثته من أخيه من الأب فقط . ويعلق أبو زكريا على هذه الفتوى ، فيقول : ان نفاثا راد بها ضلالا ، وان المشايخ قالوا : « لو لم يفت الا هذه المسئلة لكفر بها »(٢١١) .

---

(٢٠٩) أبو زكريا ، ص ٢٩ — ب . وقارن الدرجيني ، ص ٣٥ — أ ، ٣٥ — ب (المطبوع ، ص ٧٨) .

(٢١٠) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٩ — ب ، وقارن الدرجيني ، ص ٣٥ — ب (المطبوع ، ص ٧٨) ، وانظر البارونى ، الأزهار الرياضية ، قسم ٢ ص ١٩٨ : حيث يشرح « ويزيد في الخلقة » بمعنى أنه عظيم العمامة كبير الوجه طويل اللحية جدا ، كما يقرأ « ويصلى بالإشبير » عن الدرجيني ، بدلا من « ويطلى بالاشبير » التي تشبه : ويصبغ شعره بالحناء .

(٢١١) أبو زكريا للمخطوط ، ص ٢٩ — ب ، وقارن الدرجيني ، ص ٣٥ — ب (المطبوع ، ص ٧٩) . ويذكر أبو زكريا بعد ذلك (ص ٣٠ — أ) بعض الروايات التي يدلل بها على ضلال نفاث ، فيقول ان ابن أخته رآه في المنام يحمل الشمس على رأسه ، وقد وضع عليه سنور وهو فوق رأسه ، ويفسر ذلك ان الشيطان استولى عليه وهو يجمع العلم —

وهكذا كانت شقة الخلاف المذهبي تتسع بين نفاث وأعوانه في جبل نفوسه وبين أصحاب الامام أفلح ، وعلى رأسهم سعد بن أبي يونس وسيم والي قنطرارة . واضطر سعد الى ترك مقر ولايته والخروج الى جبل نفوسة حيث مقام نفاث مخافة أن يضل الناس . وبنى سعد دارا بجبال نفاث . الذي كان بناء عظيما ، فأسرع لمعاونته في البناء . ويقول ابو زكريا أن سعدا خشي « ان يتوهم الناس أنه رضي عن نفاث فكان يقول له : الى متى نترك كفرك يانفاث ، فيقول له نفاث : معاذ الله من الكفر ياشيخ » . وكان سعد يقول لأصحابه في ذلك : « ليس جزاء من يساعدني الشتم انما تخوفت الفتنة وجزاؤه اللحم والخبز (٢١٢) .

ويضيف الباروني في الازهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية عددا من مسائل الخلاف التي أثارها نفاث ، منها قوله ان الله هو الدهر الدائم وانكاره استعمال الامام العمال والسعاة لجباية الحقوق الشرعيه ومطالب بيت مال المسلمين من الرعايا . وقوله أن المضطر بالجوع لا يمضي بيع ماله اذا باعه لأجل ذلك وعلى من شهد مضرته تنجيته وقوله ان العقد لا يتحقق الا ببعض تجاوز البحر الى غير ذلك من المسائل التي يتحل فيها الخلاف (٢١٣)

هذا كما يسجل الباروني ثلاث رسائل منسوبه الى الامام افلح في حق نفاث وفي الرد على بدعه ومسائله . والأولى منها موجبة الى والي نفزه وهو حيال بن يوسف ، يدعوه فيه الى تنبيه رعيته الى ضلال نفاث ويحذر من ترشده على مجالس أهل الدعوة حتى يرجع الى سنة المسلمين وذلك قبل الرد على ضلالته (٢١٤) . والرسالة الثانية التي لا يعرف اسم من أرسلت اليه من العمال ، وكان يشكو للامام من أعمال نفاث تشير الى ضلال نفاث وبدعه ومخالفته شريعة السلف الصالح والائمة المرضيين ، وتدعو الى اقامة الحق عليه وهجره وابعاده (أي البراءة منه) ان تمادى في خلافه . ثم تنص الرسالة على أن من

كما يذكر ان و لا اراد الدخول في مذهبه فلحقه في الطريق فسمعه ، وهو يقول : « ضللت واضللت يانفاث » . ويختم ابو زكريا بقوله وعلما انه اعطى في العلم منزلة عظيمة والفقه والفهم ... ولكنه أفسد ذلك كله بالحسد وحب الامور مما ان أسباب الخلاف المذهبي كانت شخصية سياسية .

(٢١٢) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٩ ـ ب ، ٣٠ ـ أ ، وقارن الدرجيني ، ص ٢٥ ـ ٣١ ـ ١٠ ، (المطبوع ، ص ٨٢ م) .

(٢١٣) الباروني ، الأزهار الرياضية ، قسم ٢ ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

(٢١٤) الباروني ، الأزهار ، قسم ٢ ص ١٩٩ ـ ٢٠١ .

ينكر شيئا على عامل من العمال فعليه أن يكتب بذلك الى الامام ، كما تنص على منع الوثوب على العمال(٢١٥) أما الرسالة الثالثة فقد وجهها الامام أفلح الى نفاث نفسه يحذره فيها من ابتداع غير الحق ، ويدعوه الى العودة الى الرشد ويكرر خلع كل من خالف سيرة المسلمين وتقيه وتحجره واقصائه ، وكذلك البراءة منه ، مع اشارة خاصة الى من يزعم أن عمال الامام أساقفة ، وأنهم لاطاعة لهم في حال كتمانهم — وفي نهايتها يطلب من نفاث أن يعود الى حظيرة الجماعة ، وأن يترك المخالفة ، وما كان يطالب به من التصحيح ، الأمر الذي يقتضي أن يعلن أفلح توبته حتى يرضى عنه (٢١٦) .

ورغم ما يقوله الباروني ، من : أن نفاثا تاب ورجع عن مسائله التي خالف فيها « مستندا الى أنه لم يرو أحد أنه ذكر الامام افلح بسوء أو تكلف لاثارة فتنة أو سعى في فساد ، وذلك بعد رجوعه من المشرق ، اذ استقامت الأمور لأفلح(٢١٧)، فالمعروف هو أن النفاثية ، مثلها مثل : النكارية والخلفية ، ظلت من الفـــرق المنشقة على المجتمع الاباضي الى ما بعد نهاية امامة تاهرت الرستمية . وفي ذلك يقول الدرجيني : انه : « لم يبق ببلادنا من يقول بقول نفاث ، وينصر حجته الا فريق من مطماطة ، فمنهم بالحمة ، ومنهم بالجبل ، واليه ينسبون ، فيقال لهم النفاثية »(٢١٨) .

ازدهار المملكة على عهد افلح ، وسياسة « فرق تسد » :

هكذا تكون الأمور قد استقرت للامام أفلح — رغم انشقاق الخلفية ثم النفاثية خلال ملكه الذى دام الى أكثر من نصف قرن (الى حوالى ٢٤٧ هـ/٨٦١م) حسب رواية كل من ابن الصغير وأبى زكريا . وخلال تلك المدة توطأت أمور المملكة في تاهرت ، وأغتنت القبائل حول تاهرت وتحضرت ، وبدأ يظهر فيها الفساد والبطر ، مما جعل الامام يخشى على مملكته ، كما يقول ابن الصغير ، حتى انه بدأ يطبق مبدأ « فرق تسد » بين القبائل كي يلهيها بالصراع فيما بينها ، حتى يظل محتفظا لنفسه بموقف الحكم .

---

(٢١٥) الباروني ، ص ٢٠١ — ٢٠٤ .

(٢١٦) الباروني ، الأزهار الرياضية ، قسم ٢ ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢١٧) الأزهار الرياضية ، قسم ٢ ، ص ٢٠٥ — ٢١٠ .

(٢١٨) الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٧ — أ (المطبوع ، ص ٨٢ — حيث القراءة بالجمة بدلا من الحمة) .

وفي ذلك ينفرد ابن الصغير بالقول ان الامام افلح « أرش بين لواتة وزناتة من جهة ، « وما بين لواتة ومطماطة » من جهة أخرى ، كما أثار المعرات بين الجند وبين العجم حتى تنافرت النفوس وقلمت الحروب ، « وصارت كل قبيلة ملاطفة لافلح خوفا من ان يعين صاحبتها عليها (٢١٩) ٠

اعتقال ولي العهد أبي اليقظان محمد في بغداد الى وفاة المتوكل :

وبفضل تلك السياسة التى أدت الى انفاق حماس القبائل العسكرى فيما بينها اطمأن افلح الى ملكه حتى نهاية عهده ، « فاستلقى على ظهره أمنا ومد يديه ورجليه مطمئنا وعلم أنه قد كفى أمرهم » ٠ ولم ينغص عليه عيشه الا افتقاده لابنه الأكبر وولي عهده الأمير أبي اليقظان محمد الذى كان قد سار الى المشرق لأداء فريضة الحج ، وربما للتفقه أيضا على شيوخ المذهب هناك ٠ اذ تقول الرواية أن رسل بنى العباس الوافدين فى قافلة الحج المغربية كشفوه فى مكة واخبروا انه جاء لبث الدعاة في المشرق فحمل الى دار السلام بغداد . وذلك على عهد الخليفة العباسى « المتوكل »(٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) على ما يظن ٠ وحبس أبو اليقظان فى سجن المتوكل مكرما مع ابن الخليفة كما يقول ابن الصغير ، وظل فى الحبس الى مقتل المتوكل (سنة ٢٤٧ هـ/٨٦١ م) حيث أخرجه الخليفة الجديد زميله في السجن (٢٢٠) ، وهو المنتصر بن المتوكل (الذى لم يمكث فى الخلافة الا ستة أشهر فقط) الذى أحسن جائزته ، وأجرى عليه العطاء الى حين عودته الى تاهرت (٢٢١) ٠ وكانت عودة أبي اليقظان الى تاهرت بعد وفاة والده أفلح الذى « اشتد حزنه عليه وطال غمه به فلم يزل مهموما محزونا الى أن وافته منيته (٢٢٢) ٠ وكانت امامة تاهرت قد آلت الى أخيه أبى

---

(٢١٩) ابن الصغير ، ص ٢٧ ٠

(٢٢٠) ابن الصغير ، ص ٢٧ — ٢٨ (حيث القراءة فى النص أنه سجن مع اخى الخليفة التى عدلناها الى ابن الخليفة) ٠

(٢٢١) أنظر ابن الصغير ، ص ٢٨ — ٣٠ ٠ حيث تقول الرواية انه عندما سمح لابى اليقظان بالانصراف من بغداد طلب منه أهل الديوان أن يوصى لمن يقبض جارايته التى بلغت ١٢٠ درهما يوميا ، لئلا يذهب رسمه من دفاتر ديوان الخلافة ويمحو ذكره ٠ وعرض أبو اليقظان على خادمه النفوسي أن يقيم فى بغداد ويقبض جارية الـ ١٢٠ درهما يوميا ، ولكن الخادم رفض ، وطلب اعطاءها الى الخياط الذى كان يجلس عنده ويشاوره فى أمر أبي اليقظان وهو فى السجن ٠ ويضيف ابن الصغير قائلا ٠ وكان النفوسي بعد ذلك بتاهرت اذا ذكره لمر أو نزل به ضيق ، يقول لابى اليقظان ٠ لم اقبل منك ، ولو قبلت لكان العشرون والمائة درهم أعود على مما أنا فيه ٠

(٢٢٢) ابن الصغير ، ص ٣٠ ٠

بكر الذي كان مميزاً بين أبناء أفلح بعد أبي اليقظان محمد .

ابو بكر بن افلح (امام تاهرت الرابع) : ٢٤٧ هـ = ٨٦١ م/ ٢٦٠ هـ = ٨٧٣م)

اختياره : ما بين الرضى والكراهية :

رغم ما يقوله ابن الصغير من أنه عندما وافت أفلحا منيته : « اجتمعت الاباضية فلم يصيبوا في أولاد أفلح ، اذ فقدوا أبا اليقظان ، أرجح عندهم من ولده أبي بكر (٢٢٣) ، فالواضح من تكملة الرواية أن مسألة اجتماع الاباضية للمشاورة في اختيار الامام كانت شكلية ، وان زعماء نفوسة كان بيدهم مقاليد الأمور حقيقة ، وكانوا يولون من يقع اختيارهم عليه من أبناء الامام الراحل . هذا ما يفهم من نص ابن الصغير أيضا الذي يقول انه عندما قدم الناس أبا بكر ابن أفلح ، بعد وفاة والده « كان عبد العزيز بن الأوز ينادي بأعلى صوته الله سائلكم معاشر نفوسة اذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ، ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه اليهم فيختارون من هو أتقى وارضى ، فلا يلتفتون الى كلامه ولا يشتغلون بمقالته (٢٢٤) . ومن الممكن أن يكون المقصود بهذا الكلام هو المطالبة بتطبيق مبدأ الاختيار بشكل عام ، كما يمكن أن يكون احتجاجا خاصا بالنسبة لاختيار أبي بكر بمعرفة نفوسة (٢٢٥) .

وقد يرجح فكرة أن أبا بكر بن افلح لم يكن الامام المنشود ، ما يذكره ابن الصغير من أنه « لم تكن فيه من الشدة في دينه ما كان فيمن كان قبله من آبائه » أو ما نضيفه من أنه « كان سمحا جوادا لين العريكة ويسامح أهل المروات ويشايع على مرواتهم ويحب الآداب والأشعار وأخبار الماضين »(٢٢٦) . وهو الأمر المقبول بالنسبة للامامة الرستمية السائرة في طريق التطور والرقي مما لا يجعل أمر المقارنة بين صفات الائمة الاوائل وخلفائهم المتأخرين خير موازين المفاضلة بينهم . هذا ، ولو أن ما وقع من الأحداث في امامة أبي بكر لتدل فعلا على لين الامام وتساهله في أمور السياسة والحكم .

---

(٢٢٣) ابن الصغير ، ص ٣٠ .

(٢٢٤) ابن الصغير ، ص ٣١ .

(٢٢٥) وهذا ما أخذ به البارونى فى الأزهار الرياضية (قسم ٢ ص ٢٢٣) اذ فسر النص قائلا : « ولما تم أمر البيعة وأعلن للعامة انكر بعض الناس ذلك من بعض أهل [illegible] ، وعابوا نفوسة باستقلالهم بهذا الأمر واختصاصهم به ثم سكتوا » .

(٢٢٦) ابن الصغير ، ص ٣١ .

غلبة محمد بن عرفة على ابي بكر :

وأول ما تشير اليه النصوص في هذا المقام هو غلبة صهره محمد بن عرفة على أمور الدولة . والذى يفهم من تلك النصوص أن محمد بن عرفة هذا كان يتمتع بصفات عظيمة جعلته فى مصاف رجال تاهرت المرموقين ، منذ أيام الامام أفلح الذى أوفده بهدية من قبله على ملك السودان فحاز رضاه ، وأعجب بفروسيته وحسن خصاله وجماله . والظاهر أن الجمال الباهر لم يكن وحده أهم تلك الصفات ، فقد كان ابن عرفة يتمتع أيضا بالوسامة والجود والسماحة الى جانب الهيبة والفروسية وحسن الأفعال . ولم يكن من الغريب على الامام أبى بكر ، الذى عرف بسماحته ولين عريكته أن يقدر للجمال والوسامة قدرهما، فتزوج أخت ابن عرفة وكلف بها ، كما زوج هذا الأخير أخته هو في المقابل .

وأصبح محمد بن عرفة أقرب المقربين الى الامام أبى بكر حتى أصبح أشبه بما نسميه الآن بالممثل الشخصى للرئيس أو الملك . ولا شك أن رابطة النسب ساعدت على تقوية أواصر القربى بين أبى بكر وابن عرفة ، حتى كان الأخير يستطيع الدخول على الامام فى أى وقت يشاء ، وفى أى مكان كان دون موعد سابق أو اذن ، حتى انتهى الأمر ، كما يقول ابن الصغير ، الى أن : « كانت الامارة بالاسم لابى بكر ، وبالحقيقة لمحمد بن عرفة (٢٣٧) .

عودة ابي اليقظان محمد بن افلح :

تاثره بالنظم البغدادية :

فى هذه الظروف عاد الى تاهرت أبو اليقظان محمد بن أفلح عقب مقتل المتوكل (أى قبيل سنة ٢٥٠ هـ/ ٨٦٤ م) ، وبعد أن عركته تجربة السجن فى دار الخلافة ، وتقرب من ولى العهد المنتصر الذى آلت اليه الخلافة ، وصار على دراية بالنظم الادارية والعسكرية المتقدمة فى بغداد . من ذلك ما رآه من اجراء الرزق اليومى على أهل الوجاهة وأعيان الناس من ديوان الخلافة ، وامكان التوصية بهذا العطاء الجارى لمن يريده صاحب الشأن . ومن ذلك ترتيب الجيش فى طبقات من النقباء يتلو بعضهم بعضا ، وكل رجل من الطبقة الأعلى

---

(٢٣٧) اخبار الائمة الرستميين ، ص ٣١ ، ٣٢ . ويضيف الى ذلك ان محمد بن عرفة « كان اذا ركب من داره يريد أبا بكر مشى بين يديه ومن خلفه ومن يمينه ومن يساره أمم من الامم ، وشرفت بذلك الرستمية وفارت به » .

يرأس عشرة رجال من الطبقة التي تليه حتى أن القواد العشرة الكبار يمكنهم جمع عشرة آلاف فارس خلال يوم واحد ، وهو الأمر الذي لم يكد ابو اليقظان يصدقه لولا أن عاينه بنفسه في صحن قصر الخلافة (٢٢٨) .

اعترافه بالأمر الواقع وامامة اخيه ابي بكر :

وهكذا ، رغم ما عرف به أبو اليقظان من انه كان أكثر أبناء افلح اهلية للامامة ، ورغم التجارب التي حنكته في المشرق وفي دار السلام ، حتى قيل أن القوم هناك أطلقوه لانهم عرفوا أن سيكون له دولة في المغرب ، كما قيل انه بلغ النهاية والغاية في العلوم وخاصة علم النجامة (٢٢٩) ، فانه عندما رجع الى تاهرت وعرف بوفاة والده وولاية أخيه أبي بكر قبل الأمر الواقع ، فلم يغير شيئا ولم ينكره ، ولا ادعى امارة ولا نازع فيها أخاه ، بل أظهر القيام له والجلسة بين يديه (٢٣٠) .

أبو اليقظان نائبا للامام في الحكم او وزيرا :

ولما كان الامام ابو بكر يحب اللذات ويميل الى الشهوات ، كما يقول ابن الصغير فانه استعان بأخيه أبي اليقظان محمد في الحكم فعهد اليه بالنظر في أمور تاهرت واحوازها . واظهر أبو اليقظان ما كان يتمتع به من الكفاية في شئون الادارة بالاضافة الى ما اكتسبه من أدب المشرق ، والأخذ بالحزم فيما رآه من ولاية بني العباس وسيرهم (٢٣١) . وهكذا ، فبينما كان أبو بكر معتكفا في دار الامارة كان أبو اليقظان يجول في المدينة ، ويركب الى أعلى مسجد فيها ، حيث يجلس للنظر في شئون الناس وحوله العمال والقضاة وأصحاب الشرطة وينظر في ذلك نظرا شافيا ، ويجري الحق على الكبير والصغير حتى حمد له « الشراة » ذلك ، حسب رواية ابن الصغير ، وحمد له أخوه فعله .

وفي آخر النهار كان يأتي باب أخيه أبي بكر ، « فان وجده جالسا دخل عليه وأعلمه بما حدث في يومه من خبر وحكم » ، وان لقيه مشتغلا طلب من

---

(٢٢٨) ابن الصغير ، ص ٢٨ — ٣٠ .

(٢٢٩) انظر ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٣١ ، وفي ذلك تقول الرواية انه احتال على علماء بغداد عندما أزمع العودة الى المغرب فدخل في قصعة ملأها بالماء حتى انهم عندما حاولوا تتبعه وحسبوا الوقت الذي يخرج فيه من بغداد وجدوه في ؟؟ فقالوا انه فيشكل البحر . [illegible]

(٢٣٠) ابن الصغير ، ص ٣٢ .

(٢٣١) ابن الصغير ، ص ٣٢ .

حجابه أن يبلغوه ما عليه المدينة من عدو وسلام . ولم يزل أبو اليقظان مجتهدا في شغله ليلا ونهارا » حتى جلب قلوب الناس » (٢٣٢) .

الصراع بين محمد بن عرفة وبين ابى اليقظان :

وبذلك آلت أمور الامام أبى بكر الى نائبيه القويين : محمد بن عرفة صهره ، ومحمد أبى اليقظان أخيه الأكبر ، وكان من الطبيعى ان ينتهى الأمر بصراع خفى — فى أول الأمر — بين الشخصيتين العارمتين ، قبل أن ينقلب الى نزاع علنى تكون له آثاره السيئة فى المملكة الرستمية . ويلقى ابن الصغير بتبعة انفجار الموقف المتأزم على صهر أبى بكر عندما يقول : ان محمد بن عرفة كان مشغولا بما كان فيه من « دوي وصيت عال ، لا ينظر أبا اليقظان فى حزبه ولا فى طائفته ولا فى الناحية التى هو بها ، ولا ينظر بهيبة له أو اجلال أو حذر منه » . هذا ، وبينما كان أبو اليقظان وعمومته واخوته لا يصلون الى أبى بكر الا بعد الاستئذان ، كان محمد بن عرفة لا يحجبه عن الوصول اليه حاجب .

الرستميون يتربصون بابن عرفة ، ويحرضون الامام على التخلص منه :

وهكذا اخذ أبو اليقظان وقرابته يتربصون بمحمد بن عرفة ، ويترقبون له الفلتات الى أن نجحوا فى اثارة أبى بكر عليه عندما خوفوه من سلطانه وما صار يتمتع به من هيبة بين الناس كادت تطمس هيبتهم للامام نفسه (٢٣٣) . وعندئذ أخذ أبو بكر يراقب صهره ، وما يتمتع به من حول وسلطة حتى تأكد له الأمر ، وهاله ما رأى من سلطان أبى عرفة فدبر مقتله غدرا عندما دعاه الى خلوة فى بعض متنزهاته ، واغرى أحد خدمه بقتل الرجل طعنا بالرمح بين كتفيه ، وهو يتهيأ لرفع يديه بالتكبير لأداء صلاة المغرب (٢٣٤) .

---

(٢٣٢) ابن الصغير ، ص ٢٢ — ٢٣ .

(٢٣٣) ابن الصغير ، ص ٢٣ — وتضيف الرواية هنا انه قيل ان الذى سعى الى سحق ابن عرفة وتكلم فى حقه كان أبو اليقظان وحده . وانظر تلخيص الدرجينى ص ٧ ج ١ (المطبوع ، ص ٨٣) .

(٢٣٤) ابن الصغير ، ص ٣٤ — ٣٥ — هذا ويشير ابن الصغير بعد ذلك الى ان أبا بكر علم بعد فوات الأوان ان الحسد والبغى أداهم الى ما اداهم لا النصيحة ، ولكنه ندم ما كان قد عزم عليه ، ومحمد بن عرفة فى ذلك كله أسلم الناس صدرا وأكبرهم له حبا .

أصداء مقتل ابن عرفة :

ورغم احكام الجريمة ومحاولة طمس معالمها فقد نجح أهل محمد بن عرفة وأصحابه في كشف خباياها ، فعرفوا الموضع الذي قتل فيه والمكان الجبلي البعيد الذي القيت الجثة فيه . وكان للنبأ أصداء محزنة بين العامة والخاصة والنساء والصبيان في تاهرت ممن كانوا يعرفون لمحمد بن عرفة أياديه البيضاء عليهم ، اذ « لحق الناس من الجزع مالم يلحقهم في قتيل قبله » . وهكذا ، فبمجرد أن نادي المنادي : « الا ان القتيل المظلوم يامركم بطلب ثأره ودمه » حتى هاجت الفتنة بتاهرت (٢٣٥) . وكان محرك الثورة رجلا يعرف بمحمود بن الوليد الذي انتهز الفرصة ، فصعد الى أعلى موضع بالمدينة يعرف بالكنيسة ، « فضرب الطبل فبادر الناس اليه ، وأمرهم بأخذ السلاح والزحف الى أبي بكر »(٢٣٦) .

وعندما بلغت أبا بكر أنباء ثورة العامة ضده بادر باستنفار أعوانه ، من السمحيين (٢٣٧) والرستميين وغيرهم . وهكذا تجمع الثوار من العامة في أعلى المدينة من ناحية الشرق بينما حشد أبو بكر أعوانه وشيعته في جهة الغرب ، واستعد كل فريق للحرب بالدروع تقي الصدور والبيض فوق الرؤس ، وكان لكل جماعة راياتها المميزة ترفرف فوق رؤسها . وزحف أبو بكر برجاله نحو الثوار وتم اللقاء الذي شارك فيه معظم أهل تاهرت قرب أحد المساجد . وكانت ملحمة مروعة صبر الناس فيها حتى تطايرت أيدي المقاتلة وأرجلهم وانقلعت هاماتهم ، وعندما تعبوا من الضرب تماسكوا بالايدي وتقاذفوا بالسباب (٢٣٨) .

اطراف الصراع : العجم ، والعرب ، ونفوسة :

ولما بلغ القتل والتعب غايته تطور الأمور بتدخل جماعة يسميها ابن الصغير بـ « العجم » ، والمقصود بهم الفرس من أعوان الرستميين الأوائل .

---

(٢٣٥) ابن الصغير ، ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢٣٦) ابن الصغير ، ص ٣٦ .

(٢٣٧) القراءة في ابن الصغير (ص ٣٦) المسيحيين ، وهو الأمر الذي ينسب فيه الى مجتمع الاباضية بتاهرت والذي ادى اليه تسمية ذلك الموضع بـ « الكنيسة » على ما نظن ، اما السمحيين فهي قراءة البارونى (الرياض قسم ٢ ص ٢٣١) التي اخذنا بها نسبة الى ابي الخطاب السمح بن عبد الأعلى ، وهو الأمر المقبول .

(٢٣٨) ابن الصغير ، ص ٣٦ — ٣٧ .

ومن بني جلدتهم • كما يمكن أن يكون الفرس أيضا من سلالة الجند الأغلبي الذي هجر افريقية الى تاهرت،وقد يكون النص على أنه في أثناء القتال بين العرب والعجم قبض العرب على مولى من موالي الأغلب يقال له خلف الخادم(٢٣٩) قرينة على ذلك •

ومع أن المفهوم من رواية ابن الصغير أن العجم أو الفرس أرادوا استغلال الموقف لمصلحتهم الخاصة ، فلا بأس من أن يكون هؤلاء العجم، الذين لم يدخلوا في الصراع الا بعد أن انهكت قوى الفريقين المتحاربين ، من المتعاطفين مع الأمير أبي اليقظان محمد وأعوانه ، اذ تقول الرواية : ان أبا اليقظان اعتزل الفريقين ، كما وعد نفوسة . التي بقيت معتزلة عن الفريقين أيضا • ومن الواضح أن النفوسيين كانوا من أعوان أبي اليقظان ، هذا كما يشير النص الى أن العرب ، وهو الاسم الذي صار يطلق على المتحاربين الأوائل من أنصار أبي بكر وخصومه من العامة ، كانوا لا يثقون في حياد أبي اليقظان ويقولون : انه يعين عليهم في الباطن • وهذا ما أكدته الأحداث فيما بعد عندما انضم النفوسيون الى جانب العجم •

ومنذ تدخل العجم اندمج المتحاربون من عامة التاهرتيين وأعوان أبي بكر، الذي بقي في داره لا يأمر ولا ينهى وقد تشاءم الناس به ، جبهة واحدة تصبح جبهة العرب والجند من أنصار أبي بكر ، في مقابل جبهة العجم التي تعمل لمصلحتها الخاصة • وذلك قبل أن تظهر جبهة ثالثة هي جبهة نفوسه : أنصار أبي اليقظان الصرحاء •

شريط الأحداث :

ولقد دارت أحداث الصراع على الوجه التالي ، حسب رواية ابن الصغير :

العجم يعملون لأنفسهم :

اراد العجم انتهاز فرصة تعب المتقاتلين من العامة وأعوان أبي بكر من الجند ، فظنوا أنه يمكنهم القضاء على العرب والجند ومواليهم واتباعهم واخراب ديارهم ، وبذلك يصفو لهم البلد والسلطان • وبدأ العجم في التمركز في بعض أطراف تاهرت، استعدادا للهجوم على الناحية المعروفة بموقف الدواب ،

---

(٢٣٩) ابن الصغير ، ص ٣٧ •

ولكن لسوء حظهم فان أهل تلك الناحية كانوا يتوجسون منهم خيفة ، فاستعدوا لهم وأخذوا حذرهم • فما أن وافاهم العجم حتى بدروا اليهموقاتلوهم قتالا شديدا • وكان غدر العجم بالجماعتين المتقاتلتين من الجند والعرب سببا في تلاحمهما : اذ تركوا قتال بعضهم وتعانقوا •-ثم انهم قاموا بأجمعهم قومة رجل واحد ضد العجم ، فقتلوا كثيرا منهم ، كما أخذوا بعض الأسرى (٢٤٠) •

يوم حربة : وتحالف نفوسة مع العجم :

واستمرت الحرب بين أنصار أبي بكر من الجند والعرب وبين العجم ، وكان العرب يضغطون على العجم ، ويخرجونهم من بعض ديارهم في حال انتصارهم • وظل الحال على هذا المنوال الى أن وقعت المعركة المعروفة بـ « يوم حربة » في جوار درب النفوسيين في تاهرت • ففي هذا اليوم استمع العرب الى نصيحة خلف الخادم ، وهو المولى الأغلبي الذي كان يحارب في عداد العجم قبل ان يقع أسيرا في أيدي العرب فيعاون أنصار الامام أبي بكر بماله ونصائحه ، بأن لايكتفوابإخراج العجم من ديارهم ، بل أن يطلقوا النار في كل ما يغلبون عليه منها(٢٤١) • وهكذا فعندما استولى الجند والعرب على موضع العجم المجاور لدرب النفوسيين ، أضرموا النار فيه مما تسبب في الاضرار ببعض النفوسيين المقيمين هناك • وكان هذا الحادث سببا في تحالف نفوسة مع العجم ، بعد ان وقفوا موقف الحياد ، ولم يكن من الغريب أن يجذبوا الى جانبهم الأمير أبا اليقظان ، وكان النفوسيون أخلص حلفائه •

انتهاء الحياد : انشقاق الأسرة الرستمية : العرب في صف أبي بكر والعجم ونفوسة في صف أبي اليقظان :

وهكذا شاركت جميع الأطراف في فتنة محمد بن عرفة ولم يعد هناك متحاربون ومحايدون ، اذ كون المتحاربون الأوائل من الجند والعامة من العرب جبهة مؤيدة للامام أبي بكر ، بينما انضم المحايدون من العجم ونفوسة وبعض الرستمية وكونوا جبهة مؤيدة للامير أبي اليقظان • وبذلك انشقت الأسرة الرستمية على نفسها ودارت الحرب الأهلية باسم أفرادها •

وفي بداية الأمر حقق العجم ونفوسة انتصارات قوية على الجند والعرب

(٢٤٠) ابن الصغير ، ص ٣٧ •

(٢٤١) ابن الصغير ، ص ٣٧ •

في عدد من الوقائع ، مثل وقعة قنطرة الدمس ، وقنطرة سنيس حيث هزم صناديد العرب ، وانتهى الأمر بغلبة العجم ونفوسة على أكثر تاهرت بعد أن ردوا خصومهم الى أطرافها • وبعد ذلك دارت الدائرة على العجم ونفوسة منذ حقق الجند والعرب انتصارهم الكبير في الوقعة المعروفة « بيوم الرد المعوج » حيث : « ذكر أن نفوسة فروا بعضها على بعض »(٢٤٢) ، مما جعلهم يقررون فيما بعد أن يشدوا أرحلهم فيما بينهم بالحبال ، حتى يثبتوا فلا يفروا من أمكنتهم ولو قطعت السيوف هاماتهم(٢٤٣) •

تفوق العرب على العجم ونفوسة . وحرب الحصون :

واستمرت فتنة ابن عرفة « وأمور العرب والجند تقوى ، وأمور العجم ونفوسه تضعف » ، الى أن انتهى الأمر باجلائهم عن ديارهم التي اضرمت فيها النيران في أحوار تاهرت ، باستثناء موضع واحد في ناحية النهر الصغير المعروف بعدوة نفوسة حيث بنوا لهم حصنا قويا • وفي مقابل حصن عدوة نفوسة بنى العرب والجند حصنا لهم بأموال قدمها لهم من كان في حيزهم من التجار ، مثل : أبي محمد الصيرفي ، وابن الواسطي ، وغيرهما من وجوه التجار أصحاب الأموال • ويشير ابن الصغير الى أنه لم يكن يفصل بين الحصنين الا مقدار رمية سهم ، وأنه « ربما كان البناءون يبنون والنبل تصيبهم فيجعلون لهم ستاره ، حتى استدار الحصن وركبوا أبوابه وعلته أبرجته ، والحرب لا تفتر ليلا ولا نهارا ، وحميت فيما بينهم حمية الجاهلية ، وجرت بينهم الحرب سمعة ورياء » (٢٤٤) • ومن أبطال حصن عدوة نفوسة رجل من العجم يعرف بابن وردة كان مبارزا من الطراز الممتاز حتى طبقت شهرته الآفاق(٢٤٥) • وأغلب الظن أن ابن وردة هذا هو صاحب السوق في تاهرت الذي كان لا يدخله عمال الامام من المحتسبين ، كما سبقت الاشارة (٢٤٦) •

تفرق الاخوة المتناحرين في البلاد :

خروج أبي بكر من تاهرت ، ونزول أبي اليقظان في كنف لواتة :

وانتهت فتنة ابن عرفة بتفرق العجم ونفوسة والرستميين في أقاصي

---

(٢٤٢) ابن الصغير ، ص ٣٨

(٢٤٣) ابن الصغير ، ص ٣٨ •

(٢٤٤) ابن الصغير ، ص ٣٨ — ٣٩ •

(٢٤٥) ابن الصغير ، ص ٣٩ •

(٢٤٦) أنظر فيما سبق ، ص ٣٤٣ •

البلاد ، علي الوجه الآتي : نزلت العتجز بموضع يقال له « تنابغيلت » ، وهو علي بعد مرحلتين من مدينة تاهرت اما الرستمية ومن انضاف اليهم ، فقد لحقوا بالأمير أبي اليقظان محمد بالموضع الذى يقال له « اسكدال » ، وهو بقبلة تاهرت علي مسيرة يوم وأزيد قليلا في مجمع الاباضية ، هذا ، ونزلت نفوسة بقلعة مانعة تعرف الى اليوم بقلعة نفوسة . وعندما نزل محمد بن مسالة تاهرت خرج منها الامام أبو بكر مع من خرج « لا حيا ولا ميتا » ، كما يقول النص (٢٤٧) ، مما يعني انه لم يعرف مآله .؟

ولم تزل أمور الناس في تاهرت هادئة الى ان وقعت الوحشة بين قبائل صرارة وقبائل لواتة . وذلك ان قبائل لواتة كانت من بين سكان تاهرت عندما اتت هوارة وتسلطت علي لواتة بمعونة اهل المدينة . وعندئذ رأت لواتة ان ترحل عن تاهرت فخلت عنها ، ونزلت بحصنها المعروف بحصن لواتة ، ومن هناك ارسلت الى أبي اليقظان تدعوه الى الاقامة معها ، فنزل في جوارهم علي مسيرة أميال بموضع يقال له « تساونت » ، وهو الموضع الذى يخرج منه عيون نهر مينة الذى يجرى من قبلة تاهرت حيث تنصب عليه الأرحاء .

نشاط أبي اليقظان في شراء الأعوان : والاعداد لغزو تاهرت علي محمد بن مسالـة :

وواضح من رواية ابن الصغير ان الأمير أبي اليقظان محمد أخذ في استخدام بريق الذهب لجذب الأنصار ، بعد أن انتهت الفتنة التي شارك في تدبيرها بهاية لا ندرى في مصلحة من كانت . فابو بكر ترك تاهرت الى حيث لا ندرى ، وأبو اليقظان نزل بالقرب من لواتة . ومن مقره في جنوب تاهرت اخذ أبو اليقظان يستخدم ما كان معه من الأموال التي قدم بها من بغداد ، اذ كان كثير من أهل تاهرت متعاطفين معه ولم يكن يلزمهم للحركة واتخاذ جانبه صراحة الا التلويح لهم بالذهب والفضة ، وهذا ما حدث فعلا ؛ « اذ صارت الدعوة والامامة كلها لابي اليقظان » (٢٤٨) . ولكن الأمر لم يصف تماما لأبي اليقظان اذ ظل لمحمد بن مسالة كثير من الأعوان في تاهرت ، يوالونه ولا يرون رأى أبي اليقظان لأسباب لم يعلمها ابن الصغير . وبذلك عادت الحرب من جديد في تاهرت اذ أعد أبو اليقظان العدة لغزو المدينة بعد أن أسقط

---

(٢٤٧) ابن الصغير ، ص ٣٦ .

(٢٤٨) ابن الصغير ، ص ٤٠ .

والدعوة لأبى بكر - الذى لا نعرف ماذا صار اليه أمره - كما أنكر أمر محمد بن مسالة ، ودعا لنفسه بالامارة والامامة(٢٤٩) ٠

أبو اليقظان اماما ، بعد حرب السبع سنوات وخراب تاهرت :

واستمرت الحرب بين أبى اليقظان والتاهرتيين طوال سبع سنوات قاست منها المدينة كثيرا من الأهوال حتى حربت وعادت عجوزا شمطاء بعد أن فقدت بهجتها ونضارتها ٠ ولما طالت الحرب وامتنعت تاهرت على أبى اليقظان اتجه نحو نفوسة فى جبلهم وطلب منهم العون وتجديد البيعة (٢٥٠) ٠

شروط الصلح :

واستجابت نفوسة لطلب أبى اليقظان فبعثوا اليه جموعا من رجالهم سار بهم لنزال تاهرت التى هاجمها من جهة الغرب ٠ وطلب النفوسيون انذار اخوانهم فى تاهرت قبل قتالهم ، ودعوهم الى الرجوع الى الطاعة ، قبل أن ينزلوا معهم على حكم الله ، وهو حكم السيف ٠ ووافق خصوم أبى اليقظان فى تاهرت على الصلح شريطة أن يؤمنهم أبو اليقظان ، وأن يسوغهم ما أصابوا من دم أو مال فلا يتبع أحدا منهم ٠ ووافق ابو اليقظان على هذا الشرط فتم عقد الصلح بين أهل تاهرت وعسكره ، وفى ذلك قالت نفوسة : « نحن انما جئنا لاصلاح بيضتنا ، وتأليف أمرنا وقوام ديننا ، ولم نأت بطلب علو فى الأرض ولا فساد » (٢٥١) ٠

الأثر المشرقى فى بلاط أبى اليقظان :

والظاهر أن رحلة أبى اليقظان الى المشرق واقامته فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية كان لها أثر عميق فى نفوس الناس ٠ يظهر ذلك فى احاطة كتاب الإباضية للامام الجديد بهالة من الجلال والعظمة التى لم يتسن لغيره التمتع بمثلها ، باستثناء نفاث بن نصر صاحب الانشقاق الثالث فى الاباضية ٠ فابن الصغير ينص على أن مراسم الصلح بين أبى اليقظان واهل تاهرت تمت فى السرادق العظيم الذى كان أبو اليقظـــان قد أتى به من بغداد ، والذى ضربه فى ظاهر تاهرت فى الموضع المشرف على المدينة ، الذى عرف بقلعة

---

(٢٤٩) ابن الصغير ، ص ٤٠ ٠

(٢٥٠) ابن الصغير ، ص ٤٠ ٠

(٢٥١) ابن الصغير ، ص ٤٠ - ٤١ ٠

نفوسة . وكان هذا السرادق أول سرادق مضروب يراه أهل المنطقة ، اذ كانت لهم مضارب وقباب يقيمونها في مثل تلك المناسبة (٢٥٢) .

تاهرت تنفض عن نفسها غبار الحرب :

وبتمام الصلح بدأت تاهرت تنفض عن نفسها غبار أيام الحـــرب والمحاصرة ، فقام أهل المدينة وهدموا بقايا دار أبي اليقظان التي « كانت مزبلة وكدية من الكدا » فكنسوها في يومهم فابتنوها في أسرع الايام . وبذلك تهيأ لأبي اليقظان النزول في المدينة حيث بدأ يمارس سلطانه ، كما نزلها الناس (٢٥٣) .

امامة أبي اليقظان محمد بن افلح في تاهرت (٢٦٠ هـ — ٢٨١ هـ/٨٧٣م — ٨٩٤م) :

مع امامة أبي اليقظان تاخذ رواية ابن الصغير شكل المذكرات اليومية الخاصة ، أو طابع أحاديث المعاصر شاهد العيان . فمؤرخنا عاش شابا الايام الأخيرة من امارة أبي اليقظان في تاهرت ، وسمحت له الظروف بحضور مجلسه مرتين على الأقل(٢٥٤) . واذا كان ابن الصغير يسجل أن امامة أبي اليقظان دامت نحوا من ٤٠ (أربعين) سنة (٢٥٥) ، وان وفاته كانت في سنة ٢٨١هـ/ ٩٤ — ٨٩٥ م (٢٥٦) ، يكون وصول أبي اليقظان الى الامامة في نحو سنة ٢٤٠هـ/٩٥٤ م ، وهو الأمر غير المقبول ، اذ المفروض أن وصوله من بغداد كان بعد سنة ٢٤٧ هـ/٨٦١م (٢٥٧) . وبناء على ذلك ، فاذا أخذنا سنة ٢٨١ هـ/٩٤ — ٨٩٥ م كتاريخ لوفاة أبي اليقظان — وهو الأمر المقبول — لا تطول امامة أبي اليقظان الى أكثر من ثلاثين سنة اذا أدخلنا في الحساب

---

(٢٥٢) ابن الصغير ، ص ٤١ .

(٢٥٣) ابن الصغير ، ص ٤١ . وقارن أبو زكريا ، (المخطوط ص ٣١ — ب) الذي يقول عن امامة أبي اليقظان : « انه اجتمع عليه عامة المسلمين قوله وعلى أنفسهم دون اختلاف » .

(٢٥٤) ابن الصغير ، ص ٤٤ : حيث يقول : وقد لحقت أنا بعض أيامه وحضرت مجلسه وقد جلس للناس خارج المسجد الجامع .... ورأيته يوما ثانيا في مصلى الجنائز .

(٢٥٥) ابن الصغير ، ص ٤٤ ، أبو زكريا ، ص ٣١ — ب ، الدرجيني ، ص ٣٧ — أ (المطبوع ، ص ٨٢) ، الشماخي ، ص ٢٢٢ .

(٢٥٦) ابن الصغير ، ص ٤٩ .

(٢٥٧) أنظر فيما سبق ، ص ٣٥٤ .

تلك الفترة التي استولى فيها على زمام الأمور الى جانب ابن عرفة ، او الى وقت انفجار فتنة ابن عرفة وحرب السبع سنوات . أما اذا اعتبرنا امامة أبي اليقظان الحقيقية ، أي بعد الصلح مع أهل تاهرت ، فمن الواضح انها لا تطول الى أكثر من عشرين سنة ، وهذا ما حملنا لنتخذ سنة ٢٦٠ هـ/٨٧٣م كتاريخ لامامة أبي اليقظان الخالصة ـ دون منازع .

وأبو اليقظان الشيخ الذى كان يناهز التسعين من عمره عندما رآه ابن الصغير ، كان مربع القامة ، أبيض الرأس واللحية ، وكان اذا جلس خيمت هيبته على الحضور فلا ينطق أحد بين يديه الا أن يكون صاحب ظلامة (٢٥٨) .

دولة نفوسية في تاهرت :

ترتيب الدولة ، وتقدم نفوسة :

وكان أول ما بدأ به أبو اليقظان عندما استقر في تاهرت ، هو اقرار قواعد الدولة بانتخاب خير الأعوان والعمال . وكان أول شيء نظر فيه من أمور الناس في تاهرت ، هو البحث في أصلح من يلي وظيفة القضاء . وبعد أن شاور جماعة من أعيان المدينة استقر رأيه على أن يكون أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ قاضيا . ثم انه ولى على بيت المال رجلا من نفوسة . أما في امامة الصلاة وخطبة الجمعة فقد قدم لها من ارتضاه هو نفسه (٢٥٩) ، مما يعني أن اختيار القاضي وصاحب بيت المال كان محددا في نفوسة أو مشروطا بموافقتها .

اهمية الحسبة :

وهذا ما يؤكده أن أبا اليقظان « أمر قوما من نفوسة يمشون في الأسواق فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، مما يعني ان النفوسيين كانوا أقرب أعوان الامام . ويشير ابن الصغير الى بعض اختصاصات هؤلاء المحتسبين من نفوسة ، كأن يروا قصابا ينفخ في شاة فيعاقبونه ، أو أن يروا دابة حملت فوق طاقتها فينزلون حملها ، ويأمرون صاحبها بالتخفيف عنها ، أو أن يروا

---

(٢٥٨) ابن الصغير ، ص ٤٤ .
(٢٥٩) ابن الصغير ، ص ٤١ .

قذرا في الطريق فيأمرون من حول الموضع أن يكنسه وينظفه (٢٦٠) .

وإلى جانب هذه الأعمال الخاصة بآداب الأسواق والطريق العام ، يشير ابن الصغير الى بعض أعمالهم المذهبية ، ومنها : أنهم كانوا « لا يمنعون أحدا من الصلاة في مساجدهم ، ولا يكشفون عن حالة ولو رأوه رافعا يديه ، ماخلا المسجد الجامع : ان رأوا فيه من رفع يديه منعوه وزجروه ، فان عاد ضربوه » . أما عن خطب الجمعة على منابرهم ، فيقول : إنها « خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ما خلا خطبة التحكيم »(٢٦١) التي كانوا ينكرونها .

قضاء لا يفرق بين الأمير والرعية :

تلك كانت نظم الحكم في تاهرت على عهد أبي اليقظان ، وكانت أهم الخطط هي خطة القضاء التي ظل يشغلها محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ الذي عرف بحسن السيرة وبأنه لا تأخذه في الله لومة لائم ، الى أن استعفى عندما نما اليه سوء سيرة الأمير أبي زكريا بن أبي اليقظان ، فسار الى الامام « فرمى اليه خاتمة وقمطره ، فقال له : ول على قضائك من تريد »(٢٦٢) .

أمام يعيد سيرة الراشدين من أئمة الرستميين :

ولم تنقص هذه الحادثة التعسة التي أدت الى استقالة القاضي الحازم من تقدير ابن الصغير لأبي اليقظان – الذي لحق بعض ايامه وحضر مجلسه مرتين –

---

(٢٦٠) ابن الصغير ، ص ٤١ .

(٢٦١) ابن الصغير ، ص ٤٢ .

(٢٦٢) انظر ابن الصغير ، ص ٤٢ : حيث تشير الرواية الى جانب سعي الحاسدين الذين اعربوا عن سرورهم عندما قال القاضي لهم : « والله لا وليت له قضاء أبدا » ان ابن الصغير استطاع ان يعرف حقيقة القضية من سليمان مولى محمد بن عبد الله القاضي وعونه . ويتلخص الأمر في أن امرأة دقت باب القاضي ليلا (بعد العشاء الأخيرة) ومعها غلام صغير يحمل لها سراجا ، وأخبرت القاضي أن خدام الأمير أبي زكريا دخلوا عليها الساعة وأخذوا ابنتها من بين يديها ، وأن ابنها خاف فتابعتهم خشية القتل من قبل بعض عمالهم أو لص من لصوصهم . وعندما افاق القاضي الذي سقط كالمغشي عليه ، أمر مولاه سليمان بحمل سيف وحمل سراج بينما أخذ هو عصاه وسار الى دار الزكاة حيث اشتبهت المرأة في أن يكون الجناة قد لجأوا اليها . وهناك لاحظ القاضي ارتياع أهل الدار الذين سلموا بحقيقتهم . ورغم انه لم يجد شيئا فان شكوكه قويت عندما سأل عن ابن الأمير أبي زكريا وعرف انه كان في الدار أثناء النهار ، وانه ركب فرسه لما أتى الليل .

اذ يقول : انه « كان زاهدا ، ورعا ، ناسكا ، سكينا (٢٦٣) . اما أبو زكريا فيقول عن أبى اليقظان أنه « بلغ في العدل والفضل غاية عظيمة » ، وان نفوسة كانت « لا تعدل بولايته الا ولاية جده عبد الرحمن » ، فقد كانت « نفوسة تجعل باب داره كالمسجد يسهرون حوله : طائفة يصلون ، وطائفة يقرأون القرآن ، وطائفة يتحدثون في فنون العلم (٢٦٤) .

مجلس أبى اليقظان ، فى الجامع :

وفى مجلس أبى اليقظان ينص ابن الصغير على أنه « كان اذا جلس فى المسجد الجامع جلس على وسادة من أدم مستقبل الباب البحرى وله سارية تعرف به يجلس اليها ، ولم يكن غيره يجلس اليها . وكان يقابله نصب عينيه رجل من نفوسة يعرف بعيسى بن فرناس ، وكان عندهم من الورع بمكان . ويلى عيسى رجل من هوارة يقال له ابن الصغير لشأنه فى الفقه ، ولم يكن فى ورع عيسى . وكان عن يمينه وعن يساره وبين يديه وجوه الناس »(٢٦٥) .

والى جانب العلماء من نفوسة وهوارة ، « كان أخص الناس به رجل من العرب يعرفون بمحمود بن بكر »(٢٦٦) . ولكنه على عكس ما سبق أن أشار اليه ابن الصغير من أن خطب الرستميين على عهد ابى اليقظان كانت خطب على بن أبى طالب ماخلا خطبة التحكيم (٢٦٧) ، فانه ينص هنا على أن محمود بن بكر « كان غاليا فيهم ، تذكر عنه البراءة من أمير المؤمنين على بن أبى طالب » . وكان محمود هذا « مدارهم الذى يذب عن بيضتهم ، ويدافع عن دينهم ، ويرد على الفرق مقالاتهم ، ويؤلف الكتب فى الرد على مخالفيهم(٢٦٨) .

تاهرت تعود مركزا علميا مرموقا : ازدهار علم الكلام :

والظاهر أن سوق العلم كانت قد نفقت فى تاهرت بعد فترة الاضطراب التى عرفتها العاصمة الرستمية على عهد أبى بكر ؛ وفى السنوات الأولى

---

(٢٦٣) ابن الصغير ، ص ٤٤ .

(٢٦٤) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣١ — ب ، الدرجينى ، ص ٣٧ — أ (المطبوع ، ص ٨٢) .

(٢٦٥) ابن الصغير ، ص ٤٤ .

(٢٦٦) ابن الصغير ، ص ٤٤ .

(٢٦٧) انظر فيما سبق ، ص ٣٦٧ ، وفيما بعد ، ص ٣٨١ .

(٢٦٨) ابن الصغير ، ص ٤٤ .

من عهد أبى اليقظان • فهذا ما يفهم من المناظرات التى كانت تقام بين الاباضية وخصومهم النكار الذين عرفوا بالمعتزلة ، والتى كانت تعقد بنهر مينة ، وكان يحضرها علماء الرستميين من مختلف القبائل ، وخاصة من هوارة • ومن بين متكلمى الرستميين يذكر ابن الصغير رجلا يقال له عبد الله بن اللمطى ، وكان حسيرا بفنون المنطق وعلم الكلام بدرجة أثارت اعجاب خصومه المتخصصين فى هذا اللون من فنون الفلسفة (٣٦٩) الذى كان غريبا على الكثيرين من علماء المغرب فى ذلك الحين (٣٧٠) •

أبو عبيدة الأعرج - نموذج للعالم الآمر بالمعروف :

وكان من علمائهم الذين رآهم ابن الصغير رجل يعرف بابى عبيدة الأعرج: « كلهم مقرون له بالفضل معترفون له بالعلم مسلمون له فى الورع ، اذا اختلفوا فى أمر من الفقه أو من الكلام صدروا عن رأيه » • وكان أبو عبيدة الأعرج معتزا بنفسه ، قليل الدخول على أبى اليقظان ، ولم يكن يجمعه واياه سوى المسجد الجامع • وكانت عادة الفقهاء والقراء وغيرهم الخروج الى أبى اليقظان عندما يضرب سرادقه لحدث يريده فيضربون أبنيتهم حول سرادقه خلا ابى عبيدة ، الذى لم يكن يدخل على أبى اليقظان الا من أجل أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، مثل : طلب اطلاق محبوس من جيرانه آخذه صاحب حرس الامام وسجنه لغير ذنب يستحق ذلك ، مما كان يثير عجب الناس من صدقه وتركه التصنع ، واظهاره على لسانه ما أسر فى قلبه (٢٧١) •

وكان أبو عبيدة الاعرج عالما بالفقه والكلام والوثائق والنحو واللغة • وكان مع ديانته حسن الادب والمروة ، حتى ان ابن الصغير المالكى : كان يترك دكانه الذى كان يبيع فيه ويشترى فى حى الرعادنة ليقرأ عليه فى اللغة والنحو • ولو انه لم يستفد كثيرا من العالم الذى كان كثير الشغل ، اذ كان الناس يأتونه كثيرا يطلبونه للشهادة اكثر من مرة فى الجلسة الواحدة ، فيأخذ

---

(٢٦٩) انظر ابن الصغير ، ص ٤٤ - ٤٥ : حيث يورد نماذج من الأسئلة التى طارحه فى مجلس المناظرة ، مثل : هل تستطيع الانتقال من مكان لست فيه الى مكان لست فيه • وكان رد اللمطى لا • ومثل : هل تستطيع الانتقال من مكان أنت فيه إلى مكان لست فيه • وكان رد اللمطى : اذا شئت ، مما جعل سائله يقول له : « خرجت منها يابن اللمطى » •

(٢٧٠) وقارن مجلس زيادة الله الأغلبى للمناظرة بين الأربسى الذى حضره الطبيب البغدادى او اسحق الاسرائيلى ، فيما سبق ، ص ١٧١ •

(٢٧١) ابن الصغير ، ص ٤٥ •

خدمه وعصاه ويسير معهم ، دون أن ينسى الاستئذان من طالبه : الذى كان قد لفت نظره الى أنه يترك مصالحه من أجل العلم (٢٧٢) . ويؤكد ابن الصغير : «ان المغرب كله «كان مفتونا بهذا الرجل حتى ان من كان من الاباضية بسجلماسة يبعثون اليه بزكاتهم يصرفها حيث شاء »(٢٧٣) .

مهدى خارجى — افتتان نفوسة بأبى اليقظان :

ويختتم ابن الصغير كلامه فى عهد ابى اليقظان بالحديث فى مناقب هذا الامام فهو يعود الى تأكيد افتتان قبائل نفوسة الجبل بأبى اليقظان ، ويبالغ فى ذلك الى حد القول : «ان نفوسة اقامته فى ذيتها ، وتحليلها وتحريمها ، مثل ما اقامت النصارى عيسى بن مريم » ، وهو الامر الذى لم يسجله مؤرخو الرستميين من أهل المذهب . ويتبع ذلك بالقول : « وكان أكثرهم لا يحج الا باستئذانه ، وكانت المرأة تبعث بأبيها أو ابنتها يأخذ لها الاذن منه . وكان اذا ضرب سرادقه وأتته وفودهم لا ينامون الليل حول فسطاطه ، شأنهم التهليل والتكبير من أول الليل حتى الفجر ، فاذا صلوا الفجر معه خرجوا بأنفسهم الى الأرض فناموا »(٢٧٤) .

وهكذا لم يكن من الغريب أن يكون النفوسيون عصب دولة أبى اليقظان ، وأن يطيعوه طاعة لم يطيعوا مثلها غيره من الائمة ، حتى انهم عندما كانوا يأتونه ليقدم عليهم أميرا من أنفسهم ، كان يسمح باختيار من يريد ، ويأمر كاتبه بتدوين السجل المعتاد ويطويه ويختمه (يطبعه) ، ويطلب منهم الا يفتحوا السجل الا بالجبل ، دون أن يعلم أحدا من الناس من المقدم عليهم ، حتى من كبار الخصائه النفوسيين المقيمين معه فى تاهرت ، مثل : حمود بن بكر ، وعيسى بن فرناس (٢٧٥) .

وحق لنفوسة أن تفتتن بالامام الورع المتقشف الذى كان لا يسمح لخادمه بأن يقدم علفا لفرسه من بيت المال وقد جن الليل وعز الطلب ، فيقول له :

---

(٢٧٢) ابن الصغير ، ص ٤٦ .

(٢٧٣) ابن الصغير ، ص ٤٦ .

(٢٧٤) ابن الصغير ، ص ٤٦ — ٤٧ .

(٢٧٥) ابن الصغير ، ص ٤٧ : حيث يقول ان [illegible] وهو عبد العزيز بن الاوز الذى [illegible] كان شكيمة اللسان ضعيف العقل عزف من اختاره ابن اليقظان لولاية جبل نفوسة بالفراسة ، وذلك بما بدا على وجه الأمام عندما ذكر له اسم افلح بن العباس (ابن يعقوب بن العباس) الذى وقع عليه الاختيار بين اسماء غيره من المرشحين .

« والله لاقام محمد (ابو اليقظان) ولا آكل ولا شرب حتى تمضي وترد في بيت المال ما اخذته منه »(٢٧٦) .

نهاية ناسك : وفاة ابي اليقظان :

ولم يكن من الغريب اذن ان يموت الامام المتقشف في سنة ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م ، بعد أكثر من عشرين سنة من الامامة ، فلا يوجد له من العين في تركته الا سبعة عشر دينارا (٢٧٧) . ولا بأس من أن تكون تلك الدنانير التي لم تبلغ العشرين هي قيمة الكتب التي وجدت عنده ، والتي كانت من تآليفه في الرد على المخالفين ، كما يفهم من رواية أبي زكريا (٢٧٨) .

وخلف أبو اليقظان عددا من الأبناء الذكور ، منهم : يقظان ابنه الاكبر الذي كني باسمه ، ويوسف وهو المكنى بابي حاتم ، وأبو خالد ، وعبدالوهاب ، ووهب ، وغيرهم ممن يشير اليهم ابن الصغير دون أن يذكر اسماءهم . وكانت الامامة من بعده من نصيب أبي حاتم يوسف وهو ثاني ابنائه .

امام من طراز جديد : « نقيب » للعامة واهل الحرف :

ابو حاتم يوسف بن محمد ابي اليقظان امام تاهرت الخامس (٢٨١ هـ - ٢٩٤ هـ/٨٩٤ - ٩٠٧م) :

يبرر ابن الصغير ولاية يوسف وتقدمه على أخيه الاكبر يقظان ، بأن هذا الأخير كان قد خرج لاداء فريضة الحج عندما توفي والده(٢٧٩) ، مما يعني أنه لم يكن من الممكن ترك الامامة شاغرة لحين عودة يقظان . ولكن الروايات المكملة لذلك يمكن أن يفهم منها أن اباحاتم يوسف كان نشيطا طموحا يرنو بأبصاره الى الامارة منذ حياة والده . وهكذا نجد رواية تقول : « لما مات أبو اليقظان قامت العوام ، وأهل الحرف ومن لف لفهم ، فقدموا ابنه اباحاتم بلا مشورة أحد من الناس لا من القبائل ولا من غيرهم »(٢٨٠) . بينما تقول

(٢٧٦) ابن الصغير ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢٧٧) ابن الصغير ، ص ٤٩ .

(٢٧٨) انظر ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٦ ب - حيث يقول ان قيمتها بلغت ١٩ (تسعة عشر) دينارا .

(٢٧٩) ابن الصغير ، ص ٤٩ .

(٢٨٠) ابن الصغير ، ص ٤٩ .

أخرى : ان أبا حاتم كان فتى شابا معتزا بنفسه ، يجمع الفتيان حوله فيطعمهم ويكسيهم ، وأن أمه « غزالة » التى كانت مسيطرة على أبى اليقظان كانت تدلله ، حتى انه انتهز فرصة غياب والده عن المصلى فى يوم عيد وسمح للعوام بأن يحملوه على درقة وهم ينادون بطاعته ، مما جعل أبو اليقظان يقول لامه : احذرى يا غزالة فقد أصبح اليوم ابنك باغياء(٢٨١) ، فكأن أبا حاتم كان يشتاق الى الامارة ، ويعمل على الوصول اليها منذ صباه .

والظاهر ان ابا حاتم لم يكن شابا وصوليا ، بل كان جدا مجتهدا حتى ان والده كان يعهد اليه بالنيابة عنه فى الأمور العظيمة ، مثل : قيادة الجيوش . فعندما توفى أبو اليقظان لم يكن يقظان وحده غائبا فى الحج ، بل كان أبو حاتم يوسف أيضا خارج تاهرت يقود جيشا من وجوه زناتة « ليحوزوا قوافل قد اقبلت من المشرق ، وفيها أموال لا تحصى ، قد خافوا من قبائل زناتة »(٢٨٢) . وبينما أبو حاتم فى مهمة القوافل تلك ، اذ وافته رسل من تاهرت تفيده بوفاة أبيه وعقد الامارة له . « وذلك ان اباه لما مات اجتمعت العوام والفرسان دون القبائل فنادوا لا طاعة لأحد الا لأبى حاتم » ، وكان أبو حاتم حينئذ على مسيرة يومين المدينة أو أكثر (٢٨٣) . وواضح من النص ان اباحاتم قوبل فى تاهرت بتظاهرة شعبية عظيمة ، اذ : « لما وصل الى باب المدينة ازدحم الناس بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه وعن يساره ، فبايعوا ، فما وصل المسجد الجامع الا وقت الظهر ، فاصعدوه المنبر وبايعوه وكبّروا حوله وحملوه على الأيدى والأعناق حتى أوصلوه الى داره ، ثم أرسلوا الى القبائل فبايعته »(٢٨٤) .

تراتيب جديدة تناسب شعبية الأمير ، واتجاهات غير اباضية فى علاقاته مع الآخرين :

وظهرت شعبية أبى حاتم التى اكتسبها أيام فتوته عندما حاول أهل بيته ووجوه الرستمية « ان يجعلوا له حجابا وهيبة ، وأبت العوام من ذلك ، وأرادت الدنو اليه فى كل الأوقات على ما كانت تعرف قبل امارته »(٢٨٥) . وهذا الأمر يكون مقبولا فعلا اذا عرفنا ان عقد البيعة لابى حاتم تم بمعرفة

(٢٨١) ابن الصغير ، ص ٤٦ — ٥٠ .

(٢٨٢) ابن الصغير ، ص ٥٠ .

(٢٨٣) ابن الصغير ، ص ٥٠ .

(٢٨٤) ابن الصغير ، ص ٥٠ .

(٢٨٥) ابن الصغير ، ص ٥٠ .

رجلين من خاصيته من أهل الحرب والنجدة ، هما : محمد بن رباح ، ومحمد ابن حماد اللذان عرف عنهما من الجرأة ما بلغ حد ان اقترحا ذات يوم على أبى حاتم ، عندما شكا لهما من والدم الذى نازعه فى بعض أشياء ، أن يخلى بينهما وبين والده فيقتلانه ويصير الامر إليه ، مما أثار الهلع فى قلبه (٢٨٦)٠ وفى علاقاته القوية بغير أهل المذهب وبالعوام ، يقول ابن الصغير ان بعض مشايخ تاهرت من غير الاباضية كانوا قد استولوا عليه ، مثل الفقيهين الكوفيين : أبى مسعود وأبى ذنون ، وكانا على مذاهب الكوفيين فى الفقه « علويين او معتزلة ؟ » ، ومثل علوان بن علوان الذى لم يكن من أهل الفقه ، ولكن كانت له رياسة فى البلد ، ومحبة عند العوام ٠ والغريب ان ابن الصغير المالكى هو الذى يشير الى ان تلك الجماعة كانت تهدف الى الكيد للاباضية ، ويطمعون به فى القضاء على مذهبهم ، وان يكن غدرا ٠ وهو الامر الذى لا نجد أصداء له عند كتابهم ، مع انه كان يمثل مرحلة تطور غريبة فى تاريخ تاهرت الرستمية ، تنذر باضمحلال المذهب الاباضى قبل ظهور الفاطميين ٠

انهيار حلف المتناقضات :

فالتجاء مذهب الكوفيين العراقى الى تاهرت ، كما يشير ابن الصغير ، بل وجود ابن الصغير نفسه وهو المالكى المذهب فى عاصمة الرستميين ، الى جانب تدخل العامة فى شئون الإمارة بتشجيع ابى حاتم ، كل ذلك يمثل قرائن مقبولة توضح أن المذهب الاباضى لم يعد كافيا للاستجابة الى متطلبات مجتمع تاهرت ، وانه كان يتآكل داخليا قبل أن يواجه المذهب الفاطمى آتيا من الخارج ، وانه لم يعد كافيا وحده — كما كان الحال من قبل — لكى يشد اركان الدولة الرستمية ٠ وهكذا تكون امارة أبى حاتم بن أبى اليقظان قد حملت بذور ضعفها فى ثنايا بدايتها ٠ وذلك ان محمد بن رباح ومحمد بن حماد ، اللذين كانا من خاصة ابى حاتم ، كما عرفا بالحرب والنجدة والجرأة الزائدة ، بدآ يسيئان السيرة ، ويهددان بعض مشايخ تاهرت ، مما أثار الأمير ابى حاتم فأمر باخراجهما من المدينة ٠٠

فتنة القتالة بتاهرت :

ولما كان لمحمد بن حماد منزل عظيم على مسافة أميال من تاهرت يعرف ب « الثلث » فيه انواع الاشجار والمزارع والنخل ، وتجرى فيه الانهار بين

---

(٢٨٦) ابن الصغير ، ص ٥٦ ٠

القصور » فان الرجلين خرجا جميعا الى ذلك المنزل حيث عاشا ، كما يقول ابن الصغير « في انعم عيش وارغده »(٢٨٧) . والظاهر أن الرجلين الفاتكين ساءهما ان يكون جزاءهما النفي من قبل أبي حاتم بعد ما قدماه اليه من الخدمات قبل ان يصل الى الامارة ، « فأخذا في الاتصال باتباعهما ، في المدينة : يشكوان كيف ينفيان من المدينة بلا جناية » . ونجح تدبير الرجلين في العودة الى تاهرت ، على رضا الراضي وسخط الساخط ، فما شعر أبو حاتم الا والتكبير عليهما في المدينة ، ففزع لذلك وارتاع ، وعلم أنها (تاهرت) ليست بدار قرار »(٢٨٨) .

أبو حاتم يلجأ الى حمى لواتة :

هكذا وجد أبو حاتم نفسه غريبا في عاصمة مملكته ، فجمع أهل بيته وشاورهم في الأمر ، وتم الاتفاق على أن يخرج الرستمية من تاهرت لكي يعتصموا في حصنهم الذي كانت به مواشيهم وعبيدهم ، وهو حصن يعرف بنماليت . وكان يقع في طرف أرض لواتة حيث كان يسكنهم جميع لواتة وغيرها من القبائل ، وحينئذ يدعونه للخروج اليهم . وعندما خرجت الرستمية من تاهرت تبعهم العجم الساكنين بتاهرت فخرجوا الى حصنهم ، كما فعلت نفوسة ، بدورها ، مثل ذلك . ولم يلبث أبو حاتم في المدينة الا أياما قليلة بعد ذلك ، ثم انه خرج في نحو مائة رجل من وجوه أعوانه من السمحيين ومن حماة البلد ، وعلى رأسهم مقدما كل جماعة ، وهما بكري ابن يبيدي وبكر بن عبد الواحد ، وكانا فارسي الغرب في ذلك الزمان (٢٨٩) .

محاولة استعادة تاهرت بالقوة :

وبذلك تمت القطيعة مرة أخرى بين تاهرت التي بقي فيها العامة ومشايخ البلد في جمع عظيم وبين الرستميين ومن معهم من العجم ونفوسة ولواتة وغيرها من القبائل ، وأخذ كل من الطرفين يستعد للحرب المنتظرة . فلقد أسرع عامة تاهرت في بنيان حصنهم وترميم ما تصدع منه ، بينما اجتمعت لواتة على أبي حاتم فأعطاهم الأموال وحملهم على الخيل . كما وفدت عليه قبائل الصحراء ، لم يتخلف منهم الا أهل حصن تالغمت : لأنهم كانوا من

(٢٨٧) ابن الصغير ، ص ٥١ .
(٢٨٨) ابن الصغير ، ص ٥١ — ٥٢ .
(٢٨٩) ابن الصغير ، ص ٥٢ .

الصفرية . وعندما أتم أبو حاتم استمداده قسم قواته الى ثلاثة جيوش هاجم بها تاهرت من ثلاثة مواضع . هي

١ — القبلة حيث تولى القيادة بنفسه ، ومعه لواتة والرستمية ومن شايعهم .

٢ — المشرق حيث تقدم العجم ومعهم صنهاجه ومن شايعهم .

٣ — المغرب حيث احتشدت نفوسة مع طوائف من الناس .

وكانت نتيجة القتال الأول على الجبهات الثلاث في غير صالح أهل تاهرت الذين فقدوا بعض القتلى في مواجهة لواتة في القبلة ، وفي مواجهة العجم في المشرق ، بينما لم يصب لهم أحـــد من جهة المغـــرب حيث نفوسة (٢٦٠) .

ورغم أنه من الواضح أن القتال الذي وصف بالشدة لم يكن حاسما فان الأمور تطورت من جراء ذيوله في داخل تاهرت بشكل جعل أهل المدينـــة يفضلون الاتفاق مع أبي حاتم على مواصلتهم القتال الذي رأوه عقيما لا يؤدي الى الغرض منه . وذلك ان ابن رجل قتله العجم في ناحية المشرق ثار برجل من العجم من سكان المدينة فقتله غيلة أخذا بثأر والده . وعندما علم التاهرتيون بذلك بادروا اليه ليقتلوه به ، فولى هاربا فلم يقدروا عليه ، ولم يعرفوا له مكانا . وثارت ثائرة أهل المدينة الذين اجتمعوا فقالوا : « نحن انما قمنا لمحاربة هؤلاء القوم لنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، واذا كان يقتل بين ظهرانينا رجل بغير حق ، فامضوا بنا الى أبي حاتم لندخله يقتل هذا وأشياعه ، ويحكم فيمن بقي كيف يشاء »(٢٦١) .

الانقسام في صفوف الرستميين : يعقوب بن أفلح امرا منافسا لأبي حاتم :

وهكذا فشل التاهرتيون ومشايخهم في اقامة الحكم المثالي الذي كانوا يحلمون به بعيدا عن تسلط الرستميين ، وأرسلوا بما استقر عليه رأيهم الى أبي حاتم الذي اشترط عليهم الا يدخل المدينة الا بعد أن يدفعوا اليه بمشايخهم والمسئولين عن اثارة تلك الفتنة . ورغم ان هذا الشرط كان سببا في تجدد

---

(٢٦٠) ابن الصغير ، ص ٥٢ .

(٢٦١) ابن الصغير ، ص ٥٢ — ٥٣ .

القتال الا أن وجوه أهل تاهرت رأوا الا قبل لهم بمواصلة القتال ضد تحالف القبائل والاباضية الذين كلبوا عليهم ، ويرموهم عن قوس واحد . ثم ان المشايخ رأوا ان خير وسيلة لدفع خصومهم هي أن يبحثوا لأنفسهم عن رئيس من الرستميين ، ينحل مذاهب الإباضية » . ووقع اختيارهم فعلا على يعقوب ابن أفلح ، وكان على غير اتفاق مع ابن أخيه أبي حاتم حتى أنه رحل منذ ولايته عن تاهرت ، ونزل بزواغة « فلم يدخل للرستمية جمعا ، ولا أعان ابن أخيه برأى ولا غير ذلك »(٢٩٢) .

فشل الاسرة الرستمية وانشقاقها : الصراع بين الطالبين بالامامة :

ولما تم اجماع أهل المدينة على ولاية يعقوب بن أفلح ارسلوا اليه وادخلوه المدينة حيث عقدوا له الولاية ، وبذلك تحقق لهم ما كانوا يأملون فيه من شرخ الوحدة الرستمية . فبمجرد اعلان امارة يعقوب بن أفلح انكسرت شوكة الاباضية ، كما يقرر ابن الصغير ، « ودخل عليه جماعة منهم ورجعت اليه جماعة من لواتة ، وبقيت الحرب متماسكة بين يعقوب بن أفلح وابن أخيه أبي حاتم » . وهكذا تكون الاسرة الرستمية قد انقسمت على نفسها في سبيل الحكم ، وكان ذلك يعني استمرار الحرب وان كانت قد ضعفت عن ذي قبل وانكسرت حدتها (٢٩٣) .

فشل ابي حاتم في دخول تاهرت :

ولكنه رغم ما أصاب أبا حاتم من الضعف فانه ظل متمتعا بولاء جمهور الاباضية : وكان يمكنه أن يناجز تاهرت القتال وأن يزحف عليها . وأمر يعقوب بن افلح باغلاق أبواب المدينة الا بابا واحدا ، وقف هو عليه بجمهور الناس للدفاع . ويصف ابن الصغير قتال الاخوة غير المرغوب فيه ، فيقول : ان الناس ظلوا يواجهون بعضهم بعضا الى ان حضرت صلاة الظهر ، فاذن المؤذنون في مصافهم ذلك . وصلى الناس صلاتهم ثم أخذوا ينظرون الى بعضهم « ليسقط في أيديهم وتحولت نياتهم على المحاربة ، وكفوا على عدوتهم »(٢٩٤) . وبناء على ذلك لم يكن من الغريب أن يفشل أبو حاتم فمن فتح من العجم عندما ارادوا انتهاز الفرصة ومفاجأة المدينة من جهة المشرق

---

(٢٩٢) ابن الصغير ، ص ٥٣ .

(٢٩٣) ابن الصغير ، ص ٥٣ .

(٢٩٤) ابن الصغير ، ص ٥٤ .

لعلهم يصيبوا غرة ، اذفتح من كان بناحية الباب الشرقى من المدينة الباب وخرجوا اليهم حملة واحدة ، وأرغموهم على الفرار منهزمين . وهنا انصرف القائد وانودين الذى كان أكبر معاونى أبى حاتم بعساكره ، وبذلك ضعفت الحرب ، وتطلع الناس الى السلم والعافية (٢٩٥) .

تكريس الانقسام بين الرستميين ، تقييم يعقوب بن افلح : قديس يتز فى سيرته سيرة الأئمة الأول :

وهكذا يكون انقسام الرستميين قد تكرس ، ويكون يعقوب بن أفلح قد حقق حسن ظن تاهرت ومشايخها فيه . ويصف ابن الصغير يعقوب بن أفلح فيقول : انه كان بعيد الهمة نزيه النفس ، ماجس بيده دينارا ولا درهما، فكأنه أعاد سيرة الامام الاول فى ورعه وتقشفه . فقد « كان اذا أتى وكيله بغلاته أمره بأن يجعلها تحت بردعة له يجلس عليها ، واذا أراد اخراج شيء منها دفعه بقضيب من يده » . «وكان يعقوب اذا سافر ونزل بقوم لم يأكل لهم طعاما ، وكانت له بقرات يأمر بحلبها بين يديه فى اناء جديد ، فاذا امتلأ شربه أجمع ثم يقوم عليه ثلاثا لا يأكل طعاما ولا يشرب شرابا ولا يخرج لبراز » .

ويستمر ابن الصغير فى وصف مناقب يعقوب فكأنه يضعه فى مصاف كبار الأولياء : فقد كان وضوءه طاهرا فى الموضع الذى يكون فيه ، وكانت له أخلاق فى لباسه وركوبه يخرج عن طبع البشر . والى جانب ذلك فهو أحد الفرسان الشجعان ، « وكان له فرس أشقر لم يكن بالمغرب مثله ، لا قبله ولا بعده » ، وكان يضرب به المثل الى الوقت الذى كان يكتب فيه ابن الصغير فى أواخر ايام الرستميين (٢٩٦) .

اضطرابات تهلك الحرث والنسل لا ينهيها الا توسط زعيم مزاتى فى الرار الهدنة :

والمهم أنه لا مناقب يعقوب بن أفلح ولا فروسيته حققت ما كان يطمح فيه الناس من الأمن والعافية ، بعد أن طالت الحرب بينه وبين ابن أخيه ، وقطعت السبل وفرغ من أيدى الناس الحرث والنهل ، الى أن قيض الله

---

(٢٩٥) ابن الصغير ، ص ٥٤ .

(٢٩٦) ابن الصغير ، ص ٥٤ .

لهم أبا يعقوب المزاتي الذى نزل بجميع مزاته حول تاهرت . » وكان رأس القوم وملكهم ، فمشت اليه القبائل ، وقالوا : لو جعلت الهدنة بين هذين الفريقين الى مدة معلومة يأمر الناس اليها ... ، وانتهى مسعى الزعيم المزاتي فى الهدنة التى اشتهاها الفريقان الى النجاح .

التحكيم :

وتم الاتفاق على أن يختار كل من الطرفين المتحاربين ممثلاله لعقدالهدنة: فقدم يعقوب بن أفلح لتمثيله الفقيه عبد الله بن اللمطى ، الذى عرفناه مناظرا راسخا فى فن الكلام والجدل ، بينما قدم أبو حاتم رجلين ، هما : منكود وابن ابى عياض اللواتيين .

وانتهى مؤتمر التحكيم الجديد بحكم أشبه بالحكم الشهير فى تاريخ الاسلام الذى أنكره سلف الاباضية الأوائل ، والذى ظل الرستميون ينكرونه حتى هذا الحين ، اذ تم عقد الهدنة على : « ان يرفعوا أيدى كل من ابى حاتم ويعقوب عن النظر أربعة أشهر ، ويمشى الناس الى الناس ، ويدخل بعضهم على بعض ، وتأمن الساحات . فتم العقد على ذلك وتطامع النـــاس العافية (٢٩٧) » .

عودة أبى حاتم يوسف الى تاهرت أميرا دون منافس ، بعصبيته الشعبية من غير الرستمية :

وأحسن أبو حاتم استغلال فترة الهدنة لصالحه فاستمال وجوه أهل تاهرت وشبابهم بالوعود الحسنة وبالعطاء الجزيل ، وبذلك مال أصحاب الدنيا اليه ، ولم يبق الى جانب يعقوب الا الراغبين عن سفك الدماء وأكل الأموال ، بينما ظل أبو يعقوب المزاتي قائما بمساعيه الحميدة لاصلاح ذات البين (٢٩٨) . وكان الطبيعى بعد أن تطور مجتمع تاهرت الى ما تطور اليه من عدم التمسك بتقاليد الرستميين الأوائل أن ترجح كفة ابى حاتم وما كان يغرى به من أمور الدنيا وعرض الحياة . ففى يوم عيد من أعياد تاهرت أقبل اخوان من وجوه أهل تاهرت ، هما أحمد ومحمد ابنا دبوس ، وأعلنا أن من يريد العافية من أهل المدينة فعليه بالصعود الى الحى المعروف باسم الكنيسة ،

---

(٢٩٧) ابن الصغير ، ص ٥٤ — ٥٥ .

(٢٩٨) ابن الصغير ، ص ٥٥ .

حيث كانا يسكنان . واستجاب الناس للدعوة ، عدا يعقوب بن افلح وبعض المشايخ ممن كانوا يكرهون أبا حاتم وعلى رأسهم شيخ البلد ومقدمه ابن مسعود الذى حاول أن يثني الرجلين عن غرضهما دون جدوى . وهكذا سار ابنا دبوس تحت جنح الليل يتبعهما كثير من الناس قاصدين قصر أبي حاتم في [illegible] ، بينما ركب يعقوب بن أفلح وشيعته خيولهم وخرجوا من المدينة نحو زواغه حيث كان يعيش يعقوب قبل دعوته الي تاهرت . وهكذا تفتحت تاهرت أبوابها من جديد لأبي حاتم الذى دخلها في صباح اليوم التالي وحده ، وليس معه أحد من عشيرته ولا من رجاله ، وبادر اليه الناس جميعا (٢٩٩) .

اعادة تنظيم الحكومة في تاهرت : حكم حازم يقضي على اوكار الفساد :

بمجرد دخول أبي حاتم العاصمة الرستمية جمع مشايخ البلد من الاباضية وغير الاباضية وشاورهم في ترتيب الحكم والادارة ، من : القضاء وبيت المال والشرطة وغيرها . وطلب أهل العقد والحل منه أن يسيرفيهم بسيرة والده محمد الذى كانوا لا يعدلون بولايته الا ولاية جده الأكبر عبد الرحمن بن رستم . ففيما يتعلق بولاية القضاء أشاروا بقاضي والده وهو محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ ، وطلبوا تعيين ابنه عبد الله الذى ليس دون والده في الورع والعلم ، فولاه القضاء . وفي ادارة بيت المال ولى عبد الرحمن بن صواب النفوسي الذى اشاروا به . وفي الشرطة عرضوا عليه أحد رجلين ، وهما : زكار الذى عرف بجودة فكره وبالتفاني في الخدمة ، أو ابراهيم بن مسكين المعروف بصلابته ، في الحق ، فاستصوب ان يوليهما جميعا (٣٠٠) . وقام الرجلان بعملهما خير قيام ، فقضيا على أوكار الفساد الذى كان قد استشرى في المدينة نتيجة الحروب والضيق ، من : انتشار المنكر والعبث بالغلمان . فحملا الناس على عمل المعروف والابتعاد عن المنكر ، حملا ، ولم يتورعا عن انزال العقوبة الصارمة بالمخالفين ، من : الضرب والسجن والقيد ، حتى قطعا كل ذلك في أسرع من طرفة العين ، كما يقول ابن الصغير ، لم يفرقوا في ذلك بين العظيم والصغير . هذا ، كما اهتما أيضا بالقضاء على السراق قطاع الطريق حتى أمنت السبل واطمأن المسافرون (٣٠١) .

وهكذا حسنت سيرة أبي حاتم في ولايته الثانية لتاهرت ، ولم ينقم

---

(٢٩٩) ابن الصغير ، ص ٥٥ .

(٣٠٠) ابن الصغير ، ص ٥٦ .

(٣٠١) ابن الصغير ، ص ٥٦ - ٥٧ .

عليه الناس شيئا ، ولولا ما تقوم عليه من أخذ بعض الناس بالشبهة وانزال عقوبة الضرب بالسوط في بعضهم على الظنة (٣٠٢) ٠

ازدهار مجالس العلم والمناظرة :

ونتيجة لمثل هذا الحكم الحازم وما أدى اليه من انتشار الأمن والعافية كان من الطبيعي أن ينصرف الناس الى أمور دينهم بعد أن اطمأنوا الى أمور دنياهم فعمرت المساجد ، وأقيمت الجمعة والخطبة في الجامع ٠ ولم ينكر الناس شيئا سوى ما انصرف اليه الفقهاء من المناقشات الفقهية ـ وهذا أمر طبيعي في أوقات الأمن والسلم ـ وما أقاموه فيما بينهم من المناظرات بين أعلام الفرق المختلفة ، مما كان يشبب بعض المنازعات ، كما هو معروف ٠ ولكن الكلف بالجدل العلمي والمناظرات الفقهية أدى الى أن أصبحت كل فرقة تسعى الى المزيد من العلم عن طريق معرفة آراء مخالفيها ٠ وفي سبيل ذلك استخدم الجميع اللطف في المناقشة واكرام المخالفين سواء كانوا من الاباضية أو من غيرهم ، دونما حقد أو تعصب (٣٠٣) ٠ وهو الأمر الذي لم يكن معهودا من قبل ٠

مناظرات المؤرخ ابن الصغير :

وابن الصغير المالكي يشير الى ما كان يقوم بينه وبين رجل يسمى سليمان ويكنى بأبي الربيع من وجوه الاباضية من هوارة ، وذلك في بعض مساجد الرهادنة حيث كان يقيم مؤرخنا ، من المناظرة في بعض المسائل المختلف عليها بين المالكية والحنفية (الحجازيين والعراقيين) وبين الاباضية ٠ من ذلك ما يتمسك به أهل السنة من أن الرجل اذا زوج ابنته البكر ، وهي صغيرة ، وأدركت أن لا خيار لها في نفسها ، بينما يقولون ان الرجل اذا زوج أمته ، وعتقت فان لها الخيار ٠ وهنا يلفت سليمان الهواري الاباضي نظر ابن الصغير الى أنه لا فرق بين الأمة وبين الصغيرة (٣٠٤) ٠

---

(٣٠٢) ابن الصغير ، ص ٥٧ ، وقارن الشماخي ، ص ١٦٢ ٠

(٣٠٣) ابن الصغير ، ص ٥٧ ٠

(٣٠٤) ابن الصغير ، ص ٥٧ ٠ وشرح ذلك : « لأن الأمة لم يكن لها حكم في نفسها وانما كان الحكم لسيدها ، فلما عتقت وصار الحكم اليها جعلتم لها الخيار ، والصغيرة لم يكن لها حكم في نفسها وان الحكم لأبيها ، فلما أدركت صار الأمر اليها فلم منعتموها ما أجزتم للأمة والمعنى واحد » ٠ ويقول ابن الصغير انه ناقش هذه المسألة مع كثيرين وانه رد على ذلك بقوله : « انا انما أجزنا نكاح الصغار لأن النبي صلعم تزوج عائشة بنت أبي بكر »

ومن موضوع المناظرة وما يحدث فيها من اختلافات فقهية ولغوية ، ينتقل ابن الصغير الى موضوع الخطبة على منابر الاباضية ، فينص على أن خطباءهم ربما حرفوا اللفظ عن موضعه ليقيموا الأمر الذى يريدونه . وهو يعدد خطباءهم الذين حضر لهم ، وأولهم ابن أبى ادريس ، وبعده : أحمد التيه ، وأبو العباس بن فتخون ، وعثمان بن الصقار ثم أحمد بن منصور (٢٠٥) . ويذكر أن الثانى منهم وهو أحمد التيه حاول فى شرحه للكلمات القرآنية : « الرحمن على العرش استوى » ، أن يجعل ذلك بابا من الحلول على العرش (٢٠٦) .

ويؤكد ابن الصغير ان كل من رآهم من خطبائهم على منابرهم لا يستعملون الاخطب أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، باستثناء خطبة التحكيم . وكان الخطيب اذا فرغ من خطبته الاولى وقام الى الخطبة الثانية بدأها بالتحكيم (٢٠٧) أى : « لا حكم الا لله » ، وهو نفس شعار جماعة الخوارج من الشراة القديم عندما رفضوا حكم عمرو وأبى موسى — وهذا ما تشير اليه خطبة التحكيم التى ينقلها ، ابن الصغير ، ففيها : « فتبارك الله أحسن الخالقين ، تعالى أن تطلق فى وصفه آراء المتكلفين أو أن تحكم فى دينه أهواء المتقلدين ، بل جعل القرآن ماما للمتقين ، وهدى للمؤمنين .. وحكما بين المتخالفين » (٢٠٨) وكذلك يأتى بعد الحمد لله : « الله ربنا ، ومحمد نبينا ، والاسلام ديننا ، والكعبة

= بنت سبع سنين وبنى بها وهى بنت تسع سنين » . ورفض الرجل ذلك وطلب منه ان يكلمه من القرآن او من باب النظر ، بعد أن اشار اليه ان الله أحل لرسوله من النساء ومن عددهن أكثر مما أحل لأمته . ويستمر الجدل فيذكر كاتبنا انه ذكر من القرآن الآية التى تقول : « واللائى يئسن من المحيض من نسائكم (الى) ... واللائى لم يحضن » . فقال عجبا منك انا اسالك عن عقد النكاح وفسخه وانت تخبرنى عن عدة اليائسات وعدة اللائى لم يحضن » وهنا أفحم ابن الصغير مناظرة سليمان عندما شرح له كيف غاب عنه المراد ... متعلق بالطلاق ، والطلاق لا يكون من غير زواج — فسكت ولم يرد جوابا . هذا ولو ان شخصا آخر قال له : « واللائى لم يحضن » : المراد اللائى لم ... من الكبائر لا بالصغار ... فكان رده : « هذا غلط فى اللغة » .

(٢٠٥) ابن الصغير ، ص ٥٩ .

(٢٠٦) ابن الصغير ، ص ٥٩ — ٦٠ . وربما يظهر ذلك الحلول المقصود ... يورده ابن الصغير بعد ذلك فى خطبة التحكيم ، وفيها : « الذى لم يزل بصفاته وأسمائه ، لا يشتمل عليه زمان ولايحيط به مكان ، خلق الأماكن والأزمان ثم استوى الى السماء وهى دخان ... » .

(٢٠٧) ابن الصغير ، ص ٥٩ .

(٢٠٨) أخبار الأئمة ، ص ٦٠ .

قبلتنا ، والقرآن امامنا ... لا حكم الا لله اتباعا لكلام الله وسنة نبيه عليه السلام ، وخلافا لأهل البدع ... واشهد أن من لم يحكم بما أنزل الله : فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون » وفي الدعاء : قبيل الختام يطلب الرحمة - بعد ذكر النبي وآله والصحابة والتابعين - للشراة ، كما يدعو بالصلاة على أبي بكر وعمر ، وأخيرا الدعاء بالصلاح للأمير يوسف بن محمد (أبو حاتم) (٣٠٩) .

والظاهر أن مجتمع تاهرت ظل في تطور مستمر ، وهو الأمر الذي يحمد للاباضية الذين ظهروا ، على عكس ما كان يظن ، بمظهر التساهل والتسامح في كثير من أمور الفقه والأحكام . فعندما ولى الخطابة رجل من الاباضية ، يقال له : أحمد بن منصور ، وسمعه ابن الصغير وهو يثني بخطبة التحكيم ، أثار ذلك انتباهه حتى أنه لفت نظر الخطيب الى أن هذه لم تكن سنة أسلافه . ورد الخطيب على ملاحظة ابن الصغير بأن أحد زعماء الجماعة ، واسمه : عثمان بن أحمد بن يحيا هو الذي حمله عليها ، اذ كان الرجل مقدما عندهم ولا يكادون يخالفونه فيما استحسن لهم ، فخطب الخطيب بها (خطبة التحكيم) لأنه استحسنها له (٣١٠) .

وبخطبة التحكيم تلك ينهي ابن الصغير كتابه في سير الرستميين على أيام الأمير ابي حاتم يوسف بن أبي اليقظان ، ولا بأس في أن يكون ذلك حوالى سنة ٢٩٠ هـ/٩٠٢ - ٩٠٣ م ، اذ أن عدم وجود أي ذكر في الكتاب لوقعة « مانو » التي تحطم فيها اباضية نفوسة أمام القوات الأغلبية ، قبل ذلك بسنوات ، لا تعني بالضرورة أن تأليف ابن الصغير قد تم قبل تلك الوقعة (أي قبل ٢٨٣ هـ/٨٩٦ م) . والحقيقة هي أن ابن الصغير لم يهتم الا بأحوال تاهرت بلده ، أما جبل نفوسة الذي كان يمثل الدعامة الرئيسية للامارة الرستمية، فكان موضوعا بعيدا عن اهتمامه وان كان له المعنيون به من مشاهير الكتاب النفوسيين .

أحوال جبل نفوسة على عهد أبي حاتم يوسف :

أبو منصور الياس بن منصور واليا :

والنفوسيون ، وعلى رأسهم أبي زكريا ، لم يهتموا في تاريخهم لامامة

---

(٣٠٩) أخبار الأئمة ، ص ٦٢ .

(٣١٠) ابن الصغير ، ص ٥٩ . أما عن خطبة التحكيم فانظر ص ٥٩ - ٦٢ .

ابى حاتم يوسف بن أبى اليقظان الا بأحوال جبل نفوسة • فأبو زكريا الذى يقول عن يوسف انه مكث فى امامته ١٤ (أربعة عشرة) سنة ، يذكر : « أنه اطردت له الأمور ولم ينقم عليه من رعيته أحد » ، ويتبع ذلك بالحديث فى سيرة أبى منصور الياس بن منصور والى جبل نفوسة على أيام أبى حاتم(٢١١) • وهو واحد من أشهر الشخصيات النفوسية فى تاريخ امامة تاهرت الرستمية على وجه العموم • فلقد ولى أبو منصور جبل نفوسة على عهد كل من أفلح وأبى اليقظان ثم أبى حاتم يوسف (٢١٢) •

عمروس بن فتح النفوسى قاضيا :

وواضح من النصوص أنه رغم ما كان يتصف به أبو منصور الياس من الفضل ، حتى قيل إنه كان مستجاب الدعاء (٢١٣) ، فقد كان من أسباب شهرته وذيوع صيته بين كتاب الاباضية هو عهده بالقضاء الى عمروس بن فتح النفوسى ، الذى كان من الشخصيات العارمة التى عرفها جبل نفوسة بسبب : علمه وفضله وحذقه وفطنته وحضور حجته (٢١٤) • ففى علمه قيل انه كان عالما كبيرا له كتب فى الاصول والفقه (الفروع) ، وانه كان قد عزم على تأليف كتاب جامع يعالج فيه مسائل الفقه على أساس القواعد التشريعية الثلاثة المعروفة ، وهى : الكتاب والسنة والرأى ، ولكن أجله لم يمهله لكى يتم مشروعه هذا (٢١٥) •

وفى شدة عمروس فى الحق وعدم خوفه فى الله لومة لائم ، يذكر ابو زكريا من مناقبه أنه كان يطأ الرجل الذى يمسك عن الاجابة على أسئلته برجليه فى حضرة الوالى أبى منصور اليـــاس • وعندما لفت الياس نظره الى أنه عجل على الرجل ، لم يتردد فى أن يبين له الحجة فيما فعل ، بل أنه عرض استقالته من القضاء ان لم يقبل حكمه بالعقوبة العظمى ، وهى القتل ، فى ثلاثة : الطاعن فى دين المسلمين أى المعارضين للمذهب الاباضى ، من النكار

---

(٢١١) المخطوط ، ص ٣٢ ــ أ ، وقارن الدرجينى الذى يجعلها (١٢) (اثنى عشرة) سنة فقط ، المخطوط ، ص ٣٧ ــ أ (المطبوع ، ص ٨٤) •

(٢١٢) انظر الدرجينى ، المخطوط ، ص ٣٧ ــ أ (المطبوع ، ص ٨٤) •

(٢١٣) ابو زكريا ، ص ٣٢ ــ أ ، الدرجينى ، المخطـــوط ، ص ٣٧ ــ أ (المطبوع ، ص ٨٤) •

(٢١٤) ابو زكريا ، ص ٣٢ ــ ا •

(٢١٥) ابو زكريا ، ص ٣٢ ــ أ ، الدرجينى ، ص ٣٧ ــ أ (المطبوع ، ص ٨٤) •

ومن نهج نهجهم) ، والمانع الحق ، والدال على عورات المسلمين (أحتسل المذهب) (٣١٦) .

الياس وعمروس رجلا الجبل :

وهكذا أكملت مناقب كل من الرجلين سجايا الآخر ، وعمل كل منهما على الرفع من شأن صاحبه : عمروس بعلمه وفطنته وشدته في الحق ، والياس بتقواه وورعه وشجاعته التي بلغت مبلغ الأسطورة ، مما ضمن لذريتـــه استمرار الولاية والحكم في جبل نفوسة . ففي الحروب كان أبو منصور اذا خرج في العسكر « ينطح العدو نطحة من غير صفوف » ، مما يذكر بالحملة الخارجية ، التي صارت مضرب المثل . وفي الحرب كان يقود رجاله وهو راكب بغلة ليكون قدوة للعامة من رجاله للثبات في المعركة ، وعدم التفكير في الهزيمة أو الفرار (٣١٧) ، وهو الامر الذي بالغ فيه المتاخرون ، حتى جعلوه كرامة من الكرامات . اذ ليست البغلة مما يركبه مقتحمو الحرب ، فقالوا ان نبال الأعداء كانت تتحاد عنه ، رغم أنه كان هدفا ثابتا قريب المنال ، وهو فوق بغلته (٣١٨) .

مطاردة حفيد خلف بن السمح :

ومن أهم الأعمال الحربية التي تذكر لأبي منصور الياس مطاردته بقايا الخلفية بقيادة حفيد خلف بن السمح في آخر ولاية الرستميين . وكان الخلفية قد وهنوا بعد صراعهم مع أبي عبيدة عبد الحميد والى افلح على جبـــل نفوسة ، ولكن فلولهم ظلوا متشبثين بابن خلف ، أو حفيده ، الذي ظل متمسكا بمذهب أبيه (٣١٩) . والرواية لا تشير الى أعمال عدائية قام بها الخلفية ضد أبي منصور أو رعيته ، بل تكتفي بالقول ان والي جبل نفوسة الشهير خرج على أيام أبي حاتم يوسف لطلب ولد خلف الذي لا تذكر لنا اسمه ، وان هذا الأخير هرب لاجئا لدى قبائل زواغة ، خارج طرابلس في ساحل جزيرة جربة . والتف الزواغيون حول زعيم الخلفية ، وأجمعوا على أن

---

(٣١٦) ابو زكريا ، ص ٣٢ — ٢ .
(٣١٧) ابو زكريا ، ص ٣٢ — أ .
(٣١٨) الدرجيني ، ص ٣٧ — ب (المطبوع ، ص ٨٤) : حيث يقول أيضا انه كان فاضلا مستجاب الدعاء ذا كرامات .
(٣١٩) انظر فيما سبق ، ص ٣٤٣ .

يمنعوه من النفوسيين : اذ « كانوا على مذهب أبيه فسمعوا قوله واطاعوه وقبلوا دعوته (٣٢٠) » .

الوساطة ، وشروط الصلح :

وهكذا وصل أبو منصور الى حيز زواغة ، ووجد أعدادا كبيرة منهم محدقة بحفيد خلف . وقبل أن يبدأ القتال تدخل أحد زعماء بنى يوراسن (أو يهراسن) الذى يعرف بأبي سلامة لحقن الدماء ، وعرض على زواغة أن تقبل واحدا من ثلاثة حلول ، وجدها كفيلة بوأد الفتنة وهى فى مهدها :

١ - ان يترك الزواغيون من الخلفية البرية ، وأن يعبروا الى داخل جزيرة جربة حيث يمكنهم أن يجتمعوا باخوانهم فى المذهب هناك وأن يمنعوا زعيمهم الخلفى ، وبذلك يكونون قد ابتعدوا عن حيز أبى منصور .

٢ - ب يرسلوا وفدا منهم الى الامام أبى حاتم يوسف يطلبون منه ان يولى عليهم واليا منهم ، وبذلك يخرجون عن طاعة نفوسة . فكان الاستقلال عن حكم النفوسيين كان مطلبا من مطالب الزواغيين .

٣ - ان يدفع الزواغيون زعيمهم الخلفى الى أبى سلامة اليوراسنى فينطلق به الى نفوسة ، وهو يضمن لهم أمنه وسلامته . وهو الحل الذى يعنى ان الزواغيين ربما كانوا قد تورطوا ، عن غير قصد ، مع حفيد خلف ، وانه يمكنهم الوفاق مع النفوسيين اذا ضمنوا لهم الا يصيبوا الخلفى بضرر ما .

فشل الوساطة ، وهزيمة زواغة :

وفشلت وساطة الزعيم اليوراسنى عندما قام بعض الزواغيين فندد بحسن نواياه ، وهو يقول : « أن اليوراسنى يريد الوقيعة بزعيمهم الخلفى الذى تسميه الرواية بـ « الخليفة » ، مما أثار أبا سلامة ، فاعرض عن الاستمرار فى وساطته ، رغم نداء بعض العقلاء من الزواغيين ، فانصرف عن محفلهم (٣٢١) .

---

(٣٢٠) ابو زكريا ، ص ٣٢ - أ ، وقارن الدرجينى ، ص ٣٧ - ب (المطبوع ، ص ٨٤ - ٨٥) .

(٣٢١) ابو زكريا ، ص ٣٢ - ب ، الدرجينى ، ص ٣٧ - ب .

وبذلك تحسم القتال بين الفريقين ، وانتهى بانهزام زواغة بعد قتال شديد فقدوا فيه كثيراً من رجالهم ، الذين لم يتمكنوا من الفرار ، بسببه وقوعهم في الحبال التي كانت ممدودة في المنطقة بين الأشجار الصغـــار المغروسة لمنع الوحش من الافساد فيها • ولم يسرف أبو منصور الياس في قتل زواغة إذ رجع عنهم ، فتمكن الباقون منهم من الدخول الى جزيرة جربة (٣٢٢)، كما نصحهم أبو سلامة اليوراسني أول الأمر •

دخول الخلفية في جربة ، وغدر زواغة بأميرهم :

وفي جربة استجار حفيد خلف برجل من زواغة يسميه أبو زكريـــا بمعقل من بني مزانت ، فادخله في قصر من قصور جربة يقال له غردانت (٣٢٣) • وهنا لجأ أبو منصور الذي وصل الى ساحل جربة الى وسيلة الاغواء بالمال ، فارسل رجلا من يوراسن (يهراسن) الى الزواغي الذي آوى حفيد خلف بصرة فيها مائة دينار من الدراهم • وما ان شعر الزواغي بالدراهم تنصب من كم اليوراسني الى كمه ، حتى قال له : « لو أتيت الى اولادنا دفعناهم اليك(٣٢٤) » • وبناء على ذلك فلم يكن من الغريب عندما وصـــل أبو منصور الى ساحل جربه بعد يومين أو ثلاثة أيام ، اذ كان من عادته أن يوقف جيشه عند وقت كل صلاة ليصلي بهم ركعتين ، أن يقوم معقل الزواغي برد جوار حفيد خلف ، اذ توجه اليه ، فقال له : « انزل أيها الأمير فقد طال ما أرملت نساء زواغة على يديك » • وكان جواب الخلفي : « ليتكم لم تسموني أميرا بامشومات » ، وذلك باللغة البربرية التي كان لا يحسنها لأنه رجل عربي • وهنا دفعه الزواغيون الى أبي منصور الياس الذي سار به(٣٢٥) •

أبو منصور يسجن حفيد خلف في الجبل :

وهكذا استقرت الأمور ، في جزيرة جربة فلم تعرف بها فتنة تسبب

---

(٣٢٢) أبو زكريا ، ص ٣٢ ـ ب ، الدرجيني ، ص ٣٧ ـ ب ، ٣٨ ـ أ (المطبوع ، ص ٨٥ ـ ٨٦) •

(٣٢٣) أبو زكريا ، ص ٣٢ ـ ب ، وقارن الدرجيني ، ص ٣٧ ـ ب ، الذي يسمي قبيلة الرجل تلمستاوت ، ويسمي القصر غرداك (المطبوع ، ص ٨٦) •

(٣٢٤) أبو زكريا ، ص ٣٢ ـ ب ، وقارن الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٨ ـ أ (المطبوع ، ص ٨٦) •

(٣٢٥) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٢ ـ ب ، ٣٣ ـ أ ، الدرجيني ، المخطـــوط ص ص ـ أ (المطبوع ، ص ٨٦) •

ـفيها الخلفية أو قتال • أما رئيس الحركة ، حفيد خلف ، فقد صحبه أبومنصور الياس الى مقره في جبل نفوسة حيث سجنه • وكان الرجل مكرما في سجنه معززا لشرفه وعلمه وفقهه ، فقد كان مرجع القوم عندما تنزل بهـم نازلة أو تعرض لهم قضية وعرة أو معضلة ، مما جعله يتساءل متعجبا : يسجنوني ويسئلوني (٣٢٦) ؟ •

وينهي أبو زكريا قصة الخلفي قائلا : « وذكر بعض أصحابنا أنه رجع الى مذهب أهل الحق وحسنت أحواله ، والله أعلم »(٣٢٧) ، وهو الأمر الذي لا يعدو أن يكون أمنية من أمنيات خصومه العزيزة •

أما أهم الأحداث التي عرفها جبل نفوسة على أيام الامام أبي حاتم يوسف ـفهي الكسرة الخطيرة التي لحقت بقوات نفوسة أمام القوات الأغلبية بقيـادة الأمير ابراهيم بن أحمد ، وذلك في وقعة مانو الشهيرة ، بعد وفاة ابي منصور الياس وولاية افلح بن العباس على نفوسة (٣٢٨) •

وقعة مانو سنة ٢٨٣ هـ/٨٩٦ م واضمحلال جبل نفوسة كقوة مساندة لامامه تاهرت (٣٢٩) :

وأول ما يسترعي الانتباه ، أن كتاب الاباضية متفقون على أن الهزيمة الكبيرة لنفوسة ، في حيزطرابلس ، كانت السبب المباشر لاضمحلال امامة تاهرت الرستمية وانقراضها (٣٣٠) • فقبائل نفوسة كانت تؤيد « السلطنة » الرستمية ومذهبها الاباضي بشكل لا نظير له بين قبائل المغرب • ولهذا السبب فـان الاباضية هناك •• « قام هذا الدين بسيوف نفوسة ومال مزاتة » ، كما

---

(٣٢٦) أبو زكريا ، ص ٣٣ ــ أ ، وقارن الدرجيني (ص ٣٨ ــ ب والمطبـوع • ص ٨٦ ــ ٨٧) الذي يضيف أنهم سألوه في قضية قطع رجل رجل فاختلفوا ، فقال : تقطـع الرجل دون العقب • وعندئذ قال مقاله جابر بن زيد لما استفتي في السجن • وخبره مشهور • وهذا يعني أن مقاله « يسجنوني ويسئلوني » هي أصلا لجابر بن زيد الذي رأينا كيف أن ثقانا احتال الى أن كتب ديوانه في بغداد ، ولو ان الرواية قالت ان ثقـانا عاد ودفنه حتى لا يستفيد منه خصومه ــ انظر فيما سبق ، ص ٣٥٠ •

(٣٢٧) أبو زكريا ، ص ٣٣ ــ أ ، الدرجيني ، ص ٣٨ ــ ب (المطبوع ، ص ٨٧) •

(٣٢٨) أبو زكريا ، ص ٣٣ ــ أ ، الدرجيني ، ص ٣٨ ــ ب (المطبوع ، ص ٨٧) •

(٣٢٩) انظر فيما سبق ، ص ١٤١ ــ ١٤٢ •

(٣٣٠) أبو زكريا ، ص ٣٣ ــ أ : حيث يجعل عنوان الحركة : « وقعة مانو وانقراض الامامة » ، وهو العنوان الذي ينقله الدرجيني ، ص ٣٨ ــ ب (المطبوع • ص ٨٧) •

قالوا أن أخبار نفوسة انتشرت لدى المسودة (العباسيين) في المشرق على أنهم المناصرون والقائمون بدولة الفرس الرستمية في بلاد طرابلس وتاهرت وغيرهما ، وذلك بفضل المكاتبات التي كان يبعث بها الى بغداد أهل كل من مدينتي القيروان وطرابلس (٣٢١) .

ومما يسترعى الانتباه أيضا ، ما أخذ به كتاب الاباضية من أن ذلك حدث على عهد الخليفة المتوكل العباسي الذي قتل في سنة ٢٤٧ هـ/٨٦١م ، مع أنهم يعرفون أن وقعة مانو كانت على أواخر أيام الرستميين سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦ م . واذا لاحظنا أنهم عرفوا قبل ذلك ان أبا اليقظان بن افلح كان قد قبض عليه في مكة وسير به الى بغداد ، حيث حبس على عهد المتوكل قبيل مقتله سنة ٢٤٧ هـ/٨٦١ م ، فانه يكون من المقبول ان القصد من ذكر عهد المتوكل هنا هو تحديد بداية اهتمام بغداد بأمور الرستميين في تاهرت وطرابلس ، وليس تحديد وقت الموقعة ، وان ظهر التعبير بغير هذا المعنى ، كما في أبي زكريا الذي يظهر الامير الاغلبي وكأنه يزحف بقواته من شرق طرابلس (في المغرب) ، قاصدا تاهرت بناء على أوامر بغداد (٣٢٢) .

في أسباب الموقعة :

ومع أنه لا بأس في أن تكون خلافة بغداد لهـــا دورها في تحريض الأمير الاغلبي ابراهيم بن أحمد ضد اباضية طرابلس ، أو أن يكون الأغلبي أراد أن يكتسب رضاء الخلافة عنه بعد سخطها عليه اثر أعمال العنف والقسوة التي قام بها ضد رعاياه ، في اقليمي تونس وطرابلس ، فلا بأس أيضا في أن تكون أعمال القهر التي قام بها ضد الاباضية من قبائل هوارة وغيرهم في أقاليم الزاب وطرابلس ، هي السبب في قيام نفوسة على الأغالبة في اقليم طرابلس ، كما سبقت الاشارة (٣٢٣) . وهكذا سار ابراهيم بن أحمد من رقادة في اثر ابنه أحمد نحو طرابلس حيث اعترضته قبائل نفوسة فيما بين قابس وطرابلس (٣٢٤) .

---

(٣٢١) أبو زكريا ، ص ٣٣ ـ أ ، الدرجيني ، ص ٣٨ ـ ب (المطبوع ، ص ٨٧) .

(٣٢٢) السير وأخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ٣٣ ـ أ ، وقارن الدرجيني ، المخطوط ص ٣٨ ـ ب (المطبوع ، ص ٨٧) . وعن سجن أبي اليقظان في بغداد انظر فيما سبق ، ص ٢٥٤ .

(٣٢٣) انظر فيما سبق ـ عن الأغالبة ـ ص ١٤١ .

(٣٢٤) انظر فيما سبق ، ص ١٤٢ .

ولذا كانت الرواية الاباضية تقول ان الأمير الأغلبي طلب من النفوسيين ان يتركوا له ممرا على شاطىء البحر لا تزيد سعته عن مقدار نشر عمامتـــه ليجوز منه الى طرابلس (٢٢٥) ، فان من الممكن ان يكون الأمر متعلقا بواحد من احتمالين :

١ ـ اما ان تكون الرواية الاباضية تخلط هنا بين ما حدث قبل ذلك مع عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب عندما حاصرته الاباضية في طرابلس أيام الامام عبد الوهاب ، وانتهى الأمر بالصلح على ان يكون شاطىء البحر للأغالبة والدواخل لعبد الوهاب .

٢ ـ واما ان يكون هدف ابراهيم بن أحمد هو الاكتفاء بتهدئة الأحوال في طرابلس التابعة له ، دون رغبة في التدخل في شئون الأباضية فـي الدواخل .

مكان الموقعة :

والمهم في الرواية ان الاباضية عزموا على الا يسمحوا لابراهيم بالمرور بينما قرر هذا الأخير الجواز على ساحل البحر دون ان يتعرض اصحابـــه لنفوسة اذا تركوهم . ورأى العقلاء من الشيوخ مثل سعد بن أبي يونس ، الذي رأيناه عالما كبيرا وواليا لقنطرارة التي كان من مشاهير أبنائها ، أن يتركوا الاغالبة يجوزون ، ولكن الكثرة الغالبة من الشباب المتحمس رفض ذلك ، بل وعير بعضهم سعدا بالجبن والخوف من القتل . وكان رد سعد بن أبي يونس مقالته المشهورة : « خفت أن تذبح البقرة فيتبعها عجلها » ، يعني بالبقرة نفوسة وبالعجل قنطرارة (٢٢٦) ، بلده . وهكذا اعترضت نفوسة قوات الأغالبة في موضع لا يذكر مؤرخو المغرب اسمه (٢٢٧) بينما يعرفه كتاب الاباضية باسم « مانو » ، وفيه يقول أبو زكريا : انه « قصر من قصور الأولين » على ساحل البحر .

---

(٢٢٥) انظر أبو زكريا ، ص ٣٣ ـ أ : والرواية هنا تقول انه كان يريد الجواز من طرابلس الى تاهرت . وقارن الدرجيني ، ص ٣٦ ـ أ (المطبوع ، ص ٨٧ ـ ٨٨) .

(٢٢٦) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٣ ـ ب ، الدرجيني ، المخطـوط ، ص ٣٩ ـ أ (المطبوع ، ص ٨٨) .

(٢٢٧) انظر فيما سبق ، عن الاغالبة ، ص ١٤٦ وما بعدها والهوامش .

المعركة وتفشي القتل في نفوسة :

أما عن القتال الشديد بين الفريقين فيصفه بأنه « لم يسبق مثله في أرض المغرب » . وبصرف النظر عن البطولات الشخصية التي أظهرها بعض الفرسان من الجانبين ، فقد استشرى القتل في الفريقين ، ولحق بنفوسة الى جانب ذلك كثير من الجراح حتى أنهم هموا بالانهزام (٢٣٨) .

وهنا طرأت على بال أفلح بن العباس ، والي الجبل وفارس نفوسة . فكرة حث الناس على الثبات عن طريق تركيز البند أو الراية ، شعار الجيش ، في الأرض ، وهو الأمر الذي لم يفعله صاحب البند أي حامل الراية الا على مضض . ولكنه اذا كان غرس البند في الأرض قد جعل الناس يسرعون بالالتفاف حوله للدفاع عنه ، فقد جعلهم احتشادهم هذا هدفا سهلا للعسكر الأغلبي الذي أوقع بهم وقتل منهم الكثيرين ، بينما فر افلح ابن العباس عندما رأى سوء موقفه وتفشي القتل في أصحابه(٢٣٩) . ولا شك في أن فشل خطة الصمود حول البند المركز في الارض ، وما تبعه من فرار افلح بن العباس كان السبب في أن القيت تبعة مقتلة نفوسة وحلفائهم في مانو على عاتق هذا الأخير . ففي ذلك يقول أبو زكريا : « أفلح كان قد كره الخروج للقاء الفاسق وكذلك فعل بهم ما فعل » ، فكأنه كان من المعارضين لتحدي ابراهيم بن أحمد الاغلبي ، مثله في ذلك مثل سعد بن أبي يونس ، وانه انتقم منهم بتدبير مسألة البند الذي كاد الرجال جميعا يستأصلون حوله ، لولا أن قيض الله له رجلا من أهل البصائر ضربه بالسيف فاسقطه . فعند ما وقع البند « انهزم من بقي من المسلمين ، وأفلت من افلت من أهل دعوتنا من أهل الجبل » ، كما يقول أبو زكريا (٢٤٠) .

قائمة الخسائر الاباضية :

وتدل قائمة الخسائر على أن هزيمة « مانو » كانت كارثة حقيقية بالنسبة لنفوسة وحلفائهم من قبائل اقليم طرابلس . فقد بلغت عدة القتلى

---

(٢٣٨) ابو زكريا ، ص ٣٢ — ب ، الدرجيني ، ص ٩ ٣— ا (المطبوع ، ص ٨٨) .

(٢٣٩) انظر ابو زكريا ، ص ٣٢ — ب : حيث يقول ان الهزيمة وقعت حول البند بعد انهزام افلح ، وقارن الدرجيني ، ص ٣٩ — ب (المطبوع ، ص ٨٨ — ٨٩) .

(٢٤٠) السير ، واخبار الائمة ، المخطوط ، ص ٣٢ — ب وانظر الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٦ — ب (المطبوع ، ص ٨٩) .

١٢ (اثني عشر) ألف رجل ، منهم : ٤ (أربعة) آلاف من نفوسة ، و ٨(ثمانية) آلاف ممن كان معهم من البربر وغيرهم • الى جانب ما سبي من نسائهم اللاتي كن خرجن معهم • وربما كان الاخطر من كل ذلك فقدان ٤٠٠ (أربعمائة) عالم فقيه ، أشهرهم عمروس بن فتح (٢٤١) الذى كان له قضاء جبل نفوسة منذ ولاية ابى منصور الياس (٢٤٢) •

واغلب الظن أن الرواية الاباضية لا تبالغ كثيرا عندما تقول ان الأمير الاغلبي ابراهيم بن أحمد انتقم من مشايخ الأسرى انتقاما مروعا يعبر عن الحقد الذى لا حدود له والتشفي • فالى مثل هذا تشير روايات مؤرخي المغرب التى عرضناها عن تلك الوقعة في تاريخ الأغالبة ، اذ تنص على القسوة اللاانسانية التى مارسها الأغلبي ، عندما كان يأمر بشق صدر الرجل ثم يطعنه بيده في موضع القلب مباشرة • أو ما قيل من أنه نظم قلوب العشرات منهم في الخيوط كأنها قلائد التمر أو عقود الظفر • ولا شك أن ما قيل من أن مشايخ الاباضية هؤلاء كانوا يتبرأون من الامام على بن أبي طالب لا يصح أن يكون ذريعة مقبولة تبيح كل ذلك (٢٤٣) •

مقتل القاضي عمروس بن فتح :

فابو زكريا يذكر ان القاضي عمروس بن فتح كان مشاركا بشخصه في القتال ، وانه كان في مؤخرة العسكر ، على فرس سابق ، يحمي الناس ويذب عنهم ، وعسكر الأغالبة لا يدرون ماذا يصنعون معه • فلما أعياهم نصبوا له حبالا تمشي بها فرسه « السابق» فأخذوه أسيرا الى « الفاسق » • وطلب ابراهيم بن أحمد من عمروس أن يطلب العفو ، ولكن القاضي الشديد في أحكامه والذى كان لا يخاف في الله لومة لائم أبى من استجداء العفو ، « وطلب فقط الا يكشفوا عن سراويله » • وكانت العقوبة الشنيعة التي انزلت به هي تقطيعة بالحديد من ابهامه الى عضده حيث استشهد » (٢٤٤) • أما عن اخته العالمة الفقيهة مثله ، والتى اخذت مع نسوة نفوسة ، فانها « طلبت من النساء أن تستحلف كل واحدة منهن أن يتزوجها من يريد بها سوءا »(٢٤٥) •

---

(٢٤١) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٤ — أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٣٩ — ب (المطبوع ، ص ٨٩-٩٠) •

(٢٤٢) انظر فيما سبق ، ص ٣٨٣ •

(٢٤٣) انظر فيما سبق ، ص ١٤٣ •

(٢٤٤) أبو زكريا ، ص ٣٤ — أ ، الدرجيني ، ص ٣٩ — ب (المطبوع ، ص ٨٩) •

(٢٤٥) أبو زكريا ، ص ٣٤ — أ •

وبذلك قصت الوقعة المشئومة على مشايخ الاباضية في جبل نفوسة فلم « يبق من علمائهم الا أبو القاسم البقطورى وعبد الله بن الخير ، اللذان بقيا يفتيان لاهل الجبل نوازلهم من تلك الوقعة ولولاهما لعطلت (الفتوى) الى يوم القيامة (٣٤٦) »·

الانتقام من قنطرارة ثم من اباضية نفزاوة :

ولم يكتف ابراهيم بن أحمد بما الحقه بالنفوسيين في مانو من القتل والتنكيل ، بل انه اتجه نحو قنطرارة ، حيث عرف من أعوانه انها المعقل الثاني في المنطقة من معاقل الاباضية ، وفاجأ اهلها في الصباح المبكر · ويقول أبو زكريا انه ، الى جانب قتله لاهل قنطرارة ، « اختار من فقهائهم وعلمائهم ثمانين عالما فشدهم وثاقا » (٣٤٧) ·

ومن قنطرارة تابع الأغلبي مسيرته الدامية ضد الاباضية الى نفزاوة للقضاء على من بقي هناك من أهل الدعوة ، وكان أشهر مشايخهم في ذلك الوقت « رجلا عالما فقيها ·· يقال له : أبو بكر يوسف النفوسى » · وعندما بعث ابراهيم بن أحمد رجاله للقبض عليه أظهر الرجل كرامة منعته من خصومه ، اذا استمهلهم الى أن صلى ركعتين اتبعهما بالدعاء ، « فبعث الله اليهم ريحا عاصفا مظلما فحال بينهم وبين الشيخ ، فاخذ ابنه يوسف وكان الشيخ اذ ذاك قد كف بصره - ومضى الى تناوتت » ، من قبائل نفزاوة (٣٤٨) ·

---

(٣٤٦) أبو زكريا ، ص ٣٤ - أ · وبصدد مقتلة العلماء الفقهاء ، صاغ الاباضية حول موقعة مانو وشهدائها الأساطير ، كما فعلوا بمكان الموقعة التى قتل فيها أبو حاتم الامام خليفة أبي الخطاب قبيل تأسيس الامامة الرستمية (انظر فيما سبق ص ٢٨٧) · ففي مناقب شهداء الاباضية في مانو ومثالب خصومهم ، يقول أبو زكريا : انه عندما جن الليل بعد افتراق المتحاربين جاء رجل من العسكر الأغلبي ليحمل أخاه القتيل ، فاذا بشخص يطوف بين القتلى وينادى الاباضية منهم : كبروا يا أهل الجنة فيكبرون ، وينادى على المسودة منهم : انبحوا يا كلاب النار فينبحون ، وكا نأخو الرجل ينبح معهم وهو قتيل على الدابة · انظر أبو زكريا ، ص ٣٤ - أ ، ٣٤ - ب ، الدرجيني ، ص ٤٠ - ب (المطبوع ، ص ٩٠) ·

(٣٤٧) أبو زكريا ، ص ٣٤ - ب ، الدرجيني ، ص ٤٠ - ب (المطبوع ، ص ٩٠) · هذا ، ولا بأس من أن تكون وقعة قنطرارة قد حدثت في السنة التالية ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م ، كما يمكن أن يفهم من رواية ابن عذارى - انظر فيما سبق ، عن الأغالبة ، ص ١٤٣ وهـ ٤٦١ ·

(٣٤٨) انظر أبو زكريا ص ٣٤ ، ب (حيث اسم القرية ماوته) ، وقارن الدرجيني ، ص ٤٠ - ب (المطبوع ، ص ٩١) : حيث يقول انه « مضى الى تناوتت ، وهم أهل القرية المعروفة بشيطان من قرى فزارة ، فنجاه الله ·

ومن الزاب عاد ابراهيم بن أحمد ، وبصحبته أسراه الثمانين من فقهاء قنطرارة ، الى القيروان حيث قتلهم بأجمعهم (٢٤٩) .

وهكذا حطم ابراهيم بن اغلب مقاومة الاباضية الرستميين فى كل من جبل نفوسة ونفزاوة ، قبل أن يعود تعبا مرهقا الى القيروان . والحقيقة لا تجاوز كثيرا ما يقوله كتاب الاباضية من أن وقعة مانو وما اتصل بها كان سببا فى القاء الوهن والضعف فى نفوسة مما أدى الى انقراض الدولة الرستمية وانقطاع الدعوة الاباضية ، « وذلك لأن نفوسة كانوا عمدتها : قامت بقيامهم وانقطعت لانقطاعهم (٢٥٠) .

عزل افلح بن العباس من ولاية الجبل : والسنوات الأخيرة للامامة الرستمية بعد وقعة مانو :

بعد الهزيمة المنكرة عادت بقية نفوسة من مانو الى جبلهم ، وتحصنوا فيه ، ثم انهم تشاوروا فى عزل واليهم أفلح بن العباس الذى اعتبروه مسئولا عن الكارثة ، وتولية ابن لعم له بدلا منه ، واخطار الامام بذلك ليصدر سجل الولاية . وتم اتفاق رءوس الجماعة على هذا الأمر ، لم يخالف فى القرار الا الشيخ أبو معروف الذى « أبا ذلك خشية الاختلاف » . وهكذا عزل أفلح الذى حنق على هذا الفعل واستنكره الى حد أنه رام الخروج على جماعة أصحابه ، والقيام بمخالفتهم (٢٥١) . وعندما بلغ الشيخ أبا معروف ما يضمره أفلح بن العباس ساراليه خفية ، « وقبحعليه الخلاف وسوء عواقبهووعظه ، فبركن اليه ، ولم يتهم قوله لما تقدم منه أيضا من كراهية خلع افلح » ، فأراد الله به خيرا ، كما يقول الدرجينى (٢٥٢) .

---

(٢٤٩) ابو زكريا ، ص ٣٤ - ب : حيث يفهم من النص ان الأمير الأغلبى قتل هؤلاء الرجال كعقوبة جماعية لهم لأن أحدهم ويدعى بابن ثوب كان مقطوع العرقوب مما سمح له بسل رجله من القيد والفرار ، ولو أن الرواية المتقية تنص على أن الرجل استأذن اخوانه فى الهروب وانهم اذنوا له . وقارن الدرجينى ، ص ٤٠ - ب ، الذى يسمى الرجل المقطوع العرقوب بابن تيت (المطبوع ، ص ٩١ : ابن كتيت) .

(٢٥٠) الدرجينى ، ص ٤٠ - ب (وقارن المطبوع ، ص ٩١ : حيث النص على انقراض الدعوة بدلا من « انقراض الدولة وانقطاع الدعوة ») .

(٢٥١) الدرجينى ، ص ٤٠ - ب (المطبوع ، ص ٩٠) : وتقول الرواية هنا انه عرض الخلاف على احد اصدقائه ولكن هذا الأخير لم يستجب له ، وامتنع عن مساعدته .

(٢٥٢) الطبقات ، المخطوط ، ص ٤٠ - ب (المطبوع ، ص ٩٠) ، أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٤ - أ .

ويظهر عزل أفلح من ولاية جبل نفوسة وكأنه بدء النهاية بالنسبة للدولة الرستمية اذ يقول أبو زكريا : ان الوالي الجديد ، ابن عمه ، لم يمكث في الحكم الا حوالي ثلاثة أشهر ، ولم يتمكن خلالها من احسان السيرة ، فتركه الناس ورجعوا الى أفلح • وبذلك يكون بدء قصة قيام الدولة الفاطمية في المغرب الأوسط وكيف تهيأ لها القضاء على دولة تاهرت الرستمية منذ حوالي سنة ٢٨٥ هـ/٨٩٨ م•

وهكذا تنتهي الدولة الرستمية عند ابن الصغير في دوامة الاضطرابات التي عرفتها تاهرت والخلافات التي عرفها افراد الاسرة المالكة على عهد الامام ابي حاتم يوسف بن افلح ، دون ذكر لوقعة مانو في سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦ م • أما أبو زكريا ومن نقل عنه من كتاب الاباضية فقد اعتبروا وقعة مانو ، كما رأينا ، وكأنها نقطة الختام بالنسبة لتاريخ الرستميين ، وبذلك ضاعت في روايتهم معالم تاريخ الفترة الأخيرة من عهد امامة تاهرت الرستمية، التي تقدر بأكثر من اثنتي عشرة سنة ، الى فتح تاهرت واستباحتها على يدي أبي عبد الله الشيعي سنة ٢٩٦ هـ/ ٨ - ٩٠٩ م ، وقتل آخر أمرائها وهو يقظان بن محمد أبي يقظان بن أفلح •

أبناء الامام ابي حاتم يحرضون ابا عبد الله الشيعي :

يقظان بن محمد ابي يقظان آخر الائمة الرستميين في تاهرت (٢٩٤هـ - ٩٠٧م / ٢٩٦ هـ - ٩٠٩ م) :

يتضح من القطع المتناثرة في اخبار السنوات الأخيرة لامامة تاهرت ، التي خصصها أبو زكريا لتاريخ بدء الدعوة الشيعية في كتامة وقيام الدولة الفاطمية في المغرب والتي رأى الدرجيني أن يختزلها ان الامام أباحاتم يوسف راح ضحية مؤامرة قام بها أفراد أسرته وشارك فيها بعض الفقهاء ، مثل : أبي الخطاب وسيم (ابن سنتين الزواغي) أحد حفدة أبي الخطاب (الكبير) المعافري ، وذلك في سنة ٢٩٤هـ/٩٠٧م (٣٥٢) وانتهت بولاية ابن اخيه يقظان ابن اليقظان • فعندما سار أبو عبد الله الشيعي - الذي يعرف عند كتاب الاباضية بالايكجاني ، نسبة الى قلعة ايكجان التي اعتصم بها في نظر مدينة

---

(٣٥٢) انظر ابو زكريا ، ص ٤٤ - ب : حيث يقول ان للوصة الجبل عاتبته على انه ٠٠ الزم الأمر ليقظان ، وانه اعتذر من ذلك بانه فعله احتسابا لله • وانظر البارونى ، الأزهار الرياضية ، قسم ٢ ص ٢٦١ •

ميلة من بلاد كتامة (٢٥٤) من رقادة في طريقه الى سجلماسة لطلب الامـــام المهدى (٢٥٥) ، خرجت اليه دوسر بنت يوسف مع واحد من اخوتها تشكو اليه مقتل ابيها ، وتطلب منه الانتقام من عمومتها بنى أبى يقظان الذى غدروا به، مما يفهم منه ان السيدة دوسر كانت المحرضة للشيعى على فتح تاهرت (٢٥٦)• والواضح من الرواية انه ما ان اقبل الشيعى على تاهرت حتى خرج اليـه وجوه أهلها يعلنون الطاعة ويطلبون الأمان • أما زعماء الجماعات المعارضة (المخالفين) ، من ، المالكية والواصلية والشيعة والصفرية ، فقد « نافقوه ، كما يقول أبو زكريا ، وشكوا اليه امارة الفرس ، وواعدوه العون من أنفسهم على جميع الرستميين ، وأمروا باستئصال شأفتهم وتوهين شوكتهم »(٢٥٧)، مما يفهم منه ان المقصود بجماعة وجوه أهل تاهرت ، الذين طلبوا الأمان ، هم من أفراد الأسرة الرستمية المالكة وانصارهم • وهذا لا يمنع من أن يكون أبناء عمومتهم من أولاد يوسف ، وعلى رأسهم دوسر ابنته ، قد انتهزوا الفرصة لتحريض الشيعى عليهم ، مما كان يهىء لهم النجاة من انتقامه ، وفى نفس الوقت تحقيق الثأر لمقتل والدهم •

مجتمع غير متناسق فى تاهرت :

وكل هذا يعنى أن عاصمة الرستميين تاهرت كانت تعانى من الانشقاقات المتوالية التى عرفتها جماعة الاباضية منذ وفاة عبد الرحمن الأول بن رستم ، وانها كانت ثمرة ناضجة فى انتظار من يأتى ليقطفها • ولا ادل على الانفصام الذى كان قد وقع بين الأسرة المالكة وبين شعب تاهرت ، مما تقوله النصوص

---

(٢٥٤) انظر الدرجينى ، المخطوط ، ص ٤١ — ب (المطبوع ، ص ٩٢) : حيث اسـم القلعة ايكجان بينما لقب أبى عبد الله الشيعى الكجانى ، وقارن أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٥ — ب ، الذى يسمى الشيعى بابى محمد وسيم ويلقبه بالحجانى ، مما يظن انه من اخطاء النساخ او تصحيفاتهم •

(٢٥٥) أنظر فيما بعد ، ص ٥٤٩ •

(٢٥٦) انظر ابو زكريا ، ص ٣٦ — ب ، الذى ينص على ان دوسر اخبرته بقصة ابيها ، وما انتهك من حرمتها ، وان حرصها على الانتقام من قتلة ابيها بلغ الى حد ان « اوعدته من نفسها اذا هو اخذ بثأرها ان تزوجه من نفسها » ، ولو انهـا اخلفت بالوعد بعد ذلك : « لتقيت وهربت من الحجانى (الايكجانى) مخافة أن يتزوجها » ، وانه طلبها فلم يقـدر عليها • وقارن الدرجينى ص ٤٢ ــ أ : حيث اسم « دوسر » منسوخ فى شكل « دوس » ، وانظر المطبوع ، ص ٩٤ وهـ ١ : حيث الاشارة الى أن صاحب الازهار الرياضية يثبت الاسم فى شكل « دوسره » •

(٢٥٧) أبو زكريا ، ص ٣٦ — ب •

الاباضية من أن الشيخ أبي الخطاب وسيم الذي كانت اليه الزعامة فسي المدينة والذي قام بدور رئيسي في تولية يقظان ، كان يغرم اليتامى والأرامل للظلمة ، ويستفتي نكاريا ، ويقدم في الصلاة خلفيا وفي الأذان نفاثيا(٢٥٨) ، واذا كان ذلك يعني نوعاً من المداهنة والمداراة من أجل التعايش السلمي بين الجماعات المتنافرة مذهبيا ، كما يفهم من رد أبي الخطاب على منتقديه(٢٥٩) ، فلا شك أن هذه الفيفساء الاباضية كانت من الرقة بحيث لا تتحمل أية مقاومة ، وهذا ما يفسر استسلام المدينة بالأمان ، ودون مقاومة .

الشيعة يدخلون تاهرت ويقتلون يقظان :

والمهم أن أعيان تاهرت خرجوا وعلى رأسهم يقظان لاستقبال ابي عبدالله الايكجاني — بناء على طلبه أو مبادرة من انفسهم — ، وذلك على بعد أميال من المدينة . وينص ابو زكرياً على أنه بعد حوار قصير سأل فيه الشيعي الأمير الرستمي عن اسمه ورد فيه بجفاء عليه ، قائلا له : بل اسمك حيران بدلا من يقظان ، قبل ان يتبع ذلك بتعنيفه على سوء السيرة وقتل أخيه ابي حاتم يوسف ، اذ قال له : « وكيف قتلتم أميركم ، وسلبتم لأنفسكم ملككم ، فاطفيتم نور الاسلام بغير سبب ، والقيتم بأيديكم الينا بغير قتال »؟ وبعد ذلك أمر بقتل يقظان وأبنائه الدين نفذ فيهم الحكم فقتلوا عن آخرهم (٢٦٠) .

تخريب تاهرت واخذ ذخائرها :

ومع ان الروا ية تنص على أن أبا عبد الله الشيعي دخل تاهرت بالأمان فانها تشير الى أنه عدر : فانتهب مدينة الأئمة وانتهك حرمتها ، وأحلا كثيرا من أهلها ، وجعل أعزة أهلها أذلة (٢٦١) . ولم يكتف الشيعي بقتل يقظان وابنائه بل انه آتبع ذلك بقتل « أهل بيت الامامة من الرستميين ، وأهل الملك ، وأهلك الحرث والنسل(٢٦٢) » .

وكان من الذخائر التي وقع عليها الشيعي في تاهرت صومعة مملوءة

---

(٢٥٨) ابو زكريا ، ص ٤٤ — ب .

(٢٥٩) ابو زكريا ، ص ٤٤ — ب .

(٢٦٠) ابو زكريا ، ص ٣٦ — ب ، الدرجيني ، ص ٤٢ — أ (المطبوع ، ص ٩٤) .

(٢٦١) ابو زكريا ، ص ٣٧ — أ ، الدرجيني ، المخطوط ، ص ٤٢ ب (المطبوع ، ص ٩٤) .

(٢٦٢) الدرجيني ، ص ٤٣ — ب (المطبوع ، ص ٩٤) .

بالكتب الثمينه ، فأمر باخراج تلك الكتب من مكمنها ، كما تقول الرواية ، واخذ منها كل ما يصلح للملك والحساب (أى للادارة المدنية) ، والقى بقيتها فى النار (أى كتب المذهب) (٣٦٣) .

خروج بقايا الرستميين الى وارجلان :

واذا كانت رواية أبي زكريا تعزو انتقال الشيعي من تاهرت الى هرب السيدة دوسر بنت يوسف التى لم تف بوعدها بالزواج منه ، بعد أن حقق لها أمنيتها وثأر من بني عمومتها قاتلى أبيها ، فلا بأس من أن يكون الشيعى قد شملها بعفوه بعد أن وقفت الى جانبه . ولا بأس من أن يكون العفو قد شمل أيضا يعقوب بن أفلح ، عم يوسف ويقظان الذى كان له حظ المنافسة على الامامة ، من قبل(٣٦٤) . وذلك أنه بينما تقول بعض روايات أبي زكريا انه خرج من تاهرت متوجها الى وارجلان لما سمع باقبال الإيكجاني (٣٦٥) ، يذكر الدرجيني « ان يعقوب بن أفلح وابنة أخيه دوسر خرجا فى خفاء الى جهة وارجلان حتى نزلاها (٣٦٦) . فاذا كان الأمر كذلك يكون يعقوب قد وقف الى جانب ابنة أخيه دوسر فى طلب الثأر لأبيها ، وحينئذ يصح ما نريد استنباطه من أن يكون عفو الشيعي قد شمل كلا من دوسر ويعقوب ، وتكون مسيرتهما الى وارجلان قد تمت بموافقته .

يعقوب بن أفلح فى وارجلان :

ولا يضعف من هذا الافتراض ، الذى نراه متسجما مع واقع الحال ، ما تشير اليه رواية تالية ، لابى زكريا ، يقول فيها : انه عندما سار الايكجاني متوجها الى تاهرت « خرج يعقوب بن افلح فى خيل من أصحابه مع عيالاتهم وأهاليهم » . اذ الواضح ان الرواية المنقبية تهدف الى احاطة يعقوب بهالة من الهيبة والشجاعة غير المعادة : فعندما تبعت عساكر العدو القافلة التى كانت تحوى الذرية والأهل الى جانب الرجال وقع عبء حمايتها على يعقوب

---

(٣٦٣) انظر ابو زكريا ، ص ٧ ٢ـ أ ، وقارن الدرجيني ، ص ٤٢ ـ ب حيث يقول : « ان صومعة الكتب هذه كانت مشتملة على ديوان تاهرت أى سجلات المدينة الرسمية ، كما ذكر المزاتة (المشايخ من طلبة العلم) » (والمطبوع ، ص ٩٤ ـ ٩٥) .

(٣٦٤) انظر فيما سبق ، ص ٣٧٦ .

(٣٦٥) ابو زكريا ، ص ٢٧ ـ أ .

(٣٦٦) الدرجيني ، ص ٤٣ ـ ب (المطبوع ، ص ٩٤ ـ واسم الأميرة دوس ، كما سبقت الاشارة) .

وحده ، اذ « كان له حصان عظيم فكان يقف للعدو حتى يسير أصحابه » . « وكان فرسه (هذا) يضرب به الامثال في المغرب ، فاذا نظروا اليه وعرفوه وقفوا له من هيئته ... » وهكذا كان يعقوب يسير خلف قافلة أهله وأصحابه الى أن يلحقهم العدو فيقف وحده — والرحل سائر — ويقف العدو دهشة وعجبا - وهكذا دواليك على طول الطريق ، « حتى آيسوا منه ورجعوا عنه، هو وأصحابه » . ومضى يعقوب بعد أن تفـــرق عنه معظم أصحابه الى وارجلان (٣٦٧) .

وهكذا يظهر من رواية تلك المطاردة الطريفة أنها منقبية أكثر منهـــا تاريخية ، مما يرجح دعوانا في أنه ربما كان من الأرجح أن يكون يعقوب ابن أفلح قد خرج من تاهرت الى وارجلان بصحبة ابنة أخيه دوسر ، وأن ذلك كان بموافقة أبي عبد الله الشيعي بعد أن وقفوا الى جانبه مع من وقف من النكارية والواصلية والمالكية والخلفية وغيرهم . وتكون تاهرت الرستميين قد سقطت بالأمان دون قتال بين أيدي الفاطميين ، وبذلك تبددت قـــوى الاباضية هناك في واحات الصحراء ، مثل : وارجلان التي صارت منذ ذلك الوقت من أهم مراكز الاباضية في صحراء المغرب الأوسط (بلاد الجزائر الحالية) ، بعد محاولة فاشلة للاستيلاء عليها من جانب عبيد الله المهدي في رحلة عودته من سجلماسة الى رقادة . وستشهد وارجـــلان منذ ذلك الحين مجتمعا اباضيا مزدهرا يعيد — شيء من الحياء — سيرة تاهرت الرستمية على مستوياتها الاجتماعية والحضارية . وكان من أوائل الأحداث الهامة التي عرفتها وارجلان الاباضية هو الانقسام المدعى الرابع الذي ينسب الى أبي سليمان بن يعقوب بن أفلح .

وارجلان وريثة تاهرت الرستمية في المغرب الأوسط :

يعقوب بن افلح يجدد سيرة الأئمة الأوائل :

عندما وصل يعقوب بن افلح — بعد سقوط تاهرت — الى وارجلان ، كان حكم الواحة الصحراوية الكبيرة الى رجل يعرف باسم صالح بن جنون ابن يمريان الذي خرج لاستقباله في جموع أهل وارجلان . وبسبب مركزه

---

(٣٦٧) ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٤١ — ب : حيث تقول النصوص ان يعقوب بن افلح مضى واصحابه الى وارجلان ، وانه « نظر الى الطالع في طريقه ذلك فقال لاصحابه : لا يجتمع منكم ثلاثة الا كان عليهـــم الطلب فافترقوا » ، وقارن الدرجيني ، المخطـــوط ، ص ٤٧ — أ (المطبوع ، ص ١٠٤ — ٥) .

الاجتماعي وشرفه وعلمه اقتضت أصول الآداب في ذلك العصر أن يعرض عليه أهل وارجلان ـ وبضمنهم أميرهم صالح بن جنون ، على ما نظن ـ أن يكون أميرا عليهم · وكان من الطبيعي ، أيضا ، أن يرفض يعقوب هذا العرض الذي، وان كان كريما ، لم يكن مناسبا للامام الأسبق الذي قال للناس وهو يمتنع : « لا يستتر الجمل بالغنم » ، فذهبت تلك الجملة المعبرة مثلا (٣٦٨) ·

واشتهر يعقوب في وارجلان بالعلم والتقوى وبانه كان حافظا للقرآن مجيدا له ، وفي ذلك قيل انه عندما سأله بعض الورجلانيين عما اذا كان يحفظ القرآن كله ! رد عليهم قائلا : « معاذ الله أن ينزل على موسى وعيسى عالم أحفظ واعرف معناه ، فكيف بكتاب الله ؟ » ، يعني أنه : كان يعرف التوراة والانجيل الى جانب القرآن · أما عن ورعه وعبادته فكان مجتهدا في الليل · وفي ذلك يروى أنه قام ذات ليلة يصلي : « فخر عليه السقف » ولكن الله نجاه اذ لم تسقط خشبة السقف التي تقابل رأسه ، مما سمح بانقاذه من تحت الأنقاض (٣٦٩) ·

والى جانب العلم والورع ترك يعقوب بن أفلح كثيرا من الآثار ، وذلك بفضل بنيه خاصة · فقد كان له ابنان وابنتان اخوة أشقاء صحبهما معه من تاهرت ، ولكنه رغم بقائه في وارجلان لمدة طويلة فانه حبس ابنتيه عن التزويج ، مما يفهم منه أنه ربما لم ير في أهل وارجلان من هو كفء لهما · وهذا ما قد يرجحه تزويج يعقوب ـ في آخر الأمر ـ احدى ابنتيه لرجل صالح ، هو : حمو بن اللؤلؤة ، والأخرى لرجل من أهل الدنيا ، اسمه : العز بن محمد · وتضيف الراوية انه كان عند حمو امرأة أخرى ، فلما عرفت بزواجه من ابنة يعقوب « خالطها الهم حتى ماتت (٣٧٠) » · ولا ندري ان كان لهذا الحادث أثره في قبيلة المرأة المتوفاة وهو الامر المحتمل ـ أم لا ·

---

(٣٦٨) ابو زكريا ، ص ٤٢ ـ أ ، قارن الدرجيني ، ص ٤٧ ـ أ (المطبوع ، ص ١٠٥ : حيث اسم الشيخ الورجلاني « ابو صالح جنون بن يمريان » الذي هو والد صالح) ، الميلي ، ج ٢ ص ٢٥ ·

(٣٦٩) ابو زكريا ، ص ٤٢ ـ أ ، وقارن الدرجيني ، ص ٤٧ ـ ب ، الذي ينص على ان يعقوب كان صاحب كرامات وان تلك الحادثة كانت احداها (المطبوع ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦) ·

(٣٧٠) ابو زكريا ، ص ٤٢ ـ أ ، وانظر الدرجيني ، ص ٤٧ ـ أ ، ٤٧ ـ ب ، حيث النص على انه كان مع يعقوب ابنتاه وابنة ابن أخيه ، واسم الرجل الذي من أهل الدنيا هو العز بن محمد ، وقارن المطبوع ، ص ١٠٥ : حيث اسم الرجل من أهل الدنيا « حمو بن اللؤلؤ » ، والرجل من أهل الدين « العز بن محمد » ·

الافتراق الرابع فى الأباضية بوارجلان : أبو سليمان بن يعقوب مرجع الاباضية فى وارجلان :

أما أهم آثار أبناء يعقوب بن أفلح فى وارجلان ، فهو الانشقاق (الافتراق) الرابع فى الاباضية هناك ، وينسب الى أبى سليمان بن يعقوب • والمعروف أن أبا سليمان كان محبا للدرس ، مثلما كان والده مغرما بالعلم • وكان من أهم الكتب التى درسها فى شبابه أحد الدواوين الذى كان يشك المتمسكون من أهل الدعوة فى اصالته ، حتى قالوا ان يعقوب والده أخذ على ابنه ابى سليمان ذلك ، وحذر منه أهل وارجلان فقال لهم : « لا تطمئنوا اليه (أبى سليمان) فانه درس من ديوان أحمد بن الحسن » ، وهى العصة التى ينبغى الا تأخذها على عواهنها • فبعد وفاة يعقوب بن افلح الذى دفن فى المقبرة الأميرية فى وارجلان ـ وهى المقبرة التى بناها جنون بن يمريان والد الأمير صالح ، والتى كانت خرائبها فى أيام ابى زكريا كالربوة ، والتى يقول الدرجينى انها من المشاهد المزورة ـ احتمع أهل وارجلان على ابنه أبى سليمان واتخذوه مرجعاً لهم فى فتاواهم ونوازلهم • وكانوا يجرون عليه وتلامذته الضيافة الى أن حدث الخلاف بينه وبين بعض كبار المشايخ ، مما أدى الى الانشقاق الرابع الجديد (٣٧١) •

ميل أبى سليمان بن يعقوب الى التشدد فى فتاواه ، والنزاع مع شيخ وارجلان الكبير أبى صالح جنون :

والظاهر من فتاوى مشايخ الاباضية التى وصلت الينا أنها كانت تميل الى الرخص ـ على عكس ما كان يظن ـ وخاصة ما يتعلق منها بأمور الطعام والشراب ، فى الأقاليم شبه الصحراوية التى تمثل أوطان الاباضية ، وان أبا سليمان بن يعقوب كان يميل الى التشدد فى تلك الأمور • وفى هذا المجال كانت أول مسألة أثارها أبو سليمان هى تنجيس الفرث ، وهى المسألة التى عارضها الشيخ أبو صالح جنون ، والد الامير وصاحب المقبرة التى دفن فيها يعقوب ، حتى أنه سمح لنفسه ـ وهو صائم ـ أن يفطر على العصب فيها فرث خوفا من الفتنة فى وارجلان • واستمر الجدل والمناظرة بين أبى سليمان والشيخ جنون فى تلك المسألة حتى تحولت الى مشاجرات ومنازعة ، ثم

---

(٣٧١) أبو زكريا ، ص ٤٢ ـ أ ، وقارن الدرجينى ، ص ٤٧ ـ ب (المطبوع ، ص ٣٠٦) •

(٣٧٢) أبو زكريا ، ص ٤٢ ـ ب • وقارن الدرجينى ، المطبوع ، ص ١٠٧ •

انتهت الى المباهلة بين الرجلين ، أي ، طلب حكم الله عن طريق الاستخارة(٣٧٢) ٠

المباهلة بين الزعيمين :

وكما كانت العادة في المباهلة : اتفق الرجلان على أن يتباهلا يوم الجمعة ، وأخذ الشيخ جنون في العبادة والابتهال الى الله اذ ينصر أحب الفريقين اليه ٠ ولما كان يوم الجمعة اقترعوا في موضع بين الكدية المطلبة المعروفة هناك باسم كريمة ، وبين الموضع المعروف باسم تسرسرين ٠ وانتهت المباهلة في مصلحة الشيخ جنون ، كما يقول أبو زكريا ، اذ بعد أن تم « الدعاء على المبطل فضح الله اباسليمان » ، مما دعا الشيخ جنون الى اقامة مصلى ـ شكرا لله ـ بتسرسرين ، كان موجودا على أيام أبي زكريا(٣٧٣) ٠

مسالة الخلاف بين السليمانية والوهبية في وارجلان :

ورغم ما تقوله الرواية الاباضية من الانتصار على تحريف السليمانية ، فالظاهر أن تلك المنازعة انتهت بتكريس الانشقاق وخروج فرقة رابعة في وارجلان خالفت أهل المذهب من الوهبية في سبع مسائل تشددت فيها الى حد التحريم ، وهي :

أ ـ ثلاث تتعلق بالطعام ، من :

١ ـ تحريم الفرث

٢ ـ تحريم الجنين بعد ما ذبحت أمه (٣٧٤) ٠

٣ ـ تحريم العروق التي استبطنت الظهر بعد ما ذبحت الشاة ٠

ب ـ والثنتان تتعلقان بالطهارة ، من :

٤ ـ تحريم عرق الجنب ٠

٥ ـ تحريم عرق الحائض ٠

جـ ـ وواحدة خاصة بالصوم ، وهي :

٦ ـ تحريم صوم يوم الشك ٠

←

---

(٣٧٣) أبو زكريا ، ص ٤١ ـ ب ٠ وقارن الدرجيني ، المطبوع ، ص ١٠٧ ٠

(٣٧٤) وعن الأجنة التي تعرف بالسخال ، انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٨٣ و هـ ١١٨ ٠

د ـ والاخيرة خاصة بالزكاة : وهي :

٧ ـ تحريم الزكاة للقرابة (٢٧٥) •

وهكذا لم تنته خلافات الإباضية الفقهية بسقوط تاهرت ، بل انهم حملوها معهم في مهاجرهم الجديدة ، رغم عدم وجود الامامة الرستمية التي ظهرت الانشقاقات السابقة وكأنها نوع من المعارضة لها ، باستثناء الافتراق الرابع الذي ظهر في وارجلان ، وكأنه محاولة من يعقوب بن افلح وابنه أبي سليمان للم الشمل حولهما • أما الانشقاق الخامس فقد قام في حيز جبل نفوسة في بلدة قنطرارة •

الافتراق الخامس في الاباضية بقنطرارة :

ظهر الانشقاق الخامس في الإباضية ـ مثله في ذلك مثل الانشقاق الرابع ـ كرد فعل للرخص والتساهل الذي ظهر في المجتمع الاباضي ، والذي كان نتيجة طبيعية للمعاناة التي كابدها المجتمع في المناطق الانعزالية التي عاش فيها بعد سقوط تاهرت ، وخاصة من الناحية الاقتصادية ، بعد عصر الازهار الذي عرفه الاباضية على أيام الائمة الاوائل •

وصاحب الانشقاق الخامس رجل من أهل قنطرارة اسمه عبد الله ، ويكنى بأبد الله ، واشتهر بلقب السكاك • وعرف والد أبد الله بالصلاح

---

(٢٧٥) أبو زكريا ، ص ٤٢ ـ ب حيث يقول ان تفصيل الخلاف في هذه المسائل وارد في كتاب أخبار أبي الربيع سليمان بن زرقون النفوسي ـ الذي لا نعرف ، للأسف ، عن مصيره شيئا ، ولو ان أبا زكريا يشير الى أن بعض معاصريه ادرك ديوان أبي الربيع سليمان ، وكتبه بقرية « تاديوت » • وفي سيرة أبي الربيع ـ الذي كان يفتي في مسائل الرخص كثيرا ، اذ ينص أبو زكريا (ص ٤٣ ـ ب) على انه كان يرقع جبته برقعة منجوسة بعد أن ينزع بعض أطرافها ، كما كان يسمح لنفسه بشرب كل ما كان من الماء في كوز قدمته له عجوز وهي تقول له اشرب قليلا ، وذلك بناء على تفسيره للآية التي تقول : « قل متاع الدنيا قليل » ، مثله في ذلك مثل أبي الخطاب وسيم الزوالي ، معاصر أبي الربيع ، الذي كان لا يرى منازعة رجل ادعى عليه دينار وهو لا يعرفه ، كما كان يفتي رجلا من أغنياء بني يهراسن أن يعطي الزكاة الى اخ فقير له (ص ٤٤ ـ ب) ـ ينص كاتبنا على أنه كان معاصرا وزميلا لأبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف عند مؤرخي المغرب بصاحب الحمار الذي قام بالثورة على القائم والمنصور الفاطميين (ص ٤٢ ـ أ) ، والذي تعتبر دعوته انحرافا جديدا عن مذهب أهل الحق من الوهبية (ص ٤٣ ـ ب ، وقارن الدرجيني ، المخطوط ص ٤٣ ـ ب والمطبوع ، ص ١٠٩ : حيث قراءة اسم قرية أبي زرقون « تابديوت ») ، وهو ما سنعود اليه عند كلامنا في الدولة الفاطمية •

والتقوى ، ووجه ابنه السكاك الى طلب العلم الذى نبغ فيه ، فكانت لـه اجتهاداته الخاصة التي خالف فيها أهل المذهب . والحقيقة أن المسائل السبعة التي خالف فيها مشايخ قنطرارة تختلف كثيرا عن مسائل الانشقاق الرابع التي نادى بها أبو سليمان بن يعقوب ، مما جعل خصومه من الوهبية الذين سموا أنفسهم بأهل العدل يقفون منه موقفا عدائيا شديدا ، حتى قالوا : انه عندما ولد أبد الله (عبد الله السكاك) في قنطرارة ، بينما كان والده يؤدي فريضة الحج ، رأى هذا الاخير : « انه رأى فيما يرى النائم أنه توالد عنده شيطان » (٢٧٦) . والحقيقة أيضا أن مسائل السكاك الخاصة بالنجاسة والطهارة لئن كانت مقبولة فان المسائل الأخرى الخاصة بأصول التشريع والصلاة تدل على تعصب غير مقبول ، يسمح بالوقوف منها موقف المعارضة الشديدة . ومسائل السكاك السبعة هي :

١ - ابطال السنة والرأى - مما يعني انه لا يقبل الا القرآن كمصدر وحيد للتشريع .
٢ - صلاة الجماعة بدعة .
٣ - الأذان بدعة .
٤ - الصلاة لا تجوز الا بالمفهوم من القرآن .
٥ - الاجنة نجسة .
٦ - الصلاة لا تجوز بثوب فيه القمل .
٧ - اذا بالت الدواب في الأندر (القمح أثناء الدرس) لا يطهر الا بالغسل (٢٧٧) .

وهكذا يظهر تشدد السكاك ، في : أمور التشريع ، والعبادات ، ومسائل الطهارة والنجاسة في الثياب وفي الطعام ، بشكل يخالف ما اتفق عليه جمهور المشايخ ، سواء في تاهرت الرستمية ، أو في مراكز الاباضية المتفرقة في صحراوات المغرب ، أو في جبل نفوسة في العصور التالية ، كما يظهر في سير المشايخ وطبقاتهم .

وبهـذا التعريف المقتضب بالافتراقين الرابع والخامس عقب سقوط تاهرت بين أيدى الفاطميين ، وبعد ذلك بفترة زمنية لا بأس بها ، تكون قد

---

(٢٧٦) أبو زكريا ، ص ٤٥ - ب ، وقارن الدرجيني ، المطبوع ، ص ١١٨ .

(٢٧٧) نفس المصدر . ويلاحظ أن الدرجيني يضع بدل نجس الأجنة نجس البقول التي تنبت في الجنات في سماد بني آدم ، وذلك لنجاسة ما نبت عليه .

انتهينا من موضوع الدولة الرستمية في المغرب الاوسط ، فلا يبقى لنا قبل عرض تاريخ المغرب الأقصى حيث الدولة الادريسية الى حين قيام الدولة الفاطمية الا محاولة رسم خريطة لامامة تاهرت .

حدود امارة تاهرت :

رغم ما رأيناه من أن امامة تاهرت كانت تمد نفوذها الى طرابلس وجبل نفوسة ، فانه من الصعب رسم خريطة محددة لامارة الرستميين ، وذلك لأنها كانت مملكة بدوية أو صحراوية تبسط سلطانها على قبائل البادية أو الصحراء . فمع أن هذه القبائل اتخذت بعض المراكز في القرى الجبلية أو الواحات الصحراوية الا أنها ظلت في حالة ميوعة لا يستقر لها قرار ، فكانت تنتقل من مكان الى مكان حسب الظروف الطبيعية أو السياسية . والمثل لذلك هو ما اشرنا اليه من انتقال (النكار) الى ظاهر تاهرت ثم الى حيز طرابلس ، وانتقال عبد الوهاب بن رستم الى جبل نفوسة وخروج أبي حاتم يوسف من تاهرت نفسها الى حصن لواته وأخيرا التجاء يعقوب بن افلح الى وارجلان(٢٧٨) . وهذا يعني أن مسارح الرعي للقبائل التي ساندت الدعوة الخارجية في المغرب الأوسط ، والتي كانت تنتشر جنوبا في كل بلاد الزاب ، دخلت في نطاق الامامة الرستمية .

واذا كانت الاقاليم الساحلية القريبة من تاهرت مثل أسافل وادي شلف قد خضعت للمغرب الاقصى حيث قام الأدارسة في فاس ، فان القبائل الخارجية امتدت في الصحراء غربا حتى فجيج (٢٧٩) وجنوبا بغرب حتى سجلماسة ، حيث أقامت جماعة الصفرية امامة لها هي الاخرى . أما من جهة الشرق فقد رأينا أن خوارج تاهرت أصلا من اقليم طرابلس ، مهد الاباضية في المغرب (٢٨٠) . ولما كانت صحراوات طرابلس الجنوبية امتدادا طبيعيا لصحراوات الريقية والمغرب الاوسط ، حيث تلتقي الطرق الصحراوية في الأقاليم الثلاثة ، فان هذا يعني ان امارة تاهرت امتدت الى منطقة طرابلس وجبل نفوسة ، أو انها كانت متصلة بها بشكل من الاشكال (٢٨١) :

---

(٢٧٨) انظر فيما سبق ، ص ٢١٥ ، ٣٢٥ ، ٣٧٣ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ - ٣٩٩ .

(٢٧٩) انظر جوتييه ، ماضي شمال افريقية (بالفرنسية) ، ص ٣٢١ - ٣٢٣ .

(٢٨٠) انظر فيما سبق ، ص ٢٩٠ وص ٧ .

(٢٨١) انظر فيما سبق ، ص ٣٢٦ ، ٣٥١ وانظر فيما بعد ، ٤٠٦ .

واذا كانت المصادر التى بين أيدينا لا تبين حدود الامامة الرستمية والبلدان الداخلة في نطاقها ، فانه يمكن القول ان كل اقليم من الأقاليم والقرى التى كانت تدين بمذهب الخوارج وخاصة الاباضية ـ كانت داخلة في سلطان تاهرت • وفي هذا المجال تكون كتب الجغرافية والرحلة أهم مصادرنا ، ولو أن معظمها تم تاليفه بعد انتهاء تاهرت على أيدى الفاطميين وانتشار آباضيتها في واحات الصحراء ، مما يمكن أن يكون قد ترتب عليه ازدياد انتشار المذهب في الواحات الجنوبية ،بالشكل الذى يشير اليه الكتاب(٣٨٢) •

واذ ما قبلنا هذا المنهج على علاته يكون امتداد مملكة تاهرت ما بين جبل نفوسة شرقا وتاهرت غربا • فأهل جبل نفوسة كانوا أباضية متعصبين الى مذهبهم ، مفضلين اياه على سائر المذاهب (٣٨٣) ، وما زالوا على ذلك الى اليوم •

وهكذا كان تاريخ هذا الجبل طوال حياة امامة تاهرت جزءا من تاريخ تلك الامارة ، وهذا ما ينص عليه اليعقوبى (٣٨٤) • ولقد كان جبل نفوسة مركز اشعاع للمذهب الاباضى في كل الاقاليم المجاورة ، كما يتضح من كتب أهل الجبل التى وصلت الينا ، من : أبى زكريا والدرجينى والوسيانى ومن نقل عنهم مثل الشماخى (٣٨٥) ومن أتى بعده من المحدثين كالبارونى ،فالمفهوم

---

(٣٨٢) انظر البكرى ، ص ٧٩ (عن انتقال أهل تاهرت الى مدينة فكان على مسيرة ٤ مراحل سنة ٣٣٨ هـ وتمدينها على أيديهم) • وأنظر ص ٣٩٨ وما بعدها •

(٣٨٣) الشماخى ، ص ٢١٦ •

(٣٨٤) انظر البلدان ، ص ٣٤٦ (حيث يقول عن نفوسة وهم قوم عجم الألسن اباضية كلهم ، لهم رئيس يقال له الياس لا يخرجون عن امره ، ومنازلهم فى جبال طرابلس فى ضياع وقرى ومزارع وعمارات كثيرة لا يؤدون خراجا الى سلطان ولا يعطون طاعة الا الى رئيس لهم بتاهرت ، وهو رئيس الاباضية ، يقال له عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ـ فارسى)• وقارن ابن حوقل (ط بيروت) ، ص ٩٣ : حيث يقول ان جبل نفوسة كان دار هجرة الخوارج من قديم الأيام • بل وينص على ان عبد الله بن اباض وقبله عبد الله بن وهب الراسبى ماتا به ، وانه لم يدخل أهل هذا الجبل فى عهد الاسلام اى سلطان ولا سكنه غير الخوارج منذ اول الاسلام ، بل منذ خروجهم على على بن أبى طالب ووقعة النهروان •

(٣٨٥) ونكتفى هنا بالنظر فى الشماخى ، ص ٢١ (عن تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى جبل نفوسة واصلاح الأسواق : ••• عاقبوا القصاب على قلع الشاة ، ومنعو الحمال ان يحمل على دابته فوق طاقتها ••• ، ص ٢٢٨ (رجع الفضل الى قاضى الجبل عمروس بن فتح فى نقل مدونة أبى غانم الخرسانى ، وهى فى ١٢ جزءا ، ولولاها لبقى أهل المذهب من غير ديوان بالمغرب يعتمدون عليه ـ وذلك بعد سقوط تاهرت واحراق كتبها) • ولو أنه ينقل بعض هذه المعلومات عن مؤرخى تاهرت مثل ابن الصغير (أنظر فيما سبق ص ٣٦٦) •

ان المذهب انتشر منه الى الصحراوات الجنوبية فى فزان وودان (٣٨٦) ، وفى غرب نفوسة انتشر الخوارج فى أرض تقزاوة (٣٨٧) • وفى الاقليم الساحلى انتشروا ما بين طرابلس وقابس ، وكانت اشهر مراكزهم الساحلية جزيرة جربة(٣٨٨) • وانت واحات قسطيلية وبلاد الجريد — فى الأقاليم الجنوبية لافريقية من قواعد الخارجية الهامة (٣٨٩) • وفى الغرب من افريقية كان جبل أوراس من أقوى معاقل الخارجية (٣٩٠) •

وبعد ذلك تأتى بلاد الزاب — المؤدية الى ورجلة (وارجلان) — التى كانت تعتبر من أعمال مملكة تاهرت (٣٩١) • أما من جهة المغرب الاقصى فلقد سيطر الخوارج على الصحراء حتى سجلماسة التى عرفت كمركز للصفرية • وعن طريق الواحات وسجلماسة ، وأودغست فى جنوبها ، نقل الخوارج نشاطهم الى بلاد السودان فى تادمكت (تادمكة) وغانة ثم مالى — فيما بعد — حيث نشروا الاسلام وجمعوا كثيرا من الثروات فى العصور التالية للامامة(٣٩٢) •

---

(٣٨٦) الشماخى ، ص ١٩٠ (حيث يخصص فصلا لتراجم اباضية أهل فزان) •

(٣٨٧) عن خوارج تقزاوة انظر ابن حوقل ، طبعة بيروت ، ص ٩٣ •

(٣٨٨) البكرى ، ص ٨٥ ، الشماخى ، ص ١٦١ • وانظر ص ٤١٦ حيث يقول ان أهل جربة حكار ، وعن عقيدتهم ، ص ٥٦٢ • وعن جربة يقول ابن خلدون (ج ٦ ص ١٢٢) انهم من بطون قبائل لماية — حلفاء الرستميين — وبهم سميت الجزيرة البحرية تجاه قابس •

(٣٨٩) ابن حوقل ، ص ٩٣ (يذكر وجود الخوارج فى قفصة ونفطة والحامة وسماطة وبشرى) والشماخى ، ص ٣٤٧ (الحامة) ، ص ٣٥٠ (الجريد) ، ص ٤٠٣ (توزر) ، وعن قسطيلية (يكتبها فى شكل قسطالية) ص ٢٨٠ •

(٣٩٠) البكرى ، ص ١٤٤ (تسكنه قبائل مزاتة وضريسة وكلهم اباضية) •

(٣٩١) من مدن الزاب القريبة من أوراس باغاية وكلهم اباضية على أيام البكرى (البكرى ، ص ١٤٤) ، وكذلك أهل طبنة وبادس (ابن حوقل ، ص ٩٣) ، وتهودة — حيث كان يسكن فى حوليها هوارة ومكناسة وهم من الاباضية (البكرى ، ص ٧٢) — وبسكرة (ابن حوقل ، ص ٩٣) ، وعن ورجلان وخوارجها انظر الشماخى ، ص ٣٥١ ، ٣٦٥ ، ٣٧٢ ، ٤١٨ •

(٣٩٢) انظر الوسيانى ، المخطوط ، ص ٢٦ — أ (غانة وتادمكت) ، ص ٥٣ — أ (طريق القبلة) ، ص ٨٢أ — ب (تادمكت) الخ • وقارن الشماخى حيث نجد خلال تراجم الشيوخ امثلة لهذا النشاط ، ص ٢٧٩ — ٢٨٠أ (عن نشاط الاباضية بسجلماسة) ص ٤٧٨ (عن رحلاتهم الى أودغست) ، ص ٣١٢ عن تبشير ملك السودان ودخوله الاسلام) ، ص ٤٠٧ (عن نشاطهم فى جمع التبر والدعوة الى الاسلام فى غانة) ، وعن نشاطهم فى جمع الأموال فى تادمكت ، ص ٤١١ •

الفصل الرابع

إمامة بني واسول الصفرية في سجلماسة

(١٤٠ هـ / ٧٥٧ م - ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م)

موضع سجلماسة :

تقع سجلماسة فى شمال وادى درعة ، على طرف الصحراء جنوبا فى آخر بلاد العمران ، وتليها المفازة الكبرى التى تؤدى الى غانة من بلادالسودان، وكان يسكن تلك المفازة قبائل الملثمين الصنهاجية من مسوفةولمتونة (١) . ومنطقة سجلماسة تعرف الآن باسم تافللت(٢). أما المدينة القديمة (الريسانى حاليا) فلم يبق لها الا الذكر . والمعروف ان مدينة سجلماسة لم تكن قديمة، بل محدثة : مثلها مثل تاهرت ، وأن بناتها كانوا من الصفرية من قبيلة مكناسة . ولقد كانت قبيلة مكناسة من أهم قبائل البربر التى أيدت ثورة ميسرة فى اقليم طنجة (٣) .

والحقيقة انه يوجد طريق قديم هام ، سلكته الهجرات والقوات الفاتحة ، يربط شمالا بين مدينة فاس ومدينة مكناسة ـ التى مازالت تحمل اسم تلك القبيلة ـ وبين اقليم تافللت أى سجلماسة جنوبا (٤) .

بناة المدينة :

وينسب ابن عذارى بناء المدينةالىأبىالقاسمسمغون بن واسولالمكناسى،

---

(١) كتاب الاستبصار ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ والهوامش .

(٢) انظر فيما سبق (تافللت) ، ج ١ ص ٧٣ .

(٣) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٨٦ ، وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٠ (الفصل الخاص بمكناسة ودولة بنى واسول) .

(٤) انظر جوتييه ، ماضى شمال افريقية (بالفرنسية) ، ص ٣١٧ (هذا الطريق يسمى « طريق السلطان » كما يقول جوتييه)

الذى « كان صاحب ماشية كثيرة ، وكان ينتجع موضع سجلماسة »(٥) . والحقيقة ان ابن واسول هو مؤسس الأسرة التي ستسود سجلماسة الى قيام الدولة الفاطمية ، نظرا لغناه ، ولأنه كان يرتاد تلك المنطقة التي كانت سوقا يجتمع فيه بربر تلك النواحي (٦) . أما عن بانى المدينة الحقيقى أو مؤسس الجماعة الخارجية في سجلماسة ، فهو — كما ينص البكرى وابن خلدون وكما يشير ابن عذارى أيضا — رجل سودانى الأصل من الموالى ، اسمه عيسى بن يزيد الاسود (٧) . ويتفق صاحب الاستبصار وابن عذارى وابن خلدون على أن جماعة من الصفرية يبلغ عددها ٤٠ (أربعين) رجلا اجتمعوا ، في سنة ١٤٠ هـ/٥٧ — ٧٥٨ م ، في موضع سجلماسة حيث تداولوا فى أمرهم ، وبعد أن قدموا على أنفسهم عيسى بن يزيد الاسود — الذي كان له شأن بين الخوارج — شرعوا في بناء سجلماسة (٨) .

والمفهوم ، بطبيعة الحال ، أن جماعة الصفرية هؤلاء من فلول اصحاب ميسرة . واختيار رجل من السودان للامامة هنا يبين اتجاه الجماعة الصفرية الى تطبيق مبدأ اللاعنصرية و (اللاعصبية) للامام ، وهو الشرط الذى أشرنا اليه عند اختيار عبد الرحمن بن رستم (٩) . وذلك حتى يمكن التخلص من الامام اذا ما حاد عن العدل ، وهذا ما ستفعله جماعة سجلماسة بامامها عيسى ابن يزيد . ومع ان البكرى يذكر ان بناة سجلماسة من الصفرية ، الا أنه يجعل عيسى بن يزيد الاسود من أصحاب أبى الخطاب الاباضى ، وينسب

---

(٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٦ . وقارن ، ابن خلدون (ج ٦ ص ١٣٠) السلاوى يسميه سمكو (سمجو) بن واسول بن مصلان بن أبي يزول .

(٦) الاستبصار ، ص ٢٠١ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٦ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٠ .

(٧) البكرى ، ص ١٤٩ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٠ والترجمة ، ج ١ ص ٢٦١ ، ابن عذارى ج ١ ص ١٥٦ .

(٨) نفس المصادر السابقة . ونلاحظ هنا أن صاحب الاستبصار (ص ٢٠١) يخطىء عندما ينسب بناء مسجد سجلماسة في سنة ١٤٠ هـ الى مدرار بن عبد الله ، وينسب اليه انه كان رجلا من أهل الحديث وانه لقى عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه (عن عكرمة البربرى الأصل والمتوفى سنة ١٠٧ هـ/٧٢٢ م انظر ترجمة ابن خلدون ، هامش ٢ ص ٢٠٣) . والظاهر انه يقصد والده سمجو بن واسل كما ينص على ذلك ابن خلدون (ج ٦ ص ١٣٠ والترجمة ج ١ ص ٢٦١) . أما عن مدرار فسيكون له دوره في عمران المدينة كما سنرى فيما بعد .

(٩) انظر فيما سبق ، ص ٣٠١ .

عزل عيسى بن يزيد والتخلص منه الى مقالة قالها أبو الخطاب في حقه (١٠) • وهذا يعني أن قيادة جماعة سجلماسة كانت اباضية الأصل •

ومع ان البكري يخطيء عندما يجعـــل مقالة ابي الخطـــاب سببا في عزل عيسى الذي ولي ١٥ (خمسة عشر) عاما ، أي أنه عزل في سنة ١٥٥ هـ/ ٧٧٢ م بعد أكثر من عشر سنوات من مقتل ابي الخطاب ، فان ذلك لا يعني نفي أن عيسى كان من أصحاب ابي الخطاب • فمن الممكن أن يكون قائل المقالة التي أودت بعيسى هو ابو حاتم خليفة أبي الخطاب (١١) ، وليس الأخير نفسه • هذا . كما يمكن التفكير في أن تكون المقالة لعبد الرحمن بن رستم الذي كان له زعامة الخوارج في المغرب في ذلك الوقت • ويمكن أن يؤيد وجهة نظرنا هذه أن صفرية سجلماسة كانوا على علاقة وثيقة باباضية تاهرت مما جعل التفرقة صعبة بين الاباضية والصفرية ، حتى ان ابن خلدون يقول عن سمغون (سمكو) بن واسول انه كان اباضيا صفريا (١٢) • وهذا الأمر مقبول ، فالحركة الخارجية كانت قد انتهت منذ سنة ١٢٣ هـ أو ١٢٤ هـ في المغـــرب الأقصى ، وتسلمت أقاليم المغرب الادنى قيادة الحركة بعد أن غيرت تعاليمها، وجعلتها اباضـية أكثر اعتدالا تحت قيادة ابي الخطاب •

سجلماسة الأولى وتطورها العمراني :

والذي يهمنا هنا هو أن سجلماسة في أول أمرها ، عندما كانت منزلا لسمغون بن واسول ، لم تكن بأكثر من مجمع للخوارج الصفرية يضربون فيها خيامهم (١٣) • وأخذ المنزل البدوي يتطور مع تطور الاحداث ، فبعد انتخاب عيسى بن يزيد الاسود اماما « شرعوا في البناء » (١٤) • ولكنه كان بناء ساذجا بطبيعة الحال ، يتفق مع بساطة الجماعة في ذلك الوقت : بمعنى أن سجلماسة لم تكن بأكثر من قرية صحراوية • وظلت المدينة ، بعـــد التخلص من عيسى بن يزيد ، على شكلها هذا على أيام ابي القاسم سمغون

---

(١٠) انظر البكري ، ص ١٤٩ (قال أبو الخطاب يوما لأصـــحابه في مجلس عيسى : السودان كلهم سراق حتى هذا . وأشار الى عيسى فأخذوه وشدوه وثاقا الى شجرة في رأس جبل وتركوه حتى قتله البعوض ، فسمى الجبل جبل عيسى الى اليوم) ، وقارن ابن خلدون ج ٦ ص ١٣٠ وعن أبي الخطاب انظر فيما سبق ، ص ٤٠١ وما بعدها •

(١١) عن أبي حاتم انظر فيما سبق ، ص ٣٧١ وما بعدها •

(١٢) العبر ، ج ٦ ص ١٣٠ والترجمة ، ١ ص ٢٦٢ (هذا وان ابن خلدون يذكر بعد ذلك ان بعض الأئمة كان صفريا وبعضهم كان اباضيا) •

(١٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٦ (وسكنوا معه هنالك في خيمات) •

(١٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٦ •

ابن واسول (١٥٥ - ١٦٨ هـ/٧٧٢ - ٧٨٤ م) (١٥) ثم ابنه الياس بن ابى القاسم (١٦٨ - ١٧٤ هـ/٧٨٤ - ٩٠ - ٧٩١ م)(١٦) .

وعلى أيام الرابع من أمراء سجلماسة ، وهو اليسع بن ابى القاسم ، الذى خلع أخاه الياس والذى عرف بأبى الوزير ، وطالت امارته الى ما يزيد على ثلث قرن (١٧٤ - ٢٠٨ هـ/٨٩٠ - ٨٢٣ م) ، اتخذت سجلماسة شكل العاصمة . فلقد عرف اليسع بن سمغون بنشاطه وجده فى سبيل تقوية الامارة الصفرية ، وتوسيع رقعتها ، حتى وصفه الكتاب بأنه كان جبـــارا عنيدا (١٧) . اخضع اليسع قبائل البربر المحيطة بسجلماسة ممن لم تكن قد خضعت لهم وادخلها فى طاعته ، فكان صاحب الفضل فى نشر المذهب الصفرى(١٨) . وانتشر سلطان اليسع حتى وادى درعة ، وبفضل ما كان يأتيه من الأموال وخاصة ما كان مفروضا على مناجم درعة (خمس معادن درعة) ، ازداد العمران فى سلجماسة . ويرجع الفضل الى اليسع - كما قلنا - في أن اتخذت المدينة شكل العاصمة اذ جعلها مقرا له ، وبنى فيها القصور والدور ، وخزانات المياه (المصانع) ، وبذلك اتم بناءها وتشييدها ، كما يقول ابن خلدون (١٩) .

وكان من الطبيعى أن يحيطها - بعد ذلك - بسور قوى حتى يأمن فيها من عدو يطرقه . ولما كانت المنشآت ذات المنافع العامة تعتبر من أعمال البر والتقوى ، رأى امام سجلماسة أن يكون السور ، الذى يحمى المدينة والجماعة ،

---

(١٥) أنظر البكرى ص ١٤٩ (يقول انه مات فجاة فى صلاة العشاء بعد ١٣ سنة) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٦ (يقول فلم يزل واليا عليهم الى ان مات سنة ١٦٨ هـ) ، وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١٣٠ والترجمة ج ١ ص ٢٦٢) الذى يقول انه حكم ١٢ سنة ومات فجاة سنة ١٦٧هـ .

(١٦) أنظر البكرى (ص ١٥٠ الذى يقول ان الياس كان يلقب بأبى الوزير) . وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ١٣٠ والترجمة ج ١ ص ٢٦٢) الذى يلقبه بالوزير ، والأصل يجعل وفاته سنة ١٩٤ هـ وهى فى الترجمة سنة ١٧٤ هـ . وقارن ابن عذارى (ج ١ ص ١٥٦) الذى يقول ان حكمه سنتان لتطريجعل خلعه بيدى اخيه اليسع فى سنة ١٧٠ هـ ، ويظهر خطأ ابن عذارى هنا عندما يجعل وفاة اليسع سنة ٢٠٨ هـ ويحسب سنى حكمه فيجعلها ٣٤ سنة (ص ١٥٧) . فلكى يكون هذا الرقم صحيحا ينبغى ان تكون ولاية اليسع سنة ١٧٤ هـ .

(١٧) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٧ .

(١٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٧ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٠ (وكان صفريا ...) .

(١٩) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٠ - ١٣١ ، والترجمة ج ١ ص ٢٦٢ .

من عمله هو لا يشاركه فيه أحد (٢٠) . ويضيف صاحب الاستبصار الى ذلك أن جملة النفقة على السور بلغت ألف مد من الطعام (٢١) ولقد بني السور بالحجارة من أسفله وبالطوب من أعلاه (٢٢) .

هذا ويقول صاحب الاستبصار أنه كان لمدينة سجلماسة ١٢ (اثنا عشر) بابا ، ولكننا نظن أن ذلك كان على ايامه هو ، بعد أن عظمت المدينة في عهد المرابطين الذين وجهوا جهودهم نحو بلاد السودان التي كانت سجلماسة بابها . ولهذا السبب اعتبرها صاحب الاستبصار « من أعظم مـــدن المغرب » (٢٣) .

أما عن تاريخ بناء السور فيحدده ابن خلدون بالسنة الـ ٣٤ (الرابعة والثلاثين) من ولاية اليسع (٢٤) ، أى فى السنة الاخيرة من حكمه ، وهى سنة ٢٠٨ هـ/٨٢٣ ـ ٨٢٤ م . وهذا يعنى أحد شيئين : اما أن السور قد تم بناؤه خلال سنة واحدة (سنة ٢٠٨ هـ) ، واما أن يكون اليسع قد بدأ البناء وأكمله بعده ابنه مدرار (سنة ٢٠٨ ـ ٢٥٣ هـ/٨٢٣ ـ ٨٦٧ م) الذى اتخذ اللقب الحلافى « المنتصر » (٢٥) . وذلك ما يؤيده اللبس الذى وقع فيه البكرى ، وتبعه فيه صاحب الاستبصار ، عندما نقلا بعض الروايات التى تنسب بناء سجلماسة نفسه فى سنة ١٤٠ هـ/٥٧ ـ ٧٥٨ م الى مدار بن اليسع (٢٦) . ولما كان المعروف أن مدرار ملك ابتداء من سنة ٢٠٨ هـ/٨٢٣م، قالت تلك الرواية أن مدرار المقصود كان رجلا حدادا « من ربضية قرطبة ، خرج من الأندلس عند وقعة الربض فنزل منزلا بقرب سجلماسة ، وموضع سجلماسة اذ ذاك سوق البربر بتلك النواحي ، فأنشأ مدرار خيمة وسكنها فبنى الناس حوله ، فكان ذلك أصل عمارتها ، وكان رجلا أسود وأولاده هجوا بذلك »(٢٧) . وواضح من تلك الرواية ان المقصود بمدرار فيها هو

---

(٢٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٧ .

(٢١) الاستبصار ، ص ٢٠١ .

(٢٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٧ .

(٢٣) الاستبصار ، ص ٢٠١ .

(٢٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٣٠ والترجمة ج ١ ص ٢٦٢ .

(٢٥) عن تلقيبه بالمنتصر انظر البكرى ، ص ١٥٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٧ ـ ابن خلدون ، ج ٦ ،ص ١٣٦ والترجمة ج ١ ص ٢٦٢ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٠١ .

(٢٦) البكرى ، ص ١٤٩ ، الاستبصار ، ص ٢٠١ .

(٢٧) الاستبصار ، ص ٢٠١ ، البكرى ، ص ١٤٩ .

عيسى بن يزيد الأسود أول امام لسجلماسة ، وهذا يعنى أن تلك الرواية خاطئة ، كما ينص على ذلك البكرى نفسه (٢٨) ٠

ورغم خطأ تلك الرواية فالظاهر أنها تحوى شيئا من الحقيقة ٠ ففى سنة ٢٠٢ هـ/٨١٧ م أى قبيل الوقت الذى بدأ اليسع ينشىء فيه السور (سنة ٢٠٨ هـ) ، وقعت فى قرطبة الفتنة المشهورة « بوقعة الربض » والتى انتهت بأن خرب الحكم ابن هشام الحى الجنوبى الكبير من قرطبة ، المعروف بالربض أى الضاحية ، وطرد أهله من الأندلس ٠ فسار كثير منهم الى المغرب ، كما اشتركت أعداد منهم مع الغزاة فى مغامرات كبرى عبر البحر انتهت بهم الى الاسكندرية ثم الى كريت (أقريطش) (٢٩) ٠ والمعروف ان أولئك الربضيين الذين ساروا الى المغرب وصلوا فى الوقت الذى كانت فيه تنشأ مدينة فاس ، وانهم اشتركوا فى اعمارها ، واتخذوا لهم حيا فيها سمى باسمهم فهو « عدوة الاندلسيين » (٣٠) ٠

وبناء على ذلك نرى انه ربما كانت مدرار الربضى أصلا من الصحة ، ولا يستبعد أن يكون بعض هؤلاء الربضيين ، الذين أوغلوا فى المغامرة حتى شرق البحر المتوسط قد اتخذوا طريق الهجرات القديم المؤدى من منطقة فاس الى سجلماسة (٣١) ، وان اليسع بن ابى القاسم سمغون رحب بهم واستعان بهم فى بناء السور سنة ٢٠٨ هـ ، ولكنه مات فى نفس السنة قبل أن يتم السور ، فأكملوه على عهد ابنه مدرار المنتصر ، وعن هذا الطريق يمكن تفسير التصاق اسم مدرار بالربضيين ٠

ونعتقد أن حركة العمران الكبيرة التى عرفتها سجلماسة أيام اليسع ، من بناء القصور والدور والمصانع ، والتى جعلت المدينة بحق عاصمة الجنوب ، تمت بمشاركة الأندلسيين من أهل قرطبة ، وذلك انه كانت قد وقعت عدة اضطرابات فى ربض قرطبة قبل ثورة سنة ٢٠٢ هـ ٠ والحقيقة ان انتقال سجلماسة من قرية صحراوية الى عاصمة من عواصم المغرب لابد له من تفسير مثل هذا ، مثل سجلماسة فى ذلك مثل مدينة فاس ٠

---

(٢٨) البكرى ، ص ١٤٩ ٠

(٢٩) انظر ليفى بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية (بالفرنسية) ، طبعة ١٩٤٤ ص ١١٩ ـ ١٢١ ، وانظر للمؤلف ، تاريخ الاسكندرية من الفتح العربى الى قيام الفاطميين ، فى كتاب تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور ، الاسكندرية ١٩٦٣ ، ص ٢٦٧ ، ٢٧٥ ٠

(٣٠) انظر فيما بعد فى بناء مدينة فاس ، ص ٤٤٢ ٠

(٣١) انظر فيما سبق ص ٢٢٨ ٠

مدرار بن اليسع : مرحلة أولى (٢٠٨ هـ/٨٢٣ م — ٢٢٤ هـ/٨٣٩ م)

الاضطراب في سجلماسة يعقبه فترة ازدهار :

والظاهر أن سجلماسة عرفت فترة من الاضطراب فى السنة الاخيرة من حكم اليسع أو بعد وفاته فى سنة ٢٠٨ هـ/٨٢٣ م بسبب التنافس على الملك بين الأمير السابق الياس وبين ابن أخيه ولى العهد مدرار بن اليسع . وهذا ما يمكن أن يكون حلا للمشكلة التى يثيرها ابن عذارى فى حولياته سنة ٢٠٧ هـ/٨٢٢ م عندما يقول انه بعد وفاة اليسع فى تلك السنة : « قدم أهلها (سجلماسة) على أنفسهم أخاه الياس المنتصر بن أبى القاسم الذى كانوا خلعوه (٣٢) » ، وهو الأمر الذى يخالف ما يذكره فى الفصل الخاص بالتعريف بسجلماسة عندما يذكر ان اليسع توفى سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٣ م « ثم ولى ابنه مدرار بن اليسع ، وهو المنتصر بن سمغون المتقدم ذكره »(٣٣) .

والواضح من نتف النصوص التى وصلتنا ، هو أن سجلماسة واصلت عهد الرقى والازدهار على أيام مدرار بن اليسع ، الذى كان يزهو بمصاهرته لأئمة تاهرت اذ كان قد تزوج منذ أيام والده باحدى الاميرات الرستميات التى كان لها شأنها فى سجلماسة حتى انها أعطت اسمها ، وهو أروا الى ابنها ميمون بن مدرار ، فاشتهر باسم ابن أروا وبابن الرستمية(٣٤) . ولما كانت النصوص تقول ان أروا هى ابنة عبد الرحمن بن رستم الذى توفى سنة ١٦٨ هـ/٧٨٤ م فان ذلك يعنى أن مدرار بن اليسع لم يكن فى مقتبل العمر عندما ولى الامامة الصفرية سنة ٢٠٨ هـ /٨٢٣ م ، بل كان شيخا مسنا . وهذا ما يؤيده الاضطراب الذى حدث فى سجلماسة سنة ٢٢١ هـ/٨٣٦ م اى بعد حوالى ١٣ (ثلاثة عشر) سنة من ولاية مدرار ، وذلك بسبب الصراع على السلطة بين ولديه ميمون بن أروا الرستمية والآخر الذى عرف بابن بقية ، نسبة الى والدته هو الآخر ، كما نظن (٣٥) .

---

(٣٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٧ (فى ذكر ولاية زيادة الله بن الأغلب الربيعية وبعض اخباره) .

(٣٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٧ .

(٣٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٧ .

(٣٥) انظر بن عذارى ، اخبار سنة ٢٢١ ، ج ١ ص ١٠٦ ، والتعريف بسجلماسة ، ص ١٥٧ ، وقارن البكرى (ص ١٤٩) ، الذى ينقله ابن عذارى ، كما نظن ، حيث القراءة تقية بدلا من بقية ، كما يقول ان اسم ابن بقية هو ميمون أيضا .

الصراع على السلطة في سجلماسة بين ولدي مدرار ، ميمون وابن بقية :

والذي يفهم من الرواية هو أن مدرار بن اليسع ، وهو الامام ، كان يقف موقف المتفرج على ولديه اللذين ظلا يتقاتلان طوال ثلاثة أعوام ، من سنة ٢٢١ هـ/٨٣٦ م الى سنة ٢٢٤ هـ/٨٣٩ م · وفي السنة الأخيرة وقف مدرار الى جانب ابنه ميمون بن الرستمية ، فمال اليه أهل سجلماسة وبذلك رجحت كفته ، ونجح في اخراج أخيه ابن بقية من سجلماسة ·

استبداد ابن الرستمية ، وعودة الأمر الى مدرار :

وما ان استقرت الأمور لميمون حتى رأى ان يستقل بالأمر تماما ، فأمر باخراج والده مدرار ووالدته أروا الى بعض قرى سجلماسة التي لا يذكر النص اسمها ، والتي يمكن أن تكون بلدة درعة التي ساهمت بحظ وافر في الاضطراب الذي عرفته سجلماسة حينئذ (٣٦) · اذ يتضح من النصوص المتضبة ان ميمون بن مدرار لم يحسن السيرة أو أنه لم ينجح في اكتساب قلوب أهل سجلماسة لوقت طويل ، اذ لم يلبثوا أن ثاروا به وخلعوه من الامارة ، وبذلك تمهد الطريق من جديد امام والده مدرار ، بمعونة أخيه ابن بقية ، لكي يعود الى الامامة (٣٧) ·

ابن بقية أميرا : الى سنة ٢٦٣ هـ/٨٧٦م :

والظاهر أن مدرارا ظل مواليا لابنه ميمون بن الرستمية الذي كان مقيما في درعة ، وأنه أراد أن يتقوى به في سجلماسة فأرسل اليه يستدعيه هو وأعوانه من درعة · وهنا ثارت ثائرة أهل العاصمة الذين توجهوا الى قصر مدرار وضربوا عليه الحصار الذي انتهى بخلعه واعلان امامة ابنه « ابن بقية » الذي اشتهر بلقب « الامير »(٣٨) · وعلى عهد ابن بقية الذي لا نعرف تحديدا زمنيا لبدايته توفي مدرار بن اليسع والده ، أي قبل سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م ، وهي سنة وفاة ميمون «الأمير» بن بقيه . وهو في الامامة (٣٩) ·

---

(٣٦) انظر ابن عذاري ، الحوليات سنة ٢٢٤ هـ ، ج ١ ص ١٠٧ ، والتعريف بسجلماسة ص ١٥٧ ، وقارن البكري ، ص ١٤٩ ·

(٣٧) انظر ابن عذاري ، ج ١ ص ١٥٧ حيث يقول ان أهل سجلماسة بعد أن خلعوا ميمون « ارادوا خلع أبيه وتقديم أخيه بن بقية ، فأبى أن يتآمر على أبيه ، فأعادوا اباه مدرارا بعد خلعه ، وقارن البكري ، ص ١٤٩ ·

(٣٨) البكري ، ص ١٤٩ ·

(٣٩) ابن عذاري ، ج ١ (التعريف بسجلماسة) ص ١٥٧ ، وقارن البكري ، ص ١٤٩ ·

وخلف « الأمير » ابنه محمد بن ميمون الذى لا يذكر البكرى عنه الا سنة وفاته ، وهى سنة ٢٧٠ هـ/٨٨٣م حينما آلت الامامة الى عمه اليسع بن مدرار المنتصر فى صفر من نفس السنة/أغسطس ـ سبتمبر(٤٠) ٠

واليسع بن مدرار ، الذى ولى فى صفر سنة ٢٧٠ هـ/أغسطس ـ سبتمبر ٨٨٣ م ، واتخذ لقب المنتصر وهو لقب والده مدرار وربما جده اليسع الأول أيضا ، هو آخر ائمة سجلماسة من المدراريين ، اذ بقى فى الحكم ٢٧ (سبعا وعشرين) سنة ، أى الى سنة ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م عندما دخل أبو عبدالله الشيعى ـ بعد استيلائه على رقادة وتاهرت ـ سجلماسة ، واستخلص عبيد الله المهدى فى تلك السنة ثم ظفر باليسع فقتله ، وهو الامر الذى سنعود اليه بعد الفراغ من دولة الأدراسة فى المغرب الأقصى (٤١) ٠

---

(٤٠) أنظر البكرى ، ص ١٤٩ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ (التعريف بسجلماسة) ، ص ١٥٧ ، الذى يسقط فى روايته امامة محمد بن ميمون الأمير ، ويجعل اليسع الأخير ابنا لميمون بن مدرار (ابن الرستمية) بن اليسع بن سمغون بن مدلان المكناسى ٠

(٤١) انظر فيما بعد ، فى قيام الدولة الفاطمية ، ص ٥٩٤/، ٥٩٥ وهـ ٢٢٧ ٠

الفصل الخامس

الدولة الإدريسية

في فاس والمغرب الأوسط

(١٧٢ هـ/٧٨٩ م - ٣٠٥ هـ/٩١٧ م)

قيام الادارسة فى المغرب الاقصى وبناء مدينة فاس :

اصول خارجية للدولة العلوية :

بينما كانت تقوم الامارتان الخارجيتان فى تاهرت وسجلماسة ساهد المغرب الاقصى قيام امارة علوية جديدة هى دولة الادارسة فى فاس . والاختلاف هنا لا يقتصر على اللون المذهبى لكل من الممالك الثلاث بل يتخطاه الى طبيعة كل منها . فبينما كانت الاوليان مملكتين صحراويتين كانت مملكة الادارسة حضرية مدنية صميمة ، وهذا ما يتمثل فى عاصمتها فاس التى مازالت تحتفظ بلونها الحضارى الاصيل بعد اكثر من الف عام ، بينما ضعفت تاهرت وهان امرها ابتداء من القرن الرابع الهجرى (١) ، ودالت دولة سجلماسة ، بعد ازدهار استمر الى القرن الثامن الهجرى نتيجة للدور الهام الذى قامت به صحراوات المغرب الجنوبية ابتداء من عهد المرابطين ، واصبح اقليمها لا يعرف الا بتافللت . وحتى القيروان نفسها فقدت اهميتها بعد ان استعادت قرطاجنة ممثلة فى تونس مركزها كعاصمة لافريقية .

والذى يستحق الملاحظة لاول وهلة فى قيام مملكة الادارسة العلوية (اى الشيعية من الناحية الشكلية على الاقل) هو ان الاقليم الذى اتخذته قاعدة لها كان بالامس القريب مهدا للحركة الخارجية ولا حاجة الى الاشارة الى

---

(١) انظر ابن حوقل طبعة بيروت ص ٩٢ ، وقارن البكرى ، ص ٧٦ حيث يذكر انه كان من بين من عبروا مدينة تكاز وهى من اعمال تلمسان . عندما مدنها يعلى بن محمد ابن صالح اليفرنى سنة ٢٣٨ هـ ، بعض العسكر من اهل تاهرت الذين ارتحلوا اليها .

ما آل اليه أمر اخوة الأمس - ونقصد الخوارج والشيعة - من العداء المرير الذي بلغ حد التكفير والاتهام بالخروج عن الدين • أما كيف انقلب خوارج المغرب الأقصى من الضد الى الضد ، أي من مناصرين لميسرة الصفري وأعوانه الى أتباع لادريس « الفاطمي »(٢) وخلفائه ، فلذلك أسباب تختلف في طبيعتها وتتباين في كنهها ، وتتراوح ما بين السياسة والدين •

وأول هذه الاسباب بطبيعة الحال هو المشاركة في الخروج على الدولة، اذ ظل كل من الفريقين - رغم انشقاقهما - معارضا للخلافة سواء أكانت أموية أم عباسية • فلقد وجدت هذه المعارضة هوى في نفوس بربر المغرب الذين ضاقوا ذرعا بفساد الادارة الأموية ، والذين كانوا يسعون الى حكم يحقق لهم المساواة بالعرب ، ويجري حسب مبادىء الاسلام (٣) واذا لم يكن من الغريب أن يتمسك بربر المغرب الأقصى بموقفهم هذا ازاء الخلافة العباسية ، فان العجيب في الأمر هو التفافهم حول امام علوي يمارس مبدأ احتكار السلطة، ويمثل قانون الوراثة الملكي الذي يناقض مبدأ الشورى والانتخاب الجمهوري، الذي صار الأصل السياسي لدى الخوارج • وهنا نجد أن الخوارج يتمسكون بالشعار والشكل فقط دون المضمون • فهم عندما تسنح لهم الفرصة لتطبيق مبادئهم عمليا يتحرفون عن المبدأ الجمهوري في تنصيب الامام ، ويمارسون مبدأ الوراثة الملكي ، وان كان مغلفا في شكله الانتخابي الممثل في البيعة - وهذا ما فعله الأمويون تماما وما سار عليه العباسيون بعدهم • ففي تاهرت أصبحت الامامة الاباضية وراثية في بني رستم ، كما رأينا ، مما تسبب في حركات الانشقاق التي ذكرناها (٤) •

وكان الأمر كذلك بالنسبة لامامة سجلماسة الصفرية ، فقد تخلصت القبائل من الامام الأول السوداني الأصل ، والذي لم يكن له عصبية ، لكي يتوارث بنو واسول الامامة • وهنا يمكن التفكير في أن الجماعات الخارجية لم تكن لتستطيع الخروج على الأصول التي أصبحت تقليدية تاريخية في

---

(٢) انظر كتاب الاستبصار (ص ١٨٠) الذي يلقب ادريس ابن عبد الله بالفاطمي ، وكذلك ابن أبي دينار (ص ٩٩) الذي يسمى الادارسة بـ « الفواطم » •

(٣) انظر فيما سبق ، ص ٣٠٦ •

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٣٢٤ وص ١٢١ - حيث تسمية المنشقين على امام تاهرت يعرفون بالمعتزلة وبالواصلية • مما دعانا الى التفكير في أنه ربما كان المقصود بالتسميتين بعض الجماعات المغربية التي اعتنقت الافكار الزيدية الشيعية التي اختلطت تماما بالفكر المعتزلي • أو أن يكون المقصود بالاعتزال هو موقف الحياد بالنسبة للفتنة أو الانشقاق •

اختيار الخليفة وهو الامام ، كما يمكن التفكير أيضـــا في أن شيعة الأمس – تقصد خوارج اليوم – لم يمكنهم التملص من مبادئهم الأولى التي تجعل الامامة تركة من نصيب العلويين من آل البيت ، فطبقوا مبدأ الوراثة ، وان لم يكن في آل البيت . ولما سمحت الفرصة لتقديم أحد العلويين ، سارعت قبائل المغرب الأقصى من خوارج وغيرهم في الالتفاف حوله ، وتطبيق نظام الوراثة في أبنائه ، كما تقضي أصول الشيعة .

ولكنه ينبغي أن نسارع بالاشارة هنا الى أنه رغم ان ادريس علوي ، ، وان الدولة الادريسية كانت ملكية وراثية ، الا أنها لم تكن دولة شيعيـــة بالمعنى المعروف . وهي أن كانت كذلك فتكون شيعية زيدية أي من النوع المعتدل القريب من أهل السنة . ولهذا فهي في نظر الكتاب « الدولـــــة الهاشمية »[٥] . وهذا أمر طبيعي فالدولة الادريسية ظهرت فجأة ، دون تمهيد أو دعاية سابقة كتلك التي مهدت لقيام الدولة العباسية من قبل والدولة الفاطمية من بعد أو حتى بالنسبة لامامة تاهرت . وبناء على ذلك فهي لم تقم حسب مبادىء سياسية أو دينية معينة ، بل قامت على أكتاف رجل واحد يمثل هيبة الاسرة العلوية العظيمة ، كما يمثل مناقب آل البيت .

دخول ادريس المغرب – ما بين الحجاز ومصر والمغرب :

ومؤسس الاسرة هـــو ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[٦] أما عن سبب مسيره الى المغرب فهو اشتراكه في الثورة التي قام بها الحسنيون في مكة بقيادة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن (السبط) . والتي انتهت بالفشل بعد أن أوقع بهم العباسيون في موضع فخ ، أثناء موسم الحج سنة ١٦٩ هـ/يونية ٧٨٦م ، على أيام الخليفة

---

(٥) انظر ابن عذارى ... (ص ٢٠٨) . أما ما أشرنا اليه من أن صاحب كتاب الاستبصار يصف ادريس الثاني بالفاطمي (انظر الصفحة ...) فهي تسمية لا تحمل أكثر من معناها الأول ، وهو الانتساب الى فاطمة الزهراء ، ولا تعني مذهبا دينيا أو اتجاها سياسيا معينا كما سيحدث على أيام الفاطميين . وعن الزيدية انظر فيما بعده ص ٤٢٩ .

(٦) انظر البكري ص ١١٨ ، وابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٠ ، وقارن بابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ١ ترجمة رقم ١١ ص ٥٠ ، حيث ينقل عن الوكيل في ابن [illegible] حديثه ابن شهيد عن عبد الرحمن بن عبيد الليثي ، أن عبد الله والد ادريس كان شيخ بني هاشم في وقته ، وعن ادريس يقول ان أمه عاتكة بنت عبد الملك بن الحارث المخزومية . وان اخواه عيسى وسليمان معها .

البادي (٧) . فقد قتل الحسنيون في فخ قتلا ذريعا ولكن عددا منهم تمكن من الفرار ، ومن هؤلاء يحيى بن عبد الله الذي هرب نحو المشرق الى بلاد الديلم ونجح في اثارة أهل البلاد هناك على الخلافة ، الى أن تخلص منه الرشيد بالسياسة على يدي الفضل بن يحيى البرمكي (٨) . أما أشهر الفارين من وقعة فخ فهو ادريس بن عبدالله الذي اتجه نحو المغرب . ويضفي كتاب الأدارسة على بداية أمر أدريس لونا قصصيا طريفا ، تختلط فيه الحقيقة التاريخية بالرواية الشعبية ، والمثل لذلك كتاب روض القرطاس الذي يجمع فيه ابن أبي زرع هذه الروايات جنبا الى جنب ، وهدفه في ذلك اظهار مناقب أهل البيت .

خرج ادريس من الحجاز متخفيا بين قوافل الحاج السائرة نحو مصر ، وبصحبته أحد مواليه الذي يتصف بالشجاعة والعقل ، وهو راشد الذي يقال انه بربري الأصل ، وانه لهذا السبب اصطحب ادريس نحو المغرب ليثويه في قومه (٩) . والذي يفهم مما اتفق عليه الكتاب ان الفضل يرجع الى راشد هذا في وصول ادريس سالما الى المغرب الأقصى ، وكذلك في الدعاية له بين القبائل . وهذا أمر هام ليس بالنسبة لقيام دولة الادارسة فقط ، بل بالنسبة لمعظم الدول المغربية التي اقتطعها من الخلافة أمراء أتوا من المشرق، مثل الدولة الأموية في الأندلس التي تدين بقيامها الى مجهودات بدر مولى

---

(٧) أنظر الطبري ، أحداث سنة ١٦٩ . ابن الأثير ، أحداث سنة ١٦٩ ، ج ٦ ص ٣٦ — ٣٨ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦ ، البكري ، ص ١١٨ ، الاستبصار ، ص ١٩٤ ابن الأبار ، الحلة السيراء ج ١ ترجمة ١١ ص ٥١ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٣ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٨ (فجه بدلا من فخ) وص ١٢ (عجه) وج ٦ ص ١٤٧ (حيث القراءة الصحيحة (بلح) والترجمة ج ٢ ص ٥٥٦) . هذا ويلاحظ أن الأمر يختلط على بعض الكتاب فيجعلون اشتراك ادريس في ثورة محمد النفس الزكية في المدينة سنة ١٤٥ هـ/٧٦٢ م أو يجعلون ثورة محمد النفس الزكية في سنة ١٦٩ هـ (انظر المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٣٠٨ ، روض القرطاس ، ٤ ـ ٥ هـ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٠) .

(٨) انظر ابن الأثير ، أحداث سنة ١٧٦ هـ ج ٦ ص ٥٠ . ابن الأبار ، الحلة السيراء ج ١ ص ٥١ .

(٩) الاستبصار (رواية النوفلي) ، ص ١٩٤ ، وانظر البكري ص ١٢٢ ، والحلة السيراء لابن الأبار ج ١ ص ٥٣ ، حيث نجد رواية للنوفلي تقول ان داشدا كان مولى لأخي ادريس وهو عيسى بن عبد الله . وكذلك ص ٩٨ في ترجمة ابراهيم بن الأغلب .

عبد الرحمن بن معاوية (١٠)، والدولة الفاطمية التي تدين بقيامها في افريقية الى جهود أبي عبد الله الشيعي مولى عبيد الله المهدي (١١) ٠

والظاهر ان الخلافة كانت نشطة في تتبع آثار الحسنيين ، اذ سرعان ما عرف أمر ادريس والي مصر في ذلك الحين ، وهو علي بن سليمان العباسي (١٢) ٠ وتتفق معظم الروايات على أن الفضل في نجاة ادريس يرجع الى صاحب البريد في مصر . وهو واضح مولى صالح بن الخليفة المنصور ، الذي يسميه ابن خلدون بواضح المسكين ، وكان شيعي المذهب (١٣) ٠ وهذا لا يناقض رواية الكندي التي تقول صراحة ان والي مصر العباسي علي بن سليمان ، هو الذي سهل لادريس الخروج من مصر ، بعد أن علم بمكانه ولقيه سرا فسأله بالله والرحم الا ستر عليه فانه خارج الى المغرب (١٤) ، فلا بأس من صحة الروايتين جميعا اي اتفاق صاحب البريد الشيعي والوالي العباسي على ستر العلوي ، اذ تفسر رواية الكندي تستر العباسي على قريبه وعدوه العلوي بأنه ـ أي الوالي ـ كان طامعا هو الآخر في الخلافة ، وان ذلك كان سببا لعزل الرشيد له (١٥) ٠ وهذا ما تبينه رواية القرطاس التي تنص على أن علي بن سليمان أمن الرجل الشيعي الذي كان قد آوى ادريس وراشد ، وطلب اليه أن

---

(١٠) انظر كتاب أخبار مجموعة ، ص ٩٣ ، ٦٧ ، ٧٤ الخ ٠

(١١) انظر الاستبصار ، ص ٢٠٢ والهامش وما بعده ، اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الخلفا ، ص ٧٤ وما بعدها . وانظر فيما بعد ، ص ٤٤١ وما بعدها ٠

(١٢) انظر الكندي ص ١٣١ ـ ١٣٢ (ولايته من شوال سنة ١٩٦ هـ/ابريل ٧٨٦ م ، ايام الهادي ربيع الأول سنة ١٧١ هـ اغسطس ٧٨٧ م ايام الرشيد) ٠

(١٣) انظر البكري (الذي ينقل روايه النوفلي) ص ١٢١ ، ابن الأثير ، أحداث سنة ١٦٩ هـ ج ٦ ص ٣٨ ابن عذاري، ج١ ص ٨٣ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٧ ، ١٢ والترجمة ج ٢ ص ٥٥٩ . الحلة السيراء لابن الأبار ، ج ١ ص ٥١ ـ ٥٢ ، وقارن روض القرطاس (ص ٥) الذي يسجل رواية البكري (ص ١١٨ ـ ١١٩) التي تنفرد بتفصيلات طريفة ، منها : ان ادريس وراشد كان يجوبان شوارع الفسطاط فاستلفت نظرهما دار حسنة البناء والزخرف ، فدار حديث بينهما وبين صاحب الدار انتهى بأن عرف انهما من شيعة الحسنيين ، وعندما استوثق منه راشد عرفه بادريس فاتضح ان الرجل من الشيعة فاحسن مثواهما ٠ ولا بأس من ان يكون الشيعي هو واضح صاحب البريد ، هذا ولا يذكر الكندي شيئا من أمر شغل واضح لوظيفة صاحب البريد ، ولكنه يذكر انه ولي مصر مدة تبلغ ثلاثة اشهر من سنة ١٦٢ هـ/٧٨ ـ ٧٧٩ م (انظر الكندي ، ص ١٢٩) ٠

(١٤) الكندي ، الولاة ، ص ١٣٢ ، وقارن البكري ، ص ١١٩ ٠

(١٥) الكندي ، الولاة ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ ٠

يخرجا من عمه . ولو أنها تفسر ذلك بأن الوالي كان لا يحب اراقة دم أهل البيت (١٦) .

هكذا دبرت مؤامرة على مستوى عال — كما يقال — لهربه ادريس نحو المغرب . ويفهم من رواية البكرى وابن عذارى أنه تقرر أن يخرج راشد من مصر ويتخذ الطريق العام مع قوافل الحاج والتجار (الرفقة) ، بينما يسير ادريس مع واضح في « طريق غامضة » — نعتقد انها خاصة بالبريد — على أن يكون لقاؤهم في برقة (١٧) . وفي برقة اطمأن واضح على سلامة ادريس وراشد فودعهما بعد ما أمدهما بما يلزمهما من مال ومتاع . والظاهر أنه تم الاتفاق على أن يتخفى ادريس في زي خشن ، ويظهر بمظهر غلام في خدمة راشد (١٨) . وهنا تختلف الروايات في تحديد الطريق الذى اتخذه ادريس وراشد . ونحن نميل الى الاخذ بالرواية التى ينقلها البكرى وصاحب الاستبصار ، والتى تقول ان راشد لم يدخل بلاد افريقية (خشية عمال الخلافة لدى المهلبيين) ، وأنه سار به الى بلاد البربر (١٩) (أي التى لا تخضع لامير القيروان) . وبعد أن استراح ادريس بتلمسان عدة أيام خرج به راشد نحو المغرب ، فعبرا وادى ملوية ودخلا بلاد السوس الأدنى ، حيث أقاما بعض الوقت فى طنجة التى كانت يومئذ أعظم مدن المغرب الأقصى (٢٠) ، وذلك قبل أن يستقر فى مدينة وليلى ، كما يتفق على ذلك معظم الكتاب (٢١) ، بعد رحلة استغرقت حوالى سنتين (٢٢) .

---

(١٦) روض القرطاس ص ٦ .

(١٧) البكرى ، ص ١١٩ ، روض القرطاس ص ٦ .

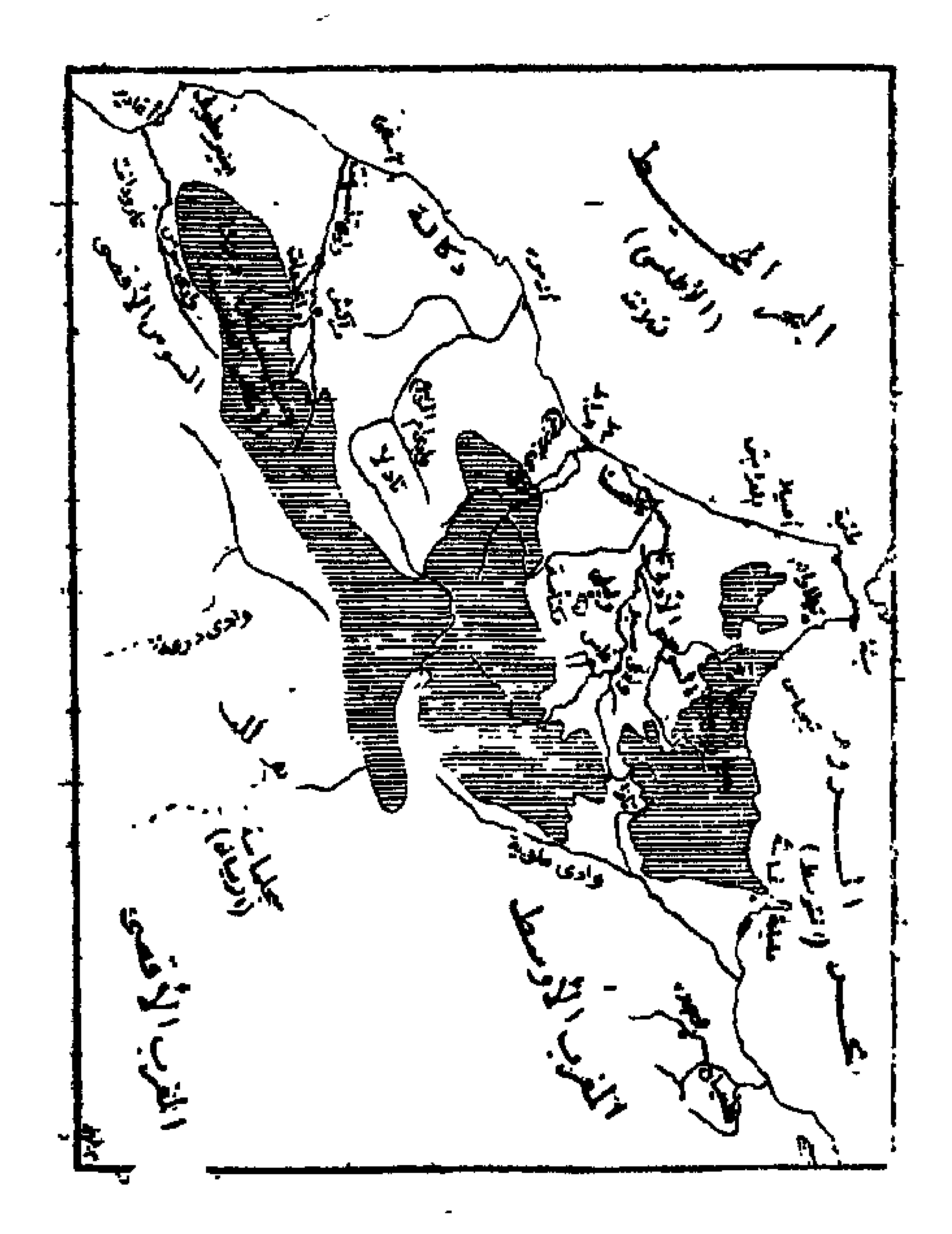
(١٨) البكرى ، ص ١١٨ ، الاستبصار ، ص ١٩٤ .

(١٩) البكرى ، ص ١١٩ ، الاستبصار ، ص ١٩٤ . أما روض القرطاس (ص ٦) فيقول ان راشد دخل بادريس القيروان حيث أقام بها مدة وأنه احتال لذلك بأن ألبس ادريس ثيابا خشنة وصيره كالخادم له خوفا عليه في ذلك الوقت .

(٢٠) القرطاس ، ص ٦ .

(٢١) البكرى ، ص ١١٨ ، الاستبصار ، ص ١٩٤ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ٥٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٣ (وليلة) ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٧ (وليل) ، (« ولية » وصحتها « وليلة ») . انظر شكل ٧ ، ص ٤٢٧ .

(٢٢) أيضا القرطاس (ص ٦) الذى يقول انه نزل وليلى في غرة ربيع الأول سنة ١٧٢ هـ / ٩ أغسطس ٧٨٧ م . وقارن الحلة السيراء (ج ١ ص ٥٤) حيث نجد رواية أبى بكر الرازى التى تقول ان ادريس بن عبد الله دخل المغرب سنة ١٧٢ هـ فى شهر رمضان . البكرى ، ص ١١٨ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٧ (سنة ١٧٦ خطأ) وص ٧٢ (سنة ١٧٢) ج ٦ ص ١٤٧ . وقارن ابن عذارى الذى يقول (ج ١ ص ٨٢) ان دخول ادريس =



شكل (٧)

المغرب الأقصى

النزول في وليلي :

ورغم ما يقوله صاحب القرطاس من أنه لما لم يجد ادريس بطنجة مراده رجع مع مولاه راشد حتى نزل مدينة وليلي ، فانا نعتقد أنه لم يضيع وقته سدى في عاصمة المغرب الأقصى بل أخذ يستقصي أخبار القبائل ، ويعرف ما هي عليه من الرأي ومن القوة الى أن اهتدى الى قبائل وليلي . ووليلي مدينة قديمة (Volubilis) تقع على طرف جبل زرهون (٢٣) ، بين فاس ومكناسة حاليا (٢٤) . وهي عاصمة تلك المنطقة الغنية بخصبها وكثرة مياهها وزروعها ، والتي كانت تسكنها قبائل أوربة البرنسية في ذلك الوقت(٢٥) . وأوربة هي التي رأيناها في المغرب الأوسط تعترض عقبة بن نافع بزعامة رئيسها كسيلة وتقتله قرب تهودة ، والظاهر ان القبيلة غيرت مواطنها بعد الحملات التأديبية التي قام بها العرب ضدها فسكنت السوس الأدنى ، فيمابين وادى ملوية ووادى ام الربيع (٢٦) .

ونزل ادريس في وليلي على زعيم أوربة وهو سحق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي ، الذي أكرمه وأحسن وفادته (٢٧) . وتصف بعض

= المغرب كان سنة ١٧٠ هـ/٨٦ — ٨٨٧ م ، ولكننا نعتقد انه يقصد بذلك خروجه من مصر الى المغرب ، اذ أنه يجعل اجتماع القبائل على ادريس في سنة ١٧٢ هـ/٧٨٧ م (ج ١ ص ٨٣) .

(٢٣) أنظر الجزنائي زهرة الآس (نشر الفرد بيل ، الجزائر ١٩٢٢) ، ص ٩ — حيث يقول « وهذه البلدة قديمة البناء — من بنيان القبط . وهي مسرونة الآن تفسر فرعون من أرض أولاد تعلو — كان لها سور عظيم قد بقي بعضه » .

(٢٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤٧ والترجمة ج ١ ص ٢٩٠ ، وانظر شكل ٧ ص ٤٢٧ .

(٢٥) البكري ، ص ١١٨ ، الاستبصار ، ص ١٩٤ . القرطاس ، ص ٦ .

(٢٦) تعني السوس الأدنى (وحده من وادى ملوية الى وادى ام الربيع) أنظر القرطاس ، ص ٦ . وعن سكنى أوربة المغرب الأقصى بعد هزيمتهم أمام زهير بن قيس أنظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٤٧ والترجمة ج ١ ص ٢٩٠ .

(٢٧) الاستبصار ، ص ١٩٤ ، ابن خلدون (عن تاريخ اوربة) ج ٦ ص ١٤٧ والترجمة ج ١ ص ٢٩٠ ، وعن الأدارسة ، ج ٤ ص ٧ — ١٢ والترجمة ج ٢ ص ٥٥٩ (والاسم في الترجمة أبو ليل اسحق ، ولا نعرف ان كان المترجم اخطأ فجعل كلمة بوليل = بوليلة » أى بمدينة وليلي كنية للزعيم الأوربي (? Abou Laila = Bou Laila) . اذ الحقيقة ان البكرى يكنيه خطأ بأبي ليل (ص ١٢٢) القرطاس ، ص ٦ — ٧ (يسميه عبد الحميد الأوربي) .

بالنصوص الزعيم الاوربي بأنه كان معتزلي المذهب (٢٨) • ونحن لا نعرف ماذا يعني بالاعتزال هنا اذ لا نعرف للاعتزال أصولا سياسية الليم ألا اعتزال الأوائل الفتنة ، وموقفهم منها موقف الحياد ، ثم مشاركة القدرية في بعض الاضطرابات السياسية على أواخر أيام الأمويين في عهد هشام والوليد بن يزيد ، وكذلك على أيام الأمين عندما أثاروا محنة خلق القرآن ، الى جانب أصول الاعتزال المذهبية المعروفة من التوحيد والعدل والوعد والوعيد والأمر بالمعروف (٢٩) • ولو كانت هذه الأصول هي المقصودة ، لكان ذلك يعني ان الحركات الفكرية التي ظهرت في مركز الخلافة في المشرق كان لها صداها البعيد — ليس في القيروان فقط ، كما سبقت الاشارة (٣٠) ، بل وفي قلب بلاد البربر التي يقول بعض الكتب ان كثيرا من قبائلها كانت — وحتى ذلك الوقت — على المجوسية واليهودية والنصرانية ، كما سنرى • وربما كان المقصود بالمعتزلة هنا تلك الطائفة من الخوارج التي يسميها البكري بالواصلية وينص على انها اباضية ، كما سماها كتاب الاباضية صراحة بالمعتزلة (٣١) • اذ الحقيقة انه يوجد نوع من القرابة أو التوافق بين افكار المعتزلة وأفكار الخوارج (٣٢) •

وحسب الأصول الفنية التي يعرفها الدعاة لم يظهر راشد دعوة سيده في أول الأمر ، اذ تقول رواية الاستبصار ان ادريس وافق اسحق بن محمد على مذهبه المعتزلي (٣٣) • وهذا ما يعبر في نظرنا عن بداية التوافق بين الفكر الشيعي الزيدي وبين مبادىء الاعتزال التي أضيف اليها رأي الزيدية في الامامة • ولما كان ذلك النوع من الاعتزال السياسي قد ظهر لدى الخوارج الاباضية ، فيمكن القول ان الاعتزال امتزج بأحزاب المعارضة مع مطلع الدولة العباسية ، قبل ان يصبح مذهب بغداد الرسمي على أيام المأمون •

---

(٢٨) البكري ، ص ١١٨ ، الاستبصار ، ص ١٩٤ ، القرطاس ، ص ٦ •

(٢٩) عن أصول الاعتزال ، انظر المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٢٤ •

(٣٠) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٨٧ ، ٣١٨ — ٣١٩ ، ٣٦٩ •

(٣١) انظر فيما سبق ، ص ٤٢٢ هـ ٤ •

(٣٢) انظر فيما سبق ، ص ٢٧٥ وص ٣١١ ، وانظر فيما سبق في امامة تاهرت ، ص ٢٨٩ ، عن الواصلية والمعتزلة ، ومن أصول الخوارج التي تتناول التوحيد والوعد والوعيد وهي من أصول المعتزلة ، انظر المسعودي ، ج ٣ ص ١٤٦ • ومن آراء اباضية المغرب في مسألة الصفات ودحض آراء الاشعرية في عدم خلق القرآن ، وكذلك في الوعد والوعيد ، انظر :

Allouche, Deux épitres de théologie abadites, Hespéris, t. 22, 1936, fasc. I, p. 57.

(٣٣) البكري ، ص ١١٨ ، الاستبصار ، ص ١٩٥ •

بيعة ادريس :

ومع مرور الوقت أظهر ادريس امره للزعيم الأوربي وأعلن أحقيته في الامامة ، فوافقه دون تردد • وبطبيعة الحال كانت هذه فرصة مواتية لاسحق: فنزول أحد زعماء العلويين عليه كان يعلي من شأنه بين أفراد قبيلته . كما كان يحقق له نوعا من التفوق على زعماء القبائل الأخرى • وهكذا نزل ادريس في منزله ، وتولى اسحق خدمته بنفسه ، وذلك في أول ربيع الاول من سنة ١٧٢ هـ / ٢٠ اغسطس ٧٨٧ م - وجمع أسحق زعماء اوربة وعرفهم بادريس وبنسبة فاستقبلوه بالترحاب وقالوا : « الحمد لله الذي أتى به وشرفنا بجواره ، فهو سيدنا ونحن عبيد نموت بين يديه » • وانتهى الأمر بأن بايعوا لادريس بالامامة ، وذلك في منتصف رمضان سنة ١٧٢ هـ/١٥ فبراير ٧٨٩ م (٣٤) ، فكان ذلك بداية الدعوة العلوية الأولى بالمغرب الأقصى• وتبع ذلك حركة دعاية بين قبائل الأقاليم المحيطة ، فدخلت في دعوة الامام ادريس قبائل زناتة وزواغة وزواوة ولماية وسدراتة ومسراتة وغياثة ونفزة ومكناسة وغمارة ، كما قصد اليه الناس من كل مكان (٣٥) •

العمل الايجابي :

بانضمام كل هذه القبائل الى الدعوة العلوية بدأت المرحلة الايجابية في تاسيس الدولة الادريسية ، وذلك حسب الأهداف التي اخذ الامام على عاتقه القيام بها والتي تتفق مع رسالة آل البيت ، وهي العمل على نشر الاسلام والجهاد في سبيل الله • أما عن مجال هذا العمل فكانت الاقاليم التي لم ترسخ أقدام الاسلام فيها بعد أو التي عرف أهلها بالزيغ والانحراف العقيدة •

الصراع ضد بني طريف ملوك برغواطة في تامسنا :

وحق للامام ومستشاريه أن يختاروا اقليم تامسنا — حيث قبائل برغواطة — للقيام بأول نشاط لهم • فلقد عرف اقليم تامسنا بميوله الانفصالية وانحرافاته العقائدية منذ وقت مبكر ، ولسبب هذا الانحراف

---

(٣٤) القرطاس ، ص ٨ • ابن ابي دينار ، المؤنس ، ص ١٩ (في رمضان سنة ١٧٢) ، وقارن ابن عذاري (ج ١ ص ٨٣) الذي يحدد السنة فقط (١٧٢ هـ/٨٨ — ٧٨٩ م) •

(٣٥) القرطاس ص ٧ وقارن بن خلدون ، ج ٤ ص ١٢ ج ٦ ص ١٤٧) الذي يذكر قبيلة مسراتة في شكل سراتة بينما يذكرها القرطاس في شكل مزاورة •

الى قبائل الاقليم فعرفت بزندقة برغواطة » · ولقد كانت زندقة برغواطة هذه ، مثل كثير من الحركات السياسية والدينية في المغرب ، وليدة الحركة الخارجية الصفرية الأولى · فبعد القضاء على ثورة ميسرة تفرق أصحابه في البلاد ، ولجأ أحدهم ، ويسمى طريف ــ والظاهر انه طريف بن ملوك الذى بدأ بأول غارة على ساحل الأندلس قبل طارق بن زياد ، والذى سميت باسمه جزيرة طريف (طريفة) (٣٦) ــ الى بلاد تامسنا التى كانت ملكا لقبائل زناتة وزواغة (٣٧) ، وذلك على ساحل المحيط فيما بين مصبى بورجرج (وادى سلا) وأم الربيع ، وهناك تزعم بربر المنطقة الذين عرفوا من حينئذ باسم برغواطة (٣٨) ·

ويقول الكتاب نقلا عن الرواية البرغواطية التى ترجع الى زمور بن موسى بن هشام بن وارد يزن رسول ملك برغواطة (أبى منصور عيسى بن أبى الأنصار عبد الله فى سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م ان طريفا كان على دين الاسلام ، ولكن ابنه وولى عهده ، صالح بن طريف (ولد سنة ١١٠ هـ/٧٢٨ ــ ٧٢٩ م) ، انحرف فتنبأ فيهم وسمى نفسه « صالح المؤمنين » ، كما يقولون ــ أكثر من هذا ــ انه شرع لهم ديانة جديدة · وأوصى صالح ابنه الياس ان

---

(٣٦) انظر البكرى ص ١٣٥ (حيث النص على أن طريفا كان من اصحاب ميسرة ، واليه نسبت جزيرة طريف) ، ص ١٣٨ حيث يذكر فى هجاء برغواطة بيتا يقول فيه الشاعر :

فليس اليوم ردتكم ولكن — ليالى كنتم متميسرينا .

ويعلق قائلا : وهذا البيت يصدق قول زمور البرغواطى ان طريفا كان من أصحاب ميسرة ويشهد له · وقارن ابن خلدون ، ج ١ ص ٢٠٨ (يكنيه بأبى صبيح) ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٤ ، الاستبصار ص ١٩٧ (الذى يجعل طريفا يهودى الأصل من الأندلس) ، وانظر بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية ، بالفرنسية ، ص ١٣ ·

(٣٧) البكرى ، ص ١٣٥ ·

(٣٨) وفى تسمية برغواطة ينقل البكرى (ص ١٣٧ ــ ١٣٨) عن أبى العباس الفضل ابن مفضل بن عمرو المذحجى ان صاحب الزندقة الحقيقى اى اول من اظهرها ، وهو يونس ابن الياس بن صالح بن طريف ، ... أصله من شلونة ، منتسب الى بربط (بربياط) ... ولهذا السبب سمى من اتبعه برباطى ثم حرف الى لغتهم ، فقالوا : برغواطى · ــ ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٣ ، وقارن الاستبصار ، الذى يقول (ص ١٩٧) ان برابر تامسنا فى ذلك الوقت ، كانوا قوما جهالا من زناتة ، كما يقول ان الذى دخل عليهم هو صالح بن طريف ·

وعن الاجتهادات الحديثة فى تفسير اسم برغواطة بمعنى بربر بكوات (Baccuates) أى عباد باكوس (Bacchus) القدماء ــ انظر تفسير كلمة « باكوس » فى هـ ٤٥ ، ص ٤٣٣ ·

يظهر ديانته هذه عند ما يشتد أمره ، بينما وحل هو الى المشرق ، وقال انه سيعود بصفته المهدى الذى يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا(٣٩) . وهذا أمر له أهميته اذ يبين كيف شارك الخوارج خصومهم الشيعة في فكرة المهدى المنتظر ـ وهى من أفكار الشيعة الرئيسية ـ بعد أن شاركوهم عمليا في تطبيق فكرة الوراثة الملكية في نظام الحكم . ومن الناحية السياسية أمر صالح ابنه بموالاة أمير الأندلس ـ أى بمعنى موالاة الأمويين ومناهضة أمراء المغرب (٤٠) . وظل بنو صالح بن طريف يتداولون امارة تامسنا ويبسطون سلطانهم على قبائل برغواطة ، التى كانت تقدم لهم فى منتصف القرن الرابع الهجرى (١٠م) أكثر من ١٠ (عشرة) آلاف فارس (٤١) ، وعلى غيرها من القبائل التى كانت متمسكة بالاسلام نقيا خالصا ، والتى كانت تقدم لهم أكثر من ١٢ (اثنى عشر) ألف فارس (٤٢) واستمر بنو طريف فى انحرافهم وزندقتهم الى أن قامت عليهم قبائل بنى يفرن بقيادة الامير تميم اليفرنى فغلبهم على بلادهم بعد سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩ م ،وسباهم حتى « جلا من بقى منهم »(٤٣) . ولكنه رغم ما يقوله البكرى من أن تميما اليفرنى « استوطن ديارهم » ، وبذلك « انقطع أمرهم (٤٤) ، فالمعروف أن انحراف برغواطة ظل

---

(٣٩) البكرى ، ص ١٣٤ (ص زمور) ، ص ١٣٥ (حيث يقول النص ان موت صالح كان سنة ١١٠ هـ/٧٢٨ م (سنة ١٠٠ بعد وفاة النبى) وانه حضر مع أبيه حروب ميسرة وهو صغير ، أى فى سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م ، مما جعلنا نرجح أن تكون سنة ١١٠ هى سنة مولده ، ص ١٣٦ حيث يوسف اليامى الذى ملك ٥٠ سنة بالطهر والعفاف) ، الاستبصار ، ص ١٩٨ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٤ ، وقارن ابن خلدون (ج ٦ ص ٢٠٧) الذى يقول ان ظهور صالح كان فى خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٧ هـ وانه ملك مدة ٤٧ سنة .

(٤٠) انظر البكرى ، ص ١٣٥ ، الاستبصار ، ص ١٩٨ ، ابن عذارى ، ص ٢٢٤ ، ابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩ .

(٤١) انظر الرواية فى البكرى (ص ١٤٠ ـ ١٤١) حيث تقول : « ان قبائل برغواطة الذين يدينون لهم ، وعلى ملتهم : جروة ، وزواغة ، والبرانس ، وبنو أبى ناصر ، ومنجصة ، وبنو أبى نوح ، وبنو واغمر ، ومطغرة ، وبنو ورغ ، وبنو دمر ، ومطماطة ، وبنو وزكسيت ، وصدينة يجمعهم أزيد من عشرة آلاف فارس » .

(٤٢) انظر البكرى ، ص ١٤١ حيث تضيف الرواية الى برغواطة : « من يدين لهم من المسلمين ويضافوا الى مملكتهم : زناتة الجبل ، وبنو يليت ، وبالالة ، وبنو وارسيفة ، وبنو يفرن ، وبنو ناجيت ، وبنو النعمان ، ومطغرة الوسطى ، وبنو كوناة ، وبنو يسكر ، وأصادة ، ومكناسة ، وازمور ، ومنادة ، ومطماطة ، ورصافة ، وبزازلة ، ومبلغ عددهم نحو ١٢ (اثنى عشر) ألف فارس » .

(٤٣) البكرى ، ص ١٤١ .

(٤٤) البكرى ، ص ١٤١ .

قائما الى أن غزاهم المرابطون ، واستشهد فى بعض غزواتهم عبد الله بن ياسين سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٧ م (٤٥) .

---

(٤٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٩ . وعن بنى صالح بن طريف أمراء برغواطة انظر نفس المصادر . فبعد الياس بن صالح (ملك ٥٠ سنة) ولى يونس بن الياس لمدة ٤٠ سنة أو أكثر (٤٤ سنة) . وينسب الى يونس اظهار الزندقة و... : فلقد سار الى المشرق مع زيد بن سنان الزناتى صاحب الواصلية ، وعباس بن ناصح ، وبرغوث بن سعيد التراوى ، جد بنى عبد الرزاق المعروفين ببنى وكيل الصفرية (البكرى ، ص ١٣٧) ، ومناد صاحب القلعة المنادية ، قريبا من سجلماسة ، وغيرهم . وتفقه يونس فى الدين مع ثلاثة منهم وحفظ كل ما سمع ، وطلب علم النجوم والكهانة (البكرى ، ص ١٣٧ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٥ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٧ - ٢٠٨) وبعد يونس ولى أبو غفير محمد السلوك بالعنف والقسوة فى اخضاع خصومه ، لمدة ٢٩ سنة (الذى يجعله البعض ابنا ليونس - الاستبصار ، ص ١٩٨ - بينما يجعله البعض من فرع آخر من الاسرة فيسميه أبا غفير بن معاذ ابن اليسع بن صالح بن طريف (البكرى ، ص ١٣٦ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٤ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٠٨) . ثم ملك أبو الأنصار عبد الله بن أبى غفير ، الذى عرف بالسخاء والظرف والوفاء بالعهد (صاحب الاستبصار يسميه أبا جعفر حفص - ص ١٩٨) عند تمام المائة الثالثة (سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) ، ودام ملكه مدة ٤٣ سنة قضاها فى دعة . ثم أبو منصور عيسى بن أبى الأنصار (سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م) وهو السابع من أهل بيت صالح بن طريف ، وكان يظن وجهته حسب فكرة المهدى المنتظر عن الشيعة على أيام هذا الأمير ، الذى راسل المستنصر بالله الأموى فى سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م ، وذلك جريا على السنة التى استنها جدهم صالح بن طريف (البكرى ، ص ١٣٧) .

ويروى الكتاب أخبارا غريبة عن انحراف أبناء صالح بن طريف وقومهم برغواطة : من التنبى وتحريف أصول الاسلام ، وابتكار لآيات من القرآن . ونعتقد أن فى ذلك كثيرا من المبالغة من الكتاب الذين يخدمون أغراضا مذهبية وسياسية معادية لبنى طريف . وهذا لا يمنع صحة بعض تلك الانحرافات الخاصة بالصلاة والوضوء والصوم والزكاة أو بعض الرخص الخاصة بالزواج والطعام واقامة الحدود ، وذلك تبعا للظروف البيئية المتغيرة ، من اجتماعية واقتصادية ونفسية الى غيرها من العادات والتقاليد المتوارثة . ونعتقد أن الأصل فيما نسب اليهم من التحريف هو أنهم كانوا يؤدون شعائر الدين بالبربرية ، كما أنهم ترجموا القرآن الى لغتهم هذه . من هذا ما يقال من أنهم كانوا يقولون « مقر ياكش » وتفسيره « الكبير الله » - أى « الله أكبر » على ما نظن . كما كانوا يقولون « أيسمن ياكش » تفسيره « بسم الله » و « ايحن ياكش » وتفسيره « الواحد الله » ، و « وردام ياكش » ومعناه « لا أحد مثل الله » ونظن أنها ترجمة لـ « لم يكن له كفوا أحد » ، مما يعنى أن هذه العبارات من ترجمة سورة الاخلاص . انظر البكرى ، ص ١٣٨ - ١٤٠ ، الاستبصار ، ص ١٩٩ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٧ . وعن ياكوش (ياكش) الذى ظن دوسلان (De Slane) أنه باكوس (الاله الخمر (Bacchus)) ، والذى يقول باسيه (Basset) ان معناه حقيقة « المعطى » أو « الباطن » أو « الوهاب » ، وانظر ج . مارسى (G. Marcy) الذى حاول - على غير أساس مقنع فى رأينا - أن يقول انه « يسوع » . يعنى المسيح عيسى (يسوع _ Jezus) .

G. Marcy, Le Dieu des Abadites et des Bargwata, Hesperis, t. 22, 1936, fasc. I, p. 33 et suiv.

فتح تامسنا :

جمع ادريس جيشا من زناتة وأوربة وصسباحة وهوارة وسار بهم نحو مدينة شالة (شلة ـ شلا) ، وهى مدينة سلا القديمة ، قبالة مدينة الرباط (رباط الفتح) الحالية على الضفة الأخرى من مصب النهر ، ففتحها ثم جول في كل بلاد تامسنا فأخضعها . وأتبع ادريس ذلك باخضاع اقليم تادلا . وفتح حصونه وقلاعه ، وأدخل أهل البلاد فى الاسلام ، وكانت جماعات منهم على دين النصرانية واليهودية ، كما يفهم من رواية ابن أبى زرع(٤٦) . والظاهر أن ادريس قام بهذه الحملة بعد أن بايعته القبائل مباشرة ، اذ أنه عاد الى وليلى فى آخر شهر ذى الحجة من سنة ١٧٢ هـ/آخر مايه ٧٨٩ م (٤٧) . ولم يمكث ادريس فى وليلى الا ريثما يستريح رجاله ثم انه خرج لغزو بقايا المجوس والنصارى واليهود من البربر . فهدم الحصون وخرب المعاقل ، وأدخل العصاة طوعا وكرها فى الاسلام . وتم له فى هذه الغزوة الثانية اخضاع قبائل فندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة ، كما أخضع أهل بلاد فازاز ، ورجع الى وليلى فى منتصف جمادى الثانى سنة ١٧٣ هـ/١٠ أكتوبر ٧٨٩ م (٤٨) .

فتح تلمسان وبناء جامعها :

ولم يسترح ادريس الا مقدار شهر واحد ، اذ خرج من وليلى فى منتصف رجب سنة ١٧٣ هـ/نوفمبر ٧٨٩ م متجها نحو تلمسان ، بالمغرب الأوسط مارا بمدينة سبتة التى وصلها فى شهر شعبان التالى من نفس

---

(٤٦) انظر روض القرطاس ، ص ٧ . ونعتقد أن ابن أبى زرع يبالغ عندما يقول ان أكثر هذه البلاد كان على دين النصرانية ودين اليهودية ، والاسلام بها قليل ، وذلك بعد ثمانين عاما من دخول موسى بن نصير الى المغرب الأقصى . وانظر البكرى (ص ١١٨) الذى يشير فقط الى فتح تازى فى جمادى الثانى سنة ١٧٤ هـ/أكتوبر ٧٩٠ م ، ويقول : وهو موضع من أعمال بنى الباقية . والحقيقة أنه اذا كان البكرى (ص ١١٣) يصف بعض المواضع التى تسمى قبالكنيسة على طول الطريق ما بين سبتة الى فاس ، مما يعنى بقايا ذكريات لمعابد قديمة أو كنائس فى المنطقة ، فالظاهر أن رواية ابن أبى زرع تريد أن تمجد الامام ادريس وتضخم أعماله (انظر فيما بعد ج ٢ ص ٤٢٥) . وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢ والترجمة ج ٢ ص ٢٠ وتعليقه .

(٤٧) القرطاس ، ص ٢٠٧ .

(٤٨) القرطاس ، ص ٧ ـ ٨ . وقارن ابن خلدون (عن الأدارسة) ج ٤ ص ١٢ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٠ ، وابن عذارى (ج ١ ص ٨٤) الذى يضيف الى ذلك غزو ادريس للسوس الأقصى ودخوله مدينة نفيس .

السنة/ديسمبر ٧٨٩م (٤٩) . وكانت بتلمسان قبيلتا مغراوة وبنو يفرن الزناتيتان ، والسيادة للقبيلة الأولى وزعيمها محمد بن خزر بن صولات المغراوى . وكانت هيبة الامام العلوى كافية لخضوع محمد بن خزر دون قتال: اذ اسرع بطلب الامان وبايع لادريس هو ومن معه من قبائل زناتة بالامامة. وبذلك دخل الامام تلمسان صلحا ، وكان أهم عمل قام به هناك هو بناء مسجد المدينة الجامع ، وصنع منبر جميل كان يحمل نقشا يحدد تاريخ انشائه ، وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به ادريس بن عبد الله بن حسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وذلك فى شهر صفر سنة ١٧٤ (يونية — يوليه ٧٩٠م) (٥٠) . وهذا يعنى أن ادريس اقام فى تلمسان الى سنة ١٧٤ هـ ثم انه عاد الى وليلى . والظاهر أنه مر فى طريق عودته بمنطقة تازا التى وصلها فى جمادى الآخرة من نفس السنة (١٧٤هـ/ أكتوبر ٧٩٠ م) حيث اطاعته القبائل هناك ، كما يقول ابن عذارى الذى يضيف انه كملت له الامارة فى هذه السنة (٥١) .

وفاة ادريس الأول :

ويفهم من رواية القرطاس ان توجيه ادريس لأنظاره نحو المشرق من وليلى — بفتح تلمسان — أثار ذعرا لدى الخلافة بالمشرق . فابن ابى زرع يقول ، انه اتصل بالرشيد أن ادريس قد استقام له أمر المغرب وأنه عزم على غزو افريقية ، وان الرشيد اغتم لذلك غما شديدا ، فأرسل الى وزيره يحيى ابن خالد البرمكى ، وقال له : « ان ادريس ملك تلمسان وهى باب افريقية ، ومن ملك الباب أوشك أن يدخل الدار »(٥٢) . وفكر الخليفة فى أن يرسل جيشا لمحاربة العلوى لولا بعد الشقة ، ولكن البرمكى أشار عليه باستخدام الدهاء فى التخلص من ادريس — كما تخلص من واضح الذى سهل له الهرب فقتله(٥٣) . ووكل الرشيد الى وزيره تدبير الأمر ، فاشترى يحيى

---

(٤٩) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٠٠ .

(٥٠) روض القرطاس ص ٨ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢ والترجمة ، ج ٢ ص ٥٦٠ .

(٥١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٤ ، وانظر الحلة السيراء لابن الأبار (ج ١ ص ١٠٠ ــ ترجمة ابراهيم بن الأغلب) ، البكرى ، ص ١١٨ .

(٥٢) القرطاس ، ص ٨ .

(٥٣) البكرى ص ١٢٢ ، الحلة السيراء لابن الأبار ، ج ١ ص ٥٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٣ .

ابي خالد أحد شيعة العلويين ، وهو سليمان بن جرير الشماخ ، الذي كان
زيديا متعصبا لآل ابي طالب ، وسيره الى المغرب . وتمكن الرجل من التقرب
من ادريس وهو يتربص به الى أن تهيأت له الفرصة بغياب راشد ، فسمه
ثم هرب وأفلت من المطاردة فلم يصبه من سيف راشد سوى ضربة كتعت يده
وأخرى شجت رأسه ، ونجح في العودة الى بغداد (٥٤) .

ومن الجائز أن تكون قصة اغتيال ادريس بهذا الشكل غير صحيحه ،
كما يرى جوتييه (٥٥) . فالروايات لا تختلف فقط في الطريقة التي سم
بها ادريس (٥٦) ، بل هناك روايات أخرى لا تنسب تدبير ذلك الى الرشيد
ويحيى بن خالد البرمكي فقط ، بل تشرك فيه ابراهيم بن الأغلب بصفته والي
افريقية والمغرب (٥٧) . وبناء على ذلك فليس من الغريب ان يكون أنصار
ادريس وشيعته قد أرادوا له أن يموت شهيدا بدلا من حتف أنفه ، ففي
ذلك استدرار لعطف الجماهير على الأسرة العلوية التي يهدر دم أفرادها غدرا
في المغرب بعد أن أريق ظلما في المشرق . هذا ، كما يمكن أن يكون الأمر
من نسج خيال كتاب العباسيين أنفسهم ، الذين جعلوا من الرشيد — فيما
بعد — شخصية أسطورية تحيطها هالات من الغرائب والعجائب . فالرشيد
يستطيع ، وهو جالس في قصر الخلفاء على ضفاف دجلة ، التخلص من

---

(٥٤) انظر البكري ، ص ١٢٠ — ١٢١ (ثلاث ضربات) ، الاستبصار ، ص ١٩٦ ،
القرطاس ص ١٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٣ ص ٥٦١ .

(٥٥) جوتييه ، ماضي شمال افريقية (بالفرنسية) ، ص ٣٠٠ .

(٥٦) تختلف الروايات في أمر الطريقة التي سم بها الشماخ الامام ادريس . وتقول
رواية انه دفع اليه قارورة فيها غالية مسمومة (البكري ص ١٢٠ ، الاستبصار ، ص ١٩٥ ،
القرطاس ، ص ٩ — ١٠) . وتقول رواية ثانية انه سمه في دلاعة أو تفاحة قطعها بسكين
وأعطاه النصف الذي يلي الجهة المسمومة من السكين (البكري ، ص ١٢١ ، الاستبصار ،
ص ١٩٥) . وتقول رواية ثالثة ان الشماخ انتحل الطب فلما شكا ادريس وجعا في أسنانه
أعطاه سنونا مسموما (البكري ، ص ١٢١ ، ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٨٣ ، ابن خلدون ، ج ٤
ص ٧ ، ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٠) . ويأتي صاحب الحلة السيراء (ج ١ ص ٥٣)
برواية اضافية يقول فيها انه سمه في سمكة مشوية (وانظر كذلك ترجمة ابراهيم بن الأغلب
ج ١ ص ٩٨ — ٩٩ م) .

(٥٧) يقول ابن خلدون (ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٠) ان الشماخ حمل رسالة
من الخليفة الى ابن الأغلب الذي جهزه (وانظر ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ٩٩) . أما عن
الرواية التي ينقلها ابن الأبار في الحلة السيراء (ج ١ ص ٩٠ — ٣٠٠ — ترجمة ابراهيم =

عدوه العلوي في أقصى المغرب ناهون الأسباب (٥٨) .

٢ - ادريس الثاني (بن ادريس) - مولده وطفولته :

وتتفق الروايات على أن ادريس بن عبد الله لقي حتفه في سنة ١٧٥ هـ/ ٩١ - ٧٩٢ م ، بمعنى انه ولى ثلاثة أعوام ونصف عام (٥٩) ، لم يشذ عن ذلك الا صاحب روض القرطاس الذي جعل موت ادريس في أول شهر ربيع الثاني من سنة ١٧٧ هـ/٢٦ يولية ٧٩٢ م(٦٠) ، بمعنى انه ولى خمسة أعوام وسبعة أشهر ، هذا ولو أنه يورد التاريخ الأول بعد ذلك (٦١) . ودفن ادريس

= ابن الاغلب) فتقول ان الشماخ بعد ان قام بمهمته في سم ادريس قدم على ابراهيم بن الاغلب وأخبره بما فعل ، فكتب ابراهيم الى الرشيد بذلك ، فولى الشماخ بريد مصر وأجازه . ولقد وجد ابن الأبار خطأ في الحلة السيراء (ج ١ ص ١٠٠) رواية بعض قدامى الكتاب ممن تنبه الى هذا التضاد التاريخي فنص على أن ابراهيم بن الاغلب هو الذي دس بعض أصحابه - أثناء ولايته للزاب - لاغتيال ادريس ، ففعلوا وبعثوا الى ابراهيم برأسه . وتضيف تلك الرواية : ان ابراهيم أخبر ابن العكي (والى افريقية حينئذ) بالأمر فنسب العكي ذلك الى نفسه وكتب الى الرشيد به لولا ان أخبره صاحب البريد بما قام به ابراهيم ، فكان ذلك سببا في عزل العكي وتولية ابن الأغلب افريقية . وليس من الغريب أن يكون الرشيد قد أخبر واليه على افريقية بما كان يدبره لادريس ، وأن يطلب منه تقديم العون له ، وهذا ما ينص عليه الطبري (أخبار سنة ١٦٩) وان كان يجعل كتاب الرشيد الى ابراهيم بن الاغلب . والمعروف ان ابراهيم بن الأغلب لم يل افريقية الا في سنة ١٨٤ هـ/٨٠٠ م ، وانه كان قبل ذلك واليا عن الزاب . أما والى افريقية في الوقت الذي توفي فيه ادريس فكان نصر بن حبيب المهلبي (من رمضان سنة ١٧٤ هـ/فبراير ٧٩١ م الى المحرم من سنة ١٧٧ هـ/ابريل ٧٩٢ م) .

(٥٨) وهذا ما يعبر عنه بعض شعراء العباسيين في شعر نقله الطبري ، وفيه يقول :

أتظن يا ادريس أنك مفلت   كيد الخليفة أو يقيك فرار

ملك كأن الموت يتبع أمره   حتى يقال : تطيعه الأقدار

(الطبري ، أحداث سنة ١٦٩) . وانظر الجزنائي ، زهرة الآس ، ص ٤٤ حيث يضيف كرامة للامام ادريس اذ يقول : « وظهر جسده بكفنه في سنة ٧١٨ هـ ، وازدحم الناس عليه من سائر أقطار المغرب حتى خيف الفتنة بسبب ذلك ، فبعث أمير المسلمين أبو سعيد ابن يعقوب بن عبد الحق - قلد الله أعماله - بتفريقهم وتحسيم الفتن من أجل ذلك ، كما وقفت عليه في أمر سلطاني يقضي بذلك » .

(٥٩) انظر البكري ، ص ١٢١ ، الاستبصار ، ص ١٩٦ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٠ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦١ ، الحلة السيراء لابن الأبار (ترجمة ابراهيم بن الأغلب ج ١ ص ١٠٠) : حيث يجعل وفاته في سنة ١٧٥ هـ/٧٩١ م ، ويضيف وقيل ، سنة ١٧٤ هـ/٧٩٠ م .

(٦٠) روض القرطاس ، ص ١٠ . والذي يلفت النظر أن صاحب هذه الرواية يجعل مولد ادريس الثاني في سنة ١٧٧ هـ (انظر ص ٤٢٨ وهـ ٧٢ ، ص ٤٣٩ حيث محاولة تعليل ذلك) .

(٦١) روض القرطاس ، ص ١٠ (رواية النوفلي وابن الأثير)

باقرب من وليلي ، وشغرت الامامة بعده ، اذ أنه لم يترك وريثا . ولم تستمر الامامة شاغرة الا لمدة أشهر، اذ كان ادريس قد ترك جارية لبعض البربر ، تسمى كنزة ، حبلى . فيجمع راشد رؤساء القبائل واتفق معهم على أن ينتظروا ماذا يكون من أمر الجارية ! فان وضعت ولدا كان وريث والده ، وان كان المولود جارية أمروا على أنفسهم من أرادوا (٦٢) . ويظن جوتييه أن ذلك لم يكن الا مناورة من راشد أو من رؤساء القبائل ، وانه كان من الطبيعي أن يكون المولود ذكرا ، ولو جاء جارية لكان من الممكن تدبير الأمر — أي استبدال ولد بالجارية (٦٣) . وهو في ذلك يرى ان البربر كانوا في حاجة الى امام له من الهيبة (البركة) ما يملي احترام سلطانه على الجميع (٦٤) . ومع وجاهة هذه الفكرة ، فنحن لا نستطيع أن نخوض في احتمالات قصصية جديدة لذ يكفنا مدخل الروايات التاريخية من الأساطير التي تجعل الوصول الى الحقيقة من الصعوبة بمكان (٦٥) .

والمهم ان زعماء القبائل استمعوا الى رأي راشد الذي أخذ على عاتقه ادارة الأمور ، فكان يصلي بالناس ويحكم بينهم (٦٦) . وبعد شهرين من وفاة ادريس وضعت كنزة غلاما سمي باسم والده تيمنا ، فهو ادريس بن ادريس (٦٧) ، أو هو ادريس الأصغر ، كما يسميه ابن خلدون (٦٨) . وظل راشد يشغل

---

(٦٢) القرطاس ، ص ١٠ — ١١ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ (الذي يقول ان اوربة بايعوا ادريس الاصغر « حملا ثم رضيعا ثم فصيلا الى ان شب ») .

(٦٣) جوتييه ، ماضي شمال افريقية (بالفرنسية) ، ص ٣٠٠ .

(٦٤) نفس المرجع .

(٦٥) والحقيقة انه توجد رواية يوردها البكري (ص ١٢٢) تثير موضوع العلاقة بين راشد وبين ادريس بن ادريس ، وتجعلها نوعا من التمني ، مما جعل بعض خصوم الأدارسة في المغرب يشيرون فعلا الى أن ادريس ابن ادريس هو ابن راشد حقا ، كما فعل محمد ابن السهري الذي قال شعرا يهجو به القاسم بن ادريس بن ادريس بقوله :

لما رأيناه للقسام مصطافيا ايقنت حقا ان جنتك راشد

(٦٦) أورد القرطاس ، ص ١١ ، البكري ، ص ١٢٢ ، الحلة السيراء ، لابن الأبار ، ج ١ ص ٥٣ ، ٣٠٠ .

(٦٧) انظر البكري (ص ١٢٢) الذي يجعل مولده في ربيع الآخر سنة ١٧٥ هـ / أغسطس ٧٦١ م ، وقارن القرطاس الذي يفسر سبب تسميته بادريس ، فيقول انه كان الشبيه التام بوالده ، حتى قالوا : هذا هو ادريس بعينه كأنه لم يمت . ويجعل ابن أبي زرع مولده في قرية اسمها كنزة (ولا نعرف ان كان ذلك صحيحا أم ان الأمر اشكل عليه فخلط بين اسم جدة الوليد واسم القرية) في ٣ رجب سنة ١٧٧ هـ / اكتوبر ٧٩٣ م (ص ١١) .

منصب الوصي ويرعى الغلام ، فأدبه أحسن الأدب وأقرأه القرآن - فحفظه الصغير وهو ابن ثمانية أعوام - وعلمه السنة والفقه والنحو والحديث والشعر، وأمثال العرب وحكمها وسير ملوكها ، كما دربه على ركوب الخيل والرمي بالسهام ومكايد الحروب (٦٩). "

إمامته :

وقدر لادريس أن يلي الامامة وهو صبي صغير لم يبلغ من العمر الا احدى عشرة سنة . ويتفق معظم الكتاب على أن تنصيب ادريس الثاني تم في سنة ١٨٨ هـ/٨٠٤ م (٧٠) ، رغم أنهم يقولون انه ولد عقب وفاة ادريس الأول في سنة ١٧٥ هـ/٧٩١ م . ولو صح ذلك لكان عمر ادريس الاصغر حينئذ حوالي ثلاثة عشر عاما وليس أحد عشر ؛ وهذا ما يظهر في رواية البكري وابن عذاري التي حددت ولاية ادريس بن ادريس بسنة ١٨٧هـ/٨٠٣ م ، وأضافت : « وهو ابن احدى عشر سنة » . ثم اتبع ابن عذاري ذلك بقوله : « وقيل أكثر من ذلك » (٧١) . ولهذا السبب نعتقد أن اجماع الكتاب على أن ادريس الثاني ولي الامامة وعمره احدى عشرة سنة هو الذي جعل صاحب روض القرطاس يحدد وفاة ادريس الأول بسنة ١٧٧هـ/٧٩٣م (٧٢)، حتى يصح الحساب . أما عن مشكلة التوفيق بين ما يكاد يجمع عليه الكتاب من أن ادريس الأصغر ولي الامامة في سنة ١٨٨ هـ/٨٠٤م ، وأنه كان له من العمر احدى عشرة سنة ، فنعتقد أنها مرتبطة بوفاة راشد مولى ادريس الأكبر؛ فرغم ما يقوله صاحب القرطاس - وينسبه الى البكري ، من أن راشد لم يمت حتى أخذ البيعة لادريس بالمغرب (٧٣) ، فان معظم الكتاب - ومنهم البكري نفسه (٧٤) - يتفقون على أن امامة ادريس الأصغر تمت بعد وفاة راشد ، وان اختلفوا في تحديد مدى ذلك . فصاحب القرطاس يقول ان راشدا قتيل

---

(٦٨) العبر ، ج ٤ ص ١٣ (الترجمة ج ٢ ص ٥٦١) .

(٦٩) القرطاس ، ص ١١ ، وانظر البكري ، ص ١٢٢ (رواية النوفلي : علي بن محمد ابن سليمان بن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - الذي ينقل عنه الطبري بعض أخبار العلويين - انظر الطبري ، سنة ١٦٩ ، ط . ذخائر العرب ، ج ٨ ص ٢٠٠) .

(٧٠) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦١ ، القرطاس ، ص ١٣ ، وانظر الاستبصار (ص ١٩٦) الذي يحدد بيعة ادريس بن ادريس بسنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ - ٨٠٨م .

(٧١) البكري ، ص ١٢٢ (يوم الجمعة ٧ ربيع الأول سنة ١٨٧ هـ/٥ مارس ٨٠٣ م) ، ابن عذاري ج ١ ص ٢١٠ .

(٧٢) انظر ص ٤٣٧ ، وص ٦٠ .

(٧٣) انظر القرطاس ، ص ١٣ .

(٧٤) انظر البكري (ص ١٢٢) الذي يجعل مقتل راشد سنة ١٨٦ هـ/٨٠٢ م .

بتدبير ابراهيم بن الأغلب قبل مبايعة ادريس الثاني ، وهو يحدد تلك البيعة بعشرين يوما بعد قتل راشد (في غرة ربيع الأول سنة ١٨٨ هـ/١٧ فبراير ٨٠٤ م (٧٥) • أما عن رواية الاستبصار فتزيد الأمر تعقيدا ، اذ تجعل بيعة ادريس بعد وفاة راشد ولكن في سنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ ـ ٨٠٨ م (٧٦) • أما ابن خلدون فيذكر ـ مثل غيره ـ ان بيعة ادريس بن ادريس كانت في سنة ١٨٨ هـ في مسجد وليلي ، وان الامام الصغير كان يبلغ من العمر احدى عشرة سنة ، وانه كان في رعاية ابي خالد بن يزيد بن الياس العبدي ، ولكنه يتبع ذلك بأن ابن الأغلب اغتال راشد قبل ذلك بسنتين (٧٧) •

والحقيقة انه يمكن أن نجد مفتاح المشكلة في رواية ابن خلدون هذه • فعلى أساسها يكون لادريس بن ادريس أحد عشر عاما عند وفاة راشد (في سنة ١٨٦ هـ/٨٠٢ م ، كما في البكري) ونعتقد انه كان من الطبيعي أن تبايعه القبائل بعد وفاة مربيه ووصيه • ولقد تمت تلك البيعة الأولى تحت اشراف ابي خالد بن الياس العبدي الذي آلت اليه الوصاية على ادريس الاصغر (٧٨) • ونعتقد انه في سنة ١٨٨ هـ/٨٠٤ م ، وبعد أن تخطى ادريس الثالثة عشرة من عمره ، اعتبر راشدا غير قاصر ، فبايعته القبائل على أنه الامام الذي يستطيع ممارسة سلطانه دون وصاية • وهذا ما يقوله فعلا ابن خلدون بعد روايته الأولى وان لم يحدد له تاريخا (٧٩) • أما عن التاريخ الذي يحدده الاستبصار وهو سنة ١٩٢ هـ ، فنعتقد انه صحيح هو الآخر ، وهو متعلق ببناء مدينة فاس ، كما سنرى ، فقد كان لابد من مبايعة الامـــــام في عاصمة البلاد الجديدة ومستقر الامامة •

وبناء على ذلك يكون ادريس الأصغر قد بويع مرات ثلاثة : في سنة ١٨٦ هـ/٨٠٢ م بعد تخطيه الحادية عشرة ، وكان تحت الوصاية ـ اذا جاز هنا استعمال هذه الكلمة ـ ، وفي سنة ١٨٨ هـ/٨٠٤ م بعد أن تخطى الثالثة

---

(٧٥) القرطاس ، ص ١٣ : ورواية القرطاس هذه ـ التي ينقلها عن عبد الملك الوراق ـ تقول ان عزم راشد على مبايعة ادريس بن ادريس بالامامة كان السبب في أن دبر ابراهيم بن الأغلب اغتياله •

(٧٦) الاستبصار ، ص ١٩٦ •

(٧٧) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ والترجمة ، ج ٢ ص ٥٦١ (يذكر اسمه : أبو خالد ابن يزيد) •

(٧٨) أنظر البكري ، ص ١٢٢ ، الاستبصار ، ص ١٩٦ ، القرطاس ، ص ١٣ •

(٧٩) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦١ •

عشرة وأصبح راشدا تماما غير قاصر – وهي البيعة الكبرى – ، وأخيرا في سنة ١٩٢ هـ/٨٩٧ – ٨٠٨ م بعد بناء العاصمة فاس .

قيروان آخر بالمغرب الأقصى : بناء مدينة فاس :

نشر العروبة في المغرب الأقصى :

تعتبر مبايعة ادريس بن ادريس بالامامة سنة ١٨٨ هـ/٨٠٤ م نقطة تحول هامة في تاريخ الدولة الادريسية الناشئة . فحتى ذلك الحين لم يكن الامام يرفى الحقيقة ، بأكثر من لاجيء لدى قبائل البربر بالمغرب الأقصى – رغم المركز الممتاز الذي كان له بين القبائل والسلطات الكبرى التي كان يمارسها . فالامام كان مدينا بمركزه هذا الى هيبة الأسرة العلوية وبيت النبوة والى ما تحلى به من الصفات : من الصلاح وتملك الشهوات والفضل ، وايثار العدل والاقبال على عمل البر (٨٠) ، الى جانب نشاط راشد وحسن تدبيره . اما عن موقف الامام الخاص – في البيئة الجديدة – فكان موقف الغريب الوحيد ، الذي استبدل بأودية مكة وحرات المدينة جبال طنجة ومدينة وليلة، وبعرب الحجاز والجزيرة بربر السوس والمغرب ، فالأهل والأصدقاء اتباعا مخلصين – ولكنهم من لون جديد – حقيقة ان ادريس الأول أخذ يستقبل اعدادا من الوافدين – عليه من الحجاز ، من أهله وأنصاره : مثل أخيه سليمان – الذي استقل أبناؤه بالمغرب الأوسط فيما بعد (٨١) – وابن عمه داود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب(٨٢) الا أن هؤلاء كانوا قلة قليلة لم تستطع أن تغير من طبيعة الاحساس بالغربة . والدليل على ذلك ان بعض هؤلاء الوافدين فضلوا العودة الى وحشة المشرق على البقاء في أمن المغرب ، مثل داود بن القاسم الذي رجع الى المشرق على أيام ادريس بن ادريس ، وان كانت ذريته قد بقيت في المغرب(٨٣) .

من هذا الوجه بدأ تغير جديد ، اعتبارا من مبايعة ادريس الثاني سنة ١٨٨ هـ ، وممارسة الامام الشاب لسلطانه ، اذ أخذ يحيط نفسه بحاشية

---

(٨٠) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٤ .

(٨١) انظر البكري ، ص ١٢٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٠ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦٢ ، والترجمة ج ٢ ص ٥٦٠ ، القرطاس ، ص ٤ .

(٨٢) البكري ، ص ١٢٢ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٠ .

(٨٣) البكري ، ص ١٢٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٠ ، وكذلك القرطاس (عن داود ابن القاسم أيام ادريس الأصغر) ، ص ١٢ .

عربية وحرس عربي ، أي بنجو مألوف . وكان ذلك يعني - في نفس الوقت - العمل على نشر العروبة في الدولة الناشئة الى جانب نشر الاسلام . ففي السنة التالية (١٨٩ هـ) وفد على ادريس الأصغر جماعات من عرب افريقية والأندلس : من القيسية والأزد ومدلج وبني يحصب والصدف وغيرهم ، في نحو الخمسمائة رجل(٨٤) . فرحب بهم الامام الشاب ، وجعلهم بطانته دون البربر ، فاعتز بهم لأنه كان فريدا بين البربر وليس معه عربي(٨٥) . وبذلك بدأ التعريب - كما نقول - فاتخذ الامام وزيرا من الأزد هو عمير بن مصعب الملقب بالملجوم - وهو من سادات العرب وكان لأبيه مصعب مآثر عظيمة بافريقية والأندلس ومشاهد في غزو الروم (٨٦) . كما انه اتخذ قاضيا من القيسية ، هو عامر بن محمد بن سعيد ، الذي كان فقيها صالحا سمع من مالك بن انس وسفيان الثوري وروى عنهما ، ودخل الأندلس مجاهدا ثم جاز الى العدوة (٨٧) . اما كاتبه فكان أبو الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي الانصاري (٨٨) . وكان وفد العرب الأول هذا بداية سيل من الهجرة العربية من الأندلس وافريقية نحو ادريس الثاني . ولقد ساعد على ذلك وقوع اضطرابات في الأندلس وافريقية دعت الكثيرين من عربها الى الهجرة، مثل اضطرابات ربض قرطبة(٨٩) ، وثورات الجند العربي في افريقية على ولاة بغداد (٩٠) . وهذا ما ينص عليه ابن أبي زرع عندما يقول : ولم تزل الوفود تقدم عليه من العرب والبربر من جميع الآفاق ، فكثر الناس وضاقت

---

(٨٤) القرطاس ، ص ١٤ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ والترجمة ، ج ٢ ص ٥٦١ . زهرة الآس ، ص ١٣ .

(٨٥) نفس المصدر السابق .

(٨٦) القرطاس ، ص ١٤ . وقارن بابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢ والترجمة ج ٢ ص ٥٦١ (يسمى الوزير بعمير بن مصعب الأزدي ، ويقول ان سبب تسميته بالملجوم هو أثر جرح في انفه من ضربة سيف في وكأنها خطام) .

(٨٧) القرطاس ، ص ١٤ (العدوة بمعنى البر من حيث يجتاز البحر ، واطلقت الكلمة على ضفتي بحر الزقاق بين الاندلس والمغرب ، فهما العدوتان : عدوة الأندلس وعدوة المغرب او افريقية . والكلمة في القرطاس هنا تعني البر المغربي او بلاد المغرب التي اصبحت مركز الثقل على ايام الكاتب (قرن ١٤ م) ، بعد ان استولى النصارى على معظم الاندلس فأصبح البر المغربي هو العدوة دون البر الآخر) .

(٨٨) روض القرطاس ، ص ١٣ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٢ (حيث الاسم أبو الحسن عبد الملك بن مالك الخزرجي) .

(٨٩) انظر فيما سبق عن بناء سجلماسة ، ص ٤٠٩ .

(٩٠) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٣٤٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٦ ، ٣٩٠ وما بعدها .



شكل (٨) موقع فاس وتخطيط المدينة

بهم مدينة وليلى (٩١) .

وفي الوقت الذى كان فيه ادريس بن ادريس يوثق صلاته بالعرب ويقربهم من نفسه ، كان من الطبيعي ان تفتر علاقته بزعماء البربر الذين

(٩١) روض القرطاس ص ١٤ .

اخذوا يفقدون بعض ما كان لهم من سلطان سيف فشيئا . والمثل الصريح لذلك هو زعيم أوربة اسحق بن محمد ، الذى بدا يتصل بوالى افريقية العباسى ابراهيم بن الأغلب ، فكان جزاؤه القتل بأمر الامام (٩٢) . وفى هذه الظروف الحاسمة التى بدأت فيها كفة العرب ترجح على كفة البربر ، لم يكن من الطبيعى ان يظل الامام فى وليلى – مدينة أوربة – التى أخذت تضيق بأعوان الامام الجدد ، وكان لابد له من اتخاذ حاضرة جديدة أكثر اتساعا وأكثر تمثيلا للاتجاه السياسى الجديد : الاتجاه العربى .

ويؤيد وجهة نظرنا هذه رأى جوتييه (٩٣) الذى لا يوافق على فكرة ضيق وليلى بأهلها ، اذ يقول ان خرائب وليلى موجودة وان مكان المدينة لا يمنع من اتساعها . هذا ، ولو اننا لا نوافق على تفسيره لانتقال ادريس من وليلى وبنائه لمدينة فاس ، بأن سهولة انتقال القبيلة من مكان الى مكان هو الذى جعل نقل المدينة الى موضع جديد عملا سهلا بالنسبة لأهل المشرق، أسهل من تجديد المدينة القديمة . والحقيقة ان جوتييه ينظر هنا الى العوامل الجغرافية من طبيعية وبشرية فقط ، ويهمل الظروف السياسية التى كانت بمثابة المحرك بالنسبة لتلك الأحداث .

اختيار موضع فاس :

فى هذه الظروف أعلن الامام ادريس الاصغر ، فى سنة ١٩٠ هـ/٨٠٥– ٨٠٦ م ، عزمه على الانتقال من وليلى ، واتخاذ مدينة يسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه أهل دولته ، وركب فعلا لاختيار الموضع المناسب للعاصمة الجديدة (٩٤) . ووقع الاختيار على جبل يعرف بزالغ ، وأعجب الامام بارتفاعه وطيب تربته واعتدال هوائه ، وقرر ان يختط مدينته فى السفح الشمالى لهذا الجبل . وشرع فى البناء فعلا ، وتم جزء من بناء السور ، ولكنه اتضح ان

---

(٩٢) انظر البكرى (ص ١٢٣) الذى ينص على أن ابا خالد يزيد بن الياس الذى قام بأمر ادريس بعد وفاة راشد قتل ابا ليلى اسحق ، ويحدد ذلك بيوم السبت ٦ من ذى الحجة سنة ١٩٢ هـ/٢ اكتوبر ٨٠٨ م . ويضيف انه سمت برأيه الى المشرق مع أحمد وسليمان ابنى عبد الرحمن – اى فى نفس السنة التى بدأ فيها تأسيس مدينة فاس . ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢ والترجمة ج ٢ ص ٥٦١ وانظر فيما سبق (عن استجابة الزعيم الزناتى بهلول بن عبد الواحد لاغراء الرشيد وابن الأغلب) ، ص ٣٩ وهـ ٥٧ .

(٩٣) جوتييه ، ماضى شمال افريقيا ... (بالفرنسية) ، ص ٣٠٧ – ٣٠٨ .

(٩٤) روض القرطاس ، ص ١٤ – ١٥ .

اختيار الموقع لم يكن موفقا : فعندما نزلت السيول ذات ليلة على الجبل هدمت ما كان قد بني من السور ، كما جرفت في طريقها ما كان حوله من خيام العرب ، فرأى ادريس أن يترك البناء في ذلك الموضع (٩٥) . وبذلك فشلت أول محاولة لبناء العاصمة الجديدة ـ حسب روايات القرطاس ـ وستفشل محاولة ثانية في العام التالي .

ففي المحرم من سنة ١٩١ هـ/نوفمبر ٨٠٦ م خرج ادريس في رحلة صيد لتخير موضع مناسب ، ووصل الى وادي سبو ، بالقرب من الينابيع الساخنة المعروفة بحمة خولان ـ التي تسمى حاليا باسم سيدي حرازم على بعد ١٥ كيلو متر شرق فاس (٩٦) ـ وأعجب بالموضع لقربه من ماء النهر العذب ومن الحمامات الساخنة . وتقول الرواية انه بدأ في العمل فعلا فحفر الأساس وعمل الجير وقطع الخشب ، وابتدأ بالبناء . ولكنه عندما حل فصل الشتاء ورأى فيضان النهر خشي أن تتكرر تجربة العام السابق فيهلك الناس ، فرفع يده عن البناء وعاد أدراجه الى وليلي (٩٧) .

وعندئذ رأى الامام ان يسند الأمر الى وزيره عمير بن مصعب الذي خرج في نفس السنة (١٩١هـ) كما يفهم من رواية القرطاس ، ونجح في اختيار الموضع المناسب ، وذلك في فحص أسايس حيث الأرض فسيحة معتدلة بين جبلين ، والمياه كثيرة تخرج في عدوه من العيون التي تمير أحد روافد نهر سبو وهو وادي فاس ، وحولها الأشجار من الطرفاء والطخش والعرعار والكلخ وغيره (٩٨) . ولم يكن الموضع مهجورا بل كانت فيه مضارب لقبيلتين زناتيتين هما : زواغة ـ وتعرف ببني الخير ـ(حول عدوة القرويين) وبنو يزغتن (حول عدوة الاندلسيين) (٩٩) ، كل واحدة منهما على ضفة من

---

(٩٥) انظر القرطاس (الذي ينقل رواية ابن غالب) ، ص ١٥ .

(٩٦) انظر ليفي بروفنسال ، تأسيس مدينة فاس (بالفرنسية Islam d'Occident, La Fondation de Fès, Paris, 1948 ص ٦ وهامش ١٤ ، والترجمة العربية ، طبعة إدارة الثقافة ، الألف كتاب ، ص ٨ هامش ٢ . وانظر لتورنو الذي يلخص بحث بروفنسال في دراسته عن مدينة فاس : R. Le Tourneau, Fès avant le Protectorat, Casablanca, 1941, p: 3I et suiv.

(٩٧) القرطاس ، ص ١٥ .

(٩٨) القرطاس ، ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(٩٩) القرطاس ، ص ٢٦-٢٧ حيث نجد قراءتين : بنو يزغتن وبنو يرغش ، وقد فضلنا القراءة الأولى لانها أكثر استعمالا في النص ، وكذلك فعل بروفنسال في « تأسيس مدينة فاس » (الأصل ، ص ٢٦ والهامش ٤٧ ص ٤٠ والترجمة ص ٤١ والهامش ٢) ، وذلك

ضفتي النهر الصغير.* وعاد الوزير يخبر الامام بالموضع الممتاز الذي تتوفر فيه كل مزايا موضع المدينة النموذجية : من الماء الجاري ، والمحرث الطيب ، والمحطب القريب (١٠٠) . ووافق الامام واشترى الموضع بستة آلاف درهم نال منها بنو يزغتن ٢٥٠٠ (الفين وخمسمائة) درهم وزواغة ٣٥٠٠ (ثلاثة آلاف وخمسمائة) درهم ، وأشهد عليهم بذلك . ويفهم من رواية القرطاس أن شراء موضع بني يزغتن تم أولا ، وكان محرر العقد أبا الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي ، كاتب الامام (وذلك في سنة ١٩١ هـ/٨٠٦ـ٨٠٧م) (١٠١) .

وكان مجيء الامام الى مضارب القبيلتين خيرا وبركة عليهما اذ انه صالح بينهما بعد أن كانت بينهما نزاعات وحروب . وهنا نلاحظ أن الرواية تبالغ — من غير شك — عندما تذكر ان البربر في ذلك الموضع كانوا على النصرانية واليهودية وعلى المجوسية أيضا ، وانه كان لبني يزغتن — (أصحاب موضع عدوة الاندلس) بيت نار هناك (١٠٢) . والرواة هنا يقصدون نسبة أعمال باهرة وخدمات جليلة الى باني مدينة فاس (١٠٣) ، الذي ادخل في الاسلام أشتاتا من أصحاب الديانات والعقائد المختلفة .

---

* لقرب هذا الاسم من اسم القبيلة المشهورة حاليا في جنوب فاس ، وهي قبيلة بني يزغة . أما ابن خلدون (ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٢) فنجد القراءة فيه يرغش ويرغش . هذا بينما يرى الفرديل في ترجمته لزهرة الآس (النص ص ١٤ والترجمة ص ٤٠) أنه لم يكن من المعلوم لديه وجود قبيلة مراكشية باسم « يرغس او يرغش » — حسما يوجد في نص الجزنائي — فانه يحبذ قراءة الاسم في شكل « بني يزغن » الذي هو اسم قبيلة في جنوب فاس .

(١٠٠) القرطاس ، ص ١٦ — ١٧ .

(١٠١) القرطاس ، ص ١٧ (وزهرة الآس ، ص ١٤) .

(١٠٢) القرطاس ، ص ١٦ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٢ ، وانظر البكري (ص ١١٦) الذي يجعل اسم أبواب فاس ، وهو الباب الشرقي يحمل اسم باب الكنيسة .

(١٠٣) وفي مقام مولانا ادريس في نفوس أهل المغرب ، يقول احمد بن ابي الضياف (اتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تونس ١٩٦٣م ، ج ١ ص ٢٦) : « والمغرب يسلم الكرامة لهذا البيت حيا او ميتا حتى ان عامتهم يعتقدون ان سلطان المغرب حقيقة هو مولانا ادريس بما يعطي بما فيهم من الخير والسذاجة الاسلامية ، من تعظيم الأشراف والعلماء والصالحين ... » .

البناء : عدوة الأندلس :

وعلى أساس تلك الروايات التي جمعها ابن أبي زرع ، تكون مدينة فاس قد بنيت على دفعتين الأولى ابتداء من سنة ١٩١ هـ/٨٠٧ م . عندما اشترى الامام موضع اليرغتنيين ، وبنى فيه الجزء من المدينة الذي سيعرف بعدوة الأندلس ، على الضفة الشرقية لنهر فاس ، في غرة ربيع الأول من السنة التالية ١٩٢هـ/٤ يناير ٨٠٨ م (١٠٤) • ووضع الامام حجر الأساس بنفسه ، بعد أن دعا لمدينته الجديدة بأن يجعلها الله دار علم وفقه يتلى بها كتاب الله ، وتقام بها حدوده ، ولأهلها بأن يجعلهم الله مستمسكين بالسنة والجماعة طالما بقيت المدينة (١٠٥) • وبدء ببناء الاساس ثم دور الامام والمسجد الجامع الذي عرف بجامع الأشياخ ، كما نصبت الخيام ، واحيط كل ذلك بأسوار (جدر) من الخشب والقصب ، وذلك في الموضع من المدينة الذي عرف بجرواوة (كرواوة) والذي مازال يحتفظ بهذا الاسم الى اليوم (١٠٦) • وبناء المدينة بهذا الشكل يدل على أنها كانت بسيطة أشبه ما تكون بقرية من قرى الجبال الفقيرة فعلا ، كما يقول بروفنسال (١٠٧) •

عدوة القرويين :

أما الجزء الثاني من المدينة فبدأ ببنائه في غرة ربيع الآخر من السنة

---

(١٠٤) القرطاس ص ٩ ، البكري ص ١١٥ وص ١٢٣ ، ياقوت معجم البلدان — فاس ، ابن خلدون ج ٤ ص ٣

(١٠٥) القرطاس ص ١٩ ، ٢ هـ لأس ص ١٧

(١٠٦) القرطاس ص ١٦ ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٢ ، (روا) وفي تفسير اسم جرواوة يقول الجزنائي ، زهرة الآس ص ١٤ ان الامام ادريس بعد أن ضرب اخبيته وقبابه بالموضع ... دور عليه جرواوة من الحسب فسمى الموضع جرواوة للمتعلقا ... مما يعني ان جرواوة باللغة المحلية كانت تعني السياج ، وهو ما ينص عليه الجزنائي بعد ذلك ، ص ١٩ ، اذ يقول ان الامام حر بالسور المعروف بالجرواوة • وانظر دراسة بروفنسال (عن تأسيس مدينة فاس) الذي يقبل تفسير كلمة جدر (جمع جدار) على انها تعريب للاسم البربري الفينيقي أجادير وأنها تعني المخازن الجماعية ، أو المجلس ومنها اشتقت كلمة اجراو • التي أطلقت على بعض مجالس اقليم الريف والتي اشتق منها اسم جراوا — موضع فاس الأولى — الذي يعني المعسكر (الأصل الفرنسي ، ص ٣٢ وهامش ٤١ ، ٤٤ ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، والترجمة ص ٢٤ وهامش ١ وص ٢٥ وهامش ١) •

(١٠٧) انظر بروفنسال ، تأسيس مدينة فاس ، الأصل الفرنسي ص ٣٢ ، والترجمة العربية ، ص ٢٢ — ٢٣ •

التالية (١٩٣ هـ/٢٢ يناير ٨٠٩ م) (١٠٨) ، على الضفة التالية المقابلة لنهر فاس في موضع رواغة ، وهو الحي الذي سيعرف بعدوة القرويين · والذي يفهم من رواية القرطاس هو أنه على عكس عدوة الأندلس التي كانت أشبه بقرية زعوية ، اتخذ بناء عدوة القرويين هذه شكل المدينة فعلا · فقد ترك الامام الموضع الأول واتجه الى الضفة المقابلة لكثرة العيون والأشجار ، ونزل في موضع يعرف بالمقرمدة · وبدأ ، كما هي العادة في بناء المدن الجديدة ، باقامة المسجد الجامع الذي عرف فيما بعد بجامع الشرفاء (١٠٩) ، ثم بنى دار الامارة التي عرفت بدار القيطون ، اي دار الفسطاط لأن الامام ضرب في موضعها قيطونه أي فسطاطه أو قبته أول ما نزل · والى جانب المسجد بنى القيسارية ، وهي سوق المدينة المركزي كما أقيمت الأسواق والحوانيت حوالي الجامع من كل جانب(١١٠) ·

وحول هذا المركز الذي يمثل المدينة الحكومية ، اتسعت المدينـــة الناشئة بسرعة ، بفضل تشجيع ادريس بن ادريس الذي أمر الناس بالبناء واعمار الأرض ، فوعد بأن من ابتنى موضعا واغترسه قبل تمام السور بالبناء كان هبة له · ولقد ساعد على سرعة عمران المدينة كثرة الأشجار التي وفرت للناس كل ما يلزمهم من الخشب للبناء (١١١) ، كما ساعد على سرعة نموها جماعات الوافدين على الامام من المشرق ومن الأندلس · فمن القادمين من المشرق جماعة من العراقيين الذين أنزلهم بناحية عين علون (١١٢) ، وربما كان هؤلاء هم الثلاثمائة بيت من أهل القيروان ، الذين أسكنهم ادريس معه فأعطوا اسمهم لهذا الجزء من المدينة أي عدوة القرويين(١١٣) ·

الأسوار والأبواب :

ويمدنا ابن أبي زرع بتفصيلات مطولة عن أسوار المدينة وأبوابها ،

---

(١٠٨) القرطاس ، ص ٢١ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣ (وفي سنة ٣ « ثلاث » بعدها ١٩٣ ») ، البكري ، ص ١١٥ (ياقوت ، المعجم ، فاس) ·

(١٠٩) يصف البكري (ص ١١٦) جامع القرويين الذي بناه ادريس بن ادريس على أنه « يحتوي على ثلاثة بلاطات طولها من الشرق الى الغرب ··· وله صحن كبير فيه زيتون وشجر وله سقايف » ·

(١١٠) القرطاس ، ص ٣١ ·

(١١١) نفس المصدر ·

(١١٢) انظر نفس المصدر ·

(١١٣) القرطاس ، ص ١٧ ·

فيجعل لعدوة القرويين ٦ ستة أبواب هي : باب افريقية ، وباب سعدون ، وباب الفرس ، وباب الفصيل ، وباب الفرج وباب الحديد . ويجعل لعدوة الاندلس ٥ (خمسة) أبواب هي : باب الفوارة ، وباب مقابل باب الفرج ، وباب أبي سفيان ، وباب الكنيسة ، وباب عدوة الاندلس (١١٤) . والحقيقة أننا لا نعرف ان كانت هذه التفصيلات خاصة بفاس الأولى التي بناها ادريس ابن ادريس ، أم بفاس العاصمة المغربية الكبرى ، بعد أن اتسعت على مر العصور . ومع أنه مما لا شك فيه أن المدينة ازدادت نموا على أيام الامام فنحن نميل الى الرأي الأخير . ويرجع ذلك اختلاف أسماء الأبواب وعددها عند البكري وعند ابن أبي زرع ، كما يرجحه ما يذكره ابن أبي زرع نفسه عما أصاب هذه الأبواب من الهدم والتجديد وتغيير الأسماء على عهود أمراء فاس حتى أيامه (١١٥) .

خطط المدينة :

وبعد الفراغ من بناء الأسوار قسم ادريس الأرض المحيطة بالمدينة ، مما يلي الابواب مباشرة على قبائل العرب والبربر . ويحدد ابن أبي زرع موضع قبائل العرب ، اذ نزلت القيسية بازاء الأسوار الجنوبية لعدوة القرويين ، ما بين باب افريقية وباب الحديد ، ونزل اليحصبيون على خطالهم بازاء الأسوار المقابلة من الجهة الاخرى ، بينما نزلت الازد فيما بينهما على طول الاسوار الغربية (١١٦) . أما عن قبائل البربر من صنهاجة ولواتة وأشيخان فلا يحدد مواضعها ، ويقول ان كل قبيلة منها نزلت بناحيتها(١١٧) .

---

(١١٤) القرطاس ، ص ٢١ . وقارن البكري (ص ١١٦) الذي يجعل لعدوة القرويين خمسة أبواب هي : باب الحصن الجديد (قبلي) باب السلسلة (شرقي) ، باب القناطر (شرقي) ، باب سياج يحيى بن القاسم (جوفي) ، باب سوق الأحد (غربي) . ويجعل البكري لعدوة الأندلسيين ستة أبواب هي : باب الفتوح (قبلي) ، باب الكنيسة (شرقي) ، باب ابي خلوف (شرقي) ، باب حصن سعدون (جوفي) ، باب الجوش (غربي) ، باب سليمان (غربي) . وقارن لوتورنو (Le Tourneau) الذي يسجل تخطيطا لجيار (Gaillard) عن المدينة في أول أيامها فيضيف بابا سابعا لعدوة القرويين هو باب جيسة (Fès, p. 42)؛ والمعروف ان هذا الباب يحمل اسم الأمير الزناتي عجيسة الذي بناه ، وانه تغير مع مرور الزمن من باب عجيسة الى باب جيسة (القرطاس ، ص ٢٤) .

(١١٥) القرطاس ، ص ٢٢ ، وانظر ص ٢٣ ؛ حيث رواية ابن غالب الذي تقدم بعض أبواب فاس القديمة مع النص على ان بعضها مثل باب حصن سعدون من بناء ادريس الثاني ؛

(١١٦) انظر القرطاس ، ص ٢٦ .

(١١٧) القرطاس ، ص ٢٦ .

والظاهر ان البربر كانوا قد نزلوا من قبل على الضفة الشرقية فى عدوة الأندلسيين ، فابن ابى زرع يذكر أن ادريس بن ادريس أنزل جميع احشاده وقواده ، وكذلك عدده وعتاده من الخيل والابل والبقر فى عدوة الاندلس ، ولم ينزل معه بعدوة القرويين غير مواليه وحشمه ، وسائر رعيته من التجار والصناع والسوقة • وعلى هذا الأساس يفسر صاحب القرطاس بقاء مدينة فاس فى شكل مدينتين طيلة أيام ادريس وعلى أيام ولده وحتى ملـــك الزناتيين (١١٨) •

ما بين العدوتين وفاس :

والحقيقة ان بقاء فاس فى شكل مدينتين تحمل كل منهما اسمها الخاص أمر غريب يسترعي الملاحظة • ولقد نبه بروفنسال ، فى دراسته عن تأسيس مدينة فاس ، الى أنه ينبغي توضيح فكرة المدينتين المتجاورتين اللتين اتحدتا نتيجة لعملية تمثيل تاريخية طويلة ، كما انه ينبغي التفرقة بين المعلومات الخاصة ، بكل منهما ـ وصفا فى دور النشأة ـ على حدة ، بدلا من مزجها أو خلطها جميعا بحجة ان العاصمة المغربية الكبيرة من بناء الامام ادريس الأصغر (١١٩) •

وبروفنسال يرى أن المدينة الأولى أى عدوة الأندلسيين من بناء ادريس الأول فى سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨ ـ ٧٨٩ م ، وليست من بناء ادريس الثاني فى سنة ١٩٢ هـ /٨٠٨ م - وهو يستند فى ذلك الى بعض الروايات الجانبية من الكتب التى لا تعالج مدينة فاس أو تاريخ المغرب نفسه(١٢٠)، ويرى أنه من السهل أن تكون كلمة « سبعين » قد حرفت الى « تسعين » (١٢١) ، والذى دفع بروفنسال الى تبنى هذا الرأى هو وجود عملة مضروبة فى فاس يظن

---

(١١٨) القرطاس ، ص ٢٧ •

(١١٩) انظر تأسيس مدينة فاس ، الأصل الفرنسي ، ٩ ـ ١٠ والترجمة العربية ص ١٠ ـ ١٣ •

(١٢٠) انظر تأسيس مدينة فاس لبروفنسال الأصل الفرنسي ص ١٣ ـ ١٧ والترجمة العربية ، ص ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢ (حيث يورد بروفنسال نصا للمؤرخ الاندلسي الرازى المتوفى ٣٢٤ هـ/٩٥٥ م ، نقلا عن ابن الابار فى « الحلة السيراء » (انظر تحقيق مؤنس ، ج ١ ص) ، وفى هذا النص يجمع الرازى دخول ادريس الأول المغرب فى سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨ م ، فى موضع وليلى ، واجتماع القبائل اليه ، وبناء مدينة فاس جنبا الى جنب •

(١٢١) نفس المصدر ، الأصل الفرنسي ص ١٩ والترجمة ص ٢٩ •

انها ترجع الى سنتي ١٨٥ و ١٩١ هـ أي قبل سنة ١٩٢ هـ ، وهو التاريخ المتواتر لبناء فاس (١٢٢) ، بينما تحمل النقود التي ضربها ادريس الثاني اسم مدينة « العلية » وليس إسم فاس (١٢٣) • وقد حمل ذلك بروفنسال على القول بان المدينة الثانية أي عدوة القرويين هي التي بناها ادريس الثاني ، وأنها كانت تحمل في أول الأمر اسم « العلية » (١٢٤) • وبناء على ذلك تكون « فاس » الحقيقية هي عدوة الأندلس وهي من بناء ادريس الأول •

والحق ان رأي بروفنسال مقبول ، رغم انه ليس نهائيا ، فالمعروف ان مدينة الادارسة (أي عاصمتهم) قبل سنة ١٩٢ هـ/٨٠٨ م كانت وليلي ، وان المدينة التي كانت في موضع فاس لم تكن باكثر من قرية فقيرة • ولو صح أنه ضربت فيها السكة قبل سنة ١٩٢ هـ/٨٠٨ م ، فهذا لا يعني بالضرورة ان ادريس الأول بناها ، وأنه اتخذها عاصمة ، اذ كان يمكن لنائبه فيها مثل غيره من النواب أن يضرب السكة • واذا كان وجود اسم فاس قبل سنة ١٩٢ هـ يمكن أن يعني ان الاسم سابق على بناء المدينة الجديدة ، لهذا ما تقوله احدى روايات القرطاس فعلا من ان الامام الأصغر قال : سموها باسم المدينة البائدة التي كانت في الموضع ، غير أنه أمر بقلب الاسم الذي كان « ساف » فاصبح « فاس » ،(١٢٥) •

والذي نريد أن نخرج به من هذا ، هو أنه على فرض أن ادريس الأول هو الذي بنى قرية فاس الاولى ، وهذا أمر صعب خلال فترة امامته القصيرة ، فان ذلك لا يقلل من أصالة وعظمة العمل الذي قام به ادريس الثاني ، باني مدينة فاس الحقيقية ، مثله في ذلك المنصور العباسي باني مدينة بغداد • والاشارة هنا الى بغداد لها مغزاها البعيد ، اذ ان موضعها واسمها لا يرجع اختيارهما الى مزاج المنصور نفسه ، فقد كان الموضع عامرا به قرية قديمة تحمل اسم بغداد •

---

(١٢٢) نفس المصدر ، الأصل الفرنسي ص ١١ والترجمة ص ١٥ ، ١٧ •

(١٢٣) نفس المصدر ، الأصل الفرنسي ، ص ١١ والترجمة ص ١٧ (الحاشية) •

(١٢٤) نفس المصدر ، ص ١٣ والترجمة ص ١٩ •

(١٢٥) هناك روايات أخرى عن أصل التسمية ولكنها تصطبغ بالطابع الأسطوري ، من ذلك ما يقال من ان الامام كان يعمل بنفسه مع الصناع والفعلة تواضعا ، فصنع له فأس من ذهب وفضة كان يبتدىء به حفر الأساسات ، فلما كثر ذكر هذا الناس على الألسنة الفعلة ، سميت المدينة « فاس » لذلك ، ومنها الرواية التي تقول انه عندما بدء حفر الاساس وجد فى =

ومع ان المنصور بنى مدينته على الضفة الغربية لدجلة ، فان المدينة عندما امتدت عبر النهر الى الضفة الشرقية التى اطلق عليها اسم الرصافة ، ظلت مدينة واحدة تحمل نفس الاسم ، رغم ان النقود المسكوكة فيها حملت اسم « دار السلام » ، وظلت تنسب الى بانيها الحقيقى وهو المنصور ، رغم ازدياد العمران فى الضفة الشرقية . وبناء على هذا القياس حق لكتاب المغرب ان ينسبوا فاس الى بانيها الحقيقى ادريس بن ادريس ، فهى من ابتكاره ، لا يقلل من ذلك ان الموضع كان مسكونا ببعض قبائل البربر أو ان قرية بائسة كانت تحمل — على أيام ادريس الأول — اسم العاصمة السعيدة .

ووجه التجديد والابتكار ، من جانب ادريس الاصغر ، هو أنه أنشأ عاصمة عربية فى بلاد البربر ، تماما كما فعل عقبة بن نافع فى افريقية ، فأصبحت فاس قيروان المغرب الاقصى . ومن هذا الوجه كانت فاس العربية فى عدوة القرويين ، حيث أنزل الامام العرب معه ، كما رأينا ، ولكن الحى الآخر لم يلبث أن تعرب بدوره ، بعد ذلك بقليل ، عندما وصل أهل ضاحية الربض من مدينة قرطبة بعد أن طردهم أمير الأندلس الحكم بن هشام حوالى سنة ٢٠٢ هـ/٨١٧ م . فلقد وصل هؤلاء فى نحو ثمانمائة بيت نزلوا فى عدوة الأندلس ، وشرعوا بها فى البناء يمينا وشمالا ، فسمى الجزء الشرقى بهم (١٢٦) ، وأغلب الظن أنهم عمروا هذا الحى على الطريقة الأندلسية . وتبالغ الروايات فى المدينة واتساعها بسرعة ، وتريد أن تجعل منها مدينة عالمية عقب بنائها مباشرة : فلقد أطعمت الاشجار والكرم من سنتها ، وذلك ببركة الامام (١٢٧) . وكثرت خيراتها فكان الطعام (الزرع) لا يباع بها ولا يشترى

= جهة القبلة فاس كبير طوله ٤ اربعة اشبار ، وسعته شبر وزنته ستون رطلا ، فسميت المدينة به . ومنها ان المدينة سميت باسم أول رجل من بها واسمه فارس ، ولكنه لما كان الرجل ألثغا فانه نطق اسمه عندما سئل عنه « فاس » . وآخر تلك الروايات ان المدينة سميت باسم جماعة من الفرس نزلوا بها اثناء بنائها وسقط عليهم جرف فماتوا ثم حرف الناس الاسم فقيل فاس بدلا من فرس (انظر القرطاس ، ص ٢٦ ، وقارن زهرة الآس ، ص ١٨ — حيث يرفض الجزنائى أن يكون قد عمل للامام فاس من ذهب وفضة على أساس « ان الامام رضى الله عنه لا يجهل ان استعمال الذهب محرم على الرجال ») .

(١٢٦) القرطاس ، ص ٢٧ (النص يقول « ثمانية بيت » ورأينا ان صحته ثمانمائة بيت ») ، وعن مهاجرى الربض — انظر فيما سبق ، ص ٤٤٢ . ويشير ابن حيان فى حوادث سنة ١٦٦ هـ ، الى أن الحكم بن هشام امير الاندلس صالح ملك الفرنجة الذى يسميه « قارله ابن حفلش » ، ولو أنه يبرر ذلك بطريقة عكسية ، اذ ينص على ان الفرنجة — بدلا من المروانيين فى قرطبة — للهم الذين فزعوا بسبب ظهور ادريس بن عبد الله الحسنى فى ارض العدوة . انظر المقتبس : مخطوط كلية الآداب المصور بجامعة الاسكندرية ، ص ٢٥ .

(١٢٧) القرطاس ، ص ٢٦ .

أيام الامام وذريته ، فكان وسق القمح بدرهمين ونصف ، ووسق الشعير بدرهم ، والكبش بدرهم ونصف ، أما الفاكهة فلم يكن لها سعر لرخصها(١٢٨) .

والمدينة لم تحو المسلمين من العرب أو البربر الذين دخلوا حديثا فى الاسلام فقط ، بل حوت اليهود أيضا . فيقول ابن أبى زرع انه اجتمع بالمدينة خلق كثير من اليهود الذين أنزلهم الامام بناحية أصلان الى باب حصن سعدون، وفرض عليهم الجزية التى بلغت ثلاثين ألف دينار سنويا (١٢٩) . وهذا يعنى عددا كبيرا من اليهود يكونون حيا بأكمله ، وهذا ما لم تعرفه فاس - مثلها مثل كثير من المدن العربية - الا بعد مرور فترة الانشاء ، وعندما أصبحت عاصمة كبيرة . والحقيقة ان هذه الرواية لا تتفق مع الرواية الأولى التى ذكرناها بمناسبة تاسيس المدينة ، والتى نسبت الى الامام فخر ادخـال جماعـات البربر التى كانت تعتنق النصرانيـة واليهودية والمجوسية فى الاسلام .

ونشير الى أنه لا ينبغى المبالغة فى عظم مدينة فاس الفتية على أيـام ادريس بن ادريس . فمن الصحيح أن أدريس بن ادريس عاش عشرين سنة بعد ان وضع حجر الأساس لمدينته العربية (اذ توفى سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨م)، وان تلك المدة كانت كافية لكى تتسع المدينة وتكبر ، ولكنها لم تكن كافية لكى تصبح على الصورة التى يصفها بها صاحب روض القرطاس ، الذى يكتب فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، فى الوقت الذى كانت فاس انتهت الى ما لم تبلغه مدينة فى المغرب ، كما يقول هو نفسه (١٣٠) .

والحقيقة انه لن يمكن تنظيم المعلومات المتنوعة ، والتفصيلات المختلفة، التى يمزجها صاحب القرطاس مزجا ، الا اذا سمحت الظروف بمعرفة المصادر التى نقل عنها بشىء من الدقة . ونحن اذا وافقنا على نسبة أمجاد مدينة فاس - العاصمة الكبرى - الى بانيها ادريس الاصغر فانما نفعل ذلك لانه مبتكرها ، وصاحب فكرتها . أما عن فاس على أيامه فلا نعتقد انها زادت كثيرا عن حدود مدينة ملكية ناشئة ، لم يزد عمرها على عشرين سنة فى أواخر أيام الامام . ويرجح هذا الرأى ان بعض الروايات تؤكد أن وفاة ادريس بن ادريس لم تكن فى مدينة فاس بل فى مدينة ادريس الاكبر :

---

(١٢٨) روض القرطاس ، ص ٢٩ .

(١٢٩) روض القرطاس ، ص ٢٧ .

(١٣٠) روض القرطاس ، ص ٢٨ .

وليلى (١٣١) ٠

اهمية بناء مدينة فاس : تاكيد سلطان الادارسة فى المغرب :

وهنا ينبغى الاشارة الى أن أهمية فاس لا تتلخص فى بناء المدينة العجيبة نفسها ، بمساجدها وأرحائها وأسواقها وقصورها وغناها ، بل فى العمل الحضارى الذى قامت به والذى يمثل رسالة الادارسة العلويين فى بلاد المغرب الأقصى ٠ والظاهر ان بناء المدينة استغرق ما بين ثلاث سنوات أو أربعة ٠ فبعد أن أقام ادريس الثانى بها الى سنة ١٩٧ هـ/٨١٢ ـ ٨١٣م ، خرج فى المحرم من نفس السنة لغزو بلاد المصامدة فأخضع قبائلهم ، ووصل فى غزوهم حتى السوس الأقصى ، حيث أخضع مدينة نفيس ـ التى دخلها عقبة بن نافع سنة ٦٢ هـ ـ ثم عاد الى فاس (١٣٢) ٠ وأقام ادريس ما يقرب من العام ، ثم انه عزم على تاكيد سلطانه فى اقاليم المغرب الأوسط الغربية، فخرج فى أواخر سنة ١٩٨ هـ/يونيه ـ يوليه ٨١٤ م لغزو قبائل نفزة ، ونجح فى اخضاعهم ٠ ودخل مدينة تلمسان حيث أتاه محمد بن خزر الزناتى وبايعه ٠ وأقام ادريس فى تلمسان مدة ثلاث سنوات واصل خلالها أعمال والده هناك : فاصلح أسوار المدينة ، ورمم جامعها الذى بناه والده ، وأقام فيه منبرا جديدا (١٣٣) ٠ وعاد الامام الى فاس ، وقد اطمأن الى انتشار سلطانه من تلمسان الى نفيس ٠

---

(١٣١) أنظر فيما بعد ، ص ٤٥٦ وص ١٣٧ ٠ وعن أبواب العدوتين ، أنظر الجزنائى ، زهرة الآس ، ص ١٩ ـ ٢٠ : حيث يعدد فى عدوة الأندلس ٧ (سبع) أبواب ، هى أبواب : الفهلة ، وبرواوة ، والمخفية ، والشيبوبة ، والفصيل ، وابى سفيان ثم باب الكنيسة ، كما يعدد فى عدوة القرويين ٥ (خمسة) أبواب ، هى أبواب ٠ افريقية ، الفصيل ٢ ، الفرج ، الحديد ثم باب القلعة ٠

(١٣٢) البكرى ، ص ١٢٢ ، روض القرطاس ، ص ٢٩ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٢ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١١ (الذى يجعل غزو بلاد المصامدة بعد غزوة نفزة) ٠

(١٣٣) انظر القرطاس (ص ٢٩ وتلخيصه فى زهرة الآس ، ص ٢٢) الذى ينقل رواية عبد الملك الوراق الذى يقول ٠ « دخلت مسجد تلمسان سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م ، فرأيت فى =

والحقيقة أن اقامة ادريس مدة ثلاث سنوات في تلمسان ونواحيها كان القصد منها تأمين حدود دولته الشرقية ازاء خطر الخوارج بالمغرب الأوسط ، وكانت قبائل نفزة التي هزمها — بمعاونة ابن عمه داود بن القاسم بن اسحق ابن عبد الله بن جعفر (١٣٤) — من أقوى عصبيات امامة تاهرت ، كما رأينا . وهذا ما يشير اليه ابن خلدون عندما يقول انه بعد ان أخضع البربر وزناتة، قوى أمره ، وتمكن من القضاء على الخوارج منهم « واقتطع المغربين عن دعوة العباسيين من لدن السوس الأقصى الى شلف »(١٣٥) . وهذا ما يصر عليه جوتييه ، عندما يقول : ان قضاء أدريس الثاني على الخوارج يعبّر عن خوف أهل الحضارة والمدنية (رعية الدولة الادريسية) من تخريب الخوارج (الزناتية البدو) . وهذا يمثل النتيجة التى وصل اليها ، والتى تتلخص فى أن الحركة الخارجية التي بدأت في المغرب الأقصى سنة ١٢٢هـ ، على يدى ميسرة ، انقلبت الى ضدها : الى حكومة نظامية ، هى الدولة الادريسية (١٣٦) .

وفاة ادريس الأصغر وبداية سمات تصدع الدولة الادريسية :

ويقول صاحب القرطاس ان ادريس لم يزل بفاس الى أن توفى فى

= رأس منبرها لوحا من بقية منبر قديم ، قد سمر عليه هنالك ، مكتوب فيه : « هذا ما أمر به الامام ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي — رضي الله عنهم — في شهر المحرم سنة ١٩٩ هـ/أغسطس ٨١٤ م » . وبناء على هذا التاريخ رأينا تعديل خروجه من فاس نحو تلمسان الى أواخر سنة ١٩٨ هـ/يولية ٨١٤ م ، بدلا من سنة ١٩٩ هـ كما يقول البكرى (ص ١٢٣) وصاحب القرطاس (ص ٢٩) وابن خلدون (انظر فقط الترجمة ج ٢ ص ٥٦٢ اذ لا نجد هذا التاريخ في النص ولا اسم ابن خزر كذلك) . ونلاحظ هنا ان ابن خلدون (ص ١٢) يذكر ان الامام أصلح المنبر ولم يصنع منبرا جديدا حسب رواية القرطاس . وفيما يتعلق بدخول الوراق الى تلمسان فى سنة ٥٥٥ هـ فنلاحظ ان الوراق هذا يكتب فى اواخر القرن السادس الهجري . ولهذا السبب وجد هذا التاريخ فى بعض النسخ للقرطاس سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م (انظر بروفنسال ، تأسيس فاس ، النص ص ٢١ والهامش ٣٨) . ولقد رجحنا نحن ان تكون سنة ٥٥٥ هـ خاصة بالمؤرخ ابن غالب الذى نسخ الوراق كتابه (أنظر التعريف بكتاب روض القرطاس فى دراسة المصادر السابقة ، ج ١ ص ٤٤) م .

(١٣٤) انظر البكرى (ص ١٢٣) حيث يقول ان داود بن القاسم خرج للقتال الخوارج مع ادريس بن ادريس فأعجبه منه (اى من ادريس) ثلاث خصال : اجتماع قلبه ، ومنعته ، وحركته وقلة قراره الذى يعنى الزمع الى القتال وليس الرعب .

(١٣٥) ابن خلدون ، عبر ، ص ١٤ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٢ (جيبه قراءته السوس « فى شكل « السوس ») .

(١٣٦) أنظر جوتييه ، ماضى شمال افريقيا .. (بالفرنسية) ، ص ٣١٥ — ٣١٦ .

سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م ، وهو ابن ست وثلاثين سنة ، وانه دفن بمسجده (جامع الشرفاء) بازاء الحائط الشرقي ، أو الحائط القبلي • هذا ولو أن رواية البرنسي ـ التي يوردها بعد ذلك ـ ربما كانت أقرب الى الحقيقة من حيث التاريخ ، اذ تحدد وفاة ادريس الثاني بليلة ١٢ جمادى الثاني من سنة ٢١٣ هـ/٢٨ اغسطس ٨٢٨ م ، وسنه يومئذ ثمانية وثلاثون عاما ؛ وهذه الرواية تتفق مع رواية البكري التي لا تجعل وفاة ادريس في فاس بل بمدينة وليلي ، في بلاد زرهون ،وتقول انه دفن الى جانب قبة ابيه هناك (١٣٧) • وتحيط بوفاة ادريس الثاني الشاب ، مثله مثل والده ، قصة روائية تقول انه توفي بسبب أكله عنب ، شرق أو «غص بحبة منها »(١٣٨) ، أو انه مات مسموما في حبة العنب تلك (١٣٩) • هذا ، كما يمكن أن يفهم انه كان للاغالبة، وبالتالي خلافة بغداد ، يد في هذا الأمر • يستشعر ذلك من الشعر الذي ينسب قوله الى ابراهيم بن الاغلب والذي ينص على أن الأغلبي هو الذي دبر اغتيال راشد ، الذي كان قد استفحل أمره وعلا حتى أنه هم بغزو افريقية ، وانه كان يتربص بادريس ليتخلص منه هو الآخر (١٤٠) • ولا يمنع من ذلك ما تقوله بعض الروايات من أن ابراهيم بن الأغلب كان قد ألب الزعيم المدغري « البهلول بن عبد الواحد » على ادريس بن ادريس ، وان هذا الأخير كتب الى بهلول يخطب وده ، ويدعوه الى الرجوع الى طاعته ، ويحذره من مكر ابن الأغلب (١٤١) • وما تضيفه الرواية بعد ذلك عندما تقول

---

(١٣٧) البكري ، ص ١٢٣ ، والنص يقول ان ادريس بن ادريس توفي وعمره ٣٣ سنة ، وهذا خطأ من النساخ اذ ينبغي أن يكون ٣٨ سنة بما انه ولد سنة ١٧٥ هـ/٧٩١ م وتوفي سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨ م ، وقارن الحلة السيراء لابن الابار ، ج ١ ص ٥٤ ، حيث تنطق بنفس الملاحظة •

(١٣٨) البكري ، ص ١٢٣ ، القرطاس ، ص ٣٠ (زهرة الآس ، ص ٢٣)

(١٣٩) الحلة السيراء ، ترجمة القاسم بن ادريس رقم ٤٩ ، ج ١ ص ١٢١ •

(١٤٠) انظر الحلة السيراء لابن الابار ، ج ١ ص ٩٨ حيث يقول ابراهيم بن الأغلب •

الم ترني أرديت بالكيد راشدا ... واني بأخرى لابن ادريس راصد

تناوله عزمي على نأي داره ... بمختومة في طيهن المكائد

(١٤١) انظر الحلة السيراء لابن الابار ، ج ١ ص ٥٥ ، حيث ينسب الى ادريس شعرا في هذا الأمر ، يقول فيه •

كأنك لم تسمع بمكر ابن أغلب ... وما قد رمى بالكيد كل بلاد

ومن دون ما منتك نفسك خاليا ... ومناك ابراهيم شوك قتاد

وانظر نفس المصدر ، ترجمة بهلول بن عبد الواحد المدغري رقم ٤٠ ص ١١١ حيث النص على انه بعد أن أفسد ابراهيم بن الاغلب بين بهلول وبين صاحبه ادريس بن ادريس»

ان ادريس بن ادريس كتب الى ابراهيم بن الاغلب يدعوه الى طاعته ، ويطلب منه الكف عن ناحيته ، ويذكره بقرابته من النبي(١٤٢) - أو أنه صالح ابن الاغلب ، وسكن من غربة ، مما كان سببا في اشتداد ساعد الدولة الادريسية التي عجز الاغالبة عن مدافعتها بعد ذلك (١٤٣) •

والغريب في أمر الدولة الادريسية الفتية انها لم تكد تبلغ العقد الرابع من عمرها حتى بدأت تصيبها عوارض الشيخوخة والاضمحلال • وكانت العلة هي التفتت والتقسيم — آفة ذلك العصر — الذي ترتب على الصراع بين أفراد الأسرة ، من أجل الطمع في عرش المملكة • فلقد حرص العلوي المحروم من الاخوة ، الوحيد في أقصى المغرب، على أن يترك — وله الحق في ذلك — عددا كبيرا من الذرية ، فخلف ١٢ (اثنى عشر) ولدا ، ما بين راشد وقاصر (١٤٤) •

٣ — محمد بن ادريس بن ادريس :

وآلت الامامة الى أكبر ولد ادريس بن ادريس ، وهو محمد • وتتفق الروايات على أن كنزة والدة ادريس الأصغر وجدة محمد واخوته ، كان لها

= جرت مكاتبات بين الأغلبي والمدغري ، فكان مما كتبه الأخير الى ابن الأغلب :

لئن كنت تدعوني الى الحق ناصحا   لتكشف عن قلبي ضمير خلاف
لقدما هديك أنك ناصح   لمن قال بالصلح الخلافة كاف

(١٤٢) الحلة السيراء ، ج ١ ص ٥٥ ، حيث تقول الرواية ان ادريس كتب في هذا المعنى شعرا جعله في أسفل الكتاب ، ومنه :

اذكر ابراهيم حق محمد   وعترته والحق خير مقول
وادعوه للأمر الذي فيه رشده   وما هو لولا رأيه بمجهول
فان آثر الدنيا فان أمامه   ذلازل يوم للعقاب طويل

(١٤٣) انظر ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٤ (حيث يضيف الى ذلك ان الاغالبة لم يستطيعوا الاعتذار لخلفاء بغداد عن عجزهم أمام الأدارسة الا « بالطعن من ادريس والقدح في نسبه الى أبيه ادريس بما هو أوهى من خيوط العناكب ») •

(١٤٤) أبناء ادريس بن ادريس ، كما يوردهم الكتاب دون ترتيب منهجي ، هم : محمد والقاسم وعمر وداود وعيسى ويحيى وعبد الله وحمزة وأحمد وعلي وادريس وجعفر • انظر ابن عذاري (ج ١ ص ٢١١) الذي يكرر عبد الله بدلا من ذكر علي ، وقارن القرطاس (ص ٣٠) • والظاهر انه ينقل نفس رواية البكري (ص ١٢٤) الذي يذكر عبيد الله بدلا من علي • وكذلك الامر في الحلة السيراء (ج ١ ص ١٣١) • وانظر زهرة الآس (نفس ٢٣) الذي لا يذكر عليا ويضيف « الحسن » و « الحسين » •

نفوذها في سير أمور الدولة ، أو أنها كانت أشبه ما تكون بالوصية على محمد • فلقد أشارت على حفيدها الامام بأن يجعل اخوته على رأس أقاليم الدولة وولاياتها المختلفة • ومع أن الكتاب يذكرون صراحة أن هذا الأمر كان تقسيما للدولة ، أو توزيعها لها على اخوة محمد(١٤٥) ، الا أن الهدف منه كان – بطبيعة الحال – هو العمل على تقوية الأسرة ، بأن تكون الولايات والقيادات العسكرية بين أيدي أفرادها ، ولنا في قيام الدولة العباسية خير مثل لذلك ، عندما نحى أبو العباس السفاح كبار قواده ورجال دولته من الدعاة ، وعهد بولاياتهم الى اخوته وعمومته وقراباته من بني العباس واستجاب محمد بن ادريس الى نصيحة جدته ، كما تقول الرواية ، فجعل البالغين من اخوته وهم ثمانية على رأس الولايات المختلفة ، وأبقى القصر الثلاثة في كفالة جدتهم ، معه في مدينة فاس • وكان تقسيم البلاد على الاخوة كالآتي(١٤٦) •

١ – القاسم وله ولاية طنجة ، وتشمل سبتة وتطوان وقلعة حجر النسر وبلاد مصمودة وما الى ذلك من البلاد والقبائل (١٤٧) •

٢ – داود : وله بلاد هوارة وبلاد تسول وتازا ومكناسة وجبال غياثة وتامليت (١٤٨) •

٣ – عيسى : وله مدينة شالة وسلا وأزمور وبلاد تامسنا . وما والى ذلك من القبائل (١٤٩) •

---

(١٤٥) انظر القرطاس ، ص ٣٠ (قسم المغرب بين اخوته) ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ ، والترجمة ج ٢ ص ٥٦٣ (قسم البلاد بين اخوته) ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٢١١ (فرق البلاد على اخوته) ، البكري ، ص ١٢٤ ، والاستبصار ، ص ١٩٦ (فرق البلاد على اخوته) •

(١٤٦) اتخذنا توزيع القرطاس (ص ٣٠) اساسا ، واشرنا الى الاختلافات بينه وبين ابن خلدون وابن عذارى والبكرى ، كما استعنا بهم في تعديل قائمة الولايات في بعض المواضع •

(١٤٧) يزيد البكرى (ص ١٢٤) ، والحلة السيراء ، ج ١ ص ٣١ ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١٤ والترجمة ج ١ ص ٥٦٣) على ذلك مدينة البصرة التى يجعلها القرطاس في ولاية يحيى •

(١٤٨) لا يذكر القرطاس (ص ٣٠) تازا ، ويضيف ابن عذارى (ج ١ ص ٢١١) تامليت ، وكذلك البكرى ، ص ١٢٤ (تاملمت) •

(١٤٩) قارن البكرى ، ص ١٢٤ (وازلور وسلى) ، وابن عذارى (ج ١ ص ٢١١) الذى لا يذكر اسماء البلاد التى كانت لعيسى •

٤ ــ يحيى : وله مدينة البصرة وأصيلا ومدينة العرايش واعمالها ، وبلاد ورغة (١٥٠) ٠

٥ ــ عمر : وله مدينة تيجساس (تيكساس) وترغة ، وقبائل صنهاجة الهبط وغمارة ، فيما بينهما (١٥١) ٠

٦ ــ أحمد : وله مدينة مكناسة وبلاد فازاز ومدينة تادلا(١٥٢) ٠

٧ ــ عبد الله : وله مدينة أغمات وبلاد نفيس وبلاد المصامدةوالسوس الأقصى وبلاد لمطة (١٥٣) ٠

٨ ــ حمزة : وله مدينة وليلي واعمالها ،ومدينة تلمسانواعمالها(١٥٤)٠

خلاف عيسى في سلا وتامسنا وعصيان القاسم في طنجة :

هزيمة عيسى وتجريده من أملاكه :

ولقد كانت النتيجة الطبيعية لمثل هذا التفتيت أن دب الخلاف بين الاخوة ، فمنهم من استجاب لاغراء الأطماع الأنانية ، فخرج على سلطان الأخ

---

(١٥٠) لا يذكر ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٣) البصرة ضمن بلاد يحيى بل يضعها في بلاد القاسم ٠

(١٥١) يذكر القرطاس تيجساس بدلا من تيجساس التي يسجلها في الهامش (ص ٣٠) ، وهو لا يذكر مدينة ترغة ، أما ابن عذارى (ج ١ ص ٢١١) وكذلك البكري (ص ١٢٤) وابن الابار في الحلة السيراء (ج ١ ص ١٣٣) فلا يذكر سوى صنهاجة الهبط وغمارة ٠

(١٥٢) لا يذكر ابن خلدون ولا ابن عذارى ولا البكرى ولاية أحمد ، وهذا مما يشكك في رواية القرطاس ، خاصة وان مدينة مكناسة مذكورة ، كما رأينا ، بين البلاد التي اعطيت للأمير داود ٠ وللتوفيق بين الروايات المختلفة هذه لا بأس في أن يكون أحمد قد ولى مكناسة وغيرها من الاقاليم بعهد أخيه داود وتحت امرته ٠

(١٥٣) انظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٣ ، وقارن القرطاس ، الذي يجعل بلاده مصمودة مع القاسم ، كما نرى ٠

(١٥٤) انظر القرطاس ، ص ٣٠ ، الذي يقول ان تلمسان فقط كانت له ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١٤ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٣) الذي يقول انه كانت له مدينة وليلى واعمالها فقط ، كما في البكري (ص ١٢٤) ٠ اما ابن عذارى فلا يجعل حمزة بين الولاة أي انه يجعله بين القصر ٠ والظاهر أن حمزة كانت له الولاية الشرقية فقط ؛ لأن تلمسان كانت اقطاعا لابن سليمان بن عبد الله ؛ وسليمان هذا كان أخا لادريس الأول ، كما سبق أن أشرنا (انظر فيما سبق ص ٤٤٧ وهـ ٨٧) ، وهذا ما يقوله ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٤ ٠

الأكبر ، ومنهم من رأى التمسك بأهداب الطاعة ، وانتهى الأمر بسلسلة من المنازعات والحروب بين الاخوة · افتتح ذلك عيسى بالتمرد فى سلا وتامسنا ، وهو أمر مقبول بالنسبة لتلك الأقاليم التى عرفت باتجاهاتها الانفصالية ، وحركاتها الاستقلالية التى تمثلت فيما عرف عند الكتاب باسم زندقة برغواطة تحت قيادة بنى طريف الذين كونوا مملكة لهم عاشت منذ ثورة ميسرة (قرن ٢هـ/٨ م) ، وحتى قيام دولتى المرابطين والموحـــدين (قرن ٥ ، ٦ هـ/١١ ، ١٢ م) · وأمر الامام محمد أخاه القاسم ، صاحب طنجة ، بمحاربة عيسى بسبب مجاورة بلاده لبلاد عيسى ، لكنه امتنع· وفى ذلك تقول رواية الحلة السيراء ان القاسم كتب الى أخيه الامام محمد معتذرا عن توقفه عما أمره به ، فى أبيات شعر يفهم منها أن القاسم كان زاهدا فى أرض المغرب رغم ما كان له بها من مركز مرموق ، راغبا فى العودة الى المشرق ، وهو الأمر الذى يسترعى الانتباه ، بعد أكثر من اربعين سنةمن استقرار الادارسة فى المغرب (١٥٥) · واستجاب عمر ، صاحب بلاد غمارة ، لأمر أخيه الامام ، وجمع بربر غمارة — من ريف طنجة — وأوربة وصنهاجة ، كما أمده محمد بألف فارس من زناتة ، عندما اقترب من أحواز فاس ، فهزم عيسى وأخرجه من سلا وغيرها مما كان بيده من البلاد ، وذلك قبل وصول المدد ، وضمها الى أملاكه بأمر محمد(١٥٦) ·

تأديب القاسم واعتزاله الولاية :

ثم سار عمر — حسب أوامر الامام — لمحاربة القاسم ، ونجح فى هزيمته بعد مواقع عديدة ، وانتهى أمر القاسم الى اعتزاله الحياة العامه ، واقباله على الزهد والتعبد — فى رباط بناه لنفسه على ساحل البحر ، مما يلى مدينة أصيلا (١٥٧) ·

---

(١٥٥) أنظر ج ١ ص ١٣١ — ١٣٢ حيث يقول القاسم فى بيتين من الشعر :

سأترك للراغب الغرب نهبا وان كنت لى الغرب قيلا وتدنا
واسمو الى الشرق فى صبــة يعز بها رتبا من احبنا

(١٥٦) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٣٣ ·

(١٥٧) القرطاس ، ص ٣٠ ، البكرى ، ١٢٤ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ والترجمة ج ٢ ص ٥٦٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١١ ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٣٣ ، (رباط القاسم بأصيلا بموضع يعرف بتاهدارت ، حيث قام يتعبد فيه الى ان مات — القرطاس ص ٣١ · ثم ملك اصيلة عقبه الى ان صار امرها الى حسن الحجام ثم ابن ابى العافية — البكرى ص ١١٢)

عمر يضم الى املاكه اقاليم سلا وتامسنا وطنجة :

وهكذا ضم عمر بلاد اخويه القاسم وعيسى الى أملاكه فاصبحت مملكته تمتد من طنجة شمالا الى سلا وبلاد تامسنا وأزمور ، نحو الجنوب الغربي ، حيث مصب وادي أم الربيع ، كما امتدت شرقا من سبتة الى منطقة قبائل غمارة نحو مليلة ، فكان مملكة عمر امتدت على طول سواحل المغرب الأقصى الشمالية على البحر المتوسط وعلى معظم سواحل المحيطة الشمالية الغربية . واستمرعمر فى خدمة اخيه محمد الى أن مات فى سنة ٢٢٠ هـ/٨٣٥ م ، فى بلاد صنهاجة فى موضع يعرف بفج الفارس ، شمال مدينة فاس فى أرض غمارة ، وحمل الى مدينة فاس حيث دفن الى جانب أبيه ، وصلي عليه أخوه محمد الامام(١٥٨) . وسيكون لأبناء عمر بن ادريس هذا شأن ، اذ أنهم سيرثون أملاك والدهم بموافقة الامام ، لقد خلف علي بن عمر والده (١٥٩) بمعنى تأكيد انقسام الدولة . وعلي بن عمر هو جد الحموديين من الادارسة الذين سيدخلون الأندلس بعد سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م ، عند انهيار الدولة الأموية (١٦٠) .

أما عن الامام محمد الذى تقول عنه رواية للرازى انه « أخلد الى اللهو والشراب والنساء » ، وان ذلك كان السبب فى أن خلعه اخوته (١٦١)، فلم يقدر له ان يعيش بعد أخيه عمر الا سبعة أشهر فقط ، اذ توفي بمدينة فاس ، ودفن بشرقي جامعها مع أبيه وأخيه ، وذلك فى شهر ربيع الثاني من سنة ٢٢١هـ/مارس سنة٨٣٦م ، بعد ٨(ثمانية) أعوام من الحكم(١٦٢) ، وخلفه ابنه علي .

٤ — علي بن محمد بن ادريس (٢٢١ هـ/٨٣٦ م — ٢٣٤ هـ/٨٤٩م) :

اعتلى علي بن محمد عرش المملكة الادريسية بعد وفاة والده وبعهليه »

---

(١٥٨) القرطاس ، ص ٣١ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ (حيث الموضع : « فج الفرس ») ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١١ .

(١٥٩) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ ، والترجمة ، ج ٢ ص ٥٦٤ .

(١٦٠) القرطاس ، ص ٣١ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١١ ، البكرى ص ١٢٥ ، الاستبصار ، ص ١٩٦ .

(١٦١) الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٣٣ ، ولنا أن نلاحظ الرواية تقول خطأ انه لم يعلم حواله بل بعد أخوه القاسم .

(١٦٢) القرطاس ، ص ٣١ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤ .

وبذلك صار اماما للحسنيين في المغرب ، وهو بعد غلام لم يجاوز السنة التاسعة من عمره الا بعدة أشهر (١٦٣) • والظاهر أن صغر سن الأمير ، مما يجعله من وجهة النظر القانونية غير مؤهل لولاية أمور المسلمين ، هي التي جعلت البكري يقتضب الكلام في عهده اقتضابا ، فيكتفي بالاشارة الى ولايته ثم الى وفاته (١٦٤) ، بينما أسقط ابن عذاري عهده كلية فلم يذكر امامته (١٦٥) •

أما المعلومات التي جمعها عنه صاحب روض القرطاس فتشير الى أن أم علي هي رقية بنت اسماعيل بن عمير بن مصعب الأزدي ، وأن الامير الصغير كان له من العمر عندما ولي ٩ (تسع سنوات) و ٤ (أربعة) أشهر فقط (١٦٦)• وتقرير أن والدة الامام الجديد عربية خالصة من أزد اليمن يعني أن مسألة تعريب المغرب الأقصى والدولة الادريسية ، وهو الأمر الذي كان من أهداف الأدريسيين الأولين ، كان يسير نحو تحقيق أغراضه بخطى حثيثة • ومن الناحية الأخرى فان وصول الصبي الصغير الى منصب الامامة ، دون وصاية راشد جديد أو أبي خالد ، تعني أن الامامة الادريسية كانت قد مدت جذورها قوية في أرض فاس ، وانها كانت تستطيع الوقوف وحدها بعد نصف قرن من قيامها بين قبائل أورية ، رغم الصراعات التي قامت بين أمراء الأدارسة أنفسهم ، ورغم ما أخذ على الأمير محمد ، والد علي ، من الانصراف الى الشراب واللهو ، وانشغاله بالنساء نتيجة لذلك •

وفي تقييم عهد الأمير علي بن محمد ، الذي توفي وهو في ريعان الشباب ، في الثانية والعشرين من عمره ، بعد ملك استمر ١٣ (ثلاثة عشر) عاما فقط ، نعتقد أنه لم يمارس ، حقيقة ، السلطان الا في أخرياتها ، لقول الرواية : انه « ظهر منه من الذكاء والنبل والفضل ما يقتضيه شرفه ونسبه الصحيح » (١٦٧)• وفي تفسير ذلك لا يتعدى الأمر الاشارة الى أنه : « سار بسيرة

---

(١٦٣) انظر القرطاس ، ص ٣٢ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤ ، والاستقصا (طبعة الدار البيضاء) ، ج ١ ص ١٧٤ (حيث يقول انه لقب بحيدرة على لقب علي بن أبي طالب) •

(١٦٤) البكري ، ص ١٢٤ •

(١٦٥) ابن عذارى ج ١ ص ٢١١ : حيث يجعل الذي يلي بعد محمد بن ادريس هو ابنه يحيى بن محمد أمر على ووريثه في الملك •

(١٦٦) القرطاس ، ص ٣٢ •

(١٦٧) القرطاس ، ص ٣٢ •

أبيه وجده ، في : العدل والفضل ، والدين ، والحزم واقامة الحق ، وتأسيس البلاد ، وقمع الأعداء ، وضبط البلدة والثغور »(١٦٨) . والمقصود بتأسيس البلاد هو عمرانها وزيادة تحضرها . أما عن ضبط البلدة فالمقصود بها مدينة فاس قاعدة الدولة ، وما كان اليها من الأعمال ، مما يقع تحت الحكم المباشر للامام . بينما يقصد بالثغور أقاليم الدولة الادريسية المحيطة بأعمال فاس مما كان يقع عبء ادارتها ، واقرار الامور فيها ، وحمايتها ، على من كان في حكمها من عمومة علي وأبناء عمومته من أمراء الأدارسة ، الذين اطلق عليهم اسم « الحسنيين » ، كما عرفوا أيضا « بالقرشيين » (١٦٩) .

وهكذا عرفت البلاد في عهد علي نوعا من الاستقرار لم تعرفه من قبل ، وتمتع الناس بالأمن والدعة ، الى أن وافته منيته في شهر رجب من سنة ٢٣٤هـ/ يناير ٨٤٩ م ، وولي أخوه يحيى بن محمد بعد ملك دام ١٣ (ثلاثة عشر) عاما (١٧٠) .

٥ — يحيى بن محمد بن ادريس (٢٣٤ هـ/٨٤٩ م — بعد ٣٤٥ هـ/٩٥٦م) :

رغم أهمية رواية البكري بالنسبة لتاريخ الدولة الادريسية ، فمن الواضح أن البكري يخطيء عندما يقول ان الذي خلف علي بن محمد ، في ملك فاس هو ابن أخيه يحيى بن يحيى بن محمد (١٧١) ، اذ المعروف ان الذي خلف عليا هو أخوه يحيى بن محمد ، وان ابن هذا الأخير ، وهو يحيى بن يحيى بن محمد ، خلف والده فكان سادس الأدارسة ، وهذا ما يتضح من رواية القرطاس الذي يلخصه ابن خلدون(١٧٢) . أما ابن عذاري فانه الى جانب اسقاطه علي ابن محمد ووضعه بدلا منه يحيى بن محمد ، فانه يضع أحداث ابن هذا الأخير وهو يحيى بن يحيى بن محمد ، في موضع والده ، فكأنه أسقط أيضا عهد

---

(١٦٨) القرطاس ، ص ٣٢ .

(١٦٩) عن تسمية الأدارسة بالقرشيين ، انظر البكري ، ص ١٢٢ .

(١٧٠) القرطاس ، ص ٣٢ . وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ الذي يلخص القرطاس فيما يتعلق بتاريخ الأدارسة فيقول في عهد علي بن محمد : فقام بأمر الأولياء ، والحاشية من العرب ، وأوربة ، وسائر البربر ، وصنائع الدولة وبايعوه غلاما مترعرعا ، فقاموا بأمره وأحسنوا كفالته وطاعته فكانت أيامه خير أيام » .

(١٧١) البكري ، ص ١٢٤ .

(١٧٢) القرطاس ، ص ٣٢ (العبر ، ج ٤ ص ١٥) .

يحيى بن محمد ، وهذا ما سنشير اليه في موضعه(١٧٣) ·

وهكذ عهد علي بن محمد لأخيه يحيى بن محمد بن ادريس الذي صار الامام الخامس · وفي عهده تقول رواية القرطاس انه سار بسيرة أخيه وأبيه وجده (١٧٤) بمعنى انتهاج طريق العدل والفضل والدين واقامة الحق ، الى جانب الحزم في ادارة البلاد وحماية الثغور · أما أكثر ما يستقطب اهتمام ابن أبي زرع في أيام يحيى بن محمد ، فهو ازدياد تحضر فاس ، وكثرة عمارتها ، وبناء ضواحيها الجديدة · فقد « قصد اليها الناس ، من : الأندلس، وافريقية ، وجميع بلاد المغرب ، فضاقت بسكانها ، فبنى الناس الأرباض بخارجها » (١٧٥) · ولقد اهتم الأمير يحيى بتزويد عاصمته بالمباني ذات المنافع العامة ، وبخاصة الحمامات التي زهت بها مدينة فاس ، وكذلك الفنادق التي أقيمت لخدمة الوافدين على المدينة من التجار وغيرهم (١٧٦) ·

بناء جامع القرويين (٢٤٥ هـ/٨٦٠م) :

أما أشهر المباني التي أقيمت في فاس على عهد الأمير يحيى بن محمد ابن ادريس ، والتي ظلت مفخرة العاصمة الادريسية حتى أيامنا هذه ، فهو جامع القرويين · والحقيقة انه مع اتساع المدينة المزدوجة بعدوتيها ، ونشأة الأرباض الجديدة حواليها ، كان من الطبيعي أن يزداد اتساع كل من جامعيها العتيقين ، وهما جامع عدوة القرويين المعروف بجامع الشرفاء ، وجامع عدوة الأندلسيين المعروف بجامع الأشياخ · بل وان تظهر الحاجة الى بناء مساجد محلية جديدة تلبي حاجة المصلين الذين كانت أعدادهم تزداد مع ازدياد حجم المدينة وكثرة الوافدين على أحيائها من كل انحاء المغرب ، ومن الأندلس · وهكذا تم بناء جامع القرويين في سنة ٢٤٥ هـ/٨٦٠ م على عهد يحيى بن محمد ، ولكن على أنه جامع « محلي » صغير (١٧٧) ·

صاحبة البناء : فاطمة القيروانية :

وفي بناء الجامع يقول ابن أبي زرع صاحب كتاب القرطاس ان موضعه ، حين بنيت مدينة فاس ، كان « فضاء : يعمل بها أصناف الجبس ، وبها

---

(١٧٣) أنظر فيما بعد ص ٤٦٨ (عن يحيى بن يحيى) ·

(١٧٤) القرطاس ، ص ٣٢ ·

(١٧٥) القرطاس ، ص ٣٢ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ ·

(١٧٦) القرطاس ، ص ٣٢ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ ·

(١٧٧) نفس المصدر ، وقارن زهرة الآس ، ص ٣٤ - ٣٥ ·

أيضا أصناف من الشجر ، ترحل من هوارة عن رالمه ، وعندما أتي وفد أهل القيروان الى الامام ادريس بن ادريس ، بعيالهم وأولادهم ،أنزلهم حول ذلك الموضع من عدوة القرويين (١٧٨) ، التي نسبت اليهم • وينسب بناء الجامع إلى سيدة قيراوية من هؤلاء الوافدين ، توصف بالبركة والصلاح ، هي أم القاسم فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني • وكانت السيدة فاطمة قـــد استقرت في ذلك الموضع من عدوة القرويين بصحبة زوجها وأخت كانت لها، وواضح من النص أن العائلة القرشية الأصل كانت موسرة ، وأنها كانت قد حملت معها ثروتها من القيروان • فعندما توفي زوج السيدة فاطمة ،وكذلك أختها « ورثت منهما مالا جسيما ، حلالا طيبا ، ليس فيه شبهة ،لم يتغير ببيع ولا شراء ، فأرادت أن تصرفه في وجوه البر وأعمال الخير ، فعزمت على بناء مسجد » (١٧٩) •

المال الحلال الصرف :

ونلاحظ أن اصرار النص هنا على أن المال الذي استخدم في بناء جامع القرويين كان حلالا طيبا ، لا تشوبه شائبة حتى من بيع أو شراء ، مما يسترعي الانتباه فعلا • اذ الحقيقة أن أهل المغرب ، وكذلك الأندلس ، كانوا متشددين في أمر سلامة الأموال التي تخصص لبناء المساجد عندهم ، بشكل لا نجد له نظيرا في المشرق • وكانت أحسن الأموال التي تبنى بها المساجد عندهم هي أموال المغانم المأخوذة في الجهاد ، مما طهرته سيوف الشجعان وزكته دماء الشهداء في ميادين القتال • وهذا ما سيحدث عندما شرع في توسيع نفس الجامع ، عندما غلب عبد الرحمن الناصر على بلاد العدوة (المغرب) ، فبعث « بمال كثير من أخماس غنايم الروم » لهذا الغرض(١٨٠) •

---

(١٧٨) القرطاس ص ٣٢ - حيث يفرد ابن أبي زرع فصلا كاملا عن تاريخ جامع القرويين منذ بنائه سنة ٢٤٥ هـ/٨٦٠ م ، الى أيام تأليفه لكتابه سنة ٧٢٦ هـ/١٣٢٦ م ، ينتهي في ص ٤٦ ، وقارن تلخيص ابن خلدون ، ط• بيروت ، ج ٤ ص ٢٩ - ٣٠ •

(١٧٩) القرطاس ، ص ٣٢ - ٣٣ • ويضيف صاحب القرطاس رواية أخرى ، تقول ان أخت السيدة فاطمة - التي عرفت أيضا بأم البنين - كانت تسمى مريم ، وانه كان لها فضل بناء « جامع الأندلس » ، هو الآخر ، « من مال حلال طيب موروث عن والدها وأختيهما (نفس الصفحة) ، مما يجعلنا نظن ان تلك الرواية الأخيرة ، ما هي في حقيقـــة الأمر الا تحوير للرواية الأولى ، قصد بها تكريم جامع الأندلس أيضا ، ولا نريد أن نشير الى أنهـــا ربما شككت في صحة الرواية الأولى الخاصة بالسيدة فاطمة وجامع القرويين •

(١٨٠) القرطاس ، ص ٣٤ • وفي التشدد والتدقيق في طهارة الأموال اللازمة لأعمال التجديد والزيادة في المسجد ، ما تذكره الرواية من رفض قاضي فاس الفقيه أبي عبد الله =

والمهم ان السيدة فاطمة اشترت موضع الجامع بذلك المال الموروث حلالا طيبا ، وشرعت في حفر الأساس والبناء في يوم السبت مستهل رمضان المعظم سنة ٢٤٥ هـ/٣٠ نوفمبر ٨٥٩ (١٨١) ، أي في السنة الثانية عشرة من امامة يحيى بن محمد بن ادريس .

مواد البناء الحلال الصرفة :

وفي نطاق فكرة لستخدام المال الحلال الطيب ، الذي لا تشويه شائبة، ولا تناله شبهة ، تقول الرواية ان حجارة الكدان التي استخدمت في البناء ، وكذلك الطابية (الملاط) أتت من نفس أرض الجامع ، حيث « حفرت (السيدة) في وسطه فصنعت كهوفا ، واقتطعت منها الكدان ، واخرجت منها التراب والحجر والرمل الأصفر الطيب ، فبنت به الجامع المذكور كله حتى تم ، ولم تدخل فيه من تراب غيره » (١٨٢) . والأمر كذلك بالنسبة للماء الذي استخدم في البناء فقد حفرت السيدة الصالحة في أرض الجامع بئرا ، هي الموجودة حاليا في الصحن ، « فكان البناؤون يسقون منها الماء لبناء الجامع المكرم ... لم تصرف فيه سواه ، احتياطا منها ، وتحريا من الشبهة» . وظلت فاطمة القروية صائمة الى أن تم تشييد الجامع (١٨٣) .

حجم الجامع الأول وأقسامه :

وبطبيعة الحال كان المجامع الذي بنته فاطمة القروية صغيرا ، اذ احتوى على أربع بلاطات أي أروقة عرضية موازية لحائط القبلة وصحن صغير . وذلك حسب رواية أبي القاسم بن جنون في تفسيره في تاريخ مدينة فاس(١٨٤) . أما عن ذرع الجامع فيورد صاحب القرطاس رواية تقول ان طول حائط القبلة، وهو طول البلاطات ، ما بين الحائط الغربي والحائط الشرقي للجامع ، كان يبلغ ١٥٠ (مائة وخمسين) شبرا ، وأن محراب الجامع كان في الموضع

= محمد بن داود ما عرضه عليه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين من أن تكون النفقة من بيت المال ، اذ قال القاضي : « سأل الله أن يغنيها عنه من مالها الذي يجمع من احباسها (أوقافها) بأيدي الوكلاء » — القرطاس ، ص ٣٦ .

(١٨١) القرطاس ، ص ٣٢ (زهرة الآس ، ص ٣٥) .

(١٨٢) القرطاس ، ص ٣٣ (زهرة الآس ، ص ٣٥) .

(١٨٣) القرطاس ، ص ٣٣ .

(١٨٤) القرطاس ، ص ٣٣ .

الذى تطل عليه الثريا ، على أيام المؤلف (١٨٥) ، فى أوائل القرن الثامن الهجرى (١٤ م) ، بمعنى أنه كان في موضع منتصف بين الصلاة حينئذ . وتضيف نفس الرواية أن السيدة فاطمة بنت فى الجامع صومعة غير مرتفعة ، أى مناسبة لحجم البناء ، وذلك فى الموضع الذى كانت توجد فيه القبلة « التى على رأس العنزة » ، على عهد صاحب روض القرطاس (١٨٦) .

الزيادة فى الجامع على عهد زناتة :

وبقى جامع فاطمة محليا الى أن انقضى ملك الادارسة فى فاس . وعندما آل حكم المدينة الى زناتة تحت رعاية الأمويين في الاندلس ، وضاق مسجد الشرفاء الجامع بالمصلين زيد فى جامع القرويين زيادة كبيرة ونقلت اليه الخطبة ، بعد أن « صنعوا به منبرا من خشب الصنوبر » وذلك فى سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦م (١٨٧) ، وهذا ما سنعود اليه في موضعه (من الجزء الثالث) ، انشاء الله .

وبعد بناء القرويين لا نجد ذكرا للأمير يحيى بن محمد الذى يمكن تلخيص عهده ، فى حسن السيرة ، وانتشار الأمن والدعة بين الناس ، مما أدى الى نهضة عمرانية طيبة شهدتها فاس التي زهت بمساجدها ، وفنادقها ، وحماماتها . وكان للامير نصيبه فى هذه النهضة . وكذلك أرباب الدولة والمتيسرين من الناس . وعندما توفى يحيى بن محمد بن ادريس خلفه في الامامة ابنه وسميه : يحيى بن يحيى فى تاريخ لا تحدده لنا المصادر الأساسية .

---

(١٨٥) القرطاس ، ص ٣٢ (زهرة الآس ، ص ٣٥) — ونلاحظ هنا ان الرواية اعتمدت مقياس بلاطات الجامع التى تعادل طول صفوف المصلين ، واهملت ذرع عمق بيت الصلاة الذى يعادل مقياس عرض البلاطات الأربعة ، مما كان يسمح بمعرفة عدد المصلين الذين كان يمكن للمسجد احتواءهم فى ذلك الوقت عن طريق حساب عدد صفوفهم .

(١٨٦) ابن أبى زرع ، ص ٣٣ .

(١٨٧) القرطاس ، ص ٣٣ — وتقول نفس الرواية ان الزناتية زادوا أيضا فى جامع الأندلس زيادة كبيرة ، « حدودها ظاهرة باقية الى الآن » وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ (حيث النص على بناء الصومعة فى سنة ٣٤٥ هـ ، بعد مائة سنة من اختطاط الجامع ، وذلك « حسبما هو منقوش فى الحجارة فى الركن الشرقي منها » . أما عن نقل الخطبة فنجد رواية اخرى تقول ان ذلك تم فى سنة ٣٢١ هـ/٩٣٣ م ، على عهد حامد بن يحيى الهمدانى ، عامل عبيد الله الشيعى على المغرب ، الذى نقل الخطبة أيضا من جامع الأشياخ بعدوة الأندلس الى جامع الاندلس الذى تنسبه بعض الروايات الى السيدة مريم القروية أخت السيدة فاطمة — كما سبقت الاشارة ، هـ ١٧٩ ص ٤٦٥ .

٦ - يحيى بن يحيى بن محمد بن ادريس :

نظرة فاحصة في المصادر :

والحقيقة انه مما يسترعي الانتباه أننا لا نفتقد - منذ الآن - التوقيت الدقيق ، الخاص بولاية الأئمة وبوفاتهم ، وبتحديد عهد كل أمير بالسنوات والأشهر والأيام ، وهو الأمر الذى اهتم به المؤرخون كثيراً ، بل اننا نفتقد أية اشارة الى التوقيت أو التاريخ فيما يتعلق بوفاة يحيى بن محمد ثم بولاية ابنه يحيى بن يحيى ، وهو الأمير الادريسى السادس وكذلك من أتى بعدهم من الأمراء • وغياب التحديد التاريخي هذا يدعو ، فى أغلب الظن ، الى الشك فى صحة ترتيب أمراء الأدارسة الذين يلون على بن محمد ، وهو الأمر الذى يؤيده اختلاف كل من البكرى وابن عذارى وابن ابى زرع فيمن أتى بعد على بن محمد ، كما سبقت الاشارة • ونحن نظن أن الأمر اختلط على البكرى عندما ذكر ولاية يحيى بن يحيى بن محمد بعد ولاية على بن محمد ، بدلا من وضعها فى موضعها الصحيح هنا ، ولهذا حاول تبرير هذا اللبس ، فقال : ان يحيى بن يحيى بن محمد الذى قصده هو ابن اخى على ابن محمد ، والصحيح انه أخوه يحيى بن محمد ، كما رأينا •

ولقد سرى اللبس الى ابن عذارى عندما اسقط عهد على بن محمد ، ووضع مكانه أخاه يحيى بن محمد ، ولكن الأمر اختلط عليه ، مرة أخرى ، عندما سجل أحداث المملكة الادريسية فى عهد يحيى بن يحيى بن محمد ، على أنها جرت فى عهد والده يحيى بن محمد(١٨٨) ، وهذا ما يتضح من المقارنة مع البكرى وصاحب روض القرطاس الذى يأخذ عنه ابن خلدون •

تقسيم المملكة :

والذى يسترعي انتباه كل من البكرى وصاحب القرطاس هو النهاية القصصية التى ختم بها يحيى بن يحيى حياته السياسية فى بعض حمامات فاس • وهكذا لا نجد اشارات الى الحياة السياسية فى عهد الأمير الا فى ابن عذارى • ففى بداية امارة يحيى بن يحيى ، قسم المملكة الفاسية الى ثلاثة اقسام ادارية عهد بها الى أعمامه وأخواله على الوجه التالى :

---

(١٨٨) انظر ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢١١ •

١ ـ القبلة من مدينة فاس الى أغمات ، وعهد بها الى حسين ، منهم •

٢ ـ المشرق من مدينة فاس الى مكناسة وهوارة وصريته ، وولى عليها داود •

٣ ـ المغرب من مدينة فـــاس الى لهانة وكتـــامة ، وعهد بها الى القاسم (١٨٩) •

٤ ـ وبذلك تبقى المنطقة الرابعة الى الجوف أي الشمال من قصبة الديار الادريسية فاس ، ونظن أنها كانت تابعة لادارة يحيى بن يحيى ، أي لحكم الحكومة المركزية مباشرة •

وتضيف رواية ابن عذاري الى ذلك ان يحيى بن يحيى : « تشاغل عما كان يحق عليه من سياسة أمره » ، وأن أخوته انتهزوا الفرصة ، فملكوا أنفسهم واستأثروا بحكم ولاياتهم ، واستمالوا القبائل ، وقالوا لهم : انما نحن أبناء اب واحد » • وانتهى الأمر فعلا باستقلالهم عن فاس ، اذ « قدمهم البربر على أنفسهم ، تقديما كليا » ، كما تقول الرواية (١٩٠) •

نهاية يحيى بن يحيى في مغامرة نسائية في بعض حمامات فاس :

وواضح من النصوص ان حياة اللهو التى أخذت تعرفها فاس ، نقلا عن عاصمة الخلافة بغداد فى المشرق ، أو عن طريق قرطبة عاصمة الأندلس ، استبدت بالأمير يحيى بن يحيى ، فانصرف الى التمتع بمباهج الحياة ، من الانهماك فى الشراب ، والهيام بالنساء (١٩١) • والظاهر ان الحمامات فى فاس ، مثلها مثل الحمامات فى العواصم العربية الأخرى ، كانت قد أصبحت من المؤسسات الهامة فى حياة المدينة • فقد كانت تقوم بدور رئيسى فى نظافة أهل المدينة والمحافظة على صحتهم ، كما كان لها دورها كمراكـــز اجتماعية وثقافية يستفيد منها الجميع رجالا ونساء من مسلمين وأهل ذمة • وهكذا كانت هناك أوقات معينة تخصص فيها الحمامات لاستقبال النساء ، وكانت تلك فرصة يحاول فيها العابثون من الشباب ، ممن تستهويهـــم المغامرات النسائية ، تحقيق بعض مآربهم الخبيثة ، وكان بعضهم لا يتورع

(١٨٩) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١١ •

(١٩٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١١ •

(١٩١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١١ ـ ٢١٢ • وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ (حيث فاساء السيرة وكثر عبثه فى الحرم) •

عن استخدام أساليب غريبة من التمويه كالتخفي في زي النساء مثلا ـ وهو الأمر المعروف ٠

والظاهر أن أميرنا يحيى بن يحيى بن محمد تشاغل عن سياسة دولته بالاستغراق في اللهو والشراب والغرام بالنساء الى حد العبث فعلا ،والخروج عن المألوف ٠ فلقد أساء السيرة ، كما تقول رواية القرطاس ، وهام بفتاة من بنات اليهود ، اسمها حقة ، توصف بأنها كانت من أجمل نساء عصرها ٠ وتهور يحيى في هيامه بالفتاة حتى دخل عليها الحمام ٠ في غفلة من المشرفين عليه ٠ وفشلت المحاولة الحمقاء في الوصول الى جمال اليهودية الفاتنة ، اذ استغاثت فبادر اليها الناس ، ولم يفلت الأمير العابث الا بشق الانفس ، بعد ان انكر الجميع هذا الفعل الفاضح ، وتغير عليه أهل مدينــة فاس (١٩٢)٠

تحرك اهل فاس :

ما بين الثورة والامر بالمعروف :

وكانت المغامرة النسائية المشئومة سببا في هلاك يحيى بن يحيى ٠ فلقد استغل موجة السخط الشعبي في فاس أحد زعماء العرب ، وهـــو عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي ، الذي سار على رأس العامة نحو القصر الأميري ، وهم يزمعون التخلص من أميرهم الفاسق ٠ والظاهر ان يحيى الذي جلله العار ، لم يجد من يدافع عنه من جنده أو أصحابه ، حتى أن زوجته التي غرر بها وهي قريبته : عاتكة بنت علي بن عمر بن ادريس ، اشفقت عليه من القتل ، ونصحته بالفرار الى عدوة الأندلس (١٩٣) ٠

واذا كانت الروايات تجمع على أن يحيى بن يحيى مات في عـــدوة الأندلس في نفس الليلة التي فر فيها ، مما يمكن أن يفهم منه أنه مات اسى ،امة ، كما يظن صاحب روض القرطاس (١٩٤) ، فأغلب الظن أنه مات متأثرا

---

(١٩٢) القرطاس ، ص ٥١ ، البكري ، ص ١٢٤ (حيث نجد اسم اليهودية « حنة ») ، عذارى ، ج ١ ص ٢١٢ (حيث ينسب الرواية خطا ، كما اشرنا ، الى يحيى بن محمد) ٠

(١٩٣) القرطاس ، ص ٥١ ، البكري ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ؛ حيث تقول الرواية انه لم تخرج معه زوجته عاتكة ٠ وقارن ابن خلدون (ج ٤ ص ١٥) الذي يتورع من التفصيل قائلا : « وثارت به العامة لمركب شنيع أتاه » ٠

(١٩٤) انظر القرطاس ، ص ٥١ ، البكري ، ص ١٢٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٢ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ (حيث نجد اضطرابا في النص اذ يقول : « فتوارى ليلتين ، ومات أسفا لليلته ») ٠

بجراحة ، وهو يفر أمام مطارديه من أهل عدوة القرويين ·

عبد الرحمن بن أبي سهل يتغلب على فاس :

وبموت يحيى بن يحيى في عدوة الأندلس سقطت فاس ، ثمرة ناضجة ، بين يدي عبد الرحمن بن أبي سهل ، الذي بدأ آمرا بالمعروف وصار ما بين ليلة وضحاها متغلبا على عاصمة الحسنيين في المغرب · ولكن عاتكة زوجة يحيى بن يحيى لم تقف مكتوفة الأيدي ، بعد أن فشلت نصيحتها لزوجها بالفرار أمام خصومه ، فكتبت الى أبيها علي بن عمر بن ادريس ، والي بلاد صنهاجة وغمارة في اقليم الريف ، تخبره بما حدث في فاس : من الثورة على زوجها ، وتغلب عبد الرحمن بن أبي سهل على المدينة ·

انتقال الملك الى بيت عمر بن ادريس :

٧ - علي بن عمر بن ادريس اماما :

وكانت فرصة استغلها علي بن عمر ، فجمع جيوشه وحشمه ، وقصد الى مدينة فاس · والظاهر أن عبد الرحمن بن ابي سهل اكتفى بتسليم العاصمة للأمير الادريسي دون مقاومة ، اذ لا تشير النصوص الى أعمال حربية بين الطرفين ، مما يعني أن الثائر الجذامي لم يعدل في مطالبه ، الى أكثر من : اقامة العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر · وهكذا فتحت عدوة القرويين أبوابها الى علي بن عمر ، كما رحبت به عدوة الأندلس بعد ذلك ، فأصبح سيدا لمدينة فاس بشقيها على ضفتي النهر (١٩٥) · وباستقرار علي بن عمر في فاس دانت له كل بلاد المغرب ، وخطب له على جميع منابرها ، وبذلك انتقلت امامة الأدارسة من بني محمد بن ادريس الى بني عمهم عمر ابن ادريس (١٩٦) ·

وللأسف تغفل مصادرنا الرئيسية كالبكري وابن عذاري الاشارة الى

---

(١٩٥) انظر البكري ، ص ١٢٥ . ابن عذاري ، ج ١ ص ٢١٢ (حيث يقول النص انه دخل عدوة القرويين) ، وقارن القرطاس ، ص ٥١ ، (حيث ينص على دخـــول عمر عـدوة القرويين والأندلس) ·

(١٩٦) القرطاس ، ص ٥١ ، البكري ، ص ١٢٥ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٢١٢ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ (حيث يقول ان الذي استدعى علي بن عمر هم أهل الدولة من العرب والبربر والموالي) ·

تواريخ تلك الاحداث ، كما لم يستطع صاحب روض القرطاس ، عندما حاول تحديد ولاية علي بن عمر ،الاالقول : انه بويع بعد وفاة يحيى بن يحيى ابن محمد ، مع أنه كانت قد حدثت أحداث مهمة فيما بين وفاة يحيى وقدوم علي الى فاس • بينما نجد بياضا في موضع التاريخ في عبر ابن خلدون • مما يعني أن المؤرخ كان يرجو أن تسنح له الفرصة ، فيما بعد ، لمعرفة التاريخ وتسجيله • وسيظل الحال على هذا المنوال من افتقاد التواريخ والتحديدات الزمنية الى سنة ٢٩٢ هـ/٤ ـ ٩٠٥ م ، وهي السنة التي هلك فيها يحيى بن القاسم ، المشهور بالعوام ، الذي خلف علي بن عمر في أمامة فاس ، أثر الثورة الخارجية الجامحة التي عصفت بملكه •

الأندلس والفكر الخارجي :

عبد الرزاق الفهري الصفري ، واستمرار هبوب رياح الخارجية من الأندلس الى المغـــرب :

فاذا كان علي بن عمر قد وصل الى الملك عبر الثورة الشعبية التي ترعمها أحد رؤساء العرب من الجذاميين ، وهو عبد الرحمن بن أبي سهل ، احتجاجا على سوء سلوك يحيى بن يحيى بن محمد ، فان ملكه هذا قد ضاع في ثورة عارمة أخرى ، قام بها البربر من الخوارج بقيادة أحد زعماء العرب من الفهريين ، هو عبد الرازق المشهور بالخارجي • والذي يلفت النظر في تلك الثورة ، هو ما يقوله الكتاب ، من : أن صاحبها عبد الرزاق أصله من بلاد الأندلس ، من مدينة وشقة (١٩٧) ، في اقليم الثغر الأعلى ، فيما وراء سرقسطة وحوض الابره • فذلك يعني أن بلاد الأندلس اذا لم تكن أرضا صالحة لنمو مذاهب الخوارج ، تماما كما كان حالها بالنسبة لمذاهب الشيعة ، فانها نجحت منذ وقت مبكر في بذر بذور الخارجية في أرض المغرب ، بل وكذلك المذاهب المنحرفة التي سميت بالزندقة والكفر •

هكذا يشير الكتاب الى علاقة وثيقة بين طريف ، أول فاتحي الأندلس بن ميسرة المدغري الصفري ، أول كبار ثوار الخوارج في المغرب ، ثم الى علاقة بين زندقة برغواطة في اسيم تامسنا وبين رجل برباطي أي من وادي برباط بجنوب الأندلس ، وذلك قبل مجيء ثائرنا عبد الرزاق الوشـــقي الأندلسي • والذي نريد أن نخرج به من ذلك هو أنه ، اذا كان التشيع لآل

---

(١٩٧) القرطاس ، ص ٥١ ، البكري ، ص ١٢٥ •

البيت من الحسنيين قد حل بين بربر المغرب الأقصى محل الفكر الخارجى الصفرى ، بفضل هجرة ادريس الأول ، وما تلاها من استمرار هجرة العلويين من أقاربه ، ومن شيعتهم ، فان ذلك لم يعن اندثار الحركة الخارجية والفكر الصفرى تماما من بلاد فاس • فقد كانت الحياة تدب فيه خفية كالجمر تحت الرماد ، وكانت هبة نسيم من هنا أو من هناك تكفى لاشعال جذوته من جديد ، وكانت بلاد الاندلس ، وهى المالكية المتعصبة لمذهبها ، تشارك فى اشعال نار الخارجية فى المغرب ، كما نرى •

دعوة عبد الرزاق في جبال فاس :

واذا كنا لا نعرف الظروف التى أدت الى هجر عبد الرزاق بلاده فى ثغر الأندلس الأعلى فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى (٩م) ، فمن المعروف أنه استقر فى الاقليم الجبلى الواقع فى قبلى مدينة فاس حيث كانت قبائل مديونة (١٩٨) ، وهو الاقليم الذى كان تابعا للعاصمة الادريسية ، على مسيرة يوم ونصف يوم منها ، ويسميه صاحب القرطاس بجبال وبلاو(١٩٩) • وأغلب الظن أن عبد الرزاق بدأ دعوته بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما جرت العادة عند الخوارج ، بل وعند غيرهم من دعاة الاصلاح ، ومن المرجح أن تكون سيرة أمراء الادارسة فى فاس وفى غيرها من البلاد ، تسمح بالاصغاء لمثل تلك الدعوة ، بعدما استهوتهم عيشة الترف وانصرفوا للتمتع كلية بمباهج الحياة •

دار هجرة أو ثغر اندلسى في بلاد الادارسة ، وشقة الجديدة :

والمهم أن دعوة عبد الرزاق لقيت نجاحا فى جبال مديونة ، كما تبعه خلق كثير من بربر غياثة ، وغيرهم من القبائل • وعندئذ بنى قلعة منيفة كما يقول صاحب القرطاس بجبل سلى بجوار بلاد مديونة ، وسماها وشقة(٢٠٠) ، تعبيرا عن حنينه الى بلاده ، ومسقط رأسه فى الثغر الأعلى بالأندلس ، وإعلانا عن أن جهاد الفساق من المسلمين لا يقل قدرا عن جهاد الأعداء من المسيحيين •

---

(١٩٨) البكرى ، ص ١٢٥ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ : حيث القبر « عبد الرزاق » التى أخذنا بها بدلا من « عبد الرازق » ، وفى ط• بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٣٠ « بجبال لمتونة » خطأ ، بدلا من جبال مديونة •

(١٩٩) القرطاس ، ص ٥١ •

(٢٠٠) انظر القرطاس ، ص ٥٨ — حيث يقول ابن ابى زرع انها كانت باقية بتلك الناحية على أيامه ، فى أوائل القرن ٨ هـ/١٤ م •

الزحف من وشقة على فاس :

وعندما اشتد ساعد عبد الرزاق وكثر اتباعه راودته فكرة القضاء على دولة الحسنيين الادريسية ، فسار بقواته نحو الشمال في اتجاه قاعدة الديار ، مدينة فاس • ونجح عبد الرزاق في دخول مدينة صفروا ، على بعد حوالي ٣٠ ك • م من فاس ، دون صعوبة ، مما شجعه على مواصلة المسيرة • وعندما استشعر علي بن عمر بخطورة الثورة الصفرية المقبلة من الجنوب كالعاصفة ، قرر الخروج للقاء عبد الرزاق ، بعد أن حشد له عسكرا عظيما • ودارت الحرب سجالا ، بين الجيوش الادريسية وبين حشود الثوار الصفرية، في عدة لقاءات عظيمة • وانتهت المعارك الدامية بخسائر جسيمة في صفوف القوات الفاسية ، وبهزيمة شائنة لعلي بن عمر الذي فر ناجيا بحياته الى بلاد أوربة (٢٠١) ، مهد الدولة الادريسية الأول ومادة وجودها •

الصفرية يدخلون عدوة الأندلس ، وعدوة القرويين تستنجد بيحيى العوام :

والحقيقة انه اذا كان دخول عبد الرزاق الصفري مدينة فاس ، بعد انتصاره على الأمير علي بن عمر ، يبرر عدم التجاء هذا الأخير الى عاصمته ، وهروبه الى بلاد أوربة ، فان امتناع القسم الملكي من فاس وهو عدوة القرويين على الثائر الخارجي الذي لم يتمكن الا من دخول عدوة الأندلس حيث خطب له ، يبرر النظر في أن علي بن عمر لم يكن موفقا في فراره بعيدا عن قاعدة ملكه • فلقد أصبح تقاعسه عن مواصلة النضال في فاس بمثابة ستسلام أمام خصمه ، وتسليم بالعجز أمام رعيته • وذلك أن أهل عدوة قرويين ، عندما نجحوا في رد الخارجي عن مدينتهم لم يفكروا في عودة ـهم الهارب ، بل راسلوا أميرا ادريسيا آخر ، هو يحيى بن القاسم بن ـيس ، المعروف بالعوام ، ودعوه الى تسلم مقاليد أمورهم • ووصل يحيى ، القاسم الى فاس ، ودخل عدوة القرويين حيث تمت له البيعة بالامامة ، وقع على عاتقه اطفاء نار الفتنة الخارجية (٢٠٢) •

---

(٢٠١) انظر القرطاس ، ص ٥١ ، البكري ، ص ١٢٥ ، ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢١٣ •

(٢٠٢) انظر القرطاس ، ص ٥٢ ، البكري ، ص ١٢٥ ، ابن عذاري ، ج ١ ص ٢١٢ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ (حيث القراءة « الصرام » خطأ بدلا من « العوام ») •

٨ ـ يحيى العوام بن القاسم بن ادريس :

استعادة عدوة الأندلس ، والقضاء على ثورة مديونة وعبد الرزاق :

كانت مبايعة يحيى بن القاسم فى عدوة القرويين ، وبقاء عدوة الأندلس موالية لعبد الرزاق الخارجى ، تعنى نوعا من تكريس الانفصال بين كل من الحيين الكبيرين اللذين يكونان مدينة فاس • ويمكن تفسير وقوف عـدوة الأندلس الى جانب عبد الرزاق عـلى أنه نوع من تعاطف أهلها الأندلسيين ، أصلا ، مع ابن بلدهم ثائر وشقة ، فكان قسمي مدينة فاس ظلا ، بعد حوالى قرن من بنائها متشبثين بعصبيتهما الاقليمية ، من : أندلسية وقيروانية • ومن الواضح أن العصبية الأندلسية كانت تمثل المزاج الثورى الحاد ، بينما مثلت العصبية القيروانية المزاج الهادىء الذى يميل الى الدعة ويركن الى الاستقرار •

وهكذا قاد يحيى العوام أنصاره من أهل عدوة القيروان فى صراع مرير ضد جيرانهم أهل عدوة الاندلس ومن معهم من خوارج مديونة ، ونجح فى هزيمة عبد الرزاق الصفرى واخراجه من المدينة ، وذلك « فى خبر طويل » رأى ابن عذارى ـ للأسف ـ أن يعفينا من سرده (٢٠٣) •

بيعة أهل عدوة الأندلس ، وتركيبهم العنصرى :

وتقول رواية ابن أبى زرع انه عندما دخل يحيى العوام عدوة الأند بايعه أهلها وجميع من بها من الاندلس الذين نزلوا بها ومن الربضيين»(مما يفهم منه أن أهل عدوة الأندلس لم يكونوا جميعا أندلسيين أصلا ظلت جمهرتهم من المغاربة البربر ، مما يزيد فى تفسير استجابتهم لعبدالر ومن كان معه من بربر مديونة وغياثه وغيرهم • ولكنه رغم وجود المغارب

---

(٢٠٣) البيان ، ج ١ ص ٢١٢ ، البكرى ، ص ١٢٥ ، وأنظر القرطاس ، ص ٥٤ •

(٢٠٤) القرطاس ، ص ٥٢ ـ حيث القراءة الفرضيين » بدلا من الربضيين » •

فقد كان التفوق في العدوة للأندلسيين من غير شك . يؤيد ذلك ما تقوله الرواية من أن يحيى بن القاسم استعمل على عدوة الأندلس ثعلبة بن محارب أبو عبد الله ، الذى تصفه بأنه : « من أهل الربض من شلونة »(٢٠٥) .

ولما كان المعروف أن أهل الربض الذى استقروا فى فاس عند انشائها، هم قرطبيون ، فان ذلك يعنى أن ثعلبة بن محارب كان اندلسيا ، وفد على فاس من شلونة في فترة لاحقة وهو الأمر المقبول ، اذ كان نشاط الوافدين من الأندلسيين في المغرب وخاصة في سواحله وفي جزر البحر ، مستمرا منذ مطلع القرن الثالث الهجرى (٩م) ، كما يتضح من النصوص وخاصة في كتاب البكرى .

أسرة أميرية اندلسية ، مهلبية الاصل ، لعدوة الأندلس :

والمهم أن يحيى بن القاسم عندما اطمأن الى استقرار الأمور في عدوة الأندلس بفضل ثعلبة بن محارب ، خرج من فاس متتبعا أثر عبد الرزاق الخارجى ، الى أن قضى عليه فى حروب عظيمة ووقائع كثيرة ، كما يفهم من رواية ابن أبى زرع (٢٠٦) . ولم يزل ثعلبة بن محارب واليا على عـــدوة الأندلس في فاس الى أن توفي في تاريخ لا نعرفه ، وعندئذ عهد الأمير يحيى ابن العوام بحكم العدوة الى ابنه عبد الله بن ثعلبة ، الذى خلفه فى الولاية ولده محارب بن عبود بن ثعلبة (٢٠٧) ، مما يعنى أن عبد الله بن ثعلبة كان يعرف بعبود (٢٠٨) ، حسب الطريقة المغربية في تحوير الأسماء .

ولما كان ولاة عدوة الأندلس هؤلاء من عرب الأزد الذين ينحدرون من صلب المهلب بن أبى صفرة ، كما ينص على ذلك الكتاب ، فان هذا الأمر يعنى أن يحيى العوام كان يدبر لاقرار الأمور فى عدوة الأندلس عن طريق

---

(٢٠٥) القرطاس ، ص ٥٢ . وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ ، الذى ينص على أن ثعلبة كان من أهل الربض بقرطبة .

(٢٠٦) القرطاس ، ص ٥٢ .

(٢٠٧) القرطاس ، ص ٥٢ .

(٢٠٨) أنظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ .

صسطها بأيدى أفراد من الأسرة العربية الشهيرة التى كان لها شأنها فى محاربة الخوارج فى المشرق وفى المغرب . فقد توالى هؤلاء فى تسلسل يمكن أن يشبه بأسرة أميرية أشبه بتلك التى كونوها فى افريقية ، على أوائل ايام العباسيين والتى كان من ابرز أمرائها : عمر بن حفص المعروف بهزار مرد (الألف رجل) ، ويزيد بن حاتم الذى ضرب به المثل فى الكرم (٢٠٩) .

وطالت أيام يحيى بن القاسم فى امارة فاس ، وما والاها من البلاد والاقطار والقلاع ، الى سنة ٢٩٢ هـ/ ٤-٩٠٥ م (٢١٠) ، حيث مات فى الحرب التى شنها عليه ربيع بن سليمان ، والتى لا يمدنــا الكتاب بشىء من تفصيلاتها (٢١١) ، وخلفه فى الامامة قريبه يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس الامام ، حفيد عمه .

عودة الامامة الى بنى عمر بن ادريس ، ودخول فاس فى طاعة الفاطميين :

٩ - يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس (٢٩٢ هـ/٩٠٥ م - ٣٠٩ هـ/ ٩٢١ م :

ويمر الكتاب سريعا على تلك الفترة الأخيرة من تاريخ الدولة الادريسية ، فلا نعرف عن الظروف التى ولى فيها يحيى الرابع بن ادريس الا أنه تقدم ، بعد مقتل بن عمه العوام ، من مدينة الزيتون (مكناسة) التى كانت قاعدة ملكه (٢١٢) ، الى فاس حيث بايعه أهل المدينة بشاطئيها : عدوة القرويين وعدوة الأندلس ، وتمت له الخطبة على منبريهما . وعن هذا الطريق أصبح يحيى الامام الادريسى التاسع ، ودانت له أعمال المغرب بالطاعة (٢١٣) .

---

(٢٠٩) انظر فيما سبق ، ج ١ ص ٢٥١ .

(٢١٠) انظر إبن عذارى ، ج ١ ص ٢١٢ ، البكرى ، ص ١٢٥ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ ، وقارن القرطاس ، ص ٥٢ ، الذى اخطأ فى نسخ هذا التاريخ فجعله فى سنة ٢٧٢ ٨٥ - ٨٨٦ م .

(٢١١) نفس المصادر .

(٢١٢) البكرى ، ص ١٢٥ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ .

(٢١٣) انظر القرطاس ، ص ٥٣ .

تقييم يحيى الرابع :

واذا كان البكرى وابن عذارى يمران مرورا خاطفا على عهد يحيى ابن ادريس فيكتفيان بالاشارة الى بدء ملكه سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م ، ثم الى زوال سلطانه بقدوم مصالة بن حبوس قائد عبيد الله المهدى الى فاس سنة ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م ، فان الفصل يرجع الى ابن أبى زرع صاحب كتاب روض القرطاس ، فى جمع بعض المعلومات ، التى لخصها ابن خلدون ، عن شخصية يحيى بن ادريس . وتصور تلك المعلومات يحيى الرابع على أنه أعظم ملوك الأدارسة ، فقد جمع بين : علو القدر ، وبعد الصيت وطيب الذكر ، وقوة السلطان ، كما جمع بين : البطولة والشجاعة والحزم ، والصلاح ، والدين ، والورع ، بشكل : « لم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه » . وفوق هذا وذاك : « كان فقيها حافظا للحديث ذا فصاحة وبيان ولسان (٢١٤) » .

وصول الفاطميين الى المغرب الأقصى :

واذا صح ذلك فلا شك أن بلاد الأدارسة لم تكن حسنة الحظ اذ قدر لها مثل هذا الامام المثالى فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ المغرب ، حيث كان الفاطميون على وشك القضاء على دول المغرب القائمة وقتذاك ، ابتداء من دولة الأغالبة ، وختاما بدولة الأدارسة ، وتوحيدها تحت راياتهم المظفرة ، فى ظل آل البيت من « الحسينيين » ، هذه المرة .

هكذا حكم يحيى بن ادريس فى فاس من سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥م الى سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧ م ، حينما قدم مصالة بن حبوس المكناسى الى بلاد الأدارسة ، فخضع له بعض الطامعين فى ملك الأدارسة من زعماء زناتة ، مثل : موسى بن أبى العافية الذى قدم له المعونة وحارب الى جانبه (٢١٥) ، وضعف أمامه البعض ، مثل : بنى صالح الذين جلوا عن ديارهم فى بلد نكور (٢١٦) ، ودافعه البعض دون جدوى ، مثل : يحيى بن ادريس الذى انهزم أمامه واضطر الى الاعتراف

---

(٢١٤) القرطاس ، ص ٥٢ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٥ .

(٢١٥) القرطاس ، ص ٥٣ .

(٢١٦) البكرى ، ص ٩٣ .

بامامة عبيد الله (٢١٧) ، فلم تقم له قائمة بعد ذلك (٢١٨) ، وان كان قد استمر في الحكم الى سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م • وهي الأمر التي سنعود اليها عندما نعالج تاريخ الدولة الفاطمية •

اما عن قيام الفاطميين فنرى ان يكون المدخل الطبيعي له هو رسم صورة لبلاد المغرب قبيل مطلع القرن الرابع الهجرى (١٠م) ، تبين فيها الدروس المستفادة من البحث فى تاريخ الاغالبة والرستميين والمداريين والأدارسة على المستويين السياسي والحضارى ، مما يمكن أن يوضح الظروف التى أدت الى سقوط دول عصور الاستقلال الأولى ، وتوحيد المغرب تحت رايات الفاطميين وفوق أسنة رماح الكتاميين • وهي الدروس التي يمكن أن تكون مفيدة أيضا بالنسبة لمرحلة ما بعد الفاطميين من عصور الدول المغربية حقا والمستقلة تماما •

---

(٢١٧) القرطاس ، ص ٥٣ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٦) •

(٢١٨) البكرى ، ص ١٢٥ •

الفصل السادس

الخريطة السياسية الحضارية لبلاد المغرب
في أواخر القرن الـ ٣ هـ / ٩ م

من ذلك العرض الذى قدمناه لتاريخ بلاد المغرب خلال القرن الثالث الهجرى /٩ م يتضح لنا ما يأتى :

أ ـ الواقع السياسى :

كانت خريطة البلاد السياسية تشتمل ، اساسا ، على أربع دول هى :

من المشرق الى المغرب ـ دولة الأغالبة فى افريقية (أى البلاد التونسية)، ودولة الرستميين فى المغرب الأوسط أو اقليم تاهرت (من البلاد الجزائرية)، وامارة المدراريين فى سجلماسة (تفللت) ووادى درعة (فى صحراء المغرب الجنوبية) ، ودولة الأدارسة فى المغرب الأقصى فى منطقة فاس ووادى سبو . والى جانب هذه الدول الأربعة لا ينبغى أن نغفل كلا من مصر الطولونية فى المشرق ، والأندلس الأموية فى أقصى المغرب . فقد كانت لمصر حدودها المشتركة مع مملكة الأغالبة فيما بين برقة وطرابلس ، وكان للاندلس حدودا بحرية مشتركة مع الأدارسة عبر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) الذى كان يربط بين العدوتين (الشاطئين) : الافريقية والأوربية . والذى يمكن ملاحظته هو أنه رغم استقلال كل من دول المغرب الأربعة فان الاوضاع السياسية فى كل منها كانت رهنا باوضاع البلاد الأخرى ، اذ كانت لأحداث كل اقليم آثارها المباشرة فى الاقليم المجاور : كرد فعل طبيعى لتلك الأحداث . هذا كما كان لتدخل خلافة بغداد ، بصفتها صاحبة السلطة الشرعية فى كل ولايات الدولة ـ المطيعة منها والعاصية ـ آثارها التى لا تنكر فى مسار الأحداث السياسية التى عرفتها البلاد : بشكل ملموس أو بطريقة خفية ،

حسب مقتضى الظروف والأحوال . وهذا ما نحاول الاشارة اليه ، في كل من تلك الدول .

١ ـ دولة الأغالبة :

فقد كانت دولة الأغالبة في افريقية امارة شرعية تابعة لدولة الخلافة . وعن هذا الطريق كان لها السلطان المطلق على كل بلاد المغرب ، ابتداء من طرابلس التي كانت تبدأ بها الحدود الادارية الفاصلة بين ولاية مصر الطولونية وبين ولاية المغرب الأغلبية التي كانت تمتد الى آخر الشمال الافريقي ، بل والى بلاد الأندلس أيضا من الوجهة الشرعية أو النظرية . أما عن مظاهر تبعية الدولة الاغلبية للخلافة وارتباطها بالحكومة المركزية في بغداد فقد تمثلت ، كما جرت العادة في الرابطتين التقليديتين وهما : رابطة الولاء الروحية للخليفة أمير المؤمنين ، والتعبير المادي عن ذلك الولاء بدفع أموال الخراج السنوية الى ديوان الخلافة في بغداد . وكانت تلك الرابطة المزدوجة في طبيعتيها الروحية والمادية بين الخلافة وامير القيروان تقوى وتضعف تبعا لأحوال كل من خلافة بغداد وامارة القيروان .

فمنذ تعيين أبراهيم بن الأغلب واليا على افريقية تعهد الأغلبي للخليفة الرشيد بأن يعدل عن تلقي المساعدة التي كانت ترسلها مصر سنويا وقدرها مئة الف دينار ، كمعونة لافريقية ، بل وتعهد ـ على العكس من ذلك ـ بأن يدفع أربعين ألف دينار سنويا الى بيت المال ببغداد (١) ، مما يعني تبعيته الواضحة للخلافة ، بصرف النظر عن كون ذلك نوعا من الاغراء من جانب ابن الأغلب للرشيد حتى يعهد اليه بأمرة البلاد أو الاستقلال بها . ولقب « الأمير » الذي حمله الاغالبة يؤيد تلك التبعية للخلافة : فالامارة كما عرفها الفقهاء الذين كتبوا في نظم الحكم ، مثل الماوردي صاحب الاحكام السلطانية ، تعني السلطة الدنيوية التي تشمل اختصاصات عسكرية وقضائية ومالية وادارية ، يعهد بها الخليفة لنائب عنه في الاقليم الذي يجعله أميرا عليه (٢) . كما كان الخليفة يمارس بعض تلك الاختصاصات بنفسه مثلما فعل الرشيد عندما ولى ابن غانم ، مباشرة من قبله ، قضاء افريقية فجعله ندا لابن الأغلب (٣) .

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ٢٩ ـ ٣٠ وهـ ١٢ .
(٢) انظر الاحكام السلطانية ، الباب الثالث في تقليد الامارة على البلاد .
(٣) انظر ما سبق ، ج ١ ص ٣٧٥ وهـ ١٠٧ .

وبذلك كان الأمير الأغلبي يستمد سلطانه مباشرة من الخليفة ، فكان كل خليفة جديد يجدد العهد للأمير ، كما كان على الامير ، بدوره ، أن يجدد البيعة للخليفة : فيحلف له يمين الولاء والاخلاص • وتجديد البيعة هو الذى كان يعطى طابع الشرعية لحكم الأمير الذى يستمد سلطانه ، بطبيعة الحال ، من امير المؤمنين •

هكذا كان شعار أمراء القيروان الرسمى هو اللون الأسود ، شعار العباسيين : لون الألوية أو الرايات والبنود ، ولون الخلع أى الملابس الرسمية للأمير ولكبار موظفى دولته ، من : الوزراء والقضاة وكبار القواد • ولهذا السبب كان أول ما يفعله الثوار فى افريقية هو التخلص من لبس السواد ، كما فعل خريش الكندى الذى ثار على ابراهيم بن الاغلب (٤) ، تماما كما فعل المعارضون للخلافة فى المشرق ، اذ كانوا يلبسون البياض ويسمون بالمبيضة — على عكس العباسيين الذين لبسوا السواد وسموا بالمسودة(٥) •

أما عن الأموال السنوية التى تعهد بها ابراهيم بن الأغلب ، وهذا ما يمثل الرابطة المادية الاقوى ، فمن الواضح أنها لم تكن تدفع بانتظام • فابراهيم بن الاغلب نفسه كان ينتظر من الخليفة ان يدفع أرزاق (مرتبات) الجند العربى ، كما حدث عندما قامت الثورة ضده فبعث اليه الرشيد بالأموال التى فرقها فى الجند وهزم الثوار (٦) • هذا ولا بأس من الاشارة هنا الى أن ابراهيم بن الأغلب كان يضرب — بعد ذلك — نقود الخراج هذه خصيصا باسم الخلافة • فهذا ما يفهم من الدينار الذى عثر عليه باسم ابراهيم ابن الأغلب ، والذى ضرب فى سنة ١٩٦ هـ ، ونقش على أحد وجهيه « للخليفة الامام »(٧) •

والحقيقة انه فيما عدا رابطة الولاء ودفع الأموال المقررة سنويا ع افريقية ، لم يكن للخلافة اشراف فعلى على أمراء الاغالبة • وهكذا تمت

---

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٣٥ وص ٣٧ •

(٥) انظر ملهوزن ، تاريخ الدولة العربية واضمحلالها ، ترجمة محمد عبد الهادى ابو ريدة ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٥٠٣ — ٥٠٤ وهامش ٣ فى الصفحتين — وكما فعل الأمويون فى الأندلس أيضا اذا اتخذوا اللون الأبيض شعارا لهم . (انظر ليفى بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية (بالفرنسية) ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ •

(٦) انظر فيما سبق ، ص ٣٨ •

(٧) انظر حسن حسنى عبد الوهاب ، الورقات ، قسم ١ ص ٤٢٨ •

افريقية بادارة مالية مستقلة ، كما حدث في مصر على أيام الطولونيين ، فلم تتدخل الخلافة في أمورها الادارية ، ولا في نظام توريث الامارة ، الا في بعض الظروف الاستثنائية • فلقد توارث أمراء الأغالبة ملك افريقية ، كما رأينا ، بطريقة تلقائية دون انتظار أوامر بغداد التي كانت تجعل ديوان افريقية والمغرب لولاة العهد بها ، وقام بعضهم باصلاحات مالية وأعمال تأديبية ، دون انتظار موافقة الخلافة ، رغم ماأثارته من السخط بين الناس (٨) •

ولكن هذا الاستقلال الذي تمتع به الأغالبة لم يمنع الخلافة من التدخل في شئونهم في بعض الأحيان ، كما حدث على عهد ابراهيم الثاني بن أحمد عندما استبد بالرعية وأنزل بالثوار من أهل تونس عقوبات غاشمة سنة ٢٨٣ هـ/٨٩٦م • فلقد تدخل الخليفة المعتضد في الأمر ، وعنف ابراهيم بن احمد ، بل وهدده بالخلع (٩) •

وهكذا ، رغم استقلال الأغالبة فانهم لم ينسوا اظهار ولائهم لبغداد وارتباطهم بالخلافة حتى آخر أيامهم • فقد كانت الانتصارات الكبيرة للجيوش الاغلبية تبلغ أولا بأول الى بغداد ، كما كان للخليفة نصيبه من المغانم والسبي في بعض الاحيان • وذلك كما حدث عند الاستيلاء على قصريانة (كاستروجيوفاني) ، اذ بعث الأمير أحمد بالنبأ الى الخليفة ، كما أهدى اليه بعض الجاريات الصقليات (١٠) • وكذلك ظهر الامتثال لطاعة الخلافة في وقت الشدة ، عندما أحس آخر أمراء الأغالبة زيادة الله الثالث ، بخطر الفاطميين فأرسل هدية للخليفة العباسي فيها عشرة آلاف من المثاقيل الكبار التي تحمل أبياتا من الشعر تعلن الولاء والطاعة لأمير المؤمنين (١١) • هذا كما استخدمت الخلافة المداراة ، بدورها ، والحذر في اعلان سلطانها على المملكة الأغلبية • والمثل لذلك أنه عندما تعرضت افريقية في سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م ، الى زلزلة أرضية هدمت الكثير من الحصون والقرى أمر الخليفة المتوكل بتوزيع ثلاثة ملايين درهم على المنكوبين (١٢) • ولقد أدت التنقيبات

---

(٨) أنظر فيما سبق ، ص ٤٠ (عن عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب) ، ص ١٢٧ (عن ابراهيم ي) •

(٩) أنظر فيما سبق ، ص ١٤٥ وص ٤٧٠ •

(١٠) أنظر فيما سبق ، ص ١٠٠ ، ٣٥١ •

(١١) أنظر فيما سبق ، ص ١٦٦ •

(١٢) ابن الأثير سنة ٢٤٥ ج ٧ ص ٣٣ ، ج مارسيه ، ص ٦٣ ، وقارن الطبرى (ذخائر العرب) ، سنة ٢٤٥ ج ٩ ص ١١٢ حيث القراءة « ثلاثة آلاف درهم » خطأ •

الأثرية الى اكتشاف نقش في داخل قبة جامع الزيتونة بمدينة تونس يسجل ان ذلك الجزء من المسجد الجامع بنى سنة ٢٥٠ هـ/٨٦٤ م بأمر الخليفة المستعين • ولما لم يكن هناك ذكر للأمير الاغلبى زيادة الله الثاني أو أبي الغرانيق في هذا النقش ، الأمر الذى ربما كان نتيجة طبيعية لعداء أهل تونس لأمراء القيروان ، فان جورج مارسيه يرجح أن ذلك يعنى أن البناء تم على نفقة الخليفة كاعلان عن سيادة بغداد على المغرب ، واهتمام الخلافة بمصالح الاسلام في تلك البلاد (١٣) •

هكذا تمتعت الدولة الاغلبية بالاستقلال مع استمرار ارتباطها بالخلافة بعلاقات معنوية قوية ، الى جانب روابط مادية لا بأس بها وان كانت محدودة • ويرى جورج مارسيه أن نظام استقلال الولايات في ظل دولة الخلافة ، الذى كانت الدولة الأغلبية أول نماذجه في تاريخ الدولة الاسلامية يمكن أن يشبه بنظام « الدومنيون » (أو « الكومان ولث ») الذى طبق حديثا (في الامبراطورية البريطانية) ، بل ويرى مارسيه أن الامارة الأغلبية ، في اطار دولة الخلافة هذا — الذى كان يشبهه استاذنا الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة بالنظام الاتحادى « أو الفيدرالى » كانت تتمتع بوضع أحسن حالا من وضع بلاد الدومنيون الحديثة (١٤) •

والحقيقة ان هذا « النظام الاتحادى » كان حلا سعيدا لمشاكل كل من دولة الخلافة وامارة افريقية الأغلبية • فمن ناحية انزاح عن كاهل الخلافة ما كانت تعانيه من المتاعب في بلاد المغرب مما وقع على عاتق أمير القيروان ، ومن ناحية أخرى كان استقلال الاغالبة دافعا للولاية المغربية على التقدم العسكرى والسياسى الذى أدى بدوره الى الازدهار الفكرى والحضارى •

ولكنه اذا كان فتح صقلية وجنوب ايطاليا وضمهما الى أملاك الولاية الافريقية يمثل ذروة ما بلغته دولة الأغالبة من القوة السياسية والعسكرية ، فمن الواضح أن الأغالبة لم ينجحوا تماما في اقرار الأمور في داخل حدود

---

(١٣) انظر : ج • مارسيه : بلاد البربر (المغرب) والمشرق الاسلامي في العصر الوسيط (بالفرنسية) ، ص ٦٣ • وعن نقش قبة الزيتونة انظر له هامش ٢٤ من المجمل في الفن الاسلامي (بالفرنسية) ، باريس ١٩٢٦ ، ج ١ ص ١٣ ، وكرسويل • العمارة الاسلامية المبكرة (بالانجليزية) • ج ٢ ص ٣٢٢ •

(١٤) ج مارسيه ، بلاد البربر (المغرب) والمشرق الاسلامي في العصر الوسيط (بالفرنسية) ص ٥٩ •

مملكتهم ، بصرف النظر عما كانوا يواجهونه من أخطار منافسيهم في شرقي البلاد أو في غربيها — اذ الحقيقة ان الحرب فيما وراء البحار في أرض الروم لم تستوعب ، بشكل كامل ، كل الحماس العسكري الذي كان يضطرم في نفوس أهل القبائل من العرب والبربر • وذلك انه اذا كان الجهاد في صقلية فرصة للأمراء لكي يتخلصوا من العناصر المضطربة والثائرة في البلاد ، فان ذلك لم يمنع الاضطرابات الخطيرة التي كادت تودي بالأسرة الأغلبية ، كما حدث في ثورة الطنبذي التي شملت البلاد جميعا ، فلم يبق بين أيدي الأغالبة الا الشريط الساحلي الممتد من سوسة الى طرابلس (١٥) • هذا ، واذا كانت صقلية وجنوب ايطاليا قد ظهرت وكأنها أرض المغانم والسبي ، او كأنها مورد لا ينضب بما كانت تمد به بيت المال الاغلبي من خراج المدن والأقاليم الجديدة ، فمما لا شك فيه أن الحرب المكلفة فيما وراء البحر طوال العصر الأغلبي أرهقت البلاد والعباد الذين كانت تضربهم المجاعة والقحط في كثير من الأحيان ، مما شكل أسبابا اضافية لاثارة السخط والثورة • ولا شك أن توالي الاضطرابات من جانب الجند ، وتتابع العصيان من جانب القبائل ، كان وراء الاستبداد الذي ظهر من جانب عدد من الأمراء ، وهو الذي يفسر سياسة العنف والقسوة التي لجأ اليها عدد كبير منهم والتي خرجت عن حدود المعتاد ، فشوهت تاريخ الأغالبة في كثير من الأحيـــان ، وكانت السبب فيما ظهر منهم من العجز في مدافعة ثورة قبائل كتامـــة الفاطمية • وهكذا يمكن القول ان عوامل القوة والضعف تشابكت فيما بينها ، وكانت من أسباب ضعف الدولة الأغلبية — سنة الحياة ، وقانون الطبيعة الثنائي الذي يجعل الوجود السوي رهنا بذلك التوازن العجيب : القائم بين الموجب والسالب ، أي بين القوة والضعف ، أو ما يسمى بالخير والشر •

٢ — دولة الرستميين :

اذا كانت دولة الأغالبة ، بفضل روابطها الروحية والمادية بالخلافة ، هي صاحبة السيادة الشرعية على كل ولاية المغرب من الناحية النظرية على الأقل ، واذا كانت قد ومدت أملاكها فيما وراء البحر في صقلية وجنوب ايطاليا ، فمن الغريب حقا انها رضيت بأن تزاحمها في قلب بلادها ، افريقية وما يتبعها من أعمال طرابلس ، دولة منافسة هي دولة الرستميين • ولكن الحقيقة هي أن دولة الرستميين الاباضية في تاهرت كانت أقدم من الدولة الاغلبية ، بل ولا شك أن قيامها نتيجة لثورات الخوارج في المغرب هو الذي

(١٥) انظر فيما سبق ، ص ١٣٦ — ١٣٧ •

أدى الى قيام الأغالبة . وهكذا كانت الدولة الرستمية الاباضية امامة خارجية أو جمهورية شعبية مستقلة ، ذات نظام وراثي كالخلافة ، يقرر وجودها الأمر الواقع — من قبل قيام الأغالبة — المعروف عند الفقهاء « بامـــارة الاستيلاء »(١٦) ، ويحدده قانونيا علاقة التعايش السلمي مع الامارة الاغلبية الشرعية .

والغريب في أمر الدولة الرستمية انها كانت دولة بدوية صحراوية شبه هلامية لا تعرف الحدود الواضحة . فمع ان قلب الدولة كان في اقليم تاهرت ، فانها ظلت محتفظة بعلاقات وثيقة بمنطقة جبل نفوسة واقليم طرابلس في شرق المملكة الأغلبية ، وباقليم الصحراوات الجنوبي الغربي في منطقة سجلماسة (تافللت الحالية) ، جنوب المملكة الادريسية ، حيث المدراريين الصفرية الذين ارتبطت بهم بعلاقات قربى وشيجة . وبذلك تكون الدولة الرستمية قد فرضت وجودها خلال كيان كل من دولتي المغـــرب الكبيرتين : الأغلبية والادريسية ، وهذا ما دعانا الى وصفها بدولة هلامية أي متميعة الحدود .

ولقد استقر واقعها القانوني في منطقة طرابلس بالاتفاق الذي تم سنة ١٩٦ هـ / ٨١٢ م بين عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب وبين عبد الوهاب ابن عبدالرحمن رستم (١٧) ، وتأكد هذا الواقع بالمجهودات المشتركة التي قام بها الاباضية والأغالبة ضد غزوة العباس بن أحمد بن طولون للمنطقة سنة ٢٦٥ هـ/٨٧٨ م (١٨) .

ولا شك أن قيام علاقات وثيقة بين الرستميين وبين الأمويين في الأندلس — بعد فترة من الترقب (١٩) ، حتى أنه عندما قام ثلاثة من أبناء عبدالوهاب ابن رستم بزيارة قرطبة في سنة ٢٠٦هـ/٨٢٢م لتهنئة الأمير الأموي عبدالرحمن الثاني بن الحكم بالامارة ، تكلف الأمير ، من أجل استقبالهما وتقديم المال

---

(١٦) انظر الماوردي ، الأحكام السلطانية ، باب ٣ : تقليد الامارة على البلاد ، فصل امارة الاستيلاء .

(١٧) أنظر فيما سبق ، ص ٣١٢ .

(١٨) انظر فيما سبق ، ص ١٢٤ .

(١٩) نقصد بفترة الترقب عهد عبد الرحمن الداخل حيث كانت كل من الامارتين تجهد في تثبيت أقدامها في بلادها ؛ فعقب وفاة عبد الرحمن الداخل وثورة ابنيه سليمان وعبد الله على أخيهما الأمير هشام ، لجأ سليمان الى طنجة بينما ساح عبد الله في المغرب طرابلس ثم نزل على عبد الوهاب بن رستم في تاهرت قبل عودته الى بلنسية (بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية ، ج ١ ص ١٥٢ ، وأنظر المقتبس لابن حيان ، مخطوط كلية الآداب المصورة بجامعة الاسكندرية ، ص ٢ ، ٣ ، ٤) .

والهدايا والعطايا اليهما ، حوالي مليون دينار(٢٠) ، لمما كان يثبت قواعد المملكة الرستمية ، ويزيد في تأكيد واقعها القانوني في نظر الأغالبة .

هذا ، وإذا كانت قد قامت بين الأغالبة والرستميين صراعات خفية ، مثل : ما يمكن أن يكون قد ساهم به الإباضية في الثورات التي عرفتها الدولة الأغلبية وخاصة في أقاليمها الصحراوية ، أو علنية ، مثل : اللقاء الدامي في وقعة مانو سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م التي انتهى بكارثة لقبائل نفوسة (٢١) ، فان تلك الصراعات لم تؤثر بشكل حاسم على ميزان القوى بين الدولتين أو

(٢٠) انظر بروفنسال ، تاريخ اسبانية الاسلامية ، ج ١ ص ٢٤٤ - حيث المصدر (عن مقتبس ابن حيان ومغيث بن سعيد) على أن أبناء عبد الوهاب بن رستم الثلاثة كانوا : عبد الغني وديسون وبهرام ، وأن الاثنين الأخيرين غرقا وهما في طريق العودة إلى المغرب بينما وصل عبد الغني الى تاهرت بعد وفاة والده بسبعة أشهر وولاية أخيه أفلح للامامة . (أنظر نفس المرجع ، ج ٢ ص ٢٧٢) . وانظر المقتبس لابن حيان ، مخطوط كلية الآداب المصور بجامعة الاسكندرية ، ص ١٧٢ . وكانت العلاقات دائما حسنة بين أمراء قرطبة وبين أئمة تاهرت الاباضية وبحلماسة الصفرية بفضل العداء المشترك للعباسيين أو عملائهم الأغالبة في افريقية . وفي ذلك يقول ابن حيان . ان رسل الأمير محمد بن عبد الرحمن (الأوسط) كانت ، وكتبه تتردد الى هذه الطوائف في البحث عن أخبار بني العباس بغداد ممالكهم وأخبار ولاتهم وعمالهم بالشام ومصر وافريقية فلا تكاد تغيب عليه شيء من حلائلها » . وهكذا ظلت علاقة الحذر والتوجس بين قرطبة والقيروان الى أن تحسنت العلاقة بين محمد بن عبد الرحمن وابراهيم الثاني الأغلبي فتبادلا الهدايا والطرف بفضل وساطة محمد بن موسى الرازي : والد أحمد وجد عيسى ، المؤرخين الأندلسيين (انظر المقتبس ، تحقيق محمود مكي ، ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٧٣ ، النص ، ص ٢٦٥ وما بعدها والهوامش) . وسيظل الرستميون يعملون على توثيق علاقاتهم بالأمويين في الأندلس الذين كانوا يتبشرونهم بانتصاراتهم على المجوس النورمنديين في الوادي الكبير سنة ٢٢٩ هـ/٨٥٣ م ، كما كانوا يقدمون لهم الهدايا في المناسبات مثلما حدث عند ولاية الأمير محمد الأول حيث تلقى الامام أفلح هدية كبيرة من المال . هذا ، وظلت العلاقات الوثيقة على عهد أبي اليقظان خليفته ثم أفلح ، كما لوحظ وجود أفراد من الرستميين في خدمة أمراء قرطبة ، مثل ، محمد بن سعيد من عبد الرحمن بن رستم ، وأخيه عبد الرحمن أو ابنه الذي كان من وزراء عبد الرحمن الأوسط (الثاني) - انظر نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

ولا شك ان العلاقات الوثيقة بين الأندلس والامامة الرستمية سواء على المستوى السياسي أم التجاري كانت تسمح لأهل كل من البلدين بالتنقل في البلد الآخر ، وهذا ما يفسر كيف قيل عن ثائر الأندلس المشهور عمر بن حفصون ، سار في بداية أمره الى تاهرت حيث عمل في خدمة أحد الخياطين هناك الى أن جاء واحد من مواطنيه هناك هو الذي نصحه بالعودة الى بلده ، فرجع عمر بن حفصون الى الوطن في سنة ٢٦٧ هـ/٨٨٠ م حيث بدأ عمله كرئيس عصابة من قطاع الطرق . انظر نفس المرجع ، ج ٢ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٢١) انظر فيما سبق ، ص ١٤١ .

ـ التعايش الاجبارى الذى فرضه الواقع على كل منهما • والحقيقة ان ـكل الداخلية التى عانت منها كل من دولتى الاغالبة والرستميين، والتى ـت فى الثورات القبلية والنزاعات المذهبية ، شغلت كلا منهما عن التدخل ـ شئون الاخرى ، وقادتهما معا الى نفس المصير المحتوم ، من التفكك والوهن، ـم تكن الواحدة منهما بخير من الأخرى فى مواجهة الخطر الفاطمى •

٣ ـ دولة المدراريين :

واذا كان الأمر كذلك بالنسبة لامامة الاباضية فى تاهرت ، كان من ـطبعى الا يكون مصير امامة الصفرية الصغيرة فى سجلماسة ووادى درعة ، ـى امارة الاستيلاء الصحراوية التى ارتبطت بتاهرت بصلات من القربى ـمصبية وعلاقات من المصاهرة العائلية ، بأحسن حالا •.

وهذا ما يفسر كيف أن امارة سجلماسة حاولت أن تقف موقفا وسطا ـن القوى المتصارعة فى المغرب • فرغم العلاقات الوثيقة مع تاهرت اعترف ـدراريون بسلطان الخلافه . فعملوا على مداراة الأغالبة حتى قيل ان صاحب ـجلماسة عندما ألقى القبض على عبيد الله المهدى ، وهو لاجىء فى بلدته ، ـان ذلك استجابة لاوامر القيروان او بغداد(٢٢) • ورغم ذلك فقد كانت ـدة واحدة ، من . الانقسامات المذهبية والصراعات القبلية • ولكل ذلك ـ سجلماسة رغم اعتصامها بصحراء المغرب الجنوبية فى طريق السودان، ـ موارده سياستها مع كل من تاهرت والقيروان ، من ملاقاة نفس مصير ـرستميين على أيدى الفاطميين •

٤ ـ دولة الأدارسة :

ما عن دولة الأدارسة الحسنية فى فاس والمغرب الأقصى • فقد كانت ـمة هاشمية (علوية) . يقرر وجودها الأمر الواقع ـ أى نفس نظام الاستيلاء ـى قامت على أساسه كل من دولتى تاهرت وسجلماسة • اما الذى كان ـحدد وجودها القانونى فكانت العلاقات المتلثة مع كل من دولتى الاستيلاء ـاضيتين ، فى تاهرت بالمغرب الاوسط ، وقرطبة فيما وراء البحر بالأندلس ـيث الامارة الأموية المروانية ، الى جانب العلاقة مع دولة الاغالبة الشرعية ـى القيروان •

لقد كمنت قوة الدولة الادريسية فى المغرب فيما كان يتمتع به الامام ـن الاجلال والشرف بصفته سليل بيت النبوة ، مما جعل قبائل أوربة ثم قبائل المغرب الأقصى تلتف حوله وتكون جميعا عصبية دولته ، التى ترامت أطرافها ما بين تلمسان وسواحل المغرب الأوسط حتى بلاد السوس الأقصى

---

(٢٢) أنظر فيما بعد ـ فى قيام الدولة الفاطمية ، ص ٥٩٢ •

ووادى نفيس ، مرورا بسواحل بلاد الريف حيث امارة الصالحيين فى نكور(٢٣)، والبحر المحيط حيث مملكة البرغواطيين(٢٤) ، وانتشارا فوق الجبال والصحراوات الى تخوم سجلماسة ووادى درعة . ولكن الالتفاف حول شخص الامام وحده لم يكن كافيا للحفاظ على وحدة الدولة وحفظ الاستقرار فيها .

حقيقة ان وجود امام علوى فى المغرب أزعج الخلافة وأمير افريقيه حتى صار التخلص منه ، بطريقة أو بأخرى ، من أعز الامانى فى قلوب المسئولين فى بغداد ، ولكن الأمر انتهى باستقرار الأدارسة فى البلاد ، كما سبق أن استقر الرستميون فى تاهرت ، ومن قبلهم الأمويون فى الأندلس الذين انزعجوا بدورهم من قيام امامة علوية مجاورة ، وهذا ما يفسر ظهور تلك الرواية المصطنعة التى تقول بقيام تحالف هجومى بين شرلمان (شارل الأصلع) وبين الأمير الحكم الأول لمواجهة احتمال توسع العلويين نحو أوروبا الغربية(٢٥) . وهو ما يعلل أيضا سعى امراء قرطبة الدائب فى سبيل توثيق علاقات الصداقة مع امارات الخوارج المتاخمة للادارسة فى المغرب ، سواء فى تاهرت أو نكور وغيرهما . ومع مرور الوقت استتبت الأمور واستقرت الحدود فى الشمال الشرقى بين امامة الرستميين وامامة الادارسة عند تلمسان التى تعتبر الحد الفاصل بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى ، ولو أن الحدود مع صفرية سجلماسة لم تكن واضحة فى صحراوات الجنوب . ولم تدم فترة الاستقرار طويلا اذ سرعان ما هبت رياح الفتن المذهبية والعصبية وعصفت بالدولة العلوية ففتتتها بين افراد الأسرة الادريسية الى عدد عديد من الولايات ، ما بين مطيعة لفاس وعاصية لها . وهكذا انتهى الأمر فى أواخر القرن الثالث الهجرى بتمزق الامامة الادريسية بين أفراد الأسرة المالكة ، وكان على صاحب

---

(٢٣) عن امارة بنى صالح بن منصور فى مدينة نكور التى اقيمت سنة ١٤٢ هـ/٧٦١ م بمنزلة سعيد بن ادريس احد حفدة صالح واشهر امراء نكور على عهد الادارسة هو صالح ابن سعيد بن ادريس الذى ولى سنة ١٨٨ هـ/٨٠٤ م وعمر طويلا حتى سنة ٢٥٠ هـ/ ٨٦٤ م . وخلال ولايته الطويلة كان على علاقة طيبة بامراء الأندلس ، فشارك فى الجهاد على عهد الأمير عبد الله الثانى ، وكان من الأحداث التعسة التى عاصرها فى أواخر أيامه : نزول النورمنديين المجوس فى سنة ٢٤٤ هـ/٨٥٨ م على نكور ونهبها وسبى عدد من الأميرات الصالحيات ممن افتداهن أمير الأندلس محمد الأول بن عبد الرحمن الثانى ، مما يعنى علاقات وثيقة وتبعية مخلصة للأندلس من جانب أمراء نكورة ، كما يقول بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ، ج ٦ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

(٢٤) انظر ايضا ما بعده ص ٤٣٠ — ٤٣٣ ، ص ٥٠٠ وص ٦٧٠ .

(٢٥) أنظر بروفنسال تاريخ أسبانيا الاسلامية ، ج ١ ص ٢٤٩ ، ٢٨٢ — ٢٨٣ .
وانظر المقتبس ، مخطوط كلية الآداب المصور بجامعة الاسكندرية ، ص ٢٥ .

فاس ان يواجه وحده ثورات الخوارج التى هددت العاصمة نفسها ، مثلما حدث فى ثورة عبد الرزاق الوشقى (٢٦) ، كما نجحت قبائل زناتة بقيادة ابن أبى العافية ، فى اقتطاع مملكة لها ، كانت منافسة لامامة فاس وحليفة للامويين فى الأندلس ، ثم ظهيرا للفاطميين عندما تقدموا الى المغرب الأقصى (٢٧) ، قبل أن تعود الى التحالف ضدهم مع الامويين ، فيما بعد ·

خلاصة الموقف السياسى :

هكذا كانت دول المغرب الأربعة تعانى فى أواخر القرن الثالث الهجرى/ ٩ م ، بشكل عام ، من نفس الآفات التى عانت منها دولة الخلافة ، والتى تمثلت فى الصراعات المذهبية والعصبية ، والانقسام بين أفراد الأسرةالحاكمة· حدث ذلك رغم أوجه التباين فيما بينها :

١ — من حيث شرعية الحكم الذى تمتع به الأغالبة ، أو واقع التغلب والاستيلاء الذى أقام عليه الرستميون والمدراريون والأدارسة ملكهم ·

٢ — ومن حيث المذاهب الدينية التى اعتنقتها والتى تراوحت ما بين السنة على مذهب مالك وابى حنيفة ، والتشيع المعتدل على المذهب الزيدى، والخارجيه ، من : اباضية مقبولة وصفرية متعصبة ·

٣ — وأخيرا من حيث التركيب الاجتماعى الذى كان يضطرد فيه ظهور العصبية المغربية (البربرية) كلما اتجهنا من الشرق الى الغرب ، من مملكة القيروان الى مملكة فاس ·

ولكنه رغم ذلك التباين فى التركيب العرقى لدول المغرب هذه ، مما كان له أثره فى مسار الأحداث التاريخية فى ذلك القرن الثالث الهجرى (٩ م) ، بل وفى كل تاريخ المغرب العربى ، فقد جمعت الدول الثلاث الكبرى ، فى : القيروان ، وتاهرت ، وفاس ، أوجه شبه أساسية تمثلت ، بشكل خاص ، فى كون أسرها المالكة مشرقية الأصل — وهذا ما شاركتها فيه بلاد الأندلس الأموية ·

---

(٢٦) انظر فيما سبق ، ص ٤٧٢ ·
(٢٧) انظر فيما سبق ، ص ٤٧٩ ·

والحقيقة ان وجود أسر حاكمة مشرقية الأصل ، في : القيروان ، وتاهرت ، وفاس ، كما كان الحال في قرطبة ، كان له أهمية خاصة في تاريخ المغرب في ذلك الحين . فقد كان هؤلاء الحكام المشارقة عاملا من عوامل الربط بين بلاد المغرب المتطرفة وبين قلب العروبة والاسلام في المشرق . فكانت كل أسرة حاكمة بمثابة عامل جذب تشد الأعوان والأتباع من المشرق، على المستويين العرقي والفكري ، نحو موطنها الجديد في المغرب . هكذا سار العرب من بني تميم نحو افريقية حيث بنو عمومتهم الأغالبة ، وسار الفرس أو العجم ، من عرب ومستعربة ، من افريقية ومن العراق نحو بني جلدتهم الرستميين ، كما شد العلويون الحسنيون رحالهم الى فارس والمغرب الأوسط حيث اخوتهم من الادارسة ، وكذلك فعل محبوهم من الشيعـــة الزيدية . وبذلك كان تيار الهجرة من المشرق الى المغرب عاملا على اقامة نوع من التوازن الذى عدل من خطورة القطيعة السياسية بين الخلافة ودول المتغلبين ، ، حفظ الوحدة بين جناحي دولة العروبة والاسلام ، على المستويين: العرقى ، باستمرار عملية التعريب ، والفكرى ، بانتشار ثقافة المشرق العربى وحضارته على وجه العموم — وهو الأمر الذى يتطلب شيئا من التفصيل .

ب — الواقع الحضارى :

أدت الأوضاع السياسية فى بلاد المغرب ، خلال القرن الثالث الهجرى/ ٩ م اذن ، الى نوع من القطيعة مع المشرق العربى ودولة الخلافة ، ولكن تلك القطيعة كانت محدودة على المستوى الرسمي . وذلك أن العلاقات ظلت ، على المستوى الشعبى ، وطيدة بين جناحى دولة الخلافة والاسلام بفضل تيار الهجرة المتصل من المشرق الى المغرب ، بوجه عام ، وبفضل قوافل الحجاج السائرة من المغرب الى المشرق ، وما كان يصحبها من قوافل التجار فى طريق الذهاب والعودة . وكل ذلك ساعد على سرعة نقل الأفكار والعلم والثقافة بين عواصم المشرق وعواصم المغرب ، مما هيأ وحدة حضارية كانت أواصرها تقوى ، مع مرور الوقت وتشتد ، على طول الطريق ما بين بغداد وقرطبة .

هذا ، ولا شك فى أن تشجيع أمراء دول المغرب لذلك التبادل الاقتصادى والثقافى مع المشرق وعاصمة الخلافة ، عمل على دفع عجلة التقدم فى بلادهم، وعجل بالازدهار الحضارى فى أمهات مدنهم ، فكأنهم عملوا ، من حيـــث لا يدرون ، على تأكيد الروابط المادية والمعنوية بين شعوب بلادهم وشعوب دولة الخلافة ، وبالتالى الحفاظ على وحدة تلك الشعوب وتقوية أواصرها .

فمن الناحية الاقتصادية أى المادية عرفت الدول الأربعة ، بعد أن تمتعت

للاستقلال عصر نهضة وازدهار ، تمثل فى : العناية بالزراعة وتنظيم وسائل الرى ، وتشجيع التجارة والعناية بتأمين طرق القوافل ، مما ترتب عليه : زيادة الدخل ، ونمو المدن ، واتساع الأســـــواق ، وانتعاش الحـــرف والصناعات •

افريقية الأغلبية :

ازدهار الزراعة :

ففيما يتعلق بافريقية (٢٨) يقرر اليعقوبى ، الذى ساح فى المغرب وافريقية على عهد ابراهيم الثانى بن أحمد ، أن المنطقة الممتدة بين قمودة (سيدى بوزيد) والساحل كانت تزهو بخضرتها وأشجارها • ويعلق جورج مارسيه على ذلك قائلا : وهى المنطقة التى تمتد لمسافة ١٥٠ ك.م والتى ما زالت الى اليوم ، رغم التقدم العظيم الذى تحقق فى غراسة الاشجار فى منطقة صفاقس ،صحراوية الى حد ما (٢٩) • فقد انتشرت فى تلك المنطقة المعروفة بسهولها الرملية أشجار الزيتون ، وكذلك فى كل اقليم الساحل، كما انتشرت البساتين والقرى التى كادت تلامس بعضها البعض من كثرة ازدحامها ، وكان لكل منها معصرة (طاحونة) الزيت الخاصة بها (٣٠) • والى جانب الزيتون عرفت المنطقة أشجار الفاكهة المختلفة والكروم التى كان عنبها يؤكل طازجا أو يجفف لعمل الزبيب أو صنع النبيذ الذى كان شربه مباحا فى القيروان على أيام اليعقوبى والامير ابراهيم بن أحمد ، كما سبق ان رأينا فى شعر بعض الظرفاء (٣١) •

---

(٢٨) أنظر الدراسة الممتازة التى قام بها جورج مارسيه فى كتابه عن بلاد البربر الاسلامية (المغرب) والمشرق فى العصور الوسطى (بالفرنسية) ، فصل الحياة الاقتصادية ص ٧٦ — ٨٧ •

(٢٩) بلاد المغرب والمشرق الاسلامى فى العصر الوسيط ، ص ٧٧ — ٧٨ •

(٣١) ج مارسيه ، بلاد البربر ••• ، ص ٧٨ (عن المالكى فى رياض النفوس) •

(٣١) انظر فيما سبق ، ص ١١٧ • وفى ذلك يقال ان كثيرا من مشاهير فقهاء القيروان كانوا يحلون النبيذ ويشربونه ، مثل عبد الله بن فروخ الذى قال فيه مالك بن انس « هــذا فقيه المغرب » (الرقيق ، ص ١٨٠) ، وابى محرز القاضى ، واسد بن الفرات القاضى وعمر ابن منصور ... الذى الف كتابا فى تحليل النبيذ ... الرقيق بأنه كتاب حسن ، كما يقول ان ... عن منصور ... تحليل النبيذ من عبد الله بن فروخ (انظر قطب السرور فى اوصاف الخمور ، ص ٤٨٦ — ٤٨٩) •

وفي جنوب قمودة كانت احوار مدينة بقصة تزهو ببساتينها المثمرة . وكانت شجرة الكرم معروفة أيضا في بلاد الجريد التي اشتهرت بكثرة تمرها ونخيلها الذي اخذت منه اسمها ، فهي بلاد الجريد وبلاد التمر وبلاد النخل. وفي شمال قمودة امتدت بلاد الحبوب فكانت القيروان تفخر بمحاصيلها الوفيرة .

رقي الصناعة والتعدين :

وفي ميدان التعدين اشتهرت مدينة مجانة ، على أربع مراحل من القيروان ، على الحدود التونسية الجزائرية الحالية ، بأنها مدينة المعادن (المناجم) دون منازع ، حتى سميت بمجانة المعدن ، فمن مناجمها كانت تستخرج الفضة والكحل والحديد والمرتك والرصاص وغيرها (٣٢) . ولم يكن من الغريب ، اذن أن تتقدم الصناعات المعدنية فيالمملكة الاغلبية بشكل لم تعرفه البلاد في العصور السابقة على الاسلام ، كما يقرر ذلك جورج مارسية (٣٣) .

هكذا ازدهرت المصنوعات المعدنية المختلفة ، من حديدية كانت تمد الجيش والأسطول بما يلزمه من السلاح الثقيل والخفيف وفضية كانت تمد أسواق الصياغ بالحلى الرقيقة وقصور الأمراء بالآنية الثمينة . كما ازدهرت المصنوعات الزجاجية الدقيقة والفخارية الرقيقة من اواني الشرب وصنج الموازين ، وبلاطات الخزف التي كانت تكسو الحيطان وتزين الأرض وتضفي الكثير من البهاء على النافورات ومواجل الماء (٣٤) .

تقدم النسيج :

ولقد اشتهرت افريقية كذلك بصناعة البسط التي كان لها قدرها الجليل في المشرق حتى أنه كان على أمير القيروان ان يقدم منها – مع ما كان مرسوما عليه من المال السنوي – ١٢٠ (مائة وعشرين) بساطا الى بغداد ،

---

(٣٢) البلدان لليعقوبي ، ص ٣٤٩ .

(٣٣) بلاد البربر والمشرق الاسلامي ... ، ص ٧٩ والهوامش .

(٣٤) هذا ولو ان العثور على صنجة زجاجية من اواخر ايام الأمويين تعني ان ولاة المغرب لم يهتموا العناية باستغلال ثروات البلاد الطبيعية قبل الاغالبة – ج. مارسيه ، بلاد البربر ... ، ص ٧٩ والهامش ٥٠ .

كما يذكر ابن خلدون (٣٥) ، فكأن بلاد الاغالبة كانت منافسا امتدادا للمشرق الايراني العريق في تلك الصناعة العتيدة - ومازالت البلاد التونسية معتدة بمهاراتها القديمة في صناعة البسط ، ولكل اقليم ما بين القيروان والساحل ومدن الجنوب أساليبه الفنية الخاصة به من حيث طريقة النسيج ، وشكل القطع ، ونوع الزخرفة ، وتحديد الألوان وتوزيعها .

واذا كانت افريقية الأغلبية قد اشتهرت بصناعة البسط ، فاغلب الظن أن ذلك ينطبق على صناعة النسيج أيضا التي سينوه بها الكتاب والجغرافيون فيما بعد العهد الأغلبي ، حيث كانت الطرز التي تنسج أنواعا من الثياب الفاخرة منتشرة في كثير من المدن ، مثل : قابس وسوسة (٣٦) واذا صح ما يسجله رقون جست (R. Guest) من أنه عثر على قطعة من النسيج المصنوعة في طراز افريقية والتي تحمل اسم الخليفة الأموي مروان (بن محمد ؟) (٣٧) ، فان ذلك يعني اهتمام العرب بصناعة النسيج في افريقيه منذ وقت مبكر ويفسر ازدهار تلك الصناعة المستمر مع مرور الوقت . واكتساب الخبرة على عهد الأغالبة ثم على عهد الفاطميين والصنهاجيين .

وبذلك أرسى الأغالبة قواعد تلك الفنون الحرفية ـ وخاصة الزجاج والخزف ـ التي أينعت في القرنين التاليين (٤ ، ٥هـ/١٠ ، ١١ م) ، على عهد الفاطميين والصنهاجيين وهي متأثرة بمؤثرات مشرقية مستجلبة من العراق ومن مصر (٢٨) .

الازدهار الاقتصادي :

وبفضل نشاط أمراء الأغالبة ، وعملهم على استقرار ذلك الازد

---

(٣٥) المقدمة ، ج ٢ ص ٦٧٤ (فصل في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها) حيث الاشارة الى ما وجد بخط أحمد بن محمد بن عبد الحميد عما كان يحمل الى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي . فقد كان المقرر على افريقية ، هو : ثلاثة عشر ألف درهم مرتين (١٣ مليون درهم) ، ومن البسط مائة وعشرون (١٢٠ بساطا) ، ج مارسيه بلاد البربر ... ، ص ٨١ .

(٣٦) انظر كتاب الاستبصار ، ص ١١٣ ، ١١٩ .

(٣٧) ج . مارسيه ، بلاد البربر ... ، ص ٨١ .

(٣٨) انظر مارسيه ، بلاد البربر ... ، ص ٨٠ ، وعن المؤثرات الشرقية والأنماط في سجاد (بسط) شمال افريقية البدوي مما يمثل التوافق بين البدوي والمدني ، أ بوركارت ، الفن الاسلامي : لغته ومعناه (بالانجليزية) ، ص ١٠٨ .

الاقتصادى الذى ظهر أيضا فيما قاموا به من اصلاحات مالية ، مثل تحسين العملة ورفع مستوى سبيكتها الذهبية ، وتحديد الضرائب المنظمة التى تدخل الخزانة العامة سنويا بصرف النظر عن حالة المحصول ، وتأمين شبكة الطرق التى كانت تمر بالقيروان ، أصبحت القيروان أهم مركز تجارى فى الشمال الافريقى على المستويين الداخلى والخارجى • فلقد زاد نشاط أسواقها ، واتسعت حوارها ، وعمرت بمختلف السلع الواردة والصادرة • فكان تجارها يجلبون الزيت من منطقة الساحل (صفاقس) ومن طرابلس ويبيعونه فى الأسواق المختلفة ، وكانوا يصدرون القمح الى الاسكندرية ، كما كانت تأتيهم خيرات بلاد السودان ، من الذهب والعاج والرقيق • هذا ولقد شاركت القيروان ، فى هذا الازدهار الاقتصادى ، كثير من المدن ، مثل قابس وصفاقس وسوسة كما انتعشت عواصم الاقاليم ، مثل . قفصة وطبنة والأربس وغيرها •

ولا شك فى أن ما عثر عليه من العملات الأغلبية الموجودة فى المتاحف المختلفة ، من الدنانير الذهبية التى حافظت على جودة سبيكتها ، وعلى سلامة وزنها (٢٠ر٤ جرام) طوال عهد الاغالبة – باستثناء عهد الأخير منهم زيادة الله الثالث – هو خير دليل على تأكيد ذلك الرخاء الذى عرفته افريقية الأغلبية رغم الأزمات السياسية وبعض النوازل الطبيعية التى مرت بالبلاد ما بين وقت وآخر (٣٩) ، مما سبق ذكره •

تاهرت الرستمية :

العناية بالزراعة :

وفيما يتعلق بتاهرت والمغرب الأوسط فقد عرفنا ، هما أيضا ، عهد ازدهار اقتصادى بفضل نشاط الائمة الرستميين • ومن لاذ بهم من بنى جلدتهم من الفرس الذين كونوا جماعة مرموقة كان لها كيانها الخاص ، كما كان لها نشاطها فى كل من ميدانى السياسة والاقتصاد ، فى منطقة العاصمة

---

(٣٩) انظر ج• مارسيه ، بلاد البربر •••• ، ص ٨٢ •

(٤٠) وفى زراعة تاهرت يقول اليعقوبى انه « لم يكذب زرع البلد قط الا ان يصيبه جريح أو برد (البلدان ، ص ٣٥٨) • هذا ، كما ان السهل الواقع جنوبى تاهرت وشرقها ، توجد الذى ما زال محليا بخرائب القرى التى يرجح ان يكون كثير منها من العهد الرستمى ، يشهد على ازدهار المنطقة وقتئذ (انظر ج• مارسيه ، بلاد المغرب الاسلامية •••• ص ١١٠) •

تاهرت . واذا كانت امامة تاهرت قد عانت من الإنقسامات المذهبية التى انتهت بالصراعات السياسية والعسكرية التى رأيناها ، فان الجماعات الخارجية التى شقت عصا الطاعة على أئمة تاهرت كان لها دورها الحضارى فى الأقاليم البعيدة حيث نشطت فى أعمار البلاد ، وتبارت مع الأئمة فى الأعتمام بالتجارة والثقافة ، فكان الجميع عملوا جنبا الى جنب ، وان عمل كل طرف لحسابه الخاص ، على نشر الحضارة والعمران .

فبفضل نشاط عبد الرحمن بن رستم وخلفائه الذين اعتنوا باقليم تاهرت ذى المناخ القاسى فاحسنوا استخدام الأمطار ، ونظموا أعمال الرى فاجروا الإنهار ، عمرت المنطقة وعرفت الزراعة وغراسة الأشجار بعد ان كانت منطقة رعوية فقط (٤٠) . كذلك ازداد عمران مدينة تاهرت نفسها وأصبحت تسمى عراق المغرب ، كما يقول اليعقوبى (٤١) ، بفضل المهاجرين اليها من المشرق وخاصة من العراق ، من : الكوفة والبصرة ، ممن اقتنوا وبنوا الدور والمساجد والقصور ، كما يذكر ابن الصغير (٤٢) .

الاهتمام بالتجارة :

والحقيقة ان ازدهار تاهرت هذا لا يرجع الى عملية الاحياء الزراعية وحدها ، وذلك ان أهمية تاهرت الرستمية تمثلت بشكل خاص فى أنها كانت الوسيط فى تبادل السلع بين الأقاليم الزراعية فى شمال المغرب الأوسط حتى الأقاليم الساحلية حيث كان مرسى فروخ معروفا بانه مرسى مراكب تاهرت ، كما يقول اليعقوبى (٤٣) ، وبين أقاليم الرعى الجنوبية وما يليها من الأقاليم الصحراوية وبلاد السودان .

وبلغ اهتمام الأئمة بتجارة السودان حتى قيل ان أفلح بن عبد الوهاب كاد يسافر الى جوجو (كوكو) للتجارة ايام امامة والده ، ولم يمنعه من ذلك الا توقفه فى مسألة من مسائل الربا التى امتحنه بها والده ، رغم ما عرف به من العلم (٤٤) .

---

(٤١) اليعقوبى ، البلدان ، ص ٣٥٣ .

(٤٢) انظر فيما سبق ، ص ٣٠٩ — ٣١٠ .

(٤٣) اليعقوبى ، البلدان ، ص ٣٥٣ .

(٤٤) انظر الوسيانى ، كتاب السير ، مخطوط ، دار الكتب المصرية ، ورقة ٣٥ وجه .

وهكذا كانت تاهرت ، مثلها مثل القيروان من أعظم أسواق المغرب ٠ ولا شك في أن الثروات التي جمعها الكوفيون والبصريون والقيروانيون ، وغيرهم من أصحاب الدور والقصور في تاهرت ، كانت ثمرة عملهم في التجارة، وخاصة مع بلاد السودان التي كانت بحق في ذلك الزمان بلاد الذهب (٤٥) ٠

والى جانب هؤلاء التجار من المشارقة ، من عرب وفرس كان للمغاربة (البربر) من أهل البلاد جهودهم في تنشيط تجارة تاهرت ، مثل :المزاتيين الذين سكنوها وأصبحت أموالهم احدى دعامات الدولة الرستمية الى جانب جند نفوسة (٤٦) ، والهواريين الذين آتوا من افريقية وسكنوا في أحد الأودية غربي المدينة ، وغيرهم من : اللواتيين والمطماطيين والزواغيين ، أو من الصنهاجيين والزناتية ممن سكنوا تاهرت (٤٧) ٠

حراسة القوافل :

واذا كانت بعض القبائل المغربية المناوئة لائمة تاهرت ، كانت تحاول العيش السهل عن طريق اعتراض قوافل التجار ، كما فعلت زناتة على عهد أبي اليقظان الذى ارسل ابنه أبا حاتم لحماية بعض القوافل الآتية من المشرق ، فان كثيرا من القبائل التي ـ ت بالطاعة ، بل ومن التي رفعت راية العصيان ، عملت على تقدم العمران في بلادها ٠

العمران خارج تاهرت :

فعلى مسافة أيام قليلة شرق تاهرت كانت بلاد بني دمر وهم من بربر ناتة ، تليها بلاد أقاربهم من بني برزال ، وكانوا كلهم خوارج أو شراة ، ما يسميهم اليعقوبي ، وكانت بلادهم : « بلد زروع ومواشي »(٤٨) ٠ أما عن الزاب التي كانت في حكم الأغالبة وتتنذ ، فلا شك أن الجماعات الخارجية ت منتشرة فيها ، رغم عدم اشارة اليعقوبي الى ذلك (٤٩) ٠ وهذا ما يفسر ن صارت بلاد الزاب أهم معاقل الاباضية بعد العهد الرستمي ٠ كما

---

(٤٥) انظر فيما سبق ، ص ٤٠٦ ٠
(٤٦) انظر فيما سبق ، ص ٣٨٧ ٠
(٤٧) انظر مارسيه ، بلاد البربر ، ص ١١٢ ـ ١١٣ ٠
(٤٨) البلدان ، ص ٣٥٢ ٠
(٤٩) انظر البلدان ، ص ٣٥٠ ٠

كانت جماعات الخوارج مزدهرة في قلب الصحراء في اقليم ورجله حيث قبائل سدراتة : أنصار الرستميين الأوائل منذ عهد عبد الرحمن بن رستم (٥٠) . ومثل هذا يقال عن جماعات الخوارج في جبل أوراس ، جنوب هضبة قسطينة حيث أقامت جماعات من هوارة كانت تحيط بمدينة باغاية (٥١) .

ومن جماعات الاباضية المخالفين لامامة تاهرت الذين يذكرهم اليعقوبي ، تلك الجماعة التي كان يرأسها ابن مسالة الهوارى الذى كان يسكن مدينة تسمى الجبل غير بعيد من البحر ، وكان « لها مزارع وقرى وعمارات وأشجار » . وكانت مملكة ابن مسالة هذه تتاخم مملكة محمد بن سليمان العلوى : كما يقول اليعقوبي (٥٢) .

عمران جبل نفوسة :

اما آكثر مواطن الخوارج ازدهارا واستقرارا خارج تاهرت فكان ، من غير شك ، جبل نفوسة ، معقل الاباضية دون منازع . فعلى عهد امامة تاهرت عرف جبل نفوسة عصر ازدهار حقيقى . فقد زها بضياعه وقراه ومزارعه وعماراته الكثيرة (٥٣) ، وأثرى تجاره الذين نافسوا تجار تاهرت في نشاطهم الى قلب الصحراء وحتى بلاد السودان (٥٤) .

وحول جبل نفوسة ، شرقا في منطقة سرت الداخلة في نطاق اقليم برقة ، وجنوبا في اقليم ودان ، انتشرت قبائل مزاتة الذين عرفوا بأنهم كلهم اباضية ، وان كان اليعقوبي يعلق على ذلك قائلا : « على أنهم لا يفقهون ولا لهم دين » . وفيما وراء ودان جنوبا كان أهل زويلة أيضا كلهم من الاباضية ، وكانت لهم تجارتهم مع السودان ، وان كانوا قد تخصصوا في تجارة الرقيق حيث كانوا يأتون بأصنافهم المختلفة ، من : المريين ، والزوغاويين ، والمرويين ، وغيرهم من أجناس السودان (٥٥) .

---

(٥٠) انظر ج . مارسيه ، بلاد البربر الاسلامية ... ، ص ١٠٣ .
(٥١) انظر اليعقوبي ، ص ٣٥٠ .
(٥٢) البلدان ، ص ٣٥٦ .
(٥٣) اليعقوبي ، ص ٣٤٦ .
(٥٤) انظر فيما سبق / ص ٤٠٥ .
(٥٥) انظر اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .

سجلماسة المدرارية :

وهكذا كانت الجماعات الاباضية في أواخر القرن الثالث الهجرى مزدهرة في صحراوات المغرب ما بين تاهرت وبرقة بفضل اشتغالها في الزراعة باحياء الأرض ، وفي التجارة ما بين الشمال وبلاد السودان • ومثل هذا يقال عن جماعات الصفرية في سجلماسة الذين كانوا مرتبطين بتاهرت بطريق تجارى يصفه اليعقوبى : بأنه يخرج من تاهرت في اتجاه بين القبلة والغرب ، ويمر بعد ٣ (ثلاث) مراحل بمدينة أوركا التى كانت لبعض قبائل زناتة المعروفين ببنى مسرة ، ثم ينحرف غربا الى أرض زناتة ، قبل أن يصير الى مدينة سجلماسة بعد ٧ (سبع) مراحل تقريبا • واذا وصف اليعقوبى بعض الطريق بأنـــه مفازة أى صحراء قاحلة ، فان معظم مسيرته كانت في قرى ، وان وصفت بأنها غير آهلة •

أما مدينة سجلماسة نفسها ، فكان لها نهر يقال له زيز وكانت زراعة أهلها ، وأكثرهم من صنهاجة ، الدخن والذرة • واذا كان اليعقوبى يعرف أن وادى درعة يدخل في قرى سجلماسة ، فانه يشير الى أن احدى مدن درعة ، وهى تامدلت ، كانت تابعة لأحد الأدارسة وهو يحيى بن ادريس العلوى • واذا وصفت تامدلت بأنها لم تكن بالمدينة الكبيرة ، فمن المهم أنه كان « حولها معادن ذهب وفضة ، يوجد كالنبات ويقال ان الرياح تسفيه »(٥٦) • ولا بأس أن يكون استقرار الأدارسة بعيدا في وادى درعة من أجل استغلال تلك المعادن الثمينة •

والذى يلفت النظر هنا هو أن العلويين من الأدارسة كانوا يزاحمون الخوارج الصفرية في العمل الحضارى فى صحراوات سجلماسة الجنوبية ، كما زاحموا اباضية تاهرت فى تلمسان وسواحل المغرب الاوسط، فكان الرستميين ولأدارسة عملوا جنبا الى جنب في النهضة المدنية لبلاد المغرب، فى لقرن الثالث الهجرى/٩م ، وان كان عن غير قصد •

فاس الادريسية :

وكما كان للاغالبة والرستميين دورهم فى الأخذ بيد النهضةالاقتصادية التى عرفتها افريقية والمغرب الأوسط ، كان للأدارسة نصيبهم فى انعاش

---

(٥٦) اليعقوبى البلدان ، ص ٣٥٩ ، وأنظر فيما بعد ، هـ ٢٢٩-ص ٥٩٦ ، ص ٥٩٧ (عن أعمال التبر التى خرج بها عبيد الله من سجلماسة) •

كل من المغربين : الأقصى ، والأوسط . فقد كان وجود امام علوي في منطقة فاس سببا في وصول فيض من المهاجرين العرب ، من : الأقارب العلويين الوافدين من المشرق ، والقيروانيين القادمين من مملكة الأغالبة ، والأندلسيين الباحثين لهم عن موطن جديد . ووجد كل هؤلاء بغيتهم المنشودة في عاصمة الأدارسة التي تضخمت عدوتاها ، حتى أصبحت في أواخر القرن الثالث الهجري ، على أيام اليعقوبي وعلى عهد يحيى بن يحيى بن ادريس : « والمدينة العظمى التي يقال لها مدينة افريقية ، على النهر العظيم الذي يقال له فاس »(٥٧) .

وحق لليعقوبي أن يخطىء ويسمي مدينة فاس « بمدينة افريقية » ، فكأنها صارت أختا « لمدينة القيروان العظمى (٥٨) » ، وهو الأمر المقبول من حيث العمل الحضاري ، كما نرى . فمدينة فاس ، كما يصفها اليعقوبي في أواخر القرن ٣ هـ/٩م : « جليلة ، كثيرة العمارة والمنازل » . وهو يعد في الجانب الغربي من نهر فاس ، أي في « مدينة أهل الأندلس» ثلاثة آلاف رحا تطحن بماء النهر الجاري (٥٩) . فكأن مدينة فاس الادريسية كانت في أقصى المغرب ممثلة حقيقية لحضارة العرب الناهضة في ذلك الوقت المبكر ، ومنافسة حقيقية لمواصم المشرق التي لم تأل جهدا في استخدام القوى المائية والهوائية لادارة الطواحين بدلا من الدواب والماشية . والى جانب الطواحين كان على نهر فاس : « عمارات جليلة ، وقرى وضياع ومزارع من حافتيه » ، منذ منابعه من العيون القبلية الى أن يفيض في نهر سبو (٦٠) .

شمال فاس ، وبلاد الريف :

أما عن بقية مملكة فاس التي قسمت منذ عهد محمد بن ادريس ، فكان نهر سبو على أيام اليعقوبي ، اقطاعا لحمزة بن داود بن ادريس . والى الشمال منه كانت « حصون وعمارات وبلد واسعة » ، لواحد من ولد داود بن ادريس ، يلي ذلك قلعة صدينة التي كانت لمحمد بن عمر بن ادريس . وكان آخر حدود مملكة بني ادريس بن ادريس ، في بلاد الريف شمالا ، بلد يسميه اليعقوبي « ملحاص لخانة » حيث يجتمع حاج السوس الأقصى وطنجة ، وكان لتلي

---

(٥٧) البلدان ، ص ٣٥٨ .
(٥٨) البلدان ، ص ٣٤٧ .
(٥٩) البلدان ، ص ٣٥٨ .
(٦٠) البلدان ، ص ٣٥٨ .

ابن عمر بن ادريس ، ثم بلد غميرة ، الذي نظن أنه غمارة ، وكان لعبد الله ابن عمر بن ادريس (٦١) ·

تلمسان وأحوازها :

بلاد بني محمد بن سليمان :

وتاتي بعد فاس مدينة تلمسان ، المدينة العظمى المشهورة بالمغرب ، كما سميها اليعقوبي بمعنى العاصمة ، وكانت أول معاقل العلويين من بني محمد بن سليمان ، من حيث انتشروا في سواحل المغرب الأوسط وبواديه · فتلمسان التي يصفها اليعقوبي كانت مدينة حصينة عليها سوران من حجارة ، مثل بغداد ، وبها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة ، وحولها قبائل من بربر مكناسة · أما صاحبها في ذلك الوقت ، فكان محمد بن القاسم بن محمد بن سليمان (٦٢) ·

ما بين بني محمد بن سليمان والاباضية :

وفي شرق تلمسان كانت هناك مملكتان لبني محمد بن سليمان ، أولاهما متاخمة لمملكة ابن مسالة اليوارى الاباضي ، وعاصمتها مدينة تمطلاس ، وأكثر أهلها من بربر مطماطة (٦٣) ، وثانيتهما عاصمتها مدينة مدكرة ، المتاخمة من جهة الشرق لبلد متيجة . وكانت للحسنيين من بني محمد بن جعفر · ومملكة متيجة هذه كانت بلدا واسعا ، « فيه عدة مدن وحصون ، وهو بلد زرع وعمارة »(٦٤) ·والى الغرب من مدينة مدكرة ، اتصل ملك بني محمد بن سليمان في مدينة الخضراء بما كان يتبعها من « مدن كثيرة وحصون وقرى ومزارع » · وينص اليعقوبي على أن كل رجل من بني محمد بن سليمان كان مقيما متحصنا في مدينة وناحية ، « وعددهم كثير حتى أن البلد يعرف بهم ، وينسب اليهم · وآخر المدن التي في أيديهم ، قرب ساحل البحر ، يقال لها سوق ابراهيم وهي : المدينة المشهورة ، وكان صاحبها هو عيسى بن ابراهيم ابن محمد بن سليمان (٦٥) ·

---

(٦١) البلدان لليعقوبي ، ص ٣٥٧ ·
(٦٢) البلدان ، ص ٣٥٦ ·
(٦٣) البلدان ، ص ٣٥٦ ·
(٦٤) البلدان ، ص ٣٥٢ ·
(٦٥) البلدان ، ص ٣٥٣ ·

ما بين بني محمد بن سليمان وزناتة :

واذا كان بنو عمومة الأدارسة قد اختصوا بالأقاليم الواقعة في شرق تلمسان حتى صارت تعرف ببلاد بني محمد بن سليمان ، فانهم فقدوا في غرب تلمسان مدينة هامة حملت اسمهم ، هي « مدينة العلويين » التي تركوها لجماعة من زناتة ، بقيادة رجل يقال له علي بن حامد بن مرحوم الزناتي (٦٦) . وفيما وراء مدينة العلويين من جهة الغرب كان لبني محمد بن سليمان مدينة نمالتة ، وفي غربيها كانت تنتهي مملكتهم بمدينة فالوس المتاخمة لمدينة نكور ، قاعدة ملك صالح بن سعيد النفزي . ويصف اليعقوبي فالوس بأنها « مدينة عظيمة أهلها من البربر من مطماطة وترجة وجزولة وصنهاجة » . أما مملكة صالح بن سعيد ، وهي نكور ، فهي : « مسيرة عشرة أيام في عمارات وحصون وقرى ومنازل وزرع وضرع وخصب » ، وذلك الى حدود مملكة بني ادريس بن ادريس (٦٧) .

الادارسة في وادي درعة والسوس الأقصى :

والى جانب مملكة فاس ومملكة بني محمد بن سليمان كان للادارسة اماراتهم في وادي درعة في منطقة سجلماسة ، كما كانت لهم ممالكهم في السوس الأقصى حيث نزل بنو عبد الله بن ادريس بن ادريس ، وكذلك في البلاد الممتدة ما بين السوس الأقصى وأغمات ، التي يصفها اليعقوبي بأنها : « بلد خصب فيه مرعى وزروع وسهل وجبل ، وأهله قوم من صنهاجة(٦٨) » .

وهكذا انتشر الادارسة فيما بين المغرب الاوسط وأقصى المغرب الاقصى الى صحراء سجلماسة وبلاد السوس ، وعملوا على تمدين البلاد وبناء المدن والأسواق ، مثل : مدينة العلويين وسوق ابراهيم في المغـــرب الأوسط ، واستغلوا مناجم الذهب والفضة ، كما فعلوا في تامدلت بوادي درعة ، فضلا عما قاموا به في سبيل اعمار منطقة وادي فاس ومدينة فاس ـ مدينة افريقيا العظمى ، كما يسميها اليعقوبي .

خلاصة الموقف العمراني :

وهكذا تكون بلاد المغرب قد عرفت نوعا من الازدهار الاقتصادي والمادي

---

(٦٦) البلدان لليعقوبي ، ص ٣٥٦ .
(٦٧) البلدان لليعقوبي ، ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ .
(٦٨) البلدان ، ص ٣٦٠ .

في القرن الثالث الهجري/٩م بفضل مجهودات كل من الاغالبة والرستميين والأدارسة ، ودنت بعد فترة الاضطراب التي شهدتها البلاد على عهد ولاة دمشق والعباسيين الأوائل . فقد كانت استقلال كل أسرة بمملكتها حافزا لها على تنمية مواردها المالية ، فأنفقت دخلها في العناية بالزراعة وأعمال الري ومد المدن بالمياه ، وتأمين طرق المواصلات اللازمة للتجارة ، مما عاد على أهـل البلاد بالرخاء ، وعلى الحكام بالتمكن من الأمر واستفحال الملك .

ولقد اضطردت هذه القاعدة عندما دب دبيب الفتنة في كل من الدول الثلاث فاختلف أمراء الأسر الحاكمة فيما بينهم ، وقام المتغلبون في المدن والأقاليم ؛ اذ نشط كل متغلب منهم في تنمية موارد اقليمه ، وعمل على أن تكون مدينته منافسة للمدينة العظمى أي العاصمة ، وهذا ما يفسر انتشار « المدن العظمى » في وصف اليعقوبي للبلاد على طول الطريق من الريقية الى اقصى المغرب . والمدن التي توصف بالعظمى ١٢ (أثنتا عشرة) مدينة هي : القيروان ، وتونس (٦٩) ، وسبيطلة (٧٠) ، وتوزر (عاصمة قسطيلية) ، وبشرة (عاصمة نفزاوة) ، وطبنة (عاصمة الزاب) (٧١) ، وميلة (٧٣) ، وتاهرت (٧٢) ، وتمطلاس (٧٤) ، وتلمسان (٧٥) ، وفالوس (٧٦) ، وأخيرا فاس (٧٧) .

هذه المدن — دون ذكر غيرها من المواصم المحلية التي كان ينزلها الولاة ، والمتغلبون من القواد ورؤساء القبائل — التي زهت بأسواقها ، ومتاجرها وحرفييها ، وحماماتها ، وقصورها ، ومساجدها الجامعة والمحلية ، والتي جمعت أخلاطا من الناس ، من عرب المشرق : الصرحاء والموسومين بالفرس وبالخراسانية ، عرب المغرب : الوافدين من افريقية والأندلس ومن المغاربة

---

(٦٩) مدينة عظيمة . البلدان ، ص ٣٤٨ .

(٧٠) المدينة القديمة العظمى . البلدان ، ص ٣٤٩ .

(٧١) البلدان ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٧٢) مدينة عظيمة جليلة : البلدان ، ص ٣٥١ .

(٧٣) البلدان ، ص ٣٥٢ ، المدينة العظمى ، عراق المغرب .

(٧٤) من عواصم بلاد بني محمد بن سليمان المتاخمة لمملكة تاهرت غربا : البلدان ، ص ٣٥٦ .

(٧٥) البلدان ، ص ٣٥٦ .

(٧٦) من عواصم بني محمد بن سليمان غربي تلمسان . البلدان ، ص ٣٥٧ .

(٧٧) المدينة العظمى التي يقال لها مدينة افريقيا . البلدان ، ص ٣٥٧ .

(البربر) على اختلاف قبائلهم : الصرحاء منهم والمنتسبين الى عرب اليمنية والقيسية ، عرفت أيضا ازدهارا ثقافيا وروحيا ، مما كان نتيجة طبيعية لهذا الازدهار المادي ، وذاك التنوع في الاجتمـاع البشري .

الازدهار الثقافي والحياة الروحية :

الاطار المادي :

والحقيقة أن كل عاصمة سياسية كانت على قدر أهميتها - كبرت أم صغرت - سوقا تجارية ومركزا علميا في نفس الوقت . وهنا نجد ازدهار التجارة وثيق الصلة بتقدم العلوم والثقافة . فعلى قدر تراكم المال والثروة يكون الاهتمام بالمدنية والحضارة . فتكدس الثروات في كل من العواصم أو (المدن العظمى) هي التي تفسر بناء الدور والقصور ، وتشييد الجـوامع والمساجد التي صارت معارض للفنون التشكيلية ومراكز للعلوم والثقافة ، من : دنيوية ودينية .

في افريقية :

متحف جامع القيروان :

ففي افريقية الأغلبية كان جامع عقبة - مفخرة مدينة القيروان ومتبع زهوها الى اليوم ، الذي كان أعيد بناؤه أكثر من مرة بمعرفة ولاة الأمويين والعباسيين ، قبل أن يجدده بالشكل الذي وصل الينا الآن زيادة الله الأول ومن أتى بعده من أمراء الاغالبة - متحفا للفن الاسلامي في افريقية ، كما كان مركزا للعلوم الدينية . فهو ، بفضل اتساع مقاييسه ، وبساطة خطوطه ، وزخرفته الضخمة القديمة ، وتخطيطه المعماري العربي الأصيل ، المستوحى من تخطيط مسجد النبي في المدينة ، يعتبر آية من آيات الفن الاسلامي المبكر. واول ما يشد النظر عند الدخول الى المسجد الجامع هو الصحن الفسيح ، الذي يوحي للزائر بانه في ميدان رئيسي لبعض المدن الفخمة ، بفضل مجموعات السقائف البديعة المحيطة به ، التي ترفعها الأقواس نصف الدائرية الجميلة ، المحملة على رؤس الأعمدة الرشيقة ذات النقوش المختلفة والأصول المتنوعة مما تم صنعه بأيدي الفنانين المهرة من أهل البلاد ومن الوافدين ، ومنه يرجع الى ما قبل الاسلام - الأمر الذي يجعل من عناصر الجامع متحفـا حقيقيا .

وينفتح على الصحن الواسع بيت الصلاة الذي تقسمه صفوف من الأعمدة

الرائعة ، ذوات التيجان الثمينة المأخوذة من العمائر القديمة ، الى : ٦٧ (سبعة عشر) رواقا عمودية على حائط القبلة ، و ١٠ (عشرة) أروقة عرضية موازية لحائط القبلة ، مغطاة بسطح مستقف تحمله حوائز خشبية مزخرفة بأنواع الزواق . والرواق الاوسط ، كما هي العادة في المساجد العربية الطراز ، أكثر اتساعا وأعلى ارتفاعا من بقية الأروقة على الجانبين (٧٨) ، وعلى كل من طرفيه تقوم قبتان رشيقتا الأضلاع . وفي مقابل الرواق الأوسط . وعلى سمت قبتيه المضلعتين ، تقوم — في طرف الصحن — منارة الجامع العريقة ، بشكلها المربع وهيكلها المهيب .

ويكاد الأثريون يتفقون على أن الأثر الشامي يظهر في تخطيط هذه المنارة وفي موقعها من الجامع ، بينما تدل هيئة السوارى وكذلك شكل الأقواس على أنها منقولة من مصر . والى جانب ذلك فانهم يجدون في بعض تفصيلات القباب تقليد للعمائر العراقية المعاصرة . أما عن الزخارف المنحوتة في الحجر أو في الرخام فهم يرون أنها تتفق مع تقاليد المصانع المحلية .

والمهم في كل ذلك هو أن اختلاف المؤثرات ، صدا ، لا ينفي تناسق المجموع : فالعناصر الوافدة من العراق ، والمستجلبة من مصر ، وكذلك العناصر الافريقية المحلية القديمة وهي التي تكاد تمثل أخلاط الناس من سكان المدن ، من : العرب والخراسانية والمغاربة أو البربر ، اشتركت جميعا في التعبير الكلي الجميل ، وهو ما يمثل عبقرية الفن العربي الاسلامي .

وأخيرا فان ما قيل عن مسجد عقبة الجامع يمكن أن يقال عن جامع الزيتونة بتونس ، وعن رباطات سوسة والساحل ، التي جمعت في مبانيها

---

(٧٨) وهذا الأمر جعل الأثريين الأوربيين يشبهونه بالرواق الرئيسي في البازيليكية (الكنيسة) المسيحية ويقولون انه مستوحى منها — انظر ج. مارسيه ، الفن الاسلامي ، ط. لاروس (بالفرنسية) ، ص ٥ ، وقارن كرسويل ، الفن الاسلامي المبكر ، ط. بليكان (بالانجليزية) ، ص ٢٥٦ — ٢٥٨ (حيث يقرر فقط أن الرواق الأوسط كان في البداية أوسع مما هو عليه الآن بأربعة أقدام) ، وانظر أحمد فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ٣٥ : حيث يفسر اتساع الرواق الأوسط بالحاجة الوظيفية لهذا الرواق الذي يقابل المحراب والمنبر حتى يسمح لأكبر عدد من المصلين المتجمعين فيه ، من رؤية الامام وهو يخطب أو يؤمهم في الصلاة جماعة ولقد طور الدكتور احمد فكرى نظريته في الأهمية الوظيفية لاتساع الرواق الأوسط في المساجد الاسلامية في كتابه « المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها » انظر ص ٣٠٠ — ٣١٢ .

ما بين الحصن والجامع ، كما يظهر في رباط المستير الشهير والحقيقة ان هذه الآثار الى جانب ما بقى لنا من المناظر والمواجل وبعض الفسوق الصغرى ، يؤكد مولد فن حسن التناسق ، قوى التعبير ، ويثبت تجسام مدنية حسنة ، وهي في سبيلها الى مزيد من التقدم والازدهار ، مع ازدياد انصهار ذلك الخليط المبرقش من اخلاط الناس ، الذين عبر ذلك الفن عن شخصيتهم المركبة في ذلك العصر •

في تاهرت :

خصائص ذاتية : حياة البساطة وانعكاساتها في المجتمع :

واذا كانت بقايا الآثار الأغلبية ـ وهي قليلة ـ تسمح باعطاء فكرة عما كانت عليه العمارات الدينية ، وخاصة المساجد ، ومسجد عقبة على وجه الخصوص ، فان الأمر ليس كذلك بالنسبة لتاهرت الرستمية • فمن الأمور المتفق عليها ، أنه رغم ازدهار تاهرت المادي بفضل تنوع عناصر سكانها ، من : العرب ، والفرس ، والبربر ، الذين كان لهم أثرهم من غير شك فيما أقاموه هناك من المباني ، فان ائمة تاهرت ظلت محافظة على تقاليد الخوارج التي تتمثل في حياة التقشف والاقلال من التمتع بمباهج الحياة • حقيقة ان التجارة والحياة الاقتصادية كانت مزدهرة في تاهرت التي تكدست فيها الثروات وبنيت فيها الدور والقصور ، ولكن مسار الحياة المادية هناك كان ينساب بايقاع رتيب ، يختلف عن ذلك الذي عرفته افريقية • فالمسالة هنا لا تتعلق فقط بتكدس الثروات ، عصب الحضارة ـ وهذا قانون عام سرى في القديم ، كما يسرى في عصرنا الحديث ـ بل هو وثيق الصلة بما تقتضيه أحوال البيئة : والبيئة الرعوية او البدوية ، المختلفة اذا لم تقل المتخلفة عن بيئة افريقية المدنية ، كانت السائدة في بلاد تاهرت •

امتداد حضاري افقي :

واذا لم يكن هناك مجال للمقارنة بين أئمة تاهرت المتقشفين المتمسكين باهداب الدين ، وبين ملوك وقادة المتحررين ، المنغمسين في مباهج الحياة ، كذلك يمكن القول ان المسافة ظلت بعيدة بين ما كان عليه جامع القيروان الأغلبي وجامع تاهرت الرستمي ، أو غيره من جوامع الاباضية المعاصرة التي لم يبق لنا من آثارها ما يسمح بمثل هذه المقارنة ، وكذلك كان الحال بالنسبة لغير المساجد من المباني المدنية أو الحربية : حقيقة ان كتب السير الاباضية تتحدث عن كثير من المساجد والزوايا والمصليات التي بناها شيوخ المذهب

فى كل من قرى جبل نفوسة ، أو اقليم نفزاوة ، أو بلاد الزاب ، أو اقليم تاهرت ، ولكنه من الواضح ان تلك المساجد كانت متواضعة تمثل تواضع المجتمعات الاباضية القاطنة فى تلك البلاد وبساطتها .

هذا ما يمكن أن نفهمه عندما ندقق النظر فى كتب الاباضية مثل : كتاب السير لأبى الربيع الوسيانى (٧٩) ، حيث نجد أنه كان لمدينة قنطرارة ، التاخمة لجبل نفوسة ، مسجدا جامعا كانت تقام فيه صلاة الجمعة على أيام الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وهو الأمر الذى لم يكن معمولا به فى الجبل من قبل : لأن أهل الجبل « قرى متباينة » يصعب تجمعهم كما يقول المؤلف . أما بقية قرى الجبل فكانت لها مساجدها المحلية ، غير الجامعة مثل : أو سلم التى تعتبر أول موضع أذن فيه المؤذنون فى جبل نفوسة (٨٠) ، ووارجلان الذى يعتبر موضع منبر جامعها أول موضع سجد فيه لله فى وارجلان (٨١) ، وآجلو التى كان لها مسجد كبير ، يحتوى على مصلى للنساء (٨٢) ، وجغراف : من قرى الزاب (٨٣) ، وقابس التى عرف مسجدها بمسجد الوهبية (٨٤) ، الى غير ذلك من المساجد التى عمرت بها قرى جبل نفوسة والأقاليم المجاورة ، بعد العهد الرستمى — دون اشارة الى ما كانت عليه تلك المساجد من مظاهر العمران أو الزخرف .

هذا ، واذا كانت بقايا مدينة سدراتة ، فى اقليم ورجلة ، التى صارت عاصمة للخارجية بعد سقوط تاهرت ، قبل انتقال الاباضية الى الزاب ، قد كشفت عن وجود أصداء لفخامة المبانى العباسية فى المدينة الصحراوية ، فان أثر تلك الفخامة العباسية كان ضعيفا على كل حال (٨٥) . فكان أخذ امامة تاهرت من حضارة المشرق العباسى كانت بقدر يتناسب مع بساطة مجتمعها الاباضى ، وهذه البساطة هى ما يميز حضارة الرستميين عن حضارة كل من الأغالبة والأدارسة .

---

(٧٩) مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ح/٩١١٣ .
(٨٠) الوسيانى ، كتاب السير ، المخطوط : ص ١٢ — أ .
(٨١) الوسيانى ، السير ، المخطوط ، ص ١٢ — أ .
(٨٢) الوسيانى المخطوط ، ص ٢٥ — أ ، ٩٠ — ب .
(٨٣) الوسيانى المخطوط ، ص ٩٠ — أ .
(٨٤) الوسيانى ، المخطوط ، ص ٦٨ — أ .
(٨٥) انظر ح . مارسيه ، بلاد البربر الاسلامية ... ، ص ١١٥ — ١١٦ .

في فاس :

حضارة وسط بين القيروان وتاهرت :

أما عن تراث الأدارسة الذى لم يبق لنا منه الشيء الكثير ، من : الآثار المادية أو الشواهد الكتابية ، سواء في تلمسان والمغرب الأوسط أو في فاس والمغرب الاقصى ، فأغلب الظن أن حضارتهم المادية كانت وسطا : بين حضارة القيروان التى تكاد تمثل حضارة بغداد بكل مظاهرها ، وبين حضارة تاهرت التى لم تأخذ من العباسيين الا بقدر . فمدينة فاس عند بدء بنائها في أواخر القرن الثانى الهجرى/٨م كانت أشبه بقيروان عقبة الأول قبل ذلك بأكثر من مائة عام ، كما أن كلا من جامعي عدوتيها : الأشياخ في عدوة الأندلس الشرقية، والشرفاء في العدوة الغربية ، كان يذكر ببساطته وصغر حجمه جامـــع عبد الرحمن بن رستم في تاهرت الذى بنى قبلهما بحوالي نصف قرن .

حقيقة انه بمشاركة المهاجرين ، من الأندلس ومن بلاد القيروان في بناء مدينة ادريس بن ادريس ، تمدنت عدوتى فاس بفضل ما حمله معهم هؤلاء : من تراث أهل الأندلس الشامي الأصل ، الذى كان قد بدأ يتأثر بحضارة بغداد ، ومن تراث أهل افريقية الذى ظهرت فيه مؤثرات بلاد مصر والشام والعراق ، ولكن تمدن العاصمة الادريسية الجديدة ، كان محدودا في ذلك الوقت ، على كل حال .

جامع القرويين الادريسى :

فحتى جامع القرويين الذى ما زالت تعتز به مدينة فاس الى اليوم ، كما اعتزت به على طول العصور ، على زعم أنه من بناء الائمة الشرفاء ، رغم ما هو معروف من أنه من بناء الوافدين على فاس من أهل القيروان ، فانه عندما بنى في سنة ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م كان صغير الحجم متواضع البناء — على ما يظهر — هذا ما يفهم من قصة بنائه التى تنص باصرار شديد على أن المال الذى أنفق على البناء كان مالا حلالا لم تدخله شبهة ربح غير حلال من تجارة أو غيرها ، بل ومن الإصرار أيضا على أن مواد البناء ، من : حجر ورمل وماء ، اتت حلالا صافيا من نفس أرض الجامع وليس من غيرها ، مما يترتب عليه بحكم الضرورة ، أن يكون البناء بسيطا بما يتناسب مع تلك الموارد المحدودة .

ومثل هذا يمكن أن يقال أيضا عن جامع الأندلس الذى ينسب بناؤه الى

نفس الأسرة القروية (٨٦) التي يظهر أنها كانت مالكية متشددة .

وهذا ما يذكرنا بتشدد اباضية تاهرت وبساطتهم ، وهو الأمر المقبول، اذا ما تذكرنا ان المنطقة كانت منطقة خوارج المغرب الأوائل ، وان الامام ادريس ابن عبد الله عندما نزل على اوربة كان زعيمهم من الواصلية أو المعتزلة ، وهم بعض فرق الاباضية هناك ، ولا بأس أن يكون ذلك الاصرار في مسألة الحلال وطهارة المال قد أتى من جانب البنائين القيروانيين المالكية كما قلنا . وهنا قد لا يفسر تزمتهم الديني هذا الا ما عرفوه من تساهل أمرائهم السابقين في افريقية . فكان تعصب أهل القيروان في فاس كان رد فعل مقبول لتحرر الأغالبة في القيروان ، وهذا يعني أنهم ، وان كانوا قد حملوا معهم حضارة بلادهم الأغلبية ، فانهم لم يكونوا ليسرفوا في التعبير عن مباهجها . وبذلك يمكن القول أن جامع القرويين الادريسي كان وسطا بين جامع القيروان الأغلبي، الذي عبر عن حضارة افريقية كانت في سبيلها الى المزيد من التفتح والازدهار، وبين جامع تاهرت الرستمي الذي ظل محتفظا ببساطته المناسبة لتقشف رواده، رغم المؤثرات الحضارية التي وفدت على المدينة من افريقية والعراق ، ومن الأندلس .

جامع القرويين الزناتي وتسمية العدوة باسمه :

أما عن جامع القرويين الذي صار مفخرة حقيقية لمدينة فاس فيرجع الى عهد الزناتيين الذين خلفوا الأدارسة ، والذين ارتبطوا بالأندلس — رغبة منهم أو رهبة — بعلاقات وثيقة ، فكان الأثر الأندلسي فيه أوضح من غيره من المؤثرات ، وهو الأمر الطبيعي . وأغلب الظن أن مدينة الضفة الغربية لوادي فاس اشتهرت باسم عدوة القرويين نسبة الى جامعها الذي صار أشهر مساجد المغرب الأقصى وأعرقها ، بعد أن طغى بشهرته على جامع الأدارسة الحقيقي في المدينة ، جامع الشرفاء ، وحتى دار في خلد البعض أن جامع القرويين هو جامع ادريس بن ادريس (٨٧) .

---

(٨٦) انظر جذوة الاقتباس لابن القاضي ، ص ٢٩ حيث يقدم أن فاطمة أم البنين شرعت في بناء جامع القرويين ، وأن أختها مريم شرعت أيضا في نفس الوقت ، وهو سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م ، في بناء جامع الأندلس ، وانظر بعده عن جامع الأندلس ، ص ٤٣

(٨٧) انظر عبد الهادي التازي ، جامع القرويين بفاس ، رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة (قدمت لجامعة الاسكندرية سنة ١٩٧١ ، وطبعت في بيروت ولكنا لم نطلع على المطبوع) ص ٤٧ حيث يشير المؤلف الى العثور على لوحة تذكارية خشبية كبيرة الحجم فيها ذكر لبنائه .

فاس الادريسية :

والحقيقة ان هذا لا يتعارض مع تحول فاس ، على عهد الادارسة ، الى مركز حضرى مرموق . واذا كانت كتب التاريخ أو بقايا الآثار لا تجعل من مسجد القرويين او قصور العدوتين منافسة لجامع القيروان الاغلبي او لقصور رقادة ، فقد زهت عاصمة الأدارسة بحماماتها وبطواحين مائها ، كما ظهر بعض من أمراء الأسرة الشرفاء بمظهر المتحررين الذين لا يتورعون ، فى سبيل ملاذهم ، عن القيام بالمقامرات الفاضحة ، فى الأماكن العامة (٨٨) .

أما ما يقوله ابن القاضى بمناسبة سكنى ادريس بمدينة فاس من أنه اتتها التجارات واهل الصناعات من كل صقع ، حتى تكامل بها كل متجر ، وسيقت اليها خيرات الأرض . وجمعت فيها طرف الدنيا وتكاملت فيها حتى صار لأجل ذلك . لا عالم أعرف من عالمهم ولا راوية أثبت من راويتهم ، ولا متكلم أجزل من متكلمهم ، ولا قارئ أتقى من قارئهم ... ولا نحوى أعرف من نحويهم ، ولا شاعر أحذق من شاعرهم ، ولا قوال اطرب من مغنيهم ... ، فيبدو ما حدث فيما بعد منذ أيام زناتة - الذين جعلوا من العدوتين مدينة واحدة - ومن أتى بعدهم من لمتونة والموحدين ، كما يذكر المؤلف عقب أنشودة الأناشيد هذه (٨٩) .

تلمسان العلوية وغيرها من حواضر الادارسة :

أما عن الأدارسة خارج فاس ، فى تلمسان والمغرب الأوسط ، وفى بلاد الريف أو السوس الأقصى ، فانهم بنوا مدنا وحواضر جديدة ، مثل مدينة العلويين وسوق ابراهيم ، ولكنها لم تبلغ مبلغ فاس فى الكبر والعظمة . واذا كان الأدارسة فى تلك البلاد قد اهتموا بتحقيق الرخاء الاقتصادى عن طريق

= هذا المسجد » فى سنة ٨٧٦/٢٦٣ م على عهد الامام داود بن ادريس . ومع أن المؤلف يميل الى الأخذ بأنها خاصة بجامع القرويين ، وأنها ليست منقولة من مكان آخر ، وهو الأمر الذى لا تشير اليه المصادر التاريخية ، فالمهم انه كانت هناك محاولات لنسبة الجامع الى الأدارسة ، سواء كانت اللوحة خاصة بالقرويين أم لا . وانظر ص ٤٨ وهامش ٤ حيث يشير المؤلف الى ان بعض المشارقة من معاصرينا كان يظن ان القرويين من تأسيس الامام ادريس بن ادريس ، ويتضح ذلك بالاشارة الى انه وقف على مخطوطة تفيد ان نسبة القرويين لام البنين أمر ليس محل اتفاق من المؤرخين .

(٨٨) انظر فيما سبق ص ٤٦٩ .

(٨٩) انظر جذوة الاقتباس ، ص ٢٥ .

العناية بالزراعة والتجارة ، فاغلب الظن أن سلطانهم كان روحيا أولا وقبل كل شيء ، وأن أول اهتماماتهم كان نشر الاسلام بين أهل البلاد من البربر ، وهو الأمر الذي شاركهم فيه أئمة تاهرت • أما في القيروان فقد وقعت تلك الرسالة الروحية على عاتق فقهاء القيروان ، ومرابطي افريقية من الزهـــاد والعباد •

المحتوى المعنوي :

في هذا الاطار الذي يمثل مظاهر الحضارة المادية الناشئة في بلادالمغرب، في أول عصور استقلالها ، تفتحت براعم الثقافة الاسلامية التي عرفها المشرق العباسي ، وازدهرتالحياة الروحية بشكلفريد• ففي مساجد العواصمورباطات السواحل ، عقدت حلقات العلم والمناظرة فضلا عن الأسواق التي لم تعدم بين اهلها اجلة المشايخ من الفقهاء والصالحين ، من رجال الدولة ومن العاملين في سبيل الله • وكذلك كان كثير من بيوت العلماء معاهد حقيقية لطـــلاب العلم ، بينما كانت قصور الأمراء ودور الخاصة من الناس ، في عاصمـــة الأغالبة على وجه الخصوص ، بلاطات ملوكية أو مجالس خلافية مصغرة ، يجتمع فيها أخلاط من الناس ، من العلماء ، والفضلاء ، والأطباء ، والشعراء ، والمنجمين ، والمهرجين ، والمغنيين ، والموسيقيين ، وغيرهم من أهل البلاد ومن الوافدين من المشرق ومن الأندلس •

الحياة الدينية :

في افريقية :

ولكنه اذا كانت سوق الشعر والأدب والغناء قد نفقت في بلاد الأغالبة، فان المسائل الدينية كانت الشغل الشاغل لأهل افريقية خلال ذلك العصر ، وخاصة في القيروان ، مدينة عقبة المستجاب • ومع أن مذهب مالك بن أنس كان هو المذهب السائد في البلاد عند قيام الدولة الاغلبية ، فان مذهب أبي حنيفة كان قد بدأ يثبت أقدامه في البلاد ، وخاصة على المستوى الحكومي بصفته المذهب الرسمي لخلافة بغداد • وكان من بين فقهاء القيروان المتبحرون في كل من المذهبين المالكي والحنفي ، مثل : قاضي افريقية الشهير أسد بن الفرات ، فاتح صقلية (٩٠) •

---

(٩٠) انظر فيما سبق ، ص ٢١٤ وما بعدها •

ما بين المالكية والاعتزال :

وعندما أثار المعتزلة الجدل حول مسالة أسماء الله وصفاته ، وهو الأمر الذى شغل الخلافة في بغداد فى « محنة خلق القرآن » التى امتحن بها فقهاء السنة في عهد المأمون ثم المحنة المضادة على أيام المتوكل ، كان لذلك الجدل أثره القوى في افريقية • وفي ذلك يقال أن رجلا أتى من المشرق فسأل بعض شباب القيروان عما كان يتكلم فيه أهل المدينة من العلم ، فقالوا له : « أسماء الله وصفاته » ، مما يعنى أن علوم الدين والبحث عن الحقيقة كانت من أحب الاهتمامات الى قلوب أهل المدينة •

ما بين العلم والجهاد :

وفى الحض على التعلم وتقدير أهل العلم ، ينسب الى البهلول بن راشد (توفى سنة ١٨٣ هـ/٧٩٩ م) ، زاهد القيروان وعالمها فى زمانه ، انه قال : « اذا كان يوم القيامة جمع الله تبارك وتعالى العلماء فضرب عليهم بسور من نور ثم يقول : انى لم اضع حكمتى فيكم وانا أريد أن أعذبكم • تعالوا وادخلوا الجنة » • وينسب اليه انه قال أيضا : « ما اعمال البر كلها عند الجهاد فى سبيل الله تعالى الا كبصقة فى بحر ، وما أعمال البر كلها والجهاد عند طلب العلم الاكبصقة فى بحر » (٩١) •

وهكذا كان الجهاد والعلم يمتزجان امتزاجا ، وهذا ما تمثل بشكل رائع فى اسناد حملة صقلية الى أسد بن الفرات الذى كان الى جانب علمه وفقه واحدا من الشجعان • كذلك ظهر الارتباط الوثيق بين العلم والجهاد فى رباطات السواحل ومحارسها ، وأشهرها رباط المنستير قرب سوسة ، حيث انصرف المرابطون الى أعمال الزهد والعبادة ، واخذ العلم عن المشايخ الذين كانوا يلجأون فى أوقات معينة الى ربطهم ، وذلك فى وقت فراغهم ،وهم فى انتظار مجاهدة العدو اذا ما فكر فى النزول فى ثغرهم •

القيروان مهدا ثانيا للمالكية :

ولكنه رغم انتشار فقه أبى حنيفة بصفته المذهب الرسمى للأغالبة ، ورغم شغف الناس والأمراء بالجدل والمناظرة فى مسائل المعتزلة ، وهو الأمر الذى عمل على انشقاق جماعات الاباضية الذين انتشروا فى صحراوات افريقية

---

(٩١) المالكى ، رياض النفوس ، ج ١ ص ١٤٠ •

والذين كان لهم ممثلوهم بين علماء القيروان من غير شك ، فان جل علماء العاصمة الاغلبية كانوا متمسكين بالسنة علي مذهب الامام مالك . وهكذا صارت القيروان مهد المالكية الثاني بعد المدينة ، وقبل قرطبة .

وفي ذلك يقال ان بعض العلماء انصرفوا الى دراسة الفقه المالكي وحده ، ولم يحاولوا دراسة شيء غيره . والمثل لذلك أحمد بن نصر الهوارى البربرى ، الذى سمع على محمد بن سحنون ، والذى « كان لا ينظر ولا يتصرف في شيء من العلم غير مذهب مالك ومسائله ، فاذا تكلم فيها كان فائقا » ، وكانت مدونة سحنون هى المرجع الأول والاخير بالنسبة له (٩٢) . ومن النكت التى تعبر بشكل لاذع عن اهتمام المغاربة بالفقه المالكي دون غيره ، تلك الرواية التى تقول : ان اسحق بن نعمان ، الذى كان مالكى المذهب ثم أصبح شافعيا، كان يناقش أحد البغداديين في الحجاز ، وأراد البغدادى أن يؤيد وجهة نظرة الشرعية فقال : (روى عن النبى صلعم كذا ، فقال له ابن النعمان : فيما ذكر ، مالك لا يرى ذلك) . ودهش الرجل المشرقى لهذا الأمر الغريب ، وقال :شاهت وجوهكم يا أهل المغرب ، تعارضون قول النبى بقول مالك ! (٩٣) .

مالكية القيروان :

دعامات المذهب فى كل المغرب :

ولكن الغالبية من رجـــال المذهب المالكي كانوا من ذوى العقول النيرة وأصحاب الأفق الواسع ، ومن أبرز شخصياتهم التى ذكرناها فى ذلك العصر سحنون بن سعيد (توفى سنة ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م) : فعنه يقول أصحاب طبقات علماء افريقية : « اجتمعت فيه خلال قلما اجتمعت في غيره : الفقه البارع ، والورع الصادق ، والصرامة فى الحق ، والزهادة في الدنيا ، والتخشن فى الملبس والمطعم ، والسماحة ... » وكان لا يقبل من أحد شيئا سلطان أو غيره »(٩٤) . والحقيقة ان كتب الطبقات تلك تعطينا صورة حية عن أحوال هؤلاء العلماء . فمنهم من كان مشرقى الأصل ، ومنهم من وفد من الأندلس ، ومعظمهم رحل الى المشرق للدرس والتعلم . وأصحاب الطبقة الأولى من قدمائهم اخذوا الحديث والفقه على مالك بن انس نفسه ، بينما اخذ أبناء الأجيال

(٩٢) انظر الدباغ ، معالم الايمان ، ط . تونس ، ص ٣ — ٥ .

(٩٣) أبو العرب ، طبقات علماء افريقية ، ص ٢١٤ ، وعن معارضة المالكية للاعتزال ، انظر ج ١ ص ٣٦٩ .

(٩٤) انظر المالكى ، رياض النفوس ، ج ١ ص ٢٤٩ .

التالية عن هؤلاء الأخيرين ، في تسلسل متصل ... حتى صارت القيروان حقا مدينة العلم في كل بلاد المغرب . وبفضل أعمال هؤلاء العلماء ، وخاصة مدونة سحنون ، التي صارت بعد الكتب الاسدية ـ لاسد بن الفرات ـ أكبر مجموعة فقهية في المغرب ، تأكد المذهب المالكي في كل الشمال الافريقي .

ومعظم علماء القيروان هؤلاء الذين كانوا من أهل الزهد والورع والعبادة، كانوا يقومون ، الى جانب ذلك ، بدور تاريخي هام في الرقابة على أمراء الاغالبة ، وذلك حسب مبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الأمر الذي صار تقليديا في دولة الاسلام . فحفص بن عمر لم يتردد في الدخول مع جماعة الصالحين على الأمير عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب ، ليطلب منه تخفيف الضريبة الثابتة على الأرض الزراعية بدلا من ضريبة العشر (٩٥) . والشيخ أبو الأحوص أحمد بن عبد الله المكفوف كان شديدا في كتابه الذي وجهه الى الأمير ابراهيم الثاني بن أحمد الذي عرف باستبداده (٩٦) .

والذي لا حظناه هو أن أمراء الأغالبة أعطوا الأمثولة الطيبة ـ على وجه العمـــوم ـ فاجتنبوا التعرض لهؤلاء الشيوخ ، بل وعملوا على مـــداراتهم واكتساب رضاهم ، كما كان من تقاليدهم التكفل بتجهيز من يموت مـــن المشايخ ، وتكفينه ، وحضور صلاة الجنازة عليه .

في فاس :

ازدهار المذهب المالكي في الدولة الزيدية :

واذا كان المذهب المالكي قد ازدهر في بلاد افريقية والقيروان في القرن الثالث الهجري/٩ م ، فأغلب الظن أنه كان المذهب السائد في بلاد الأدارسة، وخاصة في عاصمتهم فاس ، وذلك بفضل سكان عدوتيها الوافدين من كل من قرطبة والقيروان . واذا كان علماء فاس لم يحظوا بمثل كتب الطبقات التي حظي بها علماء القيروان وقتئذ ، فان كتب الطبقات الأندلسية اعتنت بتسجيل سير كثير من علماء فاس ومناقبهم ، وان كان ذلك فيما بعد العصر الادريسي . واذا كان المفهوم من الروايات الخاصة بقيام دولة الأدارسة أن الامام الاول كان زيدي المذهب (٩٧) ، فان الثابت تاريخيا هو أن الدولة العلوية الادريسية

---

(٩٥) أنظر فيما سبق ، ص ٤١ .

(٩٦) أنظر فيما سبق ، ص ١٤٤ .

(٩٧) أنظر فيما سبق ، ص ١ ... عن الرجل الذي اغتال الامام ادريس الأول ، وكيف تقرب اليه لانه كان من ... الزيدية ... في رسالته عن جامع ...

كانت سنية المذهب ، ولهذا السبب سماها ابن عذارى بالدولة الهاشمية – تماماً كما هو الأمر بالنسبة لدولة الأشراف الأردنية الهاشمية ، حاليا ٠

وعن اعتداد الامام ادريس الأول بالسنة وبان تكون فاس منارة لها ،قال المتأخرون أنه عندما عزم على بناء مدينة فاس رفع يديه الى السماء ودعا قائلا ، « اللهم اجعلها دار فقه وعلم يتلى بها كتابك ، وتقام بها حدودك ، واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتهم »(٩٨) ٠ ومن ذلك ما قيل من أن كاتب الامام ادريس الثاني ، وهو أبو الحسن عبد الله بن مالك كان يلقب بالمالكي الانصاري (٩٩) ٠ وفي ذلك يذكر البكري أنه كان من جلساء الامام يحيى بن ادريس (٣٠٨ هـ/٩٢٠ م) الفقيه أبو أحمد الشافعي الذي كان يتكلم عنده في العلم (١٠٠) ٠

أما عن تلمسان الادريسية فانها لم تزل على أيام البكري دارا للعلماء المحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن انس – رحمه الله(١٠١) ٠ هذا ، كما كان بنو صالح أمراء نكور قـــد نشروا في منطقتهم – فيما بين تلمسان وطنجة – المذهب المالكي (١٠٢) ٠

= القرويين من انه اذا كان الامام مالك قد ناصر دعوة محمد النفس الذكية ٠٠ ، فلم لا يدعو الامام ادريس اليوم الى الاقتصار على مذهب مالك ، وهكذا جاءهم بالموطأ لنشره بينهم ٠٠٠ الخ » (انظر جامع القرويين بفاس ، بالآلة الكاتبة ، ص ١٣٩٠) ، فهذا ما لا تؤيده النصوص الخاصة بالامام ادريس الأول ، وان كان بعضها يشير الى أن ذلك كان من أسباب ميل أمير الأندلس عبد الرحمن الاوسط ثم ابنه هشام بعد سنة ١٧٠ هـ الى مذهب مالك وتشجيع علماء الأندلس على دراسته ونشره في بلاده – أنظر الجزنائي زهـــرة الآس ، ص ١٥ ، وقارن ليفي بروفنسال ، تاريخ المسلمين في أسبانيا (بالفرنسية) ، طبعة بروفنسال ، ج ٢ ص ٢٨٧ والهامش ٠

وعن انتشار المذهب المالكي في المغرب الأقصى ، فيفهم من رواية الجزنائي انه تم في القرن الرابع الهجري بفضل الفقيه « دراس بن اسماعيل » الفاسي ، المعروف بابي ميمونة (زهرة الآس ، ص ١٤ ، ١٦) ، الذي كان قد درس في الاسكندرية حوالى سنة ٣٣٩ هـ على يدي الفقيه على بن أبي مطر (زهرة الآس ، ص ١٥) ٠

(٩٨) ابن القاضي ، جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، طبع حجر ، ص ١٨ ٠

(٩٩) ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ، ص ٧ ٠

(١٠٠) البكري ، ص ١٣٢ ٠

(١٠١) البكري ، ص ٧٧ ٠

(١٠٢) البكري ، ص ٩٢ ، ٩٧ ٠

وهكذا يمكن القول أنه بفضل نشاط أمراء الادارسة ومن دار في ملكهم من حكام الأقاليم ، أخذ الاسلام السني ، وخاصة على مذهب مالك بن انس - مذهب أهل الحجاز - في الانتشار في أقاليم المغرب الأقصى ، بين الريف والسوس ، وهي الأقاليم التي كانت بالأمس القريب أرضا خصبة لبذر بذور مذهب الخوارج الصفرية ، والتي ظلت بيئة صالحة لنشأة عدد من المذاهب المحلية المنحرفة التي سماها الكتاب بالزندقة ، مثل : زندقة برغواطة ، في تامسنا ، وزندقة حاميم في بلاد الريف • فرغم أن بلاد تامسنا (الشاوية حاليا) كانت قد ضمت الى المملكة الادريسية على عهد الامام الأول ، فان زندقتها ظهرت بقوة منذ سنة ٢٢٧ هـ/٨٤١ م على أيام يونس بن الياس ، أى على أيام الأدارسة واستمرت الى أيام المرابطين والموحدين (١٠٣) ، بينما ظهرت زندقة حاميم في جبال تطوان في أواخر القرن الثالث الهجرى /٩ م الذى نتحدث عنه ، وان لم يقدر لها البقاء ، الا الى نهاية صاحبها حاميم الذى قتله في سنة ٣١٥ هـ/٩٢٧ م عسكر عبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس(١٠٤)•

واذا كان صحيحا ما يراه جورج مارسيه ، من : أن كلا من حركتي يونس ابن الياس وحاميم بن من الله - بما قامتا به من تحريف للنصوص الاسلامية التي نقلت الى اللهجات البربرية المحلية ، وما صاحب ذلك من ابتعاد عن تعاليم الاسلام - كانت تعبر عن معارضة المغاربة (البربر) لصبغ البلاد بالصبغة المشرقية ، التي ستزدهر عندما يستقل المغرب عن المشرق (١٠٥) . وهو الأمر المقبول ، فانه يعنى أنه يكفي الأدارسة فضلا أنهم اهتموا بنشر الاسلام السني الصحيح بين أهل البلاد المتحصنين بمواطنهم النائية • وتلك كانت القاعدة الصلبة التي شيدت عليها المالكية صرحها العالي ، في المغرب الأقصى : في فاس على وجه الخصوص ، وفي القرويين بخاصة - لا يضير الأدارسة أن يكون بناء المالكية قد اكتمل بعد عصرهم ، ولا أن يكون قد شارك في اقامته فقهاء القيروان أو علماء الأندلس •

في تاهرت :

والى جانب الأدارسة ، كان لأئمة تاهرت الاباضية نصيبهم في الزراع

---

(١٠٣) انظر البكرى ، ص ١٣٤ وما بعدها ، الاستبصار ، ص ١٩٨ وما بعدها ، ج• مارسيه بلاد البربر الاسلامية •••• ، ص ١٢٦ •

(١٠٤) انظر البكرى ، ص ١٠٠ ، الاستبصار ، ص ١٩١ - ١٩٢ ، ج• مارسيه بلاد البربر الاسلامية •••• ، ص ١٢٨ •

(١٠٥) بلاد البربر الاسلامية ص ١٢٨

دعائم الاسلام بين قبائل المغرب الأوسط وصحراوات المغرب الأقصى ، بمشاركة اخوتهم وأصهارهم المدراريين صفرية سجلماسة . ويكفى النظر فى كتب السير المنقبية لمشايخ الاباضية ، وخاصة سير مشايخ جبل نفوسة ، مثل كتب أبى زكريا والدرجينى وأبى الربيع الوسيانى ، التى تظهر بشكل المنافس لكتب أبى العرب والمالكى والدباغ فى علماء القيروان ، لنرى الى أى حد عظيم ازدهرت مذاهب الخوارج الاباضية فى طول بلاد المغرب وعرضها ، لا يقلل من ذلك ما أصابهم من انشقاقات أو خلافات كانت تعمل ـ فى حقيقة الأمر ـ على اثراء الفكر الدينى عن طريق جدية البحث عن حلول مقبولة لما كان يجد من مشاكل الحياة اليومية العارضة .

الأئمة : قادة قدوة فى العلم والعمل :

فالأئمة الرستميون كانوا المثل الطيبة والقدوة الحسنة لأتباعهم وأبناء شعبهم ، فى العلم وفى العمل جميعا ، على المستويين العام والخاص . فهم أئمة مجاهدون يعيدون سيرة السلف الصالح قبل أن يكونوا حكاما ، ويقضون أوقاتهم ما بين العبادة والنظر فيما يعود بالخير على العباد والقضاء فيما ينجم بينهم من خصومات .

والامامة عندهم هى الرئاسة الدينية التى تضع نصب عينيها تحقيق مصالح الرعية الأخروية والدنيوية . فالامام هو القائد ، سواء فى الصلاة أو الجهاد ، وفى كليهما لا يرجو الا ثواب ربه : فهو عابد متقشف ، متقلل من الدنيا ، ليس له منها ، فضلا عن مصحفه وأدوات حربه ، ألا ثيابه وفراشه . وهو يعمل بنفسه فى قضاء حاجاته ، لا يعاونه فى ذلك ـ حسبما تقضى الضرورة ـ الا بعض خدمه أو عبيده (١٠٦) .

ورغم ما وصف به الأئمة من العدل والعلم ، فهم لا يستغنون عن مشورة لمشايخ من أهل العقد والحل ، لا ينقص من أهمية هذا الأمر ما ثار من النزاع بين الامام عبد الوهاب وبين النكارية الذين أرادوا اشتراط ألا يقضى فى أمر الا بعد مشورة . ورغم ما ظهروا به من التقشف والاقلال من الدنيا ، فقد كانوا مضرب المثل فى الجود على المحتاجين والعطاء للفقراء ، وخاصة فى أوقات المحل والشدة . أما عن تمسكهم بآداب الدين فتمثل ، أكثر ما تمثل ، فى

---

(١٠٦) انظر فيما سبق ، ص ٣٠٢ عن الامام الأول عبد الرحمن بن رستم .

أمرهم بالمعروف ، نهيهم عن المنكر ، فكأنهم في تشستم اسما مبدأ اقتربوا من المعتزلة الذين جعلوه أصلا من الأصول ، وأغلب الظن ان هذا كان من أسباب معرفة بعض فرقهم بالمعتزلة وبالواصلية (١٠٧) • وعلى الجملة كان الرستميون اصحاب تاهرت ، في نظر رعيتهم من أهل البوادي والصحراوات أئمة العدل القائمين بالحق •

مشايخ المذهب معلمون للشعب :

هكذا اختلفت صورة أئمة تاهرت عن صورة أئمة فاس : فبينما شرف الأدارسة بانتمائهم الى البيت العلوي العظيم ، علا شأن الرستميين بفضل تمسكهم بآداب الدين وعملهم بتعاليم الكتاب والسنة ، وانتصارهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر • فكان الدين حسبهم ، والعمل في سبيل الله سببهم ، مما جعلهم في نظر أتباعهم الائمة المثاليين حقا • فأبو الربيع الوسياني عندما يعرض لسيرة الشيخ أبي مسور يصلتن ، ويسجل رواية تنسب الى الشيخ وهو يقول فيها ناعيا : « عشت حتى لم أجد في الامام ما أريد ، ولا في نفسي ، ولا في الاولاد ، ولا في الاخوان ، ولا في القبيل ، قولوا للمسلمين يدعون علي » يشكك في صحة هذه الرواية : على أساس أن أبا مسور كان يعيش زمان الامام عبد الوهاب • هذا ، ولو أن البعض رأى أن هذه الرواية متأخرة عن عهد أبي مسور وليست له (١٠٨) — فكأنه من غير المقبول انتقاد المجتمع المثالي أيام الأئمة •

ومثل الأئمة بالنسبة لمشايخ المذهب كمثل المشايخ بالنسبة لعامة الشعب ، فقد كانوا يجسدون المثل الأعلى للاباضية في الفترة التي نعالجها، كما فيما بعدها من العصور • فقد كان المشايخ هم القدوة الحسنة لعامة الناس ، في العلم والجهاد والتجارة والزراعة ، وعلى الجملة في كل المعاملات، تماما ، كما كان الحال بالنسبة لمشايخ القيروان •

اصول المذهب الاباضي وتطوره :

الوهبية الاباضية والخوارج ومسمياتهم :

وفيما يتعلق بالحياة الروحية وأصول المذهب ، فالمعروف ان الاباضية

---

(١٠٧) وانظر فيما سبق ، ص ٣٢٤ •

(١٠٨) كتاب السير ، المخطوط ، ص ٣ — ب ، وعن ابي مسور انظر : أبو زكريا المخطوط ، ص ٢٥ — ب •

في تاهرت كانوا قد طوروا أفكارهم حتى اقتربت من أفكار أهل السنة ، وبذلك لم يعودوا يحبون الانتساب الى الخوارج الذين اعتبروهم من الصفرية ، وان لم يستنكفوا الانتساب الى « المحكمة » (١٠٩) . أما عن التسميات التي احبوا أن يصفوا انفسهم بها ، فهي : المسلمون ، والمؤمنون ، والموحدون ، وأهل الحق والعدل ، أهل الاسلام . وبمناسبة الانشقاق الأول الذي حدث على عهد الامام عبد الوهاب فقد تسمى من بقي الى جانبه « بالوهبية » ، في مقابل خصومهم الذي انكروا امامته ، فسموا بالنكار ثم يأتي من انشق بعدهم من الخلفية والنفاثية ، كما رأينا (١١٠) ، ممن اطلقوا عليهم تسميات جارحة أخرى ، مثل : « المذبذبون » و «المخالفون» و «المخادعون» و «الحلالون» ، مما نجده في كتب السير .

أصول الوهبية المذهبية :

والذي يفهم من النظر في سير المشايخ - كما في كتب الوسياني - وأقوال العلماء وفتاوى الفقهاء ان المذهب الاباضي الوهابي كان يرتكز على عدد من الأصول والتقاليد ، المتمثلة في :

١ - القرآن الكريم ، رواية عبد الله بن مسعود .

٢ - الاحاديث النبوية والسنن ، رواية عبد الله بن عباس بصفة خاصة .

٣ - أقوال الراشدين باستثناء عثمان بن عفان الذي وقفوا منه موقفا شديد العداء (١١١) .

٤ - أقوال علماء المذهب الأوائل من أهل البصرة ، مثل : أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة .

٥ - مآثر أئمة تاهرت من الرستميين .

٦ - واخيرا تأتي سير وأقوال مشايخ أهل الدعوة على طبقاتهم ، فهم الذين يعرفون « مكنون العلم الذي لا يقال لقوم جهال »(١١٢) .

---

(١٠٩) الوسياني ، المخطوط ، ص ٤٢ - ب . وعن اعتبار الخوارج من الصفرية انظر ص ٤١ - ب .

(١١٠) انظر فيما سبق ، ص ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٤٧٣ وغيرها .

(١١١) السير الوسياني ، ص ٤١ - ب .

(١١٢) السير للوسياني ، ص ٣ - ب .

افكارهم السياسية :

أما عن فكرهم السياسي وهو وثيق الصلة بالفكر الـ .. ، فقد كان يقوم على الأسس التالية :

١ - الاعتراف بامامة أبي بكر وعمر ، وكذلك علي : وهو الأمر الغريب على الخوارج . ولا بأس في أن ننظر الى ذلك على أنه نوع من التقية التي لم يأخذوا بها الا في وقت متأخر ، كما يظهر في سير القرن الخامس والسادس (١١٣) . وذلك ان أباضية أواخر القرن الثالث الهجري /٩م كانوا يقفون من علي موقفا معاديا مثل موقفهم من عثمان أو أكثر ، وهذا ما تنص عليه الروايات الخاصة بولمة مانو (١١٤) .

٢ - رفض امامة عثمان رفضا باتا ، وعدم الاعتراف بامامة علي أو الوقوف منها موقفا غامضا - على الأقل .

٣ - أئمة تاهرت هم النموذج المثالي لحكم الجماعة ، بصرف النظر عن آراء فرق المنشقين منهم .

٤ - حكم الأئمة أو حكم الجماعة ، بشكل أعم ، له ٤ (أربعة) أدوار ، هي :

(أ) حالة « الكتمان » أو «السكوت» ، وهي حالة التخفي والاعتزال ، والمثل لها « هو الأمر السابق الى النبي عليه السلام في مكة » ، وليس على الجماعة فيها « الأمر والنهي» ، ورئيس الجماعة في هذه الحالة يسمى « امام أحكام» (١١٥) .

(ب) حالة « الظهور » ، والمثل لها حين هاجر النبي الى المدينة (١١٦) ، وهي نفس حالة الرستميين بعد بناء تاهرت . هذا ولو أن بعض مشايخ جبل نفوسة كان يقول أن أهل الجبل في حالة ظهور بعد سقوط امامة تاهرت ، لأنهم غير مستخفين ولا مقهورين ، وهو الأمر الذي كان له معارضوه(١١٧) .

---

(١١٣) انظر الوسياني ، ص ٤١ - ب .

(١١٤) أنظر فيما سبق ، ص ١٤٢ .

(١١٥) أنظر السير للوسياني ، ورقة ١٩ ظ ، ٢٠ أ ، ٧٩ ، ٨٦ ، ٩٥ ، ١٣٦ ظ .

(١١٦) السير للوسياني ، ص ١٩ - ب .

(١١٧) السير للوسياني ، ص ٧٠ - أ .

(ج) حالة «الدفاع» ، مثل « دفاع أهل النهروان للراضي محكم عمرو ابن العاص وعبد الله بن قيس بغير انابة الى الحق ، ولا اجابة الى العدل ، ولا اقامة الى امرة ، فدافعوا الراكنين الى الدنيا والملك (١١٨) » ·

(د) حالة « الشراء » (١١٩) : والمفهوم أنها حالة جهاد ذوى الاهواء · وهي الأولى من حالات الجهاد ـ تبعا لتصنيفهم لطبقات الجهاد ـ عملا بمبدأ الأمر بالمعروف · واذا كانت حالة « الشراء » قريبة من حالة « الدفاع » فالغلب الظن أن المقصود بالدفاع هو القتال لأغراض سياسية في سبيل الحفاظ على كيان الجماعة ، وأن المقصود بالشراء هو الجهاد من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو من الأعراض الدينية الأساسية المعروفة عندهم ·

ويضيف فقهاء الاباضية ، فيما بعد سقوط امامة تاهرت الرستمية ، حالة خامسة هي :

(هـ) حالة « السائبة » وهي قريبة من حالة الكتمان الاولى ، السابقة على حالة الظهور ، وهي في الحقيقة تعني حالة تفسخ الجماعة واضمحلالها ، وذلك « لتضييع الناس القيام بالحق » (١٢٠) حتى لو كان فيهم الامام · وذلك حسبما روى عن الشيخ أبي مسور يصر من أنه قال · « عشت حتى لم أجد في الامام ما أريده ، ولا في نفسي ، ولا في الاولاد ، ولا في الاخوان ، ولا في القبيل ، فولو للمسلمين يدعون على »(١٢١) ، مما يعبر عن عدم الرضاء عن سيرة الجماعة ـ جماعة أهل الحق ـ التي انحرفت عن تعاليم المذهب ، ولم تعد تحقق الغرض من قيامها ·

اعمال المشايخ من قواعد المذهب :

المثل الاخلاقية :

وفي سبيل تحقيق المجتمع المثالي عمل مشايخ الاباضية ـ مثلهم مثل مشايخ

---

(١١٨) السير للوسياني ، المخطوط ، ص ١٩ ـ ب ·

(١١٩) الوسياني ، المخطوط ، ص ١٩ ـ ب ·

(١٢٠) السير للوسياني ، المخطوط ص ١٩ ـ ب

(١٢١) انظر ما سبق ص ٥١

القيروان ــ على سيادة الأخلاق الفاضلة ، ونشر الآداب الاسلامية ، التقاليد الحميدة فى المعاملة بين الناس ، سواء فى الحديث أو فى تجنب الهوى . ففى ذلك كانت لهم أقوال مأثورة ، مثل « لا يعرت الرجل ولا يقاذف ، ويموت الرجل ولا يتعرى » (١٢٢) . هذه الآداب الاباضية كانت قد اكتسبت عراقتها منذ أيام الرستميين ولدينا المثل الرائع لذلك فى نهاية قاضى جبل نفوسة عمروس بن فتح الذى أسر فى وقعة مانو ، فرفض أن يطلب العفو ، ولم يخش التنكيل والتعذيب ، وكان كل ما طلبه من آسريه ألا يعروه من سراويله بعد أن يقتلوه (١٢٣) . هذا ، وكان من آدابهم ذم البخل والحض على الجود ، واخفاء الصدقة ، كما حرصوا على البعد عن الريبة فيما يتعلق بالمال والطعام . فقد كان من المتعارف عليه عندهم ان المال المريب يوقع الفتنة بين أبناء الجماعة(١٢٤)، وأن المتاجر المريبة تفسد الشراء فى السوق لمدة ثلاثة أيام .

اجلال العلم وتقديسه :

علوم الدين :

ولقد حرص المجتمع الاباضى على نشر العلم ، ليس بين الرجال فقط بل وبين النساء أيضا ، حتى بلغت بعض النساء درجة من العلم بحيث أصبحت أقوالهن من المأثورات المقررة عند أهل المذهب . وفى ذلك يقال ان بنت أبى مسور يصلتن ، معاصر الامام عبد الوهاب كانت تجادل والدها فى العلم ، وكان مما أثر عنها ان أقوال المسلمين أفضل منهم . « لأن المسلمين يموتون . وتبقى أقوالهم وعلمهم ، وينتفع بها بعدهم . ومن جهة الجسم والعرض . الجسم أفضل ، ومن جهة الاسلام والعلم فالاسلام خير الخلق »(١٢٥) .

واذا كان ذلك اهتمام مشايخ جبل نفوسة بالعلم ، فلا شك أن اهتمام أئمة تاهرت بالعلم كان أعظم . فالامام الأول عبد الرحمن بن رستم كان يقضى ليله ساهرا مع سراجه يقرأ العلم ويدون الكتب فى المذهب . وبلغ اهتمام ابنه الامام عبد الوهاب بالعلم الى حد انه كان لا يبخل فى دفع الثمن الباهظ فى شراء كتب المشايخ من المشرق ، رغم أنه لم يستفد منها الا بالقليل من

---

(١٢٢) الوسيانى ، المخطوط ، ص ١٢٨ ــ ب .
(١٢٣) أنظر فيما سبق ، ص ٣٩١ ، الوسيانى ، ص ٣ ــ أ .
(١٢٤) الوسيانى ، ص ٤ ــ أ ، ٤ ــ ب ، ٦٢ ــ ب ، ٩٣ ــ أ .
(١٢٥) الوسيانى ، المخطوط ، ص ٦ ــ ب .

المسائل الحديدة التي كان يستطيع ان يدركها باجتهاده وحده . ولقد بلغ حرص عبد الوهاب أيضا في الاطمئنان على تحصيل ابنائه العلم ، بالقدر الذي يتناسب مع بيت الأئمة ، الى درجة أنه منع ابنه أفلح من الذهاب الى جوجو للتجارة في بلاد السودان بعد أن امتحنه في مسائل الربا فغابت عنه مسألة واحدة منها (١٢٦) .

علم النجوم والحساب :

ولم يكن أئمة الرستميين متفقهين في أصول المذهب فقط ، بل كانوا على دراية تامة ببعض العلوم النافعة لأمور الحكم والدين ، مثل الحساب والنجوم . وفي ذلك يقال ان الامام افلح بن عبد الوهاب كان لايباريه في علم النجوم الا أخته التي كانت تسهر الليل معه في حساب ما سوف يدخل خزانته من الأموال الواردة من أسواق تاهرت (١٢٧) .

وهكذا كانت تاهرت في المغرب الأوسط ، كما كانت القيروان فيافريقية ، مدينة العلوم . وفي ذلك يقال ان الشيعة الفواطم عندما استولوا على العاصمة الرستمية ، وجدوا بها مكتبة (برحا) مليئة بالمخطوطات التي لم يحفظوا منها الا بكتب سياسة الملك والحساب .

الخلاصـــة :

من هذا العرض الملخص للواقع السياسي والحضاري لبلاد المغرب في القرن الثالث الهجرى ٩م . أى في الفترة التي تمثل لب تاريخ ممالـــك الأغالبة والرستميين والأدارسة ، يتضح الآتي :

١ ـ ان البلاد من أدناها الى اقصاها كانت تتقدم نحو عصر نهضة حقيقية ، على المستويين : المادى والفكرى .

٢ ـ ان مادة تلك النهضة الوليدة كانت مستجلبة من المشرق ، مهد العروبة والاسلام ومركز دولة الخلافة ، وذلك مع سيل الوافدين من هناك على الأسر الحاكمة المشرقية الأصل في بلاد القيروان وتاهرت وفاس ، حيث اتخذوا أوطانا جديدة ، أو مع المغاربة والأندلسيين العائدين الى بلادهم من المشرق ، من رحلة الحج أو طلب العلم .

---

(١٢٦) انظر فيما سبق ، ص ٤٩٨ .

(١٢٧) انظر فيما سبق ، ص ٣٢٨ .

٣ ـ ان تلك النهضة المغربية وهي تتفتح في دور التكوين ، كانت أشبه ما تكون بفسيفساء مبرقشة تعبر ـ في اختلاف أشكالها وألوانها ـ عن كل المتناقضات التي عرفها المشرق ، وخاصة على مستوى الفكر الديني والسياسي المناهض لدولة الخلافة ·

٤ ـ ان ذلك الازدهار الفكري كان ينمو بالتالي في حضانة دول المغرب الكبرى الثلاث كنتيجة طبيعية لاستقلال تلك الدول عن الخلافة ، مما جعل حركة التطور تتقدم طرديا : مع زيادة الاستقلال ، وتبلور الشخصية الذاتية لكل قطر من تلك الأقطار ·

٥ ـ كنتيجة عكسية لذلك الازدهار المعنوي في كنف الاستقلال السياسي ، عانت دول المغرب من حركة التجدد الفكري ذات الايقاع السريع ، وخاصة على المستويات الدينية السياسية ، وبدأت هي الأخرى تعاني من آفة التفتت والانقسام الداخلي التي فتت في عضدها وهدت من قواها ·

٦ ـ وبناء على ذلك تظهر الصورة السياسية الحضارية الحقيقية لبلاد المغرب في أواخر القرن الثالث الهجري /٩م ، وهي تتطابق بشكل عجيب مع نظرية ابن خلدون الشهيرة في العمران ، التي تقول ان الحضارة هي قمة العمران والمؤذنة بفساده وانها تمهد لاضمحلال الدول حتى تفسح المجال لدول جديدة ، تحل محلها (١٢٨) ·

فكان الحضارة الناشئة التي لم تكن قد أخذت سماتها المميزة بعد ، لا ماديا ولا معنويا ، كانت قد استنفدت أغراضها بعد ان أخذت تتآكل ذاتيا ، بفضل الصراعات السياسية الداخلية التي أضعفت كلا من دول المغرب الثلاث · كما أن مراكز تلك الحضارة في افريقية وفي المغربين الأوسط والأقصى كانت ـ رغم العمل الاحيائي الكبير الذي قامت به ـ قد أظهرت التناقض الواضح بين المترفين من أهلها وبين أهل الخشونة من سكان البوادي والصحـــــراوات المحيطين بها ، ممن كانوا يتطلعون اليها بشيء من النهم ويتربصون بها الدوائر ، بشيء من نفاد الصبر · وهذا من نظريات ابن خلدون ، أيضا ، في كيفية سقوط الدول وقيامها (١٢٩) ·

---

(١٢٨) انظر المقدمة ، فصل في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة ·
(١٢٩) انظر المقدمة ، فصل في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع ·

وهكذا يمكن القول انه اذا كان التعتت السياسى قد عمل على الازدهار الحضارى المحلى ، فان هذا الأخير قد ادى الى نوع من الانفصام بين الأسر الحاكمة وبين جماهير الرعية ، الأمر الذى ادى بحكم الطبيعة الى صراعات اقليمية وعصبية أنهكت كلا من الممالك الثلاث . فكان الموقف فى بلاد المغرب في أواخر ذلك القرن الثالث الهجرى/٩ م كان يتطلب عملية تجديد فى هيكل البناء السياسى والحضارى ، وهى العملية التى قام بها الفاطميون بمعاونة قبائل كتامة ، اهل الجبال الأشداء ، والتى عجز الأغالبة عن مواجهتها كما رأينا ، فكان من الطبيعى أن يعجز بالتالى كل من الرستميين والأدارسة عن الوقوف امامها . وبذلك وقع على عاتق الفاطميين ، ابتداء من أوائل القرن الرابع/١٠ م ، العمل على تحقيق وحدة المغرب تحت راياتهم من جديد — وهو الأمر الذى سنحاول ايضاحه بشيء من التفصيل فى حديثنا عن الظروف التى أدت الى قيام دولة الفاطميين .

الفصل السابع

قيام الدولة الفاطمية

وإعادة الوحدة إلى بلاد المغرب تحت رايات آل البيت من الحسينيين

(٢٨٠ هـ/٧٩٧ م - ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م)

نهاية الدول المستقلة الأولى وقيام الدولة الفاطمية :

صراع الأغالبة من أجل البقاء : « المطاولة » :

يعتبر قيام الدولة الفاطمية في بلاد كتامة جزءاً من تاريخ الدولة الأغلبية المتأخر . فلقد رأينا كيف أنفق أواخر أمراء الأغالبة الثلاثة ، وهم : ابراهيم (الثاني) بن أحمد وابنه أبو العباس ثم حفيده زيادة الله (الثالث) ، ، نشاطهم وأموال بلادهم في كفاح الداعية الفاطمي ابى عبد الله الشيعي ، وكيف انتهى ذلك الكفاح بعد حوالى اثنتى عشرة سنة ، من ٢٨٥ هـ/٨٩٨م الى ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م ، بفشل الأغالبة ، وهروب زيادة الله الثالث نحو المشرق ، تاركا عاصمته وقصوره مفتوحة على مصاريعها لاستقبال قوات الداعي الفاطمي المظفرة .

وفترة الاثنتى عشرة سنة هذه التي تحسب ضمن تاريخ الأغالبة (١) ، تدخل أيضا في تاريخ قيام الدولة الفاطمية ، وهذا أمر طبيعي يحدث في فترة الصراع بين الدول المنهارة وبين القوى المناهضة لها . وهذه الحقبة الزمنية يطلق عليها ابن خلدون ، بالنسبة للدولة المستجدة ، مصطلح (المطاولة) بمعنى الصبر في الكفاح ، وهي تطول وتقصر تبعا لصمود كل من الطرفين

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ١٤٦ وما بعدها .

المتصارعين في حلبة القتال (٢) . ونظرية ابن خلدون في (المطاولة) تعني في حقيقة الأمر عدم وجود فواصل حدية في التاريخ ، وهو الأمر المعقول : طالما أن الزمن هو مجرى الأحداث التاريخية ، وطالما كان الحدث التاريخي وليد تفاعل عدد عديد من العوامل التي تتراوح في طبيعتها ما بين مادية محسوسة . ومعنوية ليس من السهل ادراك كنهها . واذا كان من المعروف — في نظريات قيام الدول وسقوطها — أن الدولة الناشئة تبدأ حياتها ، مثلها مثل الأفراد ، وهي تحمل جراثيم ضعفها في ثنايا أسباب وجودها . يمكن القول ان فترة المطاولة هذه يجوز أن تطول على المستوى الداخلي الى أكثر من زمن الصراع الفعلي الأخير من أجل البقاء .

وفي هذا المجال يمكن القول انه رغم الانجازات السياسية والحضارية الكبيرة التي حققها الأغالبة ، فان سلطانهم لم ينجح في أن يمد جذوره بعمق في أرض افريقية . وربما كان الدليل القوي على ذلك أن الأغالبة لم يكونوا محبوبين في القيروان نفسها ، حيث واجهوا كثيرا من الانتفاضات ، حتى أنهم تركوا منذ وقت مبكر قصر ولاة افريقية فيها ، وبنوا لأنفسهم — على بعد عدة كيلومترات نحو الجنوب — قصر العباسية ، قبل أن يبنوا على مسافة أبعد — قصور الرقادة . وفي مدينتهم الملكية الخاصة هذه أقاموا بعيدا عن الناس يحيط بهم حرسهم ، من : السودان ، والصقالبة ، وبعض المخلصين من الجند العربي ، فكان ذلك أشبه ما يكون بانفصال روحي بينهم وبين اهل العاصمة . أما عن الصراعات مع قبائل البربر ، ومع الجند العربي فانه يدرج حقيقة في فترة (المطاولة) حيث كانت الدولة الأغلبية في بعض الاحيان قاب قوسين من الضياع أو أدنى .

والحقيقة هي أن قيام قبائل كتامة ، تحت رايات الداعي وباسم المهدي ، لم يكن أكثر من انتفاضة من تلك الانتفاضات الكثيرة التي واجهها الأغالبة ، لا يفرقها عنها الا بعد أرض كتامة عن قاعدة ملك الأغالبة ، ثم التفاف الكتاميين بعزم صادق ونية خالصة حول الداعي الذي أحسن تنظيمهم وتدريبهم عسكريا وروحيا ، في الوقت الذي بدأت أرض افريقية تميد تحت أقدام زيادة الله الأخير وأهل دولته ، الأمر الذي توج الثورة الكتامية الفاطمية بالنجاح .

---

(٢) مقدمة ابن خلدون ، فصل في أن الدولة المستجدة انما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة ، تحقيق علي عبد الواحد ، الفصل ٥٠ ج ٢ ص ٨٧٣ وما بعدها .
وانظر محمد عبد الهادي شعيرة في تاريخه لدولة المرابطين حيث طبق النظرية باستاذية فذة .

نجاح الدعوة الفاطمية في أرض كتامة

جذور التشيع في المغرب :

بناء على ما تقدم يمكن القول انه اذا كان قيام الدولة الفاطمية فيالمغرب، بمعونة قبائل كتامة ، يعتبر - على المستوى السياسي - أمرا من الأمورالدارجة، في البلاد التي حوت في القرن الثالث الهجرى/٩م ، ثلاثة دول مستقلة كبيرة الى جانب عدد عديد من الامارات المحلية فان نجاح الدعوة الفاطمية فيالمغرب، وقتئذ ، كان من الأحداث المستغربة حقا . فمذهب الفاطميين كان من مذاهب الشيعة الغلاة ، بينما كانت المذاهب السائدة في البلاد سنية خالصة تتراوح ما بين المالكية المتشددة والاباضية المتعصبة ليس في بلاد القيروان وتاهرت فقط ، بل وفي بلاد الأدارسة العلويين أيضا .

ومما يزيد في الأمر غرابة أن بربر كتامة ، في أحواز جبل أوراس ، أحد معاقل الخوارج شرق بلاد الجزائر حاليا ، كانوا اباضية ، ولكن على مذهب النكار الذين رفضوا استبداد أئمة تاهرت بالحكم ، ونادوا بالمشاورة في الأمر . وهو ما يناقض مع الفكرة الرئيسية لدى الشيعة الاسماعيلية ، ومنهم الفاطميون . التي تقول بعصمة الامام المهدى ، والتي تجعل من التشيع - سياسيا على الأقل - مذهب تسلط واستبداد .

وهكذا تتضح حقيقة أن المغرب كان أرضا صالحة لبذر بذور الدعوات المناهضة للخلافة ، كما كان ملجأ أمينا لكل الخارجين على الدولة ، سواء كانوا من الخوارج أو من الشيعة . حقيقة ان المذهب الخارجي الذى ازدهر في المغرب ، كما لم يزدهر في غيرها من البلاد ، ظهر في الفترة التي نعالجها وكأنه المذهب القومي لأهل البلاد من البربر ، ولكن نجاح المذهب الاسماعيلي ،المضاد له من حيث الأصول السياسية والدينية ، يدل على أن المسألة لم تكن مسألة النكار أو عقائد اختص المغاربة باعتناقها . فكأن المغرب كانت له ميولهالانفصالية وآماله في الاستقلال عن دولة الخلافة ، وأنه كان من بين وسائله لتحقيق ذلك اعتناق المذاهب السياسية الدينية المناهضة للدولة ، لا فرق في ذلك بين المالكية المعتدلة أو الاباضية المتزمتة أو الشيعية الغالية .

بداية الدعاية الشيعية في كنف عبد الرحمن بنزياد بن انعم (ت ١٦١هـ / ٧٧٨ م) في افريقية :

والحقيقة ان الشيعية وان لم تحقق نجاحا كبيرا في المغرب حتى أواخر القرن الثالث الهجرى/٩ م ، فانها كانت قد بدأت دعايتها في وقت مبكر ، ربما

مع بداية الدعوة الخارجية عقب أعمال القمع الشديدة التي قام بها الأمويون في المشرق . وان نشاطها كان قد وصل الى أقاصي المغرب، وحتى بلاد الأندلس. فبعد فترة لاضطرابات الخارجية في افريقية التي أدت الى قيام الدويلات الخارجية في تاهرت وفي سجلماسة ، اضطربت نفوس الناس في المغرب ، وترددت ما بين التشاؤم والتفاؤل . يفهم ذلك من أقوال قاضي افريقية ،المحدث المؤرخ المعروف ، عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (توفي سنة ١٦١ هـ/٧٧٨م)، اذ يعبر عن القلق والاستسلام للأمر الواقع ، في قوله . « سينقطع الجهاد من كل البلاد وسيعود الى افريقية (٣) ، وهي المقالة التي ستتحول ، مع مرور الوقت الى حديث ينسبه البعض الى النبي(٤) . وهو بعد ذلك يعبر عن الأمل في نهاية الاضطرابات ، كما نرى ، وحلول الأمن والسلام في ربوع البلاد ، عندما يفكر في الامام العادل الذي ينشر الأمن والرخاء ، وهي فكرة الامام المعصوم التي تبلورت حولها كل الأفكار السياسية الشيعية ، فيما بعد .

لتنسب الروايات الى نفس قاضي افريقية عبد الرحمن بن انعم أنه كان يقول : « ولتضربن القبائل من الآفاق الى افريقية ، لعدل امامهم ، ورخص أسعارهم ، وفتح فيهم » ويستطرد النص فيقول ، ان ابن انعم قال : « ان الامام الذي ينشر العدل بافريقية يليهم سبعا وثلاثين سنة » ، مما كان موضوع جدل الكتاب فيما بعد ، اذ قال البعض . ان ذلك الامام العادل يلي افريقية ثلاثا وعشرين سنة (٥) — وكأن القائل محقق تاريخي .

بداية الدعاية الشيعية في المغرب الأقصى :

هكذا تكون فكرة المهدي المنتظر قد ظهرت في افريقية ، أول ما ظهرت ، في شكل سني ، فكانت تمهيدا لظهورها في شكلها الغالي ليس في افريقية فقط ، بل وفي أقاصي المغرب . ففي بلاد السوس الأقصى ، في منطقة نفيس — حيث بنى عقبة بن نافع أول مسجد ظل مصونا مكرما ، كما يقال ، الى أيام البكري (٦) ، وحيث استقر فرع من فروع الادارسة (٧) — نزل رجل من أهل مدينة نفطة من قسطيلية من بلاد انزاب ، اسمه محمد بن ورستد ، عند قبيل من

---

(٣) أبو العرب ، طبقات علماء افريقية ، ص ٦ .

(٤) انظر كتاب الاستبصار ، ص ١١٢ .

(٥) أنظر أبو العرب ، طبقات علماء افريقية ، ص ٦ .

(٦) البكري ، ص ٦٣ .

(٧) البكري ، ص ١٦٠ .

البربر يعرفون ببني لماس ، وذلك قبل دخول أبي عبد الله الشيعي افريقية . ودعا هذا الرجل هؤلاء البربر الى سب الصحابة ، كما يقول البكرى ، وأحل لهم المحرمات ، وزعم أن الربا بيع من البيوع ، وزادهم في الأذان ، بعد أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمدا خير البشر ثم بعد حي على الفلاح ، حي على خير العمل ، آل محمد خير البرية .

ويستطرد البكرى فيقول ، انهم على مذهب هذا الرجل الى أيامه . ولكنه يضيف أنهم يعتقدون أن الامامة في ولد الحسن ، لا في ولد الحسين ، ولما كان أمير الجهة ادريسيا ، هو أدريس بن محمد بن جعفر ، فان الجعرافي الأندلسي يقول : « فان صح الحديث الذى ذكرنا ، فانه المراد به هؤلاء (أى الأدارسة) ، والله اعلم »(٨) .

الدعاية الشيعية في تخوم افريقية والمغرب الأوسط :

وأغلب الظن أن البكرى وقع على بعض كتب الشيعة الفاطميين ، مثل كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان الذى يؤرخ للدعاية الفاطمية قبل أبي عبد الله الداعي ، فيقول ان الامام جعفر الصادق كان قد أرسل الى المغرب في سنة ١٤٥ هـ/٧٦١ م داعيين من رجاله ، هما : أبو سفيان ، والحلواني ، « وأمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمة من آل محمد » ، وأن أبا سفيان نزل بمرماجنة وأنه صاحب الفضل في تشيع من تشيع من أهل مرماجنة (قرب الحدود الشرقية للجزائر) والاربس (قريب القيروان) ونفطة (في بلاد الجريد) (٩) . أما الحلواني فنزل في سوجمار في جبال بجاية ، وعلى يديه تشيع كثير من قبائل كتامة ونفزة وسماتة (١٠) قبل أبي عبد الله بـ١٣٥ سنة . وبذلك لم يكن من الغريب أن يتأثر قاضي افريقية ابن أنعم ، الذى كان معاصرا لابي سفيان والحلواني ، بفكرة المهدى المنتظر التي كانا يدعوان اليها سرا ، فتظهر بين فقهاء أهل السنة في القيروان نفسها ، كما لم يكن من الغريب أن تنتشر في المغرب الأقصى قبل ظهور أبي عبد الله ، كما ينص البكرى .

---

(٨) البكرى ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٩) افتتاح الدعوة ، ص ٥٥ ، وانظر الهوامش ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٠٣ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٤١ والهامش ، ص ٥٠ .

(١٠) افتتاح الدعوة ، ص ٥٧ ، وتضيف رواية النعمان الى ذلك (ص ٥٨) ان الحلواني كان يقول : بعثت أنا وأبو سفيان فقيل لنا : اذهبا الى المغرب فانما تأتيان أرضا بورا فاحرثاها واكرباها وذللاها الى ان يأتيها صاحب البذر فيجدها مذللة فيبذر حبه فيها .

وليس من الغريب أن يكون أمراء الأدارسة ، في هذه الجهات ، قد استغلوا تشيع البربر هناك لآل البيت واعتناقهم للمذهب الاسماعيلي ،تحولوا هذا التشيع الى صالحهم وقالوا أن الامامة في ولد الحسن ، لكي يثبتوا مركزهم الذي كان قد زعزعه الفاطميون •

وهكذا ، فاذا كان نجاح الشيعية الفاطمية في المغرب يمثل نقلة عنيفة على المستوى المذهبي ، فمن المقبول أن يكون ذلك النجاح قد سبق التمهيد له بزمن طويل •

واذا كان الأمر كذلك فلا ينبغي أن نعطي هذه الدعاية الشيعية السابقة على قيام الدولة الفاطمية أكبر من حجمها الحقيقي ، فقد كانت لا جنة في المناطق المعزلة البعيدة ، كما كانت تتستر خفية في دوائر أهل السنة ، تماما كما كانت نشأة الدعاية الخارجية في بداية أمرها في القيروان (١١) • ولكنه اذا كانت الخارجية قد لاقت من النجاح ما جعلها مذهبا قوميا في المغرب ، فان الشيعية الفاطمية وجدت ، في مقابل ذلك ، أن بقاءها في المغرب مؤقت ولا شك • وبناء على ذلك فانها وجهت أنظارها نحو المشرق ، الى أن نجحت في النقلة الى مصر • وكما كان قيام الفاطميين في المغرب حدثا خطيرا في تاريخه ، كان انتقالهم الى مصر حدثا لا يقل خطورة بالنسبة للمغرب أيضا اذ ترتبت عليه نتائج سياسية واقتصادية وبشرية تردد صداها حتى المغرب الأقصى • ولكل ذلك اعتبر الكتاب قيام دولة الفاطميين نقطة تحول حاسمة في تاريخ افريقيا الشمالية ، مما دعا جورج مارسيه الى تسميتها بالأزمة الفاطمية (١٢) •

الفاطميون ، نسبهم وشيء عن مذهبهم :

التسمية:

ينتسب الفاطميون الى فاطمة الزهراء بنت الرسول وزوج علي بن أبي طالب ، ومن اسمها اتخذوا لقبهم • وبناء على ذلك فهم شيعة علويون، ولكنهم عندما انتسبوا الى فاطمة ارادوا أن يؤكدوا شرعية وراثتهم لخلافة النبي، على

---

(١١) وهنا نشير الى أنه لا يجب أن تؤخذ مأخذ الجد مقالة القاضي النعمان التي تسجل أن ابراهيم بن أحمد كان لا يرغب في قتال أبي عبد الله الداعي لانه كان يتشيع وكثير من أهل بيته ـ انظر فيما سبق ، ص ١٤٦ وهـ ٢٧٢ •

(١٢) بلاد البربر الاسلامية • ص ١٣٢ وما بعدها

عكس غيرهم من العلويين الذين ينتسبون الى على ولكن من زوجة اخرى غير فاطمة ، مثل محمد بن الحنفية صاحب الشيعة الكيسانية · كذلك أراد الفاطميون أن يحددوا وراثة الخلافة فى هذا الفرع الفاطمى السوى فى مقابل من ارادوا أن تكون الخلافة مشاعة فى آل النبى ، ومن ثم تصبح من حق أقرب الرجال الى النبى ، وذلك كما فعل العباسيون عندما بدأوا دعوتهم للرضا من آل محمد ثم استخلصوا الخلافة لأنفسهم ، باعتبارهم حفدة العباس ، عم النبى وأحق الناس بوراثة تركته ، لا ينافسهم فى ذلك العلويون ، حفدة ابن العم ·

والغريب فى أمر التسمية أن مؤسسى دولة كتامة العلوية الشيعية لم يكونوا أول من تلقب بلقب الفاطميين ، فلقد سبقهم الى حمل اللقب أحد الأدعياء من ثوار البربر فى اقليم شنتبرية بوادى الحجارة فى الأندلس فيما بين سنة ١٥١ هـ/٧٦٨م و ١٦٠ هـ/٧٧٧ م على عهد عبد الرحمن بن معاوية الداخل · فلقد أراد الرجل الذى كان يسمى ب « شقيا » ، والذى عرف بعراقة نسبه فى البربر ، أن يعطى لثورته نوعا من الشرعية فاستغل كون اسم والدته فاطمة ونادى ، بين أعوانه ، بانه فاطمى علوى ، ولهذا السبب سماه الكتاب ب « الدعى الفاطمى » (١٣) ·

هذا ، كما ظهر اسم الفاطميين بين قرامطة الشام فى نفس الوقت الذى كان يدعو فيه أبو عبد الله الشيعى للامام المهدى ، وذلك عندما تسمى به سنة ٢٨٩ هـ/٩٠٢ م جماعة من بنى الأصبغ اثر انضمامهم الى حركة القرمطى زكرويه ابن مهرويه(١٤) ·

اصول التشيع :

والحقيقة ان أصول الشيعية الرئيسية سياسية بشكل عام ، والأساس الشيعى فى السياسة هو مبدأ شرعية الحكم · فعلى وبنوه هم الخلفاء حقا، او الأئمة بوجه أصح ، أما غيرهم فمغتصبون · وذلك أن الامام - عندهم - هو وريث بعثة النبى ، ويتم تعيينه بتوجيه الهى عن طريق وصية سرّية تنتقل

---

(١٣) انظر ليفى بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية ، بالفرنسية : ج ١ ص ١٦٢ - ١٦٤ ·

(١٤) ابن الاثير ، سنة ٢٨٩ هـ ، ج ٧ ص ٢٠٢ ·

من امام الى امام ، وهؤلاء الأئمة معصومون (من الخطأ) (١٥) • وبناء على ذلك جمعت الشيعيه مبدأ الوراثة الملكي ، ومبدأ النبوة مما ترتب عليه أن أصبح وجود الامام ضروريا لكل زمان ومكان (١٦) •

ولما كان التشيع موضع اضطهاد الخلافة فقد أصبحت له حياة مستترة عملت على عدم الكشف عن معتقداته ، والتسامح في عدم تمعيد تعاليمه في وقت الخطر ، وهذا ما عرف بـ « التقية » • ومع مرور الوقت أصبحت التقية ، مثل الكتمان الذي رأيناه عند الخوارج من الاباضية (١٧) ، من أهم سمات فرق الشيعة الغلاة (١٨) • ولما كان وجود الامام ضروريا لكل زمان ومكان فان

---

(١٥) أنظر النعمان بن محمد ، دعائم الاسلام ، تحقيق آصف فيضي ، القاهرة ١٩٦٣ ، حيث يعرض رأى الفاطميين في الامامة ، فينقد آراء أهل السنة والمرجئة والمعتزلة والخوارج المبنية على مبدأ الاختيار ، الذي يجعل من أهل الاختيار هم الأئمة على ظاهر هذا المعنى (ص ٤٠) • ويقول ان الامامة يجب أن تكون « بالنص والتوقيف » • تماما كالنبوة التي انتقلت بالنص من آدم الى نوح حتى عيسى ومحمد فكل نبي مضى قد أوصى الى وصي يقوم بأمر أمته من بعده ثم يضيف أن الناس أحوج ما كانوا الى الأوصياء والأئمة لارتفاع الوحي وانقطاع النبوة (ص ٤٣) • وأول الهداة بعد النبي هو على بن أبي طالب ثم الأوصياء من بعده ، واحد بعد واحد (ص ٢٢) •

(١٦) أنظر النعمان بن محمد ، دعائم الاسلام ، حيث نجد أن « معرفة امام الزمان والتصديق به والتسليم لامره » أصبح أصلا من أصول الايمان (ص ٤) ، وان ولاية على ابن أبي طالب تعتبر « آخر الفرائض » (ص ١٥) ، وان الأئمة بعده هم آل البيت الذين يؤدي الأول منهم الى الامام الذي يكون بعده الكتب والعلم والسلاح (ص ٢٠ — ٢١) ، وان عليا والأوصياء من ولده هم أعراف الله بين الجنة والنار ، لا يدخل الجنة الا من عرفهم وعرفوه ، ولا يدخل النار الا من انكرهم وانكروه (ص ٢٥) • وهكذا فلو « ان الرجل عمل أعمال البر كلها ، وصام دهره وقام ليله ، وانفق ماله في سبيل الله ، وعمل بجميع طاعات الله عز وجل عمره كله ، ولم يعرف نبيه الذي جاء بتلك الفرائض ، فيؤمن به ويصدقه ، وامام عصره الذي افترض الله عز وجل عليه طاعته فيطيعه ، لم ينفعه الله بشيء من عمله » (ص ٥٣ — ٥٤) • وبناء على كل ذلك فـ « من مات لا يعرف امام دهره حيا ، مات ميتة جاهلية » ، كما رووا عن النبي (ص ٢٥) • وأنظر هنري ماسيه ، الاسلام (بالفرنسية) ، مجموعة ارمان كولان ، باريس ١٩٤٥ ، ص ١٥١ •

(١٧) أنظر فيما سبق ، ص ٥٢٢ •

(١٨) أنظر النعمان بن محمد ، دعائم الاسلام ، حيث يقول جعفر الصادق لبعض اصحابه : « اكتم سرنا ولا تذعه ، فانه من كتم سرنا فلم يذعه ، أعزه الله به في الدنيا والآخرة ، ومن اذاع سرنا ولم يكتمه ، أذله الله به في الدنيا والآخرة ، ونزع النور من بين عينيه » (ص ٥٩) • وفي ذلك ينسب الصادق الى والده محمد بن علي انه كان يقول « ان التقية من ديني ودين آبائي ، ولا دين لمن لا تقية له ، وان الله يحب أن يعبد في السر ، كما يحب أن يعبد في العلانية ، والمذيع لأمرنا كالجاحد له » (نفس الصفحة) •

آخر الأئمة لم يمت ، كما يرون ، بل هو غائب ، وينبغي أن يعود في يوم ما ، وهذا ما يعرف عندهم بـ «الغيبة» و بـ «الرجعة»(١٩) . وفكرة عودة الامام هي التي تمخضت عن الحركات المهدية ، اذ أصبح « المهدى » الذي يملأ الدنيا عدلا ، قبيل آخر الزمان ، هو أحد افراد البيت العلوى وسليل فاطمة ، وهو « المنتظر » . وعلى أساس هذه الأصول الشيعية أقام المهدى عبيد الله دولته الفاطمية في المغرب ..

التشيع الفاطمي الاسماعيلي :

وحقيقة المذهب الفاطمي انه من مذاهب الشيعة الغلاة ، أي الذين يخلعون على الامام صفات الهية ، تضعه فوق مستوى البشر . فهم يقولون ان روح الله تحل في الأئمة حلولا شبه كلي ، وذلك على عكس جمهرة الشيعة الامامية الذين يقولون بأن هذا الحلول جزئي ، أو المعتدلين من الزيدية الذين يقولون بأن الامام لا يتمتع الا بتوجيه الهي فقط .ولهذا رأى الآخرون أن الامامة . بعد امامهم الخامس زيد بن علي زين العابدين بن الحسين ، تجوز لاى علوى — وهو المبدأ الذي سيأخذ به الحسنيون من العلويين بعد أن استأثر أشقاؤهم الحسينيون بالأحقية في الامامة (٢٠) .

والفاطميون فرقة من فرق الشيعة الاسماعيلية — مثلهم مثل القرامطة والحشاشين — الذين يتمسكون بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو السابع في سلسلة الأئمة ، ولهذا عرفوا أيضا بـ « السبعية » . وهم يقولون في ذلك أن الامام اسماعيل يختم قائمة الأئمة الشرعيين الظاهرين ، وذلك على عكس غالبية الشيعة الامامية الذي يضعون مكان اسماعيل اخاه الأصغر موسى الكاظم ثم خمسة من الأئمة الظاهرين بعده ، آخرهم محمد بن الحسن ابن علي العسكري ، فهو الامام الثاني عشر ، ولهذا تعرف الامامية أيضـــا

---

(١٩) أنظر ابن خلدون ، المقدمة ، فصل ٢٧ — مذاهب الشيعة ، في حكم الامامة ، ج ٢ ص ٧٠٠ — ٧٠١ ، ماسيه ، الاسلام ص ١٥٣ .

(٢٠) وفي أحقية الحسينيين من الفاطميين في الامامة دون الحسنيين ، يقول النعمـــان ابن محمد : « فكان الحسن أسبق من الحسين ، ثم نقل الله عز وجل الامامة الى ولد الحسين ، كما نقل النبوة من ولد اسحق الى ولد اسماعيل ، وعليهم اجماع الأمة بالشهادة لهم ، وانها جارية فيهم ، ولم يحصروا بمثل هذه الشهادة لأحد سواهم » (دعاء الاسلام ، ص ٣٥ — ٣٦) . ومن قانونية خروج الامامة من ولد الحسن الى ولد الحسين ، على أساس انه ما كان يجوز للحسين : « أن يردها الى ولد اخيه دون ولده » ، لأن ولده أقرب اليه رحما من ولد اخيه (أنظر ص ٣٧) .

ـ « الاثنا عشرية » · والامام الثاني عشر الذي تغيب في سرداب دارهم بسامرا (سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م) هو المهدي عندهم ، وهو الامام المنتظر (٢١) · وهي النظرية التي عدلها احد متكلميهم وهو النوبختي ، بحيث تصبح أكثر منطقية ، فجعل المهدي المنتظر من سلالة الامام الثاني عشر وليس هو نفسه (٢٢)

العلاقة بالقرامطة :

وسبب توقف الاسماعيلية عند الامام السابع ، وانكارهم الأئمة الخمسة الباقين ، هو ما حدث حوالي سنة ١٤٣ هـ/٧٦٠ م عندما وجد الامام السادس جعفر الصادق ان ابنه الأكبر اسماعيل غير جدير بالامامة فأوصى بها لابنه الأصغر موسى الكاظم ، فلم يقبل اتباع اسماعيل خلعه ، وظلوا مخلصين له رغم ذيوع وفاته (٢٣) ، كما قام الدعاة منهم بنشر الدعوة لحساب أبنائه الذين انتشروا في بلاد فارس والشام · ولقد ظل نشاط الاسماعيلية خلال قرن من الزمان دينيا فقط ، ولكن أحد الدعاة تمكن من توجيهه نحو أغراض سياسية ، وعن هذا الطريق تمكن الداعي قرمط (٢٤) من أن يجمع حوله جماعات من العمال والفلاحين في أسفل العراق ممن كانوا قد شاركوا في ثورة الزنج (٢٥٥هـ / ٨٦٨ م ـ ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م) ، واستغل طموحهم نحو المساواة التي كانوا يطالبون بها ،ونظمهم ـ باسم الامام المستور ـ في طبقات من أهل المعرفة (٢٥) · ونجحت الحركة وانتشرت من العراق الى جزيرة العرب ، وانقلبت

---

(٢١) انظر ابن خلدون ، المقدمة فصل ٢٧ ـ في مذاهب الشيعة ··· ج ٢ ص ٧٠١ ·

(٢٢) أنظر ابن النديم ، الفهرست ، فصل متكلمي الشيعة ، ط· التجارية ، ص ٢٦٥ ·

(٢٣) كانوا يدعون الى الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر ، وانه حي لم يمت ـ اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٢٩ ·

(٢٤) واسمه حمدان بن الأشعث ، أما عن لقبه قرمط فقيل لأنه كان يقرمط في سيره أي يقارب بين خطواته ، وقيل لأنه كان احمر البشرة تشبيها له بالقرمد أي الطوب الأحمر ، كما قيل ان الاسم مشتق من التدليس (فهو المدلس) ، وهو أصل الكلمة الآرامي (انظر المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ٢٩) · هذا ، ويورد ابن الاثير رأيا يقول ان أصل هذا الاسم هو اسم رجل نبطي كان قد لجأ اليه الداعي في الشام وهو « كرميتة » التي حرفت الى قرمط (ابن الأثير ، سنة ٢٧٨ ، ج ٧ ص ١٧٨) ·

(٢٥) ماسيه ، الاسلام ، ص ١٥٧ · وفي درجات المعرفة ، أنظر ما يقوله القاضي النعمان في دعائم الاسلام ، في فصل ذكر الايمان ، حيث يقول : ان الايمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل ، فمنه التام المنتهي تمامه ، ومنه الناقص البين نقصانه ، ومنه الراجح رجحانه ، كما يقول ان الايمان مقسم على الجوارح ، مثل : القلب والسمع واللسان والعينين واليدين والرجلين وغيرهما (ص ٤) · وبتمام الايمان يدخل المؤمنون الجنة ، وبرجحانه والزيادة فيه يتفاضل =

حزئيا الى نوع من الشيوعية البدائية ، انتهت باعمال متطرفة ديما بعد ، كما حدث عندما أغاروا علي مكة واخذوا الحجر الاسود الى هجر ، [illegible] في موسم سنة ٣١٧هـ/٩٢٨ م ، ولم يعيدوه الا بعد أن تدخل امام الفاطميين في افريقية عبيد الله المهدى الذى انكر عليهم ما فعلوه (٢٦) ٠

هكذا كانت الصلة وثيقة بين الفاطميين وبين القرامطة ، وان كان الفاطميون قد رفضوا استغلال القرامطة لمذهب الامام المكتوم من أجل ثورتهم الاجتماعية، فانهم استفادوا من الدعاية القرمطية من أجل تحقيق أهدافهم السياسية (٢٧) ٠ فبينما كان قرمط يدعو في العراق الى مذهب الامام المستور ، كان هناك داع آخر في المغرب الأوسط يثير حماس بربر كتامة باسم المهدى الفاطمي ، هو : ابو عبد الله الشيعي ٠

الكتمان وظهور الأدعياء :

والذى يستحق الملاحظة هنا هو أن مطالبة الشيعة بان تكون الامامة أي الخلافة في آل البيت من العلويين ثم التجاؤهم الى ستر الامام وكتمان العقيدة ، كل ذلك ، كان سببا في دخول كثير من المغامرين والأدعياء في المذهب ،ومنهم من انتهز الفرصة فعلا ونجح في استغلال الدعوة لصالحه ، ومنهم من انحرف من مبادىء المذهب أو حرفها مما جلب النقمة والسخط على الأئمة (٢٨) ٠

= المؤمنون في الدرجات عند الله ٠٠٠ (ص ٦) ٠ وفي الفرق ما بين الايمان والاسلام يقول : الاسلام هو الظاهر ، والايمان هو الباطن الخالص في القلب (ص ١٢) ٠ والاسلام هو الاقرار من العبد بينما الايمان أشمل فهو الاقرار والمعرفة التي هي من الله (ص ١٣) ٠ والمعرفة من الله حجة ومنة ونعمة ، فمن لم يجعله الله عارفا فلا حجة عليه ٠ وعن علي بن أبي طالب : « أدنى مايكون (المرء) مؤمنا ان يعرفه الله حجته في أرضه وشاهده على خلقه فيعتقد امامته فيقر له بالطاعة » (ص ١٣) ٠ فكانت معرفة الامام من درجات المعرفة العالية ٠

(٢٦) انظر ابن الأثير ، سنة ٣١٧ ، ط٠ بولاق ، ج ٨ ص ٧٧ ٠

(٢٧) عن الصلة بين الحسين الأهوازى ، أحد مشاهير الدعاة لمذهب محمد بن اسماعيل ابن جعفر الصادق وبين حمدان قرمط الذى استجاب لدعوته ، انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ٢٩ ، ٣٠ ، وعن القرامطة انظر (ط٠ ١٩٦٧ ، ص ١٥١ وما بعدها) ٠ وعن الصراع بين القرامطة وبين الفاطميين على أيام المعز وكيف قدح القرامطة في نسب الفاطميين فقالوا انهم أولاد القداح — انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، سنة ٣٦٢ ج ٤ ص ٧٤ ٠

(٢٨) انظر النعمان بن محمد الذى يخصص في دعائم الاسلام فصلا يهاجم فيه أولئك الذين ضلوا ومرقوا وهلكوا « من أهل هذا الأمر » ممن استحلوا المحارم وادعوا النبوة وألهوا الأئمة فنالوا سخطهم والبراءة منهم (ص ٤٨ وما بعدها) ٠ وفي ذلك ينسب الى أبي ٠٠٠

الجدل حول صحة النسب :

وإذا كان الأمر كذلك فليس من المستغرب أن تكون صحة نسب الفاطميين أنفسهم موضع شك أثار الكثير من الجدل بين الكتاب ، حتى قال بعضهم انهم أصلا من المجوس أو الثنوية (٢٩) • ومن الطاعنين من يقول بأنهم يهود أصلا ، على زعم أن سعيدا (المهدى) كان في الحقيقة ابنا لحداد يهودى من أهل سلمية من منطقة حمص ، وأن الحسين بن أحمد الذى تزوج أمه ، عندما استقر في سلمية اثر فراره من العراق ، رباه وأدبه • ولما لم يكن للحسين ولد فانه عهد الى ابن امرأته سعيد هذا (٣٠) ، فكأن الفاطميين جمعوا بين المجوسية واليهودية جميعا • ولقد وجد هذا الطعن آذانا صاغية من العباسيين في بغداد ، والأمويين في الأندلس فعملوا على اذاعته ونشره في طول بلادهم وعرضها ، وذلك كسلاح حاولوا النيل به من خصومهم الفاطميين ، ومواجهة دعوة الامام المعصوم التى كانت قد استهوت قلوب الكثيرين من

جعفر محمد بن على قوله : « رحم الله عبدا حببنا الى الناس ولم يبغضنا اليهم ، أما والله لو يروون ما نقوله ولا يحرفونه ولا يبدلونه علينا برأيهم ما استطاع احد ان يتعلق عليهم بشيء ، ولكن احدهم يسمع الكلمة فيحط اليهـا عشرا ويتأولهـا على ما يراه ••• » (ص ٦١) •

(٢٩) انظر آراء الطاعنين فى نسب الفاطميين وكيف يذكرون انهم اصلا من مجوس فارس الذين ينتسبون الى ديصان الثنوى والديموم القداح جدهم ، وأنهم ادعوا الانتساب الى والد محمد بن اسماعيل الامام ، كما ادعوا أنهم من ولد عقيل بن ابى طالب وأصحاب هذا الرأى يقولون ان عبيد الله المهدى ، هو فى حقيقة نسبه : سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله ابن ميمون القداح بن ديصان الثنوى الأهوازى • المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ط• القاهرة ١٩٦٧ ، ج ١ ص ٢٢ ـ ٢٣ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ (عن النسب اليهودى) ، ص ٤١ (عن النسب الى ولد عقيل) ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، وانظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، سنة ٣٦٢ هـ ، ج ٤ ص ٧٥ وما بعدها • وقارن الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٩٠ : حيث الرواية الأندلسية المنسوبة الى مؤرخ الأندلس الرازى ، وفيها أن عبيد الله هو بن محمد بن عبد الرحمن بن البصرى ، من سلمية ، وهى نفس التسمية التى يطلقها عليه الطبرى • « ابن البصرى » • والظاهر أنها نفس التسمية التى أطلقها عليه صاحب تاريخ بغداد (انظر الحلة السيراء ، ١ ص ١٩٠ وص ٤ ، ص ٣٦٢) • وانظر الفصل الخاص برأى الطاعنين فى صحة النسب تاريخ الدولة الفاطمية ، لحسن ابراهيم حسن ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٥٩ بعدها •

(٣٠) اتعاظ الحنفا ، ط• ١٩٦٧ ، ص ٤٢، وقارن النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٧٩ ما بعد (ما قيل فى نسب المعز وآبائه) •

تاقت نفوسهم الى زوال عهد الجور وحلول عهد العدل الموعود (٣١) ٠

ومع أننا لا نميل الى الدخول فى ذلك الجدل الذى أورده ابن الاثير ووقف منه موقف المتأمل المتعاطف مع صحة النسب ، نكتفى بالاشارة الى أن الشيعة أنفسهم ، ممن اعترفوا بصحة نسب الفاطميين ، اختلفوا فى تسلسل هذا النسب (٣٢) ٠ والواضح أن مثل هذا الجدل لا طائل وراءه ، ولذا فنحن نفضل الأخذ بنظرية ابن خلدون الذى يتحرج ، رغم سنيته المالكية المعروفة ، من جرح زعماء الأمة وأعلامها التاريخيين حتى من أولئك الذين زعموا العصمة والهداية ، ويحكم بعدالتهم - فالذى نراه أن ابن خلدون وان كان قد ساق ، فى معرض الدفاع عنهم ، بعض الأدلة أو القرائن التى ليست فوق مستوى النقد ، فهو يريد ، فى الحقيقة ، أن يقرر أن نجاح الدعوة — وهو الأمر الواقع باذن الله — يعنى الكفاية والعدالة ، وبالتالى صحة النسب (٣٣) ٠

---

(٣١) عن جمع عضد الدولة البويهى سنة ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م — ٢٧٢ هـ/٩٨٢ م للعلويين فى بغداد وتوقيعهم على أن المعز لدين الله ليس منهم ، أى ليس علويا ، أنظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ١٩٦٧ ٠ ج ١ ص ٣٠ ٠ وعن المحضر العباسى الاول الذى كتب فى بغداد سنة ٤٠٢ هـ/١٠١١ م على عهد الخليفة القادر فى القدح فى نسبهم ، أنظر اتعاظ الحنفا ، ص ٣٢ — ٣٣ (وعن ابن الاثير ص ٣٦ — ٣٧) ، ص ٤٤ (نص المحضر) ، ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ط٠ بولاق ، ج ٨ ص ١٠ ٠ وعن طعن خليفة الأندلس الأموى الحكم المستنصر فى نسب العزيز أنظر ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٤٩ ٠

(٣٢) فقد قيل عن المهدى انه ٠ محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن اسماعيل ابن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب (ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ حيث يذكر نسبا علويا ثانيا) ٠ وتذكر بعض الروايات المغربية انه : محمد بن اسماعيل بن الحسن ابن على بن جعفر بن على بن موسى بن جعفر (بن محمد) الصادق بن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب (الاستبصار ص ٢٠٢) ٠ ويقول ابن حماد الصنهاجى ، اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، انه : عبيد الله بن محمد بن الحسين بن محمد بن اسماعيل ابن جعفر بن محمد بن على (بن أبى طالب) (ط٠ الجزائر ١٩٢٧ ، ص ٦) ، أما ابن خلدون ، فيقول انه : عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن اسماعيل بن محمد المكتوم (أول الأئمة المستورين) ، العبر ، ج ٤ ص ٦٢ — ٦٣ (طبعة بيروت ، ١٩٦٨) ٠ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ط القاهرة ١٩٦٧ ، ج ١ ص ١٦ ، ص ٣٥ حيث يأخذ المقريزى بصحة النسب ، وكذلك ص ٥٢ — ٥٣ وص ٥٠ (حيث ينقل هذا النسب عن ابن خلدون) ٠

(٣٣) انظر المقدمة ، ط٠ التجارية ، فصل فى علم التاريخ وما يعرض للمؤرخين من المغالط — فى الدفاع عن الادارسة ، ص ٢٣ ، وعن الفاطميين ، ص ٢١ ، وكذلك التاريخ ، ج ٤ ص ٣١ ، وعن مهدى الموحدين ص ٢٦ ٠ وانظر ما ينقله عنه المقريزى فى اتعاظ الحنفا ، ط ١٩٦٧ ، ص ٤٤ — ٤٩ ٠

والحقيقة ان الفاطميين أنفسهم لم يعودوا يهتمون كثيرا بمسألة صحة النسب تلك ، بعد أن أصبحت مسألة الشرعية ثانوية عندهم . فلقد استخدموا التأويل واستعانوا بنظرية الحلول ، وأصبحوا يرون أن الامامة عهد اجباري يعطى للمختار من بين العارفين بالعلم الالهي (اللدني) عن طريق استنارة العقل اى تلقى حصته العناية الالهية بالوراثية(٣٤) . وما ينسب الى المعز لدين الله ، بعد أن دخل القاهرة ، من أنه استقبل وفود المهنئين وقال لهم ، وهو يسل سيفه من غمده وينثر عليهم دنانير ذهبه « هذا حسبي وهذا نسبي »(٣٥) ، يؤكد مقالة شرعية الأمر الواقع ، ويثبت أن الجدل في صحة نسب الفاطميين الذي بدأ به ابن الأثير ، وبلوره ابن خلدون ، وأخذ بسه المقريزي (٣٦) كان قد استنفد أغراضه ولم يعد ذا موضوع .

تنظيم الدعاية الفاطمية ، وبداية أبي عبد الله الشيعي :

تبين بداية الدعوة التي قام بها أبو عبد الله الشيعي (٣٧) كيفية التنظيم السري للحركة الفاطمية . هذا ما يتضح من الرواية المغربية المفصلة التي يقدمها كتاب الاستبصار منسوبة الى الداعي نفسه (٣٨) ، ومنها يفهم أن وصول أبي عبد الله الى منصب الداعي تم بمحض الصدفة ، ولكنها كانت صدفة مرسومة . على كل حال . حدث ذلك في العراق مركز الحركة ، ومن حيث كان يوجه الدعاة الى خراسان واليمن والمغرب . ولم يكن أبو عبد الله غريبا عن التشيع ، فهو يمني من مدينة صنعاء (٣٩) ، أخذ العلم في بلاده التي كانت

---

(٣٤) أنظر ماسيه (عن ما سينيون) ، الاسلام ، ص ١٥٨ . وعن التأويل انظر دعائم الاسلام ، فصل ولاية الأئمة ، ص ٢١ وما بعدها . وعن مسألة الحلول يقول ابن خلدون ، المقدمة ، فصل ٢٧ في مذاهب الشيعة في حكم الامامة ص ١٩٨ « وهو ما يوافق مذهب النصارى في عيسى صلوات الله عليه » .

(٣٥) أنظر ابن خلكان ، ترجمة المعز ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، سنة ٣٦٢ ، ج ٤ ص ٧٧ .

(٣٦) أنظر عرض هذه الآراء في اتعاظ الحنفاء ، ط. ١٩٦٧ ج ١ ص ٤٣ وما بعدها .

(٣٧) الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الذي اشتهر بالمحتسب أيضا ، وكذلك بالمعلم المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ط. القاهرة ١٩٦٧ ، ج ١ ص ٥٥ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣١ — ٣٢ . وقارن افتتاح الدعوة للقاضي النعمان ، ص ٥٩ ، وابن حماد ، أخبار ملوك بني عبيد ، ص ٧ .

(٣٨) الاستبصار ، ص ٢٠٣ ، وقارن افتتاح الدعوة للقاضي النعمان ، ص ٣٥ : حيث نجد نفس القصة تقريبا ، منسوبة الى داعي اليمن ابن حوشب ، وأنظر رواية الرواق في ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٤ ، والمقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥٥ — ٥٩ .

(٣٩) افتتاح الدعوة ، ص ٦١ ابن عذارى ج ١ ص ١٣٤ .

من معاقل الشيعة على أئمة المذهب ، وكان يعتقد في وجود الامام المهدي ولكنه كان يجهل زمنه .

وذات يوم ، بينما كان صاحبنا يصلي ويقرأ القرآن على ضفاف «دجله» حضر رجل مهيب الطلعة ، عليه مظاهر النبل والوقار ، واستقر فوق بساط فرشه له غلامه بجواره على ضفة النهر . وبطريقة ماهرة دخل الشيخ الجليل في نقاش مع أبي عبد الله حول تفسير ما كان يقرأه من آيات القرآن ، وتمكن بفضل علمه ودرايته بالجدل والمناظرة من الاستحواذ على قلبه حتى سأله المزيد من علمه . وحسب الأساليب الفنية التي يعرفها الدعاة تركه الشيخ ـ وهو في ذروة التعطش ـ مؤجلا ذلك الى فرصة أخرى ، وامتطى ظهر دابته منصرفا ، وخلفه غلامه . وعندما علم أبو عبد الله ـ من الغلام ـ أن الشيخ ليس الا محمد (بن اسماعيل بن الحسن ..) الطالبي تعلق بركابه ، وضرع اليه أن يعلمه السبيل الى معرفة الامام .

التنظيم السري الاثنا عشري :

وبفراسة الشيخ وثق من اخلاص هذا التابع المتعطش الى المعرفة ، وأشار عليه بأن يسير معه الى منزله . وفي الدار وجد أبو عبدالله الشيعي شابا هو ابن الشيخ ووصيه ، وهو عبيد الله المهدي ، ومعه أحد عشر رجلا من الدعاة ، فضمه الشيخ اليهم ، وبذلك أصبحوا اثني عشر نقيبا (٤٠) . هؤلاء الدعاة

(٤٠) انظر كتاب الاستبصار ، ص ٢٠٣ ـ والذي يهمنا من هذه الرواية ان محمدا الحبيب والد عبيد الله كان يقوم بدعوته في العراق ، وهذا لا يتعارض مع ما تكاد تجمع عليه الروايات من ان عبيد الله عندما سار نحو المغرب ، فيما بعد ، كان خروجه من مدينة سلمية بالشام ، اذ لا بأس أن يكون قد ترك العراق عند ملاحقة رجال الخلافة له واستقر بالشام حيث كان للعلويين شيعتهم المخلصون . واذا كانت ملاحقة رجال الخلافة له ولوالده قد تمت بعد وصول انباء نجاح أبي عبد الله الشيعي في المغرب ، كما تقول الروايات المقبولة (انظر اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥٢ : حيث تقول الرواية انه بعد أن شاع خبر دعاته باليمن وافريقية طلبه المكتفي وكان يسكن عسكر مكرم ، فانتقل الى الشام) فان المولود في سلمية لا يكون عبيد الله المهدي بل ابنه القائم (أبو القاسم محمد) الذي ولد هناك سنة ٢٧٧ هـ/٨٩٠ م أو ٢٨٠ هـ/٨٩٣ م (انظر المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٧٤) وكان غلاما حدثا عندما خرج به والده الى المغرب (اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥٢ ، وقارن افتتاح الدعوة ، ص ٢٤٥ : حيث يقول القاضي النعمان ان القائم حين استتر في سجلماسة كان قد طر شاربه) . ولهذا السبب قيل أيضا في القائم انه لم يكن ولد المهدي بل كان ربيبة أي ابن لزوجته « فكانه المقصود بابن حداد سلمية اليهودي) عن مقالة ان محمدا القائم كان ربيب « سعيد » المهدي (انظر اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٣٦ . وفي اختلاف اسم القائم ما بين : محمد وعبد الرحمن وحسن ، وفي اختلاف كنيته ما بين أبي القاسم وأبي جعفر انظر الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٩٨) .

الاثنا عشر يذكرون بنقباء الدعاة العباسيين الاثنى عشر الذين تم اختيارهم بين السبعين داعية الأوائل ، وهم الذين مهدوا خراسان ، بقيادة أبى مسلم ، للثورة الرائعة التى قامت باسم آل البيت (الرضا من آل محمد) . وهم يذكرون أيضا بنقباء القرمطى الاثنى عشر الذين اتخذهم كحوارى عيسى بن مريم ، كما تقول رواية ابن الأثير(٤١) . فكان ذلك التنظيم الاثنى عشرى كان أساس الدعوات السرية التى عرفتها دولة الخلافة ابتداء من العباسيين ثم من أتى بعدهم من الاسماعيلية ، مثل : القرامطة والفاطميين ثم الخشاشين .

الدعوة فى المغرب تبدأ من اليمن :

والمهم أنه تم انعقاد مجلس دعاتنا الفاطمى هذا برئاسة الشيخ فى العراق قبل سنة ٢٧٧ هـ/٨٩٠ م ، وهو التاريخ المقترح لمولد محمد القائم بن المهدى فى سلمية بالشام (٤٢) . وفيه أعلن الامام محمد الحبيب أن وقت ظهور الامام قد حان ، وأمرهم بالانتشار فى الأقطار ، والتبشير بقرب حلول عهد العدل والاصلاح ، ودعوة الانصار لدولة المهدى العلوى القاطمى . ووقع الاختيار على أبى عبد الله ليقوم بالدعوة فى المغرب بأرض قبائل كتامة (٤٣) .

وواضح من الرواية أن الدعوة الشيعية فى المغرب الأوسط كانت قد بدأت قبل ذلك بوقت طويل منذ أيام جعفر الصادق أى حوالى سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢ م . فى الوقت الذى كان يتكلم فيه قاضى افريقية عبد الرحمن بن أنعم فى الامام الذى يملأ الارض عدلا ، ويعم الرخاء فى عهده ، وهو ما كان يبشر به الحلوانى وأبو سفيان فى نفس الوقت تقريبا (٤٤) .

وحسب الأسلوب الفنى الذى كان يسير عليه الدعاة لم يتوجه أبو عبدالله مباشرة الى المغرب بل سار الى اليمن ، التى كانت قد صارت معقل الدعوة العلوية منذ أيام الامام الصادق وخلافة أبى جعفر المنصور ، ليتدرب على أساليب الدعاية الراقية . وكان كبير دعاة الامام محمد الحبيب فى ذلك الوقت هو ابن حوشب (أبو القاسم رستم بن الحسين بن فرج ج النجار ، الكوفى الأصل ، الذى كان مقيما فى عدن يلزم العبادة والزهد ، ويدعو لظهور

---

(٤١) الكامل ، سنة ٢٧٨ ، ج ٧ ص ١٧٨ .

(٤٢) انظر الهامش السابق .

(٤٣) الاستبصار ص ٢٠٣ .

(٤٤) انظر فيما سبق ، ص ٥٢٥ .

المهدى فى هذا الزمان (٤٥) . ولذلك تقول رواية ابن الاثير ان ابن حوشب هو الذى قال لابى عبد الله : ان أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلوانى وابو سفيان ، وقد ماتا وليس لها غيرك (٤٦) ، فكان كبير دعاة اليمن أو صاحب اليمن » (٤٧) هو الذى وجه أبا عبد الله الى المغرب ، وليس الامام — وهو الأمر المقبول بالنسبة لنظام الدعاية السرية المعقدة . والحقيقة انه كان على ابى عبد الله الشيعى ، بعد أن لزم ابن حوشب ، وشهد مجالسه وأفاد من علمه (٤٨) ان يبدأ بالمسير الى مكة أيام موسم الحج ليتصل بحاج كتامة هناك، ويعرف اخلاقهم ، ويطلع على مذاهبهم ، وذلك بعد أن زود بمبلغ كبير من المال (٤٩) .

اللقاء مع حاج كتامة فى مكة :

وهكذا ، وصل ابو عبد الله الشيعى الى مكة فى يوم من أيام موسم الحج سنة ٢٨٠ هـ/٨٩٤ م ، وبدأ البحث عن حاج المغرب الى أن اهتدى الى عدد من أعيان قبيلة كتامة يبلغون عشرة رجال ، ملتفين حول شيخ منهم (٥٠) . وكما فعل معه الامام فعل هو مع هؤلاء المغاربة فجاذبهم أطراف الحديث . وبفضل فصاحته وسحر بيانه ، فضلا عما كان يظهره من العبادة والنسك ، تمكن من سلب عقولهم(٥١) . وبطبيعة الحال سألهم عن بلادهم ،وعن مذهبهم، ولم يكن منهم الا أن اجابوه بصراحة عن صفة بلادهم ، وعن علاقتهم بأمير القيروان ومدى استقلالهم عنه (٥٢) .

---

(٤٥) انظر افتتاح الدعوة للقاضى النعمان ، ص ٥٩ — ٦٠ ، وقارن المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٤٠ ، هـ ٢ : حيث مقارنة اختلاف اسمه فيما بين ابن الأثير (سنة ٢٩٦ ، ج ٤ ص ١٢) والمقريزى ، بل وفيما بين خطط المقريزى (حيث الاسم ابو القاسم الحسن ابن فرج) واتعاظ الحنفا .

(٤٦) ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٤ ص ١٢ ، وقارن اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥٥ .

(٤٧) اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥١-٥٠ .

(٤٨) اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥٦ .

(٤٩) اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥٥ .

(٥٠) انظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٢ حيث النص على بعض أعيان وفد كتامة من الحجاج، ومنهم : ١ — موسى بن حريث (كبير بنى سكتان) ، ٢ — ابو القاسم الورفجومى (من أحلافهم) ، ٣ — مسعود بن عيسى بن ملال المسالتى ٤ — موسى بن تكاد .

(٥١) الاستبصار ، ص ٢٠٢ ، وقارن اتعاظ الحنفا ، ص ٥٥ .

(٥٢) قالوا : ماله علينا طاعة ، وبيننا وبينه عشرة أيام، وأن صناعتهم هى حمل السلاح — انظر اتعاظ الحنفا ، ص ٥٥ — ٥٦ :

وفيما يختص بمذهبهم أحس الداعي ان شيخهم يميل الى مذهب الاباضية النكار ، ومن هذه « الثلمة » دخل عليه ، وأخذ يستدرجهم في الحديث بفضل علمه وخبرته بالجدل والمناظرة (٥٣) ·

وتوثقت الصلة بين أبي عبد الله الشيعي وجماعة الحاج الكتاميين الى أن حان وقت عودتهم الى بلادهم ، فسألوه عن أمره وعن مقصده ، فأجابهم ، وهو يظهر الورع الشديد : أنه عراقي من رجال الدولة ، وأنه وجد أن خدمة السلطان ليست من أعمال البر ، وبعد التروي رأى ان كسب المال الحلال لا يأتي الا عن طريق تعليم القرآن للصبية ، فوهب نفسه لهذا العمل المبرور ، وأن أهل المعرفة نصحوه بالمسير الى مصر حيث يروج تعليم الصبيان (٥٤) ·

الرحلة الى المغرب :

ولم يكن من الغريب ان يصطحبه الكتاميون معهم الى مصر ، فهي في طريقهم ، وأثناء المسيرة صار يحدثهم في الدين ، ويستميلهم شيئا فشيئا الى مذهبه · ونجح فعلا في اكتساب محبتهم له ، واعتزازهم به حتى عرضوا عليه أن يواصل الطريق معهم الى بلادهم ليعلم صبيانهم · ورغم اعتذاره ببعد الشقة الا أنه لم يخيب رجاءهم تماما ، فأظهر أنه قد يسير معهم الى القيروان فقط ، اذا لم يجد بغيته في مصر ، وهذا ما فعله (٥٥) · وخلال أحاديثه معهم عرف

---

(٥٣) الاستبصار ، ص ٢٠٣ ، وقارن المقريزي (اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥٥) الذي يلخص افتتاح الدعوة للقاضي النعمان (ص ٦٣) · حيث يقول ان الداعي سمعهم يتحدثون بفضائل آل البيت ، فاستحسن ذلك منهم · والحقيقة ان القاضي النعمان ينص على ان رجلين من حاج كتامة ، وهما ، حريث الجيملي ، وموسى بن مكارمة ، كانا يذكران فضائل علي بن أبي طالب · وهكذا يسلسل القاضي النعمان الأحداث بحيث تظهر متكاملة مع ما سبقها من الحديث عن تمهيد أرض المغرب لدعوة الامام المهدي بمعرفة الحلواني وأبي سفيان ، فكأن دعوة الأخيرين في منتصف القرن الثاني الهجري (٨ م) كانت تمهيدا حقيقيا لدعاية أبي عبد الله الشيعي في أواخر القرن الثالث (٩ م) ، وكأن دعاية أبي عبد الله كانت استمرارا لدعوة الأولين ، رغم بعد الشقة ·

(٥٤) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٢٥ ، وقارن المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٥٦ ، افتتاح الدعوة للقاضي النعمان (ص ٦٥ – ٦٦) : حيث يقول ان كتامة كانوا يطلبون العلم فيستفتونهم في أمور دينهم ويتحاكمون اليهم فيما يكون بينهم ، ويعظمونهم فلا يخالفون لهم حكما ·

(٥٥) ابن عذاري ، ص ١٢٥ ·

منهم بعد بلادهم عن عاصمة الأغالبة ، وأن طاعتهم للقيروان طاعة شكلية ، وأنهم قوم معتزون بأنفسهم . يملكون السلاح والخيل ولا يرضون بالضيم(٥٦)٠ وفي القيروان أعادوا الالحاح عليه ولكنه أصر على أن يقيم بالعاصمة الأغلبية ، بعد أن وعدهم باللحاق بهم في بلادهم اذا لم يطب له المقام بها (٥٧) ٠

ولم يضيع أبو عبد الله وقته في القيروان سدى ، فأخذ يستقصي أخبار القبائل ويتعرف أحوالها ٠ وعندما تأكد من كثرة عدد كتامة ، وشدة شوكتها بين قبائل البربر ، وعدم استكانتها للسلطان ، قرر ان يبدأ العمل الايجابي٠ فلم يمض على فراق رفقائه الا وقت يسير حتى لحق بهم (٥٨) وذلك في منتصف ربيع الأول سنة ٢٨٠ هـ/٥ يونيه ٨٩٣ م (٥٩) ٠

ونزل أبو عبد الله على الشيخ الكتامي في المنطقة الجبلية التي عرفت حاليا بالقبائل الصغرى ، والتى تمتد بين سهل سطيف والبحر ، بين قسنطينة شرقا وبجاية غربا (٦٠) ٠ ومع أن المعروف ان ابا عبد الله نزل في قرية من قرى الجبال التى تعرف بايكجان (٦١) ، والتي سميت بها القرية ، كما تسب اليها أبو عبد الله الداعي فعرف عند بعض الكتاب بالايكجاني ، كما سبق ،

---

(٥٦) افتتاح الدعوة للقاضي النعمان ، ص ٦٤ — ٦٦ ، وما سبق ، ص ٥٤٧ وص ٥٤ ٠

(٥٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٥ ، وقارن رواية القاضي النعمان (افتتاح الدعوة ، ص ٦٨) : حيث تقول ان طريق الجماعة الى بلدتهم لم يكن على القيروان بل على قسطيلية من بلاد الجريد) وانهم نزلوا في موضع يعرف بسوجمار من ارض سماتة حيث يقيم ثلاثة رجال من الشيعة ، هم . ابن المفتش وابو القاسم الورفجومي ، وأبو عبد الله الاندلسي ، وعند الاخير كان نزول أبي عبد الله - وهذا ما أخذ به ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٢ (حيث الاشارة الى العدول عن طريق القيروان ، والوصول الى بلد سوماتة حيث كان محمد بن حمدون ابن سماك الاندلسي ، وكان قد ادرك الحلواني وأخذ عنه ، وان ابن حمدون سار معهم الى بلد كتامة) ٠

(٥٨) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٨ ٠

(٥٩) افتتاح الدعوة ، ص ٧١ ، وانظر ابن الاثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٢ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٢ (حيث الوصول الى كتامة في سنة ٢٨٨ هـ) ، الاستبصار ، ص ٢٠٣ ٠ ورواية ابن الاثير ، مثل غيرها ، تقول انه وصل الى ارض كتامة برفقة جماعة الحجاج - ولقد رأينا الاخذ برواية الوراق التي ينقلها ابن عذاري - لما يظهر فيها من الاحتياط في التصرف مما يمكن ان يختفي عيون الدولة الذ كانوا يتتبعونه ، وهو الأمر الذى كان يحذقه دعاة مثل هذه الدعوة السرية ٠

(٦٠) انظر مارسيه ، بلاد البربر الاسلامية ٠٠٠٠ ، ص ١٢٣ ٠

(٦١) افتتاح الدعوة ، ص ٧٣ ٠

فاننا نميل الى الأخذ برواية صاحب الاستبصار التي تقول ان الداعي نزل على الشيخ الكتامي في حبل زلدوى (٦٢) . ولا باس أن يكون جبل زلدوى واحداً من سلسلة جبال عقبية ايكجان الكبيرة ، التي عرفت بأنها موطن كتامة الصعب المنال ، والتي تمتد عمارتها من حدود جبل أوراس جنوبا حتى سيف البحر ما بين بجاية وبونة شمالا ، كما تمتد شرقا حتى القيروان وغربا حتى المسيلة (٦٣) . هذا ، ولا باس أيضا أن يكون في جبل زلدوى هذا ، الموضع الذي عرفه كتاب الشيعة بفج الأخيار : حيث تقيم جماعة بني سكتان الكتامية التي استضافت الداعي (٦٤) ، وبذلك يكون فج الأخيار هو نفس قرية ايكجان .

واتخذ أبو عبد الله مجلسه في مسجد القرية مكرسا وقته للعبادة واعمال الورع الى جانب تعليم الصبيان ، ومن هنا عرف بالمعلم . وفيما بين هذا وذاك كان يلقن سكان المنطقة من البربر تعاليم مذهبه ، ويكشف لهم شيئا فشيئا عن الامام المهدي المنتظر ، صاحب الدعوة ، وأن زمانه قد آن (٦٥) ، وذلك حسب الأصول الفنية التي كان يعرفها الدعاة ، والتي كان قد تدرب عليها في اليمن ، وذلك ابتداء بالحديث في ظاهر فضائل علي بن ابي طالب (٦٦) ، وانتهاء بذكر المهدي وما يمكن أن يدور حوله على السنة ابناء الشعب من الكرامات ، مثل : احياء الموتى ورد الشمس من مغربها (٦٧) .

بدء العمل الايجابي :

وكان من الطبيعي ان يبدأ أبو عبد الله بدعوة الشيخ رئيس الجماعة . فبعد أن اطمأن اليه تماما كشف له ذات يوم عن حقيقة أمره ، فقال له — بعد أن صب في حجره ٥٠٠ (خمسمائة) دينار : « لست بمعلم الصبيان ... انما نحن أنصار أهل البيت ، وقد جاءت الرواية فيكم يا أهل كتامة انكم

---

(٦٢) الاستبصار ، ص ٢٠٣ .

(٦٣) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ٥٧ وهامش ٤ لمحققة (النص وداد القاضي .

(٦٤) افتتاح الدعوة ، ص ٧١ — ٧٣ : حيث يقول القاضي النعمان ان أبا عبد الله نزل هناك بصحبة أبي عبد الله الأندلسي وابي القاسم الورفجومي ، وأنه وعد الناس ، والذين تشاحنوا من أجل نزوله عندهم ، بزيارة كل قوم في بيوتهم — وانظر هامش ٤ ص ٧٢ ، حيث الاشارة الى ان اسم الجماعة في كامل ابن الأثير هو بنو سليمان .

(٦٥) الاستبصار ، ص ٢٠٣ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٦٦) افتتاح الدعوة ، ص ٧٣ .

(٦٧) أنظر ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ .

انصارنا ، والمقيمون لدولتنا ، وأن الله يظهر بكم دينه ، ويعزبكم أهل البيت ، وأنه سيكون امام منهم أنتم أنصاره ، والباذلون مهجهم دونه ... » (٦٨) . ورد عليه الشيخ قائلا : « أنا أرغب فيما رغبتني فيه ، وابذل فيه مهجتي ومالي ، أنا ومن اتبعني ، وأنا أطوع لك من يدك ، فمر بما شئت أمتثله .. » (٦٩) .

شخصية الزعيم الكتامي :

واذا كانت رواية ابن عذارى الملخصة لم تكشف عن شخصية الشيخ الكتامي ، فان رواية القاضي النعمان في افتتاح الدعوة ، بتفصيلاتها المسهبة في ذكر الأشخاص والقبائل ، لم تحدد لنا هي الأخرى اسم الشيخ ، وبالتالي ظل التعرف عليه من الصعوبة بمكان (٧٠) .

والذي يلفت نظرنا في قائمة القاضي النعمان للزعماء الذين دخلوا في الدعوة ثلاثة رجال ، هم : هرون بن يونس بن موسى المسالتي ، والحسن بن هرون الغشمي ـ من غشمان تازروت ـ وأبو يوسف ماكنون بن ضبارة الأجاني (عم أبي زاكي تمام بن معارك) (٧١) . فهرون بن يونس المسالتي كان يحمل لقب « شيخ المشايخ » (٧٢) ، والحسن بن هرون الغشمي هو الذي دعا أبا عبدالله الى المسير الى بلدته « تازروت » عندما تأزمت الأمور في منزله الأول ، في جبل زلدوي . فعظم شأنه (٧٣) ، كما يأتي . وبذلك يمكن الظن أن أيا من الرجلين يمكن أن يكون هو الشيخ الذي ناصر أبا عبد الله ، بصرف النظر عما تقوله الرواية من أنهما كانا من الوافدين على أبي عبد الله مما يفهم منه أنهما لم يكونا ضمن جماعة الحاج الكتامي . واذا كان الحسن بن هرون قد عظم شأنه في مقر أبي عبد الله الثاني « تازروت » فانه مما يرجح أن يكون هو الشيخ المقصود ، ما تذكره الرواية من أن أخاه الأكبر محمود « وجد في نفسه من عظم شأنه » ، وأنه كاد يشترك في مؤامرة للقبائل على الداعي ، وان الرئاسة خلصت للحسن بعد مقتل أخيه محمود في الحرب الى جانب أبي عبد الله (٧٤) . وهي الرواية

---

(٦٨) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٦٩) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٧٠) انظر افتتاح الدعوة ، ص ٧٤ ـ ٧٦ .

(٧١) افتتاح الدعوة ٧٣ ـ ٧٤ .

(٧٢) نفس المصدر ، ص ٧٤ .

(٧٣) نفس المصدر ، ص ١٠١ .

(٧٤) نفس المصدر ، ص ١٠٢ ـ ١٠٦ . والحقيقة ان افتتاح الدعوة يذكر أنه عندما احتدمت الحرب بين بني غشمان قبيلة الحسن وبني لهيصة بقيادة زعيمها البطسلي مهدي ـ

التي تكاد تشبه ما يقوله ابن عذاري من أن الشيخ الكتامي لم يتردد في قتل اخيه عندما وقف ضد الداعي (٧٥) ٠

يبقى بعد ذلك من الزعماء الثلاثة : أبو يوسف ماكنون بن ضبارةالأجاني ٠ والذى يجعلنا نفكر في أنه ربما كان الشيخ المطلوب ثلاثة أشياء : اولها ، أنه عم أبي زاكي تمام بن معارك الذى تقرب قربا شديدا من أبي عبد الله لخفته ونباهته وحرصه على الخدمة (٧٦) ، والذى صار نائبا للداعي في رقادة عندما سار لاستنقاذ الامام في سجلماسة (٧٧) ٠ أما الشيء الثاني فهو أن ماكنون صار رئيس جماعة المؤمنين في تازروت بعد أن صارت دار الهجرة(٧٨)٠ أما ثالثها الذى نريد أن نرجح به أن يكون ماكنون هو الشيخ المقصود فهو لقبه « الاجاني » نسبة الى قبائل آجانة التي ينتسب اليها ٠ فنحن نريد أن نقترح أن تكون كلمة « الاجاني » هي نفس كلمة الايكجاني مكتوبة مشكل محور ، وهو الأمر المقبول ٠ واذا صح ذلك فان جبال ايكجان (او اجان) تكون نسبة الى سكانها قبائل اجانة ، ويكون احتمال أن يكون أبو يوسف ماكنون الاجاني عم أبي زاكي هو « الشيخ الكتامي » أرجح الاحتمالات ٠ واذا كان « ايكجان » هو اسم القبائل ، فان ذلك يمكن أن يكون تفسيرا لما تقدمه الروايات من أن الداعي نزل في جبل « زلدوى » أو في « فج الأخيار » أو بشكل عام في ايكجان (اجان) ، وبذلك يمكن فهم ما يقوله القاضي النعمان من أن دار هجرة أبي عبد الله كانت «تازروت» التي انتقل اليها من ايكجان(٧٩) كما يلي ٠

ـه ابن ابي كناوة ، بعد انتقال ابي عبد الله الى تازروت ، قرر اخوه ابو مدين قتله غيلة ، مما ـو الى التفكير ، في ان يكون أبو مدين اللهيصي هو شيخنا المقصود ، لولا انه لا يذكر بين لين ٠ وانظر ابن خلدون، ج ٤ ص ٣٢ (حيث تلخيص رواية النعمان ، وفيهـا ان عبد الله الشيعي ولى الحسن بن هرون على حروبه ، وظهر (الداعي) بعد ان كان مختفيا ، ـظهر الى جانب محمود اخي الحسن صديقه مهدى بن أبي كناوة الذى كان معارضا للداعي ـتى قتله أخوه أبو مدين وتزعم قبيلة لهيصة) ٠

(٧٥) أنظر فيما بعد ، ص ٥٥٥ ره ٨٧ ٠

(٧٦) افتتاح الدعوة ، ص ٧٤ ٠

(٧٧) انظر فيما بعد ، ص ٥٩٤ ٠

(٧٨) افتتاح الدعوة ، ص ١١٧ ٠

(٧٩) افتتاح الدعوة ، ص ١١٧ ٠

تنظيم الدعوة في كتامة :

دعوة سرية ، وان كان هدفها الأمر بالمعروف :

والمهم ان الشيخ الكتامي كان له اثره في دخول أتباعه فيما كان يدعو اليه ابو عبد الله . كما كان للداعي أثره هو الآخر في زيادة هيبة الشيخ الذي رواه بفضل حسن تنظيم « الأولياء » الذين كانوا يزدادون عددا مع مرور الوقت . وفي ذلك يقول القاضي النعمان ان الدعوة كانت سرية ، فكان الرجل منهم اذا سئل عن الأمر الذي دخل فيه قال : « أبلع توقن » ، و « وكانت كلمة علمهم اياها أبو عبد الله » .

الاخوان والمشارقة :

أما عن سبب نجاح الدعوة ، فيقول : ان أبا عبد الله جعلهم يقبلون على الصلاة والصيام وأعمال الخير وأفعال البر وتجنب المعاصي ، فأقبلوا اليه من كل جهة . وسمى الداعي اتباعه بـ « الاخوان » ، فكان الواحد منهم ينادي الآخر « يا أخانا » . أما عن اسم « المشرقي » الذي عرف به الداعي ، واسم « المشارقة » الذي عرف به « اخوانه » ، فان الذين أطلقوه ، كما نرى ، هم خصوم الدعوة من كتامة (٨٠) . ويصف النعمان هؤلاء الخصوم بأنهم : مَن لم يطاوعه نفسه على ترك المعاصي فنسبوا الى « الأولياء » الكفر والخروج عن الملة ، وقالوا : « لو كان هذا الأمر فيه خير ما ستر ، وما هو الا خلاف دين الاسلام » (٨١) .

الخلاف بين قبائل كتامة :

وهكذا كان النجاح الذي تحققه الدعوة السرية للمهدي ، والتزام الداخلين فيها بالطاعة الصارمة لأبي عبد الله والشيخ الكتامي ، سببا في اثارة خلافات خطيرة في قبائل المنطقة ، من : كتامة وغيرها (٨٢) .

---

(٨٠) افتتاح الدعوة ص ٧٦ ، ٩٣ ، ص ٩٨ حيث قال بعض خصوم أبي عبد الله عندما عرض عليه مناظرته هذا رجل من أهل الشرق وهم كما علمت شياطين ، وعلماؤنا برابر وقوم ليست لهم تلك الأذهان ، وان ناظروه ظهر عليهم .

(٨١) افتتاح الدعوة ، ص ٧٧ .

(٨٢) انظر ابن الأثير الكامل سنة ٢٩٦ ج ٨ ص ٣٢ - ٣٤ : حيث ينقل مقالة خصوم الفاطميين من ان أبا عبد الله صنع من الحيل والمكيدات والمخرقيات ما أذهل عقولهم ، وأمالهم الى ... وان الأمر انتهى بتفرق كلمة البربر وكتامة بسببه ، كما كان يذكر لهم كرامات

تحريض ولاة الأغالبة :

ويضيف القاضي النعمان الى أسباب الخلاف في كتامة تآمر ابراهيم ابن أحمد الأغلبي ، الذي حاول ، بعد أن فشل في ضربهم بقواته ، أن يضربهم بغيرهم من كتامة فلم يتجح (٨٣) ، مما جرأ الداعي على ابراهيم ، فقال لرسوله : « ما أنا ممن يروع بالوعد والوعيد ... الى في أنصار الدين وحماة المؤمنين » (٨٤) .

وتقدم رسالة افتتاح الدعوة معلومات تفصيلية مذهلة عن الخلافات التي قامت بين القبائل بسبب دعوة أبي عبد الله ، وهي المعلومات التي نجد أصداءها في كتب المتأخرين بعد أن مسخ النساخ الكثير منها . فمن أهم الخلافات التي قامت بين قبائل ايكجان : تلك الانتفاضة التي قام بها عدد كبير منها ضد أبي عبد الله ، وذلك بتحريض من أمراء : ميلة (ورئيسها موسى بن عياش) ، وسطيف (ورئيسها علي بن عسلوجة) ، وبلزمة (ورئيسها حي بن تميم) . فلقد شاركت فيها قبائل : كتامة (بقيادة فتح بن يحيى المسالتي) ، ولهيصة (بقيادة مهدي بن أبي كناوة) ، واجانة (بقيادة فرج بن جيران) ، ولطاية (بقيادة أبي تميم فحل بن نوح) ، ومتوسة (بقيادة زيادة المتوسي) ، ولقد كتب زعماء القبائل هؤلاء الى الزعيم الكتامي بيان بن صقلان يقولون أنه من أجل هذا الرجل (أبي عبد الله) : عادى الأخ أخاه والابن أباه والقريب قريبه . ولكن بيان — الذي لم يكن قد دخل في الدعوة — رفض تسليم الضيف الذي حماه أصحابه من بني سكتان بالسلاح ، رغم ما تقوله الرواية من أن الداعي كان قد استخفى عندما استشعر الخطر المحدق بشخصه (٨٥) .

ولا بأس أن يكون استخفاء أبي عبد الله هذا في « تازروت » . اذ يقول

= المهدي من احياء الموتى ، ورد الشمس من مغربها ، كما سبق . وقارن ابن عذارى (ج ١ ص ١٣٧) : حيث يشير الى موافقة الشيعي على الغاء صلاة التراويح في رمضان ، مما كان له رد فعل عنيف بين أهل الموضع .

(٨٣) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ٧٨ .

(٨٤) افتتاح الدعوة ، ص ٨٠ — ٨١ .

(٨٥) افتتاح الدعوة ، ص ٩٤ — ٩٨ . وانظر ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ، ص ١٣ : حيث يشير الى انه عندما اختلفت القبائل اراد بعضهم قتل أبي عبد الله الشيعي . وقارن ابن خلدون [illegible] ص ٣٢ ، ص ٣٣) حيث الاشارة الى [illegible] أبا عبد الله الداعي كان لاجئا [illegible] [illegible] [illegible] الى [illegible] [illegible] على مظاهرته [illegible] هؤلاء [illegible] عليه [illegible] .

القاضي النعمان ان أبا عبد الله ترك فج الاخيار أو ايكجان في جبل زلدوى ، بعد انتفاضة القبائل تلك ، وسار الى تازروت حيث دعاه شيخ الموضع ،الحسن ابن هرون العشمي الذى صارت اليه الرئاسة هناك (٨٦)· ولا بأس في ان تكون تازروت قد حلت محل فج الاخيار أو ايكجان ، كما يقول القاضي النعمان، بعد مؤامرة ثانية تزعمتها قبيلة لهيصة بقيادة مهدى بن كناوة الذى تمادى في عدائه لأبي عبد الله حتى أن أخاه أبا مدين دبر قتله غيلة وشارك في ذلك (٨٧) ، ثم حرب ثالثة مع مزاتة بقيادة يوسف الغاطشي وتحـــــريض الامير ابراهيم بن أحمد ، انتهت بتحالف القبائل بقيادة مزاتة (٨٨) · عندئذ قرر أبو عبد الله العودة بـ « أوليائه » الى تازروت حيث نجح في الانتصار على خصومه في حرب رابعة وأخيرة (٨٩) · هكذا تطلب الأمر (٧) سبع سنوات من العمل الجاد والكفاح الصعب · انتهت عند موت الشيخ سنة٢٨٧هـ ٩٠٠ م بخضوع سكان المنطقة بالترغيب حينا وبالترهيب أحيانا (٩٠) ·

تمدين تازروت واتخاذها (دار هجرة) :

تحقق الهدف اذن ، ودانت كتامة بمختلف قبائلها بالطاعة لأبيعبد الله الشيعي ، كما دخلت في دعوته قبائل كثيرة من أهل منطقة بجاية ، فقرر أن ينشيء « دار هجرة » للمهدى — شبها بما فعله النبي بالمدينة — وقرر أن يكون معسكره بتازروت « دار هجرة » ، حسبما يقرر القاضي النعمان في روايته بتفصيلاتها المسهبة (٩١) ·

واذا كان ابن الأثير يجعل دار الهجرة في ايكجان (٩٢) ، فالحقيقة أن رواية افتتاح الدعوة لا تخالف ذلك اذ تقرر أن ايكجان كانت معسكرا لأبي

---

(٨٦) انظر فيما سبق ، ص ٥٥١ ·
(٨٧) انظر فيما سبق ، ص ٥٥٤ ·
(٨٨) افتتاح الدعوة ، ص ١٠٨ — ١٠٩ ·
(٨٩) افتتاح الدعوة ، ص ١٠٨ — ١٠٩ ·
(٩٠) انظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٨ ، وقارن افتتاح الدعوة ، ص ١١٧ ·
(٩١) انظر افتتاح الدعوة ص ١١٧ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ (الذى ينقل من القاضي النعمان في افتتاح الدعوة ، ولكن كلمة تازروت تحورت الى ناصرون ، كما يشير الى رئاسة الحسن بن هرون) ·
(٩٢) المكتوبة في شكل « الكجان » (سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٣ ؛ ١٧) ، وقارن ابن حماد (أخبار ملوك بن عبيد ، ص ٧) الذى يحملها في شكل الكجان ، هـ ٢ حيث يصححها المحقق الى « يكجان » ·

عبدالله يحتفظ فيه بالذخائر والأموال منذ قدومه الى بلد كتامة ، بل ان ايكجان ستعود مرة ثانية قاعدة لأبي عبد الله عندما يتضح له أن تازروت أقل حصانة منها(٩٣) • وبذلك ستكون ايكجان حاضرة الدعوة . ليس الى دخول أبي عبدالله رقادة ، بل وحتى وصول المهدي الى عاصمة الأغالبة(٩٤) •

ولما كان أبو عبد الله قد استقر في تازروت قبل ذلك بوقت غير قصير حيث استقبله أهلها من بني غشمان ، كما استقبلوا من كان معه من بني سكتان من أهل ايكجان بالترحاب ، فقاسموهم أموالهم وأحلوهم محلهم (٩٥) ، تماماً كما فعل المهاجرون بالانصار ، فان المقصود باتخاذها « دار هجرة » هـو الاستقرار المدني فيها بانشاء المباني ، بمعنى اتخاذها حاضرة أو عاصمة لأبي عبد الله • وتحقق له ذلك بعد الحرب الرابعة ضد تحالف القبائل بزعامة مزاتة مع أهل مدينتي ميلة وسطيف وعساكرهما • فلقد تمكن أبو عبد الله ، الذي صار يباشر الحرب بنفسه منذ الحرب الثانية ، ومعه ٧٠٠ (سبعمائة) فارس و ٢٠٠٠ (ألفا) راجل من ملاقاة أعدائه على التوالي خلال أربعة أيام ، بداها بالعصاة من كتامة ، وثنى فيها بعسكر سطيف الأغلبي ، وختمها بتشتيت مزاتة والاستيلاء على مخيمهم (فيطونهم) وجميع أموالهم (٩٦) —

مغانم الحرب هي مادة تحضير دار الهجرة في تازروت :

والمهم أن أبا عبد الله ورجاله خرجوا من تلك الحرب بمغانم هائلة •وفي ذلك يقول القاضي النعمان : انهم « غنموا من الخيل ما لا يحصى عدده) ، وانهم (أصابوا من أموال أهل المدائن ، من السروج واللجم المحلاة والخيل والفتائم ، والخلع والأموال ، والسلاح والبنود والطبول ، ما لا يحصى عدده كثرة)(٩٧) • وكان ذلك الغنى هو سبيل الجماعة الى الاستقرار في تازروت

---

(٩٣) افتتاح الدعوة ، ص ١٣٨ — ١٣٩ •

(٩٤) افتتاح الدعوة ، ص ٢٤٦ •

(٩٥) افتتاح الدعوة ، ص ١٠٠ — ١٠١ •

(٩٦) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ١١٢ — ١١٦ ؛ حيث يذكر انه كان من أبطال تلك الحرب [illegible] ([illegible] ؟) بن يوسف الذي ابلى بلاءا حسنا ، وجرح جرحا انقطع منه صوته •• (وقارن ابن [illegible] ص ٣٣) •

(٩٧) افتتاح الدعوة ، ص ١١٦ — ١١٧ ؛ حيث يضيف الى ذلك بأن ما أخذ من مزاتة من الماشية كان من الكثرة بحيث « بيعت الجمال بوعشرين بعيرا بدينار ، وبيع الجمل بجنس بصلات • أما الغنم والأمتعة فما أطاقوا حملها ، ولا كيف يسوقون الغنائم • وآله صار الى « الأولياء » من الغنم والأموال ما لا يحصى عدده » •

وتحضيرها .

فبعد العودة الى تازروت بدأ أبو عبد الله في بناء قصر اتخذه مسكناً لنفسه ، وأقطع الأرض حوله وأعطاها لقواده ليبنوا دورا لهم . ولقد ازداد عمران المدينة بمن ارتحل اليها من أهل الدعوة الذين وفدوا من كل ناحية ، حسنوا الدور واتخذوا تازروت موطنا (٩٨) ، حيث أصبحت عاصمة الدعوة ، وحلت محل القاعدة الأولى ايكجان التي لم تفقد أهميتها .

تنظيم اهل الدعوة :

طبقات المؤمنين :

وشكل أبو عبد الله أتباعه في هيئة جند نظامي : فالزمهم العسكرية ، وسماهم « المؤمنين » بعد أن كانوا اخوانا ، وآلت رئاستهم الى أبي يوسف ماكنون بن ضبارة الاجاني (٩٩) . وكان « المؤمنون » مقسمين الى طبقات بعضها فوق بعض ، فالمعروف أن الداخلين في الدعوة كان منهم : من أراد وجه الله ، ومن أراد الدين والدنيا ، ومن أراد الفخر والشرف ، ومن أراد الكسب والفائدة ، ومن أراد الحسد والمنافسة ، وأخيرا من دخل في الدعوة خوفا ورهبة (١٠٠) . ورغم اختلاف طبقات المؤمنين فقد ألزمهم أبو عبد الله جميعا باتباع مبادىء الاسلام ، وكان صارما في جعل الدين الأساس الذي بنى عليه امره ، فأثاب الملتزمين وعاقب المخالفين ، فأنزل بهم العقوبات الشديدة . وكانت عقوبة المخالف هي الاقصاء عن الجماعة والبعد حتى يخلص التوبة (١٠١) .

وقسم الداعي قبائل كتامة سبعة اقسام ، وجعل لكل سبع منها عسكرا قدم عليه مقدما (١٠٢) ، كما وزع الدعاة على مختلف الأقاليم فجعل لكل

---

(٩٨) افتتاح الدعوة ، ص ١١٧ .

(٩٩) افتتاح الدعوة ، ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣ (حيث كانت الرئاسة لماكنون ولي حماسه أبو زاكي تمام بن معارك) .

(١٠٠) افتتاح الدعوة ، ص ١٢٣ .

(١٠١) افتتاح الدعوة ، ص ١٢٤ .

(١٠٢) افتتاح الدعوة ، ص ١٢٧ — ٧٠ ولا بأس أن يكون ذلك التقسيم السباعي متفقا مع التقاليد الاسماعيلية التي تجعل للرقم سبعة معنى مقدسا ، اذ كان الامام اسماعيل هو السابع مما جعل الشيعة يطلق عليهم اسم السبعية ، كما أن أهل المعرفة عندهم ينقسمون الى سبع طبقات وغير ذلك من أفكارهم التي يدخل فيها الرقم سبعة ، انظر عن ماسيه ، الاسلام ، بالفرنسية ، ص ١٥٨ — ١٥٩ .

موضع داعيا ، وكان اختياره لمقدمي العساكر التي نظمت في سبعة جيوش ودعاة المواضع الذين أطلق عليهم اسم « المشايخ » مبنيا على الاخلاص في خدمة الدعوة ، دون نظر الى مسألة السن التي كان لها اعتبارها في القبائل ، فقد كان بين المشايخ من لم يبلغ السن من الشباب (١٠٣) .

تنظيم الجيوش وشعاراتها :

وجعل أبو عبد الله لكل جيش من جيوشه السبعة ديوانا أي بيت مال للحرب تأتيه الأموال التي ينفق منها على الجيوش عن طريق المغانم والزكاة ، وبذلك حمل الأموال بين أيدي المشايخ ، وظل الحال على هذا المنوال الى أن قدم المهدي فدفعوها اليه (١٠٤) . وهكذا أصبح لأبي عبد الله جيوش نظامية يدبر أمرها كرئيس دولة ، ويسيرها الى الحرب كقائد أعلى . بعد أن يكتفي بضرب موعد اللقاء مع شيوخ القبائل ، ويحذرهم من التخلف . وفي ذلك تقول النصوص انه كان يأمر مناديه فيصرخ فيهم : « حرام على من تخلف » (١٠٥) . وأصبح الداعي عندما يقود جيوشه للحرب ، ينادي مناديه في الرجال : « ياخيل الله اركبوا » ، كما اتخذ لقواته شعارات تتناسب مع دعوته الدينية ، فكتب على أفخاذ الخيل « الملك لله » ، وكتب في بنوده : « سيهزم الجميع ويولون الأدبار » ، وآيات كثيرة من القرآن . ونقش في خاتمه الذي يتختم به : فتوكل على الله انك على الحق المبين » ، وفي خاتمه الذي يختم به على السجلات : « وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » (١٠٦) وهي تقريبا نفس الشعارات التي سيحافظ عليها عندما يدخل عاصمة الأغالبة (١٠٧) .

اخضاع القبائل :

بفضل هذه التراتيب العسكرية والحماسة الدينية أخضع أبو عبد الله

---

(١٠٣) افتتاح الدعوة ص ١٢٧ — وفي اختيار ابي عبد الله لثقاته هؤلاء يقول القاضي النعمان : انه كان يمتحنهم بالمحن الكثيرة ، كالاسفار البعيدة سرا ، ومعهم الأموال الكثيرة في ثياب الفقراء والحجيج (ص ١٢٨) . هذا ، كما يسمي النعمان عددا من المخلصين للدعوة ، رجالا ونساء ممن بذلوا جهدهم وبذلوا اموالهم لخدمة الدعوة وأوليائها . في الحروب والسلام (ص ١٢٨ — ١٣٣) .

(١٠٤) انظر افتتاح الدعوة . ص ١٢٨ .

(١٠٥) انظر فيما سبق ، ص ١٦٨ وهـ ٥٤٩ .

(١٠٦) ابن حماد [illegible] ص ٧ — ٨ .

(١٠٧) انظر [illegible] ص ٣٨٤

البقايا الباقية من القبائل ، فشن الغارات على من عند – نقل يوم الا ولهم في وقعة بموضع – حتى سلم أكثر الناس اليهم ، ودخلوا في الدعوة رغبة ورهبة (١٠٨) • وتطلبت هذه العمليات الحربية مدة سنتين (الى سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م) ظهر في نهايتها دعاة أبي عبد الله في كل ناحية ، وغلب أمره على كل كتامة ، ولم يبق أمامه غير مدائن المنطقة ، ومن فيها من أمراء الأغالبة (١٠٩) •

الصراع مع الأغالبة :

وهكذا ، بعد أن أصبح ابو عبد الله السيد المطلق على منطقة القبائل الصغرى الحالية ، خرج من دار الهجرة بايكجان على رأس « المؤمنين الجدد » ليطأ افريقية ، كما يقول ابن حماد ، ويملكها عنوة (١١) ، حسبما رأينا في السنوات الاخيرة من حكم الاغالبة ، وخاصة منذ اعتزال ابراهيم بن أحمد الملك سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠١ م •

اخذ ميلة لأول مرة :

حتى نفس تلك السنة وبعد اعتزال ابراهيم مباشرة نجح أبو عبد الله في الاستيلاء على مدينة ميلة التي كانت ملجأ لخصومه من الزعماء الكتاميين ، مثل : فحل بن نوح ، وفرج بن حيران ، ويوسف بن محمد – وتم للداعي الانتصار على والي المدينة موسى بن عياش وحلفائه هؤلاء ، بفضل مخامرة جماعة عرب

---

(١٠٨) فلقد تمكن صبيح (جيش) اجانة بقيادة ماكنون بن ضبارة من اخضاع جميع قبائل : عشمان تازروت ، وملوسة ، ولهيصة ، ولطاية ، ومسالتة ، وعجيسة ، وزواوة • اما زعماء القبائل الذين انفوا من الخضوع فقد غادروا المنطقة ، مثل : فرج بن حيران الذي سار مع عدد من رؤساء اجانة الى ميلة ، وكذلك فحل بن نوح في جماعة لطاية • وغادر أيضا جماعة بني عقنيت لانهم كانوا يذهبون الى مذهب الإباضية ، كما غادر من مسالتة الاية الذين كرهوا امر ابي عبد الله • اما فتح بن يحيى الزعيم المسالتي – الذي كان تزعمهم – فقد سار الى ناحية سطيف ثم عاد وطلب الأمان ، ولكنه بسبب المنافسة مع هرون بن يونس ، عاد واعتصم ببعض قلاع عجيسة حيث حاصره أبو عبد الله ثم انه لحق بافريقية ، فقدم على ابن العباس ابن ابراهيم بن أحمد بتونس ، وهرب هناك من شأن الداعي • انظر افتتاح الدعوة ، ص ١١٧ – ١٢٣ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٣٣ – ٣٤ (حيث يجعل لجوء فتح بن يحيى الى الامير ابراهيم بن أحمد ، ولكن قبل ذلك بينما ينص على أن ابراهيم بن موسى بن عياش ، ابن صاحب ميلة الذي قتله الداعي ، هو الذي لحق بابي العباس بتونس بعد خروج أبيه الى صقلية) •

(١٠٩) افتتاح الدعوة ، ص ١٢١ – ١٢٢ •

(١١٠) أخبار ملوك بني عبيد ، ص ٨ •

السناجرة (نسبة الى سنجار) المربعيين الذين كانوا من وجوه أهل ميلة ، ورئيسهم حسن بن أحمد الذى كان قد راسل ابا عبد الله وسار اليه فى تازروت · وبعد أن اطمأن ابو عبد الله على أحوال المدينة التى كان قد زارها فى أول مرة وهو يعانى من الحصاة ، فاستشفى بحمامها الذى كان تولى موسى بن عياش غادرها بعد أن عهد بولايتها الى أبى يوسف مكنون بن ضبارة الاجانى (١١١) ·

استعادة ميلة وتخريب تازروت :

وكان رد أبى العباس بن ابراهيم على مغامرة أبى عبد الله فى ميلة عنيفا ، اذ سير ابنه محمد الشهير بالأحول وبأبى حوال – رغم سوء الاحوال الجوية – على رأس جيش مكون من ١٢ (اثنى عشر) ألف رجل ما بين فارس وراجل · وكان خروج محمد الأحول من مدينة تونس وبصحبته الزعيم المسالتى فتح بن يحيى ، خصم ابى عبد الله الداعى ، وأبو ابراهيم بن موسى بن عياش ، الذى كان قد خرج من ميلة أثناء الحصار طلبا للمعونة ، فى ذى القعدة من سنة ٢٨٩ هـ/أكتوبر ٩٠٢م · وسار الجيش الأغلبى فى هيئة الحرب مخترقا بلاد الزاب ، مارا بسطيف ، وبلزمة وباغاية ، حيث تضخمت قواته · وأخيرا تم اللقاء بأبى عبد الله وأصحابه فى بلد ملوسة ، وانتهى القتال الشديد بانهزام أبى عبد الله وأصحابه . وتبعهم الأحول وهزمهم مرة ثانية ، فلم ينجيهم منه الا الثلج العظيم الذى جاء فحال بين الفريقين · وعاد الداعى الى قاعدته فى تازروت ، ولكنه لم يستقر فيها طويلا اذ لما عرف أن القوات الأغلبية تتبع أثره غادرها لعدم حصانتها ، وعاد الى قاعدته الأولى فى ايكجان (١١٢) ·

وعندما تحسنت الأحوال الجوية سار الأحول فعلا الى تازروت فوجدها خاوية فأحرقها وأحرق القصر الذى كان قد بناه أبو عبد الله ثم انه عرج على ميلة ، التى وجدها خالية هى الأخرى بعد أن جلا عنها أصحاب الداعى (١١٣) · والظاهر أن الأحول اكتفى بذلك النجاح الذى حققه فعاد الى تونس رغم ما يقوله

---

(١١١) انظر افتتاح الدعوة ص ١٣٤ – ١٣٦ حيث تفصيلات القتال الذى انتهى بمقتل موسى بن عياش وكذلك زعماء كتامة المذكورين · وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٣ ·

(١١٢) افتتاح الدعوة ، ص ١٢٢ – ١٣٨ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ · وعن أبى حوال انظر ما سبق ، ص ١٥٧ والهامش ٨ ·

(١١٣) افتتاح الدعوة ١٣٨ – ١٣٩ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ (الذى يجعل ذلك على عهد ابراهيم بن أحمد) ، وابن خلدون ج ٤ ص ٣٢ ·

القاضي النعمان من أنه كان ينوي متابعة أبي عبد الله في ايكجان ، لولا تورط بعض رجاله ، وهو ابراهيم بن موسى بن عياش ، في قتال غير موفق مع قبيلة لطاية قرب ميلة مما اضطره الى الرحيل (١١٤) .

ايكجان تستعيد مركزها كدار هجرة :

بعد الهزيمة أمام الأجول التي انتهت بانتهاك الجند الاغلبي لحرمة تازروت واجرائها رأى أبو عبد الله أن يستقر من جديد في ايكجان بجبل زلدوي الحصين ، وكان الحاج يلي سكتان في أن يبقى بين اظهرهم مما جعله يتخذ هذا القرار . وكان من الطبيعي أن يقوم أبو عبد الله ببناء قصر لمسكنه ، كما ابتنى كبار أصحابه بالقرب منه ، وأتى اتباعه في أعداد وفيرة لكي يقيموا حوله في القرية الجبلية التي صارت « دار هجرة » أي حاضرة لأهل الدعوة (١١٥) .

عود الى اعداد « المؤمنين » معنويا ، وعناية بجهاز الأخبار :

والظاهر أن الهزيمة المؤلمة أمام جند الأجول التي لم يحل دون تحولها الى كارثة كاملة الا سوء الأحوال الجوية جعلت أبا عبد الله يتروى بعض الشيء قبل أن يعاود مناجزة الجند الأغلبي من جديد . فلقد عاود الداعي سيرته الأولى في ايكجان ، فعقد مجالس العلم لأصحابه « المؤمنين » ، فكان يحدثهم ويشرح لهم أصول الدعوة ، كما أمر الدعاة بأن يفعلوا مثل ذلك في مواضعهم ، « فحسنت نيات المؤمنين وزادت بصائرهم وصلحت أحوالهم (١١٦) . وهذا يعني أن الداخلين الجدد في الدعوة من « المؤمنين » كانوا من الكثرة بحيث أنهم لم يكونوا قد دربوا ونظموا في طبقات أهل الدعوة ، مثل « الاخوان الأوائل » ، مما تطلب هذه « الدورات التدريبية » الجديدة — أو أن الامر تطلب نوعا مما يسمى بـ « التوجيه المعنوي » أو « الثورة الثقافية » في أيامنا هذه .

والى جانب ذلك اعتنى أبو عبدالله بتنظيم جهاز الأخبار لديه ، فأرسل رجاله الى افريقية يأتونه بما يجري في عاصمة الأغالبة ، وفي ذلك قيل انه « كان لا يمر يوم الا وعنده خبر » . ولم تنته حالة الانتظار والترقب هذه

---

(١١٤) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٣٩ ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٤ (حيث : مسيلة بدلا من ميلة) .

(١١٥) افتتاح الدعوة ، ص ١٤٠ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٤ .

(١١٦) افتتاح الدعوة ، ص ٩٠ .

الا عندما بى الخبر بوفاة ابراهيم بن أحمد فى صقلية (ذو القعدة سنة ٢٨٩هـ/ أكتوبر ٩٠٢ م) (١١٧) .

الانتصار على محمد الأحول (أبو حوال) :

والظاهر ان حلود أبى عبد الله الى السكينة جرأ أبا العباس على القيام بمحاولة ثانية قد تخلصه من الثورة الكتامية ، فعهد من جديد بقيادة الحملة الى ابنه محمد الأحول الذى كان قد قوى جنانه بعد انتصاراته الأولى . وسار الجيش الكبير الذى انضم اليه خصوم الداعي من كتامة الى بلاد الراب متخذا نفس طريق الحملة الأولى ، ممر بسطيف وانتهى به المسار الى بلد مبوسة حيث خندق على عسكره . وعندما علم أبو عبد الله بمقدم الأمير الأغلبى حشد رجاله وزحف اليه من ايكجان نحو بلد لهيصة ونزل فى موضع يعرف بـ « سدوسه » . وبدأ القتال عندما بعث أبو عبد الله خيله لمهاجمة الجند الأغلبي فى معسكره . وتحقق ما كان يهدف اليه أبو عبد الله اذ تمكن رجاله من هريمة جند الأغلبى فى الميدان المفتوح بعد أن خرجوا من خندقهم ، فارتدوا اليه .

والظاهر ان الأحول خشى أن تحيط به القبائل وهو فى خندقه ، فقرر الانسحاب فى نفس الليلة على ضوء المشاعل الى سطيف . وفى الصباح كان رجال أبى عبد الله يضربون فى ساقته ، ويغنمون ما كان قد بقى من رجاله فى معسكرهم . وهكذا انتهى اللقاء الثانى بانهزام الأحول ، وعودة أبى عبدالله مظفرا الى ايكجان (١١٨) وأتى اغتيال أبى العباس (آخر شعبان سنة ٢٩٠هـ/ ٢٨ يوليه ٩٠٣ م) وولاية زيادة الله اللاهى ، الذى قتل أخاه الأحول فى شعبان التالى ، لكى تقوى من جنان أبى عبد الله وتطمعه فعلا فى هدم الدولة الأغلبية(١١٩) .

الاستيلاء على ميلة وسطيف :

هكذا تمكن أبو عبد الله فى سنة ٢٩١ هـ/٩٠٤ م من الاستيلاء على

---

(١١٧) افتتاح الدعوة ، ص ١٤٠ – ١٤١ . وعن تاريخ وفاة ابراهيم « السبت ١٣ من ذى القعدة/١٩ أكتوبر » (ص ٩٢) .

(١١٨) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٤٢ – ١٤٣ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ : الذى يجعلها اللقاء الثالث للأحوال مع الداعي ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٤ .

(١١٩) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، وقارن ابن الأثير سنة ٢٩٦ وعن خطورة مقتل أبى حوال الذى اعتبره النويرى أعظم فتح عند الشيعى ، انظر فيما سبق ص ١٦٢ .

ميلة بسهولة : حيث لا نجد في افتتاح الدعوة التي يلخصها ابن الأثير تفسيلات عن ذلك ، كما حدث في الاستيلاء عليها لأول مرة (١٢٠) . وبعد أن اطمأن أبو عبد الله الى استقرار الأمور في منطقة ميلة ، كان من الطبيعي أن يوجه أنظاره الى سطيف التي كان واليها الاغلبي ، وهو علي بن حفص المعروف بابن عسلوجة الذي شارك الأحول في حملتيه ، والذي عرف في الناحية بالبطولة والنجدة ، يهدده دائما . ومما زاد في اشفاق أبي عبد الله من صاحب سطيف : أنه كان على علاقات طيبة بخصوم الداعي من زعماء كتامة الذين كانوا يقدمون له المعونة والجند في قتاله لأهل ايكجان .

بناء على ذلك لم يكن من الغريب أن تطاول مدينة سطيف حشود أبي عبد الله لمدة ٤٠ (أربعين) يوما حتى اضطر الداعي الى العودة الى ايكجان حيث أقام شهرا يدعو « الأولياء » الى الانضمام الى قواته . ورغم ذلك فعندما عاد الى سطيف في عسكر لا يحصى ، قاتله علي بن عسلوجة خارج المدينة قتال الأبطال ، وكان من الطبيعي أن ينتهي الأمر بالتجائه الى حصن المدينة حيث مات هو وأخوه حبيب ، متأثرا بجراحه — كما تظن — فانحل أمر سطيف ، كما يقول القاضي النعمان . ورغم ذلك فلم تذعن المدينة الا بالأمان الذي فاوض عليه الزعيم داود بن حباسة اللهيصي ، لأهل المدينة ولنفسه . وبر أبو عبدالله بأمانه فلم يقتل الا من يستحق القتل ، كما أمر بهدم سور المدينة ، قبل عودته الى ايكجان ، بعد أن عهد بولايتها الى بعض رجاله (١٢١) .

الدفاع عن منطقة القبائل والانتصار على ابن حبشي قرب قسنطينة :

لا شك أنه كان لسقوط سطيف وقع أليم في عاصمة الأغالبة ، وخاصة بين أولئك اللاجئين فيها من زعماء كتامة الذين حرضوا زيادة الله على معالجة الأمر قبل أن يفوت الأوان . وقام زيادة الله في سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م بحشد جيش عظيم يعتبر أكبر جيش سيره الأغالبة حتى ذلك الوقت ، ضد الداعي : اذ بلغت عدته ٤٠ (أربعين) ألف رجل ما بين فارس وراجل ، مسلحين أحسن تسليح ومزودين بالأموال والعتاد ، وعهد بالقيادة الى قريبه ابراهيم بن حبشي

---

(١٢٠) أنظر فيما سبق ، ص ٥٥٩ .

(١٢١) أنظر افتتاح الدعوة . ص ١٥٤ — ١٥٦ ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥ (حيث اسم علي بن عسلوجة : علي بن جعفر بن عسكوجة ، كما يوجد ذكر أيضا للزعيم اللهيصي (من تسار لهيصة) الذي كان لاجئا الى سطيف مع غيره من زعماء كتامة) . وقارن فيما سبق — ص ١٦٨ .

ورأى العارفون بشئون الحرب أن يسير الجيش هذه المرة فى طريق يخالف الطريق الذى سار فيه الأحول من قبل ، فأخذ مباشرة على طريق «قسنطينة» فى طرف بلاد كتامة حيث نزل فى موضع لا يبعد الا مرحلتين فقط عن ايكجان. وعلى طول الطريق كان يستميل القبائل بالمال ، ويضرب العصاة . والظاهر أن ابن حبشى كان ينتظر أن ينزل أبو عبد الله اليه من معقله فى الجبل ، وهذا ما لم يفعله الداعى . وطال انتظار إبن حبشى فى قسنطينة لمدة ستة أشهر تضخمت فيها قواته برجال القبائل وبعسكر طبنة ، عاصمة الزاب ، بقيادة القائد شبيب بن ابى الشداد حتى وصل عسكره الى ١٠٠ (مائة) ألف رجل، كما تقول الرواية بشيء من المبالغة على ما نظن (١٢٢) .

ولما لم ينزل أبو عبد الله من معقله ، ولما كان من الصعب على القائد الأغلبى أن يحتفظ بهذا الجيش الكبير ، الذى كان يتصخم مع مرور الوقت من أجل الأرزاق ، كما نظن ، قرر ابن حبشى أن يسير بقواته تلك للدخول فى عرين الداعى نفسه . فتقدم فعلا الى بلد اجانة (ايكجان) حيث نزل فى موضع يعرف عند القاضى النعمان بـ « كونة »(١٢٣) .

ورغم ما يقوله القاضى النعمان من أن ابراهيم بن حبشى كان لا يعرف الحرب ، اذ نازل الخيالة المنتقاه التى أرسلها أبو عبد الله للتعرف على موضع نزوله، فالأرجح أن أبا عبد الله دبر تلك المفاجأة لابن حبشى الذى تهور فى مسالك الجبال الوعرة ، ففاجأ ساقته حيث أحمال الجيش وعتاده على الدواب والجمال ، فتشتت أمام فرسان الجبل المدربين . وقبل أن يفيق الجند الأغلبى من صدمة المفاجأة ، زحف اليهم أبو عبد الله بقواته الرئيسية فتمت الهزيمة على الجيش الجرار ، ولم ينج ابن حبشى الذى جرح الا بشق الأنفس . وهكذا تشتت الجند الأغلبى فى اتجاه باغاية من بلاد الزاب وسقطت أمتعة الجيش الكبير وأمواله وعتاده بين أيدى أصحاب أبى عبد الله (١٢٤) .

---

(١٢٢) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ١٥٧ ــ ١٥٨ . وقارن تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٥ ، فى فصل ذكر استيلاء أبى عبد الله على افريقية . حيث يقول انه انضم الى حبشى مثل جيشه ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥ .

(١٢٣) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ١٥٨ ، وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٨ : حيث القراءة فى المتن كينونة وفى الهامش كونة ، كما فى احدى المخطوطات ، مما جعلنا نرجح قراءة المحققة ووداد القاضى . أما قراءة ابن الأثير فهى كرمة (وكرمة فى احدى المخطوطات) .

(١٢٤) افتتاح الدعوة ، ص ١٥٨ ــ ١٥٩ ، وانظر تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ٣٥ حيث الاشارة الى أن الوقعة كانت قرب مدينة بلزمة .

مغانم هائلة كان للمهدي نصيبه منها ، وهو في بسجلماسة :

وانتهت الملحمة الكبرى ، التي يصفها ابن عذارى وصفاً رائعا ، بمقتل الكثير من الجند الأغلبي ، ووقوع الغنيمة العظيمة بين أيدي كتامة ، من : الأموال والسلاح والسروج واللجم وضروب الأمتعة . فاغتنوا بعد فقر ولبسوا الحرير وركبوا بسروج الفضة واللجم المذهبة (١٢٥) .

وأمام جسامة الكارثة التي ألمت بجيشه ، لم يتوقف ابراهيم بن حبشي الا ريثما يكتب الى زيادة بما حدث ، ولم ينتظر الجواب فرجع الى افريقيـــة . بينما عاد شيب بن أبي الشداد قائد عسكر طبنة الى بلدته (١٢٦) .

وكان من الطبيعي أن يسعد أبو عبد الله بهذا النصر الكبير فكتب الى الامام بسجلماسة يخبره به ، كما أرسل اليه بأموال وذخائر مما غنمه ، من : الدنانير الذهبية وفاخر الثياب (١٢٧) .

فتح بلاد الزاب : طبنة :

شعر أبو عبد الله بقوته ، وقوى جنان أصحابه بعد اندحار العسكر الأغلبي الكبير ، وكان من الطبيعي ان يواصل المسيرة المظفرة الى آخر الشوط ، وكان من الطبيعي أن تكون طبنة هي هدفه التالي . فطبنة الى جانب كونها عاصمة الزاب كان بها حامية أغلبية كبيرة هي التي كانت قيادتها الى شيب بني أبي شداد القمودي المعروف بشيب الصغير ويعاونه خفاجة العبسي . كما كانت ملجا لعدد من زعماء كتامة المناهضين لأبي عبد الله منذ بداية دعوته مثل : فتح بن يحيى المسالتي ، ولو انه كان يعاني من جرح جائف أصيب به في حرب ابراهيم بن حبشي الخاسرة .

نادى أبو عبد الله في القبائل ، وحشد حشوده التي زحف بها ، وهو تحت مظلته ، الى طبنة وطوقها . وعامل والي المدينة حسن بن أحمد بن نافذ المعروف بأبي المقارع كثرة قوات الداعي ، فاكتفى بالاعتصام بأسوار المدينة ، ومعه أعوانه ، من صاحب الخبز : محمد بن قرهب ، وصاحب العطاء: يحيى بن

---

(١٢٥) انظر البيان ، ج ١ ص ١٣٨ ، وما سبق ، ص ١٦٩ .

(١٢٦) افتتاح الدعوة ، ص ١٥٩ .

(١٢٧) افتتاح الدعوة ، ص ١٦٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٦ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥ (حيث تقول الرواية : وكتب الشيعي بالفتح الى المهدي مع رجال من كتامة اخفوا بأنفسهم حتى وصلوا اليه وعرفوه بالخبر) .

القسرلي • وكانت قوات أبي عبد الله قد تقدمت في العسكرية فاصبحت تعرف فن الحصار ،وتستخدم الآلات اللازمة له ، فتقدم «الأولياء» بدبابة من دباباتهم ، ونقبوا برجا من أبراج السور ، وألجأوا المدافعين عنه الى الهرب • وبذلك نجحوا في الدخول الى المدينة التي كان عامة أعنها من التجار ، فامنهم الداعي • أما الوالي أبو القارع ومن معه من الرعماء الكتاميين والعمال الأعالبة ، فانهم اعتصموا بالقلعة . ولكنهم لم يلبثوا ان استسلموا بالأمان أمام ابي زاكي تمام بن معارك ، وبموافقة أبي عبد الله نفسه • ومع أن أبا عبد الله قتل عدوه القديم الفسح بن يحيى . فانه عفا عن الوالي أبي القارع . وصحبه معه الى ايكجان حيث قربه منه • وذلك بعد أن عهد بولاية طبنة الى أبي عبد الله يحيى بن سليمان (١٢٨) •

فتح بلزمة :

وبعد طبنة أتى دور بلزمة التي فشل أبو عبد الله في اخذها في ثلاث حملات متتالية في ثلاث سنوات متعاقبة ، اذ كانت المدينة ذات الأسوار الحصينة تدافع عن نفسها بما يصنعه اهلها من المجانيق والعرادات وآلات الحروب ، فكان أبو عبد الله يكتفي بافساد زروعها • وأمام استعداد بلزمة هذا في حرب المطاولة الآلية ، أتى أبو عبد الله هذه المرة مزودا بآلات الحصار القوية ، من : الدبابات والأبراج ، ولكن أهل بلزمة الخبراء في حرب الحصار نجحوا في احراقها • ولكنه مع أشتداد الحصر جاع أهل المدينة الذين أكلوا الجلود والدرق ، واضطروا الى الاستسلام بعد أن مات واليهم • حي بن تميم فيئسوا من الاستمرار في المقاومة •

وهكذا فتحت بلزمة عنوة ، فقتل من كان قد بقي من مقاتلتها • واذا كان القاضي النعمان يقول : ان عسكر الداعي لم يعرضوا لامرأة حرة ، فهو ينص على انهم غنموا ما وجدوه في المدينة من : الأثاث والأمتعة وغيرها ، مما عادوا به الى ايكجان ، بعد ان هدموا سور المدينة بأمر الداعي (١٢٩) •

---

(١٢٨) انظر افتتاح الدعوة ص ١٦٠ - ١٦٣ وقارن ابن الأبار (الذي يلخصه) سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٦ (ابن خلدون ج ٤ ص ٣٥) وانظر فيما سبق ص ١٧٢ وما بعدها •

(١٢٩) انظر افتتاح الدعوة ص ١٦٤ - ١٦٥ ، ابن خلدون ج ٤ ص ٣٥

هزيمة الجند الأغلبي في دار ملول :

كان لسقوط عاصمة الزاب وبعدها بلزمة بين أيدى الايكجانيين وقع عظيم في قلب زيادة الله الذى أعد جيشا عظيما بلغ اثنى عشر ألف رجل من الفرسان والرجالة الذين أوسع عليهم فى العطاء حتى يحسنوا القتال هذه المرة ، وجعل قيادتهم الى هرون بن الطبني ، وأمره بالمسير الى باغاية حيث كان واليها أخوه زيادة الله الطبني . ووفى باغاية وفد عليه كثير من رجال القبائل الذين أجزل لهم العطاء مما كان يحمله من الأموال .

والظاهر أن وجهة هرون كانت بلزمة ، ولكنه عرج فى الطريق اليها على بلدة تعرف بدار ملول ، كانت قد دخلت فى طاعة أبى عبدالله ، فدخل عليهم بكل قواته فهدم حصنهم ، وقتل من وجده فيه . ولكن الجيش الكبير انتابه الهلع فجأة عندما واجه جريدة لأبى عبد الله كانت قد خرجت بقيادة عروبة بن يوسف لتستطلع أخبار الجند الأغلبي ، فتصايح الرجال وفروا نحو الجبل القريب للتحصن فيه . وعندما تأكد عروبة أن ليس فى الأمر مكيدة، تبعهم يقتلهم ويغنم عتادهم . وهكذا انهزم الجند الأغلبي نحو باغاية دون قتال ، بعد أن ترك قائده هرون فى أرض المعركة ، وأمواله وعتاده غنيمة سهلة بين أيدى أصحاب أبى عبد الله . وأتت انباء الهزيمة الى زيادة الله من قبل عامل باغاية فزادته غما على غم (١٢٠) .

فتح تيجس :

والظاهر أن هزيمة دار ملول ، وما لقيه العسكر الأغلبي قبلها من الهزائم ، شجع اعوان أبى عبدالله فى المنطقة على أن يجربوا حظهم فى الاستيلاء على بعض مدائن الأغالبة . فقد انتهزت جماعة من هوارة الفرصة وسارت الى أبى عبد الله فى ايكجان وعلى رأسها حمزة الملزى الذى استأذن الداعى فى الغارة على نواحى بلده . ونجح حمزة فعلا فى الغارة على البريد الآتى من القيروان الى باغاية ، فقتل صاحبه وحمل ما كان معه من الكتب الى أبى عبد الله .

وتشجع أصحاب حمزة الملزى فصاروا يضربون فى النواحى حتى جاوزوا مدينة تيجس التى كان بها رابطة اغلبية من ٥٠٠ (خمسمائة) فارس تحت قيادة [illegible]

(١٢٠) افتتاح الدعوة ، ١٦٤ - ١٦٦ ، وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠ (جيرونة القراءة : مدينة ازمول بدلا من دار ملول) .

الوالي ابن ركاب ، ويعاونه أحد غلمان زيادة الله . وأمام غارات الهوآريين مستمرة رأى والي تيجس أن الحكمة تقتضي الدخول في حماية ايكجان ، فراسل أبا عبد الله وأعلن خضوعه له ، وسأله أن يرسل اليه جيشا لمواجهة الحامية الأغلبية . وتطلب الأمر من الداعي ارسال جيشين الى تيجس لكي تستسلم المدينة ، ولكن على أن تخرج الحامية الأغلبية من الحصن باسلحتها وعتادها . وهكذا سقطت تيجس بالأمان وعاد جندها الأغلبي الى زيادة الله ، بينما دخل ابن ركاب في الدعوة (١٣١) .

وكان لوفاء أبي عبد الله لرابطة تيجس أثره الحسن في قلوب أهل افريقية ، فبعد أن كانوا يخشون غدر أصحابه مالت نحوهم قلوبهم ، كما تحول النعمان ، وبذلـــك اضطربت البلاد وتوقعوا وصـــول أبي عبد الله اليهم (١٣٢) .

حرب الدعاية ضد أبي عبد الله وفشلها :

أمام فشل زيادة الله في حرب الايكجاني بالعساكر قرر أن يجرب ضده حرب الدعاية النفسية - كما نقول الآن - فكتب كتابا ضد أبي عبد الله وأمر بنشره في مختلف البلدان . نسب زيادة الله في كتابه هذا الى أبي عبد الله : الكفر ، وتبديل الدين ، وارتكاب المحارم ، وأنه يلعن الصحابة ويستحل دماء المسلمين ، الى جانب انصرافه الى اللهو والعبث وشرب الخمر . كما حذر الناس من ارجاف المرجفين و « تهويل المهولين أمر الفاســـق اللعين »(١٣٣) . ويشكك القاضي النعمان في كتاب الخليفة المكتفي في أمر الداعي الذي كتبت منه نسخ قرأت على المنابر ، والذي يصف أبا عبد الله بما يشبه الأوصاف السابقة ، ويضيف الى ذلك ثقة الخلافة بزيادة الله ، ويطلب من أهل افريقية الوقوف الى جانبه (١٣٤) .

وأتت تلك الدعاية بعكس ماقصدتها . فكتاب زيادة الله أثار السخرية

---

(١٣١) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٦٧ — ١٦٩ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ج ٨ ص ١٦ ، وابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥ (حيث القراءة : يتجيت بدلاً من بتجس) .

(١٣٢) افتتاح الدعوة ، ص ١٧٠ . وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥ (حيث النص على أن قائد الشيعي المظفر هو يوسف الغساني) .

(١٣٣) انظر افتتاح الدعوة . ص ١٧٠ — ١٧٣

(١٣٤) افتتاح الدعوة ص ١٧٤ — ١٧٧ .

بذكره مفاسد الداعي وذكر الناس بمفاسده هو نفسه ، كما لم يزدهم « الا خوفا وارجافا ، وتهاونا بأمره واستخفافا » (١٣٥) . وفيما يتعلق بكتاب الخلافة فقد أثار مثل هذه المشاعر في نفوس الناس ، اما عن تحريضه الناس للوقوف الى جانب أميرهم زيادة الله ، فكان ردهم : « وما عسى أن يصنع الرعية له ؟ انما الرعية لمن غلب » (١٣٦) .

تظاهرة الخروج الى الأربس :

ولكي تؤتي حرب الدعاية التي شنها زيادة الله على الداعي ثمارها ، رأى الأمير الأغلبي أن يصحبها بعمل ايجابي ملموس فقرر الخروج بنفسه لملاقاة خصمه . فأخذ يعد العدة للحرب ، فجهز السلاح والأموال ، وبالغ في شراء الناس بالمال فأجزل لهم العطاء الذي بلغ خمسين دينارا : كان يفرقها غرفا بالصحاف ، حتى أنفق الكثير مما كان في خزائنه من الدنانير والحلي والخلع . وفي أول سنة ٢٩٤ هـ/نوفمبر سنة ٩٠٤ م خرج يتقدمه شيوخ أهل القيروان الى مدينة الأربس القريبة ، التي أصبحت وكأنها ثغر الرباط مع الداعي . ولكنه بعد أن أقام فترة في الأربس حيث وافته العساكر ، نصحه مستشاروه بعدم المغامرة بنفسه فاستحسن ذلك ، ورجع الى قصره برقادة بعد أن عهد بقيادة العسكر في الاربس الى قريبه ابراهيم بن أبي الاغلب ، الذي كان معدودا من الشجعان (١٣٧) .

فتح باغاية :

بعودة زيادة الله من الأربس ، توجس الناس خيفة في القيروان فغلقوا المحارس على أبوابها ، وأقاموا بها ليلا ونهارا . وعندما بلغت هذه الأخبار الى أبي عبد الله بدأ حملته الكبرى التي انطلق فيها كـ « رصاصات الرحمة » كما يقال الآن ، بالنسبة للمملكة الأغلبية المتحللة . فلقد أتقن الداعي مكاتبة عدد من زعماء باغاية ، ممن رأوا الدخول في طاعته برغبتهم بدلا من الدخول فيها قسرا ، فزحف الى المدينة في جيش كبير . وجزع عامل باغاية الأغلبي وفضل الهرب بنفسه فسار الى الأربس ، بينما دخل أبو عبد الله

(١٣٥) افتتاح الدعوة ، ص ١٧٤ .

(١٣٦) افتتاح الدعوة ، ص ١٧٨ .

(١٣٧) افتتاح الدعوة ، ص ١٧٨ - ١٨١ ، وقارن ابن الاثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٦ ؛ حيث يجعل الخروج الى الأربس سنة ٢٩٥ ؛ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٠ ؛ .

المدينة بالأمان • وبعد أن أقام فيها أياما عهد بولايتها الى أبي يوسف ماكنون ابن ضمارة الأجاني (عم أبي راكي) ، وترك له حامية • كتامية من خمسمائة رجل ، بينما عاد هو الى ايكجان (١٣٨) •

وعندما وصلت هذه الأخبار السيئة الى زيادة الله ، جمع ثقاة مستشاريه ، وطلب منهم النصح والمشورة • واختلفت الآراء : فبينما نظر البعض فى ضرورة ارسال ابن أبي الأغلب من الأربس الى الزاب لاستعادة باغاية ، رأى الوزير عبد الله بن الصائغ أن ذلك يعرض الجيش لخطر قوات أبي عبدالله نفسها ، وأن الأوفق لابن أبي الأغلب هو البقاء فى الأربس متربصا ، فاذا حاول الداعي الخروج الى غير باغاية من المواضع لحق به ، ومنعه من تحقيق مآربه (١٣٩) • ومع وجاهة رأى الوزير هذا ، فهو يعني فى حقيقة الأمر أن القوات الأغلبية كانت أعجز من أن تلاقي قوات أبي عبد الله سواء فى باغاية أو غيرها •

وهذا ما تعبر عنه الرواية ، عندما تقول : ان زيادة الله استمع بعد ذلك لنصحاء السوء ، الذين أغروه بالانصراف الى اللهو والشراب ليخفف عنه هموم أبي عبد الله ، وأن هذا ما فعله (١٤٠) . ولو أنه ظل يمد ابن أبي الأغلب بالاموال والرجال (١٤١) •

عمليات جس نبض محدودة :

اخذ مجانة :

عندما تأكد أبو عبد الله من أن عسكر زيادة الله مقيم بالأربس لا يتحرك منها ، قرر مواصلة العمل فى اقتطاع المملكة الأغلبية قطعة بعد أخرى •

---

(١٣٨) افتتاح الدعوة ، ص ١٨١ ـ ١٨٢ •

(١٣٩) افتتاح الدعوة ، ص ١٨١ ـ ١٨٢ •

(١٤٠) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٨٣ حيث يقول النعمان ان بعض ندمائه نصحه بذلك وهون عليه أمر ضياع باغاية ، ورتب له دورا غنائيا يسمعه فى مجلس الشراب ـ قوامه ـ ذلك البيت الذى يقول : « اشرب واسقينا من القرن يكفينا » ، وقارن تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، وانظر ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٣ • حيث يقول ان زيادة الله هو الذى كان يقول لندمائه اذا فكر فى زوال ملكه « املا واسقنى من القرن يكفينى » • وانظر فيما سبق ، ص ١٧٥ وص ٥٧٢ •

(١٤١) افتتاح الدعوة ، ص ١٨٥ •

وكانت مجانة هي هدفه في هذه المرة اذ سير اليها ألف فارس انتقاهم من خيرة فرسانه ، وعلى رأسهم أبو مدين ابن أبي كنارة اللهيصي ، وسارت كتيبة الفرسان الى باغاية ، ومنها خرجوا نحو مجانة ، وعندما رأى واليها الأغلبي ، خفاجة العبسي ، اقترابهم ظهر لهم حيث قاتلهم طيلة النهار الى أن حل الليل فدخل المدينة • والظاهر أن خفاجة وجد ألا قبل له بمقاتلة أصحاب أبي عبد الله ، فاكتفى بالبقاء خلف الأسوار ، ولما كانت كتيبة الفرسان غير مستعدة لحرب الحصار فان رجالها اكتفوا بنهب المنازل القريبة من قلعة مجانة ، قبل أن يعودوا الى ايكجان •

وتطلب الأمر عودة أبي مدين مرة ثانية الى مجانة عن طريق باغاية ، وتبسا • ونجح أبو مدين هذه المرة في مفاجأة خفاجة وخيالته • وانتهى القتال الدامي بمقتل خفاجة وعدد كبير من رجاله ، بينما نجا عدد منهم الى القلعة (١٤٢) • ومع أن القاضي النعمان يتبع ذلك بقوله : ان عسكر أبي عبدالله عاد برأس خفاجة الى ايكجان ، فاغلب الظن أنهم فعلوا ذلك بعد أن سقطت قلعة مجانة بين أيديهم ، كما ينص على ذلك ابن الاثير (١٤٣) •

اخذ قصر الافريقي ، وتيفاش ، وقالمة :

هكذا فرض أبو عبد الله سلطانه على المنطقة ، فكان له الحكم بين القبائل المتصارعة هناك ، كما عرف كيف يستفيد من تلك الصراعات • فعندما استنصرت به قبيلة كزناية اثر خلاف نشب بينهم وبين أهل قصر الافريقي انتهز الفرصة وسير عسكرا بقيادة أحمد بن سليمان السكتاني ، هزم مقاتلة أهل قصر الافريقي حتى جلوا الى بلدة طبرشق ،كما اثخن في قبائل المنطقة ونهبهم ، قبل العودة الى ايكجان (١٤٤) •

ولما رأى الوالي الأغلبي لبلدة تيفاش ، وهو اسحاق بن أبي سلاس ، جولات عسكر أبي عبد الله في المنطقة وصولاته دون أن يتحرك لذلك جند الأربس وطلب الرجال العالية فسار بنفسه لاجل الى ايكجان (١٤٥) • وعندما

---

(١٤٢) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٨٦ - ١٨٧ •

(١٤٣) الكامل ، أحداث سنة ٢٩٦ هـ/ج ٨ ص ١٦ ، وانظر ابن خلدون ج ٤ ص ٣١
- حيث القراءة : قرطاجنة بدلا من مجانة •

(١٤٤) انظر افتتاح الدعوة ص ١٨٧ - ١٨٨ •

(١٤٥) افتتاح الدعوة ، ص ١٨٨ - والقاضي النعمان لا يذكر سببا لذلك ، وربما كان مسيره بسبب خلاف بينه وبين أعوانه أو عسكره •

عرف رجاء الله بذلك كان من الصعب عليه أن يجد بين أصحابه من يرضى بالمعاصرة بعينها في متناول أبي عبد الله وان كان من أهل الولاية ، وأخيرا وصف له رجل من وجوه أهل تيفاش ، هو حبيب بن ليفة ، « فكتب اليه بالولاية ، وبعث اليه بصلة وخلعة ، فقبل وتولى أمر تيفاش »(١٤٦) ·

ولما كان أهل تيفاش على صلة بأبي عبد الله ، فانهم أخبروه بأحوال البلد وسألوه أن يوجه اليه عسكرا ليأخذه · وكان على رأس كتيبة الفرسان التي سيرها أبو عبد الله أحد الدعاة ، هو صولات بن القاسم السكتاني · وما كاد فرسان كتامة يقتربون من تيفاش حتى خرج حبيب بن ليفة هاربا الى ابن أبي الأغلب بالأربس · وهكذا دخل صولات تيفاش بالأمان ، وتولى امرها (١٤٧) ·

وكان لوجود العسكر الكتامي في تيفاش فعل السحر في دخول أهل الناحية في الدعوة ·

فالى تيفاش وصل خلفون بن مهدى قائد عسكر قالمة وسأل صولات الأمان لأهل البلدة والدخول في الدعوة · ووافق صولات على أن يبعث اليه ببعض رجال المدينة ، ومنهم صاحب السكة ، ابراهيم بن البروح ، وسير معه ثلاثمائة فارس (١٤٨) ·

وتبع ذلك أن وصل الى صولات وفود من بني ورديم يطلبون الأمان وكذلك من بني هراش ، فأجابهم ، وطلب الى رجال الوفود هؤلاء بالانتقال الى إيكجان ، دار الهجرة (١٤٩) ·

وهكذا كانت سيطرة أبي عبد الله تتأكد في المنطقة ، لم يضعف من شأنها ما قام به ابراهيم بن أبي الأغلب ، بتحريض حبيب بن ليفة ، من استعادة تيفاش لفترة من الوقت · اذ لم تستطع الحامية الكتامية الصغيرة ،

---

(١٤٦) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٨٨ ·

(١٤٧) افتتاح الدعوة ، ص ١٨٩ ، ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٦ ، وابن خلدون ج ٤ ص ٣٥ · حيث اسم قائد الشيعي · صواب بن أبي القاسم بدلا من صولات بن القاسم ·

(١٤٨) افتتاح الدعوة ، ص ١٨٩ ·

(١٤٩) افتتاح الدعوة ، ص ١٩٠ ·

المكونة من مائتي فارس من الوقوف طويلا أمام الجيش الأغلبي الجرار (١٥٠) .

وفي مقابل ذلك النجاح الذي حققه الأغالبة في تيفاش بتكاليف باهظة ، مد أبو عبد الله الشيعي نفوذه الى بونة . فلقد استغل صراعا قام بين قبيلة أوربة هناك ، وسير قبائل كتامة الى تلك الجهة حيث قسموا المنطقة الى ثلاثة أثلاث ، ما بين ساحل البحر وقلب الفحص ، فشنوا الغارات عليها وقتلوا وغنموا ، ثم تجمعوا قرب باب المدينة المعروف بزانة ، وعادوا سويا محملين بالغنائم الى ايكجان (١٥١) .

الاجتياح الأخير ، ومحاولات الأغالبة في الصمود :

بفضل هذه العمليات العسكرية المحدودة ، عرف أبو عبد الله الشيعي أن جيش الأربس الأغلبي لا يكون في الحقيقة ، حائلا بينه وبين تحقيق هدفه النهائي ، وهو انهاء حكم الأغالبة في افريقية ، فقرر أن يأخذ أزمة الحرب بين يديه ، وأن يباشرها بنفسه . فقد خرج الداعي في سنة ٢٩٥ هـ/٩٠٨ م ، من ايكجان في جيش نظامي كبير ، واتجه الى باغاية ، ومنها وصل الى مسكيانة ثم خرج منها على تبسا .

وواضح من رواية القاضي النعمان أنه لم يكن أمام تلك المدن الا أن تفتح أبوابها لأبي عبد الله . فلم يقف أمامه الا أهل ميدرة الحصينة (حيدرة الحالية) ، حيث كان قد لجأ اليها المعاندون من بقايا أهل قصر الافريقي ، ومجانة ، وتبسا ، ومرماجنة ، وغيرهم : ممن ظلوا كارهين لدعوة ايكجان . فلقد تحصن هؤلاء بأسوار البلدة ، وبينما كان العسكر الكتامي يضرب الحصار على ميدرة عاودت علة الحصاة أبا عبد الله فانشغل بنفسه عن القتال . وهكذا عندما أطل أهل البلدة من أعلى الأسوار وسألوا الكتاميين الأمان ، أجابهم هؤلاء ، ولكنهم ما ان فتحوا باب المدينة حتى فوجئوا بالكتاميين يضعون السيف في رقابهم وينهبون ما تقع عليه أيديهم ، مما اضطر له أبو عبد الله حتى انه خرج بنفسه رغم ما كان يعانيه من الألم ، لكي يستنقذ ما أمكنه استنقاذه من أيدي العسكري .

---

(١٥٠) افتتاح الدعوة ، ص ١٧٠ — حيث تقول الرواية ان حبيبا بن ليلة قتل الرجل الذي وجه أبا عبد الله لمشول تيفاش وهو عبد الله بن كليب ، الذي كان مختبئا هناك . وكذلك ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥ (حيث النص على ان الذي اقتحم تيفاش أهل العسكر الكتامي هو القائد ابراهيم بن أبي الأغلب سالبين خلف أبا حوال) .

(١٥١) افتتاح الدعوة ، ص ١٩١ .

وحق لأبى عبد الله أن يغتم لذلك ، فما وصل الخبر القيروان حتى قام رجال زيادة يشنعون عليه وعلى أصحابه ، وينسبون اليهم الغدر وعدم الوفاء بالعهد (١٥٢) ، وكتب زيادة الله فى ذلـــك الكتب التى قرئت من على " " (١٥٣) .

ومن حيدرة رحل ابو عبد الله الشيعى ، واخذ بلدة القصرين من اقليم قمودة فى جنوب بلاد القيروان بالأمان ، ومنع عسكره من دخول المدينة ، فكان أهلها يبايعون من الكتاميين من فوق الأسوار (١٥٤) .

انتصار محدود للاغالبة :

وظهر لابراهيم بن أبى الأغلب ، وكان أبا عبد الله قد قرر الصعود نحو رقادة حيث زيادة الله فى عسكر قليل ، فترك الأربس واتجه نحـــو أبى عبد الله ، الذى كان فى القصرين ، ونزل فى موضع يعرف بـ " دار مدين " (١٥٥) . وتم اللقاء بين الجيشين الأغلبى والكتامى فيما بين دار مدين والقصرين ، والظاهر أن القتال الذى بدأ بانتصار مبدئى لعسكر ابن أبى الأغلب على مقدمة عسكر أبى عبد الله انتهى ، عند حلول الليل ، بانسحاب هـــذا الأخير نحو القصرين ، من حيث عاد الى ايكجان . واكتفى ابن أبى الأغلب بذلك ، فلم يحاول متابعته وكتب الى زيادة الله بالنصر ، فكتب بدوره السجلات التى قرئت فى البلدان على المنابر (١٥٦) .

موقف تردد وحيرة من جانب اهل الاقليم بين الجانبين المتصارعين :

والظاهر أن ذلك النصر المحدود الذى حققه الجيش الأغلبى ، والدعاية الكبيرة التى روجها زيادة الله حول جيشه المنصور ، كان له الاثر فى نفوس أهل المنطقة الذين احتاروا فى اختيار الطرف الذى تقضى المصلحة بالوقوف الى

---

(١٥٢) افتتاح الدعوة ، ص ١٩٢ ، وانظر ابن الاثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٦

(١٥٣) افتتاح الدعوة ، ص ١٩٣ .

(١٥٤) افتتاح الدعوة ، ص ١٩٣ ، ابن الاثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٧ .

(١٥٥) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٩٣ ، وقارن تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٧ : حيث القراءة " دردمين " .

(١٥٦) افتتاح الدعوة ، ص ١٩٣ – ١٩٤ ، وقارن تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٧ .

جانبه • وكانت نتيجة ذلك انزال العقوبة بهم من هذا الجانب أو ذاك • وتلك سمة فترات مثل تلك الأزمة التي قد لا يعرف فيها ، حتى أولي الأمر أنفسهم ، من أين تهب الرياح المضطربة •

فلقد تصورت بعض قبائل منطقة قصر الافريقي وطبرشق أن الرياح غيرت اتجاهها وأصبحت تسير نحو الأربس وليس ايكجان ، فسارت وفود منه الى ابن أبي الأغلب يعلنون الطاعة ، مثل : بني وشنو ، وبني حراش • ولم يسلم التعساء من انتقام أبي عبد الله الذي سير اليهم عسكرا بقيادة عروبة ابن يوسف ، فاجاهم على حين غرة فقتلهم ، ونهب ديارهم قبل أن يطلق فيها النيران (١٥٧) ، وكذلك فعل أبو عبد الله ببني ماجن (من هوارة) عندما خرجوا على طاعته •

أما عن أولئك الذين بقوا على ولائهم لأبي عبد الله ، فانهم وقعوا بدورهم فريسة لانتقام الأغالبة • فبينما كان فرسان الداعي يعاقبون أهل قصر الافريقي وطبرشق ، كانت بعض قوات ابراهيم بن أبي الأغلب تجول في المنطقة بقيادة ابن الهمداني ، لمعاقبة قبيلة بني ورديم ، لدخولهم في طاعة ايكجان • وتم اللقاء في أرض بني ورديم بين قوات أبي عبد الله وقوات ابن أبي الأغلب • ووجد سيئو الحظ من بني ورديم أنفسهم بين شقي الرحا ، كما يقال ، بين القوتين المتنافستين على سيادتهم ، وكانت كل قوة منهما قد عسكرت على الجبلين المشرفين عليهم ، وهم في الوادي بين الجبلين محصورون •

ولم يطل تردد بني ورديم طويلا ، وذلك أن خوفهم من عقاب أبي عبدالله اذا ما استسلموا للعسكر الأغلبي ، دفعهم الى الاستبسال في قتال ابن الهمداني ورده عن بلدهم (١٥٨) •

الاستيلاء على اقليم قسطيلية من بلاد الجريد :

واستمر أبو عبدالله في تنفيذ خطته التي تلخصت في اقتطاع اقاليم

---

(١٥٧) افتتاح الدعوة ، ص ١٩٠ ، وانظر ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ/ج ٨ ص ١٧ ، الذي أهمل تلخيص هذه الأعمال التي اعتبرها ثانوية قليلة الأهمية (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥) •

(١٥٨) افتتاح الدعوة ، ص ١٩٥ — ١٩٦ — ولقد أهمل ابن الأثير تلخيص هذه الأحداث هي الأخرى — سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٧ •

المملكة الاغلبية المحيطة ببلاد القيروان ، قطعة بعد اخرى . فبعد شهرين أوقف خلالهما غاراته حتى قيل انه مريض ، وحتى ظن الأغالبة انه مات (١٥٩) ، خرج من دار الهجرة بايكجان على رأس قوات عظيمة ، وقد قرر أن يضم قسطيلية ، هذه المرة ، الى بلاده . وكان عليه أن يسير الى باغاية التى أصبحت قاعدة العمليات فى المنطقة . وفى باغاية وافاه واليه على طبنة ، عاصمة الزاب بعسكره ،وقدم اليه كتبا كان قد أرسلها المهدى من سجلماسة مع بعض الرجال الذى تعرضوا لقطع الطريق عليهم من قبل جماعة من زناتة فلم ينج حامل الكتب وحده الى طبنة الا وهو فى الرمق الاخير (١٦٠) . وهال أبو عبد اليه جرأة زناتة على رسل المهدى وفكر فى تغيير مسيرته لمعاقبتهم فى بلادهم البعيدة ، ولكن مشايخ كتامة أقنعوه بارجاء ذلك الى الوقت المناسب، تحسبا لمفاجأة قد تقع فى بلادهم من قبل الجند الأغلبى .

أخذ « توزر » وقفصة :

وهكذا صارت القوات الكتامية الى قسطيلية . والملاحظ أن رواية القاضى النعمان التى يلخصها ابن الأثير ، تجعل من قسطيلية ، وهى الاقليم الكبير مدينة قاتل أهلها أبا عبد الله ساعة من نهار قبل أن يستسلموا بالأمان . وهذا لا بأس به ، فالمفروض أن مدينة قسطيلية تعنى ، فى هذا المقام ، قاعدة الاقاليم كما هى العادة فى تسمية العواصم باسم البلد أو العكس ، وذلك يعنى أن المقصود هو مدينة توزر العاصمة (١٦١) . وهذا ما يتضح فى رواية ابن عذارى التى تقول ان قائدى زيادة الله ، وهما : منصور بن اسماعيل وشبيب بن الصارم ، انهزما الى توزر تتبعهما خيل الداعى وهى تحـرق القرى (١٦٢) .

وبعد أن استولى أبو عبد الله على ما كان فى بيت المال ، سار من عاصمة قسطيلية الى قفصة التى استسلمت هى الأخرى بالأمان ، وبعد أن أخذ ما كان فى خزانتها من المال رجع الى باغاية . وبعد اقامة قصيرة ترك أبو عبد الله حامية من ٥٠٠ (خمسمائة) رجل فى باغاية بقيادة أبى مكدول

---

(١٥٩) انظر فيما سبق ، ص ١٧٣ وهـ ٥٩٠ .

(١٦٠) انظر افتتاح الدعوة ، ص ١٩٧ .

(١٦١) الاستبصار ، ص ١٥٥ .

(١٦٢) انظر فيما سبق ، ص ١٧٨ وهـ ٥٨٩ .

يعاونه عروبة بن يوسف ،وعادالى قاعدته فى ايكجان (١٦٣) •

محاولة اخيرة لاثبات الوجود من جانب الأغالبة :

وعندما بلغ خبر عودة أبى عبد الله الى بلده تنفس ابراهيم بن أبى الأغلب الصعداء ، وذلك أنه كان يخشى أن يكون هدف الداعى التقدم من الجنوب التونسى نحو القيروان ، حتى أنه أعد العدة لترك الأربس والعودة الى زيادة الله اذا ما حدث ذلك • ولكنه عاد وتشجع عندما عاد الداعى الى بلده وعلم بضعف حامية باغاية ، فسار اليها بكل عساكره • واستغاث أبو مكدول ، قائد الحامية ، بأبىعبد الله الذى دعا كتامة ففاضت اليه من كل جانب • وانتخب أبو عبد الله ١٢ (اثنى عشر) ألف فارس من خيرة رجاله ، وقدم عليهم ابا مدين بن فروخ اللهيصى وأمره باللحاق باخوانه فى باغاية للدفاع عنها ضد الأغالبة ، اذا لم يكونوا قد انسحبوا من المنطقة •

وعندما وصل أبو مدين الى باغاية وجد أن اخوانه بها ، رغم قلة عددهم، كانوا قد قاتلوا الجند الأغلبى قتالا عنيفا حتى يأس هؤلاء الاخيرون من هزيمتهم وخشوا ان يأتى المدد الى الحامية من أبى عبد الله ، فارتدوا على أعقابهم نحو الأربس • وحسب أوامر أبى عبد الله لم يتبع أبو مدين الجند الأغلبى الا الى موضع يعرف بفج العرعار (١٦٤) •

الانتصار الفاصل لأبى عبد الله فى الأربس :

عندما تحسنت الأحوال الجوية عبأ إبو عبد إلله حشوده وخرج من ايكجان فى أول جمادى الأخرى من سنة ٢٩٦ هـ/٢٥ فبراير ٩٠٩ م ، وهو ضد الجيش الأغلبى المعسكر فى الأربس • وعرج الداعى ، كما هى العادة، على مدينة باغاية التى أصبحت القاعدة الحقيقية لعملياته العسكرية ، حيث عرض جيوشه التى بلغت ٢٠٠ (مائتى) ألف رجل ما بين فارس وراجل ، كما يقول القاضى النعمان الذى ينص على أنه أجتمع فى مقابل ذلك فى الأربس من الجند الأغلبى أعداد لا يحصيها الا الله • وبعد العرض العسكرى سار أبو عبد الله فى أتجاه مسكيانة ، من حيث سار بحذاء واديها الى أن

(١٦٣) افتتاح الدعوة ، ص ١٦٨ ، وقارن تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٧ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥ ـ حيث القراءة : ابى مكدولة الجيلى بدلا من ابىمكدول)•

(١٦٤) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ ، وقارن تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ج ٨ ص ١٧ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٥) •

وصل الى وادي مجانة ، ومنه الى وادى مرماجنة ثم وادى الرمل ، على أربعين ميلا من القيروان ، حيث أقام معسكره (١٦٥) ٠

وقبل أن يتجه الى الأربس رأى أبو عبد الله أن يتعرف أحوال المنطقة وما يمكن أن يكون فيها من الجند الأغلبي ، وما يمكن أن يقوم به من المقاومة، ففي يوم الخميس ٢١ من جمادى الآخرة / ١٦ مارس بعث سرية من خيالته نيبت بلدة منيولة ٠وفي يوم الجمعة التالى وسع أبو عبد الله نطاق جولات فرسانه الى : شقبنارية (الكاف حاليا) التي خضعت بالأمان ٠ وأرض بني جودان حيث التقت بسرايا ابن أبي الأغلب وتقاتلت معها ٠

خطة المعركة :

وبعد أن اطمأن الى حالة المنطقة ٠ عبأ رجاله يوم السبت ٢٣ من جمادى الأخرى / ١٨ مارس بعد أن عرضهم في هيئة الحرب ميمنة وضع فيها بني نيطاش ٠ وميسرة جعل فيها بني يناوة وقلبا وضع فيه قبيلتي ملوسة ومسالتة ٠ أما هو فقد وقف على رأس عشرة آلاف فارس انتقاهم من الدعاة ورؤساء القبائل وأصحاب المعرفة بمكائد الحروب(١٦٦) ٠ وعلى هذه التعبئة زحف الى ابراهيم بن أبي الأغلب بالأربس الذى كان بدوره قد عبأ عساكره للحرب ٠

حرب الكمائن تقرر مصير المعركة :

وعندما التحم القتال في سهل الأربس كان أبو عبد الله يقف في مقدمة فرسانه على تلة مشرفة على المدينة يشاهد القتال الدامي ، الذىسقطت فيه أعداد كثيرة منالفريقين ٠ وظهر لأبي عبد الله خلال الحرب التى استمرت من الصباح الى وقت العصر ان الجند الاغلبي يقاتل آخر معاركه باستماتة أشفق منها على رجاله ٠ وعندئذ قرر انتخاب حوالى ستمائة رجل من أشداء رجاله ، ورسم لهم أن يعبروا المخاضة (المسيلة) المتاخمة لميدان المعركة ، وأن يدبروا كمينا للخيالة الأغلبية التي لا تريد أن تنهزم ٠ والظاهـر أن الموقف الحربى وقتئذ كان يقضى على كل من الجانبين المتحاربين أن يحاول

---

(١٦٥) انظر افتتاح الدعوة ، ص ٢٠١ والهوامش ، وقارن تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٧ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٦) ٠

(١٦٦) انظر افتتاح الدعوة ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ٠

مثل تلك المحاولة ، اذ التقى رجالة كتامة ، وهم عراة في المخاضة ، برجالة الاغالبة • وانتهى ذلك اللقاء البرمائي العجيب بتفوق الكتاميين الذين خرجوا برماحهم ودرقهم ، يفاجئون الخيالة الأغلبية ويرجحون كفة فرسان كتامة عليها (١٦٧) •

وهكذا انكسرت مقاومة القوات الأغلبية فجأة ، وتفرق العسكر في اتجاه بلادهم : فأخذ ابراهيم بن أبي الاغلب ومن معه من رجال الدولة الطريق على جبل الحراقين ، وانهزم من كان من قبائل : لواتة وكزناية ومكلاتة على طريق « جثيرمس » ، وهرب الهواريون والنفزيون على طريق بني بشير.، بينما انهزم العبيد واخلاط الناس من أهل الريقية في اتجاه القيروان • كل هذا والكتاميون في أعقابهم يقتلون ويأسرون ويغنمون ، ووصلت جماعات منهم في متابعتها للمنهزمين حتى مدينة الأربس ، ثم انهم عادوا الى معسكرهم عندما جن الليل (١٦٨) •

أما عن الأربس نفسها فانها تعرضت للعاصفة الكتامية في يوم الأحد التالي وهو ٢٤ من جمادى الآخرة /١٧ مارس • فقد دخل رجال أبي عبدالله المدينة عنوة ،وقتلوا بها من الخلق مالا يحصى، كما يقول القاضي النعمان(١٦٩)• مما يرجح أن مسجدها الجامع كان مسرحا لمذبحة مروعة ، سال فيها الدم انهارا ، كما تقول رواية ابن عذارى (١٧٠) • وقضى الجند الكتامي يومهم في الأربس ثم خرج بهم أبو عبد الله يوم الاثنين ٢٥ جمادى الآخرة/١٨ مارس في طريق قمودة ، وهو يريد قسطيلية (١٧١) •

العودة الى رقادة ونهاية الدولة الأغلبية :

اذا كان مؤرخو الأغالبة يقولون ان أبا عبد الله لم يتبع انتصاره الكبير في الأربس بالزحف على رقادة العاصمة ، خشية أن يحشد زيادة الله الجند

---

(١٦٧) افتتاح الدعوة ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، وقارن تلخيص ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٧ •

(١٦٨) افتتاح الدعوة ، ص ٢٠٥ •

(١٦٩) افتتاح الدعوة ، ص ٢٠٥ •

(١٧٠) البيان ، ج ١ ص ١٤٦ - ١٤٧ ، ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ •

(١٧١) افتتاح الدعوة ، ص ٢٠٥ ، ابن الأثير سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٧ ، ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤٧ : حيث يقول انه انصرف الى باغاية •

الأغلبي المبعثر من جديد فلا يقدر عليهم ، فالحقيقة ان ابا عبد الله واصل المسير على نفس النهج الذى اتبعه فى حرب الأغالبة منذ البداية ، والذى يتلخص فى ترهيب عدوه بصدماته المفاجئة ، واكتساب ما يمكن اكتسابه من الأرض والغنيمة ، باقل قدر من الخسائر · وحرص أبى عبد الله على تقليل خسائره على قدر الامكان هو الذى يفسر كيف أنه كان يفضل انسحاب عدوه على أن يتخطف من ساقته ما قدر عليه ، وهو ما يفسر أيضا كيف أنه كان يفك الالتحام بخصمه عقب اللقاء مباشرة ، سواء كانت الوقعة له أم عليه ، معتمدا على معاودة الالحاح على العدو فيما بعد · فكأن خطته الحربية فى حرب الأغالبة كانت حربا متقطعـــة أشبه بحرب الصوائف والشـــواتى السنوية التى طبقها العرب فى فتوح الاسلام الأولى ·

في اطار هذه السياسة الحربية السليمة ، ما ان علم أبو عبد الله بهروب زيادة الله وفشل ابراهيم بن أبى الأغلب فى القيام مقامه ، حتى ارتد على عقبيه قبل أن يصل الى سبيبه ، ومر بسكتانة ، عائدا الى معسكره فى وادى الرمل ، وذلك فى يوم الخميس ٢٩ من جمادى الآخرة / ٢٣ مارس ، وقضى فيه ليلته ·وفى يوم الجمعة التالى آخر شهر جمادى الآخرة سير عروبة(عزوية) ابن يوسف وحسن بن أبى خنزير على رأس الف فارس الى رقادة · ووصل القائدان والناس ينهبون رقادة ، فأمنوهم حسب أوامر أبى عبدالله وتركوا لهم ما اخذوه ، ولكنهم أوقفوا النهب ، مما دعا أهل القيروان الى الابتهاج عندما وصلهم الخبر (١٧٢) ·

وفى يوم السبت التالى أول رجب سنة ٢٩٦ هـ/٢٦ مارس كان وصول أبى عبد الله الى رقادة · وخرج شيوخ القيروان وفقهاؤها للترحيب به فى موضع ساقية ممس حيث استقبلوه وسلموا عليه وأعلنوا طاعتهم له ،وسألوه الأمان فامنهم · ثم انهم ساروا فى ركابه الى أن دخل رقادة ، والقارىء يقرأ بين يديه : « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر » الخ الآية·ويقرأ : «كم تركوا من جنات وعيون» الى آخر السورة(١٧٣) ·

---

(١٧٢) افتتاح الدعوة ، ص ٢١٢ ·

(١٧٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ — حيث الاشارة الى أن فقهاء القيروان عندما علموا بعودة أبى عبد الله الى الاربس خرجوا مع وجوه الناس لملاقاته ، فسار بهم صحبوب ابن عبد ربه الهوارى الى قصر باروقس ، بين مدينة جلولاء وحمام السرادق ، حيث وصلوا يوم ٢٧ جمادى الآخرة/٢٤ مارس ، ولكن الشيعى صرفهم الى انصراف ، ولم يسمح لهم =

وفي رقادة نزل أبو عبد الله في أحد قصورها المعروف بقصر البحر ، وفرق دور المدينة على زعماء كتامة وأنزل جنود عساكره حولها (١٧٤) . أما من مدينة القيروان عاصمة البلاد العريقة ، فانه أمن من وجده فيها من أفراد البيت الأغلبي وقوادهم الذين آثروا البقاء على الفرار مع زيادة الله ، لم يستثن من ذلك الا ابراهيم بن بربر بن يعقوب التميمي ، المعروف بالقوس اذ قتله خنقا . كذلك أمر أبو عبد الله بالتخلص من رجال الحرس السوداني من موالي بني الأغلب ، فقتلوا . والظاهر أنهم استجابوا لمؤامرة التخلص من الداعي التي كان يدبرها ابراهيم القوس ، كما يفهم من رواية ابن عذاري ، التي تنسب الى أبي عبد الله قـــوله : « ما أمنت افريقيـــة حتى قتلت القوس » (١٧٥) .

قيام الدولة الفاطمية ، في غيبة الامام :

وبذلك قامت دولة الشيعة الفواطم ودولة كتامة بعد حوالي ١٥ (خمسة عشر) عاما من ذلك اللقاء الذي تم بمكة بين الداعي الشيعي الشاب أبي عبد الله وبين جماعة الحاج الكتامي . وبدأ أبو عبد الله يقر الأمور في افريقية ، ويثبت دعائم الدولة الفاطمية الفتية استعدادا لاحضار الامام الذي يدعو له ، وهو عبيد الله المهدي ، الذي كان حينئذ في سجلماسة ، بعيدا على حافة الصحراء في جنوب المغرب الأقصى .

العمل على استنقاذ أموال الأغالبة ، والمعتقلين في افريقية من أهل الدعوة :

ولقد تطلب انجاز هذه الأمور حوالي الشهرين ونصف الشهر . وكان أول ما بدأ به الداعي هو العمل على حفظ ما كان قد بقي في البلاد من كنوز

باللقاء في مسس الا بعد مكاتبات واستعطاف . ولا شك أن الرواية تبالغ هنا عندما تقدر أن عدد قوات الشيعي تبلغ ٣٠٠ (ثلاثمائة) ألف فارس وراجل موزعين على ٧ (سبعة) جيوش (قارن ابن حماد ، أخبار ملوك بني عبيد ، ص ٨) . وتذكر رواية ابن عذاري أيضا أن كتامة غضبت عندما بذل أبو عبد الله الأمان لأهل القيروان ، على زعم أنه كان قد وعدهم بأن تكون طعمة ، ولو أنهم قبلوا ما قاله لهم من أنها مدينة طيبة قد أحاطها الله برعايته .

(١٧٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٠٥ : حيث القراءة « قصر الصحن » التي صححناها الى « قصر البحر » . وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٦ .

(١٧٥) البيان ، ج ١ ص ٢٠٥ . والظاهر أن القائد الأغلبي القتيل لم يشتهر باسم « القوس » الا بعد خنقه بوتر قوسه ، بأمر الداعي ، الا اذا كان الرجل قد عرف بمهارته في الرماية بالقوس الذي صار لقبا له .

الأغالبة وذخائرهم ، وانقاذ كبار أهل الدعوة من المعتقلين في البلاد . ولما كان أخوه أبو العباس المعروف بالمخطوم (لجرح أصيب به فوق أنفه) محبوسا في سجن طرابلس فانه بعث من استنقذه وعـــاد به وبصحبته أبو جعفر الخزري وكذلك أم عبيد الله المهدى التي كانت في حراسة هذا الأخير (١٧٦) ، هذا يعني ان المخطوم كان المسئول عن تأمين وصول والدة الامام الى المغرب ، وأن أمره انكشف في طرابلس فقبض عليه ، وأن الداعي كان على علم بذلك عن طريق عيونه أو جواسيسه . وفيما يتعلق بالأموال فقد عرف أبو عبد الله بما كان مخزونا منها في قصر الرباط بسوسة ، فأرسل قائده عروبة بن يوسف الى هناك حيث أمن أهل المدينة وعاد بالأموال التي بلغت ٢٨ (ثمانية وعشرين) حملا . كذلك أمر الداعي بجمع ما كان قد انتهبه الناس من الأموال بمدينة رقادة ، وضم عبيد زيادة الله الى رجاله ، ووقف جواريه ، أي أوقف التصرف فيهن (لحين عودة الامام من سجلماسة) ، وعهد بالنظر في ذلك الى أحد ثقاته من الفقهاء ، وهو أحمد بن فروخ الطبني المشهور بالأحدب (١٧٧) .

التراتيب الادارية :

وأخذ أبو عبد الله الداعي بعد ذلك في ترتيب الدولة وارساء قواعد نظمها . فعهد بولاية مدينة القيروان الى أحد المخلصين من أنصاره ، وهو الحسن بن أحمد بن علي بن كليب المعروف بابن أبي خنزير . كما آلت ولاية العاصمة الأغلبية السابقة ، مدينة القصر القديم ، الى أخي هذا الاخير ، وهو خلف بن أحمد بن علي بن كليب (١٧٨) . وصدر الأمر الى الأخوين الواليين « بقتل من خرج ليلا أو شرب مسكرا ، أو حمله أو وجد عنده » (١٧٩) ، فكأن عهد العدل والاصلاح قد بدأ بتطبيق « الاحكام العرفية » أو « حالة الطوارىء » ، كما نقول الآن .

الاصلاحات الدينية :

وفيما يتعلق بالاصلاحات الدينية التي تطلبها المذهب الفاطمي أمر أبو عبد الله بأن يزاد في الأذان بعد « حي على الصلاة » «حي على خير العمل » ،

---

(١٧٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٦ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٤ ص ٥١٣ .

(١٧٧) البيان ، ج ١ ص ٢٠٦ .

(١٧٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٦ .

(١٧٩) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٦ .

واسقط من آذان الفجر « الصلاة خير من النوم »(١٨٠) .

والى جانب ذلك أمر بالصلاة على علي بن أبي طالب باثر الصلاة على النبي ، وكذلك على فاطمة والحسن والحسين (١٨١) . وقبيل حلول شهر رمضان أعلن اسقاط صلاة الاشفاع (التراويح) ، وتم ذلك بمعرفة محمدبن عمر بن يحيى بن عبد الأعلى المروزي ، الذي كان من جند خراسان ، عندما عين قاضيا للقيروان في ١٧ من شعبان/١٢ مايه سنة ٩٠٩ م (١٨٢) . والحقيقة ان ردود الفعل المتعلقة من جانب أبي عبد الله ضد المعارضين لهذا الاجراء ، من : أهل السنة أو الخلعاء من الفساق ، الذين أرادو استغلال الفرصة للتحرر من قيود الدين (١٨٣) ، لتشكك في صحة الاجراءات الصارمة التي قيل انه أمر ولاته باتخاذها ضد شاربي الخمر وتجارها .

وهكذا تبلورت أصول المذهب في « تفضيل آل علي والبراءة من سواه»، كما يقول ابن عذاري ، وأمر وجوه كتامة بدعوة الناس الى الدخول فيه ، فدخل في ذلك معهم كثير من الناس . ولقد أطلق أهل السنة على المذهب الفاطمي « دعوة التشريق » ، لا تباعهم رجلا من أهل المشرق (١٨٤) .

شعارات الدولة :

أما عن شعارات الدولة الجديدة المأخوذة من الآيات القرآنية ، والتي

---

(١٨٠) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٠٦ .

(١٨١) ابن عذاري ج ١ ص ٢٠٧ . ويعلق ابن عذاري على ذلك ليقول انه اظهر التشيع في علي ومعاداة من قدم عليه من أصحاب النبي عليه السلام .

(١٨٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٠٧ حيث ينص ابن عذاري على ان القاضي المروزي احتج على فقهاء القيروان في المسجد الجامع ، وانكر عليهم - بمناسبة اعلانه اسقاط صلاة الاشفاع - الاقتداء بعمل عمر بن الخطاب في القيام وتركهم الاقتداء بفعل علي بن أبي طالب في زيادة حي على خير العمل في الآذان ، وقال لهم : اعملوا بمذهب أهل البيت ، واتركوا الفضول .

(١٨٣) أنظر ابن عذاري ج ١ ص ٢٠٧ : حيث تقول الرواية ان المروزي عندما رأى في أول رمضان في موضع جلوسه عند جدار القبلة بالجامع ، مكتوبا : « ومن اظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها » الى آخر الآية اكتفى بالأمر بمحوه . وانتقل عن الجلوس بذلك الموضع . وعندما وقف عليه بعض الخلعاء ، وقال له : « قد لطفت لنا ، أصلحك الله ، في قطع قيام شهر رمضان فلو احتلت لنا في ترك صيامه لكفيتنا مؤونته كلها » ، اكتفى بأن قال له : « اذهب عني يا ملعون » ، وأمر بصفعه .

(١٨٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٠٧ ، وانظر فيما سبق ص ٥٥٣ وهـ ٨٠ حيث تنسب التسمية الى معلم الصبية الكتامي الذي حل أبو عبد الله محله عندما نزل على جماعة كتامة لأول مرة ، وكذلك المعارضين للداعي من الكتاميين .

كان قد بدأ برفعها في دار الهجرة بايكجان ، فقد ظهرت أيضا على النقود ، التي عهد بخطة سكها الى أبي بكر الفيلسوف المعروف بابن القمودي ، وعلى السلاح ، الى جانب خاتم أبي عبد الله ، وخاتم طبع السجلات ثم البنـــود والخيل ٠

وفيما يتعلق بنقش السكة تقول رواية ابن عذاري ان أبا عبد الله جعله: « الحمد لله رب العالمين » (١٨٥) ، بينما تقول رواية ابن الأثير بشيء مـــن التفصيل انه أمر بالا ينقش عليها اسم ، وجعل مكان الاسم من وجه : « بلغت حجة الله » ، ومن الوجه الآخر « تفرق أعداء الله » (١٨٦) ٠ ومن استقراء هذه النقوش الثلاثة يمكن القول ان النقوش التي يشير اليها ابن الاثير والتي تعبر عن انتصار المذهب الشيعي وهزيمة أعدائه كانت سابقة على نقش الحمدلة الذي يعبر عن الراحة النفسية والاطمئنان بعد أن استقرت الأمور ٠ أما عن السلاح فكان نقشه (عدة في سبيل الله) (١٨٧) ، بينما ظل نقش خاتم الداعي : « فتوكل على الله ، انك على الحق المبين » ، ونقش خاتم طبع السجلات : « وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم » ٠ وبقيت كتابة الرايات : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » الى جانب : « قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » ، وغيرها من الآيات التي تحمل مثل هذا المعنى ٠ كذلك ظل وسم الخيل في أفخاذها بكلمتي : « الملك لله » (١٨٨) ٠

استحضار الامام من سجلماسة :

وبينما كان أبو عبد الله الداعي يقرر قواعد الدولة الفاطمية في بلاد القيروان كان يعد العدة ، في نفس الوقت من أجل استنقاذ الامام عبيد الله الذي كان لاجئا في سجلماسة بصحبة ولده أبي القاسم ، بعيدا على حافة الصحراء الجنوبية للمغرب الأقصى ٠

---

(١٨٥) البيان ، ج ١ ص ٢٠٦ ٠

(١٨٦) ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٨ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٦) ، واتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٤ ٠

(١٨٧) ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٦) ٠

(١٨٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، وقارن ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، وما سبق ، ص ٥٥٨ ٠

وصول المهدى الى سجلماسة :

اما عن كيفية وصول عبيد الله المهدى الى سجلماسة ، فقصتها أشبه ما تكون بقصة التجاء الامام ادريس الأول الى المغرب ، وان كانت أكثر منها غرابة • والظاهر أنه عندما اشتدت شوكة أبى عبد الله الداعى ، وانتشرت دعوته الشيعية بين قبائل كتامة ، ووصلت أنباء ذلك الى المشرق ، بدأت الخلافة تشتد فى طلب صاحب الدعوة ، وحامت الشبهات حول عبيد الله ، الذى كان قد لجأ الى سلمية من ارض حمص فى بلاد الشام (١٨٩) ، لفسر بصحبة ابنه ابى القاسم نحو مصر . دون أن يكشف عن نفسه •

والروايات تختلف فى تحديد تاريخ فرار عبيد الله من سلمية الى مصر، وهل وقع ذلك فى أواخر أيام الطولونيين ؟ أم بعد سقوطهم فى سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥ م ؟ ويظهر ذلك الخلط التاريخى فى الروايات التى جمعها المقريزى بشأن حادثة الهرب تلك : فهو عندما يختتم الفصل الخاص بمناقشة صحة نسب عبيد الله المهدى يسجل أنه ظهر بسجلماسة فى ذى الحجة سنة ٢٩٠ هـ/ أكتوبر ـ نوفمبر ٩٠٣ م (١٩٠) ، أى على عهد هارون بن خمارويه بن أحمد ابن طولون (٢٨٣ ـ ٢٩٢ هـ/٨٩٦ م ـ ٩٠٥ م) (١٩١) فى خلافة المكتفى (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ/٩٠٢ م ـ ٩٠٨م) (١٩٢) ، ثم يعود ، فى كلامه عن خروجه الى المغرب ، لكى يقول : أنه وصل الى مصر أثناء ولاية عيسى النوشرى (٢٩٢ـ ٢٩٧ هـ /٩٠٤ ـ ٩١٠ م) فى خلافة المعتضد (١٩٣) الذى كان قد توفى قبل ذلك فى ربيع الثانى من سنة ٢٨٩ هـ/مارس ٩٠٢ م •

قضية تحديد التاريخ :

الخروج من الشام فى النصف الثانى من سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م :

وسبب هذا الخلط التاريخى ، فيما بين خلافة المعتضد وخلافة المكتفى وما بين ولاية الطولونيين فى مصر وولاية عيسى النوشرى ، يكمن فى عدم

---

(١٨٩) انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ط • ١٩٦٧ ، ص ٦٠ ، وانظر ابن الأثير سنة ٢٩٦ ج ٨ ص ١٤ ، وانظر فيما سبق ، ص ٥٤٥ وهـ ٤٠ •

(١٩٠) اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٥٤ •

(١٩١) انظر الكندى القضاة والولاة ، ط• ليدن ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٦ •

(١٩٢) ابن الأثير ، احداث سنة ٢٨٩ ، سنة ٢٩٥ •

(١٩٣) اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٠ •

التمييز بين ظهور الداعي أبي عبد الله في بلاد كتامة علي أيام الخليفة المعتضد والطولونيين وبين ظهور عبيد الله المهدى في سجلماسة على أيام الخليفة المكتفي وواليه على مصر ، التي كان قد استعادها العباسيون سنة ٢٩٢ هـ/ ٩٠٥ م ، عيسى النوشرى (١٩٤) ٠

واذا كان الأمر كذلك فلا بأس في أن يكون خروج عبيد الله المهدى من سلمية الى مصر قد تم في بداية ولاية عيسى النوشرى (منذ ٧ جمادى الاخرة سنة ٢٩٢ هـ/١٧ أبريل ٩٠٥ م) ولا بأس أن يكون ذلك قد تم في فترة الاضطراب التي عرفتها مصر خلال سبعة أشهر ، فيما بين ٢٦ من ذى القعدة سنة ٢٩٢ هـ/٣٠ سبتمبر ، و ٨ رجب سنة ٢٩٣ هـ/٦ مايه ٩٠٦ م ، بسبب ثورة محمد الخلنجي الذى دعا للطولونيين (١٩٥) ٠ فلا شك أن هذه الثورة التي عمت مصر وجنوب بلاد الشام والتي تنقل أثناءها عيسى النوشرى أمام مطاردة الخلنجي فيما بين الجيزة والاسكندرية والصعيد ، كانت مواتية لكي ينتقل المهدى من حمص الى مصر والمغرب خفية عن عيون الخلافة ٠ هذا ، كما يمكن القول ان اضطراب الأحوال في مصر فيما بين سنتي ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م ، و ٢٩٣ هـ/٩٠٦ م ، هو الذى تسبب في ذلك اللبس الذى حدث بين تلك الفترة وبين فترة الاضطراب التي عرفتها البلاد على أواخر أيام الطولونيين ، قبل سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م ، كما كان سببا في ظهور تلك الروايات ذات الطابع الأسطورى ، التي أحاطت برحلة عبيد الله المهدى الى المغرب وجعلتها أشبه بمغامرة قصصية من النوع العجيب ٠

ويقوى ذلك الاحتمال ما تقوله الرواية الشيعية الخاصة بتلك الرحلة من أن المهدى كان موجودا في مدينة الرملة من فلسطين حوالى منتصف سنة ٢٩١ هـ/٩٠٤ م ، بعد خروجه من سلمية أثناء الثورة المعروفة بثورة القرامطة في بلاد الشام ضد الأمير طغج والى دمشق ، والتي دارت فيما بين سنة ٢٨٩ هـ/ ٩٠٣ م وسنة ٢٩١ هـ/٩٠٤ م ٠ والذى يفهم من تلك الرواية التي ترجع الى أيام المعز لدين الله الفاطمي أن تلك الثورة لم تكن قرمطية بل كانت

---

(١٩٤) أنظر كتاب الاستبصار ، ص ٢٠٤ . حيث تجعل الرواية خروج عبيد الله من مصر في أيام الطولونيين وعلى عهد الخليفة المعتضد . فكأنها وضعت عبيد الله المهدى في موضع أبي عبد الله الشيعي ٠

(١٩٥) أنظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، أحداث سنة ٢٩٢ ـ ٢٩٣ هـ ج ٣ ص ٢٤٧ وما بعدها ٠

شيعية فاطمية ، وأن الذين قاموا بها هم بعض المنشقين من الدعاة على اخى الدعاة » وأن ذلك كان سبب خروج المهدى من سلمية • وحسب تلك الرواية فان ما قام به دعاة المهدى الثوار من الاساءة الى الهاشميين الذين كان المهدى يتظاهر بالانتساب اليهم ، كان سببا فى شكوى هؤلاء الى الخلافة التى تنبهت عندئذ الى عبيد الله (١٩٦) •

الرحلة العجيبة :

هكذا يكون عبيد الله المهدى قد خرج فى النصف الثانى من سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م من بلاد الشام بعد فشل الثورة هناك ، فى الوقت الذى كانت تصله انباء نجاح داعيته أبى عبد الله فى المغرب ، وبعد أن أخذ رجال الخلافة من أصحاب الأخبار يلحون فى اماطة اللثام عن شخصية الامام التى كانت كتامة تقاتل فى سبيل اظهار دعوته وكذلك قرامطة الشام •

وحسب الأساليب الفنية التى كان يتقنها أصحاب مثل هذه الحركة السرية ودعاتهم سار عبيد الله من الشام وبصحبته ابنه أبو القاسم (نزار)، وهو مستتر بزى التجار ، وخرج معهما بعض نساء بيته وعدد من خاصته ومواليه ، وعلى رأسهم أبو العباس (المخطوم) أخو الداعى الذى كان يراقبه عن كثب •

والظاهر أن تسلل عبيد الله خفية من سلمية أثار شكوك رجال الخلافة الذين خمنوا وجهة سيره نحو المغرب ، فأصدر ديوان بغداد أوامره الى عيسى النوشرى والى مصر ، والى أمير القيروان الأغلبى زيادة الله بأخذ الطرق عليه

---

(١٩٦) انظر مذكرات حركة المهدى الفاطمى ، استتار الامام ، وسيرة جعفر الحاجب ، نشر ايفانوف ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، ج ٢ ، ديسمبر ١٩٣٦ ، المقدمة ٩٠ — ٩١ (حيث تحديد الثورة فى الشام فيما بين سنوات ٢٨٩ — ٢٩١ هـ) ، ص ٩٦ — ٩٧ (حيث تحذير المهدى من غدر بنى أبى محمد الداعى ورحيله من سلمية الى حمص ، الى طرابلس الشام ، الى الرملة) ، ص ٩٨ (حيث حصر طغج فى دمشق) ، ص ١٠١ — ١٠٢ (حيث كتب الهاشميون الى الخليفة المعتضد يستنصرون به ، ووقوع الكتب بيد التاجر ابن مهزول الذى كان ينتظر قدوم المهدى عليه فى الأشهر الأولى من سنة ٢٩١ هـ)، ص ١٠٥ — ١٠٦ (حيث هزيمة أبى مهزول أمام محمد بن سليمان ثم القبض عليه واقراره على المهدى وصلته ، وخروج البريد من بغداد بطلب المهدى فى جميع الآفاق) ، ص ١٠٧ (حيث النص على ان المهدى كان يعيش فى سلمية مع الهاشميين ويتظاهر بأنه عباسى) •

يقبضه ، بل وكذلك كل من يشبهه (١٩٧) . وتنجح أعوان النوشرى فعلا في القبض على عبيد الله في بعض البساتين ، ولكن الأمر انتهى باطلاق سراحه ، بعد أن أنكر حاله ، وهو يظهر التقى والعبادة(١٩٨) .

وتضيف الروايات الفاطمية الأصل على تلك المغامرة لونا قصصيا مثيرا ، فتقول ان المهدى بعد أن خرج من مصر (العاصمة) عاد — رغم تعرضه للاخطار — يطلب كلبا كان هرب لهم ، فحمل الى الوالى الذى حقق معه ، ولم يطلقه الا عندما قيل له انه صائد قد هرب له كلبه فطلبه ، وشهدت له البينة بذلك (١٩٩) .

والى جانب الرواية ذات الطابع القصصي هذه نجد روايتين أخريين أكثر جدية اذ تقول الواحدة منهما ان عبيد الله اشترى الوالى فأعطاه مما كان معه من الأموال الكثيرة حتى أطلقه (٢٠٠) ، بينما تقول الأخرى ان عيسى النوشرى أطلقه لأنه كان يتشيع (٢٠١) ، مثله في ذلك مثل واضح صاحب بريد مصر الذى ساعد ادريس بن عبد الله على الفرار الى المغرب منذ أكثر من مائة عـــام (٢٠٢) .

---

(١٩٧) أنظر اتعاظ الحنفا للمقريزى ، ج ١ ص ٦٠ — ٦١ ، ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ج ٨ ص ١٤ — ١٥ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٠٤ .

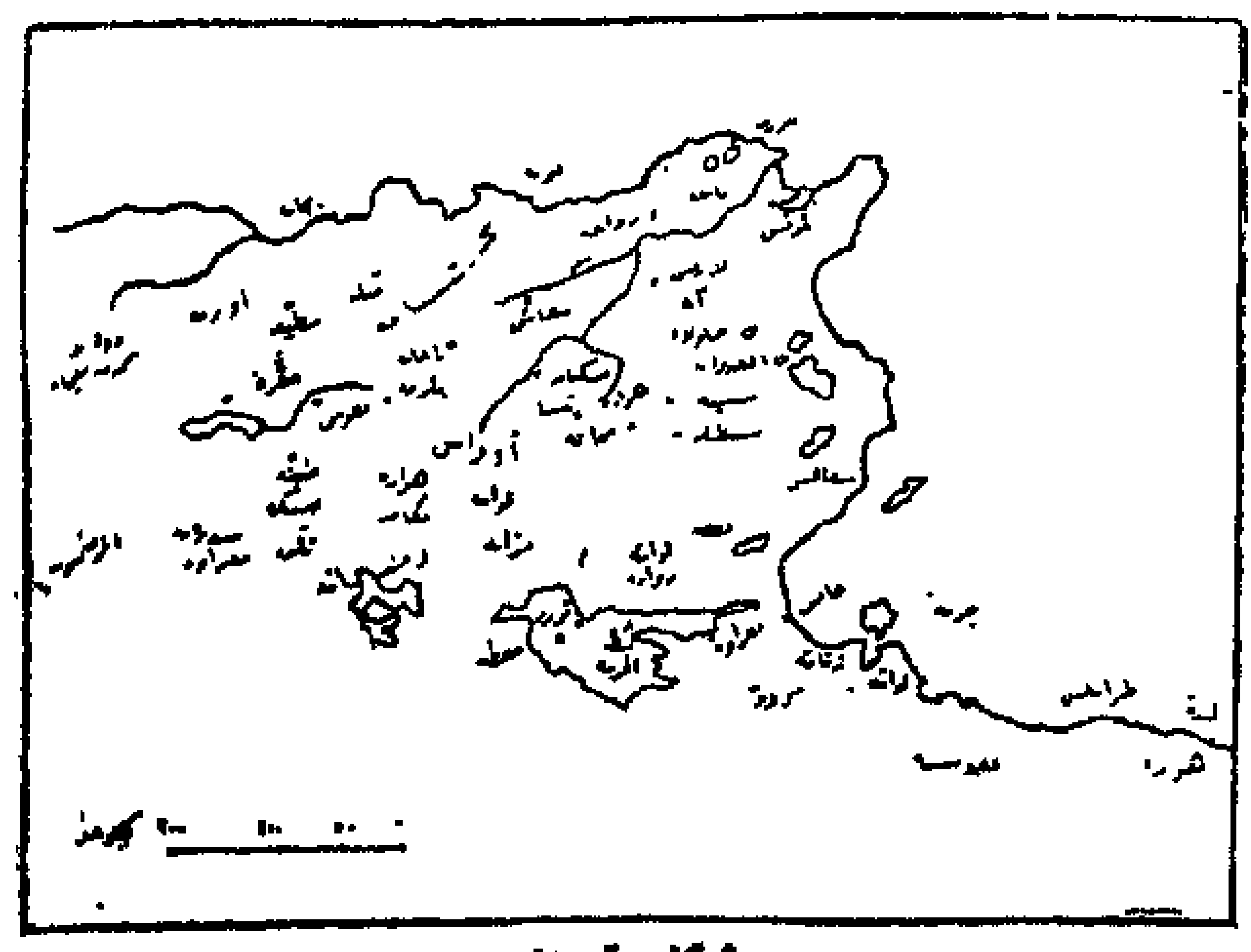
(١٩٨) اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٠ .

(١٩٩) أنظر كتاب الاستبصار ص ٢٠٤ ، وقارن اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٦٠ — ٦١ ؛ حيث تقول الرواية ان الكلب كان لابى القاسم بن المهدى ، وان هذا الأخير عندما عاد الى طلبه في البستان الذى كان قد قبض عليه فيه كان ذلك سببا في اطمئنان النوشرى الى أنه ليس الرجل المطلوب ، اذ كان أصحاب الوالى قد لاموه على اطلاقه . وأنظر هامش ١ ص ٦١ حيث يشير الى نص محمد بن محمد اليمانى الذى نشره ايفانوف (مجلة آداب القاهرة) ، عن رحلة المهدى من الشام الى المغرب ، والذى ترد فيه قصة القائم مع الجروة السلوقية المية له التى تسبب بشرائها مما كان سببا في عودة المهدى الذى استبطأهم ، ولكن على انها حدثت في الطريق من دمشق الى الرملة ، ودون المواجهة مع الوالى . أنظر النص ، ص ١٧١ .

(٢٠٠) ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ هـ ، ج ٨ ص ١٤ ، اتعاظ الحنفا للمقريزى ، ج ١ ص ٦٠ .

(٢٠١) ابن الأثير سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٤ ، وقارن نص محمد اليمانى ، مجلة كلية آداب القاهرة ١٩٣٦ ، ص ١١٣ (حيث تقول الرواية ان المهدى نزل على مصر القناة الذى يعرف بابن عياش ، وان هذا الأخير شهد لدى صاحب مصر بأن ضيفه لم يكن الا رجلا هاشميا من اشراف التجار ، وانه معروف بالفضل واليسار) .

(٢٠٢) أنظر فيه سبق ص ٢٥٠ — ٢٦٠ .



شكل رقم (٩)
بلاد افريقية

برقة :

ومن مصر سار المهدى وابنه وبصحبتهما أبو العباس أخو الداعي نحو الغرب مع بعض قوافل التجار الى طرابلس • وفي حيز مدينة برقة تعرضت الجماعة ، في موضع يعرف بالطاحونة لغارة قام بها عدة من المزاتيين من أهل الناحية ، وضاع فيها بعض متاع عبيد الله بعد أن تعرض للشتم واللطم ، ومنه كتب وملاحم كانت لآبائه عظم أمرها عليه • وفي تلك الغارة ضرب أبو العباس بالسيف على وجهه ، فكان الجرح الذى دعا الى تسميته بالمخطوم (٢٠٣) •

---

(٢٠٣) أنظر استتار الامام وسيرة جعفر ، مجلة كلية الآداب بالقاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ١٠٦ وسيرة جعفر الحاجب ، ص ١١٥ • وانظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٩١ • وابن عذارى ج ١ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ حيث ترد القصة بمناسبة تشكيل القوات الفاطمية بأهل برقة وهي في طريقها الى مصر سنة ٣٠١ هـ/٩١٣ م ، كثأر لتلك الاهانة التى لحقت بالامام عندما دخل بلدهم ، وهو قادم من مصر • وأنظر للمؤلف ، فترة حاسمة من تاريخ المغرب : موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين في افريقية وتنقلهم الى مصر ، مجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية ، المجلد الأول ، بنغازى ١٩٥٨ ، ص ٢٣٦ •

طرابلس :

وفي طرابلس استقر المهدى بعد أن انفصل عن قافلة التجار ، ولكن أمره كاد أن ينكشف بفضل عمال زيادة الله الأغلبي ، ولكنه لم يقبض الا على أبي العباس الذي حبس في سجن المدينة (٢٠٤) • وعندئذ رأى عبيد الله انه ليس من الحكمة المرور بالقيروان من أجل المسير مباشرة الى حيث ابي عبدالله في بلد كتامة ، فاخذ طريق القوافل الصحراوى المؤدى الى سجلماسة عبر قسطيلية (٢٠٥) ، وبلاد الجريد والزاب حيث مر ، كما تنص الروايات الفاطمية التي نجد لها ذكر في كتب الاباضية ، بكل من مدينتي توزر ووارجلان اللتين تعرض فيهما المهدى للسلب والاهانة من جديد ، كما حدث في الطاحونة بحيز برقة •

توزر :

ففي مدينة توزر من بلاد الجريد التي كان يظن أنها ستكون قاعدة ملكه ـ حسبما كان عنده من العلم ، لولا أنه وجد رجالها باعة وأصحاب حوانيت ، ليس معهم زينة الملك ولا هيئة السلطان ـ تعرض لعبيد الله ومن كان قد بقي معه ، رجل من بني جلتمين من قبيلة بني واسين ، ونزع دابته النفسية ، مما دعا المهدى الى أن يكتب اسم الرجل واسم قبيلته وبلده ـ انتظارا للانتقام منه فيما بعد •

وارجلان :

أما في وارجلان فقد تعرض له سفاؤهم وهرءوا به ، وقالوا : « هذا الذي جاء من الشرق يريد الملك فبصقوا في وجهه » ، وكان أشد الناس في ذلك أهل قصر بكر ، وشيخهم يسمى غيار ، ومنزله يعرف بتاغيارت • وفي ذلك قال عبيد الله : « غير الله ما بهم » •

وقصة مرور المهدى بتوزر ووارجلان وهو في الطريق الى سجلماسة بعد اقامته في مدينة طرابلس مقبولة • لا يضعف من شانها الا ما تقوله

---

(٢٠٤) ابن عذارى ج ١ ص ٢٠٦ ـ حيث الاشارة الى ذلك بمناسبة دخول ابى عبد الله رقادة ، وانظر فيما سبق ، ص ٥٨٢ وص ١٧٦ ، وقارن ابن الأثير (سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٥) الذي ينقله المقريزي (اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٦١) : حيث يفهم من الرواية ان أبا العباس قبض عليه في القيروان حيث كان المهدى قد أرسله لاستطلاع الأحوال ، واغلب الظن انه اعيد الى طرابلس لكي يدل على المهدى •

(٢٠٥) انظر ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٥ ، وقارن اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦١ : حيث القراءة قسنطينة خطأ والقسطنطينية بدلا من قسطيلية •

من ان عبده « الحجاني » الذى قد يقصد به أبو عبد الله الداعي الذى اشتهر بالايكجانى ، نسبة الى ايكجان دار الهجرة ، كان معه وأنه سيره من توزر الى مدينة تاصروت (تاروروت ـ دار الهجرة) من أرض كتامة ، بعد أن عرف قمحها في سوق توزر ، ووجدها على الصفة التى توافق علمه (٢٠٦) .
والظاهر أن رجال زيادة الله عندما فشلوا في وجود عبيد الله في طرابلس عرفوا وجهته نحو سجلماسة فخرجت رسلهم الى صاحبها اليسع بن مدرار يطلبون المهدى ويعرفونه بأنه الرجل الذى يدعو اليه أبو عبد الله الشيعى ، ويطلب اليه القبض عليه (٢٠٧) .

سجلماسة :

والظاهر أن عبيد الله عاش ، وهو في زى التجار ، فيسجلماسة لفترة من الوقت ، اذ تقول بعض روايات المقريزى انه أهدى الى اليسع وواصله ، وان الأمير المدرارى قربه وأحبه (٢٠٨) . هذا ، كما تقول بعض الروايات الشيعية المقبية التى بقيت اصداء لها في كتب الاباضية المعروفة ، ان عبيدالله نزل في دار لبعض وجوه أهل سجلماسة ، في طابقها العلوى ، وأن صاحب الدار الذى سكن معه في الطابق السفلى رأى فيما يرى النائم كأن ثعبانا عظيما يسكن معه في داره ، وأنه عندما قص الرؤيا على عبيد الله فسرها له بأن « الثعبان العظيم ملك يملك المشرق والمغرب » ، فما كان من الرجل

---

(٢٠٦) انظر أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٥ ـ ب (والدرجيني ، المطبوع ، ص ٩٢ ـ ٩٣) ، وقارن ، سيرة جعفر الحاجب ، مجلة آداب القاهرة ١٩٣٦ ، ص ١١٦ ـ ١١٨ : حيث تقول الرواية انهم ساروا من طرابلس الى قسطيلية ومروا بقنائل تلوسة . ويظهر من تلك الرواية المنسوبة الى جعفر صاحب المهدى أن عبيد الله ألم مدة لابأس بها في المدينة وأن خدامه لقوا بعض المتاعب من عامة الناس الذين كانوا في معظمهم من الاباضية . من ذلك ما تعرض له الحاجب جعفر من بعض العامة الذى عرف أنه رافضى فأساء اليه ، ومنها مغامرة مثيرة تعرض لها عندما بعثه المهدى لشراء خروف صغير سمين ، فعرض عليه رجل من أهل توزر كلب سمين « فاذا القوم يأكلون الكلاب ويسمونها بأسماء الخرفان » .

(٢٠٧) ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٥ ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦١ ـ ٦٢ ، وقارن سيرة جعفر ، ص ١١٩ . حيث تقول الرواية انهم ما ان خرجوا من توزر حتى نزل الرسول في طلبهم .

(٢٠٨) اتعاظ الحنفا للمقريزى ج ص ٦٢ وقارن أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٥ ـ ب (حيث تقول الرواية ان عبيد الله ذكر الى اليسع فأعطاه بعض ما عنده ليرد عنه الناس ، الى ما انتشر في سجلماسة من انه هرب من ... بأموال عظيمة لجهاله والزهد) .

الا أن يجله وقبل يديه (٢٠٩) .

واذا كنا لا نجد فيما بقى لنا من سيرة جعفر الحاجب عن اقامة المهدى المنقبية فى سجلماسة الا كرامة جرى الماء بشدة فى عين الماء الراكدة فى البستان الملاصق للدار التى سكنوا فيها بعد أن وضع القائم رجليه فى الماء (٢١٠) . فان ما احتفظ لنا به أبو زكريا ، فى سير أئمة تاهرت ، يمكن أن يقدم لنا صورة لا بأس بها عما كانت عليه سيرة المهدى المنقبية فى سجلماسة ، مما كان متداولا فى المغرب على عهد الفاطميين .

من ذلك أن المهدى أقام فى سجلماسة حتى عرف بالفقه والعلم والقراءة، فصار الناس يختلفون اليه ويسألونه عن حوائجهم . وأن والى المدينة (اليسع) آثره على جميع أصحابه وجعله وزيرا فى جميع أموره الى أن انتهى أمره بأن أصبح المرجع الأول فى أمور السلم والحرب ، مما جعلهم يتيمنون به فى جميع أحوالهم ، بل وحتى انتهى الأمر بأن ولوه على أنفسهم بعد وفاة اليسع، وهو غير راغب فى ذلك ، وصار يأخذ القرى والمدائن حتى أخذ مدينة فاس ، كما تريد الرواية الشعبية التى يغلب عليها الطابع الأسطورى (٢١١) .

أما عن رواية جعفر الحاجب فهى لا تشير الا الى القبض على المهدى فى سجلماسة بعد أن وصلت الأوامر الى اليسع بن مدرار بذلك من قبل الخلافة أو زيادة الله الأغلبى ، وهو ما يأخذ به جمهور المؤرخين ، وان تميزت الرواية الشعبية — التى تظهر فى شكل مذكرات شخصية — بالمزيد من المعلومات التفصيلية (٢١٢) .

---

(٢٠٩) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٦ — أ (الدرجينى ، المطبوع ، ص ٩٣) ، وقارن سيرة جعفر الحاجب ، ص١١٩، حيث تقول الرواية انهم استأجروا دارا حسنة من رجل يعرف بابى حيشة للمهدى .

(٢١٠) مجلة آداب القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٢١١) أبو زكريا ، المخطوط ، ص ٣٦ — أ ، وقارن رواية القاضى النعمان فى افتتاح الدعوة (ص ١٥٣ — ١٥٤) حيث تقول ان كل من رأى المهدى بسجلماسة كان يقول . « ما هذا تاجر وما هذا الا سلطان أو ملك من الملوك » ، كما تقول ان المهدى وصل اليسع صاحب سجلماسة الذى « كان يوجب حقه وتعظيمه الى أن أتاه كتاب زيادة الله ... يخبره انه هو الذى يدعو أبو عبد الله اليه » .

(٢١٢) انظر سيرة جعفر الحاجب ، ص ١٢٢ — ١٢٣ : حيث الاشارة الى انه عند القبض على المهدى وابنه القائم وخدمه : جعفر وطيب وصندل وأبى يعقوب القهرمان ، خصصت دار لحبس الامام وأخرى لحبس ولى عهده ، بينما حبس الخدم فى بعض سجون المدينة . هذا الى —

والذي يمكن ان يطمأن الى صحته من كل ذلك ، هو نجاح المهدى في الافلات من مطاردة عمال الخلافة وزيادة الله ، والوصول الى سجلماسة في واخر سنة ٢٩٢ هـ /٩٠٥ م حيث أقام متخفيا في زى التجار • ومن ملجأه في سجلماسة أخذ عبيد الله المهدى يتصل سرا بابى عبد الله الشيعى (٢١٣) ، لذى كان يطلعه أولا بأول على مجريات الأمور حتى أنه عندما انتصرت قوات الداعي على جيوش زيادة الله في نفس سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م ، أسرع ابو عبد الله فكتب الى المهدى « يعلمه بالفتح ، ووجه اليه بمال كثير مع قوم من كتامة سرا » (٢١٤) •

ولكنه رغم هذا التكتم لم تلبث الأنظار أن اتجهت الى عبيد الله الذى رضع تحت الرقابة ، الى أن أتت الأخبار من القيروان تؤكد لليسع بن مدرار ، صاحب سجلماسة ، أنه الرجل الذى يدعو اليه ابو عبد الله فى بلد كتامة ، لقبض عليه وحبس في دار أخت اليسع ، كما قبض على ابنه أبى القاسم الذى حبس فى دار أخرى فى بعض أرباض المدينة (٢١٥) ، ولم يلبث الخبر

= جانب ما تعرض له الخدم من التعذيب في سبيل انتزاع اقرارهم بأمر المهدى ، وكيف انهار بعضهم بينما صمد جعفر للامتحان الصعب • الى جانب اشارات الى بعض من كان يتصل به في سجلماسة من الأصدقاء والأتباع •

(٢١٣) انظر سيرة جعفر الحاجب ، ص ١٢١ (حيث تقول الرواية ان المهدى صادق رجلا مطلبيا من القيروان ، وأنه لما عاد المطلبي الى افريقية طلب اليه أن يعلم الداعي بأمره في سجلماسة) ، ص ١٣٢ (حيث الاشارة الى أبي جعفر محمد بن أحمد البغدادى الذي صار من أكبر أعوان المهدى ، وكيف كان صعود نجمه بسبب انه سار الى سجلماسة حيث التقى بالمهدى الذى امره بالمسير الى الأندلس انتظارا لفتح أبي عبد الله افريقية) •

(٢١٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٧ : حيث تضيف الرواية ان المهدى أعطى لصديقه المطلبى الذى كان معه في سجلماسة من الدنانير التى ارسلها اليه الداعي والتي لم يكن لها مثيل هناك ، وقرأ عليه كتابا بأبي عبد الله وأمره بكتمان الخبر ، والا يبدل من حاله خشية العيون والرقباء •

(٢١٥) كتاب الاستبصار ، ص ٢٠٤ (حيث تقول الرواية ان الذى قبض على عبيد الله كان رجلا يهوديا ، ولا بأس أن يكون قصد الرواية الشيعية من ذلك هو الرد على أولئك الذين اتهموا عبد الله بأنه يهودى الأصل) ، وقارن رواية القاضي النعمان (افتتاح الدعوة ، ص ٢٣٧) حيث تقول ان المهدى اعترف لليسع بنسبه العلوى ولكنه قال انه تاجر وانكر صلته بالداعي ، وان اليسع حمله في دار وجعل عليه حرسا ، وجعل ابنه القائم بأمر الله كذلك في دار أخرى ليفرق بينهما ويختبر قول كل واحد منهما ، وقارن المقريزى ، ج ١ ص ٦٥ حيث تقول الرواية ان اليسع قبض على المهدى عندما اقترب أبو عبد الله بجيوشه من سجلماسة •

آن وصل الى الداعي (٢١٦) ، قبل دخوله القيروان ، كما سبقت الاشارة(٢١٧) .

السير الى سجلماسة :

وهكذا ، بعد أن أقر أبو عبد الله الأمور في افريقية فوزع الولاة والعمال والقضاة على مختلف المدن ، أخذ يعد العدة لغزو سجلماسة واستنقاذ الامام . وفي منتصف شهر رمضان من سنة ٢٩٦ هـ/٨ يونيه ٩٠٩ م أى بعد شهر بن ونصف شهر من دخوله القيروان ورقادة ، سار على رأس قواته الكبيرة من كتامة ، التى يصفها ابن عذارى « بالدبى المنتشر » ، وابن حماد بأنها « ملء الأرض من الخيل والرجال » ، بعد أن استخلف أخاه أبا العباس على افريقية ، وبصحبته العائد أبو زاكى تمام بن معارك الاجانى واليا لرقادة(٢١٨) . وسار بصحبة الداعي حاشيته ، من وجوه رجاله وأهل دعوته ، مثل : ابراهيم بن محمد الشيبانى المعروف بأبى اليسر الكاتب ، وزيادة بن خلفون المتطبب مولى بنى الأغلب ، كما خرج معه من فقهاء العراق (الحنفية) أحمد بن محمد ابن سيرين الذى تعصب للمذهب الشيعى فسار راجلا : « يرى أنه محتسب للثواب فى طلب الامام » ، مما كان سببا فى توليته قضاء مدينة برقة بعد ذلك (٢١٩) .

القضاء على دولة تاهرت الرستمية :

ولما لم تكن بلاد المغرب قد عرفت ، منذ وقت طويل ، مثل هذا الجيش الجرار المثقل « بجهازه وعدده وآلات السفن » (٢٢٠) ، كان من الطبيعى أن يتقدم الداعي دون أن يلقى مقاومة ، فتتبدد القبائل أمامه ونفتح له المدن أبوابها (٢٢١) . فعندما مر بطبنة ، عاصمة الزاب ، أتاه الزعيم الزناتى محمد

---

(٢١٦) الاستبصار ، ص ٢٠٤ — حيث تقول الرواية ان عبيد الله هو الذى كتب اليه ، وأعلمه بحاله من الأسر والحرب ورغب اليه فى استنقاذه .

(٢١٧) انظر فيما سبق ، ص ٥٧٩ — ٥٨١ .

(٢١٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٢ ، ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد ، ص ٩ حيث لم يصحح الناشر « وأبا زاكى » فتركها « أبارك » وقارن ابن الأثير سنة ٢٩٦ ، ج ٨ ص ١٨ حيث لا يذكر أبا زاكى .

(٢١٩) البيان ، ج ١ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٢٢٠) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٢ .

(٢٢١) انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٥ حيث يقول ان المغرب اهتز لخروجه وحاذته [illegible] وزالت القبائل عن طريقه [illegible] دخلوا فى طاعته .

ابن حزر طائعا(٢٢٢) . وعندما عرج في الطريق على تاهرت ، لم يكن أمام عاصمة الرستميين سوى الاستسلام بالأمان . فالرستميون كانوا منقسمين على أنفسهم ، ما بين : أسرة الامام الحاكم يقظان بن ابى اليقظان ، وأسرة الامام المقتول السابق يوسف بن محمد بن أفلح الذى كانت ابنته دوسر ، كما تقول الرواية الاباضية ، تتحرق شوقا للاخذ بثاره ، كما كان مجتمع المدينة منقسما هو الآخر ، ما بين : وهبية مخلصين ، ومخالفين من : المالكية ، والواصلية والشيعة ، والصفرية ممن حرضوا أبا عبد الله على استئصال شأفة دولة الفرس من الرستميين .

وهكذا أذعنت تاهرت وأمر الداعي بقتل الامام يقظان وبنيه ، وبعث برؤسهم الى افريقية حيث طيف بها في شوارع القيروان قبل ان تنصب على أبواب رقادة (٢٢٣) . وعندما « دخل المدينة نهبها وانتهك حرمتها ، وأجلا كثيرا منها » ، وجعل أعزة أهلها أذلة » ، كما يقول أبو زكريا (٢٢٤) .

وبذلك انتهت دولة الرستميين ، بعد أن عاشت أكثر من مائة وثلاثين سنة ، وأقام على العاصمة الرستمية تاهرت واليا من قبله ، هو أبو حميد دواس بن صولات اللهيصى ، وجعل له معاونا ، هو ابراهيم بن محمد اليمانى المعروف بالهوارى الذى كان يلقب بالسيد الصغير (٢٢٥) .

القضاء على امامة سجلماسة المدرارية :

وواصل أبو عبد الله مسيرته المظفرة نحو الغرب دون أن يلقى مقاومة ، وانتهى به المطاف أمام سجلماسة في ٦ من ذى الحجة سنة ٢٩٦ هـ/أغسطس ٩٠٩ م . وكان من الطبيعى أن تلقى امامة سجلماسة الصفرية نفس المصير الذى لقيته مملكتا الأغالبة والرستميين . والذى يفهم من رواية ابن عذارى ان المدينة التى أحيط بها لم تستطع المقاومة الا يوما واحدا ، اذا انهزم اليسع بن

= وانظر افتتاح الدعوة للقاضى النعمان الذى نظن أنه مصدر رواية المقريزى (ص ٢٣٦) ونقله ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٦ .

(٢٢٢) افتتاح الدعوة ، ص ٢٣٦ ، حيث يقول القاضى النعمان عن ابن خزر : « وهو يومه أمير زناتة كلها وقبائل البربر بأسرها » .

(٢٢٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٢ .

(٢٢٤) السيرة وأخبار الأئمة ، المخطوط ، ص ٣٦ — ب (الدرجينى ، المطبوع ، ص ٩٤) وانظر فيما سبق عن الامامة الرستمية ، ص ٢٨٩ .

(٢٢٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٢ .

هدرار في آخر النهار ، وهرب خلسة تحت جنح الليل مع بعض أهل بيته (٢٢٦) ، حيث انتهى نهاية غامضة (٢٢٧) . وبذلك دخل الداعي سجلماسة ، وسار مباشرة الى سجن سيده عبيد الله المهدى ، حيث استنقذه وهو يخر باكيا أمامه من فرط التأثر والفرح ، كما استنقذ أبا القاسم ولى العهد (٢٢٨) . وانتقم أبو عبد الله من أهل سجلماسة ، المدينة البغيضة التى جرأت على امتحان الامام ، فنهبهم وأحرق دورهم وأغرمهم مغارم ثقيلة . كما أمر باجلاء الكثيرين منهم ، والظاهر انه خص اليهود بالحظ الأوفى من تلك النقمة (٢٢٩) .

والظاهر أن استقبال أبى عبد الله الداعى للمهدى عبيد الله ، بما يليق بالامام من التبجيل والاحترام ، لم يرق كثيرا لقواد كتامة . فقد هالهم ما فعله قائدهم الداعى من الترجل للمهدى وتقبيل يديه وركبتيه ، « فتحامت كتامة لذلك » ، كما يقول أبو زكريا (٢٣٠) . والواضح أنه رغم انفراد الرواية الاباضية بتقرير أنفة كتامة من خضوع الداعى للمهدى فان الروايات الأخرى تكاد تؤكد هذا الأمر ، عندما تقول : ان الداعى قال لكتامة « هذا مولاى

---

(٢٢٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٠ ، وانظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٥ ، حيث يضيف الى ذلك أن الداعى حاول أول الأمر ملاطفة اليسع حرصا على حياة الامام ولكن اليسع قتل رسله ومزق رسائله .

(٢٢٧) وفى ذلك يورد ابن عذارى روايتين تقول أولاهما (ج ١ ص ١٥٣) أن أبا عبدالله طلبه لم يقدر عليه ، وتقول الرواية الثانية (ج ١ ص ١٥٤) انه اخذ بعد ذلك بحوالى شهر اذ غدر به قوم من البربر يعرفون ببنى خالد ، واستأمنوا به الى أبى عبد الله فاتهم وذلك فى مستهل المحرم/٣٠ سبتمبر ٩٠٨ م . وانظر اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٥ ، حيث تقول الرواية ان خيل الداعى أدركت اليسع فأخذته وأتت به حيث ضرب بالسياط وقتل . وقارن رواية القاضى النعمان (افتتاح الدعوة ، ص ٢٣٨ — ٢٤٠) التى يمكن ان تكون اصلا لرواية المقريزى . وفيها يقول النعمان ان أبا عبد الله اراد أن يدارى اليسع خوفا على الامام فراسله ، ولكن اليسع رمى بكتابه وقتل رسله . وعن القتال يذكر ان اليسع فر ليلا فى بنى عمه واهل بيته ثم انه يقول بعد ذلك ان عساكر أبى عبد الله أدركتهم فأخذتهم واتت بهم ، وان اليسع ضرب بالسوط وطيف به فى العسكر وفى سجلماسة قبل أن تستصفى امواله ويقتل . بينما تقول رواية الاستبصار (ص ٢٠٤) انه فر فقتلته طائفة من رعيته لحقد كانوا يجدونه له . وانظر ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٦ .

(٢٢٨) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٣ ، وافتتاح الدعوة للقاضى النعمان ص ٢٤٠ .

(٢٢٩) انظر الاستبصار ، ص ٢٠٤ ، حيث تقول الرواية ان ما اخذ من أهل سجلماسة من التبر والحلى بلغ وقر ١٢٠ (مائة وعشرين) جملا . وقارن ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٣ .

(٢٣٠) السير وأخبار الائمة ، المخطوط ، ص ٢٧ — ٢ .

الامام فهو مولاكم »(٢٣١) ، وما تنص عليه من أن عبيد الله قال له عندئذ : « قل لهم هو المهدى بن المهدى سلالة الهـــداية(٢٣٢) ، حتى يخفف عليهم كما نرى ، من هول الصدمة التي أصابتهم في أمرهم الذى ما كانوا يظنون حتى ذلك الحين ، أن فوقه أميرا (٢٣٣) • وهكذا تطلب اقناعهم باستبدال زعامة المهدى بزعامة الداعي بعض الوقت • وكتب أبو عبد الله الى افريقية بما تم من نصر أولياء الله وذل أعدائه باستنقاذ الامام والظفر عـــلى صـــاحب سجلماسة (٢٣٤) •

هكذا اقام أبو عبيد الله بصحبة الامام وولى عهده في سجلماسة مدة اربعين يوما (٢٣٥) الى ان انقضى شهر المحرم من سنة ٢٩٧ هـ/ أخر اكتوبر ٩٠٨ م ، اقر الأمور خلالها في منطقة سجلماسة التي عين عليها واليا شيعيا ، هو ابراهيم بن غالب المزاتى(٢٣٦) ، واعد العدة للعودة الى رقادة • وفي شهر صفر / نوفمبر خرج الموكب الملوكي العظيم من سجلماسة يتقدمه الامام عبيد الله المهدى ممتطيا صهوة فرس عتيق ، وعليه ثياب نفيسة فاخرة ، وقد تضمخ بالطيب الكثير(٢٣٧) والى جانبه ابنه أبو القاسم ، ويحف به فرسان كتامة ، وهم يحرسون احمال التبر والحلى التي اخذت من المدينة التي تعتبر

---

(٢٣١) انظر الاستبصـــار ، ص ٢٠٤ • ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٣ • ابن الأثير سنة ٢٩٦ ج ٨ ص ١٩ ، وقارن رواية القاضى النعمان في رسالة افتتاح الدعوة (ص ٢٤٥) التي يمكن ان تكون الأصل الذى نقل عنه المتأخرون حيث تقول ان الداعي قال لرجاله . « هذا مولاكم وولى امركم وامام دهركم ومهديكم المنتظر الذى كنت أبشر به » ، وانظر ايضا ص •

(٢٣٢) الاستبصار ص ٢٠٤ •

(٢٣٣) انظر ابو زكريا ، المخطوط ، ص ٢٧ ـ أ ، حيث يقول : انه عندما قال الايكجانى (الحجانى) اى أبو عبد الله لكتامة عن عبيد الله : « انه مولاى وسلطاني وســـلطانكم • ذرية على وفاطمة فقالوا لا نعرف لانفســنا سلطان غيرك » •

(٢٣٤) سد مكاتبته وطلب عقد الأخوة بينهما في سبيل اخراج المهدى من محبسه ، وشيع اليسع ثم كيفية القتال والظفر ـ انظر نص الخطـــاب في افتتاح الدعوة للقـــاضى النعمان ص ٢٤١ ـ ٢٤٤ •

(٢٣٥) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٦ ، وانظر القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ص ٢٤١ ؟ الذي ينقل عنه المقريزى هذه الرواية •

(٢٣٦) ابن عذارى ج ١ ص ١٥٤ ، وانظر افتتاح الدعوة للنعمـــان (ص ٢٤١) حيث يقول انه استعمل عليهم عاملا دون ان يذكر اسمه •

(٢٣٧) ابن حماد اخبار ملوك بنى عبيد ص ٩ •

بابا من أبواب السودان ، بلاد التبر والذهب (٢٣٨) .

وكان وصول الموكب الى افريقية بعد رحلة استغرقت حوالى الشهرين اذ كان دخولهم الى رقادة يوم الخميس ٢٠ من شهر ربيع الآخر٧/٢٩٧ يناير ٩١٠ م (٢٣٩) . وخرج أهل القيروان مع أهل رقادة يرحبون بالامام الذى أحاط به أبو عبد الله الداعي ورؤساء كتامة مشاة بين يديه ، وخلفه ابنه أبوالقاسم. وبعد أن انفض الموكب نزل الامام بقصر من قصور رقادة حيث عرضت عليه جوارى زيادة الله ، « فاختار منهن لنفسه ولولده ، وفرق ما بقي على وجوه كتامة » (٢٤٠) .

عبيد الله المهدى اميرا للمؤمنين :

وفى يوم الجمعة التالى أمر عبيد الله أن يذكر اسمه في الخطبة ، فى كل من رقادة والقيروان وأن يكون لقبه فيها « خليفة » الله و « المهدى بالله أمير المؤمنين »(٢٤١) . وبذلك قامت دولة الأئمة الفاطميين فى المغرب بشكل رسمى ، بعد حوالى ١٥ (خمسة عشر) عاما قضاها أبو عبد الله الشيعى فى أرض كتامة ، وهو يدعو للامام المنتظر ، ويقاتل فى سبيل اقامة دولته ، إلى أن تكللت جهوده بالنجاح ، فقضىعلى ثلاث دول دفعة واحدة ، هى : دولة الأغالبة فى القيروان ، ودولة الرستميين في تاهرت ، ودولة المدراريين فى سجلماسة ، قبل القضاء على دولة الادارسة الرابعة (٢٤٢) . وهكذا حق لعبيد الله أن يبدأ حكمه « أميرا للمؤمنين » أى خليفة (٢٤٣) ، بتربعه

---

(٢٣٨) هذا ما يفهم من روايات الاستبصار وابن عذارى السابقة ، أما رواية القاضى النعمان فى افتتاح الدعوة (٢٤٦) فانها تشير الى أن المال الذى دخل به عبيد الله رقادة هو المال الذي كان للدعاة والمشايخ في ايكجان التي مال اليها وهو في الطريق فأمر باحضاره ، مما كان سببا في تحول أصحاب القلوب الفاسدة منهم (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٦) .

(٢٣٩) افتتاح الدعوة ص ٢٤٧ .

(٢٤٠) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٦ ، وقارن افتتاح الدعوة للقاضى النعمان ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ، ابن الأثير ، سنة ٢٩٦ ، ج ٦ ص ١٦ .

(٢٤١) أنظر افتتاح الدعوة ، ص ٢٤٩ : حيث يقول نص الدعاء : « اللهم صل على عبدك وخليفتك القائم بأمر عبادك فى بلادك ، عبد الله أبى محمد الامام المهدى بالله أمير المؤمنين ... » وقارن اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٦٦ .

(٢٤٢) أنظر فيما سبق ، ص ٤٧٧ .

(٢٤٣) ولا بأس من الاشارة هنا الى أن الخلافة كما وردت فى توقيع المهدى هى خلافة الله وليست خلافة الرسول ، كما هو الحال عند أهل السنة . وهذا ما تكرر فى التوقيع من أن المهدى هو خليفة الله وأن آباءه هم خلفاء الله الراشدين المهديين (افتتاح الدعوة ، ص ٢٤٩) .

على عرش دولة كبرى مترامية الأطراف ، ما بين سواحل افريقية على المتوسط ، وصحراوات المغرب الجنوبية على تخوم بلاد السودان ٠

وكان من الطبيعى أن يبدأ المهدى ممارسته لمهامه كرئيس للدولة الجديدة بالعمل على تأكيد مركزه كأمير للمؤمنين عن طريق جمع السلطة ، التى لم يكن له منها حتى وقتئذ شيء ، بين يديه ٠ ولكى يتحقق له هذا الهدف ، الذى يعتبر غاية لكل واصل جديد الى السلطة ، كان عليه أن يتبع سياسة دينية تضمن له حشد أكبر عدد ممكن من الأنصار ، يكونون له بمثابة العصبية أو القاعدة الشعبية التى يقوم عليها سلطانه ، وأن يتخلص من الزعماء أصحاب السطوة ممن يزاحمونه فى الملك وينقصون من سيادته وأهمهم الداعى ، وأن يواصل الفتح وتوسيع دولته نحو مصر ونحو المغرب الأقصى بما يشغل رجال الحرب ويوجه حماسهم العسكرى نحو الخارج ، كما يهيء موارد اضافية للدولة تزيد من قوتها ، وترفع من شأنه هو بين ملوك عصره ٠ أما عن اتخاذ مركز جديد للحكم فى مدينة « المهدية » فكان رمزا للنظام « الراشدى » الجديد الذى كان يسعى الى بسط سلطان آل البيت من الفاطميين فى المشرق بعد أن نجح فى نشر راياتهم على أسنة رماح أهل المغرب من الكتاميين ثم الصنهاجيين فى المغرب ، وهو ما نرجو أن يكون من موضوعات الجزء الثالث من الكتاب انشاء اللـــه ٠

فهرس المصادر والمراجع المذكورة في الهوامش

ابراهيم العدوى ، ابن عبـــد الحكم رائد المؤرخين العرب ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

ابراهيم رزقانة ومحمد صفى الدين ، الوطن العربى (فى : دراسات فى المجتمـــع العربى تأليف مجموعة من اساتذة كلية الآداب والاقتصاد والعلوم السياسية . جامعة القاهرة سنة ١٩٦١ - ١٩٦٢) .

ابن الأبار ، أبو عبـــد الله محمد القضـــاعى البلنسى ، توفى سنة ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م
- الحلة السيراء . تحقيق حسين مؤنس ، فى جزئين القاهرة ١٩٦٣ .

ابن أبى دينار محمد بن ابى القاسم الرعينى القيروانى ، كتاب المؤنس فى اخبار افريقية وتونس ، تونس ١٢٨٠ هـ .

ابن أبى زرع ، الأنيس المطـــرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، فاس ، طبع حجر .

ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، القـــاهرة (١٢ ج) .
- أسد الغـــابة فى معرفة الصحابة ، ٥ اجزاء طبعـــة المعارف ، القـــاهرة ١٢٨٥ هـ .

ابن اسحق ، كتاب فتوح مصر واقاليمهـــا ، القاهرة . ١٢٧٥ هـ (وانظر الواقدى ، فتوح مصر والاسكندرية) ، طبعـــة ليدن . ١٨٢٥ .
- وانظر ابن هشام ، السيرة .

ابو زكريا : كتاب السيرة واخبار الايمـــة ، ترجمة جزئية بمعرفة ماسكراى
(Masqueray, chronique d'Abou Zakaria, livre des Mizab), Alger, 1878.
- مخطوط دار الكتب ، رقم ١٠٣٠ ح .

ابو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمى ، المتوفى سنة ٣٣٣ هـ) طبقات علمـــاء افريقيـــة ، نشر الشيخ محمـــد بن أبى شنب ، الجـــزائر ، ١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤ م ، ط. بيروت ، ط. تونس .

ابو الفدا (اسماعيل بن على عمـــاد الدين صاحب حماة المتوفى سنه ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م) ، المختصر فى أخبار البشر ، القسطنطينية ، ١٢٨٦ هـ .
- جغرافية أبى الفدا (كتاب تقـــويم البلدان ، نشر رينو وديسلان ، ١٨٤٠ م)

احسان عباس ، العرب فى صقلية ، القـــاهرة (المعارف) ، ١٩٥٩ م .

احمد بن ابراهيم النيسابورى ، استتار الامام ، نشر ايفانوف ، مجلة كليـــة الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، ج ٢ ديسمبر ١٩٣٦ ، ص ٩٣ - ١٠٧ .

احمد النائب الأنصارى ، المنهل العـــذب فى تاريخ طرابلس الغرب ، القـــاهرة ، ١٣١٧ هـ .

احمد بن ابى الضياف ، اتحاف أهل الزمان

بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تونس ، ١٩٦٣ .

احمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

ـ جريدة القطر الجزائري ، طبعة كاربونيل ، الجزائر .

ـ المسلمون في صقلية وجنوب ايطاليا .

احمد فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، طبع دار المعارف ، القاهرة . ١٩٣٦ م .

ـ مساجد القاهرة ومدارسها ـ المدخل ، الاسكندرية ، ١٩٦٢ م .

اخبار مجموعة (في فتح الأندلس وذكر امرائها ـ رحمهم الله ـ والحروب الواقعة بهما بينهم) ، نص عربي وترجمة أسبانية بمعرفة لافونت
(E. Lafuente)

مدريد ، ١٨٦٧ .

الادريسي ، كتاب نزهة المشتاق و الجزء الخامس بصفة المغرب وارض السودان ومصر والأندلس) نص عربي وترجمة فرنسية بمعرفة دخويه ودوزى ، ليدن ، ١٨٦٤

الاستبصار : انظر كتاب الاستبصار .

الاصطخري ، كتاب المسالك والممالك ، نشر De Coeje ليدن ، ١٨٧٠ م .

السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، دار المعارف ، لبنان ، ١٩٦٢ م

الطاهر احمد الزاوي ، تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، طبعة دار المعارف بمصر (طبعة أولى) .

اماري
M. Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia

(الطبعة الثانية منقحة ومنشورة بمعرفة كارلو الفونسو نللينو)
Catania, 1935 (Nollino)

ـ المكتبة العربية الصقلية
(Biblioteca Arabo-Sicula... Lipsia, 1855).

انجل جونثالث بالنثيا
Angel Gonzalez Palencia
تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

البارونى ، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية ، مطبعة الأزهار البارونية .

البخاري ، كتاب التاريخ الكبير طبع حيدر آباد الدكن ، ١٣٦١ هـ ، ج ٣ قسم ١ ، قسم ٢ .

بروكلمان Brockelmann
تاريخ الشعوب والدول الاسلاميه ترجمة فرنسية بمعرفة تزروت (M. Tazerout) باريز ١٩٤٩

بروفنسال
E. Lévi Provençal . ١٩٥٤
— Les Historiens de la chorfa, 1923.
-- Histoire de l'Espagne musulmane, Paris, 1944.
(ترجمة عربية في الاسلام في المغرب والأندلس ، بمعرفة السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح حلمي ، الألف كتاب ، رقم ٨٩) .
— Un recueil de lettres officielles Almohades, étude diplomatique......, Paris, 1944.

ـ أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين (مذكرات البيذق) ، نص عربي وترجمة فرنسية تحت عنوان

(documents inédits)

وثائق لم تنشر

باريز ، ١٩٢٨ .

بريبيه

L. Bréhier, Vie et Mort de Byzance, Paris, 1947.

البغدادي (أبو المنصور عبد القاهر بن طاهر ، المتوفى سنة ٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م)، الفرق بين الفرق ، القاهرة ، ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م .

البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ، المتوفى سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٧ م) . كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، جزء من « كتاب المسالك والممالك » ، طبع دسلان (De Slane) الجزائر ، ١٩١١ .

ـ جغرافية الاندلس وأوربا ، تحقيق عبد الرحمن حجي ، طبع بيروت .

بـل

A. Bel, Les Banou Ghania, derniers représentants de l'empire almoravide et leur lutte contre l'empire almohade, 1903.

— La religion musulmane en Beriérie, Esquisse d'histoire et de sociologie religieuse, Paris, 1938.

البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، المتوفى سنة ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م) ، كتاب فتوح البلدان ، طبع ليدن ١٨٦٦ .

البيذق ـ انظر بروفنسال (أخبار المهدي ابن تومرت) .

بيير سنيفال

Pierre de Cenival, le pretendu évéché de la Kalà de Beni Hammad, Hespéris, t 15, année, 1932, Fax, I.

التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن ابراهيم التجاني) ، الرحلة ، تونس ، ١٩٥٨ .

جاسبار ريميرا Gasper Remira

ـ انظر النويري

جروهمان Grohmann (Adolf)

Aperçu de papyrologie arabe (extrait des études de papyrologie, t. I, Le Caire (imp. inst. Fr...), 1932.

الجزنائي (أبو الحسن علي الجزنائي) ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، طبع الفرديل A. Bel الجزائر ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢ م . مع ترجمة فرنسية مصحوبة بالهوامش تحت عنوان

La fleur du Myrte...

Zahrat El-As الجزائر ١٩٢٣

جسل

M.S. Gsell, la tripolitaine et le Sahara au 3èmes ère (extr. mém. Acadé. insc. B. Lettres, t. 43), Paris, 1926.

جمال الدين الشيال ، الصلات الثقافية بين المغرب ومدينة الاسكندرية (في العصر الاسلامي) ، مجلة كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية ، المجلد ١٥ ، سنة ١٩٦١ .

ـ الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور ، الاطلس التاريخي ، المجلة التاريخية ، ١٩٤٩ .

جوتييه

E.F. Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, les siècles obscurs, Paris, 1942.

— Le Sahara, Paris, 1946.

جودفروا ديمومبين
Gaudefroy-Demombynes
Les institutions musulmans, Paris, 1946.

ابن فضل العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (افريقية عدا مصر
L'Afrique moins l'Egypte

Ch. André Julien. Histoire de
ترجمة فرنسية مع مقدمة وحواشي ، باريز ، ١٩٢٧ .

جوزيف نسيم يوسف ، مجتمع الاسكندرية في العصر المسيحي . كتاب مجتمع الاسكندرية ١٩٧٥ .

جوليان Ch. André Julien
l'Afrique du Nord, 1931.

جيار
Gaillard, une ville de l'islam Fès, Paris, 1905.

الحبيب الجنحاني ، المغرب الاسلامي ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية (من ٣ — ٤ هـ/ ٩ — ١٠ م) طبع تونس .

حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ .

حسن حسني عبد الوهاب ، خلاصة تاريخ تونس ، الطبعة الثالثة ، تونس .
— ورقات ، ط. تونس ١٩٦٥ .

حسن سليمان محمود ، ليبيا بين الماضي والحاضر ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .

— فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

حسين نصار ، تقديم نشره عبد المنعم عامر لكتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ، مجلة « المجلة » العدد ٨٠ ، اغسطس (آب) ١٩٦٣ .

الحشائشي : انظر محمد بن عثمان .

ابن حجر (شهاب الدين بن علي العسقلاني . توفي سنة ٨٥٢ هـ/١٤٤٩ م) ، الاصابة في تمييز الصحابة طبعة ١٣٢٨ هـ .

ابن حزم (أبو محمد بن أحمد بن حزم الظاهري — توفي سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م) ، كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل القاهرة ١٣١٧ هـ .

ابن حماد . ابو عبد الله محمد بن علي بن حماد ، توفي سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م .
— اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم . تحقيق فوندرهايدن طبع الجزائر سنة ١٩٢٧ م .

الحميدي . جذوة المقتبس ، مجموعة تراثنا المكتبة الأندلسية . رقم ٣ ط. القاهرة. سنة ١٩٦٦ .

الحميري الروض المعطار في اخبار الاقطار (صفة جزيرة الأندلس) تحقيق بروفنسال . القاهرة ١٩٣٧ م .

ابن حوقل ، صورة الارض ، طبع بيروت (مكتبة دار الحياة) .
— وطبع ليدن بمعرفة دغويه
De Goeje
(المسالك والممالك) ليدن ١٨٩٩ م .

ابن حيان ، أبو مروان بن حيان القرطبي توفي سنة ٤٦٩ هـ/١١٧٦ م .

— المقتبس من أخبار بلد الأندلس ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي (المكتبة الأندلسية) ، بيروت ١٩٦٥ .

— وانظر القطعة التي حققها محمود علي مكي ، طبع دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٧٣ م

ابن حيون أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي، توفي سنة ٣٦٣ هـ/ ٩٤٧ م.

— دعائم الاسلام، تحقيق آصف فيضي القاهرة ١٩٦٣.

— رسالة افتتاح الدعوة، تحقيق وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٠.

ابن خرداذبة وابن الفقيه وابن رسته، صفة المغرب وأوربا في القرن الثالث الهجري/ ٩ م. مستخرجات من كتاب المسالك والممالك وكتاب البلدان وكتاب العلق النفيس، المكتبة العربية الفرنسية تحت اشراف هنري بيريز

(Bibliothèque Arabe-Française H. Pérès

نص عربي وترجمة فرنسية لمحمد حاج صادق، الجزائر، ١٩٤٩، العدد رقم٦

ابن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس، نشر بمعرفة أحمد مختار العبادي، مطبوعات جامعة الاسكندرية، ١٩٥٨ م

— كتاب أعمال الأعلام (الجزء الثالث)، نشر أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني تحت عنوان: المغرب العربي في العصر الوسيط، طبعة الدار البيضاء، ١٩٦٤.

ابن خلدون المقدمة (مقدمة كتاب العبر المشهورة بمقدمة ابن خلدون)، طبعة التجارية، القاهرة.

— كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٧ أجزاء، طبع القاهرة.

— الترجمة الفرنسية للقسم الخاص بالمغرب بمعرفة دسلان

(De Slane). Histoire des berbères et des Dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale, Paris, 1925 (t. 1 et 2).

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد ابن ابراهيم بن أبي بكر الشافعي، المتوفى سنة ٦٨١ هـ/١٢٨١ م، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، طبعة محيي الدين عبد الحميد.

خليفة بن خياط، توفي سنة ٢٤٠ هـ/ ٨٥١ م.

— تاريخ خليفة بن خياط، نشر أكرم العمري، في جزئين، بغداد ١٩٦٨.

الدباغ (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري، ٦٠٥ ـ ٦٩٦ هـ)، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، في جزئين، تونس، ١٣٢٠ هـ.

الدرجيني، أبو العباس أحمد، من رجال القرن السابع الهجرة/١٣ م.

— طبقات الاباضية، مخطوط دار الكتب المصرية (رقم ١٢٥٦١ ح مصورة عن المخطوط الأصل رقم ٢٦١١٢ تاريخ تيمور).

— طبعة الجزائر بمعرفة ابراهيم طلاي، البليدة، ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م.

دسبوا

J. Despois, Le Djebel Nefousa, Paris, 1935.

— La Tuinise orientale, Paris, 1940.

دوزي

R. Dozy, Histoire des musulmanes d'Espagne, Leyden, (1932 (t. 1).

(ترجم الجزء الأول الى العربية بمعرفة حسن حبشي تحت عنوان: تاريخ مسلمي اسبانيا، القاهرة).

ديل

Ch. Diehl et G. Marçais, Le monde oriental, de 365 à 1081, Paris, 1944.

(الجزء الثالث من مجموعة التاريخ العام
— جلوتز Glotz — قسم العصور
الوسطى) .

الذهبي ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ،
سنة القاهرة ١٩٦٣ ، ج ٣ .

ريسلر
Risler, la civilisation arabe, Paris, 1955.

الرقيق (ابراهيم بن القاسم ، توفى بعد سنة
٤١٧ هـ/١٠٢٦ م) ، تاريخ افريقية
والمغرب ، تحقيق المنجي الكعبي ، طبع
تونس ، ١٩٦٧ .
— قطب السرور في أوصاف الخمور ،
تحقيق أحمد الجندي .

الزاوي — انظر الطاهر أحمد

الزهري ، كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد
حاج صادق ، مجلة الدراسات الشرقية
للمعهد الفرنسي بدمشق ، ١٩٦٨ .

السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، طبعة
١٣٢٤ هـ ، ج ١ .

سلريه
J. Célerier, Le Maroc (Coll. L'union Française), Paris, 1948.
— Les conditions géographiques de développement de Fès, Hespéris, t. 19, année 1934. Fasc. 1-2.

سعد زغلول عبد الحميد ، فتح العرب للمغرب
بين الحقيقة التاريخية والأسطورة
الشعبية ، مجلة كلية الآداب
بالاسكندرية ، ١٩٦٣ م .
— موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين
في افريقية ونقلتهم الى مصر ، مجلة
كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية ،
بنغازى ، ١٩٥٨ م .
— ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها
الجغرافيون والرحالة المغاربة ، مجلة
كلية الآداب ، اسكندرية ، ١٩٥٤ .
— تاريخ الاسكندرية من الفتح العربي الى
قيام الفاطميين ، في كتاب تاريخ
الاسكندرية منذ أقدم العصور ،
الاسكندرية ، ١٩٥٤ .

— العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف
يعقوب المنصور الموحدي ، مجلة كلية
الآداب ، اسكندرية ، ١٩٥٣ .
— انظر كتاب الاستبصار .
— فتوح المغرب والأندلس في رواية ابن
عبد الحكم ، بحث في كتاب « دراسات
عن ابن عبد الحكم » ، المكتبة العربية ،
ط . وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٥ ،
ص ١٥٣ — ١٩٦ .

— أهمية ابن تغرى بردي لتاريخ المغرب
والأندلس ، بحث في كتاب « المؤرخ ابن
تغرى بردى » ، مجموعة المكتبة العربية ،
ط . وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٧٤ .
— الأثر المغربي والأندلسي في المجتمع
السكندري ، كتاب تاريخ المجتمع
الاسكندري ، طبع جامعة الاسكندرية
١٩٧٥ .
— هامش على مصادر تاريخ الاباضية في
المغرب ، دراسة لكتاب السير للوسياني ،
مطبوعات الجامعة التونسية ، مركز

الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ،
اشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي
وحضارته ، ج ١ ، سلسلة الدراسات
التاريخية (من ص ٥١ — ٩٦) .

ابن سعيد ، علي بن موسى ، توفى سنة
٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م .
— كتاب الجغرافيا ، طبع بيروت

السلاوي ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ،
طبعة الدار البيضاء .

سليمان البارونى ، الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الاباضية .

سيدة اسماعيل الكاشف ، مصادر التاريخ الاسلامى ومناهج البحث فيه ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

— مصر فى فجر الاسلام (من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية) ، القاهرة ١٩٤٧ .

شميرة ، انظر محمد عبد الهادى .

الشهرستانى (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، المتوفى سنة ٥٤٨ هـ/١١٥٣ م) الملل والنحل طبعة ليبزج ١٩٢٣ م .

ابن الصغير أخبار الأئمة الرستميين نشر وترجمة موتيلينسكى
Chronique d'Ibn Saghir sur les Imams Rostenides de Tahert, éd. et trad. par Motylinswki, dans Actes du 14e Congrès des Orientalistes, 3e partie, 1907

الطبرى تاريخ الأمم والملوك طبعة القاهرة ، ١٣٥٨ — ١٩٣٩ وطبعة اوربا ، وطبعة ذخائر العرب ٥ ج .

ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشى المصرى) فتوح مصر والمغرب والأندلس ، نشر شارل تورى (Torrey) طبعة ليدن ، ١٩٢٠ .

— نشرة جزئية مع ترجمة فرنسية بمعرفة جاتو (Gateau) فى مجموعة (المكتبة العربية الفرنسية) طبعة الجزائر ، ١٩٤٨ .

— نشرة جزئية بمعرفة ماسيه (H. Massé) ، القاهرة ١٩١٤ .

— نشرة جزئية حديثة بمعرفة عبد المنعم عامر ، القاهرة .

عبد الحميد العبادى ، المجمل فى تاريخ الأندلس القاهرة ، ١٩٥٨ .

عبد السلام بن سوده ، دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، تطوان ، ١٩٥٠ .

عبد العزيز الدورى ، علم التاريخ عند العرب ، بيروت ، ١٩٦٠ .

عبد العزيز طريح شرف ، جغرافية ليبيا الاسكندرية ، ١٩٦٣ .

عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى للدولة العربية ، طبعة ١٩٦٠ م .

— مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

— ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر (التاريخ السياسى) ، طبع دار المعارف ، الاسكندرية ١٩٧٧ (طبعة ثانية) .

عبد الهادى التازى ، الامام داود بن ادريس (من خلال الوثائق التاريخية) ، مجلة كلية الآداب — جامعة الاسكندرية ، المجلد ١٥ ، سنة ١٩٦١ .

— جامع القرويين بفاس ، رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة ، قدمت لجامعة الاسكندرية سنة ١٩٧١ .

عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، طبعة مصر ، ١٣٢٤ هـ .

عبيد الله بن صالح ، انظر بروفنسال ، نصوص جديدة .

ابن عذارى المراكشى (أبو عبد الله محمد) ، البيان المغرب فى أخبار المغرب ، نشر وتحقيق كولان وبروفنسال ، ليدن ١٩٤٨ (نشر دوزى ، وطبعة بيروت ، ٢ ج) .

عزيز أحمد ، تاريخ صقلية الاسلامية ، بالانجليزية ، طبع ادنبره ١٩٧٥ .

على يحيى معمر ، الاباضية فى موكب التاريخ — الجزء الأول ، فى : نشأة المذهب

الاباضي ، طبع القاهرة ، اكتوبر ١٩٦٤م
ـ الجزء الثاني ، في : الاباضــية في ليبيا ، طبع القاهرة ، اغسطس ١٩٦٤ م

علوش
I.S. Allouche, deux épitres de théologie abadite, Hespéris (22 année, 1936, Facs. I).

العمري ، مسالك الابصار في ممالك الامصار ، طبعة دار الكتب ، ١٣٤٢ هـ /١٩٢٤ م (ج ١) .
ـ ترجمة جزئية خاصة ببلاد المغــرب والسودان ، بالفرنسية ، باريز ، ١٩٢٧
انظر جودفروا ديمومبين
(Gaudefroy-Demombynes)

العياشي ، الرحلة ، مخطوط طرابلس ، مكتبة الأوقاف حزانة ص ـ ر ـ رقم ٣٤٠ ، (ج ٢) .
ـ طبع حجر فاس .

عياض ، ابو الفضل بن موسى اليحصبي السبتي ، توفي ٤٦٧ هـ/١٠٨٣ م .
ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة اعلام مذهب مالك ، طبع بيروت ١٩٦٥ .
ـ تراجم أغلبيــة مستخرجة من مدارك القاضي عياض ، تحقيق محمد الطالبي ، طبع تونس ١٩٦٨ .

الغبريني ، أحمد بن أحمد ، توفي سنة ٧١٤ هـ/١٣١٥ م .
ـ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، نشر عادل نويهض ، طبع بيروت ، ١٩٦٩ .

ابن غلبون (ارتحل الى الأزهر وعاد الى بلده مصراتة سنة ١١٣٣ هـ) ، كتاب التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار .
ـ نشر الطاهر أحمد الزاوي ، القاهرة ، ١٣٤٩ هـ .

ابن الفقيه (ابو بكر أحمد بن محمد الهمداني)
كتاب البلدان ، طبع ليدن ١٨٨٥ م .

فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية منذ ظهــور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٨ م .

فورنل
H. Fournel, Etude sur la conquête de l'Afrique par les arabes..., Paris, 1857.

فونلرهايدن ، الأغالبة ، بالفرنسية .

فيركوتية
J. Vercoutter, L'Egypte ancienne (Coll. que Sais — je?), Paris, 1947.

فيشل
W.J. Fischel, Ibn Khaldun and Tamerlane, Berkeley, Los Angeles, 1952.

القرطاس ، انظر ابن ابي زرع .

ابن القاضي ، جذوة الاقتباس في أعلام مدينة فاس ، طبع حجر ١٣٠٩ هـ .

ابن قتيبة (ابو محمد عبد الله بن مسلم ، المتوفي سنة ٢٧٦ هـ/٨٨٩ م) ، الامامة والسياسة ، في جزئين ، طبعة القاهرة ، ١٣٢٨ هـ .
ـ القسم الخاص بفتح الأندلس ، من ملاحق كتاب افتتاح الأندلس لابن القوطية ، طبعة مدريد ، ١٨٦٨ م .

القلقشندي (ابو العباس احمد ، المتوفي سنة ٨٢١ هـ/١١٨ م) ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، طبع القاهرة ، ١٩١٣ .

ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس طبعة مدريد ، ١٨٦٨ ـ نص عربي وترجمة

اسبانية بمعرفة ريبيرا ، (طبعة بيروت بمعرفة عبد الله أليس الطباع) .

كانيا
R. Cagnat, Le frontière militaire de la tripolitaine à l'époque romaine, Paris, 1912.

كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار (وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب والسودان ـ ق ٦ هـ (١٢ م) ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ، مطبوعات جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ ،

كتاب السياسة في تدبير الرياسة ، في الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الاسلام ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٥٤ .

كتاب العيون والحدائق ، ج ٣ ، طبعة ليدن ، ١٨٧١ م .

ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، تحقيق مختار العبادي ، طبع مدريد ١٩٧١ .

كريسويل ، العمارة الاسلامية المبكرة ، طبعة بيكان ، بالانجليزية .

الكندي (ابو عمر محمد بن يوسف الكندي ، المتوفى سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م) ، كتاب الولاة والقضاة ، نشر رفن جست
Rhuven Guest, طبعة بيروت ، ١٩٠٨ ، مع مقدمة بالانجليزية ، طبعة ليدن ، ١٩١٢ .

(W.D. Cooley)، بلاد السودان العربية، بالانجليزية ، لندن ١٩٦٦ .

لارنود
H. Larnaude, Algérie (Coll. L'union française), Paris, 1950

لاوست
E. Laoust, L'habitation des transhumants du Maroc central, Hespéris t. 14, 1932, Fasc. 2.

المالكي (ابو بكر عبد الله بن أبي عبد الله ـ رعى حوالي منتصف القرن الخامس الهجري : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم نشر حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥١ م .

مارتينو ماريو مورينو ، المسلمون في صقلية .

و. مارسيه
W. Marçais, un siècle de recherches sur le passé de l'Algérie musulmane (R.H., 1931).

ج. مارسيه
G. Marçais, La berbérie musulmane et l'orient au moyen âge, Paris, 1946.

ـ المجمل في الفن الاسلامي (بالفرنسية، طبع لاروس .

ـ أنظر شارل ديل وجورج مارسيه .

ج. ماركي
Gè Marcy, Le dieu des abadites et des Bargwata, Hespéris, t. 22, année 1936, Fasc. 1.

الماوردي (أبو الحسن علي بن حبيب البصري المتوفى سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٧ م) الأحكام السلطانية ، طبعة القاهرة ١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م .

مبارك بن محمد الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، جزءان ، الجزائر ١٣٥ هـ .

محمد بن محمد اليماني ، سيرة الحاجب جعفر ابن علي وخروج المهدي صلوات الله عليه وآله الطاهرين من سلمية ووصوله الى سجلماسة وخروجه منها الى رقادة ، نشر ايفانوف ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الرابع ج ٢ ديسمبر ١٩٣٦ ، ص ١٠٧ — ١٣٢ .

محمد طالبي ، عن الأغالبة في تاريخ تونس — العصر الوسيط ، بالفرنسية ، باريس ١٩٦٦ .

— أنظر تراجم أغلبية .

محمد الطيب بن احمد ادريس الأشهب ، برقة العربية أمس واليوم، القاهرة ١٩٤٥ .

محمد عبد المنعم الشرقاوي ومحمد محمود الصياد ، ملامح المغرب العربي ، اسكندرية ، سنة ١٩٥٩ .

محمد القادري ، نشر المثاني (ترجمة فرنسية بمعرفة
Ed. Michaux-Bellaire, archives Mars Caines, Paris, 1917, Vol. 24.

محمد بن عثمان الحشائشي (التونسي ، توفي ١٣٤٠ هـ) ، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ، نسخه بالآلة الكاتبة عن مكتبة حسن حسني عبد الوهاب بتونس ، مكتبة بلدية الاسكندرية ، رقم ٢٥٩١ ب .

محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام في الأندلس من الفتح الى نهاية مملكة غرناطة ، القاهرة ، ١٣٦٢ هـ/١٩٤٣ م .

— ابن خلدون (حياته وتراثه الفكري) ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٣ م .

محمد عبد الهادي شعيرة (بالاشتراك) ، تاريخ ليبيا والعالم الاسلامي ، طبعة القاهرة ، ١٩٦٢ م .

— الصراع بين العرب والبيزنطيين (بالفرنسية) .
La lutte entre arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947.

— ليبيا ، الاسم ومدلولاته التاريخية ، مجلة كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية ببنغازي ، المجلد الأول سنة ١٩٥٨ .

— تقسيمات اقليمية في العصر العباسي الأول ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٤٤ .

— المرابطون : تاريخهم السياسي (٤٣٠ — ٥٣٩ هـ) ، طبع القاهرة طبعة اولى ١٩٦٩ .

محمد علي دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ، ج ٢

المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، المتوفى سنة ٣٤٥ هـ/٩٥٦ م) .
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، طبعة التجارية ، ١٣٧٧ هـ/١٩٥٨ م .

مصطفى محمد مسعد ، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ، طبع القاهرة ١٩٦٠ .

مصطفى عبد الله بعيو ، المجمل في تاريخ لوبيا من أقدم العصور الى العصر الحاضر ، الاسكندرية ، ١٩٤٧ .

مصطفى كمال عبد العليم ، يهود الاسكندرية في عصر البطالمة والرومان ، كتاب مجتمع الاسكندرية عبر العصور ، طبع جامعة الاسكندرية ١٩٧٥ .

مصعب الزبيري ، كتاب نسب قريش ، تحقيق بروفنسال ، سلسلة ذخائر العرب ، القاهرة ، ١٩٥٤ م .

المقدسي ، أحسن التقاسيم ، طبع بريل ١٩٠٦ .

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م) ، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، جزءان .

— اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء ، نشر وتحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ م .

ميشو

M.E. Michaux, Conférences au Cours préparatoires de services des affaires indigènes, archives Marocaines, Vol. 27.

نجيب ميخائيل ، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ١ مصر طبعة ١٩٦٣ م ·

نص جديد عند فتح العرب للمغرب ـ انظر بروفنسال ·

النافي النعمان ، انظر ابن حيون ·

النويري (شهاب الدين أحمد المتوفى سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م) ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، الجزء الخاص بتاريخ المغرب والأندلس ، مخطوط مصور ، مكتبة كلية

الآداب جامعة الاسكندرية رقم ٢٢ م ·

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام ابن أيوب الحميري ـ توفى سنة ٢١٨ هـ /٨٣٤ م) ، السيرة النبوية ، ٤ أجزاء ، تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي ، مصر ، ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٦ م ·

هوبالك

P. Hulac, Tunisie (Coll. L'union française, Paris, 1918).

هيرودوت

Herodotus, The histories (the penguin classics), 1935 (Book 3)

الواقدي فتوح افريقية ، طبعة تونس ١٣١٥ ، (مخطوط المتحف البريطاني القسم العربي ، رقم
Add. 9572

ـ كتاب قصة البهنسا وما فيها من أصحاب الله عليهم أجمعين ، مصر ١٢٧٨ هـ (ومخطوط مدرسة اللغات الشرقية بلندن والمراتب وما وقع للصحابة فيها سوى فتح البهنسة والفيوم ـ القسم العربي، ٢٦٢٨٦) ·

ـ فتوح مصر والاسكندرية ، طبعة ليدن ١٨٢٥ ·

الورجلاني (أبو يعقوب بن ابراهيم) كتاب الدليل لأهل العقول ، القاهرة ، طبع حجر ·

الوسياني ، أبو الربيع سليمان بن عبد السلام من رجال القرن السادس الهجري/١٢ م ـ كتاب السير ، مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ح/٩١١٣ ·

وهب بن منبه ، كتاب التيجان في ملوك حمير ، ط· حيدر اباد الدكن ، ١٣٤٧ هـ ·

ياقوت ، (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت ابن عبد الله الحموي الرومي البغدادي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م) ، معجم البلدان ، طبع القاهرة ، ١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٦ م ·

اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ، توفى سنة ٢٨٤ هـ/ ٩٨٧) ، تاريخ اليعقوبي ، ٢ ج ، ليدن ١٨٨٣ م ·

ـ كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩٢ م ·

الفهرس

أسماء الأشخاص والقبائل والجماعات

أبو العباس بن علي : ٢٧٣ .

(ر)

(ز)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ن)

ب – الأماكن

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ز)

(س)

(ش)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

رقم الايداع بدار الكتب ٥٢٥٨/ ١٩٩٣
الترقيم الدولي ٩ ــ ٢٠ ــ ٧٣٠٧ ــ ٩٧٧

